جائزة غونكور
2013

إلى اللقاء في الأعالي

بيير لوميتر

مكتبة

ترجمة:
حنان قصاب حسن

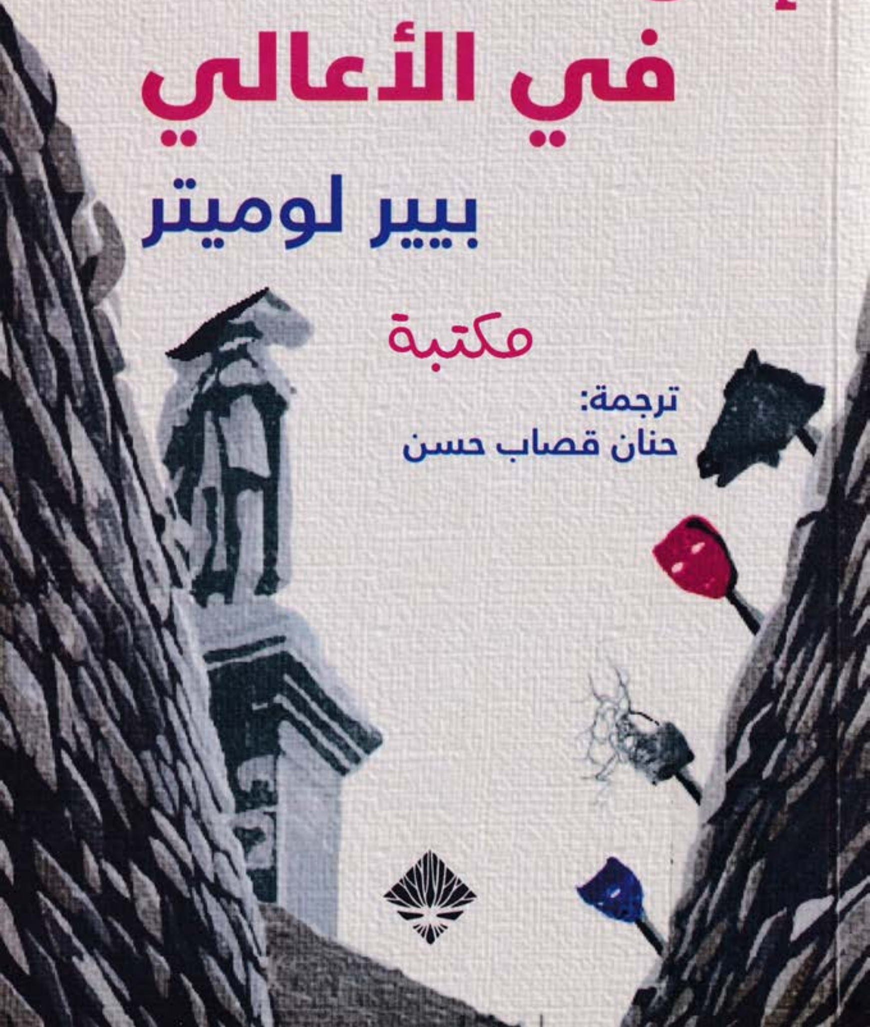

سجل في مكتبة
اضغط! الصفحة
SCAN QR

إلى اللقاء في
الأعالي

دار ممدوح عدوان للنشر والتوزيع

إلى اللقاء في الأعالي - رواية

تأليف: بيير لوميتر

ترجمتها عن الفرنسية: حنان قصاب حسن

Au revoir là-haut

Pierre Lemaitre

تصميم الغلاف: قهوة غرافيكس

ISBN: 7 - 01 - 701 - 9933 - 978

الطبعة الأولى: 2024

مكتبة

t.me/soramnqraa

دار ممدوح عدوان للنشر والتوزيع

سوريا - دمشق - ص ب: / 9838/

الإمارات العربية المتحدة، الشارقة، مدينة الشارقة للنشر - المنطقة الحرة، مركز الأعمال.

هاتف-فاكس: / 6133856/ 11 00963

جوال: 00971557195187

البريد الإلكتروني: addar@mamdouhadwan.net

الموقع الإلكتروني: addar.mamdouhadwan.net

twitter.com /AdwanPH fb.com /Adwan.Publishing.House

instagram.com /mamdouh_adwan_publishing_house /

© Éditions Albin Michel - Paris 2013

بيير لوميتر

مكتبة
t.me/soramnqraa

إلى اللقاء في الأعالي

رواية

ترجمتها عن الفرنسية:

حنان قصاب حسن

مكتبة
t.me/soramnqraa

مقدّمة المُترجمة

التصدّي لترجمة رواية بيير لوميتر «إلى اللقاء في الأعالي» متعةٌ كبيرةٌ لها طعم التحدّي؛ فالرواية أشبه بجداريّةٍ واسعةٍ تتألّف أبعادها من صورٍ متنوّعةٍ: منها ما هو واقعيّ تماماً وله مرجعيّته التاريخيّة، ومنها ما هو ثمرة خيالٍ جامحٍ لا يخلو من المبالغة حين يرسم عوالمَ يمتزج فيها الواقع بالغرابة المثيرة والممتعة.

في أحداث هذه الرواية ما يجعل منها روايةً تاريخيّةً توثيقيّةً؛ لأنّها تعرض وقائعَ حقيقيّةً حصلت بالفعل في مرحلةٍ مهمّةٍ من تاريخ فرنسا في الأيام الأخيرة من الحرب العالميّة الأولى وما تلاها، وفي الوقت ذاته تجعلها حبكتها المشوِّقة والمتوثِّبة تنتمي إلى نوع الرواية البوليسيّة التي تعرض وقائعَ متشابكةً، وهويّاتٍ متراكبةً، وشخصيّاتٍ مُنتحلةً وراء أقنعةٍ ملموسةٍ، أو مجازيّة. والقارئ في كل ذلك يستمتع ويتفاجأ وينفعل؛ ثمّ يجد نفسه متورّطاً في الحدث حين يخاطبه الراوي حول مجريات الأمور، فيخلق معه ذلك التواطؤ الجميل الذي يُمتّع ويُدهش.

الحدث في الرواية ينعقد في حبكةٍ متوثّبةٍ لا تكاد تهدأ وتتلاشى في خطٍّ من الخطوط حتّى تقفز من جديد في اتّجاهاتٍ مفاجئةٍ لا تخطر

على بال، فتشدّ القارئ بإيقاعها السريع المتوفّز، وتثير فضولَه بتفاصيلها المُستمدّة من خيالٍ خصبٍ يصل إلى أقصى حالات التطرّف، ثمّ يصبح ممكناً معقولاً حين ينساق في حوارٍ عفويٍّ وطبيعيٍّ يجعل القارئ يتابع ويطلب المزيد.

تنتمي شخصيّات الرواية إلى طبقاتٍ مختلفةٍ ممّا كان يشكّل المجتمع الفرنسي في مطلع القرن العشرين؛ فنحن نجد فيها الجنود والضبّاط وكبار المسؤولين في الدولة وصغار الموظّفين، كما نتعرّف في جنباتها على الصناعيّين الأغنياء، ومديري الفنادق، وأعضاء النوادي الفخمة، والنساء البرجوازيّات، والخادمات الجميلات، والأمّهات صعبات المراس، والأخوات المحبّات، وعمّال دفن موتى من جنسيّاتٍ مختلفةٍ، بينهم صينيّون، وسنغاليّون، ومغاربة. لا بل يذهب المؤلّف في محاكاة الواقع إلى درجة إدراج أسماء بعض رؤساء المجالس ورؤساء الجمهوريّة في فرنسا داخل الحدث؛ إضافةً إلى ذكر أسماء شخصيّاتٍ مستمدّةٍ من رواياتٍ معروفةٍ يُشير إليها المؤلّف كمصدر إلهام، ويستوحي من مواضيعها وشخصيّاتها ما يقترب من حالة «التناص» بما فيها من جمالٍ ومتعة.

هذا التنوّع يخلق سياقاتٍ ثقافيّةً لا يمكن إدراكها إلّا بشروحاتٍ في أسفل الصفحات جهدنا لأن تكون قليلة، كما أنّه يفرض مستوياتٍ لغويّةً مختلفةً تتطلّب من المترجم جهداً إضافيّاً في نقلها إلى اللّغة العربيّة، وهو أمرٌ لا يخلو من الصعوبة.

لا تنبع الصعوبة فقط من خصوصيّة مفردات الحرب والمعارك، وهي كثيرة في الجزء الأوّل من الرواية، لكنّها تتأتّى أيضاً من انسياب بعض مقاطع النصّ على شكل تداعياتٍ تتشابك في الذهن بدون أن يحكمها

منطق، فلا يمكن ترجمتها إلّا بالتدفّق نفسه، ولو أتى ذلك على حساب بنية الجمل التقليديّة. ناهيك عن طبيعة لغة الجنود التي يجب أن تعكس ضيقهم ونفاد صبرهم، وهُم ينتظرون التسريح، وتلهّفهم، وهُم يتحضّرون للسفر بالقطار الذي لا يصل، وشوقهم إلى الأهل، وخوفهم من مستقبلٍ بلا عملٍ بعد انتهاء الحرب. وحين تكون المقاطع وصفاً لساحات القتال، يكون على المترجم أن ينقل صرخاتهم ولعناتهم الممزوجة بالرعب، وهُم يخوضون المعركة المجنونة.

لا يتحدّث الجنود بلغةٍ أنيقةٍ صحيحة، بل يشتمون، ويصرخون، ويخافون، ويتألّمون... وهذا البُعد الإنساني لا يمكن التغافل عنه، والمترجم مُلزمٌ بالحفاظ عليه، وعدم تغييره ونقل روحه حتّى لو كان عليه في بعض الأحيان أن يخفّف الشتائم النابية التي تنطلق من صميم القلب في النص الأصلي ويأتي بدلاً عنها بألفاظٍ مقبولةٍ اجتماعياً ولغوياً في النص المُترجم، كما أنّه في نقل بعض التعابير المحليّة من الفرنسيّة المحكيّة إلى العربيّة يمكن أن يعثر على ما يماثلها إلى حدّ التطابق في العاميّة المستخدمة في إحدى المناطق الناطقة بالعربيّة، لكنّها يمكن ألّا تكون مفهومةً من أهل المناطق الأخرى، يغريه مثلاً أن يترجم جملة C'est que ça coûte bonbon بأنّ الأمر يكلّف فوق السعر «سكّرة» كما يقول تجار دمشق؛ وفي ذلك تطابقٌ كاملٌ في المعنى بين اللّغتين، لكن ذلك يعني ألّا يفهم المعنى قارئٌ في المغرب، أو السودان، أو اليمن. كما أنّه يستطيع أن يأتي بالمعنى الحرفي لتعبير «le haut du panier» عند الحديث عن كبار القوم، فيترجمه بجملة أنّهم يشكّلون «وجه السحارة»... لكنّه يضطرّ مرغماً لمحو التعبير واستبدال آخرَ به من اللّغة الفصحى أقلّ تلوّناً ليكون مفهوماً من الجميع.

يعرف المترجم كل ذلك، ويدرك ضرورة أن تكون ترجمته مفهومةً من جميع الناطقين بالعربيّة؛ ولذا يقرأ، ويسأل، ويبحث، ويفكّر، ويستبدل كلمة بأخرى حتّى يصل إلى التعبير الأقرب من سياق النص الذي يترجم منه بدون أن يخون بنية اللّغة التي يترجم إليها، وبدون أن يفقد النص الذي يترجمه حرارة النص الأصلي.

لكنّ المترجم ليس مجرّد حِرفيٍّ ينتقل من لغةٍ إلى أخرى؛ إنّه قارئٌ أيضاً وأوّلاً، وهو يكتشف العمل الذي يقوم بالترجمة عنه مثل أيّ قارئٍ آخر، بفضولٍ ومتعة. ومن الضروري أن يحافظ في ترجمته النهائيّة على حرارة تلك القراءة الأولى؛ وأن يحقّق التوازن بين الدقة في الترجمة والمتعة في نقل تلوّنات المعنى بسياقاته المختلفة باختلاف البلاد.

المترجم قارئ، وأمام رواية «إلى اللقاء في الأعالي» لا يستطيع سوى أن يضحك من قلبه، وهو يترجم بعض المواضع، ويندهش لدرجة تسارع دقّات قلبه في مواضع أخرى، ويتألّم لدرجة البكاء عندما تقترب النهاية... وانفعالاته هذه هي التي يجب أن تأتي في النص المترجم؛ وهي التي تجعله حيّاً، وحيويّاً، ومؤثّراً، تماماً كما أراد بيير لوميتر لنصّه أن يكون.

أرجو أن أكون قد توصّلت إلى ذلك في هذه الترجمة...

حنان قصاب حسن

إلى باسكالين

ولابني فيكتور

مع مودتي

«موعدنا في السماء

حيث أتمنى أن يجمعنا الرّب.

إلى اللّقاء في الأعالي، يا زوجتي العزيزة...»

الكلمات الأخيرة التي كتبها جان بلانشار

في الرابع من ديسمبر 1914

نوفمبر 1918

1

أولئك الذين كانوا يعتقدون أنّ هذه الحرب يمكن أن تنتهي قريباً ماتوا كلّهم من فترة طويلة. وماتوا بسبب الحرب. وهكذا، في شهر أكتوبر، سمع ألبير شائعاتٍ عن اقتراب هدنة، فتلقّى الأمر بكثيرٍ من الشك. لم يهتمّ بها، تماماً كما لم يهتمّ بالدعايات التي راجت في البداية، وأفادت على سبيل المثال: بأنّ رصاصات البوش[1] رخوةٌ إلى درجة أنّها تنسحق كلّها مثل إجاصات لزجة على البِدَل العسكريّة، مثيرةً بذلك -لدى الأفواج الفرنسيّة- ضحكاتٍ مجلجلة. وقد رأى ألبير على مدى أربع سنوات رزمةً كاملةً منهم؛ من هؤلاء الأشخاص الذين ماتوا من الضحك وهُم يتلقّون رصاصةً ألمانيّة.

كان واعياً تماماً أنّ رفضه تصديق اقتراب هدنةٍ ضرب من السحر: فكلّما ازداد الأمل بالسلام، نالت الأخبار التي تُعلن عنه مصداقيّةً أقلّ، كأنّها طريقةٌ لاتّقاء الحظّ السيّئ. لكنْ ما حصل هو أنّ هذه المعلومات

---

(1) البوش Boches: هي تسمية انتقاصيّة كان الفرنسيّون يطلقونها على الألمان والجنود الألمان منذ الحرب الفرنسيّة الألمانية عام 1870، واستمرّت خلال الحربين العالميّتين: الأولى، والثانية. ستستعمل هذه التسمية على لسان الشخصيّات في الرواية باستمرار. (المترجمة).

صارت تَرِدُ يوماً بعد يوم، وعلى شكل موجاتٍ تتوالى وتتزايد سرعةً. ومن جميع الجهات، راح الجميع يكرّرون فكرة أنّ الحرب على وشك الانتهاء بالفعل. تخيّل أنّ هناك من وصل إلى إلقاء خطاباتٍ عن ضرورة تسريح الجنود الأكبر سنّاً الذين بقوا طيلة سنواتٍ يتنقّلون بلا جدوى في جبهات القتال. وعندما راحت الهدنة تلوح أخيراً في الأفق، بدأ الأمل بالخروج منها على قيد الحياة يراود أفكار أكثر الناس تشاؤماً؛ نتيجة لذلك، لم يعد هناك من يتحمّس كثيراً للهجوم. هناك من قال: إنّ فرقة المشاة 163e DI الفرنسيّة ستحاول المرور عنوةً من الجهة الثانية لنهر الموز. وهناك من كان لا يزال يتحدّث عن تكسير رأس العدو. لكن على نحوٍ إجماليّ، وإن نظرنا إلى الأمر من أسفل السلّم؛ أي: من جهة ألبير ورفاقه، فإنّ الشعور السائد كان أقلّ حماساً ممّا لدى الضبّاط منذ انتصار الحلفاء في منطقة فلاندر، وتحرير مدينة ليل، وهزيمة النمساويّين، واستسلام الأتراك. ثمّ جاء نجاح الهجوم الإيطالي، ودخول الإنجليز إلى تورنيه، والأمريكان إلى شاتيون... كان واضحاً أنّ النتيجة المطلوبة تحقّقت؛ ولذلك بدأ القسم الأكبر من الفرقة يماطل، وصار من الممكن ملاحظة وجود خطٍّ فاصلٍ واضحٍ بين أولئك الذين كانوا مثل ألبير يفضّلون انتظار نهاية الحرب، وهُم جالسون بهدوءٍ مع كلّ عتادهم، يدخّنون ويكتبون الرسائل، وبين أولئك الذين كانوا يتحرّقون للاستفادة من الأيّام الأخيرة لكي يتابعوا عمليّة كسر العظام مع البوش.

هذا الخطّ الفاصل هو تماماً ما يفصل الضبّاط عن بقيّة الرجال كلّهم. قال ألبير في سرّه: «لا جديد في الأمر، الرؤساء يريدون ربح أكبر قدرٍ ممكنٍ من الأراضي ليكونوا في موقع القوّة عند الجلوس إلى طاولة المفاوضات؛ ولم يبق إلّا أن نراهم يدعمون فكرة أنّ كسب ثلاثين متراً إضافيّةً يمكن

بالفعل أن يغيّر نتيجة الصراع، وأنّ الموت اليوم سيكون أكثر فائدةً من الموت في النهار الذي قبله».

إلى هذه الفئة كان ينتمي الملازم دولني- براديل. كان الجميع حين يتحدّثون عنه يُسقطون اسمه الأوّل وكلمة «دو» التي تدلّ على الانتماء، واسم «أولني»، والخطّ الصغير الفاصل بين الاسمين، ويقولون ببساطة: «براديل». كانوا يعرفون أنّ ذلك يجعله يفرقع. كانوا يلعبون على المضمون لأنّه يجهد لعدم إظهار ذلك على الإطلاق حفاظاً على شرفه. كان ذلك ردّ فعل «ابن الأكابر». لم يكن ألبير يحبّه. ربّما لأنّه كان جميلاً، وطويل القامة، ونحيلاً، وأنيقاً. شعره كثيفٌ متموّجٌ، ولونه بنيٌّ غامق. أنفه مستقيمٌ، وشفاهه رقيقةٌ مرسومةٌ على نحوٍ رائع، وعيناه بلونٍ أزرق غامق؛ أمّا بالنسبة إلى ألبير، فكان يبدو على درجةٍ فائقةٍ من البشاعة، وفوقها تظهر عليه أمارات الغضب على نحوٍ دائم. شابٌّ من النوع النزق الذي لا يعرف ما هو الإيقاع الطبيعي، فإمّا أن يسرع الخطى، وإمّا أن يكبح جماح حركته، وما بينهما لا شيء. يتقدّم مائلاً بكتفه نحو الأمام كما لو كان يريد إبعاد قطع الأثاث بها، أو ينقضّ عليك بكامل سرعته، ثمّ يجلس فجأة. كان ذلك إيقاعه المعتاد. وممّا يثير الفضول فيه، هذا المزيج من مظهرٍ أرستقراطيٍّ يوحي بأنّه إنسانٌ غاية في التحضّر، لكنه في أعماقه شديد الجلافة. كان نوعاً ما يشبه هذه الحرب. ربّما ذاك هو السبب في كونه يتعايش معها على نحوٍ جيّد. إضافةً إلى كل ذلك كانت لديه تلك الأكتاف العريضة التي تتشكّل من التجديف حتماً، أو من لعب التنس.

ما لم يكن يحبّه ألبير أيضاً هو ذلك الشعر الكثيف على جسم براديل. شعر أسْود في كل مكان حتّى على سلاميّات الأصابع، مع كتلةٍ من الشعر

تخرج من الرقبة تحت موضع تفّاحة آدم تماماً. لا شكّ في أنّه كان في زمن السلْم يحلق شعره عدّة مرّات في النهار حتّى لا تظهر عليه تلك الهيئة المريبة. هناك حتماً نساء يؤثّر عليهنّ منظر ذلك الشعر الكثيف، وتلك الهيئة الذكوريّة الوحشيّة والرجوليّة مع مسحةٍ إسبانيّةٍ خفيفة. لا شيء ممّا كانت سيسيل.... لكن... حتّى بدون أن يتحدّث عن سيسيل، كان ألبير لا يستطيع تحمّله، تحمّل هذا الملازم براديل. وكان يحذر منه على الأخص لأنّه يحبّ أن يلقّم بندقيّته. يعجبه بالفعل أن يتحضّر للهجوم، ويهاجم، ويسيطر.

وبالفعل، منذ بعض الوقت بدا أقلّ حيويّةً من المعتاد. من الواضح أنّ فكرة حصول هدنةٍ جعلت معنويّاته تهبط إلى درجة الصفر، وقطعت اندفاعته الوطنيّة. فكرة نهاية الحرب كانت تقتله، هذا الملازم براديل.

بدت عليه حالة مُقلقة من نفاد الصبر. وكان شديد الانزعاج من غياب الحيويّة داخل الفرقة. وعندما كان يذرع الأخاديد ويتوجّه إلى الرجال، عبثاً كان يضفي على كلماته كل ما يستطيع من حماس، وعبثاً كان يتحدّث عن سحق العدو الذي ستكون آخر رشقة رصاص تُطلق عليه بمنزلة طلقة الرحمة؛ إذْ إنّ كل ما استطاع أن يناله ردّاً على كلامه كان همهمة غائمة. راح هؤلاء الرجال يعبّرون عن آرائهم بهزّ رؤوسهم موافقين بحذر، وهُم يوجّهون أنوفهم نحو أحذيتهم العسكريّة. لم يكن السبب هو الخشية من الموت فقط، إنّما فكرة أن يموتوا الآن. «أن تكون آخر من يموت». قال ألبير لنفسه: «مثل أن تكون أوّل من يموت». لا يوجد ما هو أسوأ من ذلك.

لكن هذا تماماً ما سيحصل لاحقاً.

ففي حين كانوا حتّى تلك اللحظة يعيشون أيّاماً هادئةً ومريحةً بانتظار

الهدنة، انفلت كلّ شيءٍ من عقاله فجأةً؛ إذْ نزل عليهم من الأعلى أمرٌ ينصّ على ذهابهم لمراقبة ما يفعله البوش عن كثب. ما كان من الضروري مع ذلك أن تكون جنرالاً لكي تدرك أنّ البوش كانوا يفعلون ما يفعله الفرنسيّون؛ أي: إنّهم كانوا ينتظرون النهاية. مع ذلك، كان يجب الذهاب لرؤية ما يجري. من تلك النقطة فصاعداً، لا أحد يستطيع إعادة تركيب تسلسل الأحداث كما حصل تماماً.

ذلك أنّ الملازم براديل اختار لتنفيذ تلك المهمّة لوي تيريو وغاستون غريزونييه. من الصعب معرفة سبب انتقاء شابٍّ وكهلٍ! ربّما من أجل الجمع بين القوّة والتجربة. في كلّ الأحوال كانت تلك الصفات بلا فائدة؛ لأنّ الاثنين لم يعيشا أكثر من نصف ساعة بعد اختيارهما. في الأحوال العاديّة ما كان عليهما أن يسيرا بعيداً. فقط أن يمشيا بمحاذاة الخط شمال-شرق، وعندها؛ أي: بعد مئتي متر، يقومان بقص الأسلاك الشائكة في بعض المواضع، ثمّ يزحفان وصولاً إلى الصف الثاني من الأسلاك الشائكة، حيث يلقيان نظرةً ويعودان ليقولا: إنّ كل شيء على ما يرام، نظراً إلى أنّ الجميع كانوا متأكّدين أنّه لا يوجد ما يمكن رؤيته. والواقع أنّ الجنديّين لم يكونا قلقيَن من الاقتراب بهذا المقدار من العدو. فبسبب الوضع الثابت الذي ساد في الأيّام الأخيرة، حتى لو لَحظ البوش وجودهما فإنّهم سيتركون لهما المجال لأنْ يلقيا نظرةً، ثمّ يعودا، وسيكون ذلك أشبه بتسلية. لكن ما حصل هو أنّه في اللّحظة التي تقدّم فيها المراقبان معاً، وهما منحنيان قدر الإمكان، اصطيدا كما لو كانا أرانب. سُمع صوت رصاص. ثلاث رصاصات، ثمّ حلّ صمتٌ كبير. بالنسبة إلى العدو انتهى الأمر. هناك من حاول رؤيتهما مباشرة، لكنْ بما أنّهما كانا قد ذهبا من جهة الشمال، لم يُحدّد الموضع الذي سقطا فيه.

في المكان الذي كان فيه ألبير انقَطَعَ نَفَسُ الجميع من جرّاء ذلك، ثمّ تعالت صرخات: «يا أوغاد!». «البوش لا يتغيّرون!». «أيّة سلالة قذرة!». «هؤلاء البرابرة!». إلخ. وفوقها، شابٌّ وكهل! ربّما لا يغيّر ذلك من الأمر شيئاً، لكن في ذهن الجميع لم يكتفِ البوش بقتل جنديّين فرنسيّين، بل قتلوا بهذه الطريقة رمزين. باختصار، كان الغضب حقيقيّاً.

في الدقائق التي تلت، وبسرعة لم يظنّ أحد أنّهم قادرون عليها، رمى جنود المدفعيّة من الخلف رشقات الـ 75 على الصفوف الألمانيّة، وجرى التساؤل عن كيفيّة علمهم بالأمر.

بعدها، دارت تروس آلة الحرب.

ردّ الألمان. من الجانب الفرنسيّ، لم يلزم وقت طويل لاستدعاء الجميع. سنردّ الصاع صاعين لهؤلاء البلهاء. كان ذلك في 2 نوفمبر 1918. ما كان أحد يعرف وقتها أنّنا كنّا على بعد أقلّ من عشرة أيام من نهاية الحرب.

وفوقها أن يهجموا في يوم ذكرى الأموات! من الصعب ألّا نتمسّك بالرموز إلى أقصى حد، مهما حاولنا...

«وها نحن من جديد مدجّجون بالسلاح». قال ألبير لنفسه: «مستعدّون لتسلّق منصّات الموت (تلك هي التسمية التي تُطلق على السلالم المستخدمة للخروج من الأخدود، ثم يحدثونك عن الآفاق الممتدة!)، وللسير قدماً للهجوم على خطوط العدو». كان الشباب يسيرون كلهم الواحد تلو الآخر مشدودين مثل قوس النشاب، وهُم يجهدون لبلع لعابهم. كان ألبير في الموقع الثالث وراء بيري وبيريكور الشابّ الذي استدار كأنّه يريد أن يتحقّق من أن الجميع كانوا هناك. التقت نظراتهما.

ابتسم له بيريكور، ابتسامة طفلٍ يستعدّ لإطلاق نكتة. حاول ألبير أن يبتسم بدوره، لكنّه لم يستطع. عاد بيريكور إلى موقعه. كان الجميع بانتظار أمر الهجوم، والتوتّر يكاد يكون ملموساً. فالجنود الفرنسيّون الذين استفزهم تصرّف البوش، صار تفكيرهم بأكمله يتمحور حول شعورهم بالغضب. فوق رؤوسهم كانت القذائف تخترق السماء في الاتّجاهين، وتهزّ الأرض حتّى أحشائها.

نظر ألبير من فوق كتف بيري. كان الملازم براديل الذي صعد إلى نقطة مراقبة خلفيّة يحدّق في خطوط العدو بنظّاراته المقرّبة. عاد ألبير إلى مكانه في الصف. لو لم تحصل تلك الضجّة كلّها لاستطاع أن يفكّر بما يزعجه، لكنّ أزيز الصفارات الثاقبة كان يتوالى، تقطعه انفجارات تجعلك ترتجف من رأسك إلى أخمص قدميك. وحاول أن تركّز تفكيرك في مثل هذه الظروف إن استطعت!

أمّا الآن، فما يزال الشباب ينتظرون الأمر بالهجوم، وبذلك فإنّ الفرصة جيّدة لكي نتفحّص ألبير.

ألبير مايار. إنّه صبيٌّ نحيلٌ، مزاجه لمفاويٌّ نوعاً ما. شخصٌ كتومٌ قليل الكلام، ويفهم جيّداً في مجال الأرقام؛ فقبل الحرب كان أمين صندوق في أحد فروع بنك الاتّحاد الباريسي. لم يكن ذلك العمل يعجبه كثيراً، وقد بقي فيه بسبب أمّه. لم يكن لدى مدام مايار سوى ابن واحد، وكانت مغرمة بالمسؤولين. وأن يصير ألبير هكذا، دفعة واحدة، مسؤولاً في بنك، هو أمرٌ جعل الحماسة تدبّ فيها مباشرةً بعد أن اقتنعت بأنّه «بذكائه» لن يتأخّر عن القفز إلى القمّة. هذا الميل المتطرّف للسلطة ورثته عن أبيها الذي كان مساعد معاون رئيس مكتب في وزارة البريد، وينظر إلى تراتبيّة

إدارته على أنّها استعارةٌ عن الكون بأكمله. كانت مدام مايار تحبّ كل المسؤولين بلا استثناء. لم تكن متطلّبة فيما يتعلّق بمزاياهم، أو أصلهم الجغرافي. كانت تملك صوراً لكليمنصو، وموزّا، وبوانكاريه، وجوريس، وجوفر، وبريان[1]... ومنذ أن فقدت زوجها الذي كان يقود فرقة من الحرّاس الذين يرتدون بزّةً موحّدةً في متحف اللّوفر، كان الرجال العظام يمنحونها أحاسيس لا يمكن وصفها. لم يتحمّس ألبير كثيراً للعمل في البنك، لكنّه تركها تقول ما تريد، فمع أمّه كانت تلك دائماً وسيلة ناجحة، لكنّه مع ذلك بدأ يخطّط؛ فهو يريد الرحيل، ولديه رغبة بالابتعاد إلى أقاصي الأرض، ولو أنّ تلك الرغبة كانت في الواقع تفتقد إلى الوضوح. بكل الأحوال، كان يرغب بأن يترك وظيفته كمحاسب ويقوم بشيءٍ آخر. لكنّ ألبير لم يكن من النوع السريع، ويلزمه وقت للقيام بأيّ شيء. وفجأةً ظهرت سيسيل! الشغف على الفور! عيون سيسيل، فم سيسيل، ابتسامة سيسيل، وطبعاً بعدها نهدا سيسيل، مؤخّرة سيسيل... كيف يمكن له أن يفكّر بشيءٍ آخر؟

بالنسبة إلينا نحن اليوم، لا يبدو ألبير مايار طويلاً جدّاً. متر وثلاثة وسبعون سم. لكنْ بالنسبة إلى عصره كان ذلك جيّداً. في الماضي كان ذلك يلفت نظر الفتيات، وعلى الأخص سيسيل.. أو بالأحرى... ألبير هو الذي كان ينظر مطوّلاً إلى سيسيل. وبعد مدّةٍ، لكثرة ما تسمّر في مكانه هكذا

(1) شخصيّات سياسيّة وعسكريّة فرنسيّة مهمّة، كانت معروفةً خلال فترة الحرب العالميّة الأولى. من بينهم: رئيس جمهوريّة، ورؤساء لمجلس النوّاب، ووزراء وقادة عسكريّون. كما أنّهم ينتمون سياسيّاً إلى اليمين، وإلى اليسار، وتتراوح مواقفهم بين العداء المطلق للألمان وبين العمل على إيقاف آلة الحرب. إعجاب والدة ألبير بهم ينمّ عن تعلّقها بالسُّلطة والشهرة بالمطلق، ولا ينبع من موقفٍ سياسيٍّ محدّد. (المترجمة)

طيلة الوقت تقريباً، انتبهت هي لوجوده طبعاً، فنظرت إليه بدورها. كان لديه وجه يثير مشاعر الحنان، فقد خدشت رصاصة صدغه الأيمن خلال معركة السوم. خاف كثيراً، لكن لم يصبه أكثر من ندبةٍ على شكل قوسٍ مفتوحٍ شدّت عينه من الجانب قليلاً، ما أعطاه هيئة مميّزة. في مأذونيّته التالية، راحت سيسيل الحالمة والمفتونة تداعب الندبة بطرف سبّابتها، لكنّ ذلك لم يحسّن معنوياته. في طفولته، كان ألبير ذا وجهٍ شاحبٍ مستديرٍ تقريباً مع أجفانٍ سميكةٍ، ما يعطيه هيئة المهرج الحزين پييرو. كانت مدام مايار تحرم نفسها من الطعام لكي تقدّم له اللّحم الأحمر، مقتنعةً بأنّ ابنها أبيض اللّون لفقر في دمه. عبثاً حاول ألبير أن يفسّر لها آلاف المرّات أنّه لا توجد علاقة بين الأمرين؛ إذْ لم تكن أمّه من النوع الذي يغيّر رأيه بسهولة، فهي تجد دائماً أمثلة ومسوّغات، وترتعب من فكرة ألّا تكون على صواب. وحتّى في رسائلها كانت تعود لذكر أشياء حصلت من سنوات. كان ذلك مزعجاً بالفعل، بل يمكن لنا أن نتساءل إن لم يكن ذلك هو السبب الذي جعل ألبير ينخرط في الحرب منذ بدايتها. عندما علمت مدام مايار بذلك، أطلقت صرخات عالية، لكن لكونها امرأة استعراضيّة للغاية، يستحيل التمييز بين ما يتأتّى من الذعر لديها، وبين ما هو تمثيل. صرخت ونتفت شعرها، ثمّ عادت إلى صوابها بسرعة. وبما أنّ لديها مفهوماً كلاسيكيّاً جدّاً عن الحرب، فإنّها لم تلبث أن اقتنعت بأنّ ألبير «بشجاعته» سرعان ما سيلمع فيها، ويصعد سلّم الرُّتب. كانت تراه يقوم بالهجوم في الصفّ الأوّل. وفي ذهنها، كان يقوم بأعمال بطوليّة، وسرعان ما سيصير ضابطاً، ثمّ نقيباً، ثمّ رائداً، لا بل وسيصل إلى رتبة عميد. إنّها أشياء تحصل في الحرب. تركها ألبير تقول ذلك كلّه، وهو يحضّر حقيبته.

مع سيسيل كان الأمر مختلفاً تماماً. لم تكن الحرب تخيفها؛ فهي أولاً

«واجبٌ وطنيٌّ» (استغرب ألبير فهو لم يسمعها تنطق هذه الكلمات قطّ)، ثمّ ليس هناك بالفعل من سببٍ للخوف، فكل ذلك تقريباً مجرّد شكليّات. هذا ما يقوله الجميع.

ألبير من جهته كانت لديه بعض الشكوك، لكنّ سيسيل كانت في النهاية مثل مدام مايار، لديها قناعاتها الثابتة تماماً. وإن استمعتَ إليها ستجد أنّ الحرب ستخمد بسرعة. ما كان ألبير بعيداً عن تصديق ذلك، فسيسيل تستطيع أن تقول أيّ شيء لألبير طالما أنّ لديها هاتين اليدين، وهذا الفم، وكل الأشياء الأُخرى. قال ألبير لنفسه: إنّ من لا يعرف سيسيل لا يستطيع أن يفهم. بالنسبة إلينا، سيسيل هذه ليست أكثر من فتاة جميلة؛ أمّا بالنسبة إليه، فكانت شيئاً آخر. كلّ واحدةٍ من مسامات بشرة سيسيل كانت تتألّف من ذرّات خاصّة، وفي نَفَسها عطر من نوع خاص. عيناها زرقاوان. نعم، أعرف أنّ ذلك لا يعني شيئاً بالنسبة إليكم، لكنْ بالنسبة إلى ألبير، كانت هاتان العينان بمنزلة هوّةٍ هائلةٍ، بمنزلة جُرف. تفضّلوا. خذوا فمها على سبيل المثال، وضعوا أنفسكم للحظة مكانه، مكان ألبير هذا. من هذا الفم كان قد تلقّى قبلات حارّة جدّاً، وحنونة جدّاً، تشدّ بطنه لدرجة الانفجار؛ وكان يشعر برضاب فمها يسيل في داخله، فيرشفه بكثيرٍ من الشغف. كانت قادرةً على مثل هذه المعجزات لدرجة أنّ سيسيل لم تكن فقط سيسيل، بل كانت... يعني بالمحصّلة، كانت سيسيل تستطيع أن تدعم فكرة أن الحرب ليست سوى «علكة». لَكَمْ حلم ألبير أن يكون لقمة معلوكة في فم سيسيل!

اليوم بالطبع صار يحكم على الأشياء على نحوٍ مختلف؛ صار يعرف أنّ الحرب ليست سوى قرعةٍ في يانصيب هائلٍ فيه رصاصات حقيقيّة، ويكون البقاء فيها على قيد الحياة لمدّة أربع سنوات ضرباً من المعجزات.

أمّا أن ينتهي الإنسان بأن يُدفن حيّاً، وهو على بعد فراسخ معدودة من نهاية الحرب، فتلك ستكون بلا شكّ القطرة التي تجعل الكأس يفيض.

ومع ذلك فإنّ هذا هو تماماً ما سيحصل.

لقد دُفن حيّاً، ألبير المسكين!

السبب «قلة حظ» كما يمكن أن تقول أمّه.

مكتبة
t.me/soramnqraa

استدار الملازم براديل نحو فرقته. ثبّت عينه في عيون أوّل الرجال الذين كانوا على يمينه، وعلى يساره، يحدّقون فيه كما لو كان المسيح. هزّ رأسه وتنفّس.

بعد دقائق قليلة، راح ألبير يركض محنيّ الظهر قليلاً في مشهد يشبه نهاية العالم، غارقاً تحت القذائف والرصاصات التي تصفر، وهو يشدّ إليه سلاحه بكلّ قوّته. خطواته ثقيلة، ورأسه يغوص بين كتفيه. كانت الأرض سميكة تحت وقع الحذاء العسكريّ بسبب المطر الذي هطل بكثرةٍ في تلك الأيّام. إلى جانبيه، هناك أشخاص يصيحون بأعلى أصواتهم مثل المجانين لكي يستثيروا أنفسهم، ويبثّوا الشجاعة في قلوبهم. بالمقابل هناك على العكس أشخاص يتقدّمون مثله، حواسهم مركّزة، وبطونهم متشنّجة، وحلوقهم جافّة. ينقضّون كلهم على العدوّ مسلّحين بغضبٍ لا رجعة عنه، وبرغبةٍ بالانتقام. والواقع -ربما كان ذلك من المؤثّرات البذيئة لإعلان الهدنة- أنّهم تحمّلوا الكثير في تلك الحرب إلى درجة أنّ رؤيتها تنتهي هكذا مع كلّ هذا العدد الكبير من الرفاق الميّتين، وما يعادلهم من الأعداء الأحياء، يكاد يخلق في الروح رغبةً بارتكاب مذبحةٍ، وبالانتهاء من ذلك كلّه تماماً دفعةً واحدة. أجل، كان بمقدورهم ذبح أيّ كان.

ألبير نفسه الذي أصابه الذعر من فكرة أن يموت، كان قادراً على

تمزيق أحشاء أوّل شخصٍ يلقاه. لكن ما حصل هو أنّ عدّة عوائق وقفت في وجهه. ففي أثناء ركضه يبدو أنّه جنح نحو اليمين. في البداية اتّبع الخطّ الذي حدّده الملازم، لكنْ مع صفير الرصاصات، ومع القذائف، لا مفرّ من السير على نحوٍ متعرّجٍ، خاصّةً أنّ بيريكور الذي كان يتقدّمه مباشرةً أصابته رصاصةٌ لتوّه، وتداعى عند قدميه تقريباً. ما كان لدى ألبير سوى ما يكفي من الوقت ليقفز فوقه. أضاع توازنه، وركض عدّة أمتار مدفوعاً بانطلاقته، فوقع على جسد غريزونبيه العجوز الذي كان موته غير المنتظر قد أعطى إشارة الانطلاق لهذه المجزرة الأخيرة.

على الرغم من الرصاصات التي تصفر من حوله، توقّف ألبير تماماً عندما رآه ممدّداً هناك.

تعرّف في البداية إلى معطفه، فهو يعرفه لأنّه كان دائماً يضع ذلك الشيء عند العروة؛ شيء أحمر كان يقول عنه: إنّه «وسام جوقة الشرف» الخاصّ به. لم يكن غريزونبيه حاذق التفكير، ولم يكن مرهفاً، لكنّه كان رجُلاً طيّباً يحبّه الجميع بحق. إنّه هو، لا شكّ في ذلك. ظهر رأسه الضخم، كأنّه مغروزٌ في الطين، في حين بدا أنّ بقيّة جسده قد تهالكتْ بفوضى. إلى جانبه تماماً تعرّف إلى أصغر الجنود سنّاً، لوي تيريو. هو أيضاً كان مغطى جزئيّاً بالطين، ملتفّاً على نفسه في وضعيّة الجنين. الموت في هذا العمر، وفي وضعيّةٍ كهذه، أمرٌ مؤثّر.

لم يعرف ألبير ما الذي أصابه. دفعه حدسه إلى أن يمسك بالكهل من كتفه ويدفعه إلى الأمام. تدحرج الميت بتثاقلٍ ونام على بطنه. احتاج ألبير إلى بضع ثوانٍ لكي يستوعب ما في الأمر. ثمّ ظهرت الحقيقة واضحةً أمامه: عندما يتقدّم الإنسان باتّجاه العدوّ، لا يموت من رصاصتين في الظهر.

مرّ فوق الجثّة، ومشى عدّة خطوات وهو منحنٍ إلى الأسفل لا يعرف لماذا. فالرصاصات يمكن أن تنال منك سواء كنت واقفاً أم محنيّ الظهر، لكنّه ردّ فعلٍ غريزيّ أن تكشف أقلّ ما يمكن من جسدك، كما لو كان الإنسان يحارب طيلة الوقت خشية العقاب الإلهي. ها هو أمام جسد لوي الصغير. قبضتاه مضمومتان بقوّة أمام فمه، هكذا. كم كان صغيراً!... اثنتان وعشرون سنة تقريباً. لم يرَ ألبير وجهه الملطخ كلّه بالطين. لم يرَ سوى ظهره.

رصاصة واحدة. مع الرصاصتين اللتين أصابتا الكهل، المجموع ثلاثة. الحساب صحيح.

عندما انتصب ألبير، كان ما يزال مبهوتاً من هذا الاكتشاف، وممّا يدلّ عليه. قبل الهدنة ببضعة أيّام، ما كان الشباب مستعجلين جدّاً للذهاب عند البوش والتحرّش بهم. الطريقة الوحيدة لدفعهم للهجوم كانت إثارة غضبهم: أين كان براديل إذنْ عندما أصيب الرجلان بطلقات في ظهريهما؟

يا إلهي!

كان ألبير ما يزال مذهولاً من هذا الاكتشاف، عندما استدار ورأى على بعد عدّة أمتار منه الملازم براديل يهجم عليه راكضاً بأسرع ما يمكن أن تسمح له به زينته العسكريّة.

حركته ممتلئةٌ بالإصرار، ورأسه مستقيمٌ تماماً. ما رآه ألبير على الأخصّ في عينيّ الملازم كان تلك النظرة الفاتحة والمباشرة. كان ممتلئاً بالإصرار. وهكذا، فجأةً، انكشفت القصّة بأكملها.

في تلك اللحظة بالذات، فهم ألبير أنّه سوف يموت.

حاول أن يسير بضع خطوات، لكنْ لم يتحرّك فيه أيّ شيء. لا دماغه،

ولا ساقاه. لا شيء. كلّ شيء كان يدور بسرعة حوله. قلت لكم من قبل: إنّه ليس من النوع السريع، ألبير. بثلاث خطوات واسعة صار براديل فوقه. إلى جانبهما تماماً توجد فتحةٌ كبيرةٌ فاغرة فمها الواسع. حفرة خلّفتها القذائف. دخل كتف الملازم في صدر ألبير تماماً فانقطع نفسه. مادت به الأرض، وحاول أن يتماسك، لكنّه وقع إلى الخلف. سقط في الحفرة، وذراعاه متصالبتان.

كلّما غاص في الحفرة، كما لو كان في حركةٍ متباطئةٍ، رأى وجه براديل يبتعد عنه، هو ونظرته التي فهم الآن كل ما كان فيها من تحدٍّ، وثقةٍ، واستفزاز.

عندما وصل ألبير إلى قاع الحفرة، تدحرج ملتفّاً على نفسه، وبالكاد استطاع عتاده أن يكبح جماح حركته. علقت ساقاه في بندقيّته، ثمّ نجح في الوقوف على قدميه، فالتصق مباشرةً بالحواف المنحدرة مثل من يسند ظهره بسرعة إلى بابٍ خشية أن يسمعه، أو يفاجئه أحد. وقف مستنداً إلى كعبيه (الأرض الطينيّة تنزلق مثل الصابون). حاول أن يستعيد أنفاسه. راحت أفكاره الموجزة والفوضويّة تستعيد -بدون توقّف- نظرة الملازم براديل الجليديّة تلك. فوقه، بدا كأنّ المعركة قد استعرت، فقد ترصّعت السماء بأقواسٍ مزخرفةٍ، وأضيئت القبّة ذات اللّون الحليبيّ بهالاتٍ زرقاء، أو برتقاليّة. تساقطت القذائف بغزارةٍ في الاتّجاهين مصْدرةً ضجّةً كثيفةً ومستمرّةً، ورعوداً من الصفير، وأصوات الانفجارات. رفع ألبير ناظريه. هناك في الأعلى، كان الظلّ العالي للملازم براديل يرتسم بوضوح على حافّة الحفرة التي يطلّ عليها مهيمناً مثل ملاك الموت.

تهيّأ لألبير أنّ سقوطه في الحفرة قد استغرق وقتاً طويلاً. في الواقع، كم كان بينه وبين براديل؟ متران، لا أكثر. بل أقل حتماً. لكن هنا يكمن

الفرق كلّه: في الأعلى يقف الملازم براديل مباعداً ساقيه، ويداه تمسكان النطاق على خصره بكلّ متانة. خلفه تبدو أضواء المعركة المتقطّعة. كان ينظر بهدوءٍ إلى قعر البئر بلا حراك، ويحدّق في ألبير، وعلى شفتيه ابتسامة غائمة، فهو لن يقوم بأيّة حركةٍ لإخراجه من هناك. اختنق ألبير من هذه الفكرة، وتوقّف دمه عن الدوران في عروقه. التقط بندقيّته. انزلق. استطاع بصعوبةٍ أن يمسك نفسه. وضع البندقيّة على كتفه، لكنْ عندما استطاع أخيراً أن يسدّد سلاحه نحو الحافّة، لم يعد هناك أحد. اختفى براديل.

ألبير وحْده.

ترك بندقيّته، وحاول أن يستعيد أنفاسه من جديد. يجب ألّا ينتظر، وأن يتسلّق مباشرةً حافّة هذا القمع، وأن يركض وراء براديل، وأن يطلق النار عليه من ظهره، وأن يمسك بتلابيبه، أو يعود للانضمام إلى الآخرين، يتكلّم معهم، يصرخ، يفعل شيئاً ما لا يعرف تماماً ما هو. لكنّه شعر بنفسه شديد التعب. بدأ الإنهاك يجتاحه؛ لأن كل ما حصل شديد التفاهة، تماماً مثل أن يترك حقيبته من يده ويضعها على الأرض، مثل أن يكون قد وصل. بودّه أن يصعد إلى هناك في الأعلى، ولم يكن ذلك بوسعه. كان قاب قوسين أو أدنى من أن ينتهي من هذه الحرب، وها هو الآن في قعر حفرة. لم يجلس، بل تهاوى. أمسك رأسه بين يديه. حاول أن يحلّل الموقف على نحوٍ صحيح، لكنّ معنويّاته انهارت كلّها دفعةً واحدةً، مثلما تذوب المثلّجات. واحدة من تلك المثلّجات التي تعبدها سيسيل. مثلّجات باللّيمون، تجعل أسنانها تصطكّ مثل قطّةٍ صغيرةٍ، فتجعل ألبير يرغب في ضمّها إليه. على فكرة، متى كانت رسالة سيسيل الأخيرة؟ هذا أيضاً من أسباب إنهاكه. لم يُسرّ بذلك لأحد: صارت رسائل سيسيل أقصر. بما أنّها على وشك الانتهاء، هذه الحرب، فقد صارت تكتب له كما لو أنّها قد انتهت تماماً،

وما عاد من المجدي الاستفاضة في الكتابة. بالنسبة إلى من لديهم عائلات كاملة، لم تكن الأمور مشابهة؛ فهناك دائماً رسائل تصل؛ أمّا بالنسبة إليه، هو الذي لم يكن عنده سوى سيسيل.... وبالطبع هناك أمّه أيضاً، لكنّها تُتعبه أكثر من أيّ شيء آخر. رسائلها تشبه حديثها. لو تستطيع، لقرّرت كلّ شيء بدلاً عنه... فكلّ هذا قد أنهكه، نخره نخراً، إضافةً إلى كل هؤلاء الرفاق الذين ماتوا، والذين يتمنّى ألّا يفكّر بهم كثيراً. لقد عاش مثلها من قبل، لحظات الخذلان هذه، لكنّ التوقيت الآن ليس جيّداً، في هذه اللّحظة التي يحتاج فيها إلى كلّ طاقته. لا يستطيع أن يقول: لماذا؟ هناك شيء في داخله قد تداعى فجأة. يشعر به داخل بطنه. شيء يشبه التعب العميق. شيء ثقيل مثل حجر. رفضٌ عنيد. شيءٌ على درجةٍ عاليةٍ من السلبيّة، ومن الدعة. مثل نهاية لشيءٍ ما. عندما انخرط في الجيش، عندما كان يحاول أن يتخيّل ما هي الحرب مثل كثيرين غيره، كان يفكّر في سرّه أنّه في حال حدثت صعوبات يكفيه أن يمثّل أنّه ميّت. يمكن مثلاً أن يتهالك، أو إن كان حريصاً على مشابهة الحقيقة، يمكن أن يطلق صرخات ذعر مدّعياً أنّه تلقّى رصاصةً وسط قلبه. يكفيه بعدها أن يبقى مستلقياً، وينتظر أن تهدأ الأمور، وعندما يحلّ اللّيل، يمكن له أن يزحف حتّى يصل إلى جسد رفيقٍ آخر يكون ميّتاً بالفعل، هذا الرفيق، فيسرق أوراقه، وبعدها يعود إلى التحرّك منزلقاً مثل الزواحف لساعاتٍ وساعات. يتوقّف بين الفينة والفينة ويحبس أنفاسه عندما تتناهى إلى سمعه أصوات في اللّيل. وبكثيرٍ من الحذر، يمكن له أن يستمرّ بالتقدّم حتّى يجد في النهاية طريقاً يتبعه نحو الشمال، (أو نحو الجنوب، بحسب صيغة الرواية). في أثناء السير، يمكن أن يحفظ عن ظهر قلب كلّ عناصر هويّته الجديدة، ثمّ يمكن أن يقع على وحدةٍ عسكريّةٍ تائهةٍ يكون العريف القائد فيها رجُلاً ضخماً لديه.... باختصار، كما يبدو،

بالنسبة إلى أمين صندوقٍ في بنك، كان ألبير يملك فكراً روائيّاً. لا شك في أنّ التهيّؤات التي تسيطر على مدام مايار قد أثّرت عليه. في بداية الصراع، هذه الرؤية العاطفيّة، كان يتقاسمها مع كثيرين غيره. كان يرى قطعاناً مقمّطةً ببِدَلٍ عسكريّةٍ ضيّقةٍ جميلةٍ حمراء وزرقاء، تتقدّم بصفوفٍ متراصّةٍ نحو جيش عدوٍّ ناله الذعر. الجنود يسدّدون أمامهم بنادقهم اللمّاعة، في حين تؤكّد سحب الدخان المتقطّعة الصادرة عن بعض القذائف ضياع العدوّ. وواقع الأمر أنّ ألبير قد انخرط في حرب ستاندالية[1]، لكنّه وجد نفسه في مقتلةٍ تافهةٍ وبربريّةٍ أدّت إلى ألف قتيلٍ في اليوم لمدة خمسين شهراً. ولكي تكون فكرته واضحة عن هذه الحرب كان يكفيه أن يرتفع قليلاً، وأن ينظر إلى المشهد حول الحفرة التي وقع فيها. أرض اختفت منها النباتات تماماً، وتخردقت بآلاف الحفر من القذائف، وتناثرت فيها مئات الأجساد المتحلّلة التي تصعد رائحتها العفنة إلى القلب طيلة النهار. وبمجرّد أن تحلّ أوّل فترةٍ من الهدوء، تأتي جرذان ضخمة بحجم الأرانب لتقفز من جثّةٍ إلى أُخرى بوحشيّةٍ، فتنازع الذباب على البقايا التي بدأت الديدان عملها فيها. يعرف ألبير ذلك كلّه؛ لأنّه كان مُسعفاً في منطقة اللين، وعندما لم يكن يجد مزيداً من الجرحى الذين يئنّون، أو الذين يصرخون بصوتٍ عالٍ، كان يقوم بلمّ جميع أنواع الأجساد في جميع مراحل التحلّل. يعرف رفّاً كاملاً من ذلك النوع من الجثث. أيّ عملٍ مضنٍ بالنسبة إليه هو الذي كان رقيق القلب!

(1) نسبةً إلى ستاندال؛ المؤلّف الفرنسي الذي شارك ما بين عامي 1800 و1814 في الحملات التي شنّها نابوليون داخل أوروبا؛ ووصفها في مذكراته ومراسلاته وكذلك في رواياته. المقصود هنا أنّ ألبير كان يظنّ أنّ الحرب شبيهةٌ بما تصفه الروايات. (المترجمة).

وزيادة في سوء الحظ بالنسبة إلى شخصٍ على وشك أن يُدفن حيّاً، أنّه يعاني من شيءٍ يشبه رهاب الأماكن المغلقة.

ففي صغره، كانت فكرة أن تغلق أمّه باب غرفته وتذهب، تجعله يشعر بتصاعد الغثيان في داخله. لم يكن يقول لها شيئاً. ويبقى مستلقياً لأنّه لا يريد أن يسبّب ألماً لأمّه التي كانت تشرح له دائماً أنّه لا ينقصها مصائب. لكن الظلمة كانت ترعبه في اللّيل. وحتّى بعد ذلك، من مدّةٍ ليست بعيدة، في أثناء لعبه مع سيسيل تحت المُلاءة، كان عندما يجد نفسه مغطّى تماماً، ينقطع تنَفّسه، ويجتاحه الذعر، خاصّةً أنّ سيسيل كانت في بعض الأحيان تعصره بين ساقيها لكي تمنعه من الإفلات. كانت تقول له وهي تضحك: أريد أن أرى ما سيحصل. الخلاصة أن الموت اختناقاً كان يرعبه أكثر من أيّ موتٍ آخر. لحسن الحظّ أنّه لم يفكّر بذلك وإلّا فإنّ البقاء حبيس سيقان سيسيل الحريريّة، حتّى لو كان رأسه تحت المُلاءة، كان بمنزلة الجنّة مقارنةً مع ما ينتظره. لو أنّه فكّر بذلك، ألبير، لاجتاحته على الفور الرغبة في أن يموت.

والواقع أنّ ذلك ما سيحصل تماماً، لكنْ ليس مباشرة. فعندما ستتحطّم القذيفة الحاسمة على بعد أمتارٍ من المكان الذي التجأ إليه، وترفع عالياً حفنةً من التراب مثل جدارٍ لن يلبث أن ينهار ويغطّيه بأكمله، عندها لن يكون أمامه وقت طويل للبقاء على قيد الحياة. مع ذلك ستكون المدّة كافيةً لكي يدرك حقيقة ما يحصل له. ستجتاح ألبير رغبة وحشيّة بأن يبقى حيّاً، مثل تلك التي تشعر بها فئران المخابر عندما يُمسَكُ بها من سيقانها الخلفيّة، أو الخنازير التي يأخذونها للخنق، أو البقرة التي ستُقتَل. رغبة هي نوع من المقاومة البدائيّة. سيكون عليه أن ينتظر قليلاً من أجل ذلك. ينتظر

أن تبيضّ رئتاه في بحثهما عن الهواء، وأن يُنهَكَ جسده في محاولةٍ يائسةٍ للإفلات، وأن يكون رأسُه على حافّة الانفجار، وأن تجتاح فِكْرَهُ حالة جنون، وأن، وأن... لكنْ دعونا لا نستبق الأمور.

استدار ألبير ونظر للمرّة الأخيرة نحو الأعلى. في الواقع، لم تكن الحافّة بعيدةً بالمقدار الذي بدا له. كان قد شعر بها بعيدة جدّاً. حاول أن يجْمع قواه، وألّا يفكّر بشيءٍ آخر سوى أن يصعد ويخرج من هذا الجُحر. حمل عتاده وبندقيّته مجدّداً. تمسّك. وعلى الرغم من التعب بدأ يتسلّق الجدار المائل. الأمر ليس سهلاً؛ فقدماه راحتا تنزلقان وتنزلقان على الطين الموحل، ولا تجدان ما يمكن الاستناد إليه. عبثاً كان يغرز أصابعه في التراب ويضربه بمقدّمة قدمه بكل ما يملك من قوّةٍ لكي يحفر لنفسه نقاط ارتكاز. لم ينفعه شيء من هذا. وقع من جديد. تخلّى عن بندقيّته وحقيبته. لو كان عليه أن يخلع ثيابه بالكامل لفعل بدون تردّد. قوّس جسده على الحائط، وعاد للزحف على بطنه. حركاته مثل حركات سنجابٍ في قفص. راح يحفر بالفراغ، ويقع من جديد في المكان نفسه. أخذ ينهق، ويتأوّه، ثمّ يصرخ بكلّ ما فيه من قوّة. تملّكه الذعر. شعر بالدموع تجتاحه. ضرب بقبضته على جدار الطمي. لم تكن الحافّة بعيدةً جدّاً. اللعنة! إذا ما مدّ ذراعه قد يستطيع تقريباً أن يلمسها، لكن كعب حذائه كان ينزلق، وكلما كسب سنتمتراً يفقده من جديد. «يجب الخروج من هذا الثقب المريع!». زمجر في قرارة نفسه. سوف يتوصّل إلى ذلك. سيموت، نعم، في يوم من الأيّام، لكنْ ليس الآن. لا، سيكون ذلك حَيْونة. سوف يخرج من هنا، وهذا الملازم براديل، سيذهب للبحث عنه حتى عند البوش إن تطلّب الأمر، وسيجده، وسيقتله. أعطته فكرة أن يضرب هذا السفيه مزيداً من الشجاعة.

توقّف للحظةٍ أمام تلك الحقيقة المرّة. منذ أكثر من أربع سنوات والبوش يحاولون قتله ولم ينجحوا. وها هو ضابط فرنسي يقومْ بذلك.

خراء!

ركع ألبير وفتح حقيبته. أخرج منها كلّ شيء، ووضع ربعها بين ساقيه. سيمدّ معطفه على الحافّة المنزلقة، ويغرز في التراب كلّ ما يقع تحت يديه ليصير مثل قبضةٍ يتشبّث بها. استدار، وفي تلك اللّحظة تماماً على ارتفاع ما يقارب عشرة أمتار فوق رأسه سُمع صوت قذيفة. أحسّ بالقلق فجأةً، ورفع رأسه. خلال السنوات الأربع تعلّم أن يميّز بين قذيفة الخمس والسبعين، وبين قذيفة الخمس والتسعين، وأن يعرف الفرق بين المئة وخمسة وبين المئة وعشرين.... تردّد قليلاً فيما يتعلّق بهذه التي انفجرت لتوّها، ربّما بسبب عمق الحفرة، أو بسبب المسافة، فقد أعلنت عنها ضجّة غريبة، كأنّها جديدة عليه. ضجّة مختلفة عن البقيّة، هادرة أكثر، وفي الوقت نفسه مبطّنة أكثر. شخير مكتوم ينتهي بالتواء خارق القوّة. بالكاد كان أمام دماغ ألبير الوقت الكافي ليطرح تلك التساؤلات؛ إذْ إنّ صوت الانفجار كان قويّاً بشكل يجعله عصيّاً على القياس. الأرض التي أصابها تشنّج صاعق مادت وأطلقت زمجرةً ضخمةً ومقيتةً قبل أن ترتفع. بركان! ألبير الذي تفاجأ وفقد توازنه من قوة الهزّة نظر إلى الهواء لأنّ كلّ شيء صار حوله معتماً فجأة. وهناك على بعد عشرات الأمتار فوقه، فيما يشبه مشهداً بالسرعة البطيئة، رأى بدل السماء موجةً واسعةً من التراب البنيّ راحت قشرتها المتحرّكة والملتوية تنفرد ببطء في اتّجاهه، وتتهيّأ للهبوط عليه لتحيط به. مطر فاتح اللّون شبه كسولٍ يتألّف من حصى، وكتل ترابٍ، وبقايا من جميع الأشكال، أعلن عن قدومه الحتميّ. تكوّم ألبير على نفسه وجمّد تنفّسه. لم يكن هذا قطّ ما كان يجب أن يفعله، على العكس، كان

عليه أن يفرد جسمه. كلّ الأموات الذي دُفنوا يقولون لك ذلك. بعدها كانت هناك ثانيتان، أو ثلاث ثوانٍ معلقّة، قام ألبير خلالها بالتحديق في ستارة التراب التي تحلّق في السماء وتبدو كأنّها متردّدة حول المكان والزمان الذي ستسقط فيه.

إنْ هي إلّا لحظة ستقوم بعدها تلك الملاءة بالتحطّم فوقه وتغطيته.

في الزمن العادي، وإن أردنا أن نرسم صورةً لألبير، فإنّه يشبه بورتريه لتانتوريه. قسماته تشي دائماً بالألم مع فمٍ مرسومٍ بوضوح، وذقنٍ طويلةٍ مدبّبةٍ، وتجاعيدَ واسعةٍ تبرزها الحواجبُ المقوّسة ذات اللّون الأسْود العميق. لكنْ في تلك اللحظة، وبما أنّ نظرته كانت تستدير نحو السماء، وكان يرى الموت يقترب، صار بالأحرى أشبه بالقدّيس سيباستيان؛ فقد تقلّصت قسماته فجأةً، وتجعّد وجهه كلّه بطيّاتٍ صغيرةٍ بفعل الألم والخوف، فارتسم عليه ما يشبه التوسّل غير المُجدي؛ خاصّةً أنّ ألبير طيلة حياته لم يؤمن بشيء، وليس الطين الذي ينهال عليه ما سيجعله يبدأ بالإيمان بشيء الآن. حتّى لو كان لديه كلّ الوقت لفعل ذلك.

انهال عليه الغطاء الترابي محدثاً قرقعةً هائلةً. كان يمكن توقع صدمة قادرة على أن تقتله تماماً، وسيموت ألبير من جرّائها بكلّ بساطة، لكن ما حصل كان أفظع؛ فالحصى والحجارة استمرّت تتساقط فوقه مثل حبّات البَرد، ثمّ جاء التراب. في البداية كان مجرّد غطاء يغطّيه، ثمّ ازداد ثقله شيئاً فشيئاً. التصق جسد ألبير بالأرض.

بالتدريج، وكلّما تكوّم التراب فوقه، صار عاجزاً عن الحركة، ومضغوطاً، ومسحوقاً.

انطفأ الضوء.

توقّف كلّ شيء.

حلّ نظامٌ جديدٌ للعالم. عالم لن تكون فيه سيسيل.

أوّل شيءٍ لفت نظره، تماماً قبل الذعر، هو توقّف ضجّة الحرب، كما لو أنّ كلّ شيء قد صمت فجأةً، مع صفرة نهاية اللّعبة التي أطلقها الرّب. طبعاً لو أنّه ركّز انتباهه قليلاً لكان فهم أنّه ما من شيءٍ قد توقّف. كلّ ما هنالك أنّ الصوت صار يصل إليه مفلتراً، منطفئاً بفعل حجم التراب الذي يحشره ويغطّيه، ويجعل كلّ شيء غير مسموع تقريباً. لكنْ في تلك اللّحظة كانت لدى ألبير هموم أُخرى غير تقصّي الضجيج لمعرفة إن كانت الحرب مستمرّة. المهمّ بالنسبة إليه، هو أنّها على وشك الانتهاء.

بمجرّد أن توقّفت القرقعة، شعر ألبير بالذعر. «أنا تحت التراب». قال لنفسه. تلك كانت فكرة مجرّدة. لكنْ عندما قال لنفسه: «لقد دُفنت حيّاً». صار الأمر ملموساً على نحوٍ فظيع!

عندما قاس مدى الكارثة، ونوع الموت الذي ينتظره؛ عندما فهم أنّه سيموت مختنقاً ممنوعاً من التنفّس، جُنّ جنونه. فجأةً، صار ألبير مجنوناً بالكامل. في ذهنه اختلطت الأمور كلّها. صرخ بأعلى صوته. وبهذه الصرخة غير المفيدة بدّد القليل من الأوكسجين الذي بقي لديه. «لقد دُفنت». كرّر لنفسه وأعاد. غاص فكره في هذه البديهيّة المرعبة إلى درجة أنّه لم يفكّر معها بإعادة فتح عينيه. كلّ ما فعله هو محاولة التحرّك في جميع الاتّجاهات. كلّ ما تبقّى لديه من قوّة، كلّ ما تصاعد في داخله من ذعرٍ، تحوّل إلى جهدٍ عضليّ. صرف في أثناء تخبّطه طاقةً غير معقولة. كلّ ذلك كان بلا جدوى.

وفجأةً توقّف.

ذلك أنّه فهم لتوّه أنّه يحرّك يديه. قليلاً، لكنّه يحركهما. حبس تنفّسه.

ففي أثناء سقوطه، كانت الأرض الفخاريّة والمشبعة بالماء قد مهّدت شيئاً يشبه القوقعة عند مستوى ذراعيه، وكتفيه، ورقبته. العالم الذي تحجّر تقريباً في داخله تنازل له عن بضعة سنتيمترات هنا وهناك. الواقع أنّه لا يوجد كثير من التراب فوقه. ألبير يعرف ذلك. ماذا؟ ربّما ليس أكثر من أربعين سنتمتراً. لكنّه كان مستلقياً تحت تلك الطبقة، وهي كافية لشلّه ومنع أيّة حركةٍ عنه، والحكم عليه بالموت.

كلّ شيءٍ حوله، حتّى التراب، كان يرتعش. فوقه وفي البعيد، كانت الحرب مستمرّةً، والقذائف ما زالت تهزّ الأرض وتزعزعها.

فتح ألبير عينيه، بخجلٍ في البداية. كان الوقت ليلاً، لم يكن السواد كاملاً. هناك خطوط نهار مبيضّ رفيعة للغاية تتسرّب بخفّة. شعاع شديد الشحوب، بالكاد شيء من الحياة.

أجبر نفسه على التنفّس بجرعاتٍ صغيرةٍ متقطّعة. أبعد كوعيه عدّة سنتيمترات. توصّل لأن يمدّ قدميه قليلاً وكان ذلك يكدّس التراب في الجهة الثانية. مع آلاف الاحتياطات، وبنضاله المستمرّ ضدّ الذعر الذي يجتاحه، حاول أن يحرّر وجهه لكي يتنفّس. تداعت لحركته كتلة من التراب مثل فقاعةٍ تنفجر. كان ردّ فعله مباشراً، فقد انشدّت جميع عضلاته، وتقلّص جسده على نفسه، لكن لم يحصل شيءٌ آخر. كم من الوقت بقي هكذا في هذا التوازن غير الثابت، حيث يندر الهواء تدريجيّاً وببطءٍ، وهو يتخيّل أيّ موت ذاك الذي يقترب، وما سيكون عليه أن يُحرم من الأوكسجين، وأن يفهم أنّ الأوعية تنفجر الواحدة تلو الأُخرى مثل بالونات، وأن يفتح عينيه إلى أقصى ما يستطيع كما لو كان يحاول رؤية الهواء الذي ينقص، ميليمتراً بعد ميليمتر، في حين كان يجهد لأن يتنفّس بأقلّ ما يمكن، وألّا

يفكّر، وألّا يرى نفسه كما هو. مدّ يده وتلمّس أمامه، وشعر عندها بشيء تحت أصابعه. الضياء المبْيَضّ، على الرغم من أنّه كان أكثر كثافةً بقليل، لم يسمح له بتمييز ما يحيط به. لمست أصابعه شيئاً مرناً، ليس تراباً، وليس طيناً، شيئاً حريريّاً نوعاً ما وعليه حُبيبات.

استغرقه وقت ليفهم ما هو ذلك الشيء.

عندما بدأ يستوعب الأمر ميّز ما يوجد أمامه: شفتان عملاقتان يسيل منهما سائلٌ مخاطيٌّ، وأسنانٌ صفراء واسعة، وعينان كبيرتان مزرقّتان بدأتا بالذوبان...

رأس حصان، ضخم، مقزّز، شيء يشبه الوحوش.

لم يستطع ألبير أن يمنع حركة تراجع عنيفة. اصطدمت جمجمته بالقوقعة التي سال منها التراب مجدّداً وغمر عنقه. رفع كتفيه لكي يحمي نفسه، وتوقّف عن الحركة وعن التنفّس. ترك الثواني تمرّ.

عندما ثقبت القذيفة الأرض أزالت التراب عن أحد تلك الجياد الميّتة التي نفقت في ساحة المعركة، وقد سلّمت لألبير لتوّها رأساً من رؤوسها. ها هما الآن وجهاً لوجه: الشابّ، والحصان الميّت، شبه متعانقين. الانهيار سمح لألبير أن يحرّر يديه، لكنّ وزن التراب كان ثقيلاً، ثقيلاً للغاية، ويضغط على قفصه الصدريّ. استعاد بهدوء تنفّسه المتقطّع. أصلاً لم تعد رئتاه تحتملان. بدأت عيناه تغرورقان بدموع استطاع أن يكبحها. قال لنفسه: إنّ البكاء يعني أنه قد قَبِل الموت.

الأفضل له أن يستسلم؛ لأنّ الأمر لن يطول الآن.

ليس صحيحاً أنّه في لحظة الموت تمرّ حياتنا بأكملها في لحظةٍ صاعقة. فقط بعض الصور. نعم، صور قديمة: أبوه. وجهه على درجةٍ

كبيرةٍ من الوضوح والدقّة، إلى درجة يستطيع معها أن يقسم أنّه هناك تحت الأرض معه. لا شك في أنّ ذلك يعود إلى كونهما سيلتقيان. رآه شابّاً يماثله في العمر. ثلاثون سنة ونثرات، بالطبع، النثرات هي التي تهم. كان يرتدي لباس المتحف الموحّد، وقد لمّع شاربه بالشمع. لم يكن يبتسم كما في الصورة الفوتوغرافيّة الموجودة فوق البوفيه. كاد ألبير يختنق من نقص الهواء. آلمته رئتاه، واجتاحته حركات تشنجيّة. بودّه أن يستطيع التفكير. بلا جدوى. الاضطراب هو الذي ساد. الرعب الرهيب من الموت تصاعد في أحشائه. سالت دموعه رغماً عنه. حدّقت فيه مدام مايار بنظرةٍ مؤنّبة. بالطبع، ألبير كعادته، لن يعرف أبداً كيف يتصرّف. بالله عليكم، أن يسقط في حفرة، وأن يموت قبل نهاية الحرب، لا بأس، شيء غبيّ، لكن.. يمكن فهم ذلك؛ أمّا أن يموت مدفوناً؛ أي في وضعيّة رجُلٍ قد مات وانتهى! هكذا هو ألبير تماماً. لا يستطيع أن يكون مثل الآخرين. دائماً أسوأ بقليل. بكل الأحوال، لو لم يمت في الحرب، ما الذي سيصبح عليه هذا الصبي؟ ابتسمت له مدام مايار أخيراً. على الأقل مع ألبير الميّت، سيكون هناك في العائلة بطل، وهذا ليس بالأمر السيّئ.

صار وجه ألبير يميل إلى الزرقة. صدغاه راحا ينبضان بسرعةٍ لا يمكن تصوّرها، كأنّ كلّ عروقه ستنفجر. نادى سيسيل. كان بودّه أن يجد نفسه بين ساقيها تشدّ عليه إلى أقصى درجة، لكنّ تقاسيم وجه سيسيل لم تصل إليه، كما لو أنّها أبعد من أن تصل إليه، وكان ذلك أكثر ما يؤلمه، ألّا يراها في تلك اللّحظة، وألاّ ترافقه. لم يكن هناك سوى اسمها، سيسيل، لأنّ العالم الذي يغوص فيه ما عاد فيه جسد، لا شيء سوى الكلمات. بودّه أن يرجوها أن تأتي معه؛ فخوفه من الموت هائل. لكنّ ذلك لا يفيد؛ فهو سيموت وحده، بدونها.

إلى اللقاء إذن، إلى اللقاء هناك في الأعالي يا سيسيل، بعد فترةٍ طويلة.

ثمّ انمحى اسم سيسيل بدوره ليخلي المكان لوجه الملازم براديل بابتسامته التي لا تُحتمل. تخبّطت حركات ألبير في جميع الاتّجاهات. امتلاء رئتيه تناقص بالتدريج. وصار هناك صفير عندما يجهد نفسه. بدأ يسعل، شدّ بطنه. لم يعد هناك هواء.

تمسّك برأس الحصان، واستطاع أن يمسك بالشفاه المدهنة التي كان لحمها يفلت من بين أصابعه. أمسك بالأسنان الكبيرة الصفراء، وبجهدٍ خارقٍ فتح الفم الذي كان يفوح برائحة تفسّخ تنشّقها ألبير بكامل رئتيه. وهكذا ربح بعض الثواني من البقاء على قيد الحياة. تقلّصت معدته، تقيّأ، اجتاحت الرجفة جسده بأكمله. حاول أن يستدير على نفسه باحثاً عن نقطة أوكسجين، لكنْ بلا أمل.

التراب ثقيلٌ جدّاً. لم يعد هناك أيّ ضوء تقريباً. فقط بعض الانتفاضات الصادرة عن الأرض الممزّقة بالقذائف التي ما تزال تتساقط هناك في الأعلى. بعدها لم يعد يدخل في جسده أيّ شيء. ولا شيء. فقط حشرجة.

ثم غمره سلامٌ كبير. أغلق عينيه.

اجتاحه غثيان. تداعى قلبه. انطفأ عقله. غاص.

ألبير مايار. جندي. مات لتوّه.

2

الملازم دولناي براديل، بما فيه من إصرارٍ، وبدائيّةٍ، وتوحُّشٍ، راح يركض في أرض المعركة باتّجاه الخطوط المعادية بتصميمٍ يشبه تصميم الثيران. عجيبٌ كيف يبدو عليه أنّه لا يخاف من شيء! في الواقع لم يكن في ذلك شجاعة كبيرة، أو لنقل: إنّها أقلّ ممّا يمكن أن نظنّ، وليس لأنّه كان بطوليّاً على نحوٍ خاص، لكنّه كان قد اكتسب بسرعةٍ القناعة بأنّه لن يموت هنا. كان متأكّداً من أنّ تلك الحرب لم تكن ترمي لقتله، إنّما لتقديم فرصٍ كثيرةٍ له.

في ذلك الهجوم المباغت على النقطة 113، كان تصميمه الشرس يتأتّى بالطبع من كونه يكره الألمان على نحوٍ يفوق الحد، يكرههم بطريقةٍ شبه ميتافيزيقيّة، وكذلك من كون الأمور بدأت تسير نحو الحلّ، ولم يعد أمامه وقتٌ طويلٌ لكي يستفيد من الفرص التي يمكن لصراعٍ نموذجيٍّ مثل هذا أن يقدّمها لرجُلٍ مثله.

ألبير وبقيّة الجنود توقّعوا ذلك، فهذا الرجُل لديه صفات الإقطاعيّين الصغار، لكنْ في الشقّ المفلس منهم. فخلال الأجيال الثلاثة الماضية، جرى «تنظيف» عائلة أولناي براديل بالمعنى الحرفيّ للكلمة عبر سلسلةٍ

من الإفلاسات والانهيارات في البورصة. ولم يتبقّ له من مجد أسلافه سوى مقرّ العائلة الخَرِب المُسمّى لاسالوفيير، وهيبة الاسم الذي يحمله، وواحد، أو اثنين من الأجداد البعيدين جدّاً، إضافةً إلى بعض العلاقات غير المؤكّدة، ونهمه لأنْ يجد لنفسه مكاناً في العالم الذي كان على وشك الانفجار غضباً. كان يعدّ هشاشة وضعه نوعاً من الظلم؛ ولذلك صار طموحه الأساسيّ أن يستعيد منزلته في التراتبيّة الأرستقراطيّة. وقد سيطر عليه ذلك الهاجس تماماً، وجعله مستعدّاً للتضحية بأيّ شيءٍ من أجل تحقيقه. كان والده قد أطلق على نفسه رصاصةً في القلب داخل غرفة فندقٍ في مدينةٍ صغيرةٍ، بعد أن أنفق كلّ ما تبقّى له. وتقول الأسطورة التي لا أساس لها: إنّ أمّه التي توفّيت بعد ذلك بسنة إنّما ماتت من الحزن. لم يكن لدى الملازم إخوة، أو أخوات؛ ولذلك كان آخر سلالة عائلة أولناي براديل. ذلك الوضع الذي يعني «نهاية عرقٍ بأكمله» كان يوحي له بأنّ هناك ضرورة مُلحّة؛ إذْ لا يوجد بعده شيء. ولقد أقنعه التدهور غير المتناهي لأوضاع والده في وقتٍ مبكّرٍ جدّاً أنّ إعادة تأسيس العائلة يقع على عاتقه وحده. وكان لديه ما يكفي من الرغبة ومن الموهبة لتحقيق ذلك.

أضف إلى ذلك أنّه كان على قدرٍ من الجمال، هذ إذا كان من الممكن الإعجاب بجمالٍ يفتقر إلى المخيّلة. مع ذلك، كانت النساء ترغبن به، والرجال يغارون منه، وتلك علامات لا تخطئ. يمكن لأيّ كان أن يقول لك: إنّه مع مثل هذه الصفات الفيزيائيّة، ومع اسمٍ من هذا النوع، لا ينقصه سوى الثروة. وذاك كان رأيه تماماً، لا بل ومشروعه الوحيد.

من هنا نفهم لماذا قام بكل تلك الجهود الحثيثة لتنظيم تلك المهمّة التي كان الجنرال موريو يرغب بها بحميّةٍ كبيرة. فبالنسبة إلى القيادة، كانت تلك النقطة 113 بمنزلة بَثرَة، نقطة متناهية الصغر على الخريطة تهزأ بك

يوماً بعد يوم، واحدة من تلك الأشياء التي تثير لديك شعوراً بالمقت لا تملك له دفعاً.

لم يكن الملازم براديل فريسةً لهذا النوع من الشعور المسيطر، لكنّه كان هو أيضاً يرغب بها، تلك النقطة 113 لأنّه كان في أسفل هرم القيادة، والأمور تسير نحو النهاية، وبعد عدّة أسابيع سيفوت وقت الحصول على أوسمة. صحيحٌ أنّه صار ملازماً خلال ثلاث سنوات، وذلك أمرٌ لا يُستهان به، لكنّ أيّ فعلٍ متميّزٍ يحقّقه في هذا المجال سيكون كافياً لجعلهم يناقشون أمر منحه رتبة نقيب عند التسريح.

كان براديل مسروراً جدّاً ممّا توصّل إليه: أن يعطي لرجاله دافعاً يجعلهم ينطلقون للاستيلاء على تلك النقطة 113 بعد أن يقنعهم بأنّ البوش قتلوا لتوّهم -وبدمٍ باردٍ- اثنين من رفاقهم. من المؤكّد أنّ ذلك سيثير لديهم وقتها شعور غضبٍ حقيقيٍّ يحرّضهم على الانتقام. أيّة فكرةٍ عبقريّة!

بعد أن أطلق الهجوم، أوكل إلى مساعده أمر قيادة الحملة الأولى. بقي متأخّراً عنهم قليلاً لينجز مهمّةً يجب الانتهاء منها قبل اللحاق بالقسم الأعظم من الوحدة. بعد ذلك سيكون بإمكانه أن يتّجه نحو خطوط العدوّ، ويسبق الجميع بقفزاته الرياضيّة الهوائيّة، فيصل إلى الخطوط الأولى، ويسحق البوش، إن أراد الربُّ ذلك.

ما إنْ أطلق صفّارته الأولى، وعندما بدأ الرجال يلقّمون أسلحتهم، اختار موضعه جهة اليمين على مسافةٍ تكفي لمنع الجنود من أن يذهبوا نحو الجهة السيّئة. لم يكن دمه قد دار سوى دورةٍ واحدةٍ عندما رأى ذلك الشاب، ما كان اسمه؟ الشابّ ذي الوجه الحزين، والعينين اللّتين يبدو عليه معهما أنّه سينخرط في البكاء؟ نعم، مايار، ذلك كان اسمه. كان مايار

يقف هناك جهة اليمين. والسؤال هو: كيف استطاع هذا الحمار الخارج من الخندق أن يصل إلى هناك؟

رآه براديل يجمد في مكانه، يعود إلى الوراء، يركع، وقد ملأه الفضول، ثمّ يدفع جسد غريزونييه العجوز.

المشكلة أنّ هذا الجسد، كانت عين براديل عليه منذ بداية الهجوم. كان يريد أن يتخلّص منه ويخفيه بأيّ شكل، لا بل إنّه ظلّ بسببه في المؤخّرة جهة اليسار؛ من أجل الاطمئنان.

لكن، ها هو هذا الجنديّ الحمار يتوقّف في منتصف جريه، وينظر إلى الجثّتين: جثّة الشابّ، وجثّة العجوز.

هجم براديل مباشرةً، كأنّه ثورٌ هائج. صدقوني. كان ألبير مايار في تلك اللّحظة قد رفع رأسه، وبدا عليه أنّ ما اكتشفه قد زعزع كيانه. عندما رأى براديل يهجم عليه فهِم ما سيحصل له وحاول أن يهرب، لكنّ رعبه كان أقلّ فعاليةً من غضب الملازم. بالكاد فهم ما يحصل عندما صار براديل فوقه، وسدّد له بكتفه ضربةً في البطن، فوقع الجندي في حفرةٍ سبّبتها القذائف، وتدحرج حتّى قاعها. حسنٌ، هما متران فقط لا أكثر، وليس من السهل عليه أن يخرج منها؛ لأنّ ذلك يتطلّب طاقةً، وحتى ذلك الوقت يكون براديل قد حلّ المشكلة.

بعدها لن يكون هناك ما يُقال؛ لأنّه لن يبقى هناك أيّ مشكل.

بقي براديل على حافّة الفتحة المخروطيّة، ونظر إلى الجنديّ في القاع، تردّد حول الحلّ الذي يمكن له أن يجده، ثمّ هدّأته فكرة أنّه يستطيع أن يتحكّم بالوقت الضروري. سيعود بعد ذلك. استدار وابتعد إلى الوراء عدّة أمتار.

كان غريزونييه العجوز مستلقياً على ظهره، وعليه هيئة العناد. ميّزة الموقف الجديد أنّ مايار عندما أدار جسد غريزونييه جعله قريباً من جسد الشابّ لوي تيريو، ما سهّل المهمّة على براديل الذي رمى بنظرةٍ حوله ليتأكّد أنّه ما من أحدٍ يراقبه. تلك كانت مناسبة لتجول بخاطره فكرة سريعة: يا للمذبحة! يدرك الإنسان وقتها كم هي كبيرة الخسارة البشريّة التي سبّبها هذا الهجوم. لكنْ تلك هي الحرب، ولا مجال هنا للفلسفة. نزع الملازم براديل فتيل قنبلة الهجوم التي معه، ووضعها بهدوءٍ بين الجثّتين. وما كاد يبتعد ثلاثين متراً ليحتمي منها، ويداه على أذنيه، حتّى شاهد الانفجار يبدّد جسدَي الجنديّين الميّتين.

في تلك الحرب الكبيرة صار هناك ميّتان أقلّ.

ومفقودان أكثر.

كان عليه أن يذهب ليهتمّ بأمر ذلك الجنديّ الحمار الذي بقي في الحفرة. أخرج براديل قنبلته الثانية. يعرف تماماً كيف يستعملها، فقبل شهرين جمع ما يقارب خمسة عشر عسكريّاً من البوش كانوا قد استسلموا لتوّهم. صفّهم على نحوٍ دائريّ. نظر السجناء إلى بعضهم متسائلين بدون أن يفهم أيٌّ منهم سبب ذلك، وبحركةٍ من يده، وقبل انفجار القنبلة بثانيتين، رماها وسط الدائرة. عمل خبير. أربع سنوات من الخبرة في الرمية الحرّة. نسيت أن أقول تفصيلاً مهمّاً: ما كاد هؤلاء الأشخاص يحاولون فهم ما تدحرج بين أقدامهم، حتّى راحوا مباشرةً نحو الفالهالا[1] حيث يتسنّى لهم أن يعبثوا على هواهم مع الفالكيري، هؤلاء السفلة!

(1) الفالهالا Walhalla: في الأساطير الشماليّة، هي المنطقة التي تنقل إليها محاربات الفالكيري Walkyries أرواح الأبطال الذين يموتون في المعارك. (المترجمة).

كانت تلك قنبلته الأخيرة. بعدها لن يكون لديه ما يرميه في صفوف البوش. هذا مؤسف! لكنْ ما من حلٍّ آخر.

في تلك اللحظة بالذات انفجرت قذيفةٌ، وارتفع رذاذٌ ضخمٌ من التراب، ثمّ انهار. نهض براديل ليرى ما حصل. رُدمت الحفرة تماماً!

جاء ذلك في الوقت المناسب. صار الرجُل تحتها...هذا الحمار!

الميّزة بالنسبة إلى براديل هي أنّه وفّر قنبلةً هجوميّة.

نفد صبره من جديد، وبدأ يركض باتّجاه الخطوط الأولى. هيّا! من المُلحّ الذهاب للتفاهم مع البوش. سنقدّم لهم هديّة وداعٍ مميّزة.

3

كان بيريكور يركض عندما أصيب. هشّمت الرصاصة ساقه. أطلق صرخةً عاليةً أشبه بعواء الحيوانات، وانهار وسط الطين. الألم لا يطاق. راح يتلوّى ويستدير في جميع الاتّجاهات، وهو يتابع الصراخ، وبما أنّه لم يكن قادراً على رؤية ساقه التي كان يضغط عليها عند الفخذ بيديه الاثنتين، فقد تساءل إن كانت هناك شظيّة من الانفجار قد قطعتها. حاول بجهدٍ يائسٍ أن ينهض قليلاً، واستطاع ذلك، وعلى الرغم من الوخزات الفظيعة شعر بالارتياح: ساقه ما تزال هناك، كاملة. لمح القدم في طرفها. سُحقت الساق فوق مستوى الركبة. تدفّق الدم بكميّاتٍ كبيرةٍ، لكنْ كان بمقدوره تحريك طرف قدمه قليلاً؛ كان يتألّم مثل محكومٍ بالإعدام، لكنّها على الأقلّ تتحرّك. على الرغم من الضوضاء، والشظايا، والرصاصات التي تصفر، قال إدوار لنفسه: «ساقي في موضعها». شعر بالطمأنينة من جرّاء ذلك؛ لأنّه لم يكن يحبّ فكرة أن يصبح بساق واحدة.

في بعض الأحيان، كانوا يقولون: «بيريكور الصغير» متلاعبين بالمفارقة؛ لأنّه بالنسبة إلى صبيٍّ ولد عام 1895 كان طويلاً للغاية؛ متر وثلاثة وثمانون سم ليست لعبة. إضافةً إلى ذلك، كان طول القامة من هذا

النوع يوحي مباشرة بالنحول. هكذا كان شكله في الخامسة عشرة. في المدرسة كان رفاقه يسمّونه «العملاق» ولم يكن ذلك صادراً عن حُسْن نيّة؛ فهو لم يكن محبوباً.

إدوار بيريكور كان من النوع المحظوظ. في المدارس التي ذهب إليها كان الجميع مثله، أبناء عائلات غنيّة لا يمكن أن يحصل لهم أيّ شيء، ويأتون إلى الحياة مسلّحين بالقناعات وبالثقة بالنفس، مدعومين بأجيالٍ من الأجداد المترفين الذين سبقوهم. بالنسبة إلى إدوار، كانت الأمور أسوأ أيضاً؛ لأنّه فوق كلّ ذلك كان محظوظاً. يمكن أن تسامح أيّاً كان لأنّه غنيّ، أو لأنّه موهوب؛ أمّا أن يكون محظوظاً، فلا. لا عدل في ذلك.

وفي الواقع كان حظّ إدوار يكمن في حسّه الحاد الذي يمكّنه من حماية نفسه. عندما يكون الخطر كبيراً جدّاً ويصبح مجرى الأحداث مهدِّداً، هناك دائماً ما ينبّهه إلى ذلك. كانت لديه قرون استشعار، ويقوم بما يلزم من أجل أن يبقى داخل السباق بدون أن يخلّف وراءه كثيراً من الخسائر. صحيحٌ أنّ منظر إدوار بيريكور ممدّداً في الطين، وساقه معطوبة تماماً في يوم 2 نوفمبر 1918، يجعلنا نتساءل إن كان حظّه قد بدأ يدور، لكنْ في الاتّجاه المعاكس. في الواقع لا. ليس تماماً، طالما أنّه سيحتفظ بساقه. سوف يعرج إلى آخر يومٍ من حياته، لكنْ مع وجود ساقين.

سحب حزامه بسرعةٍ، وصنع منه عصبةً شدّها بقوّةٍ كبيرةٍ كي يوقف النزيف، ثمّ أتعبه ذلك الجهد، فأرخى نفسه واستلقى. هدأ الألم قليلاً. سيكون عليه أن يبقى هناك لبرهة، لكنّ تلك الوضعيّة لم تعجبه، فقد كان معرّضاً لأن ينشطر بفعل قذيفةٍ، أو أسوأ من ذلك... فالفكرة التي كانت تسري بين الناس في تلك الحقبة هي أنّ الألمان كانوا يخرجون من أخاديدهم في اللّيل لكي يقضوا على الجرحى بالسلاح الأبيض.

مدّ إدوار رقبته في الطين كي ترتخي عضلاته. أحسّ بشيءٍ من الرطوبة. صار الآن يرى ما كان خلفه معكوساً تماماً كما لو كان في الريف مستلقياً بين الأشجار مع فتاة. وهو شيءٌ لم يعرفه قطّ من قبل، مع فتاة. الفتيات اللواتي صادفهنّ كنّ على الأخصّ فتيات المواخير القريبة من كليّة الفنون الجميلة.

لم يستطع أن يستطرد في الذكريات؛ لأنّه رأى فجأةً القامة العالية للملازم براديل. قبل ذلك بلحظات، بينما كان إدوار يتدحرج على الأرض من الألم، ويصنع العصبة من حزامه، كان الجميع يركضون نحو خطوط البوش. وها هو الملازم براديل على بُعد عشرة أمتارٍ منه يقف منتصباً بلا حراكٍ كما لو أنّ الحرب قد توقّفت.

رآه إدوار من بعيد من الجانب وبالمقلوب. يداه على حزامه، وينظر إلى قدميه. كان يبدو مثل عالِم حشراتٍ ينكبّ على عشّ للنمل. هناك وسط الضجيج، ما كان يربكه شيء، كأنّه أحد آلهة الأولمب، ثمّ، كما لو أنّ الأمر انتهى، أو أنّه ربّما لم يعد يعنيه، أنهى مراقبته واختفى. عندما يتوقّف ضابطٌ في خضمّ المهمّة لينظر إلى قدميه، فذلك شديد الغرابة إلى درجة أنّ إدوار توقّف للحظةٍ عن الشعور بالألم. هناك شيءٌ غير طبيعيّ. أن يتعرّض إدوار لسحق قدمه بعد أن اجتاز الحرب كلّها بدون خدش شيء مفاجئ، ثمّ أن يجد نفسه مسمّراً بالأرض، وساقه مهشّمة، فهذا يعني أنّ هناك شيئاً لا يسير على نحوٍ جيّد. طيّب. طالما أنّه جنديّ، وسط صراعٍ قاتلٍ نوعاً ما، فإنّ الإصابة بجرح تظلّ ضمن منطق الأشياء؛ أمّا أن يكون هناك ضابط يتوقّف تحت القنابل ليتأمّل قدميه.....!

أرخى بيريكور عضلاته، وعاد للاستلقاء على ظهره، حاول أن يتنفّس، ويداه مشدودتان حول ركبته تماماً فوق العصبة التي ارتجلها. بعد ذلك

بدقائق، ورغماً عنه، قوّس جسده، ونظر من جديد إلى الموضع الذي كان يقف فيه الملازم براديل قبل لحظات. لا شيء. اختفى الضابط. خطّ الهجوم تقدّم أكثر، وابتعدت الانفجارات بما يقارب عشرة أمتار. كان إدوار يستطيع أن يبقى هنا مركّزاً انتباهه على جرحه، مثلاً: كان يستطيع التفكير لمعرفة إن كان من الأفضل له أن ينتظر النجدة أم أن يحاول جرّ نفسه نحو الخلف. لكنّه بدل ذلك بقي مقوّساً مثل سلطعون خرج من الماء، وظهره محفورٌ، وعيناه مثبّتتان على ذلك المكان.

في النّهاية اتّخذ قراره. وهنا كانت المسألة صعبة للغاية. نهض مستنداً إلى كوعيه من أجل أن يزحف إلى الخلف. لم تعد قدمه اليمنى تتجاوب معه، فاستند إلى قوّة ساعديه مع دعمٍ من الساق اليسرى فقط، في حين كانت الأخرى تنجرّ في الطين مثل عضوٍ ميّت. كلّ مترٍ يقطعه كان بمنزلة جهد. لم يعرف لماذا يتصرّف هكذا، وهو عاجز عن قول أيّ شيءٍ سوى أنّ براديل كان رجُلاً مقلقاً بالفعل، وما من أحدٍ يستطيع أن يفهمه. أكّد القول المأثور بأنّ الخطر الحقيقيّ على العسكريّ ليس العدوّ، إنّما التراتبيّة. ومع أنّ إدوار لم يكن مسيّساً كفايةً بحيث يقول لنفسه إنّ ذلك من طبيعة المنظومة، فإنّ ذهنه قد راح في هذا الاتّجاه.

توقّف فجأةً وسط اندفاعه. كان قد زحف ما يقارب سبعة، أو ثمانية أمتار لا أكثر عندما حصل انفجارٌ مرعب. قذيفة باستطاعةٍ لا يمكن توقّعها جعلته يتسمّر على الأرض. ربّما أنّ استلقاءه على الأرض هو الذي ضخّم صوت الانفجار. تصلّب مشدوداً مثل عصا طويلة، متيبّساً. حتّى ساقه اليمنى لم تقاوم تلك الحركة. بدا مثل مصابٍ بالصرع وسط النوبة. ظلّت نظرته مثبّتةً على الموقع الذي كان يقف فيه براديل قبل دقائق عندما ارتفع رذاذٌ هائلٌ من التراب مثل موجةٍ غاضبةٍ محمومةٍ، ونهض عالياً في

الهواء. ظنّ إدوار أنّ تلك الموجة ستدفنه لكثرة ما شعر بها قريبة تحيط به من جميع الجهات، قبل أن تسقط بضجّةٍ مرعبةٍ مكتومة مثل تنهيدةٍ يطلقها غول. الانفجارات، والرصاصات التي تصفر، والصواريخ المضيئة التي تنفرش في السماء، كانت لا شيء بالمقارنة مع ذلك الجدار من التراب الذي انهار بالقرب منه. شلّه الرعب فأغلق عينيه. الأرض تهتزّ تحته. تكوّم على نفسه. توقّف عن التنفّس، وعندما استعاد رشده، ولحظ أنّه ما يزال حيّاً، تملّكه الشعور بأنّه قد خضع لمعجزة.

سقط التراب على نحوٍ كامل. بعدها مباشرةً، مثل جرذ المجارير، وبحميّةٍ ما كان يستطيع أن يفسّرها، زحف إدوار من جديد، وهو ما زال على ظهره. توقّف هناك حيث دلّه قلبه أن يفعل، ثمّ فهم: لقد وصل إلى المكان الذي انهارت الموجة فيه. في ذلك الموقع كانت هناك نقطة من الفولاذ تشقّ الأرضيّة ضمن التراب شبه المسحوق. على بعد سنتمترات كان هناك طرف حربة. الرسالة واضحة. تحت هذه الكومة هناك جنديٌّ مدفون.

مسألة الدفن تحت التراب من كلاسيكيّات الحرب. إحدى القصص التي سمع الناس يروونها، لكنّه لم يواجهها قطّ شخصيّاً. في الوحدات التي قاتل فيها، كان هناك دائماً رجال إطفاء مزوّدين برفوش أو معاول من أجل محاولة إخراج الأشخاص الذين يكونون في تلك الوضعيّة السيّئة. لكنّهم كانوا يصلون متأخّرين دائماً، ولذلك كانوا يُخرجون الجنود بوجوهٍ مزرقّةٍ، وعيونٍ تبدو كأنّها قد انفجرت. مرّ خيال براديل للحظةٍ في ذهن إدوار، لكنّه لم يرغب بالتوقّف عنده.

يجب فعل شيء. بسرعة.

استدار على بطنه، فجعله جرح ساقه يصرخ ألماً؛ لأنّ الجرح انفتح من

جديد، وبدا كأنّه يغلي، ثمّ انسحق مجدّداً على الأرض. لم تكد صرخته المحشرجة تنتهي حتّى راح يحفّ الأرض بجنون، وقد تقوّست أصابعه على شكل مخالب. تلك أداة عبثيّة في حال بدأ الرجُل الذي تحت التراب يفتقد إلى الهواء... لم يحتج إدوار إلى وقتٍ طويلٍ حتّى يلحظ ذلك. في أيّ عمق هو موجود؟ لو كان لديه فقط ما يستطيع أن يحفّ التراب به. استدار بيريكور نحو اليمين. وقع بصره على جثث، وما عدا ذلك لا شيء آخر مرميّ هنا، أو هناك. لا أداة. لا شيء. الحلّ الوحيد هو أن يتوصّل إلى سحب تلك الحربة، ويستخدمها للحفر. لكن ذلك يتطلّب ساعات. خيُّل إليه أنّ الشخص ينادي. طبعاً، حتّى لو لم يكن مدفوناً في العمق، مع كلّ هذا التراب الموجود هنا، ما من وسيلةٍ تجعله يسمعه حتّى لو كان يصرخ عالياً. كان ذلك من فعل خياله، خيال إدوار. شعر بدماغه يغلي، وأدرك كم كان الأمر مُلحّاً. فالمدفونون يجب إخراجهم مباشرةً، أو سحبهم، وهُم أموات. بينما كان ينبش بأظافره حول أطراف الحربة التي بدأت تظهر راح يتساءل إن كان يعرف الجنديّ المدفون. جالت في خاطره أسماء شباب من وحدته، ووجوه. ذلك أمر يتناقض مع الظروف الحاليّة: إنّه يريد أن ينقذ هذا الرفيق، وأن يكون شخصاً كان قد تكلّم معه، شخصاً يحبّه. ساعده ذاك النوع من التفكير على أن يعمل بسرعة. راح يستدير باستمرار نحو اليمين واليسار باحثاً بنظره عن مساعدةٍ ما، لكنْ لا شيء. أصابعه تؤلمه. استطاع مع ذلك أن يخرج التراب من عمق عشرة سنتمترات تقريباً من كلّ جهة. لكنّه عندما حاول أن يهزّ الحربة، لم تتحرّك ميليمتراً واحداً كما يحصل مع سنٍّ سليم لا يريد أن يُخلع. يجعلك ذلك تتخاذل. كم مضى عليه، وهو منكبٌّ بكلّ إصرارٍ على فعل ذلك؟ دقيقتان؟ ثلاث؟ ربّما أنّ الشخص قد مات وانتهى. بدأ إدوار يشعر بألمٍ في كتفيه بسبب وضعيّة

جسده. لن يستطيع التحمّل طويلاً بهذه الوضعية. اجتاحه نوعٌ من الشكّ، نوعٌ من الإنهاك، تعبت حركاته، فقدَ تنفّسه، تصلّبت عضلات ساقه، أصابه تشنّج، ضرب الأرض بقبضته. فجأةً صار متأكّداً: هناك حركة! سالت دموعه مباشرةً، راح يبكي بالفعل. أمسك بطرف قطعة المعدن بيديه، وشدّ ودفع بكلّ قواه وبدون توقّف. مسح بظاهر كفّه الدموع التي أغرقت وجهه، فجأةً صار الأمر سهلاً. لم يعد يحرّك، إنّما راح ينبش، وغاص بيده محاولاً سحب الحربة. أطلق صرخة انتصارٍ عندما خضعت لجهده. أخرجها وتأمّلها لبرهةٍ قصيرةٍ كما لو كان لا يصدّق، كما لو كان يرى حربةً للمرّة الأولى، لكنّه أعاد غرزها بحركةٍ محمومة. صرخ. زمجر وطعن الأرض. رسم دوائرَ واسعةً بالحافّة الحادّة، ثمّ وضع النصل على عرضه، ومرّره تحت التراب ليرفعه ويبعده بيده. كم من الوقت استغرقه ذلك! ألم ساقه راح يزداد حدّة. أخيراً، هنا. رأى شيئاً. ربّت بيده. قماش. زر. حفرَ مثل مجنونٍ، مثل كلب صيدٍ حقيقيّ. تلمّس من جديد. إنّها سترة. وضع عليها راحتيه. يديه. ذراعيه. انهار التراب كما لو كان فوق حفرة. شعر بأشياء لم يعرف ما هي، ثمّ التقى بالجزء المصقول من خوذة. تبع حوافّها، وبأطراف أصابعه وجد الشاب. «هيه!». كان ما يزال يبكي، إدوار، ويصرخ في الوقت نفسه، في حين راحت ذراعاه اللّتان تتحرّكان بقوّةٍ لا يتحكّم بها تزيلان الأوساخ بجنونٍ وتكنّسان التراب. ظهر أخيراً رأس الجنديّ على بُعد أقلّ من ثلاثين سنتمتراً كما لو كان نائماً. تعرّف عليه، ماذا كان اسمه؟ إنّه ميّت. تلك الفكرة كانت مؤلمةً إلى درجة أنّ إدوار توقّف ونظر إلى ذلك الرفيق القابع تحته تماماً، ولبرهة، شعر بنفسه هو الآخر ميّتاً، وبالقدر نفسه. ما رآه كان موته هو، وكان الألم الذي سببه ذلك عميقاً.... عميقاً...

استمرّ يُخرج ما تبقّى من الجسد، وهو يبكي. جرى الأمر بسرعة. ها

هما الكتفان، الصدر حتّى الحزام. أمام وجه الجنديّ هناك رأس حصان ميّت. قال إدوار لنفسه: غريبٌ كيف اتّفق أنْ دُفنا هكذا معاً، وجهاً لوجه؟ من خلال دموعه رأى الصورة التي يمكن أن يرسمها لهما فيما بعد. كان ذلك أقوى منه. يمكن أن يتمّ الأمر على نحوٍ أسرع لو استطاع أن يقف ويأخذ وضعيّةً مختلفةً، لكنّه سيتوصّل إلى ذلك بوضعه الحالي. قال لنفسه بصوتٍ عالٍ أشياء غاية في السخافة. قال، وهو يبكي مثل عجلٍ صغيرٍ: «لا تقلق»، كما لو كان الآخر يستطيع سماعه. كانت لديه رغبة بأنْ يضمّه إليه، وقال أشياء يمكن أن يخجل منها كثيراً فيما لو سمعها شخصٌ آخر، لأنّه في أعماقه كان يبكي موته هو. كان يبكي خوفه الذي عاد إليه، وهو يستطيع أن يعترف بذلك الآن. منذ سنتين وهو يرتعد رعباً من أن يكون في يومٍ من الأيّام الجنديّ الميّت مقابل جنديٍّ آخر مجروحٍ فقط. إنّها نهاية الحرب. تلك الدموع التي ذرفها على رفيقه هي دموع شبابه، دموع حياته. أيّ حظّ ذلك الذي ناله! هو المشلول، بتلك الساق التي عليه أن يجرّها حتّى نهاية حياته. يا سلام. إنّه حيّ. وبحركاتٍ واسعةٍ وكبيرةٍ أنهى الكشف عن الجسد.

تذكّر الاسم: مايار. لم يعرف اسمه الأول قطّ. كانوا يقولون: مايار فقط.

ثمّ شعر بالشكّ. قرّب وجهه من وجه ألبير، تمنّى لو يخرس كلّ ذلك العالم الذي ينفجر في كلّ مكان حوله كي يسمع، لأنّه كان مع ذلك يتساءل، هل هو ميّت؟ وعلى الرغم من أنّه كان مستلقياً قربه، وأنّ تلك الوضعيّة ما كان فيها شيء عمليّ، فقد صفعه. صفعه بقدر ما يستطيع من القوّة. رأس مايار تبع الحركة بدون أن يأتي بنأمة. هذا لا يعني شيئاً، والفكرة التي جالت برأسه كانت سيّئةً جدّاً. تخيّل أنّ الجنديّ ربّما لم يكن ميّتاً تماماً، وهي

فكرة ستسبّب له ألماً أكثر. لكنْ ما الحيلة، الأمر كذلك الآن مع وجود هذا الشكّ وذلك السؤال. عليه حتماً أن يتحقّق، ومن المخيف بالنسبة إلينا أن نرى ذلك. لدينا رغبة في أن نصرخ به: توقّف، لقد فعلتَ ما بوسعك! لدينا رغبة في أن نمسك بيديه، بنعومة، وأن نشدّ عليها بين أيدينا لكي يتوقّف عن الحركة، وعن الشعور بالتوتّر. لدينا رغبة في أن نقول له أشياء تُقال للأطفال الذين يصابون بنوبة غضب، وأن نضمّه حتّى تنضب دموعَه. بمعنى آخر: أن نهدهده. المشكلة فقط أنّه ما من أحد بالقرب من إدوار ليريه الطريق الجيّد. لا أنتم، ولا أنا. في ذهنه انبثقت من بعيد تلك الفكرة بأنّ مايار ربّما لم يكن قد مات فعلاً. رأى إدوار ذلك مرّة، أو أنّ هناك من روى له ذلك. لعلّها خرافة من تلك التي تتردد في جبهات القتال، أو إحدى تلك القصص التي لم يشهدها أحد عن جنديٍّ ظنّوه ميّتاً، ثمّ أُنعِشَ، كان قلبه هو السبب، ولذلك عاد يشتغل من جديد.

غير معقول كلّ هذا الوقت الذي استغرقه التفكير بذلك على الرغم من الألم! انتصب إدوار على ساقه السليمة. في أثناء وقوفه، رأى ساقه اليمنى مسحوبة خلفه، لكنّه أبصر ذلك ضمن ضبابٍ يختلط فيه الخوف بالإنهاك، والألم باليأس.

استجمع قوّته، للحظة قصيرة.

خلال ثانية، وقف على ساقٍ واحدةٍ مثل مالك الحزين. لم يرتبط توازنه بشيء. ألقى نظرةً تحته، ثمّ بعد أن أخذ نَفَساً سريعاً، لكنّه عميق، ترك نفسه يسقط على نحوٍ فجٍّ على صدر ألبير، بكلّ ثقله.

كان صوت قرقعة الأضلاع المهروسة والمكسورة مخيفاً.

سمع إدوار حشرجة. دارت الأرض تحته وانزلق إلى الأسفل كما لو

كان يسقط عن كرسي. لكنْ لم تكن الأرض هي التي ارتفعت، بل ألبير هو الذي استدار وتقيّأ أحشاءً وأمعاءً وبدأ يسعل. لم يصدّق إدوار عينيه. امتلأتا بالدموع، لا شكّ في أنّه محظوظ، إدوار هذا، أنتم تعترفون له بذلك. استمرّ ألبير بالتقيّؤ، وراح إدوار يربّت بفرح على ظهره، كان يبكي ويضحك في الوقت نفسه. ها هو جالس هنا، في ميدان المعركة المقفر هذا، بالقرب من رأس حصانٍ نافقٍ، وساقه مثنيّة بالمقلوب، ومغطّاة بالدم، وهو على وشك السقوط من الإنهاك، ومعه هذا الشخص الذي يعود من بين الأموات، وهو يتقيّأ...

بالنسبة إلى نهاية حرب، كان ذلك شيئاً خاصّاً، صورة جميلة، لكنّها ليست الأخيرة. ففي حين كان ألبير مايار يستعيد وعيه على نحوٍ مبهمٍ، ويصرخ بكلّ قوّته، وهو يتدحرج على جنبه، كان إدوار مستقيماً مثل حرف الألف يلعن السماء كما لو كان يدخّن عصا من الديناميت.

عندها تماماً أتت للقائه شظيّة متفجّرة كبيرة بحجم صحن حساء؛ سميكة وسرعتها هائلة.

كان ذلك جواب الآلهة. لا شكّ في ذلك.

4

صعد الرجلان إلى السطح بطريقتين مختلفتين تماماً.

ألبير الذي عاد من بين الأموات، وهو يتقيّأ أمعاءه وأحشاءه، استعاد وعيه على نحوٍ غائمٍ في سماء تخطّطها القذائف، ممّا بيّن له أنّه عاد بالفعل إلى الحياة الحقيقيّة. ما كان قادراً على إدراك ذلك بعد، لكنّ العبوة التي فجّر فتيلها ووجّهها الملازم براديل كانت قد وصلت إلى نهايتها. أخيراً رُبحتْ النقطة 113 هذه بسهولة. فبعد مقاومة ممتلئة بالحميّة، لكنّها قصيرة، استسلم العدوّ، وتم أسر سجناء. كلّ شيء، من البداية حتّى النهاية، كان مجرّد شكليّات نتج عنها ثمانية وثلاثون قتيلاً، وسبعة وعشرون جريحاً، ومفقودان اثنان (لم يُحسَب البوش في هذا العدد)، يعني أنّ ذلك كان استسلاماً ممتازاً.

عندما قام حاملو النقّالة بلمّه من ميدان المعركة، كان ألبير يمسك برأس إدوار بيريكور على ركبتيه، يغنّي له ويُهدهده في حالة وصفها المنقذون بأنّها «هلوسة». كانت كلّ أضلاعه متصدّعة، مكسورة، أو مشعورة، لكنّ الرئتين كانتا سليمتين. آلامه لا تطاق، ما يُعدّ في نهاية الأمر علامةً طيّبةً، دلالةً على أنّه حيّ. مع ذلك لم يكن منتعشاً، حتّى لو أراد ذلك، كان مجبراً على أن يؤجّل إلى ما بعد تفكيره حول الأسئلة التي يثيرها وضعه.

مثلاً: بأيّة معجزة، وبرحمة أيّة إرادة عليا، بأيّة مصادفة لا يمكن فهمها توقّف قلبه عن الخفقان لعدّة ثوانٍ فقط قبل أن ينطلق الجندي بيريكور في عمليّة إنعاشه بتقنيّاته الخاصّة به تماماً. كلّ ما استطاع أن يلحظه هو أنّ الآلة عادت إلى العمل مع بعض القفزات القصيرة المتقطعة، والتشنّجات، والمطبّات، لكنّ الأساسي تم الحفاظ عليه.

الأطبّاء، بعد أن قاموا بإحكام لفّه بالضماد، أعلنوا أنّ علمهم يتوقّف هنا، ورفّعوه إلى صالةٍ واسعةٍ مشتركةٍ يتعايش فيها كيفما اتّفق جنودٌ يحتضرون، وبعض الذين كانت جروحهم خطرة، وعددٌ من المشلولين من جميع الأشكال؛ وحيث كان أكثرهم صلاحية، على الرغم من الجبائر يلعبون الورق، وهُم ينظرون إليه عبر ضماداتهم.

بفضل الاستيلاء على النقطة 113، عاد المستشفى الأماميّ إلى نشاطه بعد أن كان العمل قد خفّ فيه قليلاً خلال تلك الأسابيع الأخيرة في انتظار الهدنة. لكنْ بما أنّ هذا الهجوم لم يُحدث دماراً كبيراً، فقد كان إيقاع العمل فيه طبيعيّاً، وهو ما لم يعرفه المستشفى منذ ما يقارب أربع سنوات. صارت الراهبات الممرّضات قادرات على الاهتمام قليلاً بالجرحى الذين يموتون من العطش، ولا يضطرّ الأطبّاء إلى العدول عن معالجة الجنود قبل موتهم بمدّةٍ طويلةٍ، والجرّاحون الذين لم يناموا منذ اثنين وسبعين ساعة لا يتلوّون بفعل التشنّجات التي تصيبهم لكثرة ما نشروا عظام الساق، والفخذ، والعضد.

بمجرّد وصوله، خضع إدوار لعمليّتين مرتجلتين. كانت ساقه اليمنى مكسورةً في عدّة مواضع. الأربطة والعضلات مضروبة. سيبقى أعْرجَ

طيلة حياته. العمليّة الأكثر أهمية كانت تتعلّق باستكشاف جروح الوجه من أجل انتزاع الأجسام الغريبة منه (بقدر ما تسمح به المواد الموجودة في المستشفى الميدانيّ). أعطوه اللقاحات الضروريّة، وفعلوا اللازم من أجل إعادة المجاري التنفسيّة إلى وضعها وتجنّب مخاطر الغرغرينا الغازيّة. قُطعت الجروح بعمقٍ من أجل تجنّب الالتهاب؛ أمّا الباقي؛ أي ما هو أساسيّ، فكان يجب أن يُعهد به إلى مستشفى في الخطوط الخلفيّة، تجهيزاته أفضل، قبل التفكير بإرساله فيما بعد إلى مؤسّسةٍ متخصّصةٍ، اللهمّ إن لم يمت الجريح قبل ذلك.

أُعطِيَ الأمرُ بنقل إدوار على جناح السرعة، وبانتظار ذلك سمحوا لألبير بأن يبقى بالقرب من رفيقه بعد أن ذاعت قصّته في جميع أرجاء المستشفى، وحُرِّفَتْ بقدر انتشارها. ولحُسن الحظّ، كان من الممكن وضع الجريح في غرفةٍ فرديّةٍ في قطاعٍ متميّزٍ من البناء الذي يقع في أقصى الجنوب، حيث لم تعد تُسمع تأوّهات المحتضر على نحوٍ دائم.

ألبير الذي كان عاجزاً عن فعل أيّ شيءٍ تقريباً، شهدَ كيف بدأ إدوار يستعيد وعيه بالتدريج، وكيف تعرّض إلى نشاطاتٍ منهكةٍ وعشوائيّةٍ لم يفقه منها شيئاً. كان يلمح مصادفةً لدى الشابّ تعبيراتٍ وإيماءاتٍ وجهيّةً يعتقد أنّه يفسّرها على نحوٍ صحيح، لكنّها كانت سريعة الزوال إلى درجة أنّها تهرب قبل أن يجد ألبير كلمةً واحدةً قادرةً على وصفها. قلت لكم ذلك من قبل. ألبير لم يكن لمّاحاً قطّ، والحادث الصغير الذي راح ضحيّته للتوّ لم يغيّر شيئاً في وضعه.

كان إدوار يتألّم على نحوٍ مرعبٍ من جروحه. يصرخ بأعلى صوته، ويهيج بغضبٍ إلى درجة كان من الضروري معها ربطه بالسرير. فهم ألبير

عندها أنّ الغرفة في طرف البناء لم تُعطَ للجريح من أجل راحته، إنّما لتجنيب الآخرين تحمّل تأوّهاته طيلة النهار. أربع سنوات من الحرب لم تكن كافيةً؛ إذْ ظلّت سذاجته تقريباً على حالها.

كان ألبير يفرك يديه طيلة الساعات، وهو يسمع رفيقه يُعْول بأعلى صوته. صرخاته، وتأوّهاته، ونشيجه، وزئيره كانت تغطي في عدّة ساعات جميع تدرّجات التعبير لدى الإنسان عندما يجد نفسه دائماً على حدود الألم والجنون.

وفي حين كان ألبير غير قادر على الدفاع عن مصالحه أمام موظّفٍ بسيطٍ في المصرف الذي يعمل فيه، تحوّل الآن إلى محامٍ شرسٍ، وراح يدافع قائلاً بأنّ الشظايا المتفجّرة التي تلقّاها رفيقه ليست أبداً مثل نثرة غبار في العين... إلخ. حسب مستوى قدراته، استطاع أن يدبّر الأمر، وظنّ أنّه كان مفيداً. في الواقع كان عاطفيّاً فقط، ولم يكن ذلك كافياً طبعاً. لكنْ بما أنّه جرى القيام بكل ما يمكن بانتظار نقل إدوار، فقد قبل الجرّاح الشابّ أن يصف له المورفين ليخفّف آلامه، شريطة الاكتفاء بالجرعة الأدنى، وأن تُخفّف على نحوٍ منتظم. ما كان يمكن على الإطلاق أن يبقى إدوار هناك لوقتٍ أطول، فقد كانت حالته تتطلّب عنايةً متخصّصةً وسريعةً في آن. كان نقله من أكثر الأمور إلحاحاً.

بفضل المورفين، صار تعافي إدوار أقلّ صخباً. أحاسيسه الواعية الأولى كانت مشوّشة. يصعب عليه تمييز البرد والحرّ وبعض الأصداء، ولا يمكنه التعرّف إلى أصوات الناس الذين يتحدّثون إليه، والأصعب كانت الاندفاعات التي تجتاح جسده بأكمله انطلاقاً من صدره، وتتناغم مع دقّات قلبه. هذا التتالي الذي لا ينقطع من الموجات يتحوّل إلى تعذيبٍ عندما تتناقص تأثيرات المورفين. كان رأسه علبة طنين، وكلّ موجةٍ تنتهي

بضرباتٍ شديدةٍ وصمّاء تشبه الضجيج الذي يصدر عن ارتطام أطواق نجاة البواخر برصيف الميناء عند الوصول إلى البر.

شعر بساقه أيضاً، تلك التي على اليمين، والتي هرستها رصاصةٌ ملعونةٌ، وأسْهم هو في زيادة تشويهها عندما ذهب لإنقاذ ألبير مايار. لكنّ هذا الألم كان يصبح مبهماً بدوره بتأثيرٍ من الأدوية المخدّرة. أدرك إدوار بدون كثير من الوضوح أنّه ما زال يحتفظ بساقه، وهو ما كان صحيحاً. كانت مفرومة، وهذا أكيد، لكنّها قادرة (ولو جزئيّاً) على تقديم الخدمات التي يحقّ له أن ينتظرها من ساق عادت لتوّها من الحرب العالميّة الأولى. ظلّ وعيه بالأحداث مدّةً طويلةً مظلماً، غارقاً تحت الصور المتخيّلة. كان إدوار يعيش في حلمٍ فوضويٍّ لا يتوقّف يتلاحق فيه بدون تنظيم، ولا أولويّات تكثيف لكلّ ما كان قد رآه حتى تلك اللّحظة، وكلّ ما عرفه، وسمعه، وشعر به.

كان دماغه يخلط الواقع مع الرسومات واللّوحات، كما لو أنّ الحياة ليست سوى عملٍ إضافيٍّ متعدّد الأشكال في متحفه المُتخيّل. الجماليّات المتلاشية لبوتيتشيلي، والرعب المفاجئ للصبي الذي لدغته سحليّة في لوحة كارافاجيو كانت تأتيه بعد وجه البائعة المتجوّلة في شارع لي مارتير، التي كانت جدّيتها تثير لديه الاضطراب دائماً؛ أو -والله يعلم لماذا- صورة ياقة أبيه المستعارة، تلك التي كان لونها يميل إلى الوردي.

وسط هذا الخليط من الأشياء العاديّة اليوميّة، ومن شخصيّات وليم بوش، ومن الأجساد العارية والمحاربين الغاضبين، كانت تنبثق على نحوٍ متكرّرٍ لوحة أصل العالم. مع أنّه لم يرَ تلك اللّوحة إلّا مرّة واحدة فقط، وبالسرّ، عند صديقٍ للعائلة. أحدّثكم عن زمنٍ يعود إلى ما قبل الحرب، حين كان في الحادية عشرة، أو الثانية عشرة من عمره. كان ما يزال في

تلك الفترة في مدرسة سانت كلوتيلد. سانت كلوتيلد هي ابنة شيلبيريك وكاريتين، أية عاهرة هذه المرأة! قام إدوار برسمها في جميع الوضعيّات: كأن يقوم عمّها غوديجيزيل بالتهامها، أو يخترقها كلوفيس من الخلف. ونحو عام 493، تقوم بلعق ملك بورغونديا، في حين يمسك بها ريمي أسقف رانس من ظهرها. تسبّب ذلك في طرده للمرّة الثالثة والنهائيّة. أقرّ الجميع بأنّ رسوماته كانت نتيجة بحثٍ دقيقٍ، حتّى إنّهم تساءلوا: أين استطاع في عمره العثور على النماذج التي استلهم منها كلّ هذه التفاصيل؟ أمّا والده الذي كان يعدّ الفنّ فساداً ينتجه مصابون بالزهري، فكان يصرّ على أسنانه. لكنْ حتّى ما قبل مرحلة سانت كلوتيلد، ما كانت الأمور تسير على ما يرام بالنسبة إلى إدوار، وعلى الأخصّ مع أبيه. كان يعبّر عن نفسه دائماً بالرسم. وفي كل المدارس التي درس فيها، نال كل واحد من معلّميه شرف الحصول -في يومٍ من الأيّام- على كاريكاتور يمثّله على اللّوح الأسْود بارتفاع متر. لا ريب في أنّ ذاك كان من فعل إدوار ولا أحد غيره، وبصْمته واضحة عليه. على مدى السنوات، تطوّرت شيئاً فشيئاً مصادر إلهامه التي كانت في البداية تتمحور حول حياة المدارس التي كان والده بفضل علاقاته ينجح في جعله يُقبل فيها، ودخلت فيها مواضيع جديدة هي ما يمكن تسميته «المرحلة المقدّسة» التي وصلت إلى الأوج مع المشهد الذي كانت فيه الآنسة جوست أستاذة الموسيقى تبدو بهيئة جوديث نهمة تحمل رأس هولوفيرن[1] المقطوع الذي يشبه إلى درجة لا

---

(1) واحدة من القصص المذكورة في العهد القديم. فبعد أن استولى هولوفيرن؛ أحد جنود نبوخذ نصر على المدينة اليهوديّة، قطعت جوديث رأسه بعد أن أغرته بالشراب حتى فقد المقاومة. المقطع بأكمله يذخر بالإرجاعات إلى لوحاتٍ لفنّانين معروفين شكّلوا مصادر إلهامٍ لإدوار. (المترجمة).

يمكن الخطأ فيها الأستاذ لابورس، أستاذ الرياضيّات. كان الجميع يعلم بوجود علاقةٍ جنسيّةٍ بين هذين الاثنين حتّى مرحلة افتراقهما عن بعضهما التي رمز إليها بمشهد قطع الرأس الرائع هذا. وهكذا، بفضل إدوار الذي كان ينقل وقائع ما جرى، حصل الجميع على عددٍ لا بأس به من المراحل الصادمة المرسومة على ألواح الصفوف، وعلى الجدران، وعلى الأوراق التي كان المدرّسون أنفسهم عندما تقع بين أيديهم يتناقلونها الواحدة تلو الأُخرى قبل إعطائها للمدير. ما كان أحد يستطيع أن يلمح في الباحة أستاذ الرياضيّات الباهت بدون أن يتخيّل شكله كعفريتٍ بذيءٍ لديه عدة رجوليّة مذهلة. كان عمر إدوار وقتها ثمان سنوات. هذا المشهد التوراتي سبّب له استدعاءً لمقابلة السلطات العليا في المدرسة. ولم يتحسّن الوضع بالحديث إليه؛ فعندما قام المدير بذكر جوديث بلهجةٍ غاضبةٍ، وهو يلوّح بالصورة بيده، نبهّه إدوار إلى أنّ الشابّة تحمل الرأس المقطوع من شعره، وبما أنّ ذلك الرأس كان موجوداً على صحنٍ، فمن الأجدى أن نرى فيها صورة سالومي بدل جوديث، وبالتالي يوحنا المعمدان بدل هولوفيرن. بتصرّفاته التي تشبه تصرّفات القرد العالم كان لدى إدوار ذلك الجانب المتحذلق الذي يزعج بالفعل.

لا شكّ في أنّ مرحلة الاستلهام المهمّة لديه، تلك التي يمكن أن نصفها بأنّها «مزدهرة»، قد بدأت في فترة ممارسة العادة السريّة؛ حيث صارت مواضيعه تفيض بالخيال الخصب والابتكار. اللوحات الجداريّة التي يرسمها كان فيها عددٌ كبيرٌ من الشخصيّات، ما يسمح بوضعيّاتٍ جنسيّةٍ فريدةٍ من نوعها، وهي تمثل مجمل العاملين في المدرسة، بما فيهم المستخدمين الذين ارتفعوا بذلك إلى مصاف عالية جرحت كبرياء الكوادر التي تعمل في المؤسّسة. كان الجميع يضحكون على الرغم من

أنّ كلّ واحدٍ منهم حين يكتشف هذه المخيّلة الشهوانيّة يبدأ بطرح بعض التساؤلات حول حياة إدوار. وأكثرهم حنكةً كانوا يميّزون لديه ميلاً مقلقاً للعلاقات... -كانوا يبحثون عن الكلمة-... العلاقات المشبوهة.

كان إدوار يرسم طيلة الوقت. يقولون عنه: إنّه بذيءٌ؛ لأنّه يعشق أن يصدم، ولم يكن يفوّت مناسبةً لفعل ذلك. لكنّ صورة أسقف رانس، وهو يضاجع سانت كلوتيلد من الخلف، قد أهانت المؤسّسة بالفعل، وأثارت الغيظ لدى أهله. أبوه -كالعادة- دفع ما يلزم من أجل تجنّب الفضيحة. مع ذلك ما كان هناك شيء يثني المؤسّسة عن قرارها. من غير الممكن التفاوض معهم حول مسألة العلاقة الجنسيّة من الخلف. كلّ العالم ضد إدوار. عدا بعض الرفاق، وعلى الأخص أولئك الذين كانت الرسومات تدغدغهم؛ أمّا أخته مادلين، فقد جعلها ذلك تضحك. ليس لأنّ الأسقف كان يخترق كلوتيلد، فتلك قصّة قديمة، إنّما لأنّها تخيّلت وجه المدير، الأب هوبير... نعم، كانت قد ذهبت إلى هناك هي أيضاً، إلى سانت كلوتيلد، في الجهة المخصّصة للبنات، وهي تعرف ذلك عن ظهر قلب. مادلين كانت تضحك كثيراً من جرأة إدوار، ومن وقاحاته المتكرّرة. كانت مغرمة بلخبطة شعره، شريطة أن يكون مستعداً لذلك؛ لأنّه على الرغم من كونه أصغر منها، كان طويلاً جدّاً... كان يميل نحوها فتغوص بأصابعها في شعره الكثيف، وتقوم بفرك جلد رأسه بكثير من الحميّة بحيث ينتهي بأن يطلب الرحمة منها، وهو يضحك. ما كان يجب أن يجدهما أبوهما، وهما يفعلان ذلك.

ولكي نعود إلى إدوار، على صعيد التعليم لم ينقصه شيء لأنّ أهله كانوا أغنياء جدّاً، لكنّ تربيته لم تتم بالطريقة المناسبة. كان السيد بيريكور

يكسب كميّةً هائلةً من المال قبل الحرب، فهو من أولئك الذين يغتنون من الأزمات حتّى لتظنّ أنّ الأزمات مصُمّمة لهم؛ أمّا الأم، فما كان أحد يتكلّم قطّ عن ثروتها، فتلك كانت مهمّة غير مفيدة، كما لو سألت عن كميّة الملح داخل البحر. لكنْ بما أن الأم ماتت شابّةً بسبب مرضٍ في القلب، فقد بقي الأب وحْده في القيادة. كانت أعماله تستحوذ عليه، ولذلك فوّض تعليم أولاده إلى مؤسّساتٍ، وأساتذةٍ، ومربّين. فريق كامل. كان ذكاء إدوار فوق المتوسط بمعرفة الجميع، ولديه موهبة غير معقولة في الرسم ولدت معه، إلى درجة أنّ أساتذته في الفنون الجميلة كانوا عاجزين عن الكلام أمامها. وكان لديه أيضاً حظّ قوي لدرجة تغيظ الآخرين. ما الذي يأمله أكثر من ذلك! ربّما لكلّ هذه الأسباب كان مستفزّاً دائماً. فمعرفة أنّه لا يوجد أيّ خطر، وأنّه يمكن تدبّر كلّ شيء في النهاية، يجعل الإنسان بلا قيود. يمكنه قول كل ما يريد، وكما يريد. وفوق ذلك هذا يطمئن: فكلّما تعرّض للخطر قاس مقدار الحماية التي يستطيع أن ينالها. والواقع أنّ السيد بيريكور أنقذ ابنه من جميع المؤسّسات، لكنّه فعل ذلك لصالحه هو؛ لأنّه يرفض أن يُلوّث اسمه بشيء. وهذا لم يكن سهلاً؛ لأنّ إدوار كان بمنزلة تحدٍّ دائمٍ، ويعشق الفضائح. انتهى الأب بأن يفقد الاهتمام بمصير ابنه وبمستقبله، وقد استفاد إدوار من ذلك لكي يدخل إلى كليّة الفنون الجميلة. أخت محبّةٌ تحميه، وأب محافظ جدّاً يتنكّر له في كلّ دقيقة، وموهبة لا يمكن أن يعترض عليها أحد. كان لدى إدوار كلّ ما يلزم لكي ينجح. لكنّنا نعلم بالطبع أنّ الأمور لم تجرِ هكذا فيما بعد، هذا إذا لم نتحدّث عن ساقه التي تشوّهت على نحوٍ رهيب.

ألبير الذي كان يسهر بجانب إدوار و يغيّر له ثيابه الداخليّة ما كان بالطبع يعرف شيئاً من كلّ ذلك. الشيء الوحيد الذي كان أكيداً منه هو أنّه

أيّا كان مسار إدوار بيريكور، فإنه قد غيّر اتجاهه على نحوٍ مفاجئٍ في الثاني من نوفمبر 1918.

وأنّ ساقه اليمنى ستصبح بسرعةٍ آخر همومه.

كان ألبير يمضي إذنْ كلّ وقته بالقرب من رفيقه، وقد اشتغل طواعية كمساعدٍ للممرّضات. كانت توكل إليهنّ مهمّة تقديم العناية من أجل إيقاف خطر الالتهاب والتغذية عبر أنبوب (كان يوصف له خليط من الحليب، والبيض المخفوق، وعصير اللّحم)؛ أمّا ألبير، فكان يقوم بكلّ ما تبقّى. عندما لم يكن يمسح له جبهته بخرقةٍ مبلّلةٍ، أو لا يقدّم له -بحذرٍ يشبه حذر الصائغ- ما يشربه، كان يغيّر له الحفاضات. كان يزمّ شفاهه عندها، ويستدير، ويسدّ أنفه، وينظر إلى مكانٍ آخر، مقنعاً نفسه أنّ كلّ دقيقةٍ من هذه الأشغال الشاقّة يمكن أن تكون مصيريّةً بالنسبة إلى رفيقه.

كان اهتمامه ينصبّ إذنْ على هاتين المهمّتين: البحث بلا جدوى عن طريقةٍ تسمح له بأن يتنفّس بدون أن يحرّك أيّ ضلعٍ من أضلاعه، وأن يكون إلى جانب رفيقه متربّصاً وصول سيّارة الاسعاف.

في أثناء فعل ذلك، كان لا يتوقّف عن استعادة منظر إدوار بيريكور شبه مستلقٍ فوقه عندما قام من بين الأموات. لكن في الخلفيّة، ما كان يسيطر عليه كهاجس هو صورة الملازم براديل، هذه الجيفة! كرّس عدداً لا يحصى من الساعات لتخيّل ما يمكن أن يفعله عندما يجده في طريقه. كان يستعيد صورة براديل وهو يهجم عليه في ساحة المعركة، ويشعر على نحوٍ فيزيائيٍّ تقريباً بالطريقة التي قامت فيها حفرة القذيفة بشفطه نوعاً ما. مع ذلك، كان من الصعب عليه أن يركّز لوقتٍ طويلٍ، وأن يفكّر، كأنّ ذهنه لم يكن قد توصّل بعد إلى إيجاد السرعة الملائمة.

مع ذلك، بعد عودته إلى الحياة بقليل، جاءت الكلمات إلى ذهنه: كانت هناك محاولة لقتله.

التعبير رنّ على نحوٍ غريب، لكنّه لم يكن بعيداً عن العقل، وفي النهاية، الحرب العالميّة نفسها لم تكن سوى محاولة قتل معمّمة على مدى قارّة بأكملها. لكنّ هذه المحاولة بالذات كانت موجّهة له شخصيّاً. عندما ينظر إلى إدوار بيريكور، كان ألبير يستعيد أحياناً اللّحظة التي صار فيها الهواء نادراً، فيغلي غضبه. بعد يومين، صار هو أيضاً جاهزاً ليصبح قاتلاً بدوره. بعد أربع سنوات من الحرب. ها قد حان الوقت!

عندما يكون وحْده، كان يفكّر بسيسيل. كأنّها صارت بعيدةً عنه. وهو يشتاق إليها على نحوٍ رهيب. كثافة الأحداث قذفت بألبير إلى حياةٍ أُخرى، لكنْ بما أنّه ما من حياةٍ ممكنةٍ إن لم تسكن فيها سيسيل، فقد كان يهدهد نفسه بذكراها، وينظر إلى صورتها، ويتفحّص قسماتها الكاملة الكثيرة: الحاجبان، الأنف، الشفتان، وحتّى الذقن. كيف يمكن لشيء كهذا أن يوجد؟ شيء غير معقول مثل فم سيسيل، سيسرقونها منه. في يوم من الأيّام، سيأتي أحد ليأخذها منه، أو أنّها هي التي سترحل. ربّما ستدرك ما هو ألبير، وهو في النهاية لا شيء، في حين أنّها هي، كتفاها، كتفاها وحدهما... وكان يقتله أن يفكّر فيها. كان يعيش ساعات مرعبة، حزينة. «كلّ هذا من أجل هذا!». كان يقول في نفسه. يُخرج عندها ورقة، ويحاول أن يكتب لها رسالة. هل يجب عليه أن يروي لها كل شيء، هي التي لم تكن تنتظر منه سوى شيء واحد، ألّا يستمر في الكلام عن تلك الحرب، وأن ننتهي منها؟

عندما لم يكن يفكّر بما سيكتبه لسيسيل، أو لأمّه (سيسيل أوّلاً، أمّه

ثانياً إن كان لديه وقت)، وعندما لم يكن يتفنّن بدوره كممرّض، كان ألبير لا يتوقّف عن التفكير.

مثلاً: رأس الحصان هذا الذي وجد نفسه مدفوناً بجانبه، كان يعود كثيراً إلى ذهنه. ومن المثير للاهتمام أنّه مع مرور الوقت، فقد الرأس طابعه كوحش. حتّى نفحة الهواء الفاسد الكريهة التي صدرت عنه، والتي قام بعبّها لكي يحاول البقاء على قيد الحياة، لم تعد تبدو له على الدرجة نفسها من القرف والسوء. بالمقابل، كانت صورة براديل الواقف على حافّة الهوّة تبدو له بدقّة الصورة الفوتوغرافية. رأس الحصان الذي يتمنّى لو يحتفظ بتفاصيله راح يتلاشى ويفقد لونه وقسماته. على الرغم من جميع جهوده للتركيز، كانت تلك الصورة تتبخّر، وكان ذلك يثير عند ألبير شعوراً بأنّ هناك ما ينقصه. وهذا الشعور كان يقلقه على نحوٍ غامض. الحرب بصدد الانتهاء الآن. ولم يحن وقت المراجعة بعد، فقط زمن الشعور بالحاضر المرعب حيث يتبدّى على نحوٍ واضح مدى اتّساع رقعة الخراب. وكما هو حال أولئك الرجال الذين بقوا منثنين خلال أربع ساعات تحت القذائف، والذين بالمعنى الحقيقي للكلمة لم يستطيعوا النهوض بعدها، وظلّوا يمشون طيلة حياتهم مع ثقلٍ غير مرئيّ على أكتافهم، كان ألبير يشعر بأنّ هناك شيئاً لن يعود أبداً، وهو شعور الدعة. كان متأكّداً من ذلك. فمنذ عدّة شهور، منذ جرحه الأوّل في معركة السوم، ومنذ الليالي غير المتناهية؛ حين كان بصفته مسؤولاً عن نقّالات الإسعاف يذهب ممتلئاً بالخشية من رصاصةٍ طائشةٍ ليبحث عن الجرحى في ميدان المعركة، وأكثر من ذلك، منذ عودته من بين الأموات، كان يعرف أنّ هناك خوفاً عصيّاً على التحديد. خوفٌ له اهتزازات، خوفٌ يمكن لمسه تقريباً قد تسلّل شيئاً فشيئاً وصار يسكنه. إلى ذلك تضاف تأثيرات دفنه التي تزلزل كيانه. شيء منه ما يزال

تحت الأرض. جسده صعد إلى السطح، لكنّ جزءاً من دماغه بقي تحتها أسيراً ومفزوعاً كأنّه متمترس في الجدار. هذه التجربة محفورة في لحمه، في حركاته، في نظراته. يمتلئ جزعاً بمجرّد أن يترك الغرفة، ويترقّب أقلّ خطوة، ويمرّ برأسه من فتحة أي باب قبل أن يفتحه واسعاً، يمشي بالقرب من الجدران، ويتخيّل غالباً وجود شخصٍ ما خلفه. يتفحّص قسمات محدّثه، ويقف دائماً على مرمى مخرج ما فيما لو حصل شيء ما. في كلّ الظروف، كان نظره المتيقّظ لا يتوقّف عن الذهاب والإياب. عندما يكون جالساً قرب سرير إدوار، كان يحتاج إلى النظر عبر النافذة لأنّ جوّ الغرفة يخنقه، ويبقى في حالة تأهّبٍ وكلّ شيء بالنسبة إليه موضع حذر. كان يعلم أنّ ذلك سيستمرّ طيلة حياته. وعليه الآن أن يعيش مع هذا القلق الحيوانيّ مثل رجُلٍ يتفاجأ بأنّه صار غيوراً، ويفهم أنّه يجب عليه من الآن فصاعداً أن يتأقلم مع هذا المرض الجديد. هذا الاكتشاف أثار حزناً عميقاً في نفسه.

ظهر تأثير المورفين. كان يحقّ لإدوار حقنة كلّ خمس أو ستّ ساعات. ستُخفّف الجرعات على نحوٍ مُنتظم، لكنّه لم يعد يتلوّى من الألم، وغرفته لم تعد تمتلئ دائماً بتأوّهاته المعذّبة التي يتخلّلها عويلٌ يجمّد الدم في العروق. وعندما لا يغفو قليلاً، كان يبدو عليه أنّه يطوف، لكنْ كان يجب أن يبقى مربوطاً خوفاً من أن يحاول حكّ جروحه المفتوحة.

ما كان ألبير وإدوار قد خالطا بعضهما من قبل. كانا قد التقيا فقط، رأيا بعضهما، سلّم أحدهما على الآخر، ربّما ابتسامة من بعيد، هنا، أو هناك لا أكثر. كان إدوار بيريكور بالنسبة إلى ألبير رفيقاً مثل بقيّة الرفاق، شخصاً قريباً ومغفل الهويّة تماماً. اليوم، هو بالنسبة إلى ألبير أحجيةٌ، سرٌّ غامض.

في اليوم التالي لوصولهما اكتشف أنّ أغراض إدوار قد وُضعت في قعر الخزانة الخشبيّة التي كان بابها ينفتح ويئنّ عند أقلّ نسمة هواء. من الممكن لأيٍّ كان أن يدخل ويسرق. من يعرف؟ قرّر ألبير أن يضع هذه الأغراض في مكانٍ بعيدٍ عن الآخرين. عندما أمسك الحقيبة القماشيّة التي يُفترض أنّها تحتوي على الأغراض الشخصيّة، أقرّ ألبير في داخله وفي ضميره أنّه لم يفعل ذلك في وقت أبكر لأنّه ربّما ما كان قادراً وقتها على مقاومة إغراء التفتيش داخل الحقيبة. وهو لم يفعل ذلك احتراماً لإدوار، وكان ذلك أحد الأسباب. هناك سببٌ آخر هو أنّ هذا الأمر يذكّره بأمّه؛ كانت مدام مايار من تلك الأمّهات اللّواتي تفتّشن. طيلة طفولته، جرّب ألبير كل ما يمكن لكي يخفي عنها أسراراً هي في نهاية الأمر بلا قيمة، لكنّ مدام مايار كانت تنتهي دائماً إلى أن تكتشفها، وأن تعرضها أمامه، وهي تصبّ عليه سيلاً من التأنيب. سواء كان الأمر يتعلّق بصورة راكب درّاجة قصّها من مجلّة إيلوستراسيون، أم بثلاثة أبيات من الشعر نسخها عن مجموعةٍ شعريّةٍ، أو أربع دحلات وسدارة عسكريّة ربحها أثناء الفسحة في مدرسة سوبيز. كانت مدام مايار تعدّ كلّ سرّ من الأسرار بمنزلة خيانة. وفي الأيّام التي تتفتّح فيها القريحة لديها، وفي أثناء تلويحها ببطاقةٍ بريديّةٍ فيها صورة مطعم شجرة روش، أو صورة مقاطعة تون كين في فيتنام كان أحد الجيران قد أعطاها لألبير، كانت تستطيع أن تنطلق في مونولوج مُستعر يلعن على التوالي جحود الأولاد، وأنانية ابنها، ورغبتها الحارّة في أن تلحق بعد قليل بزوجها المسكين لكي ترتاح منه، وتستطيعون أن تحزروا البقيّة.

هذه الذكريات المؤلمة تلاشت عندما فتح ألبير الحقيبة القماشيّة الخاصّة بإدوار، ووقع بصره على دفترٍ صغيرٍ، غطاؤه صلبٌ ومغلقٌ بمطّاطة، كان من الواضح أنّه رافقه في أسفاره، ولم يكن يحتوي سوى

على رسومات بالقلم الأزرق. جلس ألبير هناك، بكل غباءٍ، متربّعاً بمواجهة الخزانة التي كانت تئنّ، وقد سحرته مباشرةً هذه المشاهد التي كان بعضها قد رُسم بسرعة، في حين أنّ بعضها الآخر كان مشغولاً مع ظلالٍ عميقةٍ منفّذة بخطوط متراصّةٍ مثل أمطارٍ غزيرة. كلّ هذه الرسومات -وعددها يقارب المئة- نُفّذتْ هنا في الجبهة وفي الخنادق، وكانت تمثّل كلّ لحظات الحياة اليوميّة: جنود يكتبون رسائل، يشعلون غلايينهم، يضحكون لنكتة، يستعدّون للهجوم، يأكلون، يشربون، وأشياء من هذا القبيل. هناك خطٌّ رُسم بسرعةٍ، يصبح الصورة الجانبيّة لجنديٍّ شابٍّ متضايق، وهنا ثلاثة خطوط سرعان ما تصير وجهاً مرهقاً له عيونٌ مُنهكة. رسومٌ تمسك بتلابيبك. لا شيء تقريباً، هكذا، لا شيء، على الطاير، كانت أبسط ضربة بالقلم تلتقط ما هو جوهريّ في أثناء مرورها. الخوف والبؤس، الانتظار، الإحباط، الإنهاك، هذا الدفتر كان بمنزلة بيانٍ عن القدر.

في أثناء تصفّحه، انقبض قلب ألبير؛ لأنّه في كلّ ذلك لم يكن هناك أيّ ميّت، لم يكن هناك أيّ جريح، ولا جثّة واحدة. لا شيء سوى أحياء. كان ذلك أفظع لأنّ كل هذه الصور كانت تصرخ الشيء نفسه: هؤلاء الرجال سوف يموتون.

أعاد ترتيب أغراض إدوار التي كانت قد تحرّكت من مكانها بعض الشيء.

5

فيما يتعلّق باللّجوء إلى المورفين، ظلّ الطبيب الشابّ على موقفه دون تزحزح. لا يمكن الاستمرار هكذا. يصبح هناك إدمان على هذا النوع من المخدّر، وهذا يؤدّي إلى أضرار. لا يمكن ذلك طيلة الوقت، أتفهمني؟ لا. يجب أن نوقفه.

بدءاً من اليوم التالي للعمليّة خفّض الجرعات.

بدأ إدوار يستعيد وعيه ببطء، ومع عودة الوعي عاد إليه الشعور بالآلام المبرحة؛ أمّا ألبير، فكان قلقاً بسبب عدم وصول أمر نقله إلى باريس.

عندما طرح السؤال على الطبيب الشاب، رفع هذا ذراعيه علامة العجز، ثمّ خفض صوته:

- ست وثلاثون ساعة هنا... يُفترض أن يكون قد نُقل. لست أفهم! لاحظ. هناك دائماً مشكلات تتعلّق بالازدحام لديهم، لكن ليس من الجيّد أبداً أن يبقى هنا، كما ترى...

كان وجهه مهموماً للغاية. بدءاً من تلك اللّحظة لم يعد عند ألبير الذي جُنّ جنونه سوى هدف واحد أوحد: التوصّل في أقرب فرصة إلى نقل رفيقه.

لم يتوقّف عن الحركة المحمومة، وذهب ليسأل الراهبات اللّواتي على الرغم من كون المستشفى قد صار أهدأ، إلا أنّهن لم تتوقّفن عن الركض في الممرّات مثل فئران السقيفة. هذه المساعي لم تؤدِّ إلى شيءٍ. فالمستشفى عسكريٌّ، ما يعني أنّه من المستحيل فيه استقاء أيّة معلومة، بدءاً من هويّة الأشخاص الذين يعطون الأوامر بالفعل.

كان يعود في كلّ ساعة إلى سرير إدوار، وينتظر أن يعود الشابّ إلى النوم؛ أمّا بقيّة الوقت، فكان يمضيه في المكاتب، وفي الممرّات التي تصل بين الأبنية الرئيسة، حتّى إنّه ذهب إلى دار البلديّة أيضاً.

عند عودته في إحدى المرّات من مساعيه تلك، كان هناك جنديّان ينتظران بصبر منذ ساعاتٍ في الممرّ. ملابسهما العسكريّة النظيفة، ووجهاهما الحليقان، وهالة الثقة بالذات التي تحيط بهما، كلّ شيء كان يدلّ على أنهما جنديّان يعملان في الأركان العامّة. سلّمه الأوّل وثيقةً مختومةً، في حين أنّ الثاني، ربّما ليخفي اضطّرابه، كان يضع يده على مسدّسه. فكّر ألبير بأنّ ردود أفعاله الحذرة كان لها ما يسوّغها.

- «لقد دخلنا». قال الجنديّ الأوّل كأنّه يعتذر، وأشار إلى الغرفة بإبهامه.

- لكن بعد ذلك، فضّلنا الانتظار في الخارج. الرائحة...

دخل ألبير إلى الغرفة، وأفلتت مباشرة الرسالة التي كان قد بدأ بفتحها ليركض نحو إدوار. للمرّة الأولى منذ وصوله، كانت عيون الشابّ مفتوحةً تقريباً، وقد وُضعت مخدّتان خلف ظهره. لا شكّ أنّ راهبة قد مرّت من هنا. يداه المقيّدتان كانتا تختفيان تحت الغطاء، وكان يهزّ رأسه بانتظام، ويطلق زئيراً أجشّ ينتهي بنوعٍ من الغرغرة. وصفُنا له بتلك الطريقة لا

يمكن أن يدلّ على تحسّنٍ واضح وإيجابي، لكنّ ألبير الذي ما كان قد رأى أمامه حتّى ذلك الوقت سوى جسد يصرخ بأعلى صوته، وتتحكّم به تشنّجات عنيفة، أو يغفو في حالةٍ أقرب إلى الغيبوبة، فقد وجد أنّ ما يراه أمامه هنا أفضل بكثير.

من الصعب معرفة أيّ تيّار خفيّ مرّ بين الرجُلين خلال تلك الأيّام التي كان ألبير ينام فيها على كرسيّ، لكنْ بمجرّد أن وضع ألبير يده على طرف سريره، قام إدوار بشدّ قيوده على نحوٍ مفاجئٍ، وتوصّل إلى أن يمسك بقبضة ألبير بقوّةٍ تشبه قوّة رجُلٍ أصيب بلعنة. لا أحد يستطيع وصف ما كان يكمن في هذه الحركة. كان فيها تكثيف لجميع المخاوف، وكلّ مشاعر الارتياح، كلّ الطلبات، وكلّ الأسئلة التي يمكن أن يطرحها شابٌّ في الثالثة والعشرين من عمره جُرح في الحرب، وكان غير متأكّدٍ من حالته، ويتألّم إلى درجة من المستحيل معها تحديد موضع الألم.

– «إذنْ، ها أنت قد استيقظت يا صديقي». قال ألبير، وهو يحاول أن يضع في كلماته أكبر قدرٍ ممكنٍ من الحماسة.

صدر صوت من خلفه جعله يجفل:

– حان وقت الذهاب...

استدار ألبير.

مدّ له الجنديّ الرسالة التي التقطها من الأرض.

ظلّ ما يقارب أربع ساعات ينتظر جالساً على كرسي. هذا الوقت يكفي لتقليب جميع الأسباب التي تجعل جنديّاً غير معروف مثله يُستدعى عند الجنرال موريو. وسام من أجل عمله البطولي تجاه إدوار؟ لكن دعونا نتوقّف عن تفحّص القائمة، ولنترك لكلّ منّا أن يتخيّل ما يريد.

انهارت نتائج تلك الساعات من التمحيص بلحظةٍ عندما رأى في طرف الممرّ القامة الطويلة للملازم براديل. ثبّت الضابط عينيه عليه، وتقدّم نحوه، وهو يحرّك كتفيه. شعر ألبير بكرةٍ تنزل من حلقه نحو معدته، وتملّكه شعورٌ بالغثيان تحكّم به بصعوبةٍ كبيرة. تلك هي الحركة نفسها التي أودت به في حفرة القذائف، وبالسرعة نفسها تقريباً. توقّف الملازم عن النظر إليه عندما صار بمحاذاته، والتفّ ككتلةٍ واحدةٍ ليدقّ على باب مكتب عناصر الجنرال حيث اختفى مباشرة.

ليهضم ما حصل، احتاج ألبير إلى وقتٍ لم يحصل عليه. فقد فُتح الباب من جديد، وسمع عواءً ينادي اسمه. تقدّم، وهو يترنّح في قدس الأقداس الذي كانت تفوح منه رائحة الكونياك والسيجار، ربّما كان يجري الاحتفال بالنصر القريب.

كان الجنرال موريو يبدو طاعناً في السنّ، ويشبه أيّ واحدٍ من أولئك الشيوخ الذين أرسلوا إلى الموت أجيالاً كاملةً من الأبناء والأحفاد. امزجوا صورة جوفر وبيتان مع صور نيفيل، وغالييني، ولودويندورف[1]، تتشكّل لديكم صورة موريو. شاربٌ متفرّق الشعيرات مثل الفقمة تحت عيونٍ معمّشةٍ مغلّفةٍ بلونٍ محمرٍّ، وتجاعيد عميقة، وشعور بديهيّ بالأهميّة.

شعر ألبير بأنّه مشلولٌ من الخوف. من الصعب معرفة إن كان ذلك الجنرال شديد التركيز أم فريسة النعاس. كان فيه شيءٌ من كوتوزوف[2]،

---

(1) قادة عسكريّون فرنسيّون وألمان، كانت لهم مساهمة فعّالة ومباشرة في الحرب العالميّة الأولى التي تسبّبت بخسائر بشريّة هائلة. (المترجمة)

(2) جنرال روسي من فترة حكم آل رومانوف، دحر قوّات نابوليون. تنسب إليه مقولة: لا يمكن للجيش أن يُهزم إذا كان الشباب فيه على استعداد للموت من أجل الوطن. (المترجمة).

وهو جالسٌ وراء مكتبه، غارقاً بين أوراقه. في المقدّمة، بمواجهة ألبير، وظهره للجنرال، كان الملازم براديل ينظر إليه ببطءٍ وإصرارٍ من رأسه إلى أخمص قدميه بدون أن تتحرّك أيّة واحدةٍ من قسماته. كانت ساقاه متباعدتين، ويداه وراء ظهره كما في وضعيّة التفتيش. بدا عليه أنّه يتأرجح قليلاً. فهم ألبير الرسالة، وعدّل من وضعيّته. وقف متصلّباً. قوّس ظهره إلى الخلف. أصابه ألمٌ في أسفل ظهره من جرّاء ذلك. الصمت ثقيل. رفع الفقمة رأسه أخيراً. شعر ألبير بأنّه ملزمٌ بأن يقوّس ظهره أكثر، لكنّه إن فعل فسوف يلتفّ مثل بهلوانات السيرك. في الأحوال العاديّة كان على الجنرال أن يأمره بالاستراحة من هذه الوضعيّة غير المريحة، لكنْ لا. حدّق بألبير، وتجشّأ، وخفض عينيه نحو وثيقةٍ بين يديه، ثمّ قال مشدّداً على الحروف:

- الجندي مايار.

كان على ألبير أن يجيب بـ«أمرك يا جنرال». أو أيّ شيء من هذا القبيل، لكنْ على الرغم من بطء الجنرال، فإنّه كان سريعاً جدّاً مقارنةً مع ألبير. نظر إليه الجنرال وعاد إلى الكلام:

- لدي هنا تقرير... في أثناء هجوم وحدتك في الثاني من نوفمبر، حاولت على نحوٍ مقصود أن تتهرّب من واجبك.

كان هذا ما لم يتوقّعه ألبير. جالت في ذهنه أشياء؛ أمّا هذا.. فلا. قام الجنرال بالقراءة من التقرير:

- أنت لجأت إلى حفرة قذائف من أجل التهرّب من الواجب.. ثمانية وثلاثون من رفاقك الشجعان فقدوا حياتهم في هذا الهجوم من أجل الوطن، كم أنت تعِسٌ أيّها الجندي مايار! وسوف أقول لك ما أفكّر فيه بقرارة نفسي: أنت حقير!

كان قلب ألبير ثقيلاً إلى درجةٍ يمكنه معها أن يبكي. فمنذ أسابيع وأسابيع كان أمله أن ينتهي من هذه الحرب... هكذا ستكون النهاية إذن...

كان الجنرال موريو ما يزال يحدّق فيه، وجد هذا الجبن مؤسفاً بالفعل. وبسبب انزعاجه من هذا الجنديّ الحقير الذي يجسّد منتهى السفالة، فقد ختم جملته قائلاً:

- لكنّ الفرار من المعركة ليس من صلاحياتي. أنا أحارب. هل تفهم؟ إنّه اختصاص المحكمة العسكريّة، مجلس الحرب أيّها الجندي مايار.

تخلّى ألبير عن وضعيّته المشدودة. بدأت يداه بالارتجاف على طول بنطاله. إنّه الموت. قصص الفرار من المعركة، أو الأشخاص الذين يجرحون أنفسهم ليهربوا من الجبهة ماثلة في جميع الأذهان، ولا يوجد ما هو جديد في ذلك. سمع الكثير من الأحاديث عن مجلس الحرب، وعلى الأخصّ في عام 17 عندما عاد بيتان ليفرض النظام في هذا المكان الفوضوي. الله فقط يعلم كم عدد الذين أُعدموا؛ أمّا فيما يتعلّق بمسألة الفرار، فإنّ المحكمة لم تقبل قطّ التهاون في الأمر. لم يُعدَم كثيرون بالرصاص، لكنّهم ماتوا بالفعل. كلهم. وبسرعة. سرعة التنفيذ جزءٌ من الإعدام. وبالنسبة إلى ألبير، لم يعد أمامه سوى ثلاثة أيّام على قيد الحياة، في أحسن الأحوال.

يجب عليه أن يشرح. إنّه سوء فهم. لكنّ وجه براديل الذي يحدّق فيه لم يترك إمكانيّةً لأيّ سوء فهم.

ها هو للمرّة الثانية يرسله إلى الموت. يمكن للإنسان بكثير من الحظّ أن ينجو من الدفن حيّاً؛ أمّا مجلس الحرب...

أخذ العرق يسيل بين لوحي كتفيه، وعلى جبهته، فغامت نظراته.

ازدادت ارتعاشاته اتّساعاً، وبدأ يبول هناك، وهو واقف، ببطء شديد. نظر الجنرال والملازم إلى البقعة، وهي تتّسع على مستوى فتحة البنطال، وتنزل إلى القدمين.

بحث ألبير عن شيء ما يقوله، ولم يجد. استعاد الجنرال موقع الهجوم. إنّه يعرف تماماً ما هو الهجوم، فهو جنرال.

- الملازم دولناي براديل قاطع في قوله. رآك بوضوح ترمي نفسك في الحفرة. أليس كذلك يا براديل؟

- رأيته بوضوح تماماً أيّها الجنرال.

- إذنْ، أيّها الجندي مايار.

لم يتلفّظ ألبير بكلمةٍ واحدةٍ، لم يكن السبب عدم قدرته على إيجاد الكلمات. تمتم متلعثماً:

- ليس الأمر هكذا...

عقد الجنرال حاجبيه:

- كيف، ليس هكذا؟ هل شاركت في الهجوم حتّى النهاية؟

- أوه. لا!

كان يجب أن يقول: «لا، أيّها الجنرال». لكن كان من المستحيل عليه أن يفكّر بكلّ شيء في هذا الموقف.

- «أنت لم تسهم في الهجوم». صرخ الجنرال مزمجراً، وهو يضرب بقبضته على الطاولة: «لأنّك كنت في حفرة قذيفة! حصل هذا أم لم يحصل؟».

سيكون من الصعب التفاوض حول بقيّة الأشياء، خاصّةً أنّ الجنرال ضرب من جديد بقبضته.

- نعم أم لا، أيّها الجندي مايار؟

الضوء، زجاجة الحبر، صفيحة الجلد التي توضع تحت اليد، كلّ شيء ارتفع في وقتٍ واحد. بقيت نظرة براديل مسمّرةً على قدميّ ألبير حيث كانت بقعة التبوّل تتّسع فوق سجّادة المكتب الرثة.

- نعم، لكن...

- طبعاً نعم! الملازم براديل رآك تماماً، أليس كذلك يا براديل؟

- رأيته تماماً، نعم سيّدي الجنرال.

- لكنّ جُبْنك لم ينل ما يستحقّه، أيّها الجندي مايار...

رفع الجنرال سبّابةً منتقمة.

- بل إنّك كدت تموت بسبب جُبنك هذا! وبذلك ما كان من الضروري أن تنتظر.

في الحياة هناك دائماً بعض لحظات الحقيقة النادرة. في حالة الجندي ألبير مايار، كانت الدقيقة التالية جزءاً من تلك اللحظات. أتى كل شيء في كلمات ثلاث كثّفت كل مشاعره:

- هذا ليس عدلاً!

جملة كبيرة، محاولة للشرح. كان يمكن للجنرال موريو أن يلغيها بحركة يدٍ منزعجةٍ، لكن... خفض رأسه. بدا عليه أنّه يفكّر. راح براديل ينظر الآن إلى الدمعة التي تلتمع على طرف أنف ألبير، ولا يستطع هذا الأخير مسحها لكثرة ما كان متسمّراً في وضعيته. كانت النقطة معلّقة على نحوٍ يثير الشفقة، ثمّ تأرجحت واستطالت، ولم تقرّر السقوط. شخر ألبير بصوتٍ عالٍ. ارتعشت النقطة، لكنّها لم تخضع. استطاع ذلك أن يُخرج الجنرال من إغفاءته.

- «مع ذلك، فإنّ خدماتك المذكورة ليست سيّئة... لست أفهم!». ختم كلامه، وهو يرفع كتفيه بطريقة من لا حول له.

هناك شيء ما قد حصل، لكن ماذا؟ راح الجنرال يقرأ أمامه:

- معسكر مايي، لا مارن... مويه...

كان منكبّاً على أوراقه. لم ير ألبير سوى شعره الأبيض المبعثر الذي تتبدّى من خلاله جمجمته الورديّة.

- جُرح في معركة السوم...هممم... آه وفي معركة لين أيضاً! عمل في نقل الجرحى، هممم، آه..

هزّ رأسه مثل ببغاء مبلول.

النقطة على أنف ألبير قرّرت في النهاية أن تسقط. انسحقت على الأرض وأشعلت في فكره اكتشافاً: إنّها مزحة.

الجنرال يريد أن يباغته.

بدأت نورونات ألبير تجول في الواقعة، والتاريخ، والأحداث الراهنة، والموقف... عندما رفع الجنرال بصره نحوه، عرف وفهم. جواب السلطة لم يكن مفاجئاً:

- سآخذ بعين الاعتبار خدماتك الوظيفيّة يا مايار.

شخر ألبير. استوعب براديل الضربة. قام بالمحاولة عند الجنرال. لا أحد يعرف. إن سارت الأمور كما يريد يمكن أن يتخلّص من ألبير، الشاهد المزعج. لكنّ الخيار كان سيّئاً، ففي تلك الفترة توقف الإعدام رمياً بالرصاص. يعرف كيف يلعب، براديل. يخفض رأسه، ويكظم غيظه.

- في عام 17 يا بني، كنتَ جيّداً! أعاد الجنرال الكلام. لكن هنا...

رفع كتفيه بهيئة المقهور. بدا عليه أنّ الأشياء كلّها راحت تهرب داخل

رأسه. بالنسبة إلى عسكري، أسوأ ما يمكن أن يحصل هو أن تنتهي الحرب. لا بد من أنّه بحث وقلّب الأمور في رأسه، ذلك الجنرال موريو، لكنْ كان عليه أن يقرّ بأنّه على الرغم من حالة الفرار المثاليّة التي أمامه، وعلى مسافة أيّامٍ قليلةٍ من الهدنة، من المستحيل تسويغ سلسلةٍ من الإعدامات. ما عاد الأمر يناسب المرحلة، ولن يقبل أحد ذلك، بل سيكون ذلك عكس المطلوب.

كانت حياة ألبير معلّقة بشعرة. لن يُعدم بالرصاص؛ لأنّ ذلك لم يكن رائجاً في ذلك الشهر.

- «شكراً سيّدي الجنرال». تلفّظ أخيراً بهذه الكلمات.

تلقّى موريو تلك الكلمات بنوعٍ من الاستسلام للقدر. في أوقات أُخرى، يكون توجيه الشكر إلى جنرال أشبه بتوجيه الإهانة له، لكن هنا...

انتهى الأمر. مسح موريو الهواء بيدٍ متعبةٍ ومكتئبةٍ. يا للهزيمة! تستطيع أن تذهب.

ما الذي جرى لألبير وقتها؟ تخيّلوا. أوشك أن يرسل إلى فصيل الإعدام، كأنّ ذلك لم يكن يكفيه. قال:

- لديّ التماسٌ أقدّمه يا حضرة الجنرال.

- التماس؟ ماذا؟ ماذا؟

الغريب أنّ مسألة الالتماس تلك أعجبت الجنرال. أعجبه أنّ هناك من يرجوه، فذلك يعني أنّه ما زال مفيداً في شيءٍ ما. رفع حاجبه متسائلاً ومشجّعاً وانتظر. إلى جانب ألبير بدا أنّ براديل قد انشدّ وتصلّب، كأنّ مكوّنات دمه قد تغيّرت.

- «أريد أن ألتمس إجراء تحقيق يا سيدي الجنرال». قال ألبير.

- آه، جديّاً؟ تحقيق؟ تحقيق عن ماذا؟ بحقّ الشيطان!

ذلك أنّ الجنرال كان يكره التحقيقات بقدر ما يحب الالتماسات؛ فهو عسكري.

- تحقيق بخصوص جنديّين.

- ما ذا عنهما هذين الجنديّين؟

- لقد ماتا يا سيّدي الجنرال. ومن الجيّد أن نعرف كيف.

قطّب موريو حاجبيه. لم يكن يحبّ الأموات المشبوهين. في الحرب نريد أمواتاً واضحين، بطوليّين، مؤكدين؛ ولهذا السبب نتحمل الجرحى، لكننا في أعماقنا لا نحبهم.

- «انتظر، انتظر...!». قال موريو بصوت متهدّج: «أوّلاً: قل لي من هما، هذان الشخصان؟».

- الجنديّان: غاستون غريزونييه، ولوي تيريو، سيّدي الجنرال. هناك من يرغب في معرفة كيف ماتا.

كلمة «من» في جملة «هناك من يرغب» كانت ملغومة، وقد جاءته على نحوٍ عفويّ. في النهاية، هو لديه مصادره.

ألقى موريو على براديل نظرةً متسائلة.

- «إنّهما الاثنان اللّذان اختفيا في النقطة 113 سيدي الجنرال». أجاب الملازم.

صُعق ألبير.

لقد رآهما في ساحة المعركة ميّتين، وهذا أكيد. لكنّهما كانا كاملين، حتّى إنّه قد دفع المسنّ بينهما، وما زال يرى بوضوح أثر الرصاصتين.

- هذا غير معقول!

- يا إلهي، طالما قيل لك إنّهما عُدّا مفقودين! هه يا براديل؟

- مفقودين، سيّدي الجنرال. بالتأكيد

ثمّ قال الرجُل العجوز كأنّه يتجشأ: «لن تزعجنا بقصص المفقودين».

لم يكن ذلك سؤالاً، إنّما أمراً. كان غاضباً.

- «أيّة حماقة!». قال لنفسه متذمّراً.

لكنّه كان بحاجةٍ إلى من يدعم الفكرة.

- «هيه يا براديل؟». سأل فجأةً.

كان يريد منه أن يشهد على قوله.

- بالطبع سيّدي الجنرال. لن يزعجونا بقصص المفقودين.

- «آه». قال الجنرال، وهو ينظر إلى ألبير.

نظر إليه براديل هو الآخر. أليس ذلك شبح ابتسامةٍ ما نراه على وجه هذا الحقير؟

تخلّى ألبير عن الأمر. كلّ ما كان يرغب به الآن هو نهاية الحرب والعودة بسرعة إلى باريس كاملاً، إن كان ذلك ممكناً. هذه الفكرة أعادته إلى إدوار. بالكاد أنهى التحيّة أمام العسكري العجوز (حتّى إنّه لم يضرب كاحليه ببعضهما، بل إنّه كاد يضع سبّابته بإهمال عند صدغه مثل عاملٍ ينهي عمله لتوّه ويعود إلى بيته). حاول أن يتجنّب نظرة الملازم، وركض في الممرّات، وقد تملّكه حدسٌ مثل الذي يشعر به الأهل. كان تنفّسه مقطوعاً عندما فتح الباب مسرعاً.

كان إدوار بالوضعيّة نفسها، لكنّه أفاق من نومه بمجرّد أن سمع ألبير يقترب. دلّ على النافذة قرب السرير بطرف إصبعه. صحيح أنّ الرائحة النتنة كانت تبعث على الدوار في تلك الغرفة. فتح ألبير طرف النافذة وتبعه

إدوار بعينيه. ألحّ الشاب الجريح «أكثر» وأشار بإصبعه: «لا، أقل»، «أكثر بقليل». نفّذ ألبير الأوامر وباعد مصراعي النافذة أكثر. وعندما فهم، كان قد قُضي الأمر. فلكثرة ما كان إدوار يبحث عن لسانه ولا يجده، ويسمع نفسه يطلق غرغرة من حلقه، أراد أن يعرف: ها هو يرى نفسه الآن في الزجاج.

شظيّة القذيفة كانت قد أطاحت بفكّه السفليّ كلّه، وتحت الأنف هناك فراغ كامل. من الممكن رؤية الحلق وسقف الحلق، والأسنان العلْويّة فقط، وتحتها كتلة منصهرة من اللّحم القرمزيّ يوجد في قعرها شيءٌ ما. لا بدّ من أنّه لسان المزمار. لا يوجد لسان، والرغامى تركت ثقباً رطباً لونه أحمر.

كان إدوار بيريكور في الرابعة والعشرين من عمره.

أغمي عليه.

6

في اليوم التالي، قرابة الساعة الرابعة صباحاً، وبينما كان ألبير يفكّ الأربطة ليغيّر ملاءة سرير إدوار، أراد هذا الأخير أن يرمي نفسه من النافذة، لكنّه فقد توازنه عند نزوله من السرير بسبب ساقه اليمنى التي لم تعد تحمله؛ وانهار على الأرض. استطاع مع ذلك أن ينهض بجهد كبير صادر عن إرادته. كان يبدو مثل شبح. عرج بثقلٍ حتّى وصل إلى النافذة، وقد خرجت عيناه من محجريهما، ومدّ يده، وهو يصرخ عالياً من الحزن والألم. ضمّه ألبير بذراعيه، وهو يشهق بالبكاء بدوره، وراح يداعب رقبته. كان ألبير يشعر تجاه إدوار بحنان الأم، ويمضي معظم وقته وهو يحدثّه كأنّه يملأ فراغ الانتظار. راح يروي له:

- الجنرال موريو، إنّه نوعٌ من الحيوانات الضخمة. أتفهم ما أقصد؟ يعني: جنرال. تماماً. كان مستعداً لإرسالي إلى مجلس الحرب.. وبراديل هذا، هذا الحقير...

راح ألبير يحكي ويحكي، لكنّ نظرة إدوار كانت مُطفأة إلى درجةٍ من المستحيل معها معرفة إن كان يفهم شيئاً ممّا يُقال له. تخفيض جرعات المورفين كان يتركه مستيقظاً لأوقاتٍ طويلةٍ، ما حرم ألبير من فرص

الذهاب لتقصّي أخبار وسيلة النقل اللّعينة هذه التي لا تصل. كان إدوار عندما يبدأ بالأنين لا يتوقّف، ويزداد صوته قوّةً إلى أن تأتي ممرّضة تحمل معها إبرة أُخرى.

في بداية بعد ظهر اليوم التالي، وعند عودة ألبير من جديد خالي الوفاض -من المستحيل معرفة إن كان قد اتُخذ القرار بهذا النقل أم لا- كان إدوار يصرخ بأصوات تشبه عواء الذئب، فهو يتألّم على نحوٍ مرعب. حلقه المفتوح لونه أحمر قرمزيّ، وفي بعض المواضع كان من الواضح ظهور صديد راكد فيه؛ أمّا الرائحة، فمن المستحيل تحمّلها.

ترك ألبير الغرفة مباشرة، وركض حتّى مكتب الراهبات الممرّضات. لم يكن هناك أحد. صرخ في الممرّ: «هل هناك أحد؟» لا أحد. عاد من جديد، لكنّه توقّف فجأةً، وعاد أدراجه. لا، لن يجرؤ على ذلك. بلى؟ راقب الممرّ بعينه، على اليمين وعلى اليسار. صراخ رفيقه ما يزال يرنّ في أذنه، وقد ساعده هذا. دخل إلى الغرفة. صار يعرف مع مرور الوقت أين يجد ما يبحث عنه. أمسك بمفتاح الدرج على اليمين. فتح الخزانة الزجاجيّة. إبرة، وكحول، وعبوات من المورفين. إن أمسكوا به ستكون نهايته. سرقة مواد عسكريّة. اقترب وجه الجنرال موريو منه، وخلفه كان الظلّ الشرّير للملازم براديل.. من سيهتمّ بإدوار عندها؟ تساءل في سرّه بجزعٍ. لكن لم يأتِ أحد. خرج ألبير من المكتب، وقد غمره العرق، وهو يشدّ على غنيمته عند بطنه. لم يعرف أكان من الصواب ما فعله أم لا، لكن تلك الآلام صارت لا تُحتمل.

الحقنة الأولى كانت مغامرةً في حدّ ذاتها. كان قد ساعد الراهبات عدّة مرّات، لكنْ عندما يجب أن يفعل ذلك بنفسه... الحفّاضات، الرائحة

المقزّزة، والآن الإبر... ليس من السهل منع شابٍّ من أن يرمي نفسه من النافذة. خطر ذلك على ذهنه بينما كان يحضّر الحقنة، حرق الإبرة بالمِشعل، شفط ما فيها وغرزها، ما هذه المصيبة التي حشر نفسه فيها؟

كان قد أسند كرسيّاً إلى مقبض الباب لتجنّب أيّ دخولٍ مفاجئ. سارت الأمور على ما يرام، فقد قدّر الكميّة جيّداً، ويمكن لها أن تتناغم مع الإبرة القادمة التي ستعطيها له الراهبة.

- ممتاز، سترى. ستصبح الأمور أفضل.

وبالفعل تحسّن الوضع؛ فقد استرخى إدوار ونام. وحتّى في أثناء نومه، استمرّ ألبير في الحديث معه، وبالتفكير بمسألة هذا النقل الذي يشبه الأشباح. توصّل إلى نتيجة أنّه يجب أن يذهب إلى المصدر الأوّل؛ أي: أن يتوجّه إلى مكتب العاملين.

- أتعرف؟ عندما تكون هادئاً أشعر بالضيق؛ لأنّني لست متأكّداً من أنّك ستظلّ عاقلاً.

ربط إدوار بسريره، وهو يشعر بالأسى، ثمّ خرج.

بمجرّد تركه الغرفة، راح ينظر خلفه مراقباً، والتصق بالجدران راكضاً لكي يكون غيابه أقصر ما يمكن.

- «هذا أفضل ما حصل في هذه السنة!». قال الرجُل.

كان اسمه غروجان. كان مكتب العاملين غرفة صغيرة لها نافذة متناهية في الصغر، ورفوفها تنوء تحت ثِقَلِ الملفّات المغلّفة بالجلد. وراء إحدى الطاولتين الغارقتين تحت الأوراق كانت هناك قوائم وتقارير. بدت على العريف غروجان علائم الهمّ.

فتح سجلاّ واسعاً، وتابع القوائم التي فيه بسبّابةٍ لونها بنيّ من النيكوتين، وقال متذمّراً:

- ذلك أنّك لا تعرف كم لدينا من الجرحى هنا...

- بلى.

- بلى ماذا؟

- أستطيع أن أعرف.

رفع غروجان رأسه عن السجلّ وثبّت نظره عليه.

فهم ألبير مقدار خطئه، وأنّ عليه أن يتدارك الأمر، لكنّ غروجان كان قد عاد ليغوص في السجلّ مستغرقاً في بحثه.

-اللعنة! أعرفه هذا الاسم.

- «أكيد». قال ألبير.

- أكيد؛ أي: طبعاً، لكن أين هو. حرف الباء الزفت؟

فجأة صرخ:

- هنا!

كان قد حقّق نصراً لتوّه. بدا ذلك عليه مباشرة.

- بيريكور، إدوار. كنت أعرف! هنا. آه، كنت أعرف!

أدار السجل نحو ألبير، وسبّابته الضخمة تشير إلى أسفل الصفحة. كان مصرّاً على أن يثبت إلى أيّة درجة كان على حقّ.

«حسناً، ماذا بعد؟». سأله ألبير.

- ها هو صاحبك. إنّه مسجّل.

وأكّد على كلمة «مسجّل». أخذت الكلمة في فمه قيمة الحكم القاطع.

- هذا ما كنت أقوله لك. لقد تذكّرتُه. اللعنة! إنّني لم أخرّف بعد، في نهاية الأمر..

- طيّب، وبعد؟

أغلق الرجُل عينيه من السعادة، ثمّ أعاد فتحهما.

- إنّه مسجّل هنا. ضرب بسبّابته على السجلّ. وبعد، نقوم بكتابة قسيمة النقل.

- وإلى أين تُرسل قسيمة النقل هذه؟

- إلى الوحدة اللوجستيّة. القرار لهم فيما يتعلّق بالعربات.

كان على ألبير أن يعود إلى مكتب الوحدة اللوجستيّة؛ حيث ذهب مرّتين من قبل، ولم يجد أيّة نشرة، أو قسيمة. لا توجد أوراق باسم إدوار. يكاد يجنّ من هذه القصّة. نظر إلى الساعة. البقيّة ستأتي لاحقاً. يجب عليه أن يعود ليرى إدوار ويقدّم له الماء. يجب أن يشرب كثيراً من الماء كما أوصى الطبيب. استدار على عقبيه وفكّر... «خراء!». قال لنفسه: «وماذا لو...».

- أنت الذي تحمل القسائم إلى مكتب اللوجستيك؟

- «نعم». أكّد غروجان: «أو يأتي أحد للبحث عنها. حسب الحالة».

- والقسيمة التي تحمل اسم بيريكور، هل تتذكر من الذي أخذها؟

لكنّه كان يعرف الإجابة.

- أكيد. أخذها ملازمٌ. لا أعرف اسمه.

- شخص طويل ونحيل؟

- تماماً.

-... عيناه زرقاوان؟

- تماماً.

- الوغد...!

- هذا ما لا أستطيع أن أؤكّده..

- وهل يأخذ وقتاً طويلاً تحرير قسيمة جديدة؟

- نسخة طبق الأصل؛ هذا اسمها.

- طيّب، نسخة. هل يأخذ وقتاً تحرير نسخة طبق الأصل؟

كان ذلك هو تماماً المجال الدقيق لغروجان. سحب دواة الحبر، والتقط ريشة، ورفعها نحو السماء.

- اعتبرها منتهية.

كانت الغرفة تفوح برائحة اللحم الفاسد. يجب بالفعل نقل إدوار بسرعةٍ كبيرة. استراتيجيّة براديل كانت في طريقها إلى النجاح. التنظيف بالتفريغ. بالنسبة إلى ألبير لم يكن مجلس الحرب قد ابتعد كثيراً، لكنْ بالنسبة إلى إدوار كانت المقبرة تقترب على نحوٍ خطر. بضع ساعات أُخَر ويكون قد تعفّن تماماً. لا يرغب الملازم براديل بوجود عددٍ كبيرٍ من الشهود على بطولته.

قام ألبير بحمل النسخة بيده إلى الوحدة اللوجستيّة.

- «ليس قبل الغد». قيل له.

هذه المهلة بدت له بلا نهاية.

كان الطبيب الشابّ قد ترك المستشفى لتوّه. لا أحد يعرف من الذي سيحلّ مكانه. هناك جرّاحون وأطباء آخرون لم يكن ألبير يعرفهم. مرّ أحدهم بالغرفة، وبقي فيها لبرهة كما لو أنّ الأمر ما كان يستحقّ العناء.

- «متى يتم نقله؟». سأل.

- العمليّة قيد التنفيذ. السبب هو قسيمة النقل. اسمه موجود في السجلّ بالفعل، لكن..

قاطعه الطبيب بسرعة:

- متى؟ لا يتم النقل إلّا بالقطار...

- قالوا لي: غداً.

ورفع بصره إلى السقف مشكّكاً. كان من نوع الأطبّاء الذين رأوا أشياء كثيرة. هزّ رأسه، كان قد فهم. حسناً. هذا ليس كل شيء. عاد وربّت على كتف ألبير.

- يجب تهوية الغرفة. الرائحة مرعبة هنا!

في اليوم التالي، منذ الفجر قام ألبير بمحاصرة مكتب الوحدة اللوجستيّة. كانت خشيته الرئيسة أن يجد الملازم براديل في طريقه. كان قد نجح في منع نقل إدوار، وهو قادر على فعل أيّ شيء. الشيء الوحيد المهمّ بالنسبة إلى ألبير هو ألّا يظهر، وأن يرحّل إدوار بأسرع ما يمكن أيضاً. سأل:

- اليوم؟

شعر الشاب بالتعاطف معه. وجد أنّه من الرائع أن يهتمّ برفيقه إلى هذه الدرجة. رأى كثيرين غيره لا يهتمّون، ولا يبالون، ولا يفكّرون سوى بأنفسهم. «هه؟ لا، ليس اليوم». قال متأسّفاً: «غداً».

- هل تعرف في أية ساعة؟

قام الشاب بمراجعة أوراقه طويلاً.

- «أنا؟». أجاب بدون أن يرفع عينيه: «حسب الأماكن التي يتم فيها لمّ المرضى. آسف يا صديقي، هكذا نقول نحن. يُفترض أن تكون سيّارة الإسعاف هنا في بداية بعد الظهر».

- أكيد، متأكّد؟

كان ألبير يريد أن يتعلّق بهذا الأمل. حسناً، إلى الغد. لكنّه وجّه اللّوم إلى نفسه؛ لأنّه كان بطيئاً جدّاً، ولأنّه لم يفهم ذلك من قبل، ولأنّه تأخّر إلى هذه الدرجة. كان يمكن أن يكون إدوار قد نُقل من قبل لو أنّ رفيقه كان أقلّ غباء.

غداً.

لم يعد إدوار ينام. كان يجلس في سريره محاطاً بالوسائد التي أخذها ألبير من جميع الغرف الأخرى. يظلّ يتأرجح لساعاتٍ طويلةٍ، وهو يطلق أنّاتٍ مؤلِمة.

- «تتألّم، أليس كذلك؟». سأله ألبير.

لكنّ إدوار لم يكن يجيب قطّ... بالطبع.

كانت النافذة مفتوحة قليلاً دائماً. وألبير ينام دائماً قربها على الكرسي، في حين يريح قدميه على كرسيٍّ آخر. كان يدخّن كثيراً كي يبقى مستيقظاً ويراقب إدوار، وأيضاً لكي يغطي على الرائحة.

- لم تعد لديك حاسّة شمّ، إنّك محظوظ..

اللعنة! ماذا سيفعل إن أراد الضحك؟ شخص لم يعد لديه فكّ قد لا تكون لديه رغبة بالمزاح طيلة الوقت، مع ذلك فإنّ السؤال عذّب ألبير. قال بخشية: «الطبيب...».

كانت الساعة الثانية، أو الثالثة صباحاً. وسيجري النقل في اليوم التالي.

- الطبيب قال: إنّهم سيضعون لك هناك قطعاً تعويضيّة.

لم تكن لديه أفكار كثيرة عمّا يمكن أن يؤدّي إليه وضع قطعة تعويض، أو جسر على الفكّ السفلي، ولم يكن متأكّداً أن تلك كانت اللحظة المناسبة للحديث عن ذلك.

لكنْ بدا كأنّ هذا الاقتراح قد أيقظ إدوار. هزّ رأسه وأطلق صرخات كانت أشبه بضجيج رطب، نوعاً من الغرغرة. أشار بيده. لم ينتبه ألبير قطّ إلى أنّه كان أعْسَر. في أثناء تفكيره بدفتر الصور التخطيطيّة تساءل بسذاجةٍ كيف استطاع أن يقوم بمثل هذه الرسوم باليد اليسرى.

هذا ما كان يجب أن يقترحه عليه من قبل؛ أن يرسم.

- تريد دفترك؟

نظر إليه إدوار. نعم، كان يريد ذلك الدفتر، لكنْ ليس ليرسم.

كان مضحكاً هذا المشهد الذي دار في منتصف اللّيل. نظرة إدوار الممتلئة للغاية، والمعبّرة للغاية داخل هذا الوجه المفرّغ من كل شيء، والمتورّم، والمكشوط، والذي يحمل كثافة غير معقولة، كثافة تجعلك تخاف. كان تأثير ذلك على ألبير كبيراً.

أمسك إدوار الدفتر على نحو متوازن فوق السرير، وخطط حروفاً كبيرةً بلا مهارة. كان شديد الضعف إلى درجة يبدو معها كأنّه لم يعد يعرف كيف يكتب. بدا كأنّ القلم يتحرّك من تلقاء ذاته. نظر ألبير إلى الحروف التي كانت أطرافها تخرج من الصفحة. يكاد أن يموت من النعس، والكتابة تأخذ وقتاً طويلاً. كتب إدوار حرفاً، أو حرفين بجهدٍ لا يمكن قياسه، وحاول ألبير أن يحزر ما هي الكلمة. وضع في ذلك كل ما يستطيع من

طاقة. حرف آخر، ثمّ حرف آخر، لكنْ عندما تكون هناك كلمة لا يعني ذلك أنّ الرسالة وصلت. يجب استنتاج المعنى، وذلك يأخذ وقتاً طويلاً، وإدوار الذي كان يتعب بسرعة انهار. لكنْ بعد أقلّ من ساعة، اعتدل في جلسته، واستعاد الدفتر كما لو كان هناك شيء ملحّ يحركّه بقوّة رغماً عنه. زفر ألبير زفرةً كبيرة. ترك كرسيّه مباشرة، وأشعل سيجارة كوسيلة ليستيقظ. وهنا عادت من جديد لعبة الأحجية. حرفٌ بعد حرفٍ، كلمةٌ بعد كلمة.

عند الساعة الرابعة صباحاً كان ألبير قد توصّل إلى التالي:

- لا تريد إذنْ أن تعود إلى باريس؟ لكنْ إلى أين تريد أن تذهب؟

ها هي اللعبة نفسها تعود من جديد. أصاب إدوار هيجان، وصبّ ضيقه وغضبه على الدفتر. كانت الحروف تنبثق على الورق كبيرة للغاية، ما يجعل من الصعب التعرّف إليها.

- اهدأ يا ألبير. لا تقلق. سنتوصّل إلى ذلك.

لكنّه لم يكن واثقاً من ذلك على الإطلاق، الأمر على ما يبدو شديد التعقيد. تمسّك بالفكرة. عند أوّل بشائر الفجر استطاع أخيراً التأكّد من أنّ إدوار لا يريد العودة إلى بيته. أليس كذلك؟ كتب إدوار «نعم» على الدفتر.

- «هذا طبيعي!». شرح له ألبير: «في البداية لا تكون هناك رغبة بأن يراك أحد بهذه الحالة. كلّنا نشعر بالخجل من ذلك نوعاً ما. هكذا يكون الأمر دائماً. خذ مثلاً: حتّى أنا، ولو أنّني لا أريد أن أتحدّث عن نفسي؛ عندما أصبت بتلك الرصاصة في معركة السوم، فكّرت للحظة بأنّ سيسيل سوف تدير وجهها عنّي. أقسم لك! لكنّ أهلك يحبّونك، ولن يتوقّفوا عن الشعور بالحبّ تجاهك لأنّك قد جُرحت في الحرب. يجب ألّا تقلق من ذلك».

لكنّ ذلك الكلام القصير غير المتماسك، بدلاً من أن يهدّئ إدوار، أثار غضبه. صارت الصرخات الصادرة عن حلقه تتصاعد على شكل شلال يغلي، وراح يتحرّك كثيراً وبشدّة، إلى درجة أنّ ألبير اضطرّ إلى تهديده بأن يربطه.

تمالك إدوار أعصابه، لكنّه ظلّ متحمّساً، بل غاضباً أيضاً. انتزع الدفتر بقوّة من يدي ألبير كما يُنتزَع غطاء طاولة في أثناء مشاجرة. استعاد محاولاته في تخطيط الحروف، في حين أشعل ألبير سيجارة أُخرى، وخلال ذلك الوقت راح يفكّر بالطلب.

إن كان إدوار لا يريد أن يراه أقرباؤه، وهو في هذه الحالة، ربّما يعني هذا أنّ هناك في القصّة سيسيل أُخرى. والتخلّي عن ذلك أمر لا يمكن تحمّله. كان ألبير يفهمه تماماً. تحدّث عن تلك الحُجّة بحذرٍ شديد.

إدوار الذي كان يركّز اهتمامه على ورقته مسح الفكرة بحركة من رأسه. لا وجود لسيسيل.

لكنْ هناك أخته. يلزمه وقتٌ طويلٌ ليفهم قصّة الأخت. مستحيل أن يقرأ الاسم. لا ضرورة. وفي النهاية الأمر ليس مهمّاً جدّاً.

لكنّ الأمر لم يكن يتعلّق بالأخت أيضاً.

بكلّ الأحوال، ذلك ليس مهمّاً. فمهما كان السبب عند إدوار، يجب محاولة جعله يتعقّل.

– «أنا أفهمك». عاد ألبير إلى القول: «لكن سترى. مع جسر الأسنان الذي سيركبونه، سيكون الأمر مختلفاً للغاية...».

توتّر إدوار، وصعدت آلامه إلى السطح. تخلّى عن محاولة التواصل، وعاد إلى الصراخ بأعلى صوته مثل مجنون. قاوم ألبير قدر الإمكان، فقد

كان هو نفسه مُنهكاً. في النهاية رضخ وأعطاه إبرةً جديدةً من المورفين. بدأ إدوار ينام؛ إذْ لا شك أنّه ابتلع كميّة كبيرة منه خلال أيّام. إن نجا من ذلك، فهذا يعني أنّه من الفولاذ.

في الصباح، كان ألبير يغيّر له ثيابه ويغذّيه (كان ألبير يفعل ما علّموه فعله؛ إذْ يضع أنبوباً مطاطياً في الرغامى مع قمع صغير يجري السكب فيه ببطءٍ شديدٍ حتّى لا تثور المعدة). خلال ذلك توتّر إدوار من جديد، أراد النهوض، لم يعد يستطيع البقاء في مكانه، لم يعد ألبير يعرف إلى أيّ قدّيس يجب أن يصلّي. التقط الشابّ الدفتر وخطّط من جديد بضعة حروف على الدرجة نفسها من عدم الوضوح التي كانت عليها في اليوم السابق، ثمّ بدأ يضرب بالقلم على الصفحة. حاول ألبير أن يفكّ رموز الحروف، لكنّه لم يتوصّل إلى ذلك. قطّب حاجبيه، ما هذا! حرف أ، ثمّ ب... فجأة لم يعد يحتمل فانفجر:

- اسمع، لا أستطيع فعل شيء يا صديقي! لا تريد أن تعود إلى بيتك، وأنا لا أفهم لماذا، لكن بكل الأحوال، الأمر ليس بيدي. أشعر كم هذا مؤلم لك، لكنّني لا أستطيع فعل أيّ شيء. هذا هو الأمر.

عندها التقط إدوار ذراعه وضغط عليها بقوّةٍ غير معقولة.

- «هيه، أنت تؤلمني!». صرخ ألبير.

كان إدوار قد غرز أظافره، وكان ذلك مؤلماً على نحوٍ مرعب. لكنّ الضغط تراخى. بعد قليل ارتمت يدا إدوار حول كتفي ألبير، وشدّه إلى صدره، وبكى بشهقاتٍ عاليةٍ، وهو يطلق صرخات. كان ألبير قد سمع مثل هذه الصرخات؛ ففي أحد الأيّام، في السيرك كانت هناك مجموعة من القرود الصغيرة ترتدي أطقم البحّارة، وتركب درّاجة. كان القرود يتأوّهون

إلى درجةٍ تنتزع الدموع من عينيك. مؤلم ذلك الحزن العميق. ما حصل لإدوار كان نهائيّاً، سواء وضع الجسر أم لم يضعه. كان ذلك شيء لا رجعة عنه...

قال ألبير أشياء بسيطة: «ابكِ يا رفيقي». لم يعد لديه ما يفعله سوى هذا. أن يقول أشياء غبيّة. أسى إدوار كان خارج السيطرة، ولا يمكن كبحه.

- «لا تريد العودة إلى بيتك، أفهم ذلك». قال ألبير.

شعر برأس إدوار يرتدّ إلى الوراء، ويغوص في رقبته. لا، إنّه لا يريد العودة إلى البيت. كرّر عدّة مرّات لا، لا، لا يريد.

ضمّه ألبير إلى صدره، وقال لنفسه: إنّه خلال فترة الحرب كلها، ومثل الجميع، لم يكن إدوار يفكّر سوى بالبقاء على قيد الحياة. الآن وقد انتهت الحرب، وظلّ على قيد الحياة، لم يعد يفكّر سوى بأن يختفي. عندما لا يعود لدى الباقين على قيد الحياة تطلّعات أُخرى سوى أن يموتوا، يا للخراب...!

في الواقع، صار ألبير يفهمه الآن. لن تكون لدى إدوار القوّة لقتل نفسه. انتهى الأمر. لو استطاع أن يلقي بنفسه من النافذة في اليوم الأول لكانت حُلّت الأمور. الحزن، والدموع، والزمن. الزمن غير المتناهي الذي سيأتي. كل شيء كان يمكن أن ينتهي هناك، في باحة المستشفى العسكري. لكنّ ذلك الحظّ قد تبخّر، ولن تكون لديه أبداً الشجاعة. لقد حُكم عليه أن يبقى على قيد الحياة.

ذلك خطأ ألبير. كل شيء صار بسببه هو، ومنذ البداية. كل شيء. فاض قلبه بالحزن. هو أيضاً يمكن أن يبكي لأتفه الأسباب. أيّة عزلة! في حياة إدوار، صار ألبير يشغل المكان كلّه الآن. صار الملجأ الأوحد والوحيد.

لقد فوّض إليه الشابّ كلّ وجوده، وسلّمه إيّاه؛ لأنّه لم يعد يستطيع حمله وحْده، ولا أن يتخلّص منه.

شعر ألبير بأنّه محطّم تماماً، وكيانه قد تزعزع.

- «حسن». قال متمتماً: «سأرى...».

قال ذلك بدون أن يفكّر. لكنّ إدوار رفع رأسه مباشرةً كما لو أنّه تلقّى لتوّه شحنةً إلكترونيّة. إنّه وجهٌ شبه فارغ، بلا أنف، بلا فم، بلا وجنتين، فقط نظرة قويّة بجنون تخترقك من جنبٍ إلى جنب. لقد وقع ألبير في الفخ.

- «سوف أرى». ردّد بغباء: «سأتدبّر الأمر».

شدّ إدوار على يديه وأغلق عينيه، ثمّ وضع عنقه ببطءٍ على الوسادة. كان قد هدأ، لكنّه ما زال يتألّم. زمجر بصوتٍ مكتومٍ، فقد كانت ما تزال لديه كريّات كبيرة مدمّاة في أعلى الرغامى.

- سوف أتدبّر الأمر.

هناك أمرٌ ثابتٌ في حياة ألبير هو «الكلمة الزائدة». كم مرّة جعلته حماسته يورّط نفسه في أفعال كارثيّة؟ ليس ذلك بالأمر الصعب: بعدد المرّات التي تأسّف فيها لأنّه لم يأخذ الوقت الكافي للتفكير. في العادة يكون ألبير ضحيّة كرمه، أو يكون تحت سحر لحظةٍ ما. تلك الوعود التي تأتي قبل أوانها ما كانت تتعلّق وقتها سوى بأشياء ثانويّة؛ أمّا اليوم، فالأمر مختلفٌ تماماً. إنّها تتعلّق بحياة إنسان.

داعب ألبير يدي إدوار، ونظر إليه، وهو يحاول أن يهدهده.

هذا مرعب! إنّه غير قادرٍ على تذكّر وجه ذلك الذي كان يسمّيه بكلّ بساطة بيريكور. ذلك الشابّ الضاحك دائماً، الذي يمزح باستمرار، والذي كان يرسم طيلة الوقت. لم يستطع أن يستعيد في ذهنه سوى قسماته

الجانبيّة وظهره في اللّحظة التي سبقت الهجوم على النقطة 113 تماماً؛ أمّا الوجه، فلا يذكر منه شيئاً. ومع أنّ بيريكور استدار نحوه في تلك اللّحظة، إلّا أنّ ذلك لم يجعله يتذكّر شيئاً. كأنّ ذكرى ما كان في الأمس قد التهمتها الصورة التي يراها اليوم، وهي هذا الثقب الواسع والمدمّى. أثار ذلك اليأس لديه.

وقع نظره عندها على الملاءة التي كان يجثم عليها الدفتر. الكلمة التي لم يستطع قراءتها قبل قليل، فهمها الآن على نحوٍ كامل.

«أبي».

غاصت به الكلمة ضمن هاوية. من وقتٍ طويلٍ لم يعد أبوه هو سوى صورةٍ شخصيّةٍ اصفرّ لونها فوق الصوان. لكنْ فيما لو فكّر فقط بالحقد الذي يحمله في قلبه لأبيه لأنّه مات مبكّراً، فإنّه يتوقّع أن يكون الأمر أكثر تعقيداً مع وجود أبٍ حيّ. كان بودّه أن يعرف، وأن يفهم، لكنْ تأخّر الوقت. لقد وعد إدوار أنّه سوف «يتدبّر الأمر»، ولم يعد يعرف ما كان يريد قوله بهذه الكلمة. بينما كان يسهر على رفيقه الذي بدأ يعود للنوم، راح يفكّر.

إدوار يريد أن يختفي. ليكن. لكنْ كيف يجري إخفاء جنديٍّ حيّ؟ ألبير ليس ملازماً، وهو لا يعرف شيئاً عن الأمر. ليست لديه أقلّ فكرةٍ عن الطريقة التي يمكن له أن يتدبّر الأمر فيها. هل يجب أن يخترع له هويّة جديدة؟

ألبير ليس من النوع اللمّاح، لكنّه كان محاسباً، وبذلك فهو منطقي. قال لنفسه: إن كان إدوار يريد أن يختفي، يجب أن نعطيه هويّة جنديٍّ ميّت، ونقوم بالمبادلة.

أمّا بالنسبة إلى الحل، فلم يكن أمامه سوى واحد فقط.

قسم العاملين، مكتب العريف غروجان.

حاول ألبير أن يتخيّل النتائج التي تترتّب على فعلٍ كهذا. هو من أفلت بالكاد من المحكمة العسكريّة، ها هو مستعدٌ -لو افترضنا أن ذلك ممكن- لأن يزوّر كتابات، ويضحّي بأحياء، ويعيد الحياة إلى أموات.

هذه المرّة، سيواجه كتيبة الإعدام! يجب ألّا يفكر بذلك.

استطاع إدوار الذي قضى عليه الإنهاك أن ينام أخيراً. ألقى ألبير نظرةً على ساعة الحائط، وقف وفتح باب الخزانة.

غاص بيده داخل حقيبة إدوار، وأخرج منها دفتر العسكريّة الخاصّ به.

اقتربت الساعة من الثانية عشرة ظهراً. بقي لها أربع دقائق، ثلاث، دقيقتان... انطلق ألبير مثل السهم، صعد الممرّات، وسار بحذاء الجدار، ودقّ على باب المكتب، وفتحه بدون أن ينتظر. أمام طاولة غروجان المثقلة: الساعة الثانية عشرة إلّا دقيقة واحدة.

- «مرحباً». قال ألبير.

جرّب لهجة المرح، لكنْ في الساعة التي تقترب من الثانية عشرة ظهراً، ومقابل المعدة الفارغة، لا يكون أمام استراتيجيّة الفرح حظّ كبير بالنجاح. راح غروجان يتذمّر. ماذا يريد هذه المرّة؟ لا بل في تلك الساعة أيضاً؟ أن أقول: شكراً. جعله يجلس، غروجان هذا. كان قد رفع أحد فخذيه عن الكرسي مستعدّاً لأن يغلق سجلّه، لكنّ «شكراً» هي تماماً ذلك النوع من الأشياء التي لم يسمعها منذ بداية الحرب. لم يعرف كيف يردّ على ذلك.

- آه... لا يوجد ما يستحق الشكر.

دخل ألبير في الموضوع مباشرة، وزاد الطين بلّة:

- فكرتك عن النسخة طبق الأصل.. أريد أن أشكرك عليها بالفعل؛ إذْ سوف يُنقل صديقي اليوم بعد الظهر.

استعاد غروجان أفكاره. وقف، مسح يديه ببنطاله المغطّى ببقع الحبر. لا فائدة من مديحه بآيات الشكر؛ فالساعة صارت الثانية عشرة. انتقل ألبير إلى الهجوم:

- أنا أبحث أيضاً عن صديقين آخرين...

مكتبة
t.me/soramnqraa

- آه.

لبس غروجان سترته.

- لا أعرف ما حلّ بهما. قالوا لي هنا: إنّهما عُدّا مفقودين. وهناك قالوا لي: إنّهما جريحان، وقد نُقِلا...

- أنا لا أعرف شيئاً عن ذلك.

اتّجه غروجان نحو الباب، ومرّ قبل ألبير.

- «كل شيء في السجلّ..». اقترح عليه ألبير بخجل.

فتح غروجان الباب على مصراعيه.

- «مرّ عليّ بعد الغداء». قال له: «وسننظر معاً».

فتح ألبير عينيه على اتّساعهما مثل شخصٍ خطرت على باله فكرةٌ جيّدةٌ فجأة:

- إن أردت أستطيع أن أبحث أنا بينما تذهب أنت لتناول لطعام.

- آه لا. عندي تعليمات. لا أستطيع!

دفع ألبير. أغلق الباب بالمفتاح، وتجمّد في مكانه. لم يعد وجود ألبير مقبولاً. قال: «شكراً، إلى اللقاء بعد قليل». ومشى في الممرّ. نقل إدوار

سوف يجري بعد ساعة، أو ساعتين. لوى ألبير يديه وفركهما، خراء، خراء، خراء! راح يكرّر الكلمة بدون توقف، وقد قتله شعور العجز.

على بعد بضعة أمتار، استدار رغماً عنه. ما يزال غروجان في الممرّ. نظر إليه يبتعد.

مشى ألبير باتّجاه الباحة. بدأت الفكرة تثمر في رأسه. استعاد منظر غروجان أمام باب مكتبه ينتظر... ينتظر ماذا؟ كان ما يزال يبحث عن الجواب عندما التفّ نصف دورة، ومشى بخطواتٍ تمنّى أن تكون ثابتة؛ إذْ يجب السير بسرعة. وصل إلى الباب، لكن كان هناك جنديّ أمامه. أصيب ألبير بذعر شلّه. إنّه الملازم براديل يمرّ بدون أن يدير رأسه، ثمّ يختفي، لحسن الحظ. استعاد ألبير رباطة جأشه، سمع أصوات خطوات أُخرى، خطوات كثيرة، وضحكات، وصرخات، أصوات تتّجه نحو قاعة الطعام. توقّف ألبير أمام مكتب غروجان، مرّ بيده فوق دعامة الباب، ووجد المفتاح. أمسك به، وضعه في القفل، أداره دورةً، فتح، دخل، أعاد إغلاقه مباشرة. كان ظهره للباب كما في حفرة القذائف، وأمامه سجلّات. أطنان من السجلّات، من الأرض حتّى السقف.

في البنك، تعامل كثيراً مع هذا النوع من الأرشيف الذي توجد عليه لصاقات تعريف ممحيّة، وكتابات مدوّنة بحبرٍ أزرق فقد لونه مع الزمن. مع ذلك، لزمه ما يقارب خمساً وعشرين دقيقة لكي يجد السجلّات التي يحتاج إليها. كان قلقاً. ذلك أقوى منه. راح ينظر بلا توقف نحو ذلك الباب كما لو كان يمكن أن ينفتح في أيّة لحظة. ليست لديه أدنى فكرة عمّا يمكن أن يقوله وقتها.

كانت الساعة الثانية عشرة والنصف ظهراً عندما استطاع أن يجمع السجلّات الثلاثة المتمّمة. على كلّ واحدٍ منها كتابات مختلفة، إداريّة، وقد صارت عتيقة. عجيب كيف يمكن لاسم العائلة أن يموت بسرعة! ما زال أمامه ما يقارب عشرين دقيقة أخرى لكي يجد... هنا، في تلك اللحظة، ولأنّ ذلك كان ضمن طباعه، بدأ يتردّد، كما لو أنّ الخيار كان مهمّاً. «خذ أوّل اسم أمامك». قال لنفسه. نظر إلى الساعة والباب. شعر كأنّ الساعة والباب قد غيّرا حجميهما، وصارا يشغلان المكان كلّه داخل الغرفة. فكّر بإدوار الذي كان وحده، مربوطاً..

الثانية عشرة واثنتان وأربعون دقيقة.

لديه تحت عينيه سجلّ الأموات في المستشفى، والذين لم تُبلّغ عائلاتهم بعد. توقفت القائمة عند يوم الثلاثين من أكتوبر.

بوليفيه، فيكتور، ولد في 12 فبراير 1891. قُتل في 24 أكتوبر 1918.. لا يوجد أهلٌ ليُبلّغوا. ديجون.

في تلك اللّحظة، ما استحوذ على تفكيره لم يكن تأنيب الضمير، إنّما الاحتياطات التي يجب أخذها. فهم ألبير أنّ وجود صديقه حمّله مسؤوليّةً روحيّةً، وما عاد يستطيع فعل أيّ شيءٍ كما لو كان يفعل ذلك لنفسه. صار عليه أن يقوم بالأشياء على نحوٍ ملائم، وبفعاليّة. لكنْ إن أعطى إدوار هويّة جنديٍّ ميّت، فإنّ هذا الجنديّ سيصبح حيّاً من جديد، وسيذهب أهله لانتظاره، وسيسألون عن أخباره، وسيكون هناك تحقيق، ولن يكون من الصعب الوصول إلى أوّل الخيط. هزّ ألبير رأسه، وهو يتخيّل العواقب فيما لو فُضحا هو وإدوار بتهمة تزوير وثيقةٍ، أو استخدام وثيقةٍ مزوّرة (وتهم أُخرى بلا شكّ لم تكن لديه فكرة عنها).

بدأ يرتعد. ردود أفعال من هذا النوع كانت تحصل معه قبل الحرب. فعندما يخاف يبدو عليه أنّه يرتعش. نظر إلى الساعة، الوقت يمرّ بسرعة. فرك يديه فوق السجلّ، أدار الصفحات.

دوبوا، ألفريد، ولد في 24 سبتمبر 1890. مات في 25 أكتوبر 1918 – متزوّج، ولدان، عائلته تعيش في سان بورسان.

يا إلهي، كيف يفعل؟ في النهاية هو لم يَقطع أيّ وعد لإدوار. قال له: «سأرى». وهذا النوع من الجمل ليس التزاماً صارماً.. إنّه... بحث ألبير عن الكلمة، وهو مستمرٌّ بتقليب الصفحات.

إيفرار، لوي، ولد في 13 يونيو 1892 ومات في 30 أكتوبر 1918... لا يوجد من يبلّغ عنه. الأهل يسكنون في تولوز.

هكذا هو الأمر. هو لم يفكّر كفاية، ولم يحسب حساب أيّ شيء. انطلق مثل المجنون، وكله نيّة طيّبة، ثمّ... لقد كانت أمّه على حق.

غوجو، كونستان، ولد في 11 يناير 1891. مات في 26 أكتوبر 1918. متزوج. الإقامة مورنان.

رفع ألبير عينيه. الساعة نفسها كانت ضدّه. لقد زادت من سرعة إيقاعها؛ إذْ من غير المعقول أن تكون الساعة قد صارت الواحدة. سقطت حبّتا عرق كبيرتان على السجل. بحث عن نشّافة، نظر إلى الباب، لا توجد نشّافة. قلب الصفحة. سينفتح الباب. ماذا سيقول؟

ثم فجأة، هذا ما وجد.

أوجين لاريفيير. ولد في الأول من نوفمبر 1893. مات في 30 أكتوبر 1918. قبل عيد ميلاده بيوم. كان عمر أوجين خمساً وعشرين سنة تقريباً. للتبليغ: الهيئة الحكوميّة لدعم المحتاجين.

بالنسبة إلى ألبير تلك كانت معجزة. لا أهل. فقط الإدارة. يعني لا أحد.

رأى ألبير قبل قليل العلب التي تحتوي على دفاتر العسكريّة. كانت أمامه عدّة دقائق لكي يضع يده على دفتر لاريفيير، الدفاتر مرتّبة جيّداً. الساعة الواحدة وخمس دقائق. غروجان عريضٌ، وثقيلٌ، ولديه كرش، لا شكّ أنّه من النوع الذي يأكل كثيراً. يجب ألّا يصاب بالذعر، فهو حتماً لن يخرج من المطعم قبل الساعة الواحدة والنصف. مع ذلك يجب أن يسرع.

وجد نصف بطاقة التعريف المعدنيّة التي فيها هويّة لاريفيير. النصف الثاني بقي على الجسد، أو أنّه ثُبّت بالمسامير على الصليب. لا يهمّ. صورة أوجين لاريفيير تُظهر شابّاً عاديّاً، ذلك النوع من الوجوه الذي لا يمكن أن يتعرّف إليه الإنسان فيما لو نزع عنه فكّه السفلي. وضع ألبير الدفتر بسرعة في جيبه، والتقط دفترين آخرين لا على التعيين وضعهما في الجيب الآخر. أن يضيّع الإنسان دفتراً فهو حادث؛ أمّا أن يضيّع عدّة دفاتر، فتلك تكون فوضى، وذلك أقرب إلى الوضع العسكري، وسيكون مقبولاً أكثر. فتح السجلّ الثاني، ودواة الحبر، وأخذ الريشة، وتنفّس بعمقٍ لكي يتوقّف عن الارتعاد. سجّل: «إدوار بيريكور (نظر إلى تاريخ ولادته، وأضافه مع رقم تسجيله العسكري). كتب: «قُتل في يوم 2 نوفمبر 1918». وضع دفتر إدوار في علبة الأموات. على رأس القائمة. مع نصف الصحيفة التي توجد عليها هويّته ورقم تسجيله العسكري. خلال أسبوع، أو أسبوعين ستُبلّغ عائلته أنّ ابنها، أو أخاها، قد مات في ساحة الشرف. القسيمة المطبوعة تصلح لكلّ شيء، ولا يلزم سوى إضافة اسم الميت عليها. وهذا سهلٌ وعمليّ. حتّى في الحروب غير المنظّمة، تستطيع الإدارة دائماً أن تتابع. عاجلاً أم آجلاً...

الواحدة وخمس عشرة دقيقة.

ما تبقّى سيجري على نحوٍ أسرع. كان قد رأى غروجان يعمل، ويعرف أين توجد دفاتر الأرومات. تأكّد. على الدفتر كانت النسخة طبق الأصل المتعلّقة بنقل إدوار آخرَ ما حُرِّر. أخذ ألبير من رأس الكومة دفتراً فارغاً؛ إذْ لن يتحقّق أحدٌ من الرقم. وقبل أن يدركوا نقصَ قسيمةٍ في الدفتر الذي على رأس الكومة، تكون الحرب قد انتهت. وربّما سيكون هناك وقتٌ لبدء حربٍ جديدة. خلال ثانيةٍ حرّر نسخةً طبق الأصل عن قسيمة النقل باسم أوجين لاريفيير. عندما وضع الختم الأخير اكتشف أنّه يسبح في عرقه.

رتّب جميع السجلّات بسرعةٍ كبيرةٍ، ألقى نظرةً على الغرفة ليرى إن كان قد ترك شيئاً وراءه، ثمّ ألصق أذنه بالباب. لا توجد أيّة ضجّة سوى من بعيدٍ جدّاً. خرج. أقفل الباب. وضع المفتاح على إطاره، وذهب مبتعداً، وهو يلتصق بالجدران.

إدوار بيريكور قد مات لتوّه من أجل فرنسا. وأوجين لاريفيير، عاد إلى الحياة من بين الأموات، وستكون أمامه حياة طويلة ليتذكّر.

كان إدوار يتنفّس بصعوبةٍ، ويستدير في جميع الاتّجاهات. كان يمكن أن يتدحرج من طرف السرير إلى طرفه الآخر لولا الأربطة التي كانت تحيط بكاحله وبمعصمه. أمسك ألبير بكتفيه وبيديه، وتكلّم معه بدون توقّف. روى له: «اسمك أوجين، أرجو أن يعجبك هذا الاسم؛ لأنّنا لم نجد غيره في المخزن».

كيف سيتمكن من إضحاكه...؟ يتملّكه الفضول لمعرفة ما سيفعله إدوار لاحقاً عندما تصبح عنده رغبة في المزاح.

ها قد وصلت... أخيراً.

فهم ألبير مباشرة. هناك عربة نقل يصدر عنها دخان أسْود للغاية توقّفت في الباحة. لم يكن هناك وقت لربط إدوار. ذهب ألبير بسرعة إلى الباب، هبط كل أربع درجات مع بعضها، ونادى الممرّض الذي كان يحمل ورقةً في يده وينظر حوله باحثاً عمّن يتوجّه إليه.

- «من أجل النقل؟». سأله ألبير.

بدا الارتياح على الشاب. جاء زميله السائق لينضمّ إليهما. صعدا بتثاقلٍ، وهما يحملان نقّالةً التفّ قماشها على الذراعين الخشبيّتين، وتبعا ألبير في الممرّ.

-أحذّركما. الرائحة قاتلة في الداخل.

النقّال السمين رفع كتفيه، فهو معتادٌ على ذلك. فتح الباب.

- «بالفعل...». قال.

صحيحٌ أنّه حتّى بالنسبة إلى ألبير، عندما يبتعد، ثمّ يعود، فإنّ رائحة التحلّل تمسك بتلابيبه.

وضعا النقّالة على الأرض. الضخم بينهما -وهو من يعطي الأوامر- وضع ورقته عند رأس المريض، ودار حول السرير. لم يضيّعا وقتاً، فقد أمسك أحدهما بالقدمين، والآخر بالرأس، ثم عدّوا إلى ثلاثة.

- «واحد». استعدّا للانطلاق.

- «اثنان». رفعا إدوار.

- «ثلاثة». في اللحظة التي كان فيها الممرّضان يمسكان بالجريح من أجل وضعه على النقّالة، أمسك ألبير بالنسخة الثانية طبق الأصل الموضوعة عند الرأس، واستبدل نسخة لاريفيير بها.

- هل لديكم مورفين تعطونه إيّاه؟

- «لدينا ما يلزم. لا تقلق». قال الممرّض القصير.

- «خُذ». أضاف ألبير: «هذا دفتره العسكري. أعطيك إيّاه على حِدة كما ترى، في حال ضاعت أغراضه، أفهمت؟».

- «لا تقلق». كرّر الآخر، وهو يأخذ الدفتر.

وصلوا إلى أسفل الدرج، وخرجوا إلى الباحة. كان إدوار يهزّ رأسه، وعيناه في الفراغ. صعد ألبير إلى عربة النقل.

- هيّا أوجين. تشجّع. سيمشي الحال. سوف ترى.

كانت لدى ألبير رغبة بالبكاء. وراءه كان النقّال يقول:

- يجب أن نذهب يا صديقي.

- «نعم، نعم». أجاب ألبير.

أمسك بيدي إدوار. هذا ما سيتذكّره دائماً. عيناه في تلك اللّحظة مبتلّتان، ثابتتان، تنظران إليه، هو.

قبّله ألبير على جبهته.

- إلى اللقاء قريباً، هه؟

نزل من عربة النقل، وقبل أن يُغلق الباب رمى بتلك الجملة:

- سآتي لرؤيتك.

بحث ألبير عن منديله، رفع رأسه. ضمن مصراعي نافذةٍ مفتوحةٍ في الطابق الثاني كان الملازم براديل يلاحق المشهد، وهو يُخرج بهدوءٍ علبة سجائره.

في تلك اللحظة انطلقت الشاحنة.

عندما تركت باحة المستشفى، نفخت دخاناً أسْود بقي في الهواء مثل ضباب معملٍ تلاشت فيه آخر عربة نقل. استدار ألبير نحو البناء. كان براديل قد اختفى. أُغلقت نافذة الطابق الثاني.

هبّت نسمة هواء كنست الدخان. كانت الباحة فارغة. شعر ألبير بنفسه فارغاً هو الآخر، ويائساً. زفر زفرةً طويلة، وربّت على جيبه ليأخذ منديله. قال:

- اللعنة!

كان قد نسي أن يعيد إلى إدوار دفتر رسوماته.

في الأيّام التالية، ولد في ذهن ألبير همٌّ جديدٌ لم يتركه مرتاحاً. فلو أنّه هو الذي مات، هل كان يرغب أن تتلقّى سيسيل رسالة رسميّة، أو لنقل: استمارة من هذا النوع، وبهذا القدر من الجفاف، لتخبرها أنّه مات، وهذا كل شيء؟ أمّا عن أمّه، فلا ضرورة للحديث. أيّاً كانت الورقة في مثل تلك الحالة، فإنّها ستبلّلها بدموعٍ سخيّةٍ قبل أن تعلّقها في الصالة.

مسألة إن كان من الضروري إبلاغ العائلة أم لا كانت تتنازعه منذ أن وجد في قعر حقيبته الدفتر العسكريّ المسروق عندما ذهب ليبحث عن هويّةٍ جديدةٍ لإدوار.

كان ذلك الدفتر العسكري باسم إيفرار، لوي، ولد في 13 يونيو 1892.

لم يعد ألبير يتذكّر في أيّ تاريخ توفّي هذا الجندي. في الأيّام الأخيرة للحرب بالتأكيد، لكنْ متى؟ كان قد تذكّر مع ذلك أنّ الأهل الذين يمكن إعلامهم يسكنون في تولوز. لا بدّ من أنّ هذا الصبيّ كان يتكلّم بلكنة الجنوب. بعد عدة أسابيع، أو بعد عدّة أشهر، بما أنّه ما من أحدٍ سيجد

أيّ أثر له، ولأنّ دفتره العسكريّ سيكون ناقصاً، سيُعدّ مفقوداً هو الآخر، وسينتهي الأمر بالنسبة إلى إيفرار لوي كما لو أنّه لم يكن موجوداً قطّ. وعندما سيموت والداه بدورهما، من سيبقى ليتذكّر إيفرار لوي؟ كل هؤلاء الموتى، وهؤلاء المفقودين، أليست أعدادهم كبيرة أصلاً؟ وهل من الضروري أن يقوم ألبير بفبركة أمواتٍ جُدد؟ وكلّ هؤلاء الأهل المساكين الذين كُتب عليهم أن يبكوا في الفراغ...

طيّب خذوا من جهةٍ أوجين لاريفيير، ومن الجهة الأُخرى لوي إيفرار، ضعوا إدوار بيريكور في الوسط. أعطوا كلّ ذلك لجنديٍّ مثل ألبير مايار، ستغمرونه وقتها بحزنٍ كاملٍ لا ينتهي. هو لا يعرف شيئاً عن عائلة إدوار بيريكور. العنوان على الوثيقة يدل على حيٍّ غنيٍّ، وذلك كل شيء، لكنْ مقارنةً مع موت الابن، سواء كان الحيّ غنياً أم لا، فإنّ ذلك لا يغيّر من الأمر شيئاً. رسالة أحد الرفاق هي غالباً أوّل ما تتلقّاه العائلة؛ لأنّ الإدارة بقدر ما تكون مستعجلة عندما ترسلك إلى الموت بقدر ما... في حال التبليغ عن الموت...

كان بودّ ألبير أن يكتب تلك الرسالة. فكّر بأنّه قادرٌ على إيجاد الكلمات، لكنّه لم يستطع أن ينتزع من نفسه فكرة أنّها كانت كذبة.

أن تقول لأشخاص سيشعرون بكلّ هذا الألم أنّ ابنهم مات في حين أنّه حيّ! ما العمل؟ من جانب هناك الكذبة، ومن جانبٍ آخر الندم. يمكن لمثل هذا الصراع أن يشغله لأسابيع.

لكنّه اتّخذ القرار في أثناء تقليبه الدفتر. كان قد وضعه تحت رأسه في السرير، وراح ينظر إليه في كثير من الأحيان. هذه الرسومات قد صارت جزءاً من حياته، لكنّ الدفتر ليس له. كان يجب أن يعيده. مزّق منه بعناية

فائقة الصفحات الأخيرة التي استخدمها الاثنان قبل بضعة أيّامٍ كدفتر محادثة.

كان يعلم أنّه لن يكتب المضمون على نحوٍ ممتاز، لكنْ مع ذلك، في صباح يومٍ من الأيّام بدأ العمل:

سيّدتي، سيدي:

أنا ألبير مايار، أحد رفاق ابنكما إدوار. يؤلمني شديد الألم أن أعلمكم أنه مات في المعركة في يوم الثاني من نوفمبر الماضي. ستبلغكم الإدارة بذلك رسمياً، لكنّني أستطيع أن أقول لكم: إنّه مات كبطلٍ بينما كان يطلق النار على الأعداء من أجل حماية الوطن.

إدوار ترك لي دفتر رسوماتٍ لأعطيكم إيّاه في حال حصل له شيء. ها هو.

كونوا على ثقة بأنّه يرقد بسلامٍ في مقبرةٍ صغيرةٍ يتقاسمها مع رفاقٍ آخرين، وأؤكّد لكم أنّه قد نال كلّ ما يلزم من العناية ليكون بأمان حيث يكون.

وتقبّلوا...

7

أوجين، يا رفيقي العزيز:

ما كان أحدٌ يعلم إن كانت الرقابة ما تزال موجودةً، ويُفتح فيها البريد، ويُقرأ، ويُراقَب. شكّ ألبير بذلك؛ ولهذا السبب أخذ احتياطاته وخاطب إدوار باسمه الجديد فاعتاد عليه. كم من الغريب أن يعيد التاريخ نفسه! ومع أنّه ما كانت لديه رغبة كبيرة بالتفكير بتلك الأشياء، فقد عادت الذكريات لتطفو رغماً عنه.

كان قد عرف صبيّين اسمهما أوجين: الأوّل في صفوف الطفولة كان صبيّاً نحيلاً لديه بقع نمش، وصوته خفيضٌ لا يُسمع. لكنّ هذا لم يكن من يهمّه بالفعل، إنّما الآخر. كانا قد التقيا في دروس الرسم التي كان إدوار يذهب إليها خفيةً بدون أن يُعلم أهله. كان يمضي وقتاً طويلاً معه. بكلّ الأحوال، كان إدوار مضطرّاً إلى أن يفعل كلّ شيء في الخفاء. لحسن الحظّ، كانت لديه مادلين، أخته التي تكبره، والتي تدبّر كلّ شيءٍ دائماً، أو على الأقل تدبّر ما يمكن تدبيره. ولأنّهما كانا يحبّان بعضهما، فقد قام أوجين وإدوار بالتحضير لامتحان الدخول إلى الفنون الجميلة معاً. لم يكن أوجين موهوباً جدّاً، فلم يُقبَل. بعدها ما عادا يلتقيان، وقد علم إدوار بموته في عام 1916.

أوجين، يا رفيقي العزيز:

أريدك أن تعلم أنّني ممتنٌّ جدّاً للأخبار التي تعطيني إيّاها، لكنْ ألا ترى أنّه منذ أربعة شهور ليس هناك سوى رسومات؟ لا كلمة، ولا جملة... لا شك في أنّ ذلك يعود إلى كونك لا تحبّ الكتابة، وأنا أفهم ذلك، لكن...

كان الرسم أكثر بساطة؛ لأنّ الكلمات ما كانت تأتي. ولو أنّ الأمر كان بيده وحده، لما كتب على الإطلاق. لكنّ هذا الصبي، ألبير، كان ممتلئاً بالنيّات الحسنة، وقد فعل ما بوسعه فعله. ما كان إدوار يلومه على شيء... مع أنّه... ربّما يلومه بعض الشيء. فهو في النهاية قد وصل إلى ما هو عليه بسبب قيامه بإنقاذ حياته. لقد فعل ذلك طواعية، لكن كيف أقول، ما كان يستطيع أن يعبّر عمّا يشعر به، عن شعور الظلم... ما كان ذلك خطأ أحد، وكان خطأ الجميع. لكنْ يجب أن نسمّي الأشياء بأسمائها؛ فلو لم يكن هناك الجندي مايار الذي دُفن حيّاً لكان هو الآن في بيته، كاملاً. عندما كانت هذه الفكرة تجتاحه، كان يبكي. من المستحيل أن يُمسك نفسه، بكل الأحوال، كلهم يبكون هنا، في هذه المؤسّسة التي صارت مكاناً تلتقي فيه الدموع.

عندما تسكت الآلام، والمخاوف، والأحزان للحظة، يحلّ محلّها اجترارٌ تمّحي فيه صورة ألبير مايار أمام صورة الملازم براديل. لم يفهم إدوار شيئاً من حكاية اللّقاء مع جنرال ومجلس الحرب الذي تجنّبه بالكاد، وفي اللحظة الأخيرة... كان هذا الجزء من الحكاية يعود إلى ما قبل نقله عندما كان مصاباً بالدوار بفعل المسكّنات. وما تبقّى منها ظلّ غائماً وممتلئاً بالفجوات. بالمقابل، الشيء الذي كان شديد الوضوح هو الصورة الجانبيّة للملازم براديل واقفاً بلا حراك وسط القذائف، وهو ينظر إلى قدميه، ثمّ

يبتعد، ثمّ هذا الجدار من التراب الذي انهار... وحتّى لو لم يفهم لماذا، ما كان لدى إدوار أدنى شكّ بأنّ براديل كان يتحمّل مسؤوليّة شيء ما ممّا حصل. أيّ شخص آخر كان يمكن أن يفور من الغضب في تلك اللّحظة مباشرة، لكنْ بقدر ما استطاع وقتها أن يستجمع شجاعته في ساحة المعركة لكي يذهب للبحث عن أحد الرفاق، بقدر ما صار في الوقت الحالي بلا طاقة. كان ينظر إلى أفكاره كأنّها صورٌ مسطّحةٌ، بعيدةٌ، يمكن ألّا يكون لها سوى علاقة غير مباشرة معه، ولا تترك مكاناً للغضب، ولا للأمل.

كان إدوار محبطاً على نحوٍ رهيب.

... وأؤكّد لك أنّه ليس من السهل دائماً فهم حياتك. حتّى إنّني لا أعرف إن كنت تجد ما تأكله عندما تجوع، وإن كان الأطبّاء يتحدّثون إليك قليلاً، وإن كانوا، كما أرجو، قد ذكروا إمكانيّة القيام بزرع أعضاء كما قيل لي. وأذكر أنّني قد حدّثتك عن ذلك.

قصّة زرع الأعضاء هذه... انتهينا منها. أخطأ ألبير كثيراً في تقييم الوضع، وكانت مقاربته للموقف نظريّة بحتة. كلّ هذه الأسابيع في المستشفى لم تفد إلّا في إيقاف الالتهاب، وفي القيام بـ«إصلاحات». تلك كانت كلمة الجرّاح، البروفسور مودريه، رئيس القسم في مستشفى رولان، جادّة ترودين. كان رجُلاً ضخماً مرحاً، شعره أحمر ويتمتّع بطاقةٍ مجنونة. أجرى ستّ عمليات لإدوار.

– نستطيع أن نقول: إنّنا صرنا أصحاباً مقرّبين، أنا وأنت.

في كلّ مرّة كان يشرح بالتفصيل أسباب المداخلة الجراحيّة وحدودها، ويوضّح «موقعها ضمن الاستراتيجيّة العامة». لم يكن طبيباً عسكرياً عن

عبث، فهو رجُلٌ يتمتّع بإيمانٍ لا يتزعزع، هو ثمرة مئات عمليّات البتر والاستئصال التي كان يقوم بها في مواقع الإسعافات الأوليّة، في النهار، وفي الليل، وفي بعض الأحيان داخل الخنادق.

منذ مدّةٍ ليست طويلة، سُمح أخيراً لإدوار أن ينظر إلى نفسه في المرآة. لا شكّ في أنّ منظره صار الآن مُرضياً بالنسبة إلى الممرّضات والأطبّاء الذين التقطوه جريحاً، ولم يكن وجهه سوى فتحةٍ واسعةٍ من اللّحم المدمّى لم يتبقّ منها إلّا اللّهاة ومدخل الرغامى، وفي المقدّمة، صفّ من الأسنان التي ظلّت سليمة. كانوا يقولون له عبارات غاية في التفاؤل، لكنّ رضاهم هذا أطاحت به مشاعر اليأس غير المتناهية التي تجتاح الرجال عندما يجدون أنفسهم للمرّة الأولى في مواجهة ما صاروا عليه.

من هنا جاء الحديث عن المستقبل. وهو شيء مهمّ بالنسبة إلى معنويّات الضحايا. قبل أسابيع من وضع إدوار في مواجهة المرآة راح مودريه يلقي قصيدته:

- فلتعلم ما يلي: ما أنت عليه اليوم لا علاقة له أبداً بما ستصير عليه في الغد.

وشدّ على كلمة «أبداً». كانت «أبداً» هائلة.

الطاقة التي يبذلها كانت كبيرةً بمقدار شعوره بعدم تأثير خطابه على إدوار. لا شكّ في أنّ الحرب كانت قاتلةً أكثر ممّا يسمح به الخيال، لكن لو نظرنا إلى الجانب الجيّد من الأشياء، فإنّها قد سمحت أيضاً بتطوّرٍ كبيرٍ في مجال جراحة الوجه والفكّين.

- لا بل بتطوّرٍ هائل!

عرضوا على إدوار مجموعة من أطقم الأسنان التي تُفيد في العلاج

الميكانيكيّ، ورؤوساً من الجصّ مجهّزةً بأسلاكٍ من النحاس، وكلّ أنواع التجهيزات التي تعود بمظهرها إلى القرون الوسطى لكنّها كانت آخر صرعات علم التعويضات. كانت بمنزلة طعم في الواقع لأنّ مودريه بما لديه من قدرات على التكتيك الذكي قام بنوع من الحصار ليطبق على إدوار. وقد فعل ذلك كي يقوده على نحوٍ أفضل إلى ما يشكّل نقطة الانطلاق لاقتراحاتٍ علاجيّة:

- زرع الأعضاء على طريقة دوفورمانتيل!

تُؤخَذ عيّنات من الجلد من الرأس، ثمّ تُزرع بعد ذلك على أسفل الوجه.

عرض عليه مودريه بعض الصور لجرحى جرى «إصلاحهم».

هذا هو الأمر. فكّر إدوار. تعطي لطبيب عسكري رجُلاً قد سُحق وجهه بالكامل على يد عسكر آخرين، فيعيد لك قزماً منظره مقبول تماماً.

كان جواب إدوار مقتضباً للغاية.

- «لا». كتب بكلّ بساطةٍ بحروفٍ كبيرةٍ على دفتر المحادثة.

عندها، وبكلّ ما لديه من قوّة -العجيب أنّه لم يكن يحبّ ذلك كثيراً- راح مودريه يذكر أنواع الجسور: المطاط، المعدن خفيف الوزن، الألمنيوم. كان لديهم كل ما يلزم لكي يضعوا له فكّاً جديداً. وبالنسبة إلى الوجنتين... لم ينتظر إدوار البقيّة، فقد التقط دفتره الكبير وكتب من جديد:

- لا.

- «لا ماذا...؟». سأله الجرّاح: «لا على أيّ شيء؟».

- لا على كلّ شيء. أبقى هكذا.

أغلق مودريه عينيه بهيئةٍ من فهْم، وأظهر أنّه يفهم. في الشهور الأولى،

غالباً ما نلقى هذا النوع من المواقف. الرفض. إنه تأثير الانهيار العصبيّ الذي يلي الصدمات. وهو سلوك يتحسّن مع الزمن. حتّى مع التشوّه، عاجلاً أم آجلاً سيعود إلى رشده. تلك هي الحياة.

لكن بعد أربعة شهور، وبعد ألف إلحاح، وفي اللّحظة التي يقبل فيها الجميع بلا استثناء اللّجوء إلى الجرّاحين من أجل الحدّ من الخراب، ها هو الجنديّ لاريفيير يتابع التصلّب في رفضه: «سأبقى هكذا».

عندما قال ذلك كانت عيناه ثابتتين، زجاجيّتين، عنيدتين.

جرى طلب أطبّاء نفسيّين.

حسنٌ، في الوقت نفسه، بفضل رسوماتك، أظنّ أنّني صرت أفهم ما هو أساسيّ. الغرفة التي تشغلها الآن تبدو لي أكبر وأوسع من الغرفة السابقة، لا؟ هل هي أشجار تلك التي تظهر من الباحة؟ طبعاً لست أدّعي أنّه يسعدك أن تكون هناك، لكنْ كما ترى، لستُ أعرف ما أستطيع فعله من أجلك من حيث أنا هنا. أشعر بنفسي عاجزاً تماماً.

شكراً بالنسبة إلى الرسم السريع الذي يمثّل الأخت ماري كامي.

حتّى الآن كنت تفعل ما بوسعك لتظهرها من الظهر، أو من الجانب، وأنا أفهم لماذا تريد أن تحتفظ بها لك يا وغد. لأنّها لطيفة هه؟ أعترف لك بأنّه لو لم تكن لديّ سيسيل...

في الواقع، لم يكن هناك أيّة ممرّضة راهبة في هذه المؤسّسة التي تحتوي فقط على ممرّضات مدنيّات، نساء لطيفات لديهنّ الكثير من التعاطف. لكنْ كان يجب العثور على أشياء يمكن روايتها لألبير الذي كان يكتب له مرّتين في الأسبوع في بعض الأحيان. الرسوم الأولى لإدوار

كانت خرقاء، فقد كانت يده ترتجف كثيراً، وكان يرى بصعوبة. إضافةً إلى أنّه كان يتألّم كثيراً مع تلك العمليّات كلّها، الواحدة تلو الأُخرى. في خطوطٍ سريعةٍ لوجهٍ من الجانب، ظنّ ألبير أنّه يميّز راهبةً شابّة. قال إدوار لنفسه: هيا، لا توجد مشكلة بالنسبة إلى الراهبة. سوف أسمّيها ماري كامي. عبر الرسائل كان قد رسم في ذهنه صورةً معيّنةً عن ألبير، وقد حاول أن يعطي لهذه الفتاة الراهبة المتخيّلة نوع الوجه الذي يمكن لشخصٍ مثل ألبير أن يحبّه.

وعلى الرغم من أنّهما كانا مرتبطين من قبل بقصّةٍ مشتركةٍ، غامر فيها أحدهما بحياته كلّها، فإنّ الرجُلين كانا لا يعرفان بعضهما، وعلاقتهما تعقّدت بمزيجٍ غامضٍ من سوء الظنّ، والتضامن، والنفور، والتباعد، والأخوّة. كان إدوار يحمل في داخله تجاه ألبير حقداً غامضاً، لكنّه بدأ يتضاءل على نحوٍ كبيرٍ لأنّ رفيقه وجد له هويّة بديلة تجعله يتجنّب العودة إلى بيته. ما كانت لديه أدنى فكرة عمّا كان سيصبح عليه، الآن حيث لم يعد إدوار بيريكور، لكنّه كان يفضّل أيّة حياةٍ أُخرى بدلاً من تلك التي كان عليه فيها أن يواجه نظرات والده، وهو في حالته تلك.

فيما يتعلّق بسيسيل، لقد كتبت لي رسالة. بالنسبة إليها هي أيضاً تبدو نهاية هذه الحرب طويلة جدّاً. نَعِدُ أنفسنا بوقتٍ جميلٍ عند عودتي، لكنّني أشعر من لهجتها أنّها تعبت من كلّ هذا. في البداية كانت تذهب لزيارة أمّي أكثر من الآن. لا أستطيع أبداً أن ألومها لأنّها تذهب أقلّ، فقد حدّثتك عن أمّي، إنّها زجاجة حبر حقيقيّة؛ لا أحد يفهم ما بداخلها.

شكراً ألف مرّة على رأس الحصان. لقد أزعجتُك كثيراً... أجده جيّداً جدّاً، ومعبّراً جدّاً بعينيه الكرويتّين كما رسمته، وفمه شبه المفتوح.

أتعلم؟ قد يكون ذلك غباءً، لكنّني أتساءل في بعض الأحيان عن اسم هذا الحصان. كأنّني بحاجةٍ إلى أن أعطيه اسماً.

ما عدد رؤوس الأحصنة التي رسمها لألبير؟ كلّها ضيّقة وتستدير جانباً. لا. جرّب من الجهة الأُخرى مع عيون فيها... كيف أقول لك؟ لا، لم يكن هكذا. شخص آخر غير إدوار كان يمكن أن يطلب منه التوقّف عن إزعاجه، لكنّه شعر كم من المهمّ بالنسبة إلى رفيقه أن يجد رأس هذه الدابّة التي قد تكون أنقذت حياته، ربّما لكي يحتفظ بهذه الذكرى. كان هذا الطلب يخفي تحدّياً آخر غير واضح وعميق يخصّه هو، إدوار، تحدٍّ ما كان يستطيع أن يجد الكلام المناسب لوصفه. انكبّ على المهمّة، وراح ينفّذ عشرات الرسوم السريعة، محاولاً أن يتبع التعليمات الخرقاء التي كان يقدّمها له ألبير في رسائله كلّها مع كثيرٍ من الاعتذارات والشكر. كان بصدد التوقّف عن تلك المهمّة عندما تذكّر رأس حصانٍ رسمه ليوناردو بأوكسيد الحديد الأحمر على ما يذكر، واستخدمه نموذجاً لتمثال فارس. عندما تلقّاه ألبير راح يقفز من الفرح.

عندما قرأ تلك الكلمات، فهم إدوار أخيراً ما هو المطلوب.

الآن وقد أعطى لرفيقه رأس الحصان الذي يبحث عنه، وضع قلمه، وقرّر ألّا يعود لإمساكه.

لن يعود إلى الرسم على الإطلاق بعد اليوم.

هنا يمرّ الوقت ببطءٍ شديد. هل تعي أنّ الهدنة قد وُقّعتْ في نوفمبر الفائت، وأنّنا صرنا في شهر فبراير بدون أن نُسرّح حتّى الآن من الجيش؟ مضت أسابيع لم نقم خلالها بأيّ شيءٍ مفيد... قيلت لنا أشياء مختلفة

لتفسير هذا الوضع، لكنْ من يعلم ما هو صحيح، وما ليس كذلك؟ هنا، كما في الجبهة، تدور الشائعات بسرعة أكثر من الأخبار. يبدو أنّ الباريسيّين سوف يذهبون قريباً في نزهةٍ إلى ساحة المعركة من جهة رانس، وهُم يحملون جريدة لو بوتي جورنال. ليكن، في حين أنّنا نتعفّن هنا ونحن أحياء، وفي ظروف تتزايد سوءاً، مثل حالنا تماماً. في بعض الأحيان، أقسم لك، أتساءل إن كانت حالتنا تحت رصاص الرشّاشات أفضل. على الأقل كان لدينا الانطباع بأنّنا نفيد في شيءٍ ما، في ربح الحرب. أخجل من التذمّر أمامك من أوجاعي الصغيرة يا أوجين العزيز، لا شكّ أنّك تقول لنفسك إنّني لا أعرف السعادة التي أعيش فيها، وها أنا هنا أشكو. الحق معك في قول ذلك. كيف يمكن للإنسان أن يكون أنانياً هكذا؟

عندما أرى مقدار الفوضى في رسالتي (لا أعرف كيف أمسك بخيط الكلام، كنت هكذا في المدرسة)، أتساءل إن لم يكن من الأفضل لي أن أبدأ بتعلّم الرسم....

كتب إدوار للدكتور مودريه أنّه يرفض أيّ تدخّل جراحيّ تجميليّ من أيّ نوعٍ كان، وطلب أن يُعادَ إلى الحياة المدنيّة في أقرب وقتٍ ممكن.

- بهيئتك هذه؟

كان الطبيب غاضباً يمسك رسالة إدوار بيده اليمنى، وباليد الأُخرى يمسك كتفه بقوّة، ويثبّته أمام مرآة.

نظر إدوار مطوّلاً إلى حالة تلك الكتل المنصهرة المنتفخة التي يجد فيها معالم الوجه الذي كان يعرفه، لكنّها تبدو ضائعةً، كأنّها مغلّفة. طيّات اللّحم المثنيّة تؤلّف وسائد ضخمة لونها أبيض حليبيّ. ووسط الوجه،

هناك الثقب الذي تضاءل جزئيّاً بسبب عمليّات شدّ وقلب الأنسجة، فتحوّل إلى ما يشبه حفرة بركانٍ صارت أبعد عن ذي قبل، لكنّ لونها ما زال على درجة الاحمرار نفسها.

كان يبدو مثل لاعب سيركٍ قادرٍ على ثني جلد وجهه، وابتلاع وجنتيه وفكّه السفليّ على نحوٍ كامل، لكنّه ما عاد قادراً على إعادتها إلى ما كانت عليه.

- «نعم». أكّد إدوار الكلام: «بهيئتي هذه».

8

الضجّة مبهمةٌ ودائمةٌ لا تتوقّف. آلاف الجنود يروحون من هنا ويعودون، يأتون، يعسكرون في المكان، يتكوّمون فوق بعضهم في فوضى لا يمكن وصفها. مركز التسريح من الجنديّة ممتلئ عن بكرة أبيه، وتسريح الرجال يجب أن يتمّ على دفعات تتألّف كلّ واحدةٍ منها من عدّة مئات، لكنْ لا أحد يعرف كيف سيكون ذلك. الأوامر تأتي وتذهب، التنظيم يتغيّر باستمرار. الجنود الساخطون والمنهكون يتمسّكون بأقلّ معلومةٍ تصل إليهم ليطلقوا من فورهم مثل موجٍ صاخبٍ صرخة هي أقرب إلى التهديد. هناك ضبّاط خرج الأمر من يدهم، يخترقون الجموع بخطواتٍ كبيرةٍ، ويجيبون بصوتٍ عالٍ وبلهجة من لم يعد يحتمل: «لا أعرف أكثر منكم، ماذا تريدون أن أقول لكم؟». في تلك اللّحظة تصدح أصوات صفّارات. تستدير رؤوس الجميع. أسطوانة نفاد الصبر تتكرّر، تغيّر اتّجاهها، هناك شخصٌ في عمق القاعة يصرخ، ولا تُسمع منه سوى جملة: «أوراق؟ اللعنة، أيّة أوراق؟»، ثمّ صوت آخر يقول: «هه، كيف؟ دفتر العسكريّة؟». وهكذا بردّ فعلٍ مباشر يقوم كلّ واحد بالتربيت على جيب صدره، أو خلف بنطاله. يتساءلون بالنظرات: «نحن هنا من أربع ساعات، لم يعد الأمر محتملاً!». «لا تشتكي لي، أنا هنا من ثلاثة أيّام!». هناك من يسأل: «بالنسبة إلى الأحذية

العسكريّة؟ أين قلت لي؟ لكنْ يبدو أنّه لم يبق لديهم سوى المقاسات الكبيرة». «ماذا نفعل إذن؟». يقول شخصٌ مشحونٌ يكاد ينفجر. ومع أنّه ليس سوى جنديٍّ أوّل، فإنّه يتحدّث إلى الضابط كما لو كان يخاطب موظّفاً، يكاد يفرقع من الغضب ويردّد: «هه؟ ماذا نفعل؟». يضيع الضابط في مراجعة قائمته، ويضع علامات على أسماء. الجنديّ الأوّل الممتلئ بالغضب المسعور يدور على عقبيه، وهو يزمجر بصوتٍ غير مفهومٍ بأشياء يمكن بالكاد تمييز كلمةٍ واحدةٍ من بينها، هي «سافل...». يتصرّف الضابط كما لو أنّه لم يسمع شيئاً، يحمرّ وجهه، وترتجف يده، لكنّ عدد الناس كبيرٌ على نحوٍ يجعل ذلك الموقف ينسحب مع الجموع، ويختفي مثل زبد البحر. هناك أيضاً شخصان يتبادلان اللكمات ويتشاجران. «أقول لك: إنّها سترتي». يقول الأوّل مزمجراً. «عليك اللعنة». يقول الثاني: «لا ينقصنا سوى هذا». لكنّه يتركه مباشرةً ويذهب، فقد جرّب وسيعود لفعل ذلك من جديد. هناك سرقات كثيرة تحصل كل يوم. يجب فتح مكتبٍ خاصٍّ لذلك. مكتب يصنّف التبليغ عن السرقات إلى فئات. معقول، أتتخيّل ذلك؟ هذا ما كان يردّده فيما بينهم شباب يصطفّون الواحد تلو الآخر من أجل الحساء، حساء فاتر. لا نفهم. منذ البداية، القهوة ساخنة، أما الحساء فبارد. بالنسبة إلى ما تبقّى من الوقت، عندما لا يكون هناك اصطفاف، تبدأ محاولات الاستفسار («حسناً، والقطار الذاهب إلى ماكون، مع أنّه مذكور على اللوحة!». يقول أحد الأشخاص: «نعم، مذكور لكنّه ليس هنا، ماذا تريد أن أقول لك في نهاية الأمر؟»).

البارحة، كان هناك قطار ذهب أخيراً إلى باريس. سبع وأربعون عربة، ما يكفي لنقل ألفٍ وخمسمئة رجُل، لكنّهم كدّسوا فيه ألفين. كان يجب أن ترى. مكبوسين مثل السردين، لكنّهم سعداء. كُسرت بعض النوافذ

الزجاجيّة، وهناك ضبّاط برتبٍ وصلوا وتكلّموا عن «نهب». اضطرّ الشباب إلى النزول. تأخّر القطار ساعةً إضافيّةً بعد الساعات العشر التي كان قد تأخّرها من قبل. في النهاية، اهتزّ. صدرت صرخات من جميع الجهات، صرخات من أولئك الذين يرحلون، ومن أولئك الذين يبقون. وعندما لم يترك القطار وراءه سوى حزم من الدخان في الريف المسطّح، كان هناك من يتقدّم بين صفوف المقاعد، يبحث عن نظرة شخصٍ يعرفه من أجل أخذ معلومات، وإعادة طرح السؤال نفسه: أيّة وحدة هي التي سُرِّحَتْ؟ بأيّ ترتيبٍ تجري الأمور، يا إلهي أليس هناك من يقود؟ بلى، لكن يقود ماذا؟ لا أحد يفهم شيئاً. الجميع ينتظرون. نصف الجنود ينامون على الأرض، بمعاطفهم، كان المكان أوسع في الخنادق. لا، لا يمكن المقارنة. هنا، صحيحٌ أنّه لا توجد جرذان، لكنْ لدينا البق؛ لأنّه حيوانٌ ينقله الإنسان معه. «حتى إنّنا لا نستطيع أن نكتب إلى العائلة متى نصل إلى البيت». يقول أحد الجنود بحشرجة، كان عجوزاً أسمر اللّون، نظرته مطفأة. كان يشكو. هناك شعور بالمحتوم. ظنّوا أنّ قطاراً إضافيّاً سيصل، ووصل، لكنّه بدلاً من أن يحمل الثلاثمئة وعشرين شابّاً المنتظرين، حمل مئتين أكثر من العدد. ومن جديد، لم يعد أحد يدري أين يمكن وضعهم.

حاول القسّ أن يجتاز صفوف الجنود التي تستطيل. دفعوه من الخلف. انسكب نصف كأس القهوة التي معه على الأرض. هناك شابٌّ غمزه: «ما رأيك! لم يكن الربّ لطيفاً معك». يضحك متسلياً. يصرّ القسّ على أسنانه، ويحاول أن يجد مكاناً في مقعدٍ طويل. يبدو أنّهم سيجلبون مقاعد أخرى خشبيّة طويلة، لكنْ متى؟ لا أحد يعرف. بانتظار ذلك، تم الاستيلاء على المقاعد الموجودة. وجد القسّ لنفسه مكاناً لأنّ الشباب شدّوا بعضهم. لو كان ضابطاً لكان نال نصيبه..؛ أمّا القسّ...

الحشود لا تناسب جزع ألبير. يظلّ متشنّجاً أربعاً وعشرين ساعةً على أربع وعشرين. لا يمكن للإنسان أن يقف في مكانٍ ما بدون أن يدفعه هذا، أو ذاك. ثمّ هذا الضجيج، الصرخات تزعجه على نحوٍ رهيب، تدخل إلى رأسه. ينتفض فجأةً وباستمرار، ويمضي نصف الوقت، وهو يستدير إلى الخلف. في بعض الأحيان، كما لو أنّ هناك بوّابة قد أُغلقتْ، يتوقّف ضجيج الحشود فجأةً من حوله، وتحلّ محلّه أصداءٌ مكتومةٌ مخنوقةٌ مثل انفجارات قذائف مسموعة تحت الأرض.

صار الأمر يتكرّر معه كثيراً منذ أن رأى النقيب براديل هناك في آخر القاعة. كان يقف مستنداً إلى ساقيه المتباعدتين، وهي الوضعيّة المفضّلة عنده. يداه خلف ظهره، وهو يرمق هذا المشهد المؤلم بقسوة رجُلٍ تزعجه وضاعة الآخرين، لكنّها لا تؤثّر عليه. عندما عاد ألبير للتفكير به رفع عينيه، وحدّق بحشد الجنود من حوله، وقد تملّكه جزع. لم يرد أن يحدّث إدوار عنه، عن النقيب براديل، لكنّه يشعر بأنّه موجودٌ في كلّ مكان، مثل شبحٍ شرّيرٍ يطوف دائماً في مكانٍ ما، بالقرب منه، مستعدّاً للانقضاض عليه.

معك حق. كم يمكن أن يكون الإنسان أنانياً مع ذلك!

أترى كم هي مفكّكة الأفكار في رسالتي...؟

- ألبير!

ذلك أنّ رؤوسنا كلنا كما ترى، تتداخل فيها الأشياء، عندما يكون...

- ألبير، يا خراء!

أمسك به العريف من كتفه، وهو غاضب. هزّه، وهو يدلّه على اللافتة.

أعاد ألبير بسرعة ثني أوراقه المبعثرة، وركض، وهو يجمع أغراضه كيفما اتّفق، ويشدّ أوراقه إلى صدره عبر جموع الجنود المنتظرين بالصف، الواحد تلو الآخر في المكان نفسه.

- أنت لا تشبه الصورة كثيراً..

كان الشرطي في الأربعين بكلّ زهوتها (كرش مستدير، سمين تقريباً، تُرى كيف استطاع أن يغذّي نفسه خلال هذه السنوات الأربع؟) هناك شكّ حول هذا الأمر. هو من الرجال الذين لديهم حسّ الواجب. حسّ الواجب أمرٌ يتجدّد حسب المواسم. على سبيل المثال، منذ توقيع الهدنة، صار حسّ الواجب مادّة تتكرّر أكثر من السابق، وألبير ضحيّة سهلة لها. ما عاد يحبّ المشكلات كما في الماضي. يرغب بالعودة. يرغب بالنوم.

- «ألبير مايار...». عاد الشرطيّ إلى لفظ الاسم، وهو يتفحّص دفتر العسكريّة.

كان يمكن له تقريباً أن يرى ما بداخله بوضوح. كان يشكّ. ينظر إلى وجه ألبير، ويرتاح إلى تشخيصه «لا يشبه الصورة». في الوقت نفسه كانت الصورة تعود إلى ما قبل أربع سنوات، وقد بهتت واهترأت... «هذا هو الأمر تماماً». قال ألبير في نفسه: «بالنسبة إلى شخص باهتٍ ومهترئٍ مثلي، لا بأس». أمّا المدعوّ هنا، فلم يكن من جهته ينظر إلى الأمر من تلك الزاوية. كان هناك كثير من الغشّاشين، والمزوّرين، والمزيّفين في الوقت الحالي. هزّ رأسه، وراح ينظر مرّةً بعد أُخرى إلى الوثيقة، وإلى وجه ألبير.

- «إنّها صورةٌ مأخوذةٌ من قبل». قال ألبير مجازفاً.

بقدر ما كان وجه الجنديّ يبدو موضع شكّ بالنسبة إلى الموظّف،

بقدر ما بدت له كلمة « قبل» مفهوماً واضحاً. بالنسبة إلى الجميع كانت كلمة «قبل» فكرة واضحة تماماً، لكنّ ذلك لا يمنع.

- «حسنٌ، نعم». أعاد القول: «ألبير مايار» لا توجد عندي مشكلة، لكن عندي اثنان باسم مايار الآن».

- عندك اثنان ألبير مايار؟

- لا، إنّما أ. مايار. و أ. يمكن أن تكون ألبير.

كان الشرطي فخوراً جدّاً بهذا الاستنتاج الذي يؤكّد على ذكائه.

- «نعم». قال ألبير: «أ، تصلح لألفريد، أو لألبير، أو ألسيد».

نظر إليه الشرطي من فوق، وزمّ عينيه مثل قطّ سمين.

- ولم لا تكون لألبير؟

بالطبع، أمام هذه الفرضيّة المتينة، لم يكن لدى ألبير ما يعترض عليه.

- «وأين هو، مايار الثاني؟». سأله.

- هنا تكمن المشكلة. لقد ذهب قبل البارحة.

- تركته يذهب بدون أن يكون لديك اسمه الأوّل؟

أغلق الشرطي عينيه. من المتعب تفسير أشياء بسيطة كهذه.

- كان لدينا اسمه الأوّل، وما عاد لدينا الآن. الملفّات أُرسلت البارحة إلى باريس. بالنسبة إلى أولئك الذين ذهبوا، عندي فقط هذا السجلّ، وهنا (أشار بإصبع مستعجلة على عمود الكنية)، لديّ «أ. مايار».

- إن لم تجد الأوراق، أُكمل الحرب وحدي؟

- «لو توقّف الأمر عليّ أنا لتركتك تمرّ». قال الشرطي: «لكنّهم

سيوبّخونني أنا. هل تفهم؟ إن سجلّتُ شخصاً ليس الشخص الصحيح، من الذي سيتورط، أنا! لا يمكنك أن تتخيل عدد المحتالين الذين نراهم! في هذه الفترة، من غير المعقول كيفك يمكنكم فقدان أوراقكم بسهولة! إن أحصينا كلّ الذين أضاعوا دفاتر التعويضات التي تخصّهم لكي يقبضوا المبلغ مرّتين...».

- «وهل هذا الأمر على تلك الدرجة من الخطورة؟». سأله ألبير.

عقد الشرطيّ حاجبيه كما لو أنّه فهم لتوّه أنّ من يقف أمامه هو أحد البلاشفة.

- «بعد تلك الصورة، جُرحتُ في معركة السوم». شرح له ألبير لتهدئة الموقف: «ربّما كان ذلك هو السبب..».

سرّ الشرطي بفرصة إظهار حذاقته، تمعّن بالصورة وبالوجه على التوالي، ونقّل بصره بينهما بسرعة أكبر. وفي النهاية أعلن: «هذا ممكن». لكن كان من الواضح أن ذلك لم يجدِ نفعاً. في الوراء كان بقيّة الجنود قد بدأوا يفقدون صبرهم. بدأت تُسمع أصوات عالية خجولة في البداية، لكنّها لم تلبث أن صارت صرخات.

- هناك مشكلة؟

- هذا الصوت سمّر ألبير في مكانه لكثرة ما كان يبثّ موجاتٍ سلبيّةً مثل نفحة سمّ. في مجال بصره لم يميّز في البداية سوى حزام. شعر أنّه قد بدأ يرتعد. «لا تبوّل في ثيابك».

- «أوف، ذلك أن...». قال الشرطيّ، وهو يمدّ دفتر العسكريّة.

رفع ألبير رأسه أخيراً، وتلقّى مثل خنجرٍ نظرة النقيب دولناي براديل الصافية والجارحة. كان ما يزال على درجة السمرة نفسها مع كل ذلك

الوبر، وبما لديه من حضورٍ مجنون. التقط براديل الدفتر بدون أن يتوقّف عن التحديق في ألبير.

- «عندي اثنان باسم أ. مايار». تابع الشرطي: «وأنا متردّد بسبب الصورة».

استمرّ براديل في تجاهل الوثيقة. خفض ألبير عينيه نحو حذائه. الأمر أقوى منه. لا يستطيع تحمّل هذه النظرة. لو مرّت خمس دقائق أخرى لكانت ستلتمع على طرف أنفه نقطة.

- «هذا الذي هنا، أعرفه أنا...». قال براديل: «أعرفه جيّداً».

- صحيح؟

- إنّه بالفعل ألبير مايار.

كان إيقاع كلام براديل بطيئاَ على نحوٍ مرعبٍ كما لو كان يضع كلّ ثقله في كلّ حرف.

-... لا يوجد أيّ شكٍّ في ذلك.

مجيء النقيب هدّأ الجميع، مؤقّتاً. سكت الجنود كما لو فاجأهم خسوف شمس. كان فيه شيء ما يشعّ، براديل هذا. شيء يحيلك إلى جليد. شيء من جافير[1]. في الجحيم يوجد حتماً حرّاس لهم رأس مثل هذا.

تردّدتُ قبل أن أحدّثك عن ذلك، لكنّني عقدت العزم في النهاية. جاءتني أخبار من ا. ب. وأتحدّاك أن تعرف ما سأرويه لك: لقد ترفّع إلى رتبة نقيب! في الحرب، يبدو أنّه من الأفضل أن يكون الإنسان قذارةً بدل

---

(1) شخصيّة من رواية البؤساء لفكتور هوغو. كان في الرواية حارساً للسجن، ثمّ مفتّش شرطة. تتميّز شخصيّته بغياب التعاطف مع جميع أشكال المجرمين. (المترجمة).

أن يكون جندياً. وها هو هنا. على رأس قسمٍ في مركز التسريح. لو تعرف تأثير اللقاء به مرّة ثانية! لا تستطيع أن تتخيّل كيف هي أحلامي منذ أن التقيت به من جديد.

- ألسنا نعرف بعضنا، أيّها الجندي ألبير مايار؟

رفع ألبير عينيه أخيراً.

- نعم، سيّدي الملا.... سيّدي النقيب... نعرف بعضنا...

لم يقل الشرطي شيئاً. نظر إلى أختامه وسجلّاته بهيئة مستغرقة. كان الجوّ مشبعاً بتردّداتٍ ملوّثة.

- «أعرف على الأخصّ بطولتك، أيّها الجنديّ ألبير مايار». لفظ براديل ذلك بشبه ابتسامةٍ متسامحة.

تفحّصه من رأسه إلى قدميه، ثمّ انتقل إلى وجهه. استغرقه ذلك وقتاً طويلاً. شعر ألبير بأنّ الأرض تميد ببطءٍ تحت قدميه كما لو كان يقف على رمالٍ متحرّكةٍ، وهذا ما جعل تصرّفه يبدو كردّ فعلٍ ناجمٍ عن الذعر.

- «تلك هي فائدة... الحرب». قال متلعثماً.

ساد صمتٌ واسعٌ حولهما. أحنى براديل رأسه كأنّه يسأل سؤالاً صامتاً.

- «كل واحد... يُظهر في الحرب طبيعته الحقيقيّة». تابع ألبير بصعوبة.

ارتسمت على شفاه براديل نصف ابتسامة. في بعض الظروف لا تكون شفاهه سوى خطّ أفقيّ يمتدّ ببساطة، على نحوٍ ميكانيكيّ. فهم ألبير سبب ضيقه. النقيب براديل لا يرمش أبداً، ما يجعل نظرته ثابتة. تعضّ. الحيوانات مثله لا يوجد لديها دموع.. فكّر. بلع ريقه، وخفض عينيه.

في أحلامي، أقوم أحياناً بقتله، ثمّ أشكّه على حربة بندقيّتي. أحياناً نكون معاً أنت وأنا، وتمرّ عليه ربع ساعة غاية في السوء. أرجوك أن تصدّق. في بعض الأحيان أيضاً، أجد نفسي أمام مجلس الحرب، وينتهي بي الأمر بمواجهة كتيبة الإعدام. في الأحوال العاديّة يجب أن أرفض وضع العصبة على عيني، يعني لأدلّ على شجاعتي، لكنّني على العكس، أقول: موافق؛ لأنّه هو الشخص الوحيد الذي يطلق النار. يبتسم لي، وهو يسدّد، يبدو معجباً بنفسه... عندما أستيقظ، أظلّ أحلم بأنّني أقتله، لكنْ أنت بالذات من أفكّر به يا رفيقي العزيز عندما يرد اسم هذا الحيوان في ذهني. يجب ألّا أقول لك هذه الأشياء. أعرف ذلك...

تجشّأ الشرطي.

– حسنٌ، حسنٌ، إن كنت تعرفه يا سيّدي النقيب...

عادت الضجّة من جديد، بخجلٍ في البداية، ثمّ صارت أقوى. رفع ألبير عينيه أخيراً. كان براديل قد اختفى، والشرطي ينكبّ على سجلّه.

منذ الصباح، نال الجميع نصيبهم من صرخات التأنيب وسط ضجّةٍ مستمرّة. لم تتوقّف الصرخات واللّعنات التي كانت تصدح في جنبات مركز التسريح، ثمّ فجأةً في نهاية النهار، بدا أنّ التخاذل قد نال من هذا الجسد الكبير الذي يحتضر. أُغلقت كوّات الاستعلام، ذهب الضبّاط إلى العشاء، وبقي الجنود مرهقين ينفخون بحكم العادة على قهوتهم التي كانت قد بردت، وهُم جالسون على أكياس. نُظّفت طاولات الإدارة من الطعام بانتظار اليوم التالي.

القطارات التي لم تكن قد وصلت، لن تصل.

لن يحدث ذلك اليوم.
ربّما غداً.

في الوقت نفسه، الانتظار هو ما يفعله الجميع منذ نهاية الحرب. هنا كما في الأخاديد. هناك عدوّ لا نراه أبداً، لكنّه يجثم بكلّ ثقله علينا. نحن مرتبطون به. العدوّ، الحرب، الإدارة، الجيش، كلّ هذا. أمور متشابهة. أشياء لا يفهم أحد منها شيئاً، ولا يعرف أحد كيف يوقفها.

بعد قليل جاء اللّيل. أولئك الذين كانوا قد أكلوا لتوّهم بدأوا بعمليّة الهضم، وهُم يحلمون. منهم من أشعل سيجارةً بعد تعب النهار، وبسبب قتالهم الشرس من أجل أشياء بسيطة. ساد شعورٌ بالصبر والأريحيّة. الآن وقد هدأ كلّ شيء، تشارك الموجودون بالأغطية، وبالخبز عندما يتبقّى منه شيء. خلعوا أحذيتهم. ربّما بسبب الضوء بدت الوجوه كأنّها محفورة. هَرِمَ الجميع من الإنهاك بعد تلك الشهور المرهقة، والمساعي التي لا تنتهي. «لن ننتهي أبداً من تلك الحرب». قالوا لبعضهم. هناك من بدأ لعبة ورق يجري الرهان فيها على الأحذية العسكريّة الضيّقة التي لم يستطيعوا تبديلها. كانوا يمزحون، يروون النكات، لكنّ ثِقَلاً ما كان يهيمن على قلوبهم.

هكذا تنتهي الحرب يا أوجين المسكين، مهجع واسع من الأشخاص المنهكين لم يتجشّم أحدٌ عناء إعادتهم إلى بيوتهم على نحوٍ لائق. لا أحد يقول لك كلمة، أو يشدّ على يدك. تصل إلينا الصحف مع وعودٍ بأقواس نصر، يكدّسوننا في قاعاتٍ مفتوحةٍ على الرياح الأربع. وتعبير «مع الشكر والمحبّة من فرنسا التي تعترف بالجميل» (قرأت ذلك

في جريدة لو ماتان. أقسم لك، بالحرف) قد تحوّل إلى إزعاجات مستمرّة. يحاسبوننا بدقة على 52 فرنكاً من المستحقّات. بشقّ الأنفس يقدّمون لنا الثياب، والحساء، والقهوة. يصفوننا بأنّنا لصوص.

قال أحدهم، وهو يعيد إشعال سيجارته: «في بيتي، عندما أصل، سيكون هناك عيد حقيقي».

لم يجب أحد، كان الشكّ يهيمن على جميع الأفكار.

– «من أين أنت؟». سأله أحدهم.

– من سان فيغييه دو سولاج.

– آه...

لم يعنِ ذلك شيئاً لأحد، لكنّ وقع الجملة كان جميلاً.

سأتركك الآن. أفكّر بك يا رفيقي العزيز، وكم أتمنّى لقاءك. سيكون ذلك أوّل شيء أفعله عند عودتي إلى باريس. تماماً بعد لقائي مع سيسيل، ولا شكّ أنّك تتفهّم. انتبه لنفسك. ليتك تكتب لي إن كنت تستطيع، وإلّا فإنّ الرسومات جيّدة أيضاً، وأنا أحتفظ بها كلّها، من يعرف؟ عندما تصبح فنّاناً كبيراً، أقصد مشهوراً، يمكن أن يجعلني ذلك غنيّاً.

أصافحك بحرارة.

صديقك ألبير

بعد ليلةٍ طويلةٍ أمضوها مذعنين لما يحصل، بدأ الجنود عند مجيء الصباح يتمطّون. بالكاد كان النهار قد بزغ عندما بدأ ضبّاط الصف يعلّقون الأوراق بضرباتٍ قويّةٍ من المطرقة. تهافت الجميع عليها. تأكّدت قطارات

يوم الجمعة؛ أي: بعد يومين. قطاران لباريس. راح كلّ واحدٍ يبحث عن اسمه، وعن أسماء رفاقه. صبر ألبير، وهو يتلقّى ضربات كوع في خاصرته، أو دعسات على قدميه. استطاع في النهاية أن يشقّ له طريقاً، وأن يتابع بالسبّابة قائمة أولى، ثمّ ثانية. تحرّك مثل سلطعون. قائمة ثالثة، وها هو أخيراً. ألبير مايار، هذا أنا. قطار الليل.

الجمعة، الرحيل الساعة العاشرة ليلاً.

بالكاد كان لديه الوقت الضروري ليختم نشرة نقله، ويذهب إلى المحطّة مع بقيّة الرفاق. يجب الذهاب إلى هناك أبكر بساعة، أو أكثر. أراد أن يكتب إلى سيسيل، لكنّه عدل عن الفكرة بسرعة. لن يفيد ذلك في شيء، فهناك ما يكفي من الأخبار المغلوطة من هذا النوع.

مثل كثيرٍ من الجنود الآخرين، شعر ألبير بالراحة حتّى لو كان من الممكن تكذيب المعلومة لاحقاً. حتّى لو كانت المعلومة غير صحيحة، فإنّها تظلّ مريحة.

عهد ألبير بمتاعه إلى شخصٍ من باريس استفاد من فترة الصحو ليكتب رسائله. كان المطر قد توقّف خلال اللّيل. هل سيتحوّل الطقس إلى مشمس؟ تساءل الجميع. وراح كلّ واحدٍ يلقي تنبّؤاته، وهو ينظر إلى الغيوم. هكذا كان الأمر في الصباح. فعلى الرغم من الأشياء الكثيرة التي تشغل البال، راح كلّ واحدٍ منهم يفكّر كم من الجيّد أن يكون الإنسان حيّاً على الرغم من كلّ شيء. على طول الحواجز التي مُدّتْ من أجل تحديد المعسكر، كان هناك عشرات الجنود قد اصطفّوا مثل كلّ يوم لكي يتجاذبوا أطراف الحديث مع القرويّين الذي أتوا ليروا كيف تجري الأمور، ومع الأطفال الذي يأملون لمس بندقيّة، ومع زوّار لا أحد يعرف من أين

خرجوا ولا كيف أتوا. ناس من كلّ الأشكال والألوان... من المسلّي أن يكون الجنود محشورين هكذا كما لو كانوا في زريبة، وأن يتكلّموا مع العالم الحقيقيّ عبر السياج. بقي بعض التبغ عند ألبير، وهو شيءٌ لم يكن يستغني عنه. لحسن الحظّ، مع وجود عددٍ لا بأس به من الجنود المنهكين، المتكاسلين، الملتفّين بستراتهم العسكريّة قبل أن يقرّروا النهوض، صار من الممكن العثور على أشياء ساخنة للشرب أسهل من بقيّة النهار. مشى نحو الحواجز، وظلّ هناك فترةً طويلةً يدخّن سيجارته، ويرشف قهوته. كانت تمرّ فوقه غيومٌ بيضاءُ بسرعةٍ كبيرة. مشى حتّى مدخل المعسكر، وتبادل عدّة كلماتٍ مع الشباب هنا وهناك. لكنّه تجنّب المعلومات؛ لأنّه قرّر أن ينتظر بهدوءٍ أن ينادوا عليه. لم تعد لديه رغبة بالركض، وسينتهي الأمر في النهاية بأن يرسلوه إلى بيته. في رسالتها الأخيرة، كانت سيسيل قد أعطته رقم الهاتف الذي يستطيع أن يترك لها فيه رسالة عندما يعرف موعد عودته. ومنذ أن أرسلت له هذا الرقم شعر بأصابعه تتحرق لاستخدامه، كان بودّه أن يتّصل بذلك الرقم مباشرةً، وأن يتكلّم مع سيسيل، وأن يقول لها كم يشتاق إلى العودة، وإلى أن يكون أخيراً معها، وأشياء أخرى كثيرة. لكنّ ذلك كان مجرّد رقمٍ لتلقّي الطلبات في متجر السيّد موليون الذي كان لديه محلّ لبيع أغراض المنزل في زاوية شارع ليه زاماندييه. كذلك قبل أن يتّصل بها كان عليه أن يجد هاتفاً. وسيكون من الأفضل أن يسرع بالعودة إلى البيت مباشرة بدون أن يتوقّف.

عدد الواقفين على الحاجز كان كبيراً. دخّن ألبير سيجارةً ثانيةً، وراح يتسكّع. كان هناك أناس من المدينة يتحدّثون إلى الجنود. سحناتهم حزينة. نساء يبحثن عن ابن، أو عن زوج، ممسكات بأيديهنّ الممدودة صوراً.. يا

حسرة! إبرة في كومة قش؛ أمّا الآباء، عندما يكون هناك آباء، فكانوا يبقون بالخلف. النساء هنّ اللّواتي تجهدن أنفسهنّ دائماً، وهنَّ اللّواتي تطرحن أسئلةً، وتتابعن معاركهنّ الصامتة، وتنهضن كلّ صباحٍ مع ما تبقّى من الأمل الذي يتبدّد؛ أمّا الرجال، فكانوا من جهتهم قد توقّفوا عن تصديق ذلك من فترة طويلة. الجنود الذين تُطرح عليهم الأسئلة كانوا يجيبون بغموض، يهزّون رؤوسهم، فكلّ الصور في النهاية تتشابه.

شعر بقبضةٍ توضع على كتفه. التفت ألبير، ومباشرة ساوره الغثيان، وتسارعت دقات قلبه إلى الحد الأقصى.

- آه! أيّها الجندي مايار، كنت أبحث عنك.

وضع براديل إحدى يديه تحت ذراع ألبير وأجبره على السير معه.

- اتبعني!

ألبير لم يعد تحت إمرة براديل، لكنّه سار وراءه باستعجال. هو تأثير السُّلطة. ضمّ حقيبته إلى صدره.

سارا بجانب الحاجز.

الصبية كانت أصغر منهما. سبعة وعشرون، أو ثمانية وعشرون ربّما. فكّر ألبير بأنّها ليست جميلةً، لكنّها مع ذلك ساحرة. في الواقع لا يمكن معرفة ذلك تماماً. لا بدّ من أنّ سترتها من فرو الفقمة على الرغم من أنّ ألبير لم يكن متأكّداً من ذلك. دلّته سيسيل مرّةً على تلك المعاطف في واجهة المخازن بعيدة المنال، وقد أحزنه ألّا يستطيع الدخول إلى المخزن معها ليشتري لها واحداً. كانت المرأة الشابّة تلفّ يديها بقطعةٍ من نوع الفراء نفسه، وتضع قبّعةً تنسدل على رأسها على شكل جرس يتّسع

باتّجاه الأمام. كانت من النوع الذي لديه إمكانيّة اختيار لباسٍ بسيطٍ بدون أن يوحي بالفقر. وجهها مريحٌ، وعيونها كبيرةٌ غامقةٌ، تنتهي بشبكةٍ من التجاعيد الصغيرة الخفيّة. أهدابها سوداء للغاية وطويلة، وفمها صغير. لا، لم تكن شديدة الجمال، لكنّها كانت مقبولة، ثمّ إنّ الإنسان يفهم مباشرةً أنّها امرأةٌ ذات طباعٍ واضحة.

كانت منفعلةً، وتمسك في يديها المغلّفتين بقفّازاتٍ ورقةً فتحتها لكي تمدّها نحو ألبير.

حاول ألبير أن يتماسك، فالتقط الورقة، وتظاهر بأنّه يقرأها. لم يكن ذلك ضروريّاً، فقد كان يعرف مضمونها تماماً. استمارة الإبلاغ. التقطت عيناه كلمات «مات كبطل»، «بينما كان يطلق النار على الأعداء...». «يرقد بسلامٍ في مقبرةٍ صغيرة».

– «الآنسة مهتمّة بأحد رفاقك الذين قُتلوا في المعركة». قال النقيب ببرود.

مدّت له المرأة الشابّة ورقةً ثانيةً كادت تسقط من يده، ثمّ تدارك وأمسك بها. بدرت عنها آه قصيرة!

كان ذلك خطّه هو.

سيدتي، سيدي:

أنا ألبير مايار، أحد رفاق ابنكما إدوار. يؤلمني شديد الألم أن أعلمكم أنه مات...

أعاد الوثائق إلى الصبيّة التي مدّت له يداً باردةً، ناعمةً، قويّة.

– اسمي مادلين بيريكور. أنا أخت إدوار...

هزّ ألبير رأسه بإشارة نعم. هي وإدوار متشابهان. العيون... ما عاد أحد منهم يعرف كيف يتابع الحديث.

- «أنا آسف». قال ألبير.

- «الآنسة». عقّب براديل مفسّراً: «جاءت تبحث عنّي بتوصيةٍ من الجنرال موريو...». استدار نحوها: «وهو صديق حميم لوالدك، أليس كذلك؟».

أكّدت مادلين كلامه بحركةٍ من رأسها، لكنّها ظلّت تنظر إلى ألبير الذي أثار اسم موريو عنده حركة اندفاع في المعدة، فراح يتساءل بقلق كيف سينتهي الأمر. على نحوٍ غريزيٍّ ضمّ إليتيه إلى بعضهما، وركّز على مثانته. براديل، موريو... لن يلبث الكيس أن يُفرغ.

- «في الواقع». تابع النقيب: «تتمنّى الآنسة بيريكور أن تذهب لتزور قبر أخيها المسكين، لكنّها لا تعرف أين دُفِن...».

وضع النقيب دولني براديل يده بثقلٍ على كتف الجنديّ مايار كي يجبره على النظر إليه. بدت الحركة كأنّها تنمّ عن الصداقة. ولا شكّ في أنّ مادلين قد وجدت هذا النقيب ممتلئاً بالإنسانيّة، هذا القذر الذي كان يحدّق في ألبير بابتسامةٍ خفيّةٍ، لكنّها تحمل تهديداً في الوقت ذاته. ربط ألبير في ذهنه بين اسم موريو واسم بيريكور، ثمّ مع جملة «صديق لأبيك»... لم يكن من الصعب رؤية أنّ النقيب كان يعزّز علاقاته، وأنّ لديه مصلحة في تقديم خدمةٍ للآنسة أكثر من مصلحته في كشف الحقيقة التي كان يعرفها تماماً. ترك ألبير سجين كذبته عن موت إدوار بيريكور. تكفي مراقبة تصرّفه لإدراك أنّه يفضّل الاحتفاظ بالسرّ لنفسه طالما أنّ في ذلك منفعة له.

أمّا الآنسة بيريكور، فلم تكن تنظر إلى ألبير، إنّما تتفحّصه بكثيرٍ من

الأمل. قطّبت حاجبيها كما لو كانت تريد أن تساعده على الكلام؛ أمّا هو، فكان يحرّك رأسه بدون أن يتلفّظ بأيّة كلمة.

- «أهي بعيدة من هنا؟». سألته.

يا للصوت الجميل! ولأنّ ألبير لم يجبها، قال النقيب براديل، وهو يتلفّظ بالأحرف بصبر:

- الآنسة تسألك إن كانت المقبرة التي دفنت فيها أخاها إدوار بعيدة عن هنا.

نظرت مادلين بتساؤل إلى الضابط. أهو أبله هذا الجنديّ الذي جلبته لي؟ هل يفهم ما يُقال له؟ دعكت الرسالة في يدها قليلاً. راحت نظرتها تنتقل باستمرار بين النقيب وألبير، ثمّ بين ألبير والنقيب.

- «نعم، بعيدة نوعاً ما...». قال ألبير أخيراً.

أبدت مادلين ارتياحها. بعيدة نوعاً ما تعني أنّها ليست بعيدة جدّاً. على كلّ حال، أنا أتذكّر المكان. تنفّستْ. هناك من يعرف. يدرك الإنسان أنّها ركضت كثيراً قبل أن تصل إلى هنا. لم تسمح لنفسها بالابتسام. طبعاً، فالمناسبة لا تتحمّل ذلك، لكنّها كانت هادئة.

- هل تستطيع أن تشرح لي كيفيّة الذهاب إلى هناك؟

- «هذا...». أجاب ألبير بسرعة: «هذا ليس سهلاً. تعرفين، إنّه الريف، وليس من السهل إيجاد نقاط علام..».

- هل تستطيع أن تأخذنا إلى هناك إذن؟

- «الآن؟». سأل ألبير بقلق: «ذلك أنّي...».

- آه لا! ليس على الفور!

انساب جواب مادلين بسرعة، فتأسّفت لذلك. عضّت على شفتيها، وبحثت عن دعمٍ من النقيب براديل.

وهنا حصل شيء طريف: فقد فهم الجميع ما المطلوب.

كلمات قيلت بسرعة وانتهى الأمر، لكنّها قلبت الوضع تماماً، وعلى نحوٍ كبير.

براديل كان أسرعهم في الكلام، كالعادة:

- الآنسة بيريكور تريد أن تذهب وتعتكف قليلاً عند قبر أخيها كما ترى.

كان يؤكّد على كلّ مقطع من كلامه كما لو كان كلّ واحدٍ من هذه المقاطع يحتوي على معنى دقيق ومستقل.

تعتكف؟ حسن. لمَ لا نذهب الآن مباشرة إذن؟ لماذا ننتظر؟

لأنّ القيام بما تريده يتطلب بعض الوقت، كما يتطلّب على الأخص كثيراً من السريّة.

منذ شهور وشهور والعائلات تطالب بجثث الجنود الذين دفنوا في الجبهة. أعيدوا لنا أولادنا. لكن بلا جدوى. ذلك أنّ الجثث كانت في كل مكان. شمال البلاد وشرقها كان كلّه مزروعاً بقبور مرتجلة حُفرتْ بسرعة لأنّ الأموات لا يستطيعون الانتظار. يتفسّخون بسرعة. ناهيك عن الجرذان. منذ أن أعلنت الهدنة، بدأت العائلات تصرخ، لكنّ الدولة تشنّجت في موقفها الرافض. في الوقت ذاته، كان ألبير عندما يفكّر بذلك يجد الأمر منطقيّاً، فلو أنّ الحكومة سمحت للأهل بنبش قبور الجنود سترى خلال بضعة أيّام مئات آلاف العائلات مسلّحة بالرفوش والمعاول تقوم بقلب نصف أراضي البلاد -تخيلوا الورشة- وبنقل آلاف الجثث

المتحلّلة، ثمّ خلال أيّام كاملة نقل التوابيت إلى المحطّات، وتحميلها في القطارات التي تحتاج إلى أسبوع للربط بين باريس وأورليان... لم يكن ذلك ممكناً. وبذلك، كان الجواب لا منذ البداية. لكنّ المشكلة أنّ الأمر كان بالنسبة إلى العائلات صعب التقبّل. الحرب انتهت، ولا يمكن فهم هذا الرفض. راحوا يلحّون. من جهتها كيف يمكن للحكومة التي لم تتوصّل حتّى إلى تسريح الجنود أن تقوم بتنظيم عمليّة نبش ونقل مئتين، أو ثلاثمئة، أو حتّى أربعمئة ألف جثة؟ ما عاد يمكن معرفة عددها... كانت المسألة تشبه أحجيةً حقيقيّة.

بذلك، لاذت العائلات بالحزن، وراح الأهل يجوبون البلاد كلّها ليزوروا قبوراً تنتصب وسط اللامكان، ولا يقدرون على الرحيل.

تلك كانت حالة أكثر الناس امتثالاً.

لكن كان هناك آخرون: العائلات المتمرّدة، والمتطلّبة، والعنيدة، التي لا ترغب بأن تقوم حكومة تخلو من الكفاءات بالتلاعب بها. تلك العائلات كانت تعالج الأمر على نحو مختلف. وتلك كانت حالة عائلة إدوار. لم تأت الآنسة بيريكور لكي تعتكف أمام قبر أخيها.

أتت لتبحث عنه. أتت لتخرجه من القبر وتذهب به.

سمعنا مثل هذه القصص. صارت هناك تجارة كاملة، وأشخاص مختصّون. يكفي أن تكون لديك شاحنة، ورفش، ومعول، وأن يكون قلبك قويّاً. تعثر على المكان، وفي اللّيل يتمّ الأمر بسرعة.

- «ومتى يمكن أن تذهب الآنسة لتعتكف أمام قبر أخيها أيّها الجندي مايار؟». سأل النقيب براديل من جديد.

- «غداً إن أردتم...». اقترح ألبير بصوتٍ خالٍ من التعبير.

- «نعم». أجابت الصبيّة: «نعم. هذا ممتاز. ستكون معي سيّارة. كم يلزمنا من الوقت لنصل إلى هناك برأيك؟».

- «من الصعب التكهّن بذلك. ساعة، أو ساعتان... ربّما أكثر. أيّة ساعة تناسبك؟». سألها ألبير.

تردّدت مادلين. وبما أنّها لم ترَ أيّ ردّ فعل من النقيب، أو من ألبير، قالت مندفعة:

- سأمرّ عليك في السادسة مساءً. ما رأيك؟

ما رأيه؟

- «أتريدين الاعتكاف خلال الليل؟». سألها.

كان ذلك أقوى منه. لم يستطع أن يمنع نفسه عن قول ذلك. كان تصرّفه جباناً.

تأسّف على ما قاله؛ لأنّ مادلين خفضت عينيها. لم تتضايق من سؤاله، لا، لكنّها كانت تفكر. صحيح أنّها صبيّة، لكنّها واقعيّة، وبما أنّها غنيّة، وهذا يبدو مباشرةً من فراء الفقمة، والقبّعة الصغيرة، والأسنان الجميلة، فقد راحت تدرس الوضع على نحوٍ ملموسٍ، وتتساءل عن السعر الذي يجب أن تقترحه لكي تتوصّل إلى الحصول على مساعدة هذا الجندي.

شعر ألبير بالاشمئزاز من نفسه، فهو لم يرد أن يعطي الانطباع بأنّه يمكن أن يقبل مالاً مقابل ذلك... قبل أن تفتح فمها قال:

- حسنٌ. إلى الغد.

استدار وعاد نحو المعسكر.

9

يؤسفني أن أعود مرّة ثانية لهذا الأمر... لكنّني أؤكّد لك أنّك يجب أن تكون بالفعل واثقاً تماماً ممّا تفعل.. إنّنا نتّخذ في بعض الأحيان قرارات بتأثير من الغضب، أو من خيبة الأمل، أو من الحزن. وقد يحصل أن تتجاوزنا انفعالاتنا، هل تفهم ما أعني على الأقل؟ لا أعرف ما يمكن فعله الآن، لكن سنجد طريقة لتحقيق ذلك... فما نفعله في هذا الاتّجاه، يجب أن نستطيع فعله أيضاً في الاتّجاه الآخر. لا أريد أن أؤثّر على قراراتك، لكنّني أطلب ذلك منك: فكّر بأهلك. أنا متأكد أنّهم إن عثروا عليك كما أنت الآن سيحبّونك بقدر محبتهم في السابق، إن لم يكن أكثر. لا بدّ من أنّ والدك رجُلٌ شجاعٌ ومخلص. فكّر كم سيفرحه أن يعرف أنّك حيّ. لا أريد أن أؤثّر على قراراتك. وأنا في كلّ الأحوال سأفعل ما ترغب به. مع ذلك، هي أشياء يجب تقييمها بدقّة حسب رأيي. لقد رسمتَ لي أختك مادلين. إنّها صبيّة لطيفة. فكّر قليلاً بالألم الذي أصابها عندما علمت بموتك، وأيّة معجزةٍ ستكون بالنسبة إليها اليوم...

لا فائدة من كتابة ذلك؛ إذْ لا يمكن معرفة متى ستصل الرسائل. يمكن

أن تستغرق أسبوعين، أو أربعة أسابيع. وقد قضي الأمر. لم يكن ألبير يكتب هذه الأشياء سوى لنفسه. لم يتأسّف لأنّه ساعد إدوار على تغيير هويّته، فإن لم يتابع الأمر في هذا الاتّجاه، لا يعرف ما يمكن أن تكون عليه النتائج التي يتوقّعها قاتمة للغاية. استلقى على الأرض، وقد التفّ بسترته العسكريّة.

دار وتقلب طيلة جزءٍ طويلٍ من اللّيل. كان مهموماً ويشعر بالقلق.

في أحلامه تُنبش الأرض لاستخراج جثة، تعرف مادلين بيريكور مباشرةً أنّها ليست جثّة أخيها. الجثّة إمّا أكبر بكثير، وإمّا أصغر بكثير. في بعض الأحيان يكون للجثّة وجه يمكن التعرّف إليه مباشرةً، هو وجه جنديٍّ مسنٍّ جدّاً. وفي أحيان أخرى تُنبش جثّة رجُلٍ دُفن مع رأس حصانٍ ميّت. الفتاة تمسك بذراعه وتسأله: «ما الذي فعلته بأخي؟». النقيب دولني براديل يضيف أشياء من عنده بالطبع. زرقة عينيه فاتحة لدرجة أنّها تضيء وجه ألبير مثل مشعل؛ أمّا صوته، فهو صوت الجنرال موريو. «أصحيح هذا؟». كان يهدر: «ما الذي فعلته بهذا الأخ، أيّها الجندي مايار؟».

استيقظ في الساعات الأولى من الفجر على كابوس مثل هذا.

في حين كان جميع من في المعسكر ما يزالون نياماً، راح ألبير يقلّب أفكاره. بسبب عتمة القاعة الكبيرة، وتنفّس رفاقه العميق، والمطر الذي يضرب على السطح، صارت أفكاره تزداد سواداً وكآبةً وتهديداً، لحظةً بعد لحظة. لم يتأسّف على ما فعله حتّى اللحظة الحاضرة، لكنّه ما كان قادراً على الذهاب أبعد من ذلك. استعاد منظر تلك المرأة الشابّة، وهي تدعك بيديها الصغيرتين تلك الرسالة المنسوجة من أكاذيب. هل ما قام به تصرّف إنسانيّ؟ هل ما تزال هناك إمكانيّة لإلغاء كلّ شيء؟ الأسباب التي تبرّر

القيام بالفعل تعادل الأسباب التي تبرّر التراجع عنه. قال في نفسه: «في النهاية، لن أقوم الآن بإخراج جثث من القبر لكي أغطي كذبة اقترفتْ بدافع الطيبة! أو ربّما بسبب الضعف، والأمر سيّان. لكن إن لم أقم بإخراجها من القبر، وإن كشفتُ القضيّة بأكملها، سأُتّهم». ما كان يعرف ما يمكن أن يتعرّض له من مخاطر، لكنّه يعرف فقط أنّ الوضع خطِر. كلّ شيء راح يتّخذ أبعاداً مرعبة.

عندما حلّ النهار أخيراً، لم يكن قد قرّر أيّ شيءٍ بعد، وكان يؤجّل بدون توقّف لحظة حسم هذا الصراع الرهيب.

أيقظته ضربة في الأضلاع. صُعق من المفاجأة، ثمّ تمالك نفسه بسرعة. كانت الصالة بأكملها ممتلئة بالصرخات وبحركةٍ دائمة. نظر ألبير حوله، وقد ضاع تماماً بدون أن يكون قادراً على تمالك نفسه عندما هبط عليه من السماء وتسمّر على بعد بضعة سنتمترات من وجهه وجه النقيب براديل القاسي، وهو يخترقه بنظراته.

حدّق فيه الضابط مدّةً طويلةً، ثمّ أطلق تنهيدة يأسٍ قبل أن يصفعه على وجهه. حمى ألبير نفسه على نحوٍ غريزي. ابتسم براديل ابتسامة واسعة لا تقول شيئاً ذا قيمة.

– وماذا إذن أيّها الجندي مايار؟ سمعنا أشياء جميلة. رفيقك إدوار بيريكور قد مات؟ أنت تعلم أنّ تلك كانت صدمة! لأنّني في المرّة الأخيرة التي رأيته فيها...

عقد ما بين حاجبيه كما لو كان يغرف من ذكرياته البعيدة...

– أظنّ أنّ ذلك كان في المستشفى العسكريّ؛ حيث كان قد نُقل للتوّ. في تلك اللّحظة، كان حيّاً بكلّ ما في الكلمة من معنى. صحيح أنّ ملامحه لم تكن بأفضل حالاتها...ولأكون صريحاً معك، وجدت أنّ قسمات

وجهه كانت مشدودةً نوعاً ما. لقد أراد أن يوقف قنبلةً بأسنانه، وفي ذلك تهوّر. ليته سألني النصيحة... لكنْ أن نصل إلى تصوّر أنّه مات، فلا. أؤكّد لك أيّها الجنديّ مايار أنّ ذلك لم يخطر على بالي. مع ذلك، ما من شك، فهو قد مات تماماً، لا بل إنّك قد كتبت رسالة شخصيّة للعائلة لكي تعلمها؛ أمّا أسلوبك في الكتابة، أيّها الجندي مايار، فهو أسلوبٌ جميلٌ مثل كتابة كلاسيكية.

عندما كان يلفظ اسم مايار كان يفعل ذلك بتلك الطريقة المقيتة التي لديه دائماً حين يضغط على المقطع الصوتيّ الأخير، ما يعطي كلامه نغمة عبثيّة، وفيها على الأخصّ شيء من القرف. كان يقول اسم مايار كأنّه يلفظ شتيمة، أو كلمة بذيئة.

بعدها بدأ يتحدّث بصوتٍ خفيضٍ، مثل الهمس، مثل رجُلٍ غاضبٍ يحاول أن يتمالك أعصابه:

- لا أعرف ما الذي حلّ بالجندي بيريكور، ولا أريد أن أعرف، لكنّ الجنرال موريو كلّفني أن أساعد عائلته، ولذلك بالضرورة أتساءل...

كان في الجملة نبرة تقترب من نبرة السؤال. حتّى تلك اللّحظة لم يستطع ألبير أن يتكلّم. وكان يبدو بوضوح أنّ النقيب براديل ليست لديه رغبة في أن يتيح له ذلك.

- هناك حلّان فقط أيّها الجندي مايار: نقول الحقيقة، أو نغلق المسألة. إن قلنا الحقيقة، سيكون وضعك سيّئاً: انتحال هويّة. لا أعرف ما الذي أوصلك إلى ذلك، لكنّه أمرٌ مناسبٌ تماماً للسجن، وأنا أضمن لك خمس عشرة سنة على الأقل. من جانب آخر، ستعيد وتكرّر قصّتك المتعلّقة بلجنة التحقيق حول النقطة 113... وذلك باختصار أسوأ الحلول بالنسبة إليك،

كما هو بالنسبة إليّ. يبقى الحلّ الآخر: يطالبوننا بجنديٍّ ميّتٍ، نعطيهم جنديّاً ميّتاً. انتهى. أنا أستمع إليك.

كان ألبير ما يزال بصدد هضم الجملة الأولى.

- «لا أعرف...». قال.

في هذا النوع من المواقف، كانت مدام مايار تنفجر قائلة: «هذا هو ألبير تماماً! عندما تكون هناك حاجة إلى أن يتّخذ القرار، ويثبت أنّه رجُلٌ... يختفي! لا يوجد أحد. لا أعرف...! يجب أن نرى...! يمكن نعم...! سوف أسأل...! هيّا يا ألبير! قرّر! إن كنت تظنّ أنّه في الحياة... إلخ، إلخ».

كان لدى النقيب براديل شيء من مدام مايار، لكنّه كان أسرع منها في حسم الأمور:

- سأقول لك ما ستقوم بفعله. سوف تحرّك مؤخّرتك، وفي هذا المساء ستذهب لتقدّم للآنسة بيريكور جثّةً جميلةً عليها ختم «إدوار بيريكور»، هل تتابع ما أقول؟ إنّه يوم عمل، وبعدها تذهب مرتاح البال. لكنْ فكّر بسرعة. وإن كنت تفضّل السجن، فأنا في خدمتك...

استفهم ألبير من رفاقه، دلّوه على عدّة مقابر في الريف. تحقّق أيضاً ممّا كان يعرفه. أكبر واحدةٍ موجودة في بيبرفال على بعد 6 كم من هنا. الخيارات أوسع هناك. ذهب إليها مشياً على الأقدام.

كانت المقبرة تحفّ بالغابة، وفيها عشرات القبور في كلّ الزوايا. في البداية، كانت هناك محاولة لصفّ القبور على نحوٍ منتظم، لكن فيما بعد، غذّت الحرب المقبرة بكثير من الجثث، إلى درجة حُشرت معها تلك الجثث بترتيب وصولها العشوائي. قبور في كلّ الاتّجاهات. بعضها يحمل

صليباً، وبعضها لا، أو أنّ صلبانها قد سقطت. هنا يوجد اسم. هناك كلمة «جندي» محفورة بالسكين على صفيحة خشب. هناك عشرات من هذه الفئة مع كلمة «جندي» فقط. في بعضها الآخر توجد زجاجات مقلوبة مغروسة في الأرض وضعتْ ورقة داخلها، عليها اسم الجنديّ. من أجل ما بعد، فيما لو كان هناك أحد يريد أن يعرف من يوجد هنا في الأسفل.

في مقبرة بييرفال، كان ألبير يستطيع أن يمضي ساعات كاملة، وهو يتجوّل بين القبور المرتجلة قبل أن يختار أحدها؛ بسبب تردّده الأبديّ، لكنّ العقل تغلّب في النهاية. «سنرى». قال لنفسه: «بدأ الوقت يتأخّر، وطريق العودة إلى مركز التسريح طويل. يجب أن أقرّر». أدار رأسه، ورأى قبراً لا يدلّ صليبه على أحد، وقال: «هذا».

سحب بعض المسامير من صفيحةٍ خشبيّةٍ انتزعها من السياج، وبحث عن حجر. سمّر اللّوحة النصفيّة التي تحمل هويّة إدوار بيريكور. تأكّد من إحداثيّات المكان، وتراجع عدّة خطوات لكي يرى المنظر العام مثل مصوّر في يوم عرس.

عاد من هناك، وقد عذّبه الخوف مع تأنيب الضمير؛ لأنّه حتّى لو كانت الدوافع جيّدة، فإنّ الكذب لم يكن في طبيعته. فكّر بتلك الصبيّة وبإدوار، وأيضاً بذلك الجنديّ المجهول الذي اختارته المصادفة ليجسّد إدوار، والذي لن يجده أحد بعد اليوم. جندي لم يجرِ التعرّف عليه من قبل، واختفى الآن نهائيّاً.

كلّما ابتعد عن المقبرة واقترب من المركز، كانت المخاطر قريبة المدى تتّضح أمامه، وتتوالى في ذهنه مثل حجارة الدومينو، إن سقطت قطعة سقطت وراءها جميع القطع الأُخرى. قال ألبير لنفسه: يمكن أن يتمّ

ذلك كله على نحوٍ جيّد لو أنّ الأمر كان يتعلّق بالاعتكاف أمام القبر فقط. الأخت بحاجةٍ إلى قبر أخيها، وأنا أقدّم لها قبراً. قبر أخيها، أو قبر شخص آخر، لا فرق، المهم هو القلب. لكن الآن، مع قصّة الحفر، ستصبح المسألة أكثر تعقيداً. عندما سيذهبون للبحث في قعر حفرة، الله أعلم ما يمكن العثور عليه. لا توجد هويّة، طيّب، حسناً، جنديّ ميّت، هو جنديّ ميّت. عندما يقومون بإخراجه من الأرض ماذا سيجدون؟ غرضاً شخصيّاً؟ علامة مميزة؟ أو، بكل بساطة، جثّة أكبر، أو أصغر منه؟

لكنّ الخيارات قد تمّت الآن؛ فقد قال هو: «هذا هو القبر». وانتهت المسألة. جيّدة كانت أم سيّئة. ما عاد ألبير يعتمد على الحظّ منذ فترةٍ طويلة.

وصل إلى المركز منهكاً. إن أراد أن يستقلّ القطار نحو باريس، وإن أراد ألّا يفوته القطار (إن كان هناك قطار)، فيجب أن يعود في التاسعة مساء بأقصى الأحوال. كان يسود في المركز نوع من الفوران. مئات الأشخاص المُستثارين مثل البق، والذين جمعوا متاعهم منذ ساعاتٍ وراحوا يصرخون، ويغنّون، ويزأرون، ويتبادلون الضربات على الظهر؛ أمّا الضبّاط، فكانوا يتساءلون قلقين: ماذا يمكن أن يفعلوا فيما لو لم تصل القافلة التي أُعلِنَ عنها كما حصل مرّة من أصل ثلاث مرّات...؟

ترك ألبير الثكنة. نظر إلى السماء، وهو واقف على العتبة. هل سيكون اللّيل حالكاً بما فيه الكفاية؟

كان مفعماً بالنشاط، النقيب براديل. ديك حقيقيّ. لباس كُويَ لتوّه، جزمة ملمّعة، لا ينقصه سوى الأوسمة البرّاقة. مشى بضع خطوات فصار على بعد عشرة أمتار في حين لم يكن ألبير قد تحرّك بعد.

- ماذا حدث معك. هل ستأتي يا صديقي؟

تجاوزت الساعة السادسة مساء. وراء السياج الحديديّ هناك سيّارة ليموزين تدور في المكان بسرعةٍ بطيئة. يمكن تمييز ضجّة الصبّابات المكتومة، ورؤية الدخان يخرج بكلّ نعومةٍ من فتحات الأنبوب المخصّص لذلك. بسعر دولابٍ واحدٍ من تلك السيّارة كان يمكن لألبير أن يعيش سنة كاملة. شعر بنفسه فقيراً بمقدار ما هو حزين.

عندما صار النقيب أمام الشاحنة لم يتوقّف. سار حتّى وصل إلى السيّارة التي سُمع بابها ينطبق بهدوء. لم تظهر الفتاة.

للسائق لحية كثيفة، وتفوح منه رائحة التعرّق. كان يجلس وراء مقود شاحنةٍ جميلةٍ جديدةٍ من طراز Berliet CBA، سعرها ثلاثون ألف فرنك. العمل الذي يقوم به مُربحٌ، ومن الواضح أنّه معتادٌ عليه، ولا يثق سوى بحكمه الخاص. من وراء زجاج النافذة الذي أنزله، تفحّص ألبير، ودرسه من رأسه إلى أخمص قدميه، ثمّ فتح الباب، وقفز من الشاحنة، وأخذه جانباً. أمسك ذراعه بقوّة. قبضته مخيفة.

- إن أتيت معي معناها أنّك صرت جزءاً من العمليّة، هل فهمت؟

أشار ألبير برأسه أنْ نعم. استدار نحو الليموزين. أنبوب خروج الدخان ما يزال ينفخ بخاره الأبيض المدغدغ. يا إلهي! بعد كل هذه السنوات من العذاب، كما كانت هذه النفحة الناعمة قاسية عليه.

- «قل لي...». قال السائق هامساً: «كم ستقبض منهم، أنت؟».

شعر ألبير بأنّ التعالي عن الربح ستكون عاقبته وخيمة مع هذا النوع من الرجال. حسب في رأسه بسرعة.

- ثلاثمئة فرنك.

- يا لك من أحمق!

لكن كان هناك نوع من الرضا في تعبير السائق. الرضا لأنّه عرف كيف يتملّص ببراعة من المشكلة. فحسب تفكيره المحدود كان يريحه أن يرى الآخرين يُخفقون بقدر ارتياحه لنجاحه هو. أدار صدره باتّجاه الليموزين.

- ألا ترى؟ مع الفرو الذي ترتديه، والبذخ التي تبدو عليه، كان يمكن أن تحصل على أربعمئة، بل من السهل جدّاً أن تحصل على خمسمئة.

بدا أنّه مستعدٌّ لإعلان ما ساوم عليه، لكنّ الحذر تملّكه. أفلت السائق قبضته.

- هيا، بسرعة. يجب ألّا نتأخّر.

استدار ألبير نحو السيّارة. ما زالت الفتاة في داخلها لم تخرج. ولماذا تخرج؟ لا أعرف أنا، ربّما لتحيّي، لتشكر. لكنْ لا شيء من هذا، فهو مجرّد عامل، مجرّد مرؤوس.

صعد إلى السيّارة. انطلقت الليموزين بدورها وراء الشاحنة بمسافة، وبذلك احتفظت لنفسها بالقدرة على أن تتجاوزها وتختفي، لا من رأى، ولا من سمع، في حال ظهرت الشرطة وطرحت أسئلة.

حلّ اللّيل على نحوٍ كامل.

أضواء الشاحنة الصفراء أضاءت الطريق، لكنّ الظلام داخلها لا يسمح بأن يرى الإنسان قدميه. وضع ألبير يده على لوحة قيادة السيّارة وحدق في المناظر عبر الزجاج. كان يقول: «إلى اليمين»، أو «من هنا»، ويخاف أن يضيع. وكلّما اقتربوا من المقبرة، ازداد خوفه. اتّخذ قراره؛ إن سارت الأمور على نحوٍ سيّئ سيهربُ ركضاً عبر الغابة. لن يركض السائق خلفي، سينطلق بسيّارته ويعود إلى باريس حيث تنتظره طلبيّات نقلٍ أُخرى.

أمّا النقيب براديل، فسيكون من جهته قادراً على اللّحاق به. فقد أظهر قبل الآن ردود أفعال جيّدة، هذا الحيوان! «ماذا أفعل؟». تساءل ألبير. كانت لديه رغبة في أن يبول. أمسك نفسه بكلّ قوّته.

صعدت الشاحنة آخر هضبة.

كانت المقبرة تبدأ تقريباً عند حافّة الطريق. قام السائق بعدّة مناورات من أجل إيقاف السيّارة في الطريق الهابط كي لا يحتاج عند العودة إلى تحريك الذراع اليدويّة. يكفيه أن يفلت الكوابح في المنحدر لتنطلق السيّارة.

عندما سكت المحرّك أثار نوعاً من الصمت الغريب، مثل معطف يسبل عليك. ظهر النقيب مباشرةً عند بوّابة الشاحنة. سيؤمّن السائق مراقبة المكان عند مدخل المقبرة. خلال ذلك الوقت يجري الحفر والنبش. يوضع التابوت داخل الشاحنة، يُحمَّل وتنتهي القصّة.

كانت ليموزين الآنسة بيريكور تشبه حيواناً بريّاً قبع في الظلّ مستعدّاً للوثوب. فتحت الصبيّة الباب وظهرت. كم هي صغيرة! وجدها ألبير أكثر شباباً عمّا كانت عليه في اليوم السابق. قام النقيب بحركةٍ محاولاً منعها، لكنْ لم يكن لديه وقت ليلفظ كلمة واحدة فقد تقدّمت بخطواتٍ حازمة. كان وجودها شديد التنافر مع هذا المكان وهذه الساعة، إلى درجة أنّ الرجال الثلاثة ظلّوا صامتين أمامها. بحركةٍ صغيرةٍ من رأسها أعطت إشارة البدء.

بدأوا بالسير.

كان السائق يحمل رفشين، وألبير يجرّ كيسَ نايلون كبيراً مثنيّاً لوضع التراب عليه. يجعل ذلك إغلاق الفتحة أسرع.

كانت اللّيلة شبه صافية. يمكن تمييز أكوام ما يقارب عشرة قبور على اليمين، وعلى اليسار. يشبه ذلك السير في حقل حرثته حيوانات خُلدٍ عملاقة. راح النقيب يمشي بخطواتٍ واسعة. فقد استطاع دائماً أن يكون مثل الغزاة حين يتعلّق الأمر بالأموات. خلفه، بين ألبير والسائق، كانت الصبيّة تخبّ مثل فرس. مادلين، يحبّ ألبير هذا الاسم الذي كان اسم جدّته أيضاً.

- أين هو؟

مضت مدّة، وهُم يمشون. ممرٌّ، ثمّ ممرٌّ آخر. النقيبُ هو الذي طرح السؤال. استدار بعصبيّة. كان يهمس، لكنّ صوته يشي بنفاد صبره. يريد أن ينتهي من تلك القصّة. ألبير يبحث، يرفع ذراعه، يخطئ، يحاول أن يستدلّ على الطريق. كان يمكن رؤيته، وهو يفكّر. لا، من هنا.

- «من هنا». قال أخيراً.

- «هل أنت متأكّد؟». سأله السائق الذي بدأ يشكّ.

- «نعم». قال ألبير: «من هنا».

استمرّوا يتحدّثون بصوتٍ خفيضٍ كما لو كانوا في جنازة.

- «استعجل قليلاً يا أخ». قال النقيب متضايقاً.

وصلوا أخيراً.

على الصليب، كانت توجد لافتةٌ صغيرة؛ إدوار بيريكور.

ابتعد الرجال. اقتربت الآنسة بيريكور. بكت على نحوٍ خافت. ترك السائق المعاول، وذهب ليراقب من بعيد. اللّيل مظلم. بالكاد يستطيعون تمييز بعضهم. فقط الهيئة الهشّة لهذه الصبيّة. وقفوا خلفها خافضي الرؤوس احتراماً، لكنّ النقيب راح ينظر في كل مكان حوله، وهو قلق.

الوضع ليس مريحاً. أخذ ألبير زمام المبادرة. مدّ يده ووضعها برفقٍ على كتف مادلين بيريكور. استدارت ونظرت إليه. فهمت وتراجعت. أعطى الضابطُ ألبير معولاً، وأخذ المعول الثاني. ابتعدت الصبيّة. بدأوا يحفرون.

التراب كان ثقيلاً، والحفر بالمعاول بطيئاً. في هذا المكان القريب من الجبهة؛ حيث لم يكن هناك وقتٌ كافٍ قطّ. ما كانت الأجساد تدفن عميقاً قطّ، لا بل في بعض الأحيان، كان الدفن قليل العمق إلى درجة أنّ الجرذان كانت تكتشفه منذ اليوم التالي. يُفتَرض إذنْ ألّا يضطرّوا إلى الحفر كثيراً. ألبير في قمّة القلق، كان يتوقّف غالباً ليصغي. لَحظ وجود الآنسة بيريكور بالقرب من شجرة شبه ميّتة. كانت تقف مستقيمةً ومشدودةً هي أيضاً. تدخّن سيجارةً بعصبيّة. أثار ذلك دهشة ألبير. امرأة مثل هذه تدخّن سيجارة! ألقى براديل بدوره نظرةً، ثم: هيّا يا صديقي، لن نبقى هنا مدى العمر، إلى العمل من جديد.

ما تطلّب وقتاً طويلاً هو الحرص على ألّا يصطدم المعول في أثناء الحفر بالجسد الذي في الأسفل. تراكم التراب الذي أخرجته المعاول على شكل أكوام فوق القماشة البلاستيكيّة. «ماذا سيفعل آل بيريكور بذلك الجسد؟». تساءل ألبير. يدفنونه في حديقتهم، خلال الليل، كما هو الأمر الآن؟

توقّف.

- «أخيراً!». صفّر النقيب، وهو ينحني.

قال ذلك بصوتٍ خفيضٍ جدّاً لأنّه لا يريد أن تسمعه الفتاة. ظهر شيءٌ من الجسد. من الصعب معرفة ما هو. الضربات الأخيرة للمعول كانت رفيقة. يجب أخذ التراب من تحتها حتّى لا يتلف أيّ شيء.

ألبير كان يعمل. وبراديل نافذ الصبر.

- «استعجل!». همس بصوتٍ خفيض: «ما عادت هناك خشية عليه. هيّا!».

اشتبك المعول بقطعة قماشٍ من السترة التي استُخدمت ككفن، ومباشرة ارتفعت الرائحة. شيء مرعب! أدار الضابط وجهه مباشرة.

كذلك فعل ألبير الذي رجع هو أيضاً خطوة إلى الوراء. مع أنّه كان قد استنشق مثل هذه الرائحة طيلة الحرب، أجساد متحلّلة، خاصّة عندما كان يحمل نقّالات الإسعاف، هذا إن لم نذكر إقامته في المستشفى مع إدوار. التفكير به فجأة الآن... رفع ألبير رأسه، ونظر إلى الفتاة التي كانت قد وضعت منديلاً على أنفها على الرغم من أنّها بعيدة نسبيّاً. «لا بدّ من أنّها تحبّ أخاها». قال لنفسه. دفعه براديل بجلافة، وترك الحفرة.

بخطوةٍ واحدةٍ صار قرب الآنسة، أمسك بها من كتفيها، وأدارها بحيث يصبح ظهرها نحو القبر. بقي ألبير وحْده في أسفل الحفرة، مع رائحة الجثّة. قاومت الشابّة. أشارت برأسها أنْ لا. أرادت أن تقترب. تردّد ألبير، ولم يعرف كيف يتصرّف. كان مرعوباً، فقد ذكّره ذلك بأشياء كثيرة. قامة براديل العالية، وهو يطلّ عليه. وجوده هكذا فجأةً داخل حفرة، حتّى لو كانت قليلة العمق... بدأت تنتابه حالة من التعرّق الحقيقيّ الناجم عن الجزع على الرغم من البرد الذي حلّ، هو مع الميّت داخل الحفرة، والنقيب متمترس في الأعلى مباعداً قدميه. الحكاية كلّها جعلته يشعر بالاختناق. انتابه الشعور بأنّ هناك من سيغطّيه ويدفنه. بدأ يرتعش، لكنّه فكّر مجدّداً برفيقه، فكّر بإدوار، وأجبر نفسه على أن ينحني ويعود إلى العمل.

مثل هذه الأشياء تحفر قلبك. حفّ التراب بعنايةٍ بطرف المعول.

التراب الفخاري ليس ملائماً للتحلّل، والجثّة لُفتْ على نحوٍ صحيح بالسترة، وقد أخّر ذلك عمليّة التعفّن. ظلّ القماش ملتصقاً بقطع الطين. ظهرت الأحشاء والأضلاع، وقد اصفرّت قليلاً مع قطع من اللحم المتعفّن المسودّ التي تعجّ بالديدان لأنّه ما زال لديها شيء تأكله.

صرخة في الأعلى. رفع ألبير رأسه. كانت الفتاة الصبيّة تجهش بالبكاء، والنقيب يواسيها، لكن من فوق كتفها كان يوجّه إلى ألبير إشارة ضيق: استعجل، ما الذي تنتظره؟

أفلت ألبير المعول من يده، خرج من الحفرة، وبدأ يركض. انهرس قلبه، وشعر بالغثيان من كلّ ذلك. هذا الجنديّ المسكين الميّت، هذا السائق الذي يتاجر بأحزان الآخرين، هذا النقيب الذي كما يبدو واضحاً يمكن أن يحشر أيّ جسدٍ كان في تابوتٍ شريطة الانتهاء بسرعة... وإدوار الحقيقيّ المشوّه تماماً، والمربوط داخل غرفة المستشفى، تفوح منه رائحة نتنة مثل جثّة، وهو! من المحبط التفكير بأنّ كل ذلك القتال أودى إلى نتيجةٍ كهذه.

السائق عندما رآه يصل أطلق تنهيدة ارتياح. برمشة عينٍ رفع الملاءة البلاستيكيّة من الشاحنة، أمسك بخطّافٍ حديديٍّ، علّق عليه قبضة كانت في الداخل، ورفعها نحوه بكلّ ما لديه من قوّةٍ، ثمّ اتّجها نحو القبر. السائق في الأمام، وألبير خلفه.

انقطع نَفَسَ ألبير؛ لأنّ الآخر كان يمشي بسرعة طبعاً، بسبب العادة، في حين أنّه هو، كان يخبّ كيفما اتّفق، ويكاد لعدّة مرّات أن يفلت كلّ هذه الأشياء ويسقط تحتها. وصلا في النهاية. الرائحة غير محتملة في هذه الجهة.

تابوتٌ جميلٌ من خشب السنديان مع مقابض مذهّبة، وصليب من الحديد المشغول مُلصق على الغطاء. غريب! عادةً، المقبرة هي المكان الملائم للتابوت، لكنّ هذا بالذات كان أشدّ فخامة من المحيط الحالي. ليس من النوع الذي يُرى عادةً في أثناء الحرب. هو أكثر ملاءمة للبرجوازيّين الذين يموتون على سريرهم، وليس للشباب الذين يُقتلون بدون معرفة هويّتهم. لم ينهِ ألبير تفكيره الفلسفي. الجميع من حوله كانوا مستعجلين للعودة.

رفعوا الغطاء ووضعوه على جنب.

بخطوةٍ واحدةٍ كبيرةٍ نزل السائق إلى الحفرة؛ حيث وضع الجثّة. انحنى، رفع بيده العارية طرف قماش السترة، ثمّ بحث بعينيه عن مساعدة. وطبعاً وقع الأمر على عاتق ألبير، ومن غيره؟ تقدّم ألبير خطوةً، نزل بدوره إلى الحفرة، في لحظتها دار رأسه بسبب الجزء الذي أصابه. بدا عليه أنّه مرتعبٌ للغاية لأنّ السائق سأله:

– هل ستقدر على القيام بذلك؟

انحنيا معاً، تنشّقا رائحة التفسّخ بكامل رئتيهما، أمسكا بالقماش وهيّا! مرّة، مرّتان، وبحركةٍ واحدةٍ وُضِع الجسد في الأعلى، على حافّة القبر. شكّل ذلك كتلة كئيبة. لم يكن ثقيلاً ما حملاه. ما تبقّى منه له بالكاد وزن طفل.

صعد السائق مباشرة. كان ألبير سعيداً جدّاً بأن يتبع خطاه. أمسكا معاً من جديد زوايا القماش، وأرجحا كلّ شيءٍ داخل التابوت، هذه المرّة صارت الكتلة أكثر إعتاماً، بالكاد لحظ ذلك حين بادر السائق ووضع الغطاء. ربّما بقيت في الحفرة بعض العظام التي انزلقت في أثناء العمليّة،

لكنْ لا بأس. بكلّ الأحوال، فكّر السائق والنقيب، بالنسبة إلى ما سيفعلونه بتلك الجثّة، كان ذلك كافياً جدّاً. بحث ألبير بنظره عن الآنسة بيريكور. كانت قد صارت في سيّارتها. ما عاشته لتوّها صعب. هل يمكن لومها؟ أخوها قد تقلّص إلى عناقيد من الديدان.

لن يُسمَّر الغطاء هنا، فالضجة عالية. فيما بعد، في طريق العودة؛ أمّا الآن، فقد اكتفى السائق بوضع قطعتي قماشٍ عريضتين حول التابوت لكي يشدّ الغطاء، ويتجنّب أن تنتشر الرائحة كثيراً داخل الشاحنة. سيعودون من الطريق نفسه بالاتّجاه المعاكس. ألبير وحْده في الخلف، والاثنان الآخران في الأمام. خلال ذلك أشعل النقيب سيجارة، وراح يدخّن بهدوء. ألبير كان منهكاً، وتركّز كل شيء في كليتيه.

لكي يرفع التابوت إلى خلفيّة الشاحنة، أمسك السائق به من الأمام مع النقيب، وألبير دائماً في الخلف. كان ذلك مكانه كالعادة. رفعوا وهيّا! ثمّ مرّة ثانية من جديد، دُفِع بعدها الصندوق إلى العمق. صدرت عنه ضجّة قحط على الأرضيّة المعدنيّة، وصوت طنين. وانتهى الأمر. لن نضيّع الوقت.

وراءهم كانت الليموزين تخرخر.

عادت الشابّة نحوه، متلاشية.

- «شكراً يا سيّدي». قالت له.

أراد ألبير أن يقول شيئا. لا وقت. أمسكت بذراعه، بقبضة يده. فتحتها ووضعت فيها أوراقاً نقديّة، أغلقتها داخل قبضتيها. يا لتأثير تلك الحركة عليه! على ألبير. تلك الحركة البسيطة.

كانت قد عادت إلى سيّارتها.

ربط السائق التابوت من الجوانب بحبالٍ كي لا يتأرجح في جميع الجهات، وأشار النقيب براديل إلى ألبير. دلّ بإصبعه على المقبرة. يجب إغلاق القبر سريعاً. إن ظلّت الفتحة مفتوحة فسيكون هناك شرطة وتحقيق، ولا ينقصنا ذلك.

أمسك ألبير برفش، وركض في الممرّ، لكنّ الشك ساوره. عاد.

وجد نفسه وحيداً.

على بعد ثلاثين متراً هناك، من جانب الطريق، سمع صوت محرك الليموزين يبتعد، ثمّ ضجّة الشاحنة التي تنطلق في المنحدر.

نوفمبر 1919

10

كان هنري دولني براديل يجلس على كنبة واسعة من الجلد، وضع بإهمالٍ ساقه اليمنى فوق مسند اليدين، ومدّ ذراعه على طولها، وهو يدير ببطءٍ في الضوء كأساً كبيرةً من الكونياك المعتّق. كان يستمع إلى ما يقوله الآخرون هنا وهناك بعدم اهتمامٍ مدروسٍ، لكي يبدو عليه أنّه «الفهيم». كان مغرماً بتعابير من هذا النوع، عاميّة نوعاً ما. لو كان الأمر يتعلّق به وحْده، لوصل إلى حدّ السوقيّة، ولشعر بمتعةٍ حقيقيّةٍ في التفوّه بكلّ هدوءٍ بأشياء فجّة أمام جماعاتٍ لا توجد لديها إمكانيّة أن تشعر بالانزعاج.

لتحقيق ذلك كان ينقصه خمسة ملايين فرنك.

مع الملايين الخمسة يمكن له أن يسترخي مفلتاً من العقاب.

كان براديل يأتي إلى نادي الجوكي ثلاث مرّات في الأسبوع. ليس لأنّ المكان يعجبه على نحوٍ خاص -كان يجد المستوى مخيّباً للآمال مقارنة مع ما كان يتوقّعه- إنّما لأنّ النادي كان رمزاً لصعوده الاجتماعيّ الذي كان لا يملّ من الاستمتاع به: المرايا، الستائر، السجّاد، القطع المذهّبة، الكبرياء المدروسة للعاملين فيه، والارتفاع المذهل للاشتراك السنويّ، كلّ ذلك يجلب له شعوراً بالرضا يزداد مع تكاثر فرص اللقاءات التي

يمكن أن يجدها فيه. استطاع بصعوبةٍ أن ينتسب إليه قبل شهور أربعة؛ لأنّ مسؤولي نادي الجوكي شعروا بالحذر منه. لكنْ لو كان يجب رفض كلّ الأغنياء الجُدد، مع تلك المذبحة التي جرت في السنوات الأخيرة، لصار النادي ردهة انتظار فارغة. ثمّ إنّ براديل كان لديه بعض المعارف الذين يصعب تجاهلهم، بدءاً من والد زوجته الذي لا يمكن رفض أيّ شيء له، وصولاً إلى صداقته مع فردينان، حفيد الجنرال موريو، حيث كانا معاً ينتميان إلى فئة الشباب الضائع والهابط نوعاً ما، والقادر على تجميع سلسلةٍ من العلاقات. رفض حلقة منها يعني الحرمان من السلسلة كلّها، وهذا مستحيل! قلّة الرجال تجبرك على هذه الأشياء أحياناً... على الأقلّ دولني براديل كان لديه هذا الاسم. صحيح أنّ لديه ذهنيّة قرصان، لكنّ جذوره نبيلة. ولذلك قُبِل. السيّد دو لا روشفوكو، رئيس النادي في تلك الفترة، كان يجد أنّه، في نهاية الأمر، وضمن المشهد العام القائم، ما كان ذلك الشاب الذي يجتاز القاعات بخطواتٍ واسعةٍ مثل هبّة الريح الدائمة على تلك الدرجة من السوء. عنجهيّته تسوّغ القول المأثور: إنّ لدى كل منتصر بعض البشاعة. كان فيه بالمجمل بعض السوقيّة، لكنّه كان بطلاً. الأبطال مثل النساء الجميلات، لا بدّ من وجود بعضهم في مجتمع الأكابر. وفي زمانٍ يصعب فيه أن تجد رجالاً من عمره لا ينقصهم على الأقل يد، أو ساق، إن لم يكن الاثنان معاً، فإنّ هذا الرجُل كان تحفة.

ما كان لدى براديل حتّى تلك اللّحظة سبب ليشكو من تلك الحرب الكبرى. فبمجرّد أن سُرّح من الخدمة انطلق في مجال تجميع وإعادة بيع المخلّفات العسكريّة. مئات الآليّات الفرنسيّة، أو الأميركيّة، دراجات نارية وشاحنات نقل. آلاف الأطنان من الخشب، والقماش، والقطع البلاستيكيّة، والأدوات، والمعادن، وقطع الغيار التي لم تعد الدولة

تستعملها، ومن الضروري الخلاص منها. كان براديل يشتري أكداساً كاملة منها، ويعيد بيعها لشركات السكك الحديديّة، وجمعيّات النقل والمشاريع الزراعيّة. هامش الربح كان واسعاً لأنّ حراسة مناطق التخزين كانت مُخترقة، وعرْضَة لجميع أنواع الرشوة، وغير ذلك من أشكال البراطيل والبقشيش. وكان يمكن داخل الموقع أن تأخذ ثلاث شاحنات على أنّها شاحنة واحدة، وخمسة أطنان على أنّها اثنان فقط. مكتبة سُر مَن قرأ

حماية الجنرال موريو من جهة، ومركزه كبطلٍ وطنيٍّ من الجهة الأُخرى، فتحا أمام دولني براديل أبواباً كثيرة. ودوره في الاتّحاد الوطني للمقاتلين -الذي أثبت فائدته حين ساعد الحكومة في إبطال الإضرابات العماليّة الأخيرة- قدّم له أنواعاً إضافيّة من الدعم. بفضل ذلك، استطاع أن يربح عدّة صفقات لتصفية القطع المتبقّية، حيث كان يشتري حصصاً كاملة مقابل عدّة عشرات الآلاف من الفرنكات التي يستدينها، وبعد أن يعيد البيع تصبح مئات آلاف الفرنكات من الأرباح.

- مرحباً يا صديقي!

ليون جاردان-بوليو رجُل مُعتبر، لكنّه ولد قصيراً. أقصر بعشرة سنتمترات من جميع الناس، كان ذلك قليلاً وكثيراً في الوقت نفسه. بالنسبة إليه كان الأمر مرعباً، ولذلك كان يستجدي الاعتراف به.

- «أهلاً يا هنري». أجاب، وهو يشدّ أكتافه بعض الشيء ظنّاً منه أنّ ذلك يجعله أطول.

بالنسبة إلى جاردان بوليو، حقّه في أن ينادي أولني براديل باسمه الأوّل، فيه نوع من اللذّة يمكن أن يبيع أباه وأمّه لتحقيقها، وهو ما قام به بالفعل. كان يقلّد لهجة الآخرين لكي يعتقد الناس أنّه مثل الآخرين، وهذا

ما فكّر هنري به، وهو يمدّ يداً مرخيّة، شبه مهملة، ثمّ سأله بصوتٍ خفيضٍ ومتشنج: «وبعد؟».

- «لا شيء جديد». أجاب جاردان بوليو: «لم يرشح أيّ شيء».

رفع براديل حاجبه منزعجاً. كان بارعاً في الرسائل الحركيّة التي يوجّهها إلى العاملين لديه.

- «أعرف». قال جاردان بوليو معتذراً: «أعرف...».

براديل كان نافد الصبر إلى درجة مرعبة.

قبل عدّة أشهر كانت الدولة قد قرّرت أن توكل إلى شركات خاصّة مهمّة إخراج رفات الجنود المدفونين في الجبهة. يقوم المشروع على جمع هذه الرفات في مقابر عسكريّة واسعة، وقد نصّ القرار الوزاري على «تشكيل أقلّ عددٍ ممكنٍ من أكبر ما يمكن من المقابر». ذلك أنّها كانت في كلّ مكان، جثث الجنود. في مقابر مرتجلة على بُعد عدّة كيلومترات، وأحياناً عدّة مئات من الأمتار فقط عن خطّ الجبهة، وعلى أراضٍ يتوجّب إعادة زراعتها الآن. سنوات مضت على بداية الحرب، والعائلات تطالب السُّلطات بأن تتيح لها زيارة قبور أبنائها. تجميع الرفات لا يستبعد فكرة إعادة جثث الجنود في يومٍ من الأيّام إلى العائلات التي ترغب بذلك، لكنّ الحكومة كانت تأمل التوصل إلى تهدئة العائلات بفضل تلك المدافن الواسعة التي سيرقد فيها الأبطال «إلى جانب رفاقهم الذين ماتوا في المعركة». وسيجنّب ذلك إرهاق ميزانيّة الدولة بمصاريف جديدة تنجم عن النقل على نحوٍ فرديّ، هذا إن لم نذكر الجانب الصحيّ من الأمر. كلّ ذلك كان مسألةً صعبة تكلّف أموالاً طائلةً، في وقتٍ كانت فيه صناديق الدولة فارغةً بانتظار أن تدفع ألمانيا الديون المترتّبة عليها.

هذا المشروع الواسع بطابعه الأخلاقيّ والوطنيّ، والمتعلّق بتجميع الجثامين، استدعى سلسلةً كاملةً من العمليّات ذات الطابع الربحيّ الكبير، ومئات آلاف التوابيت التي يجب تصنيعها لأنّ معظم الجنود دُفنوا في الأرض مباشرةً بدون توابيت، وفي بعض الأحيان تم لفّهم بستراتهم العسكريّة فقط. جرتْ مئات آلاف عمليّات نبش القبور بالمعاول (القرار كان ينصّ بوضوح على أنّه يجب استخدام المعاول بكثيرٍ من الحيطة)؛ كما جرتْ بالقدْر نفسه عمليّات نقلٍ بالشاحنات للبقايا التي وُضعت في نعوشٍ لتؤخذ إلى محطّات الانطلاق، وكذلك العدد نفسه من عمليّات إعادة الدفن في مقابر جماعيّة مخصّصة لهذا الغرض.

إن استطاع براديل أن يكسب حصّته من هذه الصفقة، فإنّ رجاله الصينيّين سيقومون بنبش قبور آلاف الجثث مقابل عدّة سنتيمات فقط عن كلّ جثّة. وستقوم آليّاته بنقل آلاف الجثث المتحلّلة، وبعدها يكون على رجاله السنغاليّين أن يدفنوا الجميع في قبورٍ مصفوفةٍ على نحوٍ منتظمٍ مع صليبٍ جميلٍ يُباع بسعرٍ مرتفع. وسيساعده ذلك في أقلّ من ثلاث سنوات على إعادة بناء كامل ملكيّته العائليّة في سالوفيير، والتي كانت هوّة تبتلع النقود.

بثمانين فرنكاً عن الجثّة الواحدة التي لا تتجاوز كلفتها الحقيقيّة خمساً وعشرين، يأمل براديل بتحقيق أرباح صافية تبلغ مليونين ونصف.

وفي حال أعلنت الوزارة فوق ذلك عن بعض الطلبيّات بالاتّفاق المباشر، وبعد حسم مبالغ الرشّوة، يمكن أن نصل إلى خمسة ملايين.

صفقة القرن! بالنسبة إلى التجارة، كانت الحرب تحمل مزايا كثيرة حتّى بعد انتهائها.

بفضل المعلومات التي يقدّمها له جاردان بوليو الذي كان أبوه نائباً في البرلمان، استطاع براديل أن يستبق الأمور. فمنذ أن سُرّح الجنود، أسّسَ شركة براديل وشركاه. جاردان بوليو وحفيد موريو أسْهما كلّ على حِدة بخمسين ألف فرنك، إضافةً إلى علاقاتهما العامّة الثمينة؛ أمّا براديل، فقد دفع أربعمئة ألفٍ وحْده ليكون الزعيم، ولينال ثمانين بالمئة من الأرباح.

لجنة مناقصات المشتريات العامّة كانت مُجتمعة في ذلك اليوم بعد اعتكافٍ دام أربع عشرة ساعة. بفضل تدخّله، وبفضل مئة وخمسين ألف فرنك «من تحت الطاولة»، حسم براديل الأمر لصالحه: كان في اللجنة ثلاثة أعضاء، من بينهم اثنان مخلصان له؛ وعليهم أن يحسموا الأمر حول المواقف المختلفة، وأن يقرّروا -بكلّ موضوعيّة، وبدون تحيّز- أنّ شركة براديل وشركائه تقدّم العرض الأفضل، وأنّ عيّنة التوابيت التي قدّمتها ووضعتها في مخزن قسم الرفات هي أكثر التوابيت احتراماً لكرامة الفرنسيّين الذين ماتوا من أجل الوطن، وتوافقاً مع الإمكانات الماليّة للدولة. بناءً عليه، سيجد براديل نفسه مكلّفاً بعدّة طلبيّات، عددها قريب من عشر إن سارت الأمور على ما يرام، وربّما أكثر.

- وفي الوزارة؟

ازدهرت ابتسامة واسعة على وجه جاردان بوليو الضيّق. كان جوابه حاضراً:

- المسألة محسومة لنا.

- «أجلْ، أعرف». قال براديل، وقد نفد صبره: «السؤال هو: متى؟».

لم يكن قلقه يتعلّق بمباحثات لجنة المناقصات فقط، فقد كان يُسمح لقسم النفوس والإرث والرفات العسكريّة الذي يرتبط بوزارة المعاشات

في حالة الضرورة الملحّة، أو حين يرى ذلك ضروريّاً، أن يمنح العقود بالتراضي وبدون الالتزام بإعلان مناقصة؛ يعني ذلك أنّ هناك حالة احتكار حقيقيّة يمكن أن تُتاح لبراديل وشركائه الذين سيتسنّى لهم تقريباً تحرير فواتير على هواهم طالما لا تتجاوز مئة وثلاثين فرنكاً على الجثّة.

كان براديل يدّعي عدم الاهتمام، على شاكلة أصحاب العقول الكبيرة في الظروف الأكثر توتّراً، لكنّه كان في الواقع على درجة جنونية من العصبيّة. ومع الأسف، ما كان لدى جاردان بوليو جواب بعد؛ ولذلك انهارت ابتسامته.

- لا أحد يعرف...

كان شاحب الوجه. أشاح براديل ببصره. كان ذلك يعني أنّه يطرده. استدار جاردان بوليو ليغادر راسماً على وجهه سمات من رأى مصادفةً أحد أعضاء نادي الجوكي، وسارع على نحوٍ مثيرٍ للشفقة إلى الجانب الآخر من الصالون الواسع. رآه براديل، وهو يبتعد. كان لحذائه كعب قصير. مع الأسف، لولا معاناته من عقدة قصر قامته التي تجعله يفقد كلّ برودة أعصابه، لكان ذكيّاً. لم تكن تلك الميّزة هي التي جعلت براديل يوظّفه في مشروعه، فقد كان لجاردان بوليو ميّزتان لاتقدّران بثمن: لديه والد نائب، وخطيبة معدمة (لولا ذلك من هي التي تقبل بمثل هذا القزم!)، لكنّها كانت رائعة. فتاة شديدة السمرة مع فمٍ جميل. وكان من المقرّر أن يتزوّجها جاردان بوليو بعد عدّة شهور. عندما قدّمها لبراديل، شعر في داخله أنّ هذه الفتاة تتألّم بصمتٍ من هذا الارتباط المربح الذي يُغفل أهميّة جمالها. فقد بدت، وهي تنتقل في صالون جاردان بوليو، من نوع النساء اللواتي يحتجْن إلى شيءٍ إضافي. كانت لبراديل نظرة لا تخطئ فيما

يتعلّق بالنساء، وكذلك فيما يتعلّق بالأحصنة حسب قوله. كان بمقدوره أن يراهن أنّها - فيما لو عرف كيف يلعب- لن تنتظر حتّى إتمام مراسم الزواج.

عاد براديل إلى تأمّل كأس الكحول المقطّر، وهو يفكّر للمرّة الألف بالاستراتيجيّة التي عليه اتّخاذها.

لصنع كلّ هذا العدد من التوابيت، يحتاج إلى أن يعهد بدوره بالعمل إلى عدّة شركات متخصّصة، وهو ما كان ممنوعاً على نحوٍ صارم في العقد مع الدولة. لكنْ لو جرى كلّ شيء بشكله الطبيعي، فلن يذهب أحد لتفحّص الأمر عن قرب؛ لأنّ الجميع لديهم مصلحة في أن يغمضوا عيونهم عمّا جرى. المهم حقاً -وكانت الأغلبيّة المطلقة مع هذا الرأي- هو أن تحصل البلاد في مهلةٍ معقولةٍ على مقابر جميلة قليلة العدد لكنّها كبيرة جدّاً، ما يسمح للجميع أن ينتهوا من هذه الحرب ويصنّفوها ضمن الذكريات السيّئة.

وسيصير عندها لبراديل الحقّ في أن يمدّ كأس الكونياك، وأن يتجشّأ وسط صالون نادي الجوكي بدون أن يعترض على ذلك أحد.

كان مستغرقاً في أفكاره، فلم يلحظ دخول والد زوجته. نوعيّة الصمت الذي ساد هو الذي جعله يشعر بأنّه قد اقترف خطأً. صمتٌ مفاجِئٌ ومكتومٌ، صمتٌ يهتز، كما يحصل عند دخول الكاردينال إلى الكاتدرائيّة. عندما فهم ذلك كان قد قُضي الأمر. بقاؤه في هذه الوضعيّة غير المبالية في حضرة الرجُل المسنّ يمثّل افتقاراً إلى الاحترام لا يمكن أن يُغفر له. وتغيير وضعيّته على نحوٍ سريع يعني الاعتراف بتبعيّته أمام الجميع. كان عليه الاختيار بين حلّين سيّئين، لكنّ براديل فضّل الانزعاج على الاستفزاز؛

لأنّ الانزعاج بدا له أقلّ تكلفة. انتقل نحو الخلف، بقدر ما يمكن من عدم المبالاة، وهو يمسح عن كتفه غباراً غير مرئي. انزلقت قدمه اليمنى حتى الأرض. اعتدل في كنبته لكي يبدو بوضعيّةٍ مقبولة، وسجّل في ذهنه هذه المناسبة ضمن قائمة ما يجب عليه أن ينتقم منه فيما بعد.

كان السيّد بيريكور قد دخل إلى القاعة بخطواتٍ بطيئةٍ وئيدة. تصرّف كأنّه لم يلحظ أيّ شيءٍ من مناورة صهره، وصنّف هذه المناسبة ضمن الديون التي سيطالب بسدادها فيما بعد. مرّ من بين الطاولات، وهو يمدّ إلى هنا وهناك يداً رخوةً مثل حاكمٍ لطيفٍ، وراحت تفلت من بين شفتيه أسماء الحاضرين بنبلٍ يشبه ما يقوم به دوق. مرحباً يا صديقي العزيز بالانجيه، آه، فرابييه، أنت هنا، مساء الخير غودار... وكان يغامر أيضاً برسم بعض أمارات المزاح التي تتوافق كميّتها مع وضعه. لكن... ها هو بالاميد دو شافيني إن لم أكن مخطئاً! عندما وصل عند هنري، اكتفى بإسبال جفونه بهيئة من يفهم. أبو الهول بعينه. ثمّ تابع اجتياز الردهة وصولاً إلى المدفأة التي مدّ إليها يديه المتباعدتين برضا مبالغ به.

عندما التفت، رأى صهره من الخلف. كانت تلك الوضعيّة استراتيجيّة على نحوٍ مقصود. من المزعج حتماً أن تشعر بنفسك مراقباً من الخلف. منظرهما، وهما يناوران بعضهما، يجعلك تعلم أنّ لعبة الشطرنج التي يلعبها الرجُلان قد بدأت لتوّها، ويبدو أنّها تحضّر مفاجآت كثيرة.

كان البُغض بينهما عفويّاً وهادئاً، بل ورائقاً أيضاً. وعدٌ بكراهيةٍ على المدى البعيد. استشفّ بيريكور مباشرةً لدى براديل طبعه كوغد، لكنّه لم يستطع مقاومة حماس مادلين. لا يوجد ما يكفي من الكلمات لوصف ذلك، لكن كان يكفي النظر إليهما معاً لبرهة ليظهر بوضوح أنّ هنري كان

يجعلها تصل إلى المتعة، وأنّها لن تكتفي بذلك، وأنّها تريد هذا الرجُل؛ تريده على نحوٍ مرعب.

كان السيّد بيريكور يحبّ ابنته، بطريقته طبعاً، التي لم تكن تظهر المشاعر قطّ. وكان ليسعده أن يراها سعيدةً لو لم تكن قد راودتها تلك الفكرة الغبيّة بأن تُغرم بالمدعوّ هنري دولني براديل. كانت مادلين بيريكور فائقة الغنى، وكثيراً ما وقعت فريسة الطمع. ومع أنّها كانت مقبولة فقط، فقد تملّقها كثيرون. لم تكن غبيّة، كانت ذكية وواقعية، مثل والدتها الراحلة. قويّة الشخصية، وليست من النوع المندفع الذي يخضع للإغراءات. قبل الحرب استطاعت من بعيد أن تنزع أقنعة جميع الطامحين الذين كانوا يجدونها عاديّة حين النظر إليها من الأمام، وجميلة جدّاً حين النظر إليها من زاوية الدوطة[1]. كانت لديها طريقة فعّالة وخفيّة في آنٍ لرفضهم. حصولها على عدّة عروض زواج أعطاها ثقةً كبيرةً بنفسها، أكثر ممّا يجب؛ لأنّها كانت في الخامسة والعشرين من عمرها عند إعلان الحرب، وفي الثلاثين عندما انتهت بموت أخيها الصغير، أيّ حزنٍ مرعب! وما بينهما بدأت تهرم، وربّما أنّ هذا يفسّر ذاك. التقت بهنري دولني براديل في شهر مارس وتزوّجته في شهر يونيو.

الرجال ما كانوا قادرين على رؤية السحر الشديد الذي يتمتّع به هنري هذا بحيث يبرر كلّ هذا الاستعجال. هو لم يكن سيّئاً، ولنعترف بذلك، لكنْ في النهاية... هكذا كان موقف الرجال؛ أمّا النساء، فاستطعن فهم السبب مباشرة: انظروا إلى هذه الهيئة؛ هذا الشعر المتموّج، هذه العيون

---

(1) الدوطة هي: المهر (عقارات، أو أراضٍ، أو أموال) الذي يمنحه الوالدان للابنة عند زواجها. وكلّما كانت المرأة من عائلة غنيّة كثر الراغبون بها لهذا السبب. (المترجمة).

الفاتحة، هذه الأكتاف العريضة، وهذه البشرة... يا إلهي! وكنّ يدركن لماذا لدى مادلين بيريكور الرغبة في أن تتذوّق ذلك، ولماذا عادت بعدها مسحورة.

لم يصرّ السيّد بيريكور. المعركة خاسرة قبل أن تبدأ. اكتفى بكلّ حذر بفرض حدودٍ. يدعى ذلك لدى البرجوازيّين بعقد الزواج[1]. لم تجد مادلين ما تقوله إزاء ذلك؛ أمّا الصهر الجميل بالمقابل، فقد تجهّم عندما اكتشف المشروع الذي وضعه كاتب عدل العائلة. نظر الرجُلان إلى بعضهما بدون لفظ أيّة كلمة، وكان ذلك تصرّفاً حكيماً: ظلّت مادلين المالكة الوحيدة لأرصدتها، لكنّها صارت شريكةً في ملكيّة كلّ ما يمكن الحصول عليه بعد الزواج. تفهّمت التحفّظ الممزوج بالشكّ لدى والدها تجاه هنري، والذي كان هذا العقد يشكّل الإثبات الملموس له. فمن لديه مثل هذه الثروة، يصبح الحذر طبيعةً ثانيةً له. شرحت لزوجها، وهي تبتسم، أنّ ذلك لا يغيّر شيئاً؛ أمّا براديل، فكان من جهته يعرف أنّ ذلك يغيّر كلّ شيء.

في البداية شعر بأنّه مشوّشٌ، ولم يُكافأ كما يجب على جهوده. في حياة كثير من أصدقائه، حلّ الزواج جميع المشكلات. في بعض الأحيان ما كان ذلك سهلاً، وكان لا بدّ من المناورة بحذر، فإنْ وصلتَ تجد الكنز، وبعدها تستطيع فعل ما تريد؛ أمّا بالنسبة إلى هنري، فلم يغيّر الزواج شيئاً من حياته. من جهة المستوى، لا يستطيع أن يشتكي، فالمستوى ملكيّ، وقد استفاد منه. كان هنري فقيراً يعيش حياة بذخ بلا حدود (قام باقتطاع ما يقارب مئة ألف فرنك من رصيده الشخصيّ واستثمرها مباشرة لتجديد

(1) عقد الزواج في فرنسا مختلف عن صكّ الزواج، وهو يحدّد الملكيّات الخاصّة، والملكيّات المشتركة للزوجين، وواجباتهما الماليّة، ويتم أمام كاتب العدل. (المترجمة).

أملاك العائلة، لكن كانت هناك أشياء أخرى كثيرة يجب القيام بها، وكل شيء ينهار حوله، مثل هاوية).

لم ينل هنري الثروة التي كان يريدها. مع ذلك فإنّ ضربته لم تخب؛ أوّلاً: لأنّ ذلك الزواج وضع نقطة النهاية لتلك القصّة القديمة عن النقطة 113 التي أزعجته بعض الشيء، وحتّى لو انبثقت فجأة (يحصل ذلك في بعض الأحيان مع قضايا قديمة يظنّ الإنسان أنّها منسيّة)، فإنّ ذلك ما عاد يشكّل خطراً لأنّه صار في الوقت الحاضر غنيّاً، حتّى لو كان ذلك بالنيابة، ومرتبطاً بعائلةٍ ذات سُلطةٍ وتميّز. الزواج من مادلين بيريكور جعله في منأى عن الخطر.

ثمّ إنّه وصل إلى ربحٍ ضخمٍ هو معارف العائلة (أصبح صهر مارسيل بيريكور المقرّب من مسيو ديشانيل صديق مسيو بوانكاريه ومسيو دوديه[1] وغيرهم كثر)؛ وكان شديد الرضا من الأصداء الأولى حول استثماره هذا. فخلال بضعة أشهر سيتسنّى له أن ينظر إلى والد زوجته المقبل في وجهه بدون مواربة؛ فهو يعتلي ابنته، ويمتصّ دماء علاقاته، وخلال ثلاث سنوات، إن سارت الأمور على ما يُرام، فإنّه سيضطجع بتراخ أكبر في نادي الجوكي عندما يدخل ذلك العجوز إلى غرفة التدخين.

كان مسيو بيريكور يتسقّط أخبار الطريقة التي يغتني بها صهره. ما من شكّ في أنّ هذا الصبيّ قد كشف عن سرعةٍ وفعاليّة؛ فقد كان على رأس شركات ثلاث، وحقّق حتى اللّحظة ما يقارب مليون فرنك من الأرباح الصافية خلال عدّة أشهر. على هذا المستوى كان رجُلاً يتماشى تماماً مع

---

(1) بول دوشانيل وريمون بوناكاريه شغلا منصب رئاسة الجمهوريّة الفرنسيّة، وألفونس دوديه كان كاتباً فرنسيّاً شهيراً؛ هذه الأسماء تدل على أهميّة معارف بيريكور. (المترجمة).

عصره. لكنّ مسيو بيريكور كان يحذر غريزيّاً من هذا النجاح الذي يجده أسرع من اللازم، ومشكوكاً بأمره.

تجمّع عدّة رجال حول الرجُل المهمّ هُم زبائنه؛ لكلّ غنيٍّ حاشية تحيط به.

كان هنري ينظر إلى والد زوجته، وهو يعمل. يأخذ دروساً منه، وهو مُعجب. لا شكّ في أنّ السلطعون العجوز يعرف كيف يتصرّف. أيّة ثقة بالنفس! يوزّع بكرمٍ انتقائيٍّ الملحوظات، والصلاحيّات، والتوصيات. تعلّم الذين يحيطون به تفسير نصائحه على أنّها أوامر، وتحفّظاته على أنّها موانع. كان من ذلك النوع من الناس الذين لا يمكن لأحد أن يستاء منه إذا ما رفض شيئاً؛ لأنّه قادرٌ على أن يسحب أيضاً ما تبقّى لديه.

في تلك اللحظة دخل لابوردان أخيراً إلى غرفة التدخين، وهو يتعرّق، ممسكاً منديله الواسع بيده. كبح هنري تنهيدة راحة، أفرغ كأس الكونياك بجرعةٍ واحدة. وقف. أمسك به من كتفيه وسحبه إلى الصالة المجاورة. كان لابوردان يخبّ إلى جانب براديل كأنّه يغزل الصوف بفخذيه السمينين والقصيرين، كما لو أنّه لم يكن قد تعرّق بما فيه الكفاية...

كان لابوردان شخصاً أبله، زادت قيمته بفضل غبائه. يتجلّى ذلك على شكل عنادٍ استثنائي. لا جدل في أنّ تلك فضيلة في مجال السياسة، خاصّةً أنّ غباءه يعود إلى عدم قدرته على تغيير رأيه، وإلى افتقاده التام للمخيّلة. من المعروف أنّ ذلك الغباء أمرٌ عملي. كان لابوردان وضيعاً في جميع الأمور، ومدعاةً للسخرية في معظم الأوقات، وهو من النوع الذي يمكن أن تضعه في أي مكان فيثبت أنّه مخلصٌ مثل دابّة التحميل والجرّ. يمكن أن تطلب منه أيّ شيء عدا أن يكون ذكيّاً، وتلك ميّزة كبيرة. كان يعكس كل

شيء في وجهه: بساطته، ميله إلى الطعام، جبنه، تفاهته، وعلى الأخص، على الأخصّ، شهوانيّته القويّة. كان لا يستطيع كبح رغبته في قول كلمات بذيئة، ولذلك يسلّط على جميع النساء نظرات اشتهاء، وعلى الأخصّ على الخادمات اللواتي كان يتلمّس مؤخّراتهنّ بمجرّد أن تستدرن. كان في السابق يزور الماخور ثلاث مرّات في الأسبوع. أقول: «في السابق» لأنّ شهرته التي اتّسعت بالتدريج حتّى تجاوزت دائرة المدينة التي كان رئيس بلديّتها، جعلت عدداً كبيراً من صاحبات الالتماس يتدافعن لتقديم الطلبات في فترة مناوبته التي ضاعف أيّامها. وكان دائماً يجد لنفسه واحدةً، أو اثنتين مستعدّات لتجنيبه عناء الانتقال إلى الماخور مقابل حصولهنّ على رخصةٍ، أو نقل ملكيّةٍ، أو توقيعٍ، أو ختم. كان سعيداً، لابوردان هذا. ويبدو ذلك عليه مباشرة. بطن ممتلئ، وخصيتان ممتلئتان، ومستعدٌّ دائماً لأن يتشاجر مع الطاولة التالية من أجل الأرداف المقبلة. كان يدين بانتخابه إلى حفنةٍ من الناس المهمّين الذين يترأسهم ويهيمن عليهم مسيو بيريكور.

في يوم من الأيّام أخبره براديل:

- سوف تُعيَّن في لجنة مناقصة المشتريات العامّة.

كان لابوردان مغرماً بأن يكون جزءاً من لجان، من هيئات، من وفود. كان يرى في ذلك دلالة على أهميّته. لم يشكّ بأنّ هذا التعيين الجديد أتى من مسيو بيريكور نفسه نظراً إلى كونه قد فُرض من قِبل صهره. سجّل بكثيرٍ من العناية، وبحروفٍ كبيرةٍ، التعليمات الدقيقة التي كان عليه أن يتبعها. وبعد أن أعطاه براديل جميع أوامره، دلّه على الورقة التي بين يديه.

- «الآن سوف تخفي لي هذه». قال له : «من المؤكد أنك لا ترغب بأن تُعرض هذه الورقة في واجهة مخزن أو بون مارشيه!».

بالنسبة إلى لابوردان، كانت تلك بداية كابوس. أرعبته فكرة أن يخفق في مهمّته، ولذلك أمضى لياليه وهو يحاول أن يتذكر التعليمات كلها، الواحدة تلو الأُخرى. لكنْ كلّما كرّر التعليمات، اختلطت الأمور عليه. هذا التعيين في اللجنة تحوّل إلى عذاب رهيب، واللجنة نفسها صارت مصدر رعبه الدائم.

في ذلك اليوم، كان قد أنفق خلال هذا الاجتماع طاقة أكثر من تلك التي لديه، فقد كان عليه أن يفكّر ويقول أشياء، ولذلك خرج منها مرهقاً. مرهقٌ لكنّه سعيدٌ؛ لأنّه عاد منها برضى من قام بواجبه على أكمل وجه. في سيارة الأجرة، اجترّ عدّة جُمل كانت حسب رأيه «صادرة عن شعورٍ جيّد»، ومن بينها الجملة التي كانت المفضّلة لديه: «يا صديقي العزيز، بكلّ تواضع، أظنّ أنّني أستطيع أن أقول...».

- «كومبيين، ما العدد؟». قاطعه براديل مباشرة.

بالكاد أغلق باب الصالة حتّى راح هذا الشابّ الطويل صاحب النظرة الثابتة يحدّق فيه، ويخترقه بدون أن يتركه يتحدّث. كان لابوردان قد تصوّر كل شيء عدا هذا؛ أي: إنّه لم يكن قد فكّر بأيّ شيء، كالعادة.

- أوه، يعني...

- «كم العدد؟». صرخ براديل بصوتٍ مزمجر. لم يعد لابوردان يعرف شيئاً. أفلت منديله، فتّش بسرعة في جيوبه، وجد أوراقه المثنية إلى أربعة، والتي سجّل عليها نتائج المباحثات.

- «كومبيينيه...». تلعثم قائلاً: «كومبيينيه. لنرى».

لا شيء يجري أبداً بالسرعة الكافية بالنسبة إلى براديل الذي انتزع الورقة من يده، وابتعد عدّة خطوات وعينه تبحث عن الأرقام. ثمانية عشر

ألف تابوت لكومبيينيه، خمسة آلاف لمقاطعة لاون، أكثر من ستّة آلاف لساحة كولمار، ثمانية آلاف لمقاطعة نانسي ولونيفيل... بقي أن تصل حصص أخرى لفردان، وأميانس، وايبينال، ورانس... النتائج تتجاوز ما كان ينتظره. لم يستطع براديل أن يكبح ابتسامة رضا لحظها لابوردان.

- «سنجتمع من جديد غداً صباحاً». أضاف رئيس بلدية دائرة المدينة: «ويوم السبت».

قدّر وقتها أنّ لحظة قول جملته قد جاءت أخيراً.

- كما ترى يا صديقي العزيز....

لكنّ الباب فُتح على مصراعيه. هناك من نادى «هنري!». صدرت ضجّة من الجنب، وحصل هيجان.

تقدّم براديل.

بالقرب من المدفأة، في الجانب الآخر من الردهة، كانت هناك مجموعة كاملة تتحرّك باضطّراب، ما زال هناك من يركض في جميع الاتّجاهات، من صالة البلياردو، ومن غرفة التدخين...

سمع براديل شهقات. مشى بضع خطوات، وقد عقد حاجبيه، كان فضوليّاً أكثر من كونه قلقاً.

كان والد زوجته جالساً على الأرض، وظهره مسنودٌ إلى دعامة المدفأة، وساقاه ممتدّتان أمامه، وعيناه مغلقتان. كان وجهه جامداً ويده اليمنى متشنّجة على سترته عند الصدر كما لو كان يريد أن ينتزع أحد أعضائه، أو أن يمسك به. «أحضروا أملاحاً!». صرخ صوت ما. «افتحوا النوافذ!». قال آخر. أسرع مدير المكان، طلب من الجميع أن يبتعدوا.

من المكتبة وصل الطبيب بخطواتٍ واسعة. ماذا حصل؟ الهدوء الذي

بدا عليه كان له تأثيره على الموجودين. أفسحوا له الطريق ورقابهم ممدودة ليروا على نحوٍ أفضل. قال بلانش، وهو يقيس النبض:

- هيه يا بيريكور، ما الذي حدث معنا؟

ثمّ استدار على نحوٍ خفيٍّ نحو براديل:

- اطلب سيّارة فوراً يا صديقي. الأمر جديّ.

سارع براديل للخروج.

- يا إلهي، ما هذا اليوم!

في اليوم الذي كان سيصبح فيه مليونيراً يكاد والد زوجته أن يلفظ أنفاسه.

أيّ حظ! بالكاد يمكن تصديق ذلك.

11

كان دماغ ألبير فارغاً تماماً، ومن المستحيل عليه أن يركّب فكرتين مع بعضهما، وأن يتخيّل كيف يمكن أن تجري الأمور. حاول أن يرتّب انطباعاته، لكنْ بدون جدوى. كلّ ما كان يفعله في أثناء سيره بخطواتٍ واسعةٍ هو مداعبة نصل السكّين الموجود في جيبه آليّاً. يمكن للوقت أن يمرّ، يمكن لمحطّات المترو أن تتلاحق، وكذلك الشوارع بدون أيّة فكرةٍ بنّاءة. هو نفسه ما كان يصدّق ما يقوم به، لكنّه مع ذلك يقوم به. كان مستعدّاً لكل شيء.

قصّة المورفين هذه... أمرٌ عويصٌ منذ البداية، لكنّ إدوار لم يعد يستطيع الاستغناء عنه. نجح ألبير حتّى تلك اللّحظة في تلبية حاجاته، لكنّه في هذه المرّة قشط كلّ زوايا الدروج. عبثاً فعل؛ إذْ لم يعد لديه ما يكفي من المال، لذلك، بعد أيّامٍ لا نهاية لها من الألم، عندما راح صديقه يتوسّل إليه أن يقضي عليه لكثرة ما كانت آلامه غير محتملة، توقّف ألبير المنهك عن التفكير هو الآخر: التقط سكّين مطبخ، أوّل سكّين وقعت تحت يده. نزل مثل إنسانٍ آليّ. ركب المترو حتّى محطّة الباستيل. غاص في الحيّ اليونانيّ من جهة شارع سودين. عليه أن يجد المورفين لإدوار، وهو مستعدٌّ لأن يقتل في سبيل ذلك إن لزم الأمر.

عاد دماغه إلى التفكير عندما اكتشف وجود اليوناني. رجُلٌ في الثلاثينيّات من عمره، جلده سميك، يمشي مباعداً جدّاً بين ساقيه، ينفخ في كلّ خطوة، ويتعرّق على الرغم من برودة شهر نوفمبر. نظر ألبير، وهو يكاد يجنّ، إلى بطنه الضخم، وثدييه الكبيرين الثقيلين اللذين كانا يتأرجحان تحت كنزة الصوف التي يرتديها، وإلى عنقه الذي يشبه عنق البقر، ووجنتيه المتهدّلتين. فكّر بأنّ سكينه لن تفيده بشيء؛ إذْ كان يلزمه نصل طوله على الأقلّ خمسة عشر سنتمتراً، أو ربّما عشرون. الوضع ليس ممتازاً الآن. وعدم وجود العتاد اللازم خفّض معنويّاته إلى الصفر. «هكذا الأمر دائماً» كما تقول أمه: «لا يمكن أن تنظّم نفسك! يا إلهي كم أنت قادر على عدم توقّع الأمور يا ابني المسكين...!». ثمّ كانت ترفع عينيها إلى السقف كأنّها تشهّد الربّ على ما تقول. أمام زوجها الجديد (هي مجرّد طريقة في الكلام، فهما ما كانا متزوّجين، لكنّ مدام مايار تجعل كلّ شيءٍ يبدو عاديّاً)، كانت تزيد الشكوى من ابنها؛ أمّا زوج الأم، وهو رئيس قسمٍ في مخزن الساماريتين، فكان يكتفي بتفحّص ربطات حذائه، لكنّ ذلك ما كان يخفّف من المناكدة. حتّى لو وجد ألبير القوّة ليدافع عن نفسه أمامهما، ما كان يستطيع ذلك؛ لأنّه يعطيهما في كلّ يومٍ مثالاً جديداً عمّا يجعلهما على حق.

كل شيء يبدو كأنّه يتآمر ضدّه. كانت تلك بالفعل فترةً عصيبة.

تحدّد الموعد بجانب المراحيض عند زاوية شارع سان سابان. لم تكن لدى ألبير أدنى فكرة عن الطريقة التي ستجري بها الأمور. كان قد اتّصل هاتفيّاً باليوناني من داخل مقهى من قِبل شخصٍ يعرف شخصاً.. لم يطرح اليوناني عليه أيّ سؤال، نظراً إلى أنّه لم يكن يتكلم عشرين كلمة فرنسيّة، أنطونابولوس هذا.

كل الناس ينادونه بولوس.. حتّى هو.

وبالفعل قال عندما وصل: «بولوس».

بالنسبة إلى رجُلٍ بتلك الضخامة الاستثنائيّة، يتحرّك بولوس بسرعةٍ تثير الدهشة، بخطواتٍ قصيرةٍ متلاحقةٍ، بل وسريعة. السكين قصيرة جدّاً، وهذا الشخص يتكلم كثيراً... كلّ ذلك جعل مخطّط ألبير فعليّاً بلا معنى. فبعد أن ألقى نظرةً حوله، أمسك به اليوناني من ذراعه وجرّه إلى المراحيض. المياه لم تجر في المكان من وقتٍ طويلٍ، ومن غير الممكن التنفّس هناك. لم يبدُ أنّ ذلك يزعج بولوس على الإطلاق. هذا المكان المقزّز كان بمنزلة غرفة انتظارٍ بالنسبة إليه؛ أمّا بالنسبة إلى ألبير الذي كان يخشى جميع الأماكن الضيّقة، فقد كان العذاب مزدوجاً.

- «نقود؟». سأله اليوناني.

كان يريد أن يرى الأوراق الماليّة، وأشار بنظره إلى جيب ألبير بدون أن يعرف أنّ هذا الجيب يحتوي على سكّين بدا حجمها مضحكاً أكثر الآن، وقد التصق الرجُلان ببعضهما داخل حجرة التبوّل تلك. استدار ألبير قليلاً إلى الجانب لكي يُظهر جيبه الثاني، وترك عدّة أوراق ماليّة من فئة عشرين فرنكاً تظهر داخله. أجاب بولوس بحركة موافقة وقال:

- خمسة.

كان ذلك هو الاتفاق الذي تمّ على الهاتف. استدار اليوناني لكي يذهب.

- «انتظر!». صرخ ألبير، وهو يمسك به من كمّه.

توقّف بولوس، ونظر إليه بقلق. قال ألبير هامساً:

- يلزمني أكثر...

لفظ الكلمات بطريقةٍ مبالغ بها، وهو يضيف الحركة إلى الكلام (عندما يتحدّث إلى أجانب، فهو يتكلّم معهم في أغلب الأوقات كما لو أنهم مصابون بالطرش) قطب بولوس حاجبيه السميكين.

- «اثنا عشر». قال ألبير.

وعرض عليه كومة الأوراق النقديّة كلها التي لم يكن يستطيع إنفاقها لأنّ ذلك هو كلّ ما لديه ليبقى على قيد الحياة لمدّة ثلاثة أسابيع تقريباً. قدحت نظرة بولوس، وأشار بإصبعه نحو ألبير، ووافق بحركةٍ من رأسه.

- «اثنا عشر. ابقَ».

خرج.

- «لا». أوقفه ألبير.

رائحة المبولة المقزّزة، وفكرة الخروج من هذا الوكر الضيّق الذي يشعر فيه بخوف متزايد دقيقة بعد دقيقة، كل ذلك ساعده على أن تكون لهجته مقنعة.

كانت خطّته الوحيدة تقوم على إيجاد وسيلةٍ لمرافقة اليوناني.

أشار بولوس بحركة لا برأسه.

- «طيّب». قال ألبير، وهو يمرّ بعزم أمامه.

قبض اليوناني عليه من كمّه. تردّد للحظة. ألبير يثير الشفقة، وكانت تلك نقطة قوّته في بعض الأحيان. ما كان يحتاج إلى تقليص قسمات وجهه كي يبدو تعِساً. فبعد ثمانية شهور من الحياة المدنيّة، كان ما يزال يرتدي ثياب التسريح من العسكريّة. عندما سُرِّح، كان لديه الخيار بين الحصول على ملابس أو على 52 فرنكاً. اختار الملابس؛ لأنّه كان يشعر بالبرد. في الواقع، كانت الدولة تهب الجنود المسرّحين من الحرب العالميّة الأولى

سترات عسكريّة قديمة أعيد صباغها على عجل. في المساء نفسه بدأ الصباغ يسيل تحت المطر الذي تساقط. أيّة أسمال لذلك الحزين! عاد ألبير قائلاً: إنّه يفضّل في النهاية الحصول على مبلغ 52 فرنكاً، لكن الفرصة فاتته. كان عليه أن يفكّر بذلك من قبل.

احتفظ أيضاً بحذائه العسكريّ الذي كان في منتصف عمره، وببطانيّتين عسكريّتين. كلّ ذلك ترك آثاره عليه، وليس فقط آثار الصباغ. صار وجهه يحمل قسمات اليأس والتعب التي يمكن رؤيتها في وجوه كثيرٍ من الجنود المسرّحين. قسمات مفكّكة وقانطة.

تأمّل اليوناني هذه السحنة المشدودة وقرّر.

- «هيّا بسرعة!». همس في أذنه.

بدءاً من تلك اللّحظة، دخل ألبير في عالمٍ مجهول. لم تكن لديه أدنى فكرة عن الطريقة التي يجب أن يتصرّف بها.

سار الرجُلان في شارع سودين حتّى وصلا إلى ممرّ سالارنييه. عند وصولهما هناك، أشار بولوس إلى الرصيف وقال من جديد.

- ابق!

تفحّص ألبير المكان المقفر المُحيط به. الساعة تجاوزت السابعة مساء، والأضواء الوحيدة هي أضواء مقهى يقع على بعد مئة متر تقريباً.

- هنا!

أمرٌ لا تراجع عنه.

والواقع أنّ اليونانيّ ابتعد بدون أن ينتظر الجواب. استدار عدّة مرّات ليتأكّد أنّ زبونه ما يزال يجلس عاقلاً في مكانه. شاهده ألبير يبتعد بدون أن تكون لديه قدرة على شيء. لكنْ عندما انعطف اليوناني فجأةً إلى اليمين،

بدأ يركض صاعداً بدوره الممرّ بأسرع ما يمكن، بدون أن يترك بعينيه المكان الذي اختفى فيه بولوس، وهو مبنى مهدّم تفوح منه روائح طبخ قويّة. دفع ألبير الباب، وتقدّم في الممر. هناك، على بعد عدّة درجاتٍ تؤدّي إلى طابقٍ نصفيٍّ، نزل. توجد نافذةٌ بمربّعاتٍ زجاجيّةٍ وسخةٍ يرشح منها بعض الضوء من العاكسات الموجودة في الشارع. شاهد اليوناني مقرْفصاً يبحث بذراعه اليسرى في موضع هُيِّئ داخل الجدار، في حين حُجب المدخل ببابٍ خشبيٍّ صغيرٍ كان قربه. لم يتوقّف ألبير ولا لحظة في جريه السريع، اجتاز الكهف. أمسك الباب الذي كان أثقل بكثير ممّا يظن، ورماه بيديه الاثنتين على رأس اليوناني. رنّت الضربة مثل صنج. انهار بولوس. لم يفهم ألبير في تلك اللّحظة ما قام به لتوّه لكثرة ما كان مرعوباً ويريد الهرب...

استعاد رباطة جأشه. هل مات اليوناني؟

انحنى ألبير. أصغى. بولوس يتنفّس بتثاقل. من الصعب معرفة إن كانت إصابته شديدة، لكنّ خيطاً من الدم كان يسيل من جمجمته. كان ألبير في حالة من الذهول تقترب من الإغماء، شدّ قبضته، وهو يردّد لنفسه: «هيا، هيا...». انحنى، غاص بذراعه في المخبأ وأخرج منه كرتونة أحذية. معجزة حقيقيّة: الكرتونة ممتلئة تماماً بعبوات من 20 و30 ملغ. بالنسبة إلى الجرعات، ومع مرور الوقت، صارت نظرة ألبير خبيرة.

أغلق الكرتونة ونهض. فجأةً رأى ذراع بولوس ترسم قوس دائرة كبيراً. على الأقلّ عرف أن يجهّز نفسه بما يلزم: كان يحمل بيده خنجراً حقيقيّاً له مقبض، وفيه نصل حقيقيّ مسنون جدّاً. وصل هذا النصل إلى اليد اليسرى لألبير بسرعةٍ كبيرةٍ، إلى درجة أنّه لم يشعر إلّا بشبكةٍ كثيفةٍ من الحرارة. استدار ولفّ حول نفسه، وساقه في الهواء، فأصاب كعبُه

اليونانيَّ في صدغه. اصطدمت جمجمته بالحائط، وأصدرت صوتاً أشبه بضجّة الصنج. بدون أن يترك كرتونة الأحذية، قام ألبير بسحق يد بولوس التي ما تزال تمسك بالسكّين بعدّة ضربات من حذائه، ثمّ وضع الكرتونة وأمسك بالباب الخشبيّ بيديه الاثنتين، وراح يضرب رأسه به. توقّف. فقد أنفاسه بسبب الجهد، وبسبب الخوف. كان ينزف بغزارة، فالجرح في يده عميقٌ جدّاً، ترك على سترته بقعاً واسعة. لطالما كان منظر الدم يرعبه. وصل الألم إليه في تلك اللّحظة مذكّراً إيّاه بإجراءات الإسعاف. بحث ضمن القبو ووجد قطعة قماشٍ مغبرّة، لفّها على نحوٍ ضيّقٍ حول يده اليسرى. وبخشيةٍ، كما لو كان عليه أن يقترب من حيوانٍ وحشيٍّ نائمٍ، راح ينحني على جسد اليوناني. سمع تنفّسه الثقيل والمنتظم. ما من شكّ أنّه كان متين البنية. بعد ذلك، ترك ألبير البناء، وهو يرتعش، حاملاً الكرتونة تحت ذراعه.

مع جرح مثل هذا كان عليه التخلّي عن فكرة ركوب المترو، أو الترامواي. استطاع أن يخفي ضماده المرتجل، وبقع الدم على سترته، وأن يستقلّ سيارة أجرة إلى الباستيل.

كان السائق في مثل عمره تقريباً. في أثناء قيادته للسيّارة راح يحدّق مطوّلاً وبخشيةٍ في هذا الزبون الذي ابيضّ لونه مثل القماش، والذي كان ينتصب على طرف الكرسيّ ويتأرجح، وهو يضمّ ذراعه على بطنه. تضاعف قلقه عندما فتح ألبير النافذة بعزمٍ؛ لأنّ هذا المكان المغلق كان يسبّب له قلقاً لا يستطيع السيطرة عليه بسهولة، لا بل إنّ السائق ظنّ أنّ زبونه كان بصدد التقيّؤ في سيّارته.

- أنت لست مريضاً على الأقل؟

مكتبة
t.me/soramnqraa

- «لا». أجابه ألبير، وهو يستجمع كل ما تبقّى لديه من عزم.

- لأنّني سأنزلك هنا إن كنت مريضاً.

- «لا، لا». اعترض ألبير: «أنا متعبٌ فقط».

مع ذلك ظلّ الشكّ يتصاعد في ذهن السائق.

- أنت متأكّد أنّ لديك مالاً؟

أخرج ألبير ورقة عشرين فرنكاً من جيبه وأراها للسائق. اطمأنّ السائق، لكنْ لبرهةٍ قصيرةٍ فقط. كان قد اعتاد ذلك ولديه تجربة، وكانت تلك سيّارته، لكنْ لديه مع ذلك تلك الطبيعة التجاريّة بدون أن يكون وضيعاً:

- اعذرني، هه! أقول ذلك لأنّ الناس مثلك غالباً ما...

- «من هُم الناس الذين مثلي؟». سأله ألبير.

- آه، أريد القول: إنّ الشباب المسرّحين من الجيش، كما ترى، لا؟

- لأنّك أنت لم تُسرَّح؟

- أنا لا. أنا حاربت هنا. عندي ربو، ولديّ ساق أقصر من الأُخرى.

- هناك عددٌ لا بأس به من الناس ذهبوا إلى الحرب على الرغم من ذلك. وهناك من عاد بساقٍ أقصر بكثير من الساق الأخرى.

أخذ السائق الأمر على نحوٍ سيّءٍ للغاية، هُم دائماً هكذا، الجنود المُسرّحون، يربطون كلّ شيءٍ بحربهم، ويعطون دروساً للجميع دائماً، ولقد بدأنا نملّ من الأبطال. الأبطال الحقيقيّون ماتوا. اعذرني، أجلْ، أولئك أبطال، أبطال حقيقيّون. ثمّ إنّه عندما يقوم شخص برواية أشياء كثيرة عاشها في الخنادق، من الأفضل التزام الحذر، فمعظمهم أمضوا كلّ الحرب داخل مكتب.

تساءل ألبير:

- ونحن، أتظنّ أنّنا لم نقم بواجبنا نحن أيضاً؟ ربّما؟

ما الذي يعرفه أولئك المسرّحون عن الحياة التي عشناها هنا، وعن كلّ ما كنّا محرومين منه؟ سمع ألبير مثل هذه الجُمل عن سعر الفحم، وسعر الخبز من قبل، وحفظها عن ظهر قلب. تلك نوعيّة معلومات يتذكّرها بسهولةٍ كبيرة. لحظ ذلك منذ أن سُرِّح من الجيش: لتعيش بهدوء، من المستحسن أن تخفي أوسمة الانتصار داخل الدرج.

أوصله سائق سيارة الأجرة أخيراً عند زاوية شارع سيمار، وطلب 12 فرنكاً، وانتظر أن يعطيه ألبير زيادة.

يسكن تلك الزاوية مجموعة من الروس، لكنّ الطبيب كان فرنسيّاً واسمه الدكتور مارتينو.

كان ألبير قد تعرّف إليه في شهر يونيو في أثناء الأزمات الأولى. لم يعلم أحدٌ كيف استطاع إدوار أن يحصل على المورفين خلال وجوده في المؤسّسات الصحيّة، لكنّه أدمن عليه على نحوٍ كبير. حاول ألبير أن يجعله يتعقّل: «أنت على قمّةٍ منزلقةٍ يا بابا. لن نستطيع أن نستمرّ هكذا. يجب أن تعتني بنفسك». لم يرغب إدوار بسماع أيّ شيء. أبدى عناداً يشبه عناده فيما يتعلّق بزرع الأعضاء الذي رفضه تماماً. لم يفهم ألبير. قال له: «أعرف شخصاً مقطوع القدمين، ذلك الذي يبيع بطاقات اليانصيب في شارع فوبور سان مارتان. دخل إلى مستشفى ثكنة فيفرييه في شالون، وقد حدّثني عن زراعة أعضاء يقومون بها الآن. حسناً، صحيح أنّ الشباب لم يصبحوا جميلين، لكنّ شكلهم على الأقل صار إنسانيّاً». لكنّ إدوار لم

يكن حتّى يستمع، جوابه كان: لا، ثمّ لا، ثمّ لا... واستمر بعدها في صف أوراق التبصير على طاولة المطبخ، وتدخين سجائره، مُخْرجاً الدخان من منخر واحد. الرائحة التي يطلقها دائماً مرعبة. طبيعي، مع هذه الرقبة المفتوحة للهواء الطلق. كان يشرب بوساطة قمع، وقد وجد له ألبير طقم أسنان مستعملاً (صاحبه مات في عمليّة زرع أعضاء لم تنجح. ضربة حظ أكيدة!). كان ذلك يجعل الحياة أسهلَ قليلاً، لكنّ الأشياء تظلّ معقدة مع ذلك.

خرج إدوار من مستشفى رولان في بداية يونيو، وبعد ذلك بأيّام بدأ يبدي علاماتٍ مُقلقةً من الجزع، تهزّه الارتعاشات من رأسه إلى أخمص قدميه. يتعرّق بقدْرٍ كبيرٍ، ويتقيّأ القليل الذي يأكله... شعر ألبير بنفسه عديم الحيلة. النوبات الأولى الناتجة عن قلّة المورفين كانت عنيفةً إلى درجة صار من الضروريّ معها ربطه بالسرير، كما حصل في نوفمبر الماضي في المستشفى. ما الذي استفدناه من نهاية الحرب؟ ومن الضروري إغلاق الباب جيّداً حتّى لا يأتي أصحاب البيت لقتله من أجل تخفيف آلامه (وآلامهم).

كان منظر إدوار مرعباً، هيكلٌ عصبيٌّ يسكنه عفريت.

الدكتور مارتينو الذي يقطن بمكانٍ قريبٍ وافق على المجيء لإعطائه إبرة. كان رجُلاً بارد المشاعر يرسم مسافة بينه وبين الآخرين، ويقول إنّه قام بمئةٍ وثلاث عشرة عمليّة بترٍ داخل الخنادق في 1916. استطاع إدوار عندها أن يهدأ قليلاً. عن طريقه اتّصل ألبير بباسيل الذي صار يورّد له المورفين. حتماً كان يسطو على صيدليّات المستشفيات والعيادات. اختصاصه هو الأدوية، ويمكن أن يجد لك كلّ ما تريد. بعد ذلك بمدّةٍ قصيرةٍ، ولحُسن

حظّ ألبير، عرض عليه باسيل مجموعة حقنٍ كان يريد التخلّص منها. نوعٌ من الترويج، أو التصفية بشكل أو بآخر.

سجّل ألبير بدقّةٍ متناهيةٍ عدد الحقن والكميّات على ورقةٍ، مع الأيّام، والساعات، والجرعات، من أجل مساعدة إدوار على التحكّم بما يستهلكه. راح يلقي عليه درساً أخلاقيّاً بطريقته، وهو ما لم يكن له تأثير كبير. لكنْ على الأقل، في تلك اللّحظات، كانت حالة إدوار تتحسّن. صار يبكي أقلّ، حتّى لو لم يعد يرسم على الرغم من الدفاتر والأقلام التي جلبها له ألبير. يمكن القول: إنّه يمضي كلّ وقته مستلقياً على أريكة التعافي، مُبدياً دهشته من أشياء لا قيمة لها. بعد ذلك، وفي نهاية شهر سبتمبر، نفدَ المخزون، ولم يكن إدوار قد انفطم بعد. في شهر يونيو، كان قد وصل إلى جرعة 60 ملغ في اليوم، ثمّ 90 ملغ بعد ثلاثة أشهر. لم يعرف ألبير إلى أين سيؤدي هذا الأمر. كان إدوار يعيش في عزلةٍ دائمةٍ، ولا يعبّر عن نفسه إلّا قليلاً، في حين كان ألبير لا يتوقّف عن اللّهاث وراء النقود الضروريّة للمورفين إلّا ليركض وراء النقود الضروريّة لدفع أجرة البيت، ووجبات الطعام، والفحم. أمّا الملابس، فخارج الإمكانات لأنّها غالية جدّاً، والمال يذوب بسرعةٍ هائلة، وألبير قد وضع كلّ ما يستطيع في مؤسّسة «قروض الإيمان»، لا بل إنّه قد ضاجع مدام مونوستييه الضخمة، صاحبة محلّ الساعات الميكانيكيّة التي كان يصنع لها مغلّفات. وهي بالمقابل زادت أجره (ذلك ما يقوله ألبير، فهو في هذه القصّة يحب أن يلعب دور الشهيد. في الواقع، لم ينزعج كثيراً من ذلك بعد أن مرّت عليه ستة شهور بدون أيّة امرأة... مدام مونستييه لها أثداء ضخمة لم يعرف قطّ ما يفعل بها، لكنّها كانت لطيفة، ولا تبخل بما يجعل من زوجها رجلاً مخدوعاً. كان شخصاً من حثالة القوم يقول: إنّ كلّ الذين لم ينالوا وسام الحرب كانوا جبناء.

الجزء الأكبر من الميزانيّة كان يذهب بالطبع للمورفين. أسعاره حلّقت مثل كلّ شيءٍ آخر، وقد ناب هذه المخدّرات ما ناب الأشياء الأخرى؛ إذْ إنّ سعرها يُحسب بالتوافق مع كلفة الحياة. ولقد تأسّف ألبير لأنّ الحكومة التي أرادت أن تكبح جماح التضخم بإطلاق «اللباس الوطني» وسعره مئة وعشرة فرنكات، لم تطلق في الوقت نفسه «الحقنة الوطنيّة» من المورفين بسعر خمسة فرنكات. كان يمكنها أيضاً أن تطلق «الخبز الوطني»، و«الفحم الوطني»، و«الحذاء الوطني»، و«الأجرة الوطنيّة»، وحتّى «العمل الوطني». ولقد تساءل ألبير إن لم تكن الأفكار من هذا النوع هي التي تجعل الإنسان بلشفيّاً[1].

لم يقبل البنك أن يعود ألبير إليه. لم يعد الأمر كما كان حين كان النوّاب يصرّحون، وهُم يضعون أيديهم على قلوبهم، بأنّ «البلاد تدين بالشرف وبالامتنان لأولئك الجنود الأعزاء». تلقّى ألبير رسالة تشرح أنّ اقتصاد البلاد لا يسمح بتوظيفه من جديد، وأنّهم لو أرادوا ذلك لتوجّب عليهم طرد أشخاصٍ قاموا خلال «اثنين وخمسين شهراً من تلك الحرب القاسية بتقديم خدماتٍ متميّزة لمؤسّستنا...» إلخ.

صار العثور على المال عملاً بدوامٍ كاملٍ بالنسبة إلى ألبير.

تعقّد الوضع على نحوٍ فريدٍ عندما أوقِفَ باسيل في قضيّةٍ قذرة عثروا فيها على كميّةٍ من المخدّرات تملأ جيوبه، ودم صيدلانيٍّ يلوّث يديه حتّى الكوع.

وهكذا صار ألبير بين ليلةٍ وضحاها بلا مورّد، يرتاد البارات المشبوهة،

---

(1) نسبةً إلى الثورة البلشفيّة التي اندلعت في روسيا في 1917 بسبب الأزمة الاقتصاديّة الخانقة التي أصابت البلاد، وأسفرت عن قيام الاتّحاد السوفييتي وسيادة النظام الشيوعي. (المترجمة).

ويطلب عناوين من هنا وهناك. والواقع أنّ العثور على المورفين لم يكن على تلك الدرجة من الصعوبة، فبسبب كلفة المعيشة التي لم تتوقّف عن التزايد، صارت باريس النقطة التي تلتقي فيها دروب التهريب بأنواعه المختلفة، ويمكن العثور فيها على كلّ شيء. وقد عثر ألبير على اليوناني.

طهّر الدكتور مارتينو الجرح وأغلقه. تألم ألبير بشدة، فشدّ على أسنانه كيلا يصرخ.

- «ضربة سكّين جيّدة». قال الطبيب بدون أي تعليق آخر.

فتح له الباب بدون أن يناقش، أو يطرح أسئلة. كان يسكن في الطابق الثالث في شقّةٍ شبه فارغةٍ، ستائرها منسدلة دائماً، وفي أرجاء الغرفة تتوزّع علب كتب منبوشة، ولوحات مقلوبة مسندة إلى الجدران، وأريكة واحدة في زاوية. ممرّ الدخول إلى البيت يُستخدم كقاعة انتظارٍ، فيها كرسيّان قديمان موضوعان بمواجهة بعضهما. كان يمكن لهذا الطبيب أن يكون كاتب عدلٍ لو لم تكن هناك تلك الحجرة الصغيرة في العمق مع سرير المستشفى وأدوات الجراحة. طلب من ألبير أقلّ ممّا كلّفته جولة سيارة الأجرة.

عندما خرج ألبير خطرت على باله سيسيل بدون أن يعرف لماذا.

قرّر أن يُكمل الطريق مشياً على الأقدام، فهو بحاجةٍ إلى بعض الحركة. سيسيل، حياته السابقة، آماله التي فاتت... من الحماقة الاستسلام لذلك الحنين الغبيّ نوعاً ما. لكنّ مشيه بهذه الطريقة في الشوارع مع علبة الأحذية الكرتونيّة تحت ذراعه، ويده اليسرى ملفوفة بالضماد، وهو يجترّ كلّ تلك الأشياء التي صارت سريعاً مجرّد ذكريات، كلّ ذلك جعله يشعر

بأنّه مشرّد لا وطن له، وأنّه صار بدءاً من تلك الأمسية شقيّاً، بل قاتلاً أيضاً. لم تكن لديه أيّة فكرة عن الطريقة التي يمكن معها لتلك الدوّامة أن تنتهي. إلّا إذا ما حصلت معجزة. وأيّة معجزة! لأنّه منذ أن تسرّح من الجيش حصلت له معجزة واحدة، أو اثنتان، لكنّها تحوّلت كلها إلى كوابيس. خذ على سبيل المثال سيسيل: بما أنّ ألبير كان يفكّر بها... أصعب شيءٍ حصل له معها تأتى من معجزة كان الرسول فيها زوج أمّه الجديد. ليته انتبه إلى ذلك! فبعد أن رفض البنك إعادة توظيفه، بحث وبحث، وجرّب كلّ أنواع الأشياء، حتّى إنّه أسهم في حملات القضاء على الجرذان. خمس وعشرون سنتيماً لكلّ جرذٍ يقُتل. قالت له أمّه إنّه بهذه الطريقة لن يكدّس ثروةً عمّا قريب. والواقع أنّ كلّ ما ناله من جرّاء ذلك هو عضّة. ولا عجب في ذلك، فقد كان دائماً أخرق. كلّ ذلك ليقول: إنّه بعد ثلاثة أشهر من عودته كان ما يزال فقيراً مثل أيّوب. وتفكّر بهديّة لسيسيل! لقد فهمت مدام مايار ذلك. هذا صحيح، عن أيّ مستقبل مع سيسيل يتحدّث! هي التي كانت جميلة جدّاً، وناعمة جدّاً. لو كانت مدام مايار مكان سيسيل لفعلت الشيء نفسه. وهكذا بعد ثلاثة شهور من العمل اليدويّ، وبعض الأشغال البسيطة بانتظار مكافأة التسريح من الجيش التي يجري الحديث عنها كلّ الوقت، والتي لم تكن الحكومة قادرة على دفعها، حصلت المعجزة، وهي أنّ زوج أمّه وجد له وظيفة عامل مصعد في مخزن الساماريتين.

الإدارة كانت تفضّل أحد المحاربين القدماء، لديه نياشين أكثر ليعرضها ضمن مفهوم «العلاقة مع الزبائن». لكنْ حسناً. في النهاية أخذوا ما توفّر، وهكذا قُبِل ألبير.

أعطوه مصعداً جميلاً مكشوفاً يقوده ويقوم فيه بالإعلان عن كلّ طابق.

ما كان ليفصح عن هذه الوظيفة لأحد (اكتفى بأن يكتب المعلومة لرفيقه إدوار)، فذلك العمل لم يعجبه كثيراً. لم يعرف لماذا على وجه الدقّة. فهِم السبب بعد ظهر أحد الأيّام حين انفتح الباب على سيسيل برفقة شابٍّ أكتافه مربّعة. لم يكونا قد رأيا بعضهما بعد الرسالة التي كتبتها له، والتي ردّ عليها بكلّ بساطة بكلمة: «اتفقنا».

البرهة الأولى كانت خطأه الأول، فقد ادّعى بتعبير وجهه أنّه لم يتعرّف إليها، وانشغل بقيادة المصعد. كانت سيسيل وصديقها ذاهبين إلى الطابق الأعلى، ذلك المسار الطويل الذي لا ينتهي، مع وقفة في كلّ طابق. راح صوت ألبير يتهدّج عند وصوله إلى كل قسم. عذاب لا ينتهي. استنشق رغماً عنه عطر سيسيل الجديد، والذي كان أنيقاً، مترفاً، يفوح بالمال. الشابّ أيضاً كانت تفوح منه رائحة المال. كان شابّاً. أكثر شباباً منها، وقد وجد ألبير ذلك مخزياً.

الذلّ بالنسبة إليه لم يكن اللّقاء بها، إنّما أن يُفاجأ بلباس التنكّر هذا. أشبه بجنديٍّ داخل أوبريت بتلك الأكتاف المزينة بالترتر.

خفضت سيسيل عينيها. شعرت بخجلٍ حقيقيٍّ عنه، وراحت تنظر إلى نفسها بالمرآة، تفرك يديها الواحدة بالأخرى وتنظر إلى قدميها؛ أمّا الشاب بأكتافه المربّعة، فقد راح ينظر من جهته إلى المصعد بإعجاب، وقد سُحر بوضوح بمعجزة التكنولوجيا الحديثة تلك.

بالنسبة إلى ألبير، لم يشعر في حياته بأنّ الدقائق طويلة إلى هذا الحد، فيما عدا تلك التي دُفن فيها حيّاً في حفرة القذائف، لا بل إنّه وجد بعض الشبه الخفي بين الحدثين.

خرجت مع صديقها إلى قسم الثياب الداخليّة. لم يتبادلا حتّى نظرة.

ترك ألبير مصعده في الطابق الأرضي، وخلع لباسه الرسمي، وذهب حتّى بدون أن يطالب براتبه. أسبوع عمل مقابل لا شيء.

بعد ذلك بعدة أيّام، ولأنّ رؤيته وقد انحدر إلى تلك الوظيفة الخدميّة أثار شفقتها على ما يبدو، أعادت إليه سيسيل خاتم خطبته عن طريق البريد. أراد أن يعيده إليها، فهو لا يطلب صدقة. هل يبدو عليه الفقر إلى تلك الدرجة، حتّى وهو بلباس الحاجب المهمّ هذا؟ لكنّ الأوقات كانت صعبة بالفعل، ويجب التوفير؛ فقد وصل سعر علبة التبغ الأسمر من نوع كاربورال إلى فرنك ونصف، والفحم صار يباع بأسعار مجنونة. ذهب ليرهن الخاتم مقابل بعض المال في مؤسّسة «قروض الإيمان» التي تغيّر اسمها وصار منذ توقيع الهدنة هيئة «قروض البلديّة». لهذا الاسم وقع أكثر ارتباطاً بالجمهوريّة.

كانت هناك أشياء يمكن أن يأخذها مقابل الخاتم، لكنّه شطب عليه وذهب.

بعد تلك المرحلة، لم يجد ألبير أفضل من وظيفة الرجُل السندويش التي يقوم فيها بالمشي في الشارع حاملاً لوحتي دعاية: واحدة من الأمام، وواحدة من الخلف. لوحات الدعاية تلك لها وزن حمار ميّت، ووظيفتها أن تمتدح الأسعار في مخزن الساماريتين، أو تعرض ميزات دراجات دو ديون بوتون. هاجسه الوحيد كان خوفه من أن يلتقي بسيسيل. فهو يرتدي شيئاً أشبه بثياب الكرنفال، وزنها ثقيل، وفوق ذلك يجب أن يلفّ نفسه بلافتات دعايةٍ لمشروب الكامباري. كلّ هذا أمرٌ لا يُحتمل. أمر يدفعه لأن يرمي نفسه في نهر السين.

12

فتح مسيو بيريكور عينيه مجدّداً عندما تأكد أنّه وحْده. كلّ ذلك الاضطّراب... كلّ ذلك العالم المستثار في نادي الجوكي! كأنّه لم يكن يكفيه ذلّ الإغماء أمام الجميع...

بعد ذلك، جاء دور مادلين، والصهر، والمربّية التي تفرك يديها عند طرف السرير، والهاتف الذي لم يتوقّف عن الرنين في المدخل، والدكتور بلانش مع نقاط الدواء والحبوب التي يجب ابتلاعها، وصوته الذي يشبه صوت قسٍ، ونصائحه التي لا تنتهي، خاصّةً أنّه لم يجد شيئاً، فراح يقول: القلب، التعب، الهموم، هواء باريس... يقول أيّ شيء. مع أن له موقعه في الكلّية، أخينا هذا...

كانت عائلة بيريكور تمتلك قصراً واسعاً تطلّ نوافذه على حديقة مونسو مترامية الأطراف، وقد تنازل مسيو بيريكور عن القسم الأكبر من القصر لابنته التي قامت بعد زواجها بتغيير أثاث الطابق الثاني الذي صارت تسكن فيه مع زوجها ليتماشى مع ذوقها. أمّا مسيو بيريكور، فكان من جهته يعيش في الأعلى، ضمن مجموعةٍ من ستّ حُجرات لم يكن يشغل منها فعليّاً سوى الغرفة الواسعة التي يستخدمها أيضاً كمكتبةٍ ومكتبٍ، إضافةً

إلى حمّام، صحيحٌ أنّه صغيرٌ، لكنّه كافٍ لرجُلٍ يعيش وحْده. بالنسبة إليه كان يمكن اختصار المنزل كلّه بتلك الشقّة، فمنذ موت زوجته، لم يعد يضع قدمه أبداً في الحُجرات الأخرى، فيما عدا قاعة الطعام الواسعة في الطابق الأرضي. بالنسبة إلى حفلات الاستقبال، لو كان الأمر يتعلّق به وحده، لجعل كلّ شيء يتم في مطعم فوازان، ولكان الأمر انتهى ببساطة. كان سريره موضوعاً داخل مخدعٍ مغلقٍ بستائر من المخمل لونها أخضر غامق. لم يستقبل فيه أيّة امرأةٍ على الإطلاق. وعند الحاجة إلى ذلك، كان يذهب إلى مكانٍ آخر؛ أمّا هنا، فالمكان له وحده.

عندما حملوه إلى هناك، ظلّت مادلين مدّةً طويلةً جالسة قربه بصبر، وعندما أمسكت في النهاية بيديه، لم يحتمل ذلك.

- «الأمر يشبه السهر على ميّت». قال لها.

واحدة أُخرى غير مادلين كان يمكن أن تعترض؛ أمّا هي، فابتسمت. نادراً ما كان يتاح لهما البقاء معاً لمدّةٍ طويلةٍ كهذه. «إنّها بالفعل ليست جميلة». قال بيريكور لنفسه. «إنّه مُسنٌّ». فكّرت ابنته.

- «سأتركك». قالت، وهي تنهض.

أشارت إلى الحبل. وافق بنظرة منه. «نعم، حسناً، لا تقلقي». تحقّقت من الكأس، زجاجة الماء، المنديل، حبوب الدواء.

- «أطفئي النور إذا سمحت». قال لها.

لكنّه سرعان ما تأسّف لذهاب ابنته.

على الرغم من أنّه صار أحسن بكثير، وأنّ الدوار الذي شعر به في نادي الجوكي صار مجرّد ذكرى، إلّا أنّ تلك الموجة التي صعقته بدون إنذار عادت إليه مجدّداً. أمسكت به عند البطن، واجتاحت صدره وصولاً إلى

الأكتاف، ثمّ إلى الرأس. راح قلبه يدقّ إلى درجة كاد معها أن ينفطر، كأنّ المكان لا يكفيه. بحث بيريكور عن الحبل، ثمّ عدل. شيء ما في داخله قال له: إنّه لن يموت، وإنّ ساعته لم تحن بعد.

كانت الحُجرة غارقة في عتمةٍ خفيفة. نظر إلى رفوف المكتبة، واللّوحات، وموتيفات السجّادة كما لو أنّه يراها للمرّة الأولى. ازداد شعوره بالشيخوخة حين بدا له فجأةً أنّ كلّ شيءٍ من حوله جديد، حتّى في أبسط التفاصيل. كان القهر كبيراً، وقد أحكم الخناق على رقبته بعنفٍ شديدٍ مفاجئٍ إلى درجةٍ جعلت الدموع تغمر عينيه. انخرط بالبكاء. دموع بسيطة، غزيرة، وشجن لا يتذكر أنّه عرف مثله من قبل، ربّما عندما كان طفلاً، لكنّه خفّف عنه على نحوٍ غريب. استسلم للأمر، وترك الدموع تسيل بدون خجل، ناعمة مثل مواساة. مسح وجهه بطرف الملاءة، واستعاد تنفّسه، لكنْ بلا جدوى؛ فقد استمرّت الدموع تسيل، واستمرّ الأسى يغمره. «إنّه خرف الشيخوخة». قال لنفسه، بدون أن يؤمن بذلك حقاً. اعتدل في جلسته على الوسائد، وأمسك بالمنديل الموجود على طاولة اللّيل قرب سريره، وتمخّط مدخلاً رأسه تحت المُلاءة. ما كان يريد أن يسمعه أحد، وأن يقلق عليه أحد، وأن يأتي إلى عنده أحد. أن يروه يبكي؟ لا لم تكن تلك هي المشكلة. طبعاً ما كان يفضّل ذلك؛ إذْ ينقص من قيمته أن يبكي مثل عجلٍ صغيرٍ، وهو في هذا العمر، لكنّ ما كان يريده بالفعل هو أن يبقى وحْده.

خفت قبضة الكلّابات التي تضغط على رقبته، لكنّها ظلّت تعيق تنفّسه. شيئاً فشيئاً هدأت الدموع تاركةً وراءها فراغاً كبيراً. كان مُنهكاً، لكنّ النوم لم يأتِ. لطالما كان نومه جيّداً، طيلة حياته، حتّى في المناسبات الأكثر صعوبةً، عند موت زوجته على سبيل المثال؛ حيث توقّف عن الطعام،

لكنّه ظلّ ينام بعمق. هكذا هو. مع أنّه كان يحبّها، زوجته. امرأة رائعة، فيها جميع المزايا. أن تموت في ريعان الصبا، يا للظلم! لا بالفعل، ليس مألوفاً، بل يثير القلق أن يجافي النوم رجُلاً مثله. «ليس القلب». قال السيد بيريكور لنفسه: «بلانش رجُلٌ غبي. إنّه الجزع. شيء يهيمن عليه من فوق، شيء ثقيل، مهدّد». فكّر من جديد بعمله، وبالمواعيد التي لديه بعد الظهر، وبحث في رأسه. كان في وضع سيّئ طيلة النهار، وشعر بالغثيان منذ الصباح. مع ذلك لم يكن السبب تلك المحادثة مع سمسار البورصة، فما كان فيها لا يثير الغضب. لا شيء استثنائي. متطلّبات المهنة. سماسرة البورصة، لقد عرف منهم دزينة كاملة خلال ثلاثين سنة من العمل. في يوم الجمعة الأخير من كلّ شهر، كان يعقد اجتماعاً لاستعراض المحصّلة، وكان المصرفيّون والوسطاء يقفون كلّهم أمام مسيو بيريكور مثل جنودٍ في وضعيّة الاستعداد.

جنود في وضعيّة الاستعداد.

حطّمه هذا التعبير.

عادت الدموع فجأةً عندما فهم لماذا يتألّم إلى تلك الدرجة. عضّ على المُلاءة بنواجذه، وأطلق ما يشبه خوار الثور المخنوق واليائس. الألم الذي يعيشه كان مرعباً، لا يمكن قياسه، وما كان يعرف أنّه قادرٌ على الشعور به. ألم مؤلم، خاصّة أنّ... لأن... ضاعت منه الكلمات، وبدا كأنّ أفكاره قد انصهرت بعد أن قضى عليها أسى لا يُقاس.

كان يبكي موت ابنه.

إدوار قد مات. إدوار قد مات لتوّه في هذه اللّحظة بالذات. الصبيّ الصغير، ابنه، قد مات.

في يوم ذكرى ميلاده ما فكّر بذلك. مرّت الصورة مثل الهواء، وتراكم كلّ شيء لكي ينفجر في هذا اليوم.

كان قد مضى على موته سنة تماماً.

عمق ألمه تضاعف؛ لأنّ تلك كانت المرّة الأولى التي يكون لإدوار فيها وجود عنده. فهِم فجأةً كم أحبّ ذلك الابن، كم أحبّه على نحوٍ غامض، غصباً عنه. فهم ذلك فقط في اليوم الذي وعى فيه ذلك الواقع غير المحتمل بأنّه لن يراه من جديد أبداً.

لا، ليس هذا هو السبب، هذا ما قالته له دموعه، وذلك الاختناق في صدره، والسيف الذي يذبح رقبته.

بل ما هو أسوأ من ذلك؛ كان مذنباً لكونه قد شعر عند إعلان موته بنوع من الخلاص.

مرّت اللّيلة كلّها كاملة بلا نوم، استعاد فيها صورة إدوار الطفل، وابتسم للذكريات المدفونة في الأعماق، إلى درجةٍ جعلته يكتشفها كأنّها جديدة. ما كان في ذلك أيّ نظام، وهو غير قادر على أن يقول إن كانت المرّة التي تنكر فيها إدوار بهيئة ملاك (لكنّه أضاف إلى نفسه أذنيّ لوسيفر، فهو ما كان يأخذ أي شيء على محمل الجدّ، وكان عمره وقتها ثماني سنوات تقريباً) سبقت بكثير تلك المقابلة مع مدير المدرسة بسبب رسوماته. يا إلهي! رسوماته، كم هي مخجلة، وكم كان موهوباً!

لم يكن مسيو بيريكور قد احتفظ بشيء، ولا حتّى بلعبة طفل، لا رسومات سريعة، لا لوحة زيتيّة، أو مائيّة. لا شيء. قد تكون مادلين احتفظت؟ لا، لن يجرؤ على الإطلاق على أن يطلب منها ذلك.

وهكذا مرّت اللّيلة. الذكريات، الندم، إدوار في كل مكان، إدوار الصغير، والشاب، والراشد، وتلك الضحكة.. يا لتلك الضحكة، وذلك الفرح بالحياة! لو لم يحدث ذلك التصرّف، وذلك الميل الدائم إلى الاستفزاز.... ما كان مسيو بيريكور يتوافق معه، هو الذي يمقت كلّ أنواع التجاوزات. اكتسب ذلك من زوجته. مع ثروتها التي انتقلت إليه بالزواج (كانت من عائلة مارجيس المعروفة بالنسيج)، ورث ثقافتها التي تُعدّ فيها بعض الأشياء مصيبة كبيرة. الفنّانون على سبيل المثال. لكنْ مع ذلك، كان يمكن لمسيو بيريكور أن يعتاد على الجانب الفنيّ لدى ابنه. وفي النهاية نعرف أنّ هناك كثيراً من الناس يحقّقون شيئاً ما في الحياة من خلال رسم لوحات للبلديّة، أو للحكومة. لا، ما لم يغفره مسيو بيريكور لابنه لم يكن ما يفعله، إنّما ما كان عليه: كان لإدوار صوت مرتفع جدّاً وعالٍ، كان نحيلاً للغاية، ويهتم كثيراً بهيئته، وحركاته شديدة.... لا، ما كان من الصعب ملاحظة ذلك، كان لديه بالفعل جانب أنثوي. لم يجرؤ مسيو بيريكور على أن يقول تلك الكلمات، ولا حتّى في قرارة نفسه. كان يخجل من ابنه أمام أصدقائه؛ لأنّ تلك الكلمات المقيتة، كان يقرأها على شفاههم. لم يكن رجُلاً سيّئاً، إنّما رجُلاً مجروحاً على نحوٍ رهيب، رجُلاً ذليلاً. ذلك الابن كان أشبه بإهانةٍ حيّةٍ لآمالٍ يعدّها شرعيّة. لم يعترف بذلك لأيّ كان: ولادة ابنته أصابت الرجُل بخيبة أملٍ كبيرة، فكان من الطبيعيّ أن يرغب بأن يُرزق بابن. ذلك أنّه كان يظنّ أنّ بين الأب والابن توجد رابطة قوية وسرّية، لأنّ الثاني هو استمراريّة للأوّل. الأب يؤسّس وينقل، والابن يتلقى ويطوّر؛ تلك هي الحياة منذ فجر الخليقة.

كانت مادلين طفلةً لطيفةً جدّاً. أحبّها بسرعة، لكنّه ظلّ ينتظر بنفاد صبر.

ولم يأتِ ذلك الابن. حصلت إجهاضات وحوادث مؤلمة، وكان الوقت يمرّ. صار مسيو بيريكور سريع الغضب بسبب ذلك، ثمّ جاء إدوار. أخيراً! عدّ تلك الولادة نتيجة طبيعيّة لإرادته. والواقع أنّ زوجته ماتت بعد الولادة بقليل، فرأى في ذلك علامة أُخرى. لطالما اهتم هو نفسه بتربية ذلك الابن في السنوات الأولى. كم من الآمال بناها على حضوره، وكم غذّاها! ثمّ جاءت خيبة الأمل. كان عمر إدوار ثماني سنوات، أو عشر سنوات عندما اضطرّ إلى التسليم بالأمر. لقد أخفق. لم يكن مسيو بيريكور طاعناً في السنّ بحيث لا يستطيع ترتيب حياته على نحوٍ مختلف، لكنّ كرامته جعلته يرفض ذلك. رفض الاعتراف بالإخفاق، وانغلق على ذاته بكثيرٍ من المرارة، بكثيرٍ من الحقد.

والآن، ومع موت هذا الابن (والواقع أنّه لم يعرف كيف مات، ولم يسأل عن ذلك على الإطلاق)، بدأ يظهر اللوم الذي يوجّهه إلى نفسه، كل هذه الكلمات القاسية والقاطعة، وهذه الأبواب المغلقة، والوجوه المغلقة، والأيدي المغلقة. أغلق مسيو بيريكور كل شيء أمام هذا الابن، ولم يترك له سوى الحرب كي يموت فيها.

حتّى عندما أعلنوا له نبأ موته، لم تصدر عنه كلمة واحدة. استعاد المشهد: مادلين منهارة. أمسك بكتفها، وقدّم لها مثالاً. الكبرياء يا مادلين، الكبرياء. لم يستطع أن يقول لها ذلك، لم يعرف هو نفسه أنّ ذلك الغياب يجيب عن السؤال الذي كان يطرحه على نفسه بدون توقف: كيف يمكن لرجُلٍ مثلي أنا أن يتحمّل ابناً مثل هذا؟ الآن انتهى كلّ شيء. قوس إدوار الذي فتحه في حياته قد أُغلق. والعدالة قد تحقّقت. توازن العالم، عاد إلى سابق عهده. كان قد عاش موت زوجته كنوعٍ من الظلم، كانت أكثر شباباً

من أن تموت. لم تأته تلك الفكرة فيما يتعلّق بابنه، مع أنّه قد رحل بعمرٍ أصغر أيضاً.

عادت الدموع.

- «أبكي دموعاً جافّة». قال لنفسه: «أنا رجُلٌ جاف». كان بودّه لو يختفي هو أيضاً. للمرّة الأولى في حياته، شعر بأنّه يفضّل شخصاً آخر على نفسه.

في الصباح، ولأنّه لم يغلق عينيه للحظة، شعر بالإنهاك. وجهه كان يشي بالأسى الذي اجتاحه. لكنْ بما أنّه ما كان يُظهر حزنه قطّ، لم تفهم مادلين ذلك، وشعرت بالخوف. انحنت فوقه؛ قبّلته على جبينه. ما شعر به خلال اللّيل لا يمكن نقله إلى الآخرين.

- «سوف أنهض». قال.

تهيّأت مادلين لأن تعترض، لكنّها أمام هذا الوجه المحطّم والممتلئ بالإصرار لم تفتح فمها وانسحبت.

بعد ساعة، خرج مسيو بيريكور من شقّته، وقد حلق وارتدى ثيابه. لم يأكل أي شيء. رأت مادلين أنّه لم يتناول أدويته، كان ضعيفاً متهدّل الأكتاف، ولونه أبيض كالطباشير. كان يرتدي معطفه، وقد جلس محاطاً بدهشة الخدم على كرسيّ في البهو، هناك حين توضع في بعض الأحيان ملابس الزوّار الذين لا يطيلون البقاء، ثمّ رفع يده نحو مادلين.

- أحضري السيّارة، سنخرج.

أشياء كثيرة كانت تكمن في هذه الكلمات القليلة... أعطت مادلين أوامرها، وذهبت إلى غرفتها، ثمّ عادت مرتدية ملابسها. كانت ترتدي تحت المعطف الرماديّ قميصاً من قماش الاستراتيه الأسْود، له ثنيات

حول الخصر، وقبّعة مُسبلة على الرأس لونها أسود أيضاً. عندما رأى ابنته أمامه، فكّر مسيو بيريكور: إنّها تحبّني. كان يقصد: إنّها تفهمني.

- «هيّا!». قال.

عندما وصل إلى الرصيف أعلم السائق بأنّه لن يحتاج إليه. لم يكن من المعتاد أن يقود السيّارة بنفسه. لم يكن يحبّ ذلك كثيراً، إلّا عندما يفضّل أن يكون وحده.

لم يكن قد ذهب إلى المقبرة سوى مرّة واحدة؛ عند موت زوجته.

وحتّى بعد أن ذهبت مادلين لتبحث عن جسد أخيها لتنقله إلى المقبرة العائليّة، لم يذهب مسيو بيريكور إلى هناك. هي التي أصرّت على «إعادة» أخيها. لو كان الأمر يتعلّق به لاستغنى عن ذلك. ابنه مات من أجل الوطن، ودُفن مع بقيّة المواطنين. كان ذلك ضمن النظام المعتاد للأشياء، لكنّ مادلين كانت تريد. شرح بصرامة أنّه «بحكم موقعه»، لا يمكنه أبداً مجرّد التفكير بترك ابنته تقوم بشيء ممنوع تماماً. وعندما يستعمل مثل هذه المفردات القطعيّة، تكون تلك علامة سيّئة. لم يؤثّر هذا على مادلين. أجابت بأنّها لا تهتم، وهي تستطيع القيام بذلك بنفسها، وفي حال حصل أيّ طارئ، ليس عليه سوى أن يقول: إنّه لم يكن يعلم، وستؤكّد كلامه. أخذت كل شيء على عاتقها. بعد ذلك بيومين، وجدت مغلّفاً فيه النقود التي تحتاج إليها، وكلمة توصيةٍ مقتضبة موجّهة إلى الجنرال موريو.

خلال اللّيل، تم توزيع أوراقٍ ماليّةٍ على الجميع: الحرّاس، حفّار القبور، السائق. قام عاملٌ بفتح مدفن العائلة، وأنزل التابوت بمساعدة عاملٍ آخر، ثمّ أُغلق الباب. اعتكفت مادلين لبرهةٍ أمام القبر، ثمّ أمسك بها أحد الأشخاص من كوعها، وضغط بإلحاح؛ لأنّ اللّيل ليس وقتاً مناسباً.

الآن وقد صار أخوها هنا، تستطيع أن تأتي كلّما أرادت، لكنْ في الوقت الحالي، من الأفضل عدم لفت الأنظار.

لم يعرف مسيو بيريكور أيّ شيء من كلّ هذا، ولم يجرؤ قطّ على طرح أيّ سؤال. في السيّارة التي كانت تقودهما إلى المقبرة، وبجانب ابنته الصامتة، راح يفكّر بكلّ ما اجترّه من أفكار خلال جزءٍ من اللّيل. هو الذي ما رغب بمعرفة أيّ شيء، بدا عليه اليوم التعطّش لمعرفة أدنى التفاصيل... وبمجرّد أن فكّر بابنه، استولت عليه الرغبة في البكاء. لحُسن الحظ أنّ الغلبة كانت للكبرياء، وبسرعة.

قال مسيو بيريكور لنفسه: «إنّ دفن إدوار في مدفن العائلة قد تطلّب نبش قبره». انقبض صدره عندما فكّر بذلك، وحاول أن يتخيّل إدوار مستلقياً، وهو ميّت. لكنّ ما تخيّله كان دائماً موتاً مدنيّاً يرتدي الميّت فيه طقماً، وربطة عنقٍ، وحذاءً ملمّعاً، وتحيط به الشموع.

كان ذلك غباءً منه. حرّك رأسه، وهو حانقٌ على نفسه، وعاد إلى الواقع. ما الذي يشبهه جسدٌ ميّتٌ مضت عليه كلّ تلك الشهور؟ كيف تصرّفوا؟ تصاعدت الصور والأمكنة التي يعرفها، ومن ذلك كله انبثق سؤال لم يكفِهِ اللّيل بطوله للإجابة عنه، وقد دُهش لكونه لم يطرحه قطّ من قبل: لماذا لم يتفاجأ قطّ بأنّ ابنه قد مات قبله؟ مع أنّ ذلك ليس في نظام الأشياء. كان مسيو بيريكور في السابعة والخمسين، غنيّاً، ومحترماً، ولم يقاتل في أيّة حرب. نجح في كلّ شيء خاضه، حتّى في زواجه، وكان على قيد الحياة، وقد خجل من نفسه.

ولغرابة المصادفات، كانت تلك هي تماماً اللّحظة التي اختارتها مادلين داخل السيّارة. نظرت عبر الزجاج إلى الشوارع التي تتلاحق،

ووضعت بكلّ بساطة يدها على يده، كما لو أنّها فهمت. «إنّها تفهمني». قال مسيو بيريكور لنفسه. أراحه ذلك.

وكان لديه ذلك الصهر. كانت مادلين قد ذهبت للبحث عن أخيها في الريف حيث مات (ترى كيف مات على وجه الدقة؟ لم يكن يعرف شيئاً عن ذلك أيضاً...) عادت من هناك مع ذلك المدعوّ براديل الذي تزوّجته في الصيف التالي. اليوم، بالنسبة إلى مسيو بيريكور، صار هناك تكافؤ غريب، وهو أمرٌ لم يثر اهتمامه قطّ عندما حصلت الوقائع. فقد ربط بين اختفاء ابنه ومجيء هذا الرجُل الذي اضطُرّ إلى قبوله صهراً. هو أمرٌ لا يمكن تفسيره، كما لو أنّه عدّه مسؤولاً عن موت ابنه. كان ذلك غبيّاً، لكنّه أقوى منه. ظهر الواحد عندما اختفى الآخر، وعلاقة السبب بالنتيجة سادت آليّاً، ما يعني على نحوٍ طبيعيٍّ بالنسبة إليه.

كانت مادلين قد حاولت أن تفسّر لأبيها كيف جرى اللقاء مع النقيب دولناي براديل، وكم بدا لها لبقاً وناعماً. لم ينصت مسيو بيريكور الذي كان لا يسمع ولا يرى أيّ شيء. لماذا تزوجت ابنته بهذا الرجُل بدلاً من رجُل آخر؟ ظلّ اللغز بالنسبة إليه كاملاً. لم يكن قد فهم شيئاً من حياة ابنه، ولم يفهم شيئاً من موته؛ وفي قرارة نفسه، لم يفهم شيئاً من حياة ابنته، ولا من زواجها. إنسانيّاً، لم يكن يفهم أيّ شيء على الإطلاق. كان حارس المقبرة قد فقد ذراعه اليمنى. عندما مرّ به مسيو بيريكور فكّر: أمّا أنا، فقد فقدت قلبي.

امتلأت المقبرة بالناس. الباعة في الهواء الطلق يعملون بكلّ همّةٍ ونشاطٍ كما لحظ مسيو بيريكور من موقع خبرته كرجُل أعمال. زهور الأقحوان، والنباتات الخضراء، وباقات الزهور تُباع بالمئات. تجارة

موسميّة رابحة، خاصّةً أنّه في تلك السنة كانت الحكومة قد أرادت أن تتمّ جميع احتفالات التأبين في الساعة نفسها في جميع أرجاء فرنسا في الثاني من نوفمبر، وهو يوم إحياء ذكرى الموتى. البلد بأكملها راحت تعتكف عند القبور في حركةٍ تمّت بالإجماع، وعلى نحوٍ موحّد. لحظ مسيو بيريكور من نافذة سيارة الليموزين التي يستقلها جميع التحضيرات. شُدّت الشرائط، ووُضعت الحواجز. كان هناك بعض عازفي الأبواق بملابس مدنيّة يتدرّبون، لكن بصمت. غُسلت الأرصفة، وأزيلت العربات والسيّارات. نظر مسيو بيريكور إلى كلّ ذلك بدون انفعال. فحزنه كان فرديّاً تماماً.

وقفت السيّارة أمام المدخل، وسار الأب والابنة نحو مدفن العائلة. لفّ ذراعه حول كتفيها في حين عانقت هي خصره. كانت الشمس مشرقة، باردة، صفراء، فاتحة، تُبرز الزهور التي تفيض فوق القبور من جانبيّ الممرّ. كان مسيو بيريكور ومادلين قد أتيا بأيدٍ فارغة. لم يفكّر أيٌّ منهما بشراء زهور، مع أنّ الخيار كان متوفّراً في المدخل.

كان المدفن العائلي بيتاً صغيراً من الحجر، على واجهته صليبٌ، وله بابٌ حديديٌّ مسمّرٌ كُتبت عليه جملة: عائلة بيريكور. من الطرفين كانت أسماء النزلاء المحفورة تبدأ مع والدَيْ مسيو بيريكور اللّذَين كانت ثروتهما حديثة تعود إلى أقلّ من قرن.

ترك مسيو بيريكور يديه في جيوب سترته ذات الأطراف الطويلة. لم ينزع قبّعته. لم يفكّر بذلك. كلّ أفكاره كانت عن ابنه وتدور حوله. عادت الدموع، لم يكن يعرف أنّه ما زالت في عينيه دموع. صور إدوار كصبي، ثمّ كشاب. شعر بشوقٍ رهيبٍ إلى كل ما كان قد كرهه فيه: ضحكته، صرخاته.

في اللّيلة السابقة، رأى كيف انبثقت مشاهد منسيّة من زمنٍ طويل. أشياء كانت تعود إلى طفولة إدوار، تلك الفترة التي لم يكن لديه فيها بعْد سوى شكوكٍ حول الطبيعة الحقيقيّة لابنه، وكان يستطيع فيها أن يستسلم لنوع من الرضا المحسوب والملجوم أمام رسوماته التي كانت، وهذا صحيح، تدلّ على نضجٍ نادر. أعاد التفكير ببعض تلك الرسومات. كان إدوار طفلاً ينتمي إلى عصره، ومخيّلته مسكونة بصور غرائبية: قاطرات، طيّارات. في يوم من الأيّام انْشدَهَ مسيو بيريكور أمام الرسم السريع لسيّارة سباقٍ رُسمتْ في منتصف الحركة على نحوٍ واقعيٍّ لا يُصدّق. هو نفسه لم يرَ من قبل سيّارةً على هذه الشاكلة. لكنْ ما الذي كان في هذا الرسم السريع الجامد يُعطي الانطباع بوجود سيّارة سباقٍ سريعة إلى درجة يبدو معها أنّها تطير؟ إنّه لغز. كان عمر إدوار تسع سنوات، وفي رسوماته دائماً حركة كبيرة. حتّى الزهور كانت توحي بوجود نسيم. يتذكّر أيضاً لوحة بالألوان المائيّة تمثّل زهوراً. أيّ نوع من الزهور؟ لا يعرف، لكنّ أوراقها كانت دقيقة للغاية، وذلك كلّ ما يستطيع قوله. إضافةً إلى أنّ ما يحيط بها كان يتم في إطار خاصّ جدّاً. فهم مسيو بيريكور –على الرغم من كونه جاهلاً بهذا الفنّ– أنّ فيه شيئاً فريداً من نوعه. لكنْ أين هي تلك الرسومات؟ تساءل في داخله. هل احتفظت مادلين ببعضها؟ لكنْ لا توجد لديه رغبة في أن يراها من جديد. يفضّل أن يحتفظ بها في داخله. لم يعد يريد أن تخرج هذه الصور منه. من الأشياء التي نبشها من ذاكرته، هناك وجه يتكرّر على نحوٍ خاص، رسم منه إدوار كميّات بجميع الأشكال، مع عنايةٍ خاصّةٍ ببعض القسمات التي يمكن رؤيتها تتكرّر دائماً. تساءل مسيو بيريكور إن كان هذا ما يطلقون عليه تعبير «أسلوب الفنّان». كان وجهاً صافياً جدّاً لشابٍّ شفاهه سميكة، وأنفه طويل بعض الشيء، وواضح، مع غمّازة عميقة وسط الذقن. لكنّ

فيه على الأخصّ نظرة غريبة حولاء بعض الشيء، ولا تبتسم. ذلك كلّ ما يمكن أن يقوله عن ذلك الوجه، الآن وقد وجد الكلمات... لكنْ لمن يقولها، تلك الكلمات؟

بدا على مادلين أنّه قد أثار اهتمامها قبرٌ أبعد بقليل. مشت عدّة خطوات بعيداً عنه وتركته وحْده. أخرج منديلاً ومسح عينيه. قرأ اسم زوجته ليوبولدين بيريكور، اسم عائلتها مارجيس.

لم يكن اسم إدوار موجوداً هناك.

هذا الاكتشاف صعقه.

لا شكّ في أنّه طالما لم يكن من المفترض وجود ابنه هنا، فإنّ حفر اسمه لم يكن ممكناً طبعاً، وهو شيءٌ بديهيٌّ، لكنْ بالنسبة إلى مسيو بيريكور، كان ذلك كما لو أنّ القدر يرفض الاعتراف النهائيّ بموته رسميّاً. كانت هناك بالفعل ورقة، تلك الاستمارة التي تقول: إنّه مات من أجل فرنسا. لكنْ أيّ قبرٍ هذا الذي لا يحقّ لهم حتّى أن يقرؤوا اسمه عليه؟ أدار ذلك في رأسه بمختلف الأشكال وحاول أن يقنع نفسه أنّ الأساسيّ ليس هنا، لكن ما كان يستطيع تجاوز ما يشعر به.

أن يقرأ اسم ابنه الميّت، أن يقرأ «إدوار بيريكور» اكتسب فجأةً أهميّةً رئيسةً في عينيه، بدون أن يعرف لماذا.

هزّ رأسه نحو اليمين ونحو اليسار.

كانت مادلين قد انضمّت اليه، شدّت على ذراعه، وعادا معاً إلى البيت.

أمضى يوم السبت يتلقّى اتّصالات عديدة من الناس الذين كان مصيرهم يتعلّق بصحّته. هيّا يا سيّدي، هل صارت صحّتك أفضل؟ كانوا يسألونه، أو يقولون له: لقد أخفتنا كثيراً يا رجل! كان يجيب بجفاف.

كان ذلك بالنسبة إلى الجميع إشارةً تدلّ على أنّ كلّ شيءٍ عاد إلى سابق عهده.

خصّص مسيو بيريكور يوم الأحد للاستراحة، وشرب الأعشاب، وابتلاع بعض الأدوية التي وصفها له الدكتور بلانش. رتب أيضاً عدّة وثائق، ووجد على الصينيّة الفضيّة بالقرب من مغلّفات البريد لفافةً مصنوعةً من ورقٍ أنثويٍّ كانت مادلين قد وضعتها له، وتحتوي على دفترٍ، وعلى رسالةٍ مكتوبةٍ بخطّ اليد مفتوحة، كانت قديمة.

تعرّف إليها مباشرة. شرب الشاي، وأخذها، فقرأها، وأعاد قراءتها. توقّف طويلاً عند المقطع الذي كان رفيق إدوار يتحدّث فيه عن موته:

(...) بينما كان يطلق النار على الأعداء من أجل حماية الوطن. ابنكم الذي كان غالباً في الصفوف الأولى، قد أصابته رصاصة في صميم قلبه ومات مباشرة. وأستطيع أن أؤكّد لكم أنّه لم يتألّم. إنّ ابنكم الذي كان دائماً يتحدّث عن الدفاع عن الوطن كواجبٍ سامٍ قد حقّق أمنيته في الموت كبطل.

كان مسيو بيريكور رجُل أعمالٍ يدير مصرفاً، ومراكزَ تجاريّةً في المستعمرات، وجمعيّاتٍ صناعيّةً، وبذلك كان شكّاكاً على نحوٍ عميق. لم يصدّق ولا كلمة من هذه الخرافة الجاهزة والمرتّبة من أجل المناسبة، والتي تشبه صورةً ألوانها باهتة، صُنعت خصوصاً من أجل مواساة العائلات. كان خطّ رفيق إدوار جميلاً، لكنّه كتب الرسالة بقلم الرصاص، والرسالة بدأت تقدم، والنصّ قد بدأ يمّحي مثل كذبةٍ غير متقنةٍ لا يمكن لأحدٍ أن يصدّقها. أعاد ثني الرسالة ووضعها في مغلّفها، ثمّ رتّبها في درج من أدراج مكتبه.

بعد ذلك، فتح الدفتر. كان دفتراً مهترئاً، والحلقة المطاطيّة التي تمسك بغلافيه السميكين قد تراخت، كأنّه جال الكرة الأرضيّة ثلاث مرّات، مثل دفتر ملحوظاتٍ دوّنها أحد المستكشفين. فهِم مسيو بيريكور مباشرةً أنّ فيه رسومات ابنه. جنود في الجبهة. عرف أنّه لن يكون قادراً على تقليب جميع أوراقه، وأنّه يلزمه وقت لكي يجابه تلك الحقيقة وذلك الشعور الساحق بالذنب. توقّف عند صورة جنديٍّ بكامل عتاده، والخوذة على رأسه، يجلس مباعداً ساقيه الممدودتين أمامه، وقد ارتخى كتفاه، ومال رأسه قليلاً في وضعيّةٍ متعبة. «لو لم يكن له شارب لكان يمكن أن يكون إدوار». قال لنفسه. هل شاخ كثيراً خلال سنوات الحرب هذه التي لم يره فيها؟ هل ترك هو الآخر شاربه ينمو مثل كثيرٍ من الجنود؟ كم مرّة كتبتُ له أنا؟ تساءل في قرارة نفسه. كلّ هذه الرسومات بالقلم الأزرق؛ أما كان لديه سوى ذلك ليرسم؟ لا بدّ من أنّ مادلين قد أرسلت له طروداً، لا؟ عندما تذكّر كل ذلك، قرف من نفسه، تذكّر أنّه قال لإحدى السكرتيرات، تلك التي كان لها ابن في الجبهة اختفى في 1914 في الصيف: «تذكّري أن ترسلي طرداً لابني...». استعاد مسيو بيريكور منظر تلك المرأة حين عادت إلى مكتبه، وقد تغيّرت ملامحها. خلال الحرب كلها، كانت ترسل طروداً لإدوار كما لو كان ابنها، وكانت تقول له بكل بساطة: «لقد رتّبتُ طرداً». كان مسيو بيريكور يشكرها ويأخذ ورقة ويكتب عليها: «إليك يا إدوار العزيز». ثمّ كان يتردّد حول طريقة التوقيع؛ فلو كتب «بابا» لكان ذلك غير ملائم، و«مسيو بيريكور» مدعاة للسخرية. كان يضع الحروف الأولى من اسمه.

نظر من جديد إلى هذا الجنديّ المُنهك والمُنهار. لن يعرف في حياته ما عاشه ابنه حقيقة. كان عليه أن يكتفي بقصص الآخرين، قصص صهره

على سبيل المثال، قصص بطولات، وهي أيضا كاذبة مثل رسالة رفيق إدوار. لن يكون لديه بعدها سوى ذلك... أكاذيب. ولن يعرف أيّ شيءٍ بعد الآن عن إدوار. كلّ شيءٍ قد مات. أغلق الدفتر الصغير، ووضعه في الجيب الداخليّ لسترته.

كان يمكن لمادلين ألّا تريه الدفتر على الإطلاق، لكنّها تفاجأت بردّ فعل أبيها. هذه الزيارة غير المتوقّعة للمقبرة. هذه الدموع. لم تكن تنتظرها قطّ... الأخدود الذي يفصل إدوار عن أبيه كان قد بدا لها دائماً كواحدةٍ من المعطيات الجيولوجيّة القائمة منذ بداية الزمن، كأنّ الرجُلين كانا قارّتين موضوعتين على منصّتين مختلفتين، ولا يمكن لهما أن تلتقيا بدون إثارة حالةٍ هائلةٍ من الجَزْر. عاشت كلّ شيء، وشاهدت كلّ شيء. مع نموّ إدوار وتطوّر جسده، تحوّل ما كان لدى أبيها من شكوك، ثمّ ظنون، ليصير على مرأى منها نوعاً من الرفض، والعداوة، والنبذ، والغضب، والنكران؛ أمّا إدوار، فكان مشحوناً بالحركة المعاكسة. فما كان في البداية مجرّد طلب محبّةٍ، وحاجة إلى الحماية، سرعان ما تحوّل إلى استفزازاتٍ وانفجارات.

تحوّل إلى إعلان حرب.

ذلك أنّه في نهاية الأمر، هذه الحرب التي لقي إدوار فيها مصرعه كانت قد أُعلنت داخل العائلة قبل ذلك بكثير بين هذا الأب المتصلّب مثل رجُلٍ ألمانيٍّ، وبين ذلك الابن الممتلئ بالغواية، والسطحيّ، والهائج، والساحر. فحين صار عمر إدوار ثمانيَ، أو تسع سنوات بدأت الحرب بين المعسكرين بتصرّفاتٍ غير واضحةٍ، لكنّها تشي بالقلق الذي يعتمل لدى كلٍّ منهما.

ظهر الأب في البداية مهموماً، ثمّ منزعجاً. بعد ذلك بسنتين، وفي أثناء نموّ ابنه، ما عاد لديه أدنى شك. عندها صار بارداً، وبعيداً، وممتلئاً بالاحتقار، في حين راح إدوار يبثّ الاضطّراب، ويثير المشكلات.

ثمّ ما لبثت الفجوة أن صارت بينهما أكبر حتّى وصل بهما الأمر إلى الصمت، صمت لا تستطيع مادلين أن تحدّد تاريخه، لكنّها تعرف أنّ هذين الكائنين وصلا إلى حدّ التوقّف عن الكلام مع بعضهما. رفضا القتال والمواجهة، وفضّلا العداوة التي لا صوت لها، إضافةً إلى ادّعاء عدم المبالاة. كان عليها أن تعود بذاكرتها إلى الوراء كثيراً من أجل أن تحاول تذكّر لحظة الانهيار تلك ضمن هذا الصراع الذي بقي بحالة الحرب الأهليّة الكامنة، وأخذ شكل سلسلةٍ من المناوشات. لكنّها لم تستطع أن تحدّد لحظة البداية. حتماً كان هناك حدثٌ ما جعل الأمور تندلع، لكنّها لم تستطع تحديده. في يوم من الأيّام، وكان عمر إدوار اثنتي عشرة سنة، أو ثلاث عشرة سنة، اكتشفت أنّ الأب والابن توقّفا عن التواصل تماماً إلّا عن طريقها.

هكذا عاشت مراهقتها، وهي تلعب دور الدبلوماسيّ الذي يجد نفسه بين عدوّين لدودين، وبذلك عليه أن يكون جاهزاً لجميع الحلول التوفيقيّة، ولتلقّي الشكاوى من هذا الجانب، أو ذاك، وأن يقوم بتهدئة العداوات، ونزع فتيل الرغبة المستمرّة في المصارعة. ولكثرة ما اهتمّت بهذين الرجُلين، لم تنتبه مادلين إلى أنّها صارت بشعة. ليست بشعة حقّاً، إنّما عاديّة. لكنْ كونها عاديّة في ذلك العمر كان يعني أنّها أقلّ جمالاً من غيرها بكثير. كانت مادلين محاطة في معظم الأوقات بصبايا رائعات، والرجال الأغنياء لا يتزوّجون إلّا نساء جميلات ينجبن أولاداً جميلين.

وهكذا في يوم من الأيّام، ظهر بوضوح اختلاف مادلين عنهنّ بمظهرها الباهت. كان عمرها ستّ عشرة سنة، أو سبع عشرة. كان والدها يقبّلها على جبهتها، ويراها، لكنّه لا ينظر إليها. وما كان في ذلك البيت نساء يساعدنها على معرفة ما يجبّ أن تفعل، وكيف ترتّب نفسها. كان عليها أن تحزر كلّ شيء، وأن تراقب الأخريات، وأن تقلّدهنّ. وكان ذلك يتم دائماً على نحوٍ أسوأ ممّا يجب، خاصّةً أنّها ما كانت تميل كثيراً إلى تلك الأشياء. كانت ترى أنّ شبابها، وما كان يمكن أن يكون عليه جمالها، أو على الأقلّ طباعها، تذوب وتتلاشى لعدم وجود من يهتمّ بها. لديها نقود، وهو ما لا ينقص عند عائلة بيريكور، بل هو البديل عن أيّ شيءٍ آخر، ولذلك كانت تدفع الأموال لعددٍ كبيرٍ، بل ومبالغ به من خبيرات التجميل، والجمال، وطلاء الأظافر، والخياطة. لم تكن مادلين بشعة، لكنّها كانت فتاةً بلا حُب. والرجُل الوحيد الذي كانت تنتظر منه نظرة رغبة، والذي كان وحْده يستطيع أن يقدّم لها شيئاً من الثقة الضروريّة كي تصير صبيّةً سعيدةً، كان رجُلاً مشغولاً، وموقع الصدارة من حياته تحتلّه - كما الأرض تكون محتلة- الأعمال وتقلّبات البورصة، والمؤثّرات السياسيّة... وعلى نحوٍ ثانويّ هذا الابن الذي عليه أن يتجاهله (وهي مهمة كانت تتطلب منه كثيراً من الوقت). كلّ هذه الأشياء كانت تجعله يقول: «آه مادلين، أنت هنا؟ لم أرك، اذهبي إلى الصالون يا حبيبتي، عندي عمل». ولا ينتبه إلى أنّها تكون وقتها قد غيّرت قصّة شعرها، أو ارتدت ثوباً جديداً.

إلى جانب هذا الأب المحبّ الذي لا يأخذ أيّة مبادرة، كان هناك إدوار، إدوار المتدفّق. عشر سنوات، اثنتا عشرة سنة، خمس عشرة سنة. إدوار الذي يفيض عن الحدّ، ويقلب الدنيا رأساً على عقب؛ إدوار

المتنكّر، الممثّل، المجنون، المتطرّف، الجمر المشتعل، المبدع. رسوماته على الجدران بارتفاع مترٍ تجعل الخدم يصرخون، والخادمات يتضرّجن خجلاً، ويطلقن ضحكاتٍ عالية، ويقضمن أطراف أصابعهن في الممرّ أمام الواقعيّة التي لا يمكن تصديقها للرسمة التي تمثل مسيو بيريكور، وقد حوّله إدوار إلى شيطان متورّم يتشبّث بعضوه بشدّة؛ أمّا مادلين، فكانت تمسح عينيها من الضحك، وتستدعي عمّالاً للطلاء مباشرة. وكان مسيو بيريكور يعود ويتفاجأ من وجود العمّال. وكانت مادلين تفسّر: حادث منزلي، لا شيء خطر يا بابا. كان عمرها ستّ عشرة سنة، وكان يجيبها: شكراً حبيبتي. ويريحه جدّاً أن يكون هناك من يأخذ على عاتقه البيت والأمور اليوميّة. لا يمكن أن يكون الإنسان في كلّ مكان. ذلك أنّه قد جرّب كل الإمكانات، وأخفقتْ جميعها. الخادمات المخصّصات للأطفال، المربّيات، الصبايا المقيمات، الوكلاء. لكنّهم كانوا كلّهم يتركون. أيّة حياة! هذا الطفل، إدوار، فيه شيء شيطاني. إنّه ليس طبيعيّاً، أؤكّد لك. «طبيعي» كلمة كبيرة تمسّك بها مسيو بيريكور لأنّه كان لديه ما يكفي من العقل ليصف سلالته التي لا عقل لها.

كانت عدوانيّة مسيو بيريكور تجاه إدوار قد صارت شديدة العمق، ولأسبابٍ تعيها مادلين تماماً: فقد كانت لإدوار هيئة فتاة بالفعل. حاولت كثيراً أن تدرّبه على الضحك «على نحوٍ طبيعيٍّ» في جلسات عملٍ كانت تنتهي غالباً بالدموع. وهكذا صارت عدوانيّة مسيو بيريكور كبيرةً إلى درجةٍ جعلت مادلين ترتاح لكون هاتين القارّتين لا يمكن أبداً أن تلتقيا، فقد كان ذلك أفضل هكذا.

عندما أُبلِغَت العائلة بموت إدوار، تقبّلت مادلين الارتياح الصامت

لمسيو بيريكور. أوّلاً: لأنّ أباها صار كلّ ما تبقّى لها (كما ترون، كان لديها جانب يشبه الأميرة ماريا[1])، وثانياً: لأنّ الحرب قد انتهت؛ وحتّى لو انتهت على نحوٍ سيّئ، فإنّها على الأقل قد انتهت. فكّرت مطوّلاً برغبتها في نقل جسد إدوار. كانت تشتاق إليه كثيراً، والشعور بأنّه بعيدٌ كما لو كان في بلدٍ غريبٍ يوجع قلبها. لكنْ ما كان ذلك ممكناً، فالحكومة تقف في وجه ذلك. تركت الفكرة تنضج، ثمّ اتّخذت قرارها (وقد تصرّفت هنا مثل والدها). عندها، ما عاد من الممكن أن يوقفها أيّ شيء. جمعت المعلومات، وقامت بإجراءات ضروريّة أخفتها عن الآخرين. وجدت الأشخاص المناسبين لذلك. نظّمت الرحلة، وذهبت بدون موافقة أبيها، ثمّ بموافقةٍ منه لتبحث عن جسد أخيها هناك حيث مات، ثمّ دفنته في المكان الذي ستُدفَن هي أيضاً فيه في يوم من الأيّام. بعد ذلك تزوّجت النقيب دولناي براديل الجميل الذي التقت به في تلك المناسبة. كل واحد يختار النهاية التي يقدر عليها.

لكنْ عندما ربطت بين إغماء أبيها في نادي الجوكي، ثمّ انهياره الذي لا يتوافق مع عاداته، وهذا القرار المفاجئ والمذهل بأن يذهب إلى المقبرة حيث لم يذهب قطّ من قبل، وأخيراً دموعه... شعرت مادلين بالضيق من أجله. كانت تتألّم. بعد انتهاء تلك الحرب كان يمكن للعدوّين أن يتصالحا،

(1) في رواية الحرب والسلم لتولستوي، تمضي الأميرة ماريا بولكونسكي حياتها مع والدها الأمير نيكولاس الذي يصفه الكاتب كرجُلٍ صارمٍ ومتطلّب، ممّا يدفع ابنه أندريه للانخراط في الجيش ليتخلّص من سيطرته. يصفُ تولستوي الأميرة ماريا في الرواية كامرأةٍ ذكيّةٍ تفتقر إلى الجمال، لكنّ الطامعين بثروة أبيها يحيطون بها قبل أن تتزوّج بنيكولاس روستوف. هناك في هذه الرواية إرجاع واضح إلى رواية الحرب والسلم وشخصيّاتها، يؤكّد عليه الكاتب في هذه الملحوظة التي ترد في النص. (المترجمة).

لكنّ أحدهما قد مات؛ وهكذا صار حتّى السلام بلا جدوى. وفي شهر نوفمبر 1919 هذا، أصبح البيت حزيناً جدّاً.

في نهاية الصباح، صعدت مادلين ودقّت على باب مكتب أبيها، فوجدته منتصباً ساهماً أمام النافذة. كان اليوم من تلك الأيّام التي تكفهرّ فيها السماء، ويكون لونها حليبيّاً متجانساً. هناك مارّة يحملون زهر الأقحوان، ومن بعيدٍ تُسمع عدّة أصداءٍ لموسيقى عسكريّة. عندما رأت أباها يغوص هكذا في أفكاره، اقترحت مادلين أن تغيّر الجوّ بتناول طعام الغداء معه. وقد وافق مع أنّه لم يكن جائعاً، وكان ذلك يبدو بوضوح. والواقع أنّه لم يلمس أيّ شيءٍ، وأعاد الصحون كما هي بعد أن ابتلع نصف كأسٍ من الماء، وهو مهموم.

- قولي لي...

مسحت مادلين فمها ونظرت إليه متسائلة.

- صديق أخيك هذا...

- ألبير مايار.

- «نعم، ربّما...». قال بيريكور، وهو يتصنّع الشرود: «هل تمّ...؟».

وافقت مادلين، وهي تبتسم، وهزّت رأسها كأنّها تشجّعه.

- نعم، تم شُكرُه بالطبع.

سكت مسيو بيريكور. كانت طريقتها هذه في فهم ما يشعر به وما يريد أن يعبّر عنه قبل أن يفعل ذلك بنفسه مصدر إزعاج دائم بالنسبة إليه، وتثير لديه الرغبة في أن يصبح بدوره الأمير نيكولا بولكونسكي.

- «لا». قال مجدّداً: «أريد أن أقول: نستطيع ربّما...».

- «أن ندعوه». قالت مادلين: «طبعاً. أكيد، فكرة جيّدة جدّاً».

صمتا لمدّةٍ طويلة.

- طبعاً، لا حاجة إلى..

رفعت مادلين حاجبها كأنّها بدأت تتسلّى، وانتظرت هذه المرّة نهاية الجملة التي لم تأتِ. أمام مجالس الإدارة، كان مسيو بيريكور يستطيع بحركةٍ من أهدابه أن يقطع الكلام على أيّ كان؛ أمّا أمام ابنته، فلم يكن يستطيع حتّى أن ينهي جُملَه.

- «طبعاً يا بابا». قالت مجدّداً، وهي تبتسم: «لا حاجة إلى أن نصرخ بذلك على الملأ».

- «لا علاقة لأيٍّ كان بهذا الأمر». أكّد مسيو بيريكور.

عندما يتعلّق الأمر «بأيٍّ كان» فإنّ ذلك يعني «زوجك». فهمته مادلين، ولم يزعجها ذلك.

نهض، وضع حقيبته، ابتسم على نحوٍ مُبهم لابنته، وتحضّر لترك الغرفة.

- «آه... ثم...». قال، وهو يتوقّف لبرهةٍ كما لو تذكّر فجأةً تفصيلاً معيّناً: «اطلبي لابوردان، هل يمكن أن تفعلي ذلك؟ دعيه يأتي لرؤيتي».

عندما كان يقول الأشياء بهذه الطريقة، كان ذلك يعني أن الحالة مستعجلة.

بعد ساعتين، كان مسيو بيريكور يستقبل لابوردان رئيس بلديّة الدائرة الباريسيّة في الصالون الكبير الثقيل ذي الطابع الإمبراطوري. لم يذهب لاستقباله عندما دخل، ولم يصافحه. بقيا واقفين. كان لابوردان متألقاً.

وكما يفعل دائماً، سارع إلى التعبير عن رغبته في تقديم أيّة خدمة، في أن يكون مفيداً، متاحاً، وفي أن يبذل نفسه ويتيحها ويمنحها. آه كم كان بودّه أن يكون غانية!

- صديقي العزيز...

يبدأ الحوار دائماً بهذا الشكل. راح لابوردان يرتعش. هناك من يحتاج إليه، وسوف يقدّم المساعدة. كان مسيو بيريكور يعلم أنّ صهره يستفيد من بعض علاقاته، وأنّ لابوردان قد انقذف مؤخّراً إلى لجنة مناقصات المشتريات العامّة التي تدير قصّة المقابر العسكريّة هذه. لم يتابع مسيو بيريكور الأمر عن كثب، لكنّه اكتفى بتسجيل المعلومات، وكان يعرف الأساسيّ منها. بكل الأحوال، في اليوم الذي يمكن أن يحتاج فيه إلى أن يعرف كلّ شيء، سيقول له لابوردان كلّ شيء، بل أن هذا الأخير كان مستعدّاً لذلك ومقتنعاً بأنّه قد استُدعيَ من أجل طرح هذا الموضوع. سأله بيريكور: «مشروعك عن تشييد صرح تذكاري، إلى أين وصل؟».

تفاجأ لابوردان، وطقطق بشفاهه، وقد فتح عينيه مثل طير الحجل.

- أيّها الرئيس العزيز.

كان يَهِب لقب «رئيس» لكلّ الناس؛ لأنّ الجميع صاروا في الوقت الحالي رؤساء لشيءٍ ما. يشبه ذلك لقب دكتور (*dottore*) في إيطاليا، ولابوردان يحبّ الحلول البسيطة والعمليّة.

- أيّها الرئيس العزيز، دعني أخبرك الحقيقة...

كان يبدو عليه الارتباك.

- «أجل، هذا ما أريد». شجّعه بيريكور على المضيّ: «قُل لي كلّ شيء. سيكون ذلك أفضل».

- الواقع...

لم يكن لدى لابوردان ما يكفي من الخيال كي يكذب، حتّى لو على نحوٍ سيّئ؛ ولذلك قال:

- لقد وصلنا إلى..... لم نصل إلى أيّ مكان.

إنجاز عظيم!

منذ ما يقارب السنة، وهو يشعر بالندم على هذا المشروع، ففكرة وضع رفات جنديٍّ مجهولٍ تحت قوس النصر السنة القادمة كانت تعجب الجميع، لكنّها لم تكن كافيةً. سكّان الدائرة الباريسيّة، وجمعيّات المحاربين القدماء، يريدون صروحاً خاصّاً بهم. كان ذلك مطلب الجميع، وقد جرى التصويت عليه في المجلس.

- لا بل قد عينّا أشخاصاً.

أراد لابوردان أن يُظهر مدى جدّيته في هذا الأمر.

- لكنّ العوائق يا سيّدي الرئيس العزيز. العوائق، لو أنّك تعرف!

انقطع نَفَسه من جرّاء ذلك، ولكثرة ما كانت هناك صعوبات. صعوبات تقنيّة في البداية: كان يجب تنظيم الاكتتاب، وإعلان مسابقة، وتشكيل لجنة تحكيم، وإيجاد مكان؛ إذْ لم يعد هناك أيّ مكان في أيّ موقع. دون أن ننسى تقييم كلفة المشروع.

- ذلك أنّ الكلفة كبيرة... في مشروع كهذا!

النقاش حول ذلك الأمر كان لا ينتهي، وهناك دائماً شيء ما يؤخّر. فبعضهم يريد صرحاً أهمّ من صرح الدائرة المجاورة، وهناك من اقترح مجرّد لوحةٍ تذكاريّة، أو جداريّة، كلّ واحد أدلى بدلوه، وأعطى تعليقاً من عنده، وجادل بتجربته... ولأنّ الخلافات والنقاشات التي لا تنتهي

تجاوزت قدرة لابوردان، فقد ضرب بقبضته على الطاولة، ثمّ وضع قبّعته على رأسه وذهب ليسلّي نفسه في مباراة الملاكمة.

- المال هو السبب الرئيس كما ترى... الخزينة فارغة، وأنت لا تجهل ذلك، فكل شيء يتوقّف على اكتتاب الناس. لكنْ ما هو المبلغ الذي سنحصّله؟ لنفترض أنّنا لم نجمع سوى ما يكفي لدفع نصف كلفة الصرح، كيف سنجد الباقي؟ وسنكون وقتها قد تورّطنا بذلك، نحن!

توقّف تاركاً لحظة صمتٍ ممتلئة بالمعاني ليسمح لمسيو بيريكور أن يقيس هذه النتيجة التراجيديّة.

- لا نستطيع أن نقول لهم: «استرجعوا نقودكم، أغلقنا القضيّة!» هل تفهمني؟ من جانب آخر، إن لم نجمع ما يكفي وأقمنا صرحاً سخيفاً، كيف سيكون ردّ فعل الناخبين؟ سيكون ذلك أفظع من أيّ شيء آخر، هل تفهمني؟

مسيو بيريكور فهم تماماً.

- «أقسم لك». قال لابوردان منهياً الحديث، وقد صعقته ضخامة المهمّة: «يبدو ذلك بسيطاً، لكن في الواقع، تلك مُــ صــيــبـــــة».

شرح كل شيء. شدّ بنطاله إلى الأعلى من الأمام كأنّه يقول: بودّي أن أشرب شيئاً ما الآن. أدرك بيريكور مدى احتقاره لهذا الرجُل الذي كانت لديه رغم كل ذلك ردود أفعال تثير الدهشة، ويحصل ذلك دائماً. على سبيل المثال هذا السؤال:

- لكن، لماذا تسألني أنت هذا السؤال؟

الأغبياء يدهشونك أحياناً. هذا التساؤل لم يكن غبيّاً؛ لأنّ مسيو بيريكور لم يكن يقيم في دائرة لابوردان. لماذا إذنْ جاء ليحشر أنفه في هذه

المسألة المتعلّقة بالصروح التذكاريّة؟ الحدس كان صحيحاً للغاية، وذكيّاً. لكنْ كونه قد أتى من لابوردان فذلك يعني أنّه طفرة في طريقة تفكيره. الواقع أنّ مسيو بيريكور ما كان يترك قط مجالاً لإظهار ما يشعر به بصدق مع شخصٍ ذكيّ، وعلى الأخص مع شخصٍ ذكيّ، لا بل إنّه لم يكن قادراً على ذلك، فكيف إذا ما تعلّق الأمر بشخصٍ نكرة مثل هذا... ثمّ إنّه حتّى لو أراد ذلك، فإنّ تلك قصّة طويلة. قال بجفاء كبير:

- أريد أن اقوم بلفتة؛ الصرح الذي تتكلّم عنه، سوف أدفع كلفته، على نحوٍ كامل.

فتح لابوردان فمه، أغلق جفنيه وفتحهما... حسن، حسن، حسن...

- «عليك أن تجد المكان». تابع بيريكور: «وإن لزم الأمر اهدم ما هو موجود، وليكن جميلاً للغاية، مفهوم؟ ليكلّف ما يكلّف. أعلن عن مسابقة، اجمع لجنة تحكيم من أجل المظاهر، لكن أنا من يقرّر؛ لأنّني أدفع كل شيء؛ أمّا عن الدعاية لهذه المسألة...».

حقق بيريكور في الماضي سيرة مهنيّة بصفته صاحب بنك، ونال نصف ثروته من البورصة، والنصف الثاني من الاستثمار في عدّة صناعات. كان من الممكن له أن ينطلق في مجال السياسة على سبيل المثال، لكنّها أغرت عدداً من زملائه الذين لم يربحوا منها شيئاً؛ أمّا نجاحه هو، فكان يعتمد على مهارته. كان يمقت أن يترك نفسه عرضة لظروفٍ غير أكيدة، وفي بعض الأحيان غبيّة مثل الانتخابات. والواقع أنّه لم تكن لديه خامة سياسيّة، فالسياسة تحتاج قبل كل شيء إلى نوع من حبّ الذات؛ أمّا ما يحبّه هو، فكان المال، والمال يحبّ الظلّ. مسيو بيريكور كان يعدّ التكتّم فضيلة.

- أمّا فيما يتعلّق بالدعاية، فمن البديهيّ أنّني لا أريدها. أسّس شركةً خيريّةً، أو جمعيّةً، أيّ شيء تريد، وسوف أدعمها بما يجب. أعطيك سنة من الزمن. في الحادي عشر من نوفمبر القادم أريد أن يُدشّن النصب، وأن تُحفر عليه أسماء كلّ الذين ماتوا في الدائرة هنا. هل تفهمني؟ كلّهم.

كانت تلك معلومات كثيرة في مرّةٍ واحدة. لزم لابوردان وقتٌ من أجل أن يستوعب. وفي اللّحظة التي توصّل فيها إلى أن يربط كل ذلك ببعضه، وأن يفهم ما بقي عليه أن يفعله، وإلى أيّة درجة كان الرئيس مستعجلاً لتنفيذ رغبته، كان مسيو بيريكور قد مدّ يده نحوه مودّعاً. استعاد لابوردان المضطرب رباطة جأشه، ومدّ يده بدوره، مدّها في الفراغ؛ لأنّ مسيو بيريكور اكتفى بأن ربّت على كتفه، وعاد إلى شقته.

غاص مسيو بيريكور في أفكاره. وقف بجانب النافذة، ونظر إلى الشارع بدون أن يراه. اسم إدوار غير موجود في مقبرة العائلة. ليكن.

لذلك سيبني صرحاً. سيفصّله تفصيلاً على قياسه.

سيكون اسمه فيه، وأسماء كلّ رفاقه من حوله.

كان يرى ذلك ضمن مربّع جميل.

وسط الدائرة التي وُلد فيها.

13

تحت المطر الغزير، وبيده اليسرى المضمّدة، وتحت إبطه علبة الأحذية الكرتونيّة، دفع ألبير السياج الذي انفتح على الباحة الصغيرة حيث كانت تتكدّس أكوام من العجلات، وأغطية العربات المحطّمة، والكراسي المكسورة، وأشياء بلا فائدة لا أحد يعرف كيف وصلت إلى هناك، وبماذا يمكن أن تفيد. كان الطين قد اجتاح كلّ شيء. لم يحاول ألبير حتّى أن يبحث عن البلاطات الموضوعة على شكل رقعة شطرنج؛ لأنّ الفيضانات الأخيرة دفعتها الواحدة بعيداً عن الأخرى إلى درجة يلزم معها القيام بقفزات السيرك لتجنّب البلل. كان حذاء ألبير بلا نعلٍ مطاطيٍّ في الأسفل منذ أن أسلمت آخر قطعة منه روحها. وبكلّ الأحوال، اضطرّ إلى اجتياز الباحة على رؤوس أصابعه مع تلك العلبة الكرتونيّة الممتلئة بالحقن الزجاجيّة، ما جعله يقوم بخطواتٍ راقصة... وصل إلى البناء الصغير الذي رُتّب الطابق فيه ليصبح صالحاً للإيجار بمئتي فرنك، وهو سعرٌ ضئيلٌ جدّاً بالمقارنة مع الإيجارات العاديّة في باريس.

كانت إقامتهما هناك قد تلت بقليل عودة إدوار إلى الحياة المدنيّة في شهر يونيو.

في ذلك النهار، ذهب ألبير لإحضار إدوار من المستشفى، وقد اضطرّ إلى طلب سيارة أجرة على قلّة ما لديه. ومع أنّه صار من الطبيعي منذ نهاية الصراع رؤية كثير من المشوّهين من جميع الأشكال -لا يمكن التشكيك بغنى مخيّلة الحرب في هذا المجال- فإنّ ظهور هذا الغولم[1] الذي يعرج على ساقه المتصلّبة، ووسط وجهه ثقب أخاف السائق الذي كان روسيّاً. ألبير نفسه كانت تنقطع أنفاسه أمام منظر صديقه مع أنّه كان يقوم كل أسبوع بزيارته في المستشفى. وفي الخارج يختلف التأثير عنه في الداخل. كان الأمر أشبه بالتجوّل مع كائنٍ من حديقة الحيوان وسط الشارع. قطعا الطريق كلّه بدون أن يقولا كلمة.

لم يكن لدى إدوار مكان يذهب إليه. وكان ألبير وقتها يشغل غرفةً صغيرةً في الطابق السادس تحت السطوح مفتوحة على كل تيّارات الهواء، في حين تقع المراحيض وحنفيّة الماء البارد في الممرّ. كان ألبير يستحمّ في وعاءٍ داخل الغرفة، ويذهب إلى الحمّامات العموميّة عندما يستطيع ذلك. دخل إدوار إلى الغرفة، وبدا كأنّه لا يراها. جلس على كرسيٍّ قرب النافذة، ونظر إلى الشارع وإلى السماء؛ أشعل سيجارة بمنخره الأيمن. فهم ألبير مباشرةً أنّه لن يتحرّك من هناك، وأنّ هذا العبء سيصبح بسرعة المصدر الحقيقيّ للحياة اليوميّة.

تبدّى مباشرةً أنّ التعايش بينهما صعب. فإدوار كان على نحوله الشديد ضخم الجثّة -لا يوجد ما هو أنحل منه سوى القطّة الرماديّة التي يمكن رؤيتها تمر على السطوح- وبذلك كان بمفرده يشغل المكان برمّته. الغرفة

(1) الغولم في الأساطير العبرانيّة: مخلوقٌ أسطوريٌّ عملاقٌ ومرعبٌ، مصنوعٌ من الطين، أو الصلصال. (المترجمة).

بالأصل صغيرة جدّاً بالنسبة إلى شخصٍ واحدٍ، وعندما يشغلها اثنان يصبح الأمر أشبه بحالة التجاور داخل الخندق، وهو أمرٌ مسيءٌ للمعنويّات. كان إدوار ينام على الأرض على غطاء، يدخّن كل النهار، وساقه المتصلّبة ممدودة أمامه، مديراً نظره نحو النافذة. وكان ألبير قبل خروجه من الشقّة يحضّر له بعض الطعام، والمكوّنات الضروريّة له مثل الماصّة الصغيرة، وقطعة الكاوتشوك، والقمع. كان إدوار يلمس تلك الأشياء، أو لا يفعل، ويظلّ طيلة النهار في المكان نفسه تمثالاً من الملح. يبدو كأنّه يترك حياته تمرّ مثل دماءٍ تنزف من جرح. المجاورة مع الأسى منهكة لدرجة جعلت ألبير يخترع عدّة حجج ليخرج. في الحقيقة، كان يذهب فقط للعشاء في مطعم دوفال، لأنّ مجرّد الحديث إلى شخص على تلك الدرجة من الكآبة كان يخرب له معنويّاته بطريقةٍ رهيبة.

أصابه الخوف.

سأل إدوار حول مستقبله، وهل يريد أن يلوذ بمكان ما. لكنّ النقاش الذي كان يبدأ عدّة مرّات كان دائماً ينتهي بمجرّد أن يرى ألبير درجة الكآبة التي كان عليها رفيقه، وعينيه المبلّلتين، وهما الشيء الوحيد الحيّ في هذه اللوحة المُحبطة، وتلك النظرة الضائعة التي تعبّر عن العجز الكامل.

تقبّل ألبير عندها فكرة أنّه سيحتمل الآن عبء إدوار بالكامل، ولمدّةٍ ستطول، حتّى يتحسّن، وحتّى يستعيد رغبته بالحياة، وحتى يعود للقيام بمشاريع من جديد. قدّر ألبير مدّة هذه النقاهة بالشهور، وهو يرفض أن يتخيّل أنّ الشهر ليس الوحدة المناسبة للقياس هنا.

أحضر له أوراقاً وألواناً، فبدرت عن إدوار حركة تشبه الشكر، لكنّه لم يفتح اللفافة قطّ. لم يكن فيه شيء من الانتهازيّين، أو المستفيدين. كان

أشبه بمغلّفٍ فارغٍ بلا رغبة، بلا أمنيات، وربّما بلا أفكار. ولو أنّ ألبير ربطه تحت جسرٍ ما مثل حيوانٍ أليفٍ يرغب بالخلاص منه، وهرب مطلقاً ساقيه للريح، لما شعر إدوار حتّى بالغضب من جرّاء ذلك..

كان ألبير يعرف كلمة «نوراستينيا»؛ أو الوهن العصبي. استعلم عن الأمر، طرح أسئلة هنا وهناك، والتقط أيضاً كلمة «اكتئاب»، وكلمة «انهيار عصبي»، وكلمة «ليبيمانيا»؛ أو الحزن الدفين، كل ذلك لم يكن مفيداً، فالمهم هو ما يدور أمامه: كان إدوار ينتظر الموت، أياً كان الزمن الذي يستغرقه ليأتي؛ فتلك هي الخاتمة الوحيدة الممكنة. كان يتقبّل بصبر مستكين ليس فقط أقل تغيير ممكن، بل أيضاً الانتقال العادي من حالة إلى أُخرى، مثل العجائز الصامتين والعاجزين الذين ينتهي الأمر بهم بأن يصبحوا غير مرئيّين، فلا يدهشون أحداً في اليوم الذي يموتون فيه.

كان ألبير يتحدّث إليه بدون توقّف؛ أي إنّه كان يتحدّث وحْده، مثل عجوزٍ في مطبخه.

- «أتعرف؟». قال لإدوار، وهو يحضّر له خليط البيض وحساء مرق اللّحم: «كم أنا محظوظ بما يتعلّق بالحوار والحديث! تخيّل لو أنّ من يعيش معي كان شخصاً ينام كل الوقت، أو يحبّ معاكستي في كلّ شيء».

كان يحاول كل ما بوسعه لإبهاج رفيقه، لأنّه يأمل بذلك أن يحسّن حالته، وكذلك أن يكتشف ما ظلّ بالنسبة إليه منذ اليوم الأوّل بمنزلة لغز: ما الذي يمكن أن يفعله إدوار في اليوم الذي يرغب فيه أن يضحك؟ في أحسن الأحوال، يمكن أن يُصدر حشرجات من رقبته تكون حادّة، نوعاً من الهديل الذي يسبب لك الضيق، ويعطيك رغبة في أن تساعده، كما يحصل حين تلفظ كلمة لتساعد شخصاً يتأتئ علق في لفظ مقطع صوتي.

يجعلك ذلك تتشنّج. لحُسن الحظ، لم يكن يصدر عن إدوار شيءٌ شبيهٌ إلّا في حالاتٍ قليلة. ويبدو أنّ ذلك كان يُتعبه أكثر من أيّ شيءٍ آخر؛ أمّا مسألة الضحك، فلم يستطع ألبير أن يحلّها، لا بل إنّه منذ اللّحظة التي دُفن فيها، لم تكن تلك هي الفكرة الوحيدة التي تسيطر عليه كهاجس. فإضافةً إلى التوتّر، والقلق الدائم، والخشية من كلّ ما يمكن أن يحصل، هناك الوساوس التي كان يديرها في رأسه، ويعيد تقليبها بلا توقّف حتّى يتعب، تماماً كما حصل معه في السابق حين سيطر عليه هاجس أن يعيد تشكيل رأس ذلك الحصان النافق. وضع إطاراً للصورة التي رسمها إدوار على الرغم من كلفته العالية. كان ذلك هو العنصر التزييني الوحيد في الغرفة. ولكي يشجّع رفيقه على العودة إلى العمل، أو بكل بساطة على ملء فراغ أيّامه، كان يقف أحياناً أمامه، واضعاً يديه في جيبه، ليعبّر على نحوٍ جليٍّ عن إعجابه بالصورة، وهو يقول: بالفعل، بالفعل، لديه موهبة، إدوار هذا. فقط لو أنّه يرغب بذلك... لكن ذلك ما كان يفيد في شيء؛ فقد كان إدوار يشعل سيجارةً أُخرى بالمنخر الأيمن، أو الأيسر، ويغرق في منظر سطوح البيوت المصنوعة من الزنك، والمداخل التي تشكّل الجزء الأساسيّ من المنظر. ما كانت لديه رغبة بشيء، ولم يخطّط لأيّ مشروع خلال تلك الشهور كلّها في المستشفى؛ حيث كان قد استثمر معظم طاقته في الوقوف بوجه أوامر الأطبّاء والجراحين. ليس فقط لأنّه يرفض حالته الجديدة، إنّما لأنّه ما كان يصل إلى تخيّل اليوم التالي؛ أي: المستقبل. توقّف الزمن لديه مع انفجار الشظايا، هكذا، فجأة. كان إدوار أسوأ من ساعة حائط معطّلة تعطيك الوقت مرّتين في النهار فقط. عمره أربع وعشرون سنة، وبعد جرحه بسنة، لم يتوصّل إلى أن يصبح شيئاً يشبه ما كان عليه من قبل، ولأن يرمّم أي شيء.

ظلّ إدوار لمدّةٍ طويلةٍ مذهولاً، مشدوداً في وضعيّة مقاومةٍ عمياء، مثل جنودٍ آخرين يقال: إنّهم ظلّوا متصلّبين في الوضعيّة التي وجدوا فيها في الخنادق مثنيّين، أو مكوّمين على أنفسهم، أو ملتفّين. ما استطاعت هذه الحرب اختراعه شيءٌ لا يُصدّق. رفضه انصبّ على شخص البروفسور مودريه، وهو حسب رأيه جحش يهتمّ بالطبّ وبتطوّر الجراحة أكثر من اهتمامه بمرضاه. لا شك أنّ في ذلك شيئاً من الصحّة، لكنّ إدوار لم يكن من النوع الذي يهتمّ بالفروق البسيطة. كان رأسه محفوراً في منتصفه، وليس لديه مزاج ليحسب المحاسن والمساوئ. همّه هو المورفين فقط، ويستخدم كلّ طاقاته في محاولة جعلهم يصفونه له. وقد وصل به الأمر إلى أن ينحدر إلى القيام بحيلٍ غير جديرة به: توسّلات، محاولات غشّ، مطالبات، ادّعاءات، اختلاسات، ربّما كان يظنّ أن المورفين سيؤدّي إلى قتله، غير صحيح أبداً. كان يلزمه دائماً كميّة أكبر، ولكثرة ما سمعه البروفسور مودريه يرفض كلّ شيء، زرع الأعضاء، وقطع التبديل، والآلات، انتهى به الأمر بأن يطرده. بالناقص من هذه الأشكال! تعرض عليهم آخر ما توصّلت إليه الجراحة، لكنّهم يفضّلون البقاء كما هُم، وينظرون إلينا كما لو كنّا نحن الذين رمينا المتفجّرات عليهم، زملاؤنا الأطبّاء النفسيّون (كان الجندي لاريفيير قد رأى عدداً كبيراً منهم لكن لم يردّ عليهم قطّ، وظلّ مغلقاً عنيداً)... الأطبّاء النفسيّون إذن كانت لديهم نظريّات حول الرفض العنيد لدى هذا النوع من الجرحى؛ لكنّ البروفسور مودريه الذي لا يبالي بالشروحات، كان يهزّ كتفيه. كان يريد أن يكرّس وقته وعلمه لشبابٍ يكون العمل من أجلهم مجدياً. وقّع استمارة خروج إدوار بدون أن يلقي عليه نظرة.

ترك إدوار المستشفى مع وصفاتٍ دوائيّةٍ، وجرعةٍ أقلّ من أقلّ ما يمكن

من المورفين، ومجموعة كبيرة من الأوراق باسم أوجين لاريفيير. بعد ذلك بساعات، كان يجلس على كرسيٍّ بجانب النافذة، في الشقّة الصغيرة جدّاً التي تعود إلى رفيقه، وقد سقط ثقل العالم كله على كتفيه، كما لو كان قد دخل لتوّه إلى زنزانته بعد صدور الحكم عليه بالسجن المؤبّد.

ما كان إدوار قادراً على ربط الأفكار ببعضها، مع ذلك راح يصغي إلى ألبير، وهو يتحدّث عن الحياة اليوميّة، محاولاً أن يركّز. نعم، بالطبع، يجب التفكير بالمال، هذا صحيح، ما الذي سيصير عليه الآن؟ ما الذي سيفعله بجثّته الضخمة؟ من المستحيل عليه أن يذهب أبعد من فهم فكرةٍ واحدة. كان ذهنه يهرب كأنّه يتسرّب من ثقوب مصفاة. وعندما يعود إلى نفسه، يكون المساء قد حلّ، ويعود ألبير من العمل، أو يكون ذلك في منتصف النهار، والجسد يطالب بإبرته. مع ذلك كان يقوم بجهود، يحاول بالفعل أن يتخيّل ما يمكن أن يحصل. يشدّ على قبضتيه، بدون أن يفيده ذلك في شيء، فأفكاره مائعة تتسرّب من أصغر الفتحات، وتهرب مباشرة تاركة المكان فارغاً أمام عددٍ لا يحصى من الأفكار المجْترّة. يسيل ماضيه مثل نهرٍ، بدون نظامٍ، وبدون أولويّات. ما يتردّد في ذهنه غالباً هي أمّه. بقي لديه منها أشياء قليلة. وراح يتمسّك بإصرارٍ بذلك القليل الذي يخرج إلى السطح، بقايا مبهمة تتمركز في أحاسيس: عطر برائحة المسك يحاول أن يستعيده، طاولة التواليت الورديّة مع كرسيّها المنفوخ المزيّن بالترتر، الكريمات، وفراشي الشعر، ونعومة الساتان الذي أمسك به في مساء ما عندما كانت تنحني عليه، أو تلك الميداليّة الذهبيّة التي كانت تفتحها له، وهي تنحني عليه، كما لو كانت تريه سرّاً. بالمقابل ما كان يعود إليه شيء من صوتها، ولا شيء من كلماتها، ولا من نظرتها. ذابت أمه في ذكرياته، ونالها المصير نفسه الذي نال جميع الكائنات الحيّة التي عرفها. هذا الاكتشاف أخافه.

منذ أن صار بلا وجه، انمحت من ذهنه جميع الوجوه الأخرى. وجوه أمّه، أبيه، رفاقه، عشّاقه، أساتذته، وجه مادلين... كانت مادلين تعاوده كثيراً هي أيضاً، لكن بدون وجهها. ما ظلّ موجوداً هو ضحكتها. لم يعرف ضحكة أكثر التماعاً من ضحكتها. من أجل سماع هذه الضحكة، كان إدوار يفعل أشياء مجنونة، ولم يكن ذلك صعباً: رسمة، تكشيرتين مضحكتين، رسم كاريكاتوريّ لخادم. الخدم أيضاً كانوا يضحكون، لأنّ إدوار لم يكن شرّيراً، وكان ذلك واضحاً، لكن ما كان يضحكها على الأخصّ هو التنكّر الذي كانت لديه موهبة في إتقانه، ويميل إليه بلا حدود. سرعان ما تحوّل التنكّر إلى التزيّن بزينة امرأة. أمام الماكياج الذي كان يضعه، تصبح ضحكة مادلين ضحكة مستعارةً، ليس من أجلها، إنّما «من أجل بابا». كما كانت تقول: «ماذا لو رأى ذلك؟». كانت تحاول الانتباه إلى كلّ شيء، حتّى أبسط التفاصيل.

في بعض الأحيان كان الوضع ينتهي بأن يفلت من بين يديها. وعندها كانت جلسة العشاء تصبح باردةً كالثلج، وثقيلةً؛ لأنّ إدوار كان ينزل، وهو يدّعي أنّه نسي أن يمسح الريميل عن أهدابه. وبمجرّد أن يرى مسيو بيريكور ذلك كان يقف، يضع منديل المائدة في الصحن، ويطلب من ابنه أن يخرج من غرفة العشاء. «هه، ماذا!». كان إدوار يصرخ، وعلى وجهه أمارات الغضب المزيّف: «ما الذي فعلتُه؟». لكنه في ذلك الموقف، ما كان يُضحِك أحداً.

كل هذه الوجوه قد اختفتْ، حتّى وجهه هو، ولم يبق منها أي شيء. في عالم بلا وجوه، بماذا يتمسّك؟ وضدّ من يقاتل؟ لم يعد ذلك بالنسبة إليه سوى عالم من ظلال أشخاص قُطعت رؤوسهم؛ وحيث تتضاعف بنوع من التعويض نسب الجسم مثل نسب جسد أبيه الضخمة. كانت

أحاسيس طفولته الأولى تنبثق مثل فقاعات. في بعض الأحيان كان يسترجع الارتعاش الناعم للخشية الممزوجة بالإعجاب عند ملمس جسد أبيه، وفي أحيان أخرى تلك الطريقة التي كانت لديه بأن يقول، وهو يبتسم: «أليس كذلك يا بني؟» وهو يطلب منه أن يكون شاهداً في نقاشات الكبار على أشياء لا يفهمها. كان يمكن القول: إنّ مخيّلته قد أقفرت وتقلّصت إلى صور جاهزة، وهكذا، في بعض الأحيان، كان والده يتبدّى له مسبوقاً بظلٍّ واسعٍ وكثيفٍ مثل الغول في الكتب المصوّرة. وظهر أبيه! هذا الظهر العريض والمرعب الذي بقي يبدو له عملاقاً حتّى صار هو أيضاً بطوله، وانتهى بأن يتجاوزه. هذا الظهر الذي كان وحده يعرف تماماً كيف يعبّر عن عدم الاهتمام، والاحتقار، والقرف.

كره إدوار أباه في الماضي، وانتهى الأمر. التقى الرجُلان في احتقارٍ صار متبادلاً، وانهارت حياة إدوار لأنّ الكراهية لم تعد فيها لتسندها. لقد خسر هذه الحرب أيضاً.

هكذا كانت الأيّام تمرّ وتتوالى في استعادة صور وأحزان. كان ألبير يذهب ويعود. وعندما كان يجب مناقشة شيء ما (ألبير يرغب دائماً بالنقاش)، كان إدوار ينبثق خارجاً من حلمه. تكون الساعة قد صارت الثامنة، وهو لم يشعل الضوء بعد. يبدأ ألبير يحوص مثل نملة، ويتكلّم بكثير من الحميّة. وما يمكن استخلاصه من كلّ ذلك هو وجود صعوبات ماليّة. كان ألبير ينقضّ كالصاعقة كل يوم على ثكنات فيلغران التي أقامتها الحكومة من أجل المُعدمين تماماً، ويقول: إنّ كلّ شيء يذوب بسرعةٍ مجنونة. لم يذكر قطّ ما يكلّفه المورفين، وتلك طريقته في أن يبدو حسّاساً. كان يتكلّم عن المال عموماً، لكنْ بنبرةٍ شبه فَرِحة، كما لو كان الأمر يتعلّق بضيقٍ مؤقّتٍ سوف يجري التندّر به فيما بعد، وكما يحصل في

بعض الأحيان في الجبهة، حيث يجري التعامل مع الحرب على أنّها مجرّد تنويعةٍ عن الخدمة العسكريّة، أو أشغال شاقّة صعبة تترك في النهاية وراءها ذكريات طيّبة؛ وذلك لبثّ الاطمئنان في النفوس.

بالنسبة إلى ألبير، ستُحلّ المسألة الاقتصاديّة لحُسن الحظ، وهي مجرّد مهلةٍ ليس أكثر، وتعويض العجز الذي سيناله إدوار سيخفّف من العبء الماليّ، ويسمح بتلبية احتياجات رفيقه. هو جنديٌّ ضحّى بحياته من أجل الوطن، وصار إلى الأبد غير قادرٍ على استعادة نشاطه العاديّ، هو واحدٌ من أولئك الذين ربحوا الحرب، والذين جعلوا ألمانيا تركع.... كان ذلك موضوعاً لا ينضب بالنسبة إلى ألبير؛ وكان يقوم بجمع تعويض التسريح من الجيش، مع الغذاء، وتعويض الإعاقة، وراتب المشوّهين...

رفع إدوار رأسه بحركة لا.

- «كيف لا؟». سأله ألبير.

يا سلام، فكّر في سرّه، طبعاً، طالما أنّ إدوار لم يقم بالمساعي، ولم يملأ الأوراق، ولم يرسلها.

- «أنا من سيقوم بذلك يا صديقي». قال ألبير: «لا تقلق».

رفع إدوار من جديد رأسه بحركة لا. وبما أنّ ألبير لم يفهم، قرّب لوح الأردواز الذي يتحادثون عبره، وكتب بالطبشور «أوجين لاريفيير».

قطّب ألبير حاجبيه. عندها نهض إدوار، واستخرج من حقيبته العسكريّة مطبوعة مدعوكة كُتب عليها «كيف يُقدَّم ملفّ من يستحق العلاوات، أو المعاشات». مع قائمةٍ بالوثائق التي يجب تقديمها من أجل المثول أمام اللّجنة. توقّف ألبير عند الأوراق التي وضع تحتها إدوار نفسه خطّاً أحمر: شهادة عن سبب أو منشأ الجرح، أو المرض - جرد لأوّل سجلّات طبيّة

عند الانخراط في الجيش، وعند العلاج - استمارة التخريج - فواتير أوّل دخول إلى المستشفى.

كان ذلك صدمةً رهيبة.

مع ذلك كان الأمر بديهيّاً. لم يجرِ الإبلاغ عن شخصٍ اسمه أوجين لاريفيير أُدخِلَ إلى المستشفى كجريحٍ في النقطة 113. من يجب أن يأتي ذكره في السجل هو إدوار بيريكور الذي سُحب من ساحة المعركة، ومات بعدها بسبب جروحه، وهناك أوجين لاريفيير الذي نُقل إلى باريس. لكنّ أبسط تحقيقٍ إداريٍّ سوف يبيّن أنّ هذه القصّة غير قابلةٍ للتصديق، وأنّ الجريح الذي قُبِل في المستشفى؛ أي إدوار بيريكور، ليس هو نفسه أوجين لاريفيير الذي كان قد خرج من المستشفى بعد يومين، ونُقل إلى مستشفى رولان في جادّة ترودين. بذلك سيكون من المستحيل تقديم الوثائق المطلوبة.

إدوار قد غيّر هويّته، وهو لا يستطيع أن يثبت أيّ شيء بعد الآن، ولن يقبض أيّ شيء.

ولئن ذهب التحقيق إلى أبعد من ذلك ليصل إلى السجلّات، وإلى الحيلة التي تمّت، وإلى المستندات المزورة، فإنّ ذلك سيؤدّي إلى السجن وليس إلى قبض التعويض.

هيّأت الحرب روح ألبير لتقبّل المصائب، لكنّه في هذه المرّة شعر بنفسه مسحوقاً. نظر إلى هذا الموقف كنوعٍ من الظلم، بل أسوأ من ذلك، كنوع من النكران. «ما الذي فعلتُه». قال لنفسه، وقد جنّ جنونه. الغضب الذي كان يعتمل في داخله منذ تسريحه انفجر فجأة. ضرب رأسه ضربة عنيفة في الدعامة، فسقط الإطار مع رسمة الحصان، وانكسر الزجاج من

منتصفه. ووجد ألبير نفسه جالساً على الأرض منهكاً، وعلى جبينه ندبة ظلّت ظاهرةً لمدّة أسبوعين تقريباً.

ما زالت عيون إدوار مبلّلة. لكنْ ما كان يجب أن يبكي كثيراً أمام ألبير؛ لأنّ هذا الأخير كانت دموعه تسيل بسهولةٍ بسبب وضعه الشخصيّ في تلك الفترة. فهم إدوار ذلك، واكتفى بأن وضع يده على كتف ألبير. كان يشعر بأسفٍ رهيب.

بسرعة، كان يجب العثور على مكانٍ لشخصين: أحدهما مجنون، والثاني معاق. والمدّخرات التي لدى ألبير كانت مضحكة. ظلّت الصحف تنشر في كلّ مكانٍ أنّ المانيا سوف تعوّض على نحوٍ كامل كلّ ما خرّبته خلال الحرب؛ أي: ما يقارب نصف البلاد. بانتظار ذلك لم تتوقّف كلفة الحياة عن التصاعد، ولم تكن الرواتب قد صُرفتْ بعد، والعلاوات لم تُدفع، ووسائل النقل فوضى عارمة، والتموين مستحيل؛ ولذلك ساد التهريب. كثيرٌ من الناس كانوا يعيشون من وسائل غير شرعيّة، ويتبادلون الصفقات لأنّ كل واحدٍ كان يعرف أحداً يعرف أحداً، أو يعرف آخر. كان يجري تناقل المعلومات والعناوين. وهكذا وصل ألبير إلى رقم 9 في حارة بيرس المسدودة، أمام بيت برجوازي حُشر داخله ثلاثة مستأجرين. في الباحة، يوجد بناءٌ صغيرٌ كان قد استُخدم في السابق كمستودع، وصار الآن مكاناً للمهملات، والطابق الأعلى منه غير مسكون. كان فارغاً معدماً، لكنّه كبيرٌ وفيه مدفأة فحم تخدم المكان، خاصّة أنّ السقف لم يكن مرتفعاً للغاية. بيت الماء الجاري يقع تحته تماماً، وفيه نافذتان كبيرتان وإطار خشبي يحيط بقماش رُسمت عليه راعيات ومجموعة خراف ومغازل، لكنّه كان ممزّقاً من منتصفه، وخيطَ بخيطان سميكة.

انتقل ألبير وإدوار إلى البيت الجديد، ووضعا المتاع في عربة تُجرّ باليد؛ لأنّ الشاحنات تكلّف غالياً. كان ذلك في بداية شهر سبتمبر.

مدام بيلمون، مالكة البيت الجديد، فقدت زوجها في عام 1916، وأخاها بعد ذلك بسنة. ما تزال صبيّة، وربّما جميلة، لكنّها تحمّلت الكثير إلى درجة لم يعد يظهر معها إن كانت جميلة أم لا. كانت تعيش مع ابنتها لويز. أعلنت عن ارتياحها لمجيء «رجلين شابّين» لأنّها، في هذا البيت الكبير، داخل هذه الحارة المسدودة، ما كانت تستطيع وحدها أن تعتمد على المستأجرين الثلاثة الحاليّين في حال حصول مشكلات، لأنّهم كلّهم مسنّون. كانت تدبّر أمورها على نحوٍ متواضعٍ من الأجرة التي تقبضها، وتقوم بتنظيف البيوت هنا وهناك. فيما تبقّى من الوقت كانت تجلس بلا حراكٍ وراء نافذتها، تنظر إلى الكراكيب التي كدّسها زوجها في الماضي، والتي صارت اليوم بلا فائدة، ويطالها الصدأ في الباحة، ويراها ألبير بمجرّد أن ينحني على النافذة.

ابنتها لويز كانت قادرةً على تدبير أمورها بمهارةٍ كبيرة. كانت في الحادية عشرة، وعيونها تشبه عيون القطّة مع بقع نمشٍ في كلّ مكان. وهي مدهشة. في بعض الأحيان تكون ممتلئة بالحيويّة مثل مياهٍ متدفّقةٍ على الصخور، وبعد ذلك بلحظة تصير متأمّلةً وجامدةً مثل لوحةٍ محفورة. كلامها قليل، ولم يسمع ألبير نبرة صوتها سوى نادراً، ولا تبتسم أبداً. على الرغم من ذلك كانت جميلة بالفعل، ولو استمرّت في النموّ بهذه الطريقة فلسوف تثير عدداً لا بأس به من المشاجرات. لم يستطع ألبير أن يفهم قطّ كيف توصّلت إلى أن تغزو قلب إدوار، فهو في العادة لا يرغب برؤية أحد. لكنّ هذه الطفلة لا يوقفها شيء. منذ اليوم الأوّل ظلّت واقفة تراقب، هناك، في

أسفل الدرج. الأطفال فضوليّون، خاصّة البنات، والجميع يعرفون ذلك. لا شكّ في أنّ أمّها قد حدّثتها عن المستأجر الجديد.

- ليس جميلاً على ما يبدو، ولذلك لا يخرج أبداً حسب ما قاله لي صديقه الذي يهتمّ به.

بذلك، وبالضرورة، لا يوجد أفضل من هذا النوع من الجُمل لإثارة فضول فتاةٍ في الحادية عشرة. «سوف تملّ...». قال ألبير لنفسه. لكنّ ذلك لم يحصل قطّ. وهكذا، لكثرة ما كان يلتقي بها في أعلى السلّم جالسةً على درجةٍ بالقرب من الباب، ولأنّه يراها تنتظر، وبمجرّد أن تسنح لها الفرصة ترمي نظرةً إلى الداخل، فتح ألبير الباب لها على مصراعيه. بقيت الفتاة عند العتبة، وفمها مفتوح مثل دائرةٍ جميلةٍ مكتملةٍ، وعيونها شبه مغمضة، ولا يصدر عنها أيّ صوت. يجب القول: إنّ جبهة إدوار كانت مشهداً حقيقيّاً بوجود هذا الثقب الواسع المفتوح، وتلك الأسنان العلويّة التي تبدو أكبر مرّتين ممّا هي عليه في الواقع. لا يشبه ذلك أيّ شيء معروف من قبل. وقد قال له ألبير ذلك بدون مواربة: «يا رفيقي، أنت مخيفٌ فعلاً، ما رأى أحدٌ من قبل رأساً على هذه الشاكلة. يمكن لك على الأقل أن تراعي الآخرين». قال له ذلك من قبل ليحثّه على إجراء زرع الأعضاء، لكنْ بلا فائدة. ولكي يعطي إثباتاً على قوله أشار إلى الباب الذي هربت منه البنت الصغيرة خائفة بمجرّد أن رأته؛ أمّا إدوار الذي لا يهزّه شيء، فقد اكتفى بسحب نفحة جديدة من السيجارة عبر أحد منخريه، وهو يغلق الآخر. كان يخرج الدخان من الفتحة نفسها التي دخل منها، وليس عبر الحنجرة. «ليس هكذا، لا تفعل ذلك يا إدوار!». كان يقول له ألبير. لا أستطيع أن أتحمّل. حقيقة يخيفني ذلك. كأنّك بركانٌ يثور. أقسم لك! انظر إلى نفسك في المرآة،

وسترى»... إلخ. كان ألبير قد أخذ رفيقه ليسكن عنده في منتصف شهر يونيو فقط، لكنّهما كانا يتصرّفان كأنّهما عاشا حياتهما معاً. الحياة اليوميّة كانت صعبةً جدّاً؛ لأنّ المال لم يكن يكفي قطّ. لكنْ كما يحصل أحياناً، قرّبت الصعوبات الرجُلين بنوع من اللُّحمة. ألبير كان شديد الحساسيّة تجاه المأساة التي عاشها صديقه، ولم يكن يتخلّص من فكرة أنّه لو لم يأت إدوار لإنقاذه.... وفوقها، حصل ذلك قبل عدّة أيّام فقط من نهاية الحرب؛ أمّا إدوار، فكان من جهته يشعر بأنّ ألبير يتحمّل وحده عبء حياتيهما، ولذلك حاول أن يخفّف ذلك الحمل، فأخذ على عاتقه تنظيف البيت. أما قلت لكم؟ كانا يشكّلان ثنائيّاً حقيقيّاً.

عادت لويز الصغيرة للظهور بعد أيّامٍ قليلةٍ من هروبها الأوّل. ظنّ ألبير أنّ منظر إدوار يمارس عليها نوعاً من السحر. ظلّت لبرهة واقفة على عتبة الغرفة الكبيرة. وبدون أن تعلن عن ذلك، اقتربت من إدوار ومدّت سبّابتها نحو وجهه. ركع إدوار على ركبتيه -طبعاً، فقد رأى ألبير منه العجائب- وترك الفتاة تتبع بإصبعها أطراف هذه الهوّة الواسعة. كانت ساهمة، مهتمّة تماماً بما تقوم به، كأنّها تكتب وظيفتها. كأنّها تمرّ بدقّةٍ بالقلم الرصاص على أطراف خارطة فرنسا لتتعلّم رسم شكلها.

بدءاً من تلك اللّحظة بالذات بدأت علاقتهما هما الاثنين. كانت بمجرّد عودتها من المدرسة تصعد عند إدوار. تجمع من أجله من هناك وهناك جرائد اليوم الفائت، والأسبوع الماضي. ذلك هو الشيء الوحيد المعروف الذي ينشغل به إدوار: قراءة الجرائد، قصّ المقالات. ألقى ألبير نظرةً على الملفّ الذي يحفظ فيه إدوار قصاصاته: أشياء حول موتى الحرب، الاحتفالات بذكراهم، قوائم المختفين. كان ذلك حزيناً جدّاً. لم يكن إدوار يقرأ الجرائد اليوميّة الباريسيّة فقط، إنّما أيضاً جرائد

المحافظات. وكانت لويز تتوصّل دائماً إلى أن تجدها له، ولا أحد يعرف كيف. في كلّ يومٍ تقريباً كان لإدوار نصيبه من الأعداد القديمة من جرائد لويست إيكلير، جورنال دو روان، ليست ريبوبليكان. كانت لويز تكتب وظائفها على طاولة المطبخ بينما يقوم هو بتدخين سجائر «كابورال»، ويقصّ المقالات. أما أمّ لويز فما كان يبدر عنها أي ردّ فعل.

في إحدى الأمسيات في منتصف شهر سبتمبر، كان ألبير قد عاد متعباً من جولته كرجُل «سندويش»، فقد أمضى طيلة بعد الظهر يدور في الجادّات الكبيرة بين ساحتَي الباستيل وريبوبليك، وهو يرتدي الإعلانات من الجهتين (من جهة إعلان لدواء الحديد «بينك»: «وقت قصير يكفي لتغيير كل شيء»، ومن الجهة الأُخرى إعلان لمشدّ «جوفينيل»: «مئتي مستودع في فرنسا!»). عندما دخل، وجد إدوار مستلقياً على الأريكة القديمة عثمانيّة الطراز التي لمّها من الشارع قبل أسبوعين وحملها إلى البيت مستفيداً من عربة صديقٍ قديمٍ له كان قد تعرّف إليه في معركة السوم، وهو رجُلٌ فقد ذراعه فراح يستخدم ما تبقّى له من قوّة ليجرّ ثقل الحمولة، وكانت تلك وسيلته الوحيدة للبقاء على قيد الحياة.

كان إدوار يدخّن بمنخرٍ واحدٍ، ويرتدي ما يشبه القناع لونه أزرق كحليّ، يبدأ تحت الأنف، ويغطّي كل أسفل الوجه حتّى الرقبة مثل لحية ممثّلٍ في التراجيديا اليونانيّة. اللّون الأزرق كان غامقاً، لكنّه ملتمعٌ، وفيه نقاط متناهية الصغر مذهّبة، كما لو أنّك رميت قصاصات ذهبيّة فوقه قبل أن ينشف.

أظهر ألبير دهشته. قام إدوار بحركةٍ مسرحيّةٍ بيده كأنّه يسأل: «هيّا، كيف أبدو؟». كان ذلك مثيراً للفضول. للمرّة الأولى منذ أن عرف إدوار

رأى لديه تعبيراً إنسانياً بحتاً. في الواقع، لا يمكنه قول أيّ شيء آخر. كان جميلاً جداً.

سمع عندها ضجّةً مكتومةً على يساره. أدار رأسه، وبالكاد كان لديه الوقت ليرى لويز تنسلّ نحو الدرج وتختفي. لم يسمعها تضحك قطّ من قبل.

بقيت الأقنعة، وبقيت لويز.

بعد ذلك بعدّة أيّام، كان إدوار يرتدي قناعاً أبيض تماماً، رُسم عليه فمٌ مبتسمٌ، ومن فوقه بدت عيناه ضاحكتين ملتمعتين. كان يشبه ممثلاً من المسرح الإيطالي، سغاناريل، أو بلياتشيو. من وقتها صار إدوار عندما ينهي قراءة جرائده يجعلها عجينة تصلح لصنع أقنعةٍ بيضاء مثل الطبشور، يقوم مع لويز برسمها، أو تزيينها. ما كان في البداية مجرّد لعبةٍ سرعان ما صار يستغرق الوقت بأكمله. كانت لويز هي الساحرة الكبيرة، فهي التي تجلب ما تعثر عليه من قطعٍ برّاقة، أو لآلئ، أو أقمشةٍ، وكذلك أقلام التلوين السائل، وريش النعام، وجلد الحيّة الصناعي. إضافةً إلى الجرائد التي تأتي بها، لا شكّ في أنّها تقوم بعملٍ حقيقيٍّ حين تركض في جميع الاتّجاهات لتعثر على هذه الكراكيب. لو طلُب ذلك من ألبير لما عرف من أين يأتي بكل هذا.

كان إدوار ولويز يمضيان وقتهما في صنع الأقنعة. لا يرتدي إدوار القناع نفسه مرّتين. الجديد يطرد القديم الذي يُعلّق مع زملائه من المدّة نفسها على جدران الشقّة مثل غنائم الصيد، أو مثل عرض لقطع التنكّر في مخزنٍ للمتحوّلين جنسيّاً.

كانت الساعة تقارب التاسعة مساءً عندما وصل ألبير إلى أسفل السلّم، وعلبة الكرتون تحت ذراعه.

يده اليسرى التي جرحها اليونانيّ بسكّينه تؤلمه على نحوٍ مرعبٍ، على الرغم من ضماد الدكتور مارتينو، ومزاجه المعكّر. هذه المؤونة التي حصل عليها بعد صراع مرير سمحت له ببعض الراحة. فالبحث عن المورفين كان يستحوذ عليه بقدْرٍ كبيرٍ، ويثير جزع رجُلٍ مثله لديه بالأصل استعداد لجميع أنواع الانفعالات، ويمكن التأثير عليه بقدْرٍ كبير... في الوقت نفسه لم يكن يتوقّف عن التفكير بأنّه يحمل هنا ما يكفي لقتل رفيقه عشرين مرّة، بل مئة مرّة.

قام بخطوات ثلاث، رفع الستارة البلاستيكيّة المغبرّة التي تغطّي البقايا الممزّقة لدرّاجةٍ ثلاثيّة العجلات، ودفع مجموعة الأغراض التي تعيق الوصول إلى الحاوية، ووضع فيها علبة الكرتون الثمينة.

في الطريق، كان قد قام بحساب سريع. إن اكتفى إدوار بالجرعات الحاليّة، وهي مرتفعة نوعاً ما، فهناك ما يكفي لستّة أشهر تقريباً من راحة البال.

14

ربط هنري دولني براديل آليّاً بين البجعة التي تعلو فتحة الرادياتور أمامه، وبين الجثّة الضخمة لدوبريه الجالس بقربه. ليس لأنّ هناك أيّة علاقة تشابه بينهما، على العكس، كانا متناقضين تماماً، وربّما أنّ هذا ما جعل هنري يقارن بينهما؛ ليؤكّد على تعاكسهما. لو لم تكن للبجعة تلك الأجنحة الواسعة التي يلمس طرفها الدقيق الأرض، أو هذا العنق الطويل الذي يمتدّ بأناقةٍ مجنونةٍ، وينتهي بمنقارٍ مدروسٍ، لكان يمكن لها في خضمّ طيرانها أن تشبه بطّة بريّة، لكنّ كتلتها كانت أكبر... وأكثر... (بحث هنري عن الكلمة) أكثر «اكتمالاً». الله وحْده يعرف ما الذي يقصده بهذه الكلمة. «وهذه الخطوط على الأجنحة». قال لنفسه بكثير من الإعجاب: «مثل ثنيات القماش... وحتّى الأطراف الخلفيّة بانحناءتها الخفيفة... تبدو كأنّها تخترق الهواء أمام سيّارة، بدون حتّى أن تلامسها، كأنّها تفتح الطريق، مثل كتيبة الاستطلاع». ما كان براديل يستطيع التوقّف عن الانبهار ببجعته.

بالمقارنة معها، كان دوبريه بالفعل كتلة ضخمة بدينة. لم يكن جنديّ استطلاع، بل مشاة. مع هذه الصفة الخاصّة بكتائب المشاة التي تعتمد شعار الإخلاص، والأمانة، والواجب، وغير ذلك من التفاهات...

بالنسبة إلى هنري، كان العالم ينقسم إلى فئتين: حيوانات الجرّ التي كُتب عليها أن تعمل كثيراً، وعلى نحوٍ أعمى حتّى النهاية، وأن تعيش كلّ يومٍ بيومه؛ ومخلوقات النخبة التي تستحقّ كلّ شيءٍ بسبب «العامل الشخصي». يعشق هنري هذا التعبير الذي قرأه في أحد الأيّام في تقريرٍ عسكريٍّ، واعتنقه.

دوبريه، الرقيب الأوّل دوبريه كان يمثّل على نحوٍ رائع الفئة الأولى: فهو شغّيل، ولا نكهة له، وعنيد، وعديم الموهبة، وعلى أهبة الاستعداد دائماً.

أمّا البجعة التي اختارتها شركة هيسبانو سويزا شعاراً لسيارة H-6-B (محرك 6 سيلاندر بقوة 135 حصان، وسرعة 137 كم بالساعة!)، فكانت تمثّل سرْب الطائرات الذي قاده جورج غوينيمير[1]، وهو كائنٌ استثنائيٌّ من «عيار» هنري نفسه، سوى أنّ غوينيمير قد مات في حين أنّ هنري ما يزال حيّاً، وبذلك حقّق تفوّقاً لا جدال فيه على بطل الطيران.

من جهة كان هناك دوبريه، ببنطاله القصير جدّاً، وملفّه الذي يضعه على ركبتيه، والذي منذ أن تركا باريس راح يتأمّل بإعجاب صامتٍ لوحة قيادة السيّارة المصنوعة من عقدة خشب الجوز، وهي الاستثناء الوحيد لقرار هنري في تركيز معظم أرباحه على ترميم مزرعته في منطقة لا سالوفيير. من الجهة الأخرى، هناك هنري دولني براديل نفسه، صهر مارسيل بيريكور، وبطل الحرب الكبيرة، والذي صار مليونيراً في سنّ الثلاثين، ويعِدُ نفسه

(1) جورج غوينيمير: طيّارٌ فرنسيٌّ من الكتيبة رقم 3 المسمّاة كتيبة البجع. يعدّ غوينيمير أسطورة الحرب العالميّة الأولى؛ حيث إنّه حقّق 53 انتصاراً على الألمان، واستطاع النجاة سبع مرّاتٍ بعد استهداف طائرته من قِبل العدو. وكتيبة البجع هي التي أوحت لشركة هيسبانو سويزا بشعار سيّارتها التي يقودها براديل. (المترجمة).

بالوصول إلى قمّة النجاح، والذي يقود سيّارته بسرعةٍ أكثر من مئةٍ وعشرة كيلومترات بالساعة على طرقات منطقة أورليان، وقد سحق في طريقه كلباً ودجاجتين هم أيضاً من حيوانات الجرّ. كان لا يتوقّف عن العودة إلى هذه الفكرة. حيوانات الجرّ، منها ما يطير، ومنها ما يقع قتيلاً.

أمضى دوبريه خدمته العسكريّة تحت إمرة النقيب براديل، وحين صدر قرار تسريحه من الجيش، قام هذا الأخير بتشغيله مقابل راتب هزيلٍ كان مؤقّتاً، وصار دائماً منذ اليوم التالي لتشغيله. ولأنّ أصوله الفلاحيّة عوّدته على الرضوخ أمام الظواهر الطبيعيّة، فقد عدّ هذا الخضوع في الحياة المدنيّة استمراريّةً منطقيّةً لما كانت عليه الأمور.

وصلوا إلى وجهتهم في آخر فترة الصباح.

أمام النظرات المعجبة لما يقارب ثلاثين عاملاً على وجه التقريب، صفّ هنري سيّارته الليموزين المهمّة في منتصف الباحة. وهي طريقة ليُظهر من هو المعلّم. المعلّم هو الذي يأمر. ينادونه أيضاً الزبون، أو الملك، لا فرق.

كانت منشرة النجارة التي يملكها لافاليه قد ظلّت بلا نشاطٍ خلال ما يقارب ثلاثة أجيال حتّى جاءت العناية الإلهيّة بالحرب التي سمحت له أن يقدّم للجيش الفرنسيّ مئات الكيلومترات من العوارض، والدعامات، والجدران الاستناديّة من أجل بناء ودعم وتصليح الخنادق والممرّات المتعرّجة التي تصل بينها، وهكذا انتقل الأمر من استخدام ثلاثة عشر عاملاً إلى استخدام أكثر من أربعين. غاستون لافاليه لديه هو أيضاً سيّارةٌ جميلةٌ جدّاً، لكنّه لم يكن يخرجها إلّا في المناسبات المهمّة. لسنا في باريس هنا.

تبادل هنري ولافاليه التحيّة في الباحة. لم يعرّفه هنري على دوبريه، لكنّه سيكتفي فيما بعد بالقول: «تنهي الأمر مع دوبريه»، وعندها سيستدير لافاليه، ويقوم بحركةٍ صغيرةٍ برأسه لمسؤول الورشة الذي يسير خلفهما، وكان ذلك بديلاً عن التعريف به.

قبل الزيارة، كان لافاليه يريد أن يقدّم مأدبةً بسيطةً، وقد اختار شرفة المنزل التي تقع على يمين المشاغل الواسعة. كاد هنري يرسم بيده إيماءة رفض، لكنّه رأى الفتاة الصبيّة هناك ترتدي مريولاً، وتنتظر الزوّار، وهي تمسّد شعرها. أضاف لافاليه أنّ ابنته ايميليين قد حضّرت شيئاً من حواضر البيت. في النهاية قبل هنري:

- لكنْ بسرعة في هذه الحالة.

من هذه المشاغل خرجت العينّة الرائعة للتوابيت المخصّصة لقسم رفات الجنود. نعشٌ رائعٌ من شجر السنديان، نخبٌ أوّل يستحقّ ثمنه الذي يصل إلى ستّين فرنكاً. الآن وقد قام بما يجب ليجذب لجنة مناقصات المشتريات العامّة، صار يمكنه الانتقال إلى الأشياء الجديّة، إلى التوابيت التي سوف تُسلَّمُ بالفعل.

كان براديل ولافاليه في المشغل الرئيس، تلاهما دوبريه ومراقب عمّالٍ لبس بدلة يوم الأحد الزرقاء من أجل المناسبة. مرّا أمام سلسلة من التوابيت المصفوفة الواحد إلى جانب الآخر، متصلّبة مثل جنودٍ ميّتين، وتبدو نوعيّتها السيّئة واضحة للعيان.

- «أبطالنا...». بدأ لافالييه حديثه بلهجة العالم، وهو يضع يده على نعشٍ من شجر الكستناء، نموذج مأخوذ من وسط الصفوف.

- «لا تزعجني بقصص كهذه». قاطعه براديل: «ما الذي لديك بأقل من ثلاثين فرنكاً؟».

في النهاية كانت ابنة المعلّم بشعة عن قرب (عبثاً كانت تمسّد شعرها، فهيئة الأرياف ظلّت واضحة عليها)، وكان النبيذ الأبيض فاتراً، وحلاوته زائدة، وما قُدِّمَ معه لا يؤكل. لقد هيّأ لافاليه لزيارة براديل كما لو كان يحضّر لاستقبال ملكٍ زنجيٍّ، في حين لم يتوقّف العمّال عن تبادل النظراتِ وضرباتٍ بالأكواع. كلّ ذلك أثار أعصاب هنري الذي كان يرغب أن يتم العمل بسرعة، ناهيك عن رغبته بأن يكون في باريس وقت العشاء، فقد وعده أحد الأصدقاء بأن يقدّم له ليوني فلانشيه، وهي ممثلة ڤودڤيل[1] كان قد رآها في الأسبوع الفائت. فتاة تزلزل الحواس. كل الناس يقولون ذلك، وهو يريد أن يتأكّد بنفسه، وبسرعة.

– لكنْ، همم...! ثلاثون فرنكاً، ليس هذا ما اتّفقنا عليه...

– «ما اتَّفقنا عليه، وما سنفعَله شيئان مختلفان». قال براديل: «ولذلك دعنا نعيد النقاش من البداية، لكنْ بسرعة؛ لأنّ لديّ أشياء أُخرى، وليس هذا فقط».

– لكنْ، يا مسيو براديل.

مكتبة
t.me/soramnqraa

– دولناي براديل.

– طيب، إذا أردت...

حدّق هنري فيه بثبات.

– «حسناً يا مسيو دولناي براديل». عاد لافاليه للقول بلهجة المربّي تقريباً، وكأنّه يريد التهدئة: «طبعاً لدينا توابيت بهذا السعر، وهذا بديهي».

– بهذه الحال، هذا ما سآخذه.

(1) فنٌّ مسرحيٌّ يحوي وسائل ترفيه متنوّعة، انتشر على نحو كبير في مطلع القرن العشرين. (المترجمة).

-... لكنْ هذا غير ممكن!

رسم براديل على وجهه تعبير أقصى حالات الاندهاش.

- «بسبب النقل، يا سيّدي العزيز». أعلن النجّار بلهجة العالم: «لو كان الأمر يتعلّق بالذهاب إلى المقبرة المجاورة، لكان كلّ شيء على ما يرام.. لكنّ توابيتكم مجهّزة للسفر. ستذهب من هنا إلى كومبينيه، وإلى لاون. بعدها ستوضع، وتُركّب، ويُعادُ نقلها إلى مكان نبش القبور، وبعدها يُعاد نقلها إلى المقابر العسكريّة، وذلك كلّه يجعل الطريق طويلاً.

- لا أرى أين وجه الصعوبة.

- ما نبيعه بهذا السعر، بثلاثين فرنكاً، هو خشب حور. مقاومته ضعيفة! سيلتوي التابوت ويتكسّر، بل وسينهار أيضاً، وهو غير مصمّم بحيث يمكن إصلاحه. يلزمك على الأقلّ خشب زان. أربعون فرنكاً. وهذا من أجلك، أعطيك هذا السعر بسبب الكميّة، وإلّا فإنّ السعر خمسة وأربعون فرنكاً...

أدار هنري رأسه نحو اليسار.

- وهذا، ما هذا؟

بدأ الأمر ينصلح. وراح لافاليه يضحك ضحكة كشفت عن حنجرته، ضحكة مزيّفة، رنّانة.

- هذا شجر بتولى!

- كم قيمته؟

- ستٌّ وثلاثون.

- وهذا؟

أشار هنري إلى تابوتٍ عتيق، من الطراز الذي سبق النوعيات المصنوعة من الخشب المستعمل.

- هذا خشب صنوبر!

- كَم؟

- هممم... ثلاثة وثلاثون.

- ممتاز.

وضع هنري يده على التابوت، ربّت عليه مثل حصان سباقٍ، وهو شبه معجبٍ، لكنْ لا أحد يعرف ما الذي أعجبه، نوعيّة الصنع؟ السعر المنخفض؟ أم عبقريّته الخاصّة؟

ظنّ لافاليه أنّه يجب أن يبرهن عن حرفيّته:

- إن سمحت لي، هذا النموذج ليس مناسباً تماماً للاحتياجات، كما ترى...

- «الاحتياجات؟». قاطعه هنري: «أيّة احتياجات؟».

- النقل، سيّدي العزيز. مرّة ثانية، النقل. كلّ شيء يكمن هنا!

- أرسل التوابيت على شكل ألواح، في البداية لا توجد مشكلة.

- نعم في البداية..

- وعند الوصول، تركّبها، لا توجد مشكلة.

- لا، بالطبع. الصعوبة كما ترى، وأسمح لنفسي بأن أصرّ على ذلك، تكمن في اللحظة التي تبدأ فيها بتحريكها. تُنزلها من الشاحنة، تضعها، تغيّر مكانها، تنزل الجثمان فيها...

- فهمت. لكنْ في تلك المرحلة، لا تعود المسألة تخصّك. أنت تسلّم، وهذا كلّ شيء، أليس كذلك يا دوبريه؟

كان هنري محقاً في أن يلتفت نحو مسؤول الورشة؛ لأنّ تلك ستكون

مشكلته هو. حتّى إنّه لم ينتظر الجواب. كان لافاليه يريد أن يزيد السعر، أن يتحدّث عن سمعة مشغله، أن يؤكّد... لكنّ هنري قاطعه وسط انطلاقته:

- قلت لي: ثلاثة وثلاثون فرنكاً؟

أخرج النجار المفكّرة بسرعةٍ من جيبه.

- نظراً إلى الكميّة التي أوصي عليها، سيكون السعر ثلاثين فرنكاً، أليس كذلك؟

بحث لافاليه عن قلمه، وبانتظار أن يجده، كان قد خسر ثلاثة فرنكات إضافيّة على كل تابوت.

- «لا، لا، لا!». صرخ: «إنّها ثلاثةٌ وثلاثون مع احتساب الكميّة».

ساد الشعور بأنّه في هذه المرّة، وحول هذه النقطة بالذات، يمكن أن يظلّ لافاليه صامداً لا يتزحزح. بدا ذلك من وضعيّة قدميه

- ثلاثون فرنكاً، لا. لا مجال للنقاش!

بدا كأنّه قد صار فجأةً أطول بعشرة سنتمترات، احمرّ وجهه، ارتجف قلمه، صار من الصعب التعامل معه، من النوع الذي يمكن أن يعرّض نفسه للقتل مباشرةً من أجل ثلاثة فرنكات.

هزّ هنري رأسه مطولاً بمعنى: فهمت، فهمت، فهمت...

- «حسناً». قال في النهاية بنوع من المراضاة: «طيّب، ثلاثة وثلاثون فرنكاً..».

كانت المفاجأة قويّةً مع هذه الإضافة المفاجئة. كتب لافاليه الرقم على دفتره الصغير، هذا النصر غير المنتظر جعله يرتجف، وقد أُنهِك وملأته الخشية.

- «قل لي يا دوبريه...». عاد هنري إلى القول وقد بدا عليه القلق.

تشنّج الجميع مجدّداً: لافاليه، دوبريه، المعاون، كلهم.

- بالنسبة إلى كومبيينيه ولاون، الطول متر وسبعون، لا؟

كانت المناقصات تختلف حسب الطول، وتتراوح بين التوابيت التي يبلغ طولها متراً وتسعين سم (عددها قليل) ومتراً وثمانين (عدّة مئات)، ثمّ تنخفض في معظم الصفقات إلى مترٍ وسبعين، وهو الطول الوسطي. كانت هناك عدّة مجموعات من توابيت أصغر، من متر وستّين حتّى مترٍ وخمسين.

وافق دوبري. متر وسبعون، جيّد.

- «قلنا: ثلاثة وثلاثون فرنكاً للمتر وسبعين». عاد براديل إلى القول موجّهاً الكلام إلى لافاليه: «وماذا عن المتر وخمسين؟».

تفاجأ الجميع بهذه المقاربة الجديدة، ولم يفهم أحد ما الذي تعنيه على أرض الواقع هذه التوابيت الأقصر من المتوقّع. لم يكن النجّار قد فكّر بهذه الفرضيّة، وصار عليه أن يحسب. أعاد فتح دفتره، وضرب الأعداد بثلاثة، فاستغرق ذلك زمناً طويلاً. انتظر الجميع النتيجة، وظلّ هنري واقفاً أمام تابوت خشب الصنوبر. توقّف عن تمسيد طرفه، واكتفى بأن يحيطه بنظره كما لو كان يَعِد نفسه بجولةٍ من المتعة مع فتاةٍ وصلت حديثاً.

رفع لافاليه عينيه في النهاية، وصلت الفكرة داخل ذهنه.

ثلاثون فرنكاً... أعلن بصوتٍ أبيض.

- «ها ها». قال براديل وفمه شبه مفتوح، وهو ساهم.

بدأ كلّ واحدٍ يفكّر بالنتائج العمليّة. وضع جنديّ ميّت طوله مترٌ وستّون في تابوتٍ طوله مترٌ ونصف!؟. في ذهن مراقب العمّال، كان يجب ثني رأس الميّت، ووضع ذقنه على صدره؛ أمّا دوبريه، ففكّر بالعكس:

بضع الجثمان على بطنه مع ثني ساقيه قليلاً. من جهته، لم يفكّر غاستون لافاليه بأيّ شيء. كان قد فقد ابني أخيه في يومٍ واحدٍ في معركة السوم. طالبت العائلة بالرفات. وقام بنفسه بصنع التوابيت من خشب السنديان السميك مع صليبٍ كبيرٍ، وقبضاتٍ ذهبيّة. كان يرفض تخيّل الطريقة التي يمكن معها إدخال أجسادٍ طويلةٍ في نعوشٍ أصغر منها بكثير.

أخذ براديل عندها هيئة شخصٍ يطلب معلوماتٍ بدون نتائج، فقط للفائدة، لمجرّد المعرفة.

- قل لي يا لافاليه، لو تحدّثنا عن توابيت طولها متر وثلاثون، كم برأيك يكون سعرها؟

بعد ساعة من ذلك كان قد وُقِّعَ الاتّفاق المبدئيّ بأن يُنقل مئتا تابوتٍ يوميّاً من محطّة دورليان. السعر بالمفرّق نزل إلى ثمانية وعشرين فرنكاً. وكان براديل راضياً جدّاً عن المفاوضات؛ فقد استطاع بذلك أن يسدّد ثمن سيّارته الهيسبانو-سويسا.

15

جاء السائق مرّةً جديدةً ليخبر المدام أنّ سيّارة المدام تنتظر المدام، وأنّه إن كانت المدام تريد أن تتفضّل... عندها أشارت مادلين بيدها بإشارة: «شكراً يا أرنست. سوف آتي». وقالت بصوتٍ ينمّ عن الأسف:

- أنا مضطرّة إلى تركك يا إيفون. آسفة!

هزّت إيفون دو جاردان بوليو يدها. «حسنٌ، حسنٌ، حسنٌ». لكنّها لم تنهض. الجلسة كانت جميلة جدّاً. من الصعب الذهاب الآن.

- «ما هذا الزوج الذي لديك يا عزيزتي!». عادت إلى القول بإعجاب: «كم أنت محظوظة!».

ابتسمت مادلين بيريكور بهدوء، ونظرت بتواضعٍ إلى أظافرها، وهي تفكّر في سرّها «يا حقيرة!» وأجابت ببساطة:

- هيّا، أنت أيضاً لديك عشّاقك المتيّمون.

- «آه أنا». أجابت الشابّة، بلهجة من يدّعي الرضوخ للأمر الواقع.

أخوها ليون كان قصيراً بالنسبة إلى رجُل؛ أمّا إيفون، فكانت جميلةً، إذا ما وجد الإنسان أنّ الحوت جميلٌ طبعاً، -أضافت مادلين في سرّها- فمٌ كبيرٌ وسوقيٌّ، فمٌ عديم الصبر، يوحي مباشرةً بأشياء بذيئة. الرجال

يدركون ذلك على الفور، ففي عمر 25 سنة، كانت إيفون قد «شفطت» نصف أعضاء نادي الروتاري. مادلين تبالغ، نصف الروتاري أمرٌ مبالغ به. لكي نعذرها، يمكن أن نفهم لماذا هي قاسية إلى تلك الدرجة معها: فقبل أقلّ من أسبوعين كانت إيفون تنام مع هنري، وهذه الطريقة في أن تسارع مباشرةً إلى زوجته من أجل أن تستمتع بالمشهد كانت بذيئةً للغاية. أكثر بذاءةً بكثير من مضاجعة زوجها، وهو ما لم يكن صعباً قطّ بحدّ ذاته؛ فعشيقات هنري الأُخريات كنّ يُبْدين صبراً أكبر. على الأقلّ كنّ ينتظرْن مناسبةً ما للاحتفال بانتصاراتهنّ، كادّعاء حصول لقاءٍ عفوي. في النهاية، كلّهنّ متشابهات، كلهنّ مسفوحات، مبتسمات، متكلّفات: «آه، ما هذا الزوج الذي لديك يا عزيزتي، كم أحسدك!». إحداهنّ وصلت بها الوقاحة في الشهر الماضي إلى أن تقول: «انتبهي عليه يا حبيبتي، سوف يسُرق منك».

منذ أسابيع لم تعد مادلين ترى هنري تقريباً. أسفار كثيرة ومواعيد، بالكاد لديه الوقت ليضاجع صديقات زوجته، هذا التكليف من الحكومة كان يستحوذ عليه تماماً.

عندما يعود، يكون الوقت متأخّراً. تنام فوقه.

في الصباح ينهض مبكّراً. قبل ذلك تنام فوقه.

في بقيّة الأوقات، كان ينام فوق الأُخريات، ويذهب في مهمّات خارجيّة. كان يتّصل، يترك رسائل، أكاذيب. كلّ الناس يعرفون أنّه غير مخلص (بدأت الأقاويل تنتقل منذ نهاية شهر مايو عندما رأوه برفقة لوسيين دوركور).

كان مسيو بيريكور يتألّم من هذا الوضع. «ستكونين تعسة»، قال لها محذّراً عندما حدّثته عن فكرة الزواج به. لكنّ ذلك لم يفد في شيء.

وضعت يدها فوق يد أبيها، وهذا كلّ شيء. قال: «موافق». هل يمكنه أن يفعل شيئاً آخر؟

- «هيّا!». ضحكت إيفون مع قرقرة: «هذه المرّة، سوف أتركك».

ها قد قامت بمهمّتها. يكفيها أن ترى الابتسامة الجامدة على وجه مادلين. وصلت الرسالة.

ابتهجت إيفون.

- «لطيف منك أن تأتي». قالت مادلين، وهي تنهض.

لوّحت إيفون بيدها. هذا لا شيء. لا شيء. تبادلتا القبلات في الهواء، وألصقتا وجناتهما ببعضها. «ها أنا ذاهبة، إلى اللّقاء». ما من شكّ في أنّ هذه كانت أحقر واحدةٍ من بين الجميع.

هذه الزيارة غير المتوقّعة أخّرتها كثيراً. نظرت مادلين إلى ساعة الحائط الكبيرة. في النهاية، ذلك أفضل. في الساعة السابعة والنصف مساء، لديها حظّ أكبر في أن تجده في البيت.

كانت الساعة قد تجاوزت الثامنة عندما أقلتها السيّارة إلى مدخل حارة بيرس المسدودة. من حديقة مونسو إلى شارع ماركاديه لا يجري الانتقال من دائرةٍ إلى أُخرى وحسب، بل من عالمٍ إلى عالمٍ آخر. من الأحياء الجميلة إلى عامّة الشعب، ومن الترف إلى مجرّد تدبّر الأمور. أمام قصر بيريكور، أمرٌ عاديٌّ أن تجد سيّارة باكار توين سيكس وسيارة كاديلاك 51 بمحرك V8؛ أمّا هنا، فقد اكتشفت مادلين عبر أكوام خشب السياج الذي يأكله الدود مشهد العربات المحطّمة التي تُجرّ باليد بدواليبها التي تنتمي إلى عصورٍ بائدة. لم تشعر بالخوف. كانت تحمل في داخلها شيئاً من

الليموزين ورثته عن أمّها، وشيئاً من عربات الجرّ ورثته عن أبيها الذي كان أجداده من أصولٍ متواضعة. حتّى لو كان الفقر موجوداً لدى الجهتين في السلالات الأولى فقط، فإنّ ذلك كان جزءاً من تاريخ مادلين. الشعور بالشدّة والقلّة، مثل الطهرانيّة، أو الإقطاعيّة، هو شيءٌ لا يضيع على نحوٍ كامل، وتتوالى آثاره عبر الأجيال. أمّا سائق السيّارة أرنست - يطلق اسم أرنست على كل سائقي السيّارات عند عائلة بيريكور، على اسم أوّل سائق كان لديهم ـ أمّا أرنست، وبعد أن رأى مادلين تبتعد، فقد نظر إلى الباحة بهيئة قرف، ذلك أنّه في عائلته، لم يكن هناك سائقون سوى من جيلين فقط.

سارت مادلين بحذاء السياج، رنّت جرس البيت، انتظرت لحظة طويلة، ثمّ رأت في النهاية امرأةً لا عمر لها، فقالت لها: إنّها تريد أن تتحدّث إلى السيّد ألبير مايار. انتظرت المرأة أن تفهم الطلب، وأن تربطه بهذه الصبيّة المترفة، المهفهفة، المزيّنة بالمساحيق التي تقف أمامها، والتي يأتي إليها عطرها الشبيه برائحة البودرة مثل ذكرى قديمة. اضطرّت مادلين إلى أن تكرّر: مسيو مايار. بدون أن تنبس المرأة بأيّة كلمة، دلّتها على الباحة، هناك، على اليسار. قامت مادلين بحركةٍ من رأسها، واتّجهت تحت أنظار المرأة وأرنست معاً نحو السياج المنخور، دفعته ومشت في الطين بخطواتٍ كبيرةٍ بدون تردّدٍ حتّى وصلت إلى مدخل المستودع الصغير حيث اختفت، لكنّها توقّفت بعد ذلك تماماً؛ لأنّ الدرج فوق رأسها كان يرتعش تحت خطوات شخصٍ ينزل. رفعت بصرها وتعرّفت إلى الجندي مايار يحمل دلوَ فحمٍ فارغاً بيده، وقد توقّف هو أيضاً بلا حراكٍ بين درجتين قائلاً: «هه؟ ماذا؟». كان يبدو عليه الضياع، تماماً كما في المقبرة، في اليوم الذي نُبش فيه جثمان إدوار المسكين.

تجمّد ألبير، وفمه مفتوح.

- «صباح الخير مسيو مايار». قالت مادلين.

تأمّلت للحظة قصيرة هذا الرأس الشاحب، وهذه الهيئة الفائرة. كانت لديها في الماضي صديقة عندها كلب صغير لا يتوقّف عن الارتعاش. لم تكن تلك حالة مرضيّة لديه، بل كان هكذا بطبعه، يرتعد من رأسه حتّى قدميه، لأربعٍ وعشرين ساعة من أربع وعشرين. وفي يومٍ من الأيّام توقّف قلبه ومات. ألبير جعلها مباشرةً تفكّر بهذا الكلب.

تحدّثت إليه بصوتٍ ناعمٍ للغاية كما لو كانت تخشى إن واجهته مفاجأة كهذه أن ينخرط في البكاء، أو يركض ليختبئ بالكهف؛ أمّا هو فقد بقي أخرسَ ينتقل من قدمٍ إلى قدمٍ أُخرى، وهو يبلع لعابه. استدار نحو أعلى الدرج بهيئةٍ قلقة، بل وخائفة... مادلين كانت قد لحظت تلك الخصلة لدى هذا الصبي، هذا الخوف الدائم من أن يحصل له شيء ما من وراء ظهره، هذه الخشية المستمرّة. السنة الماضية في المقبرة كان يبدو ضائعاً، مزعزعاً، وعلى وجهه ذلك التعبير عن النعومة والسذاجة الذي نجده لدى الرجال الذين يعيشون في عالمٍ خاصٍّ بهم.

أمّا ألبير، فكان من جهته مستعدّاً لأنْ يعطي عشر سنوات من عمره مقابل ألّا يجد نفسه في هذا الموقف محشوراً بين مادلين بيريكور المُعسكرة في أسفل الدرج، وأخيها الذي يُفترض أنّه ميّت، وهو في الطابق الأعلى يدخّن من منخريه تحت قناعٍ أخضر بريشٍ أزرق مثل ببّغاء. لا شكّ في أنّ ألبير خُلق ليكون رجُل سندويش؛ فقد راح يهزّ دلو الفحم مثل خرقة مطبخٍ عندما أدرك أنّه لم يحيّي المرأة الشابّة. مدّ إليها يداً سوداء، ثمّ اعتذر مباشرةً، ووضعها وراء ظهره، ونزل الدرجات الأخيرة.

- «لقد تركتَ عنوانك على رسالتك». قالت مادلين بصوتٍ ناعمٍ: «ذهبتُ إلى هناك، ووالدتك هي التي أرسلتني إلى هنا».

دلّت بيدها على المشهد: المستودع، الباحة، الدرج، كما لو كانت تشير إلى شقّةٍ برجوازيّة، وابتسمت. وافق ألبير، وهو غير قادرٍ على لفظ مقطعٍ صوتيٍّ واحد. كان يمكن أن تأتي في اللّحظة التي كان يفتح فيها كرتونة الأحذية، وأن تفاجئه، وهو يرفع منها إبر المورفين، لا بل راح يتصوّر ما كان يمكن أن يحصل لو أنّ إدوار نزل مصادفةً في تلك اللحظة ليبحث عن الفحم بنفسه... هذا النوع من التفاصيل هي التي تجعلنا نرى أنّ القدر شيءٌ عجيب...

- «نعم». قال ألبير في النهاية بدون أن يعرف عن أيّ سؤالٍ كان يجيب.

كان يريد أن يقول: «لا. لا. لا أستطيع أن أدعوك للصعود إلى البيت، ولأن تشربي شيئاً، هذا مستحيل!». لم تجد مادلين بيريكور أنّه غير مهذّب، بل عزَتْ موقفه إلى المفاجأة، وإلى الحرج.

- في الواقع، أبي يرغب في أن يتعرّف إليك.

- لماذا أنا؟

جاءت جملته مثل صرخةٍ من القلب، بصوتٍ مشدود. رفعت مادلين كتفيها بإشارة البداهة.

- لأنّك حضرت اللحظات الأخيرة لأخي.

قالت ذلك، وهي تبتسم بلطف، كما لو كانت تذكر طلب شخص مسنّ يجب تقبّل بعض نزواته.

- نعم، بالتأكيد.

الآن وقد استعاد رباطة جأشه، لم تعد لدى ألبير سوى رغبة واحدة. أن

تذهب قبل أن يقلق إدوار وينزل، أو يسمع صوتها، وهو في الأعلى، ويفهم من هناك، على بعد أمتار منه.

- «اتّفقنا». أضاف.

- غداً، ممكن؟

- لا، غداً مستحيل!

تفاجأت مادلين بيريكور من حماسة هذا الجواب.

- «أقصد». عاد ألبير إلى الكلام ليعتذر: «في يومٍ آخر، إن أردت، لأنّ غداً...».

لم يكن قادراً أن يشرح لأيّ سبب كان يوم غدٍ غير مناسبٍ لتلك الدعوة. كان بحاجةٍ فقط إلى أن يستجمع توازنه. للحظة تخيّل ما كان يمكن أن تكون المحادثة بين أمّه وبين مادلين بيريكور، ابيضّ وجهه من التفكير بذلك. كان خجلاً.

- «في أيّ يوم تستطيع المجيء إذنْ؟». سألته الشابّة.

استدار ألبير مرّةً أُخرى نحو أعلى السلّم. فكّرت مادلين بأنّ هناك امرأةً في الأعلى، وأنّ وجودها يحرجه، لم تكن تريد أن تورّطه.

- «السبت إذن؟». اقترحت عليه لكي تنهي الأمر: «على العشاء».

قالت ذلك بنبرةٍ مَرِحة، شبه شَرِهة، كما لو أنّ الفكرة خطرت لها لتوّها، وأنّهم سيمضون وقتاً ممتعاً معاً.

- حسنٌ...

- «ممتاز». قالت لتنهي الحديث: «لنقل: في الساعة السابعة، هذا يناسبك؟».

- حسنٌ...

ابتسمت له.

- سيكون والدي سعيداً جدّاً.

انتهت الاحتفاليّة الصغيرة المهذّبة، بعدها حلّت لحظة قصيرة من التردّد، تشبه الاعتكاف. أعادها ذلك إلى لقائهما الأوّل. تذكّرا أنّهما كلاهما، بدون أن يعرفا بعضهما، كان لديهما شيءٌ مشتركٌ مرعبٌ، شيءٌ ممنوع: هذا السرّ. نبش جثّة جنديٍّ ميّتٍ، ونقله بالتهريب... «أين وُضعتْ في النهاية، تلك الجثّة؟». تساءل ألبير. عضّ على شفتيه.

- «نحن نسكن في جادّة كورسيل». قالت مادلين، وهي تعيد ارتداء قفّازها. عند زاوية شارع بروني، ستجده بسهولة.

هزّ ألبير رأسه: «الساعة السابعة مساء. اتّفقنا، شارع بروني، سهل العثور عليه. السبت». صمت.

- سأتركك الآن يا مسيو مايار. أشكرك كثيراً.

قامت بنصف التفافةٍ، ثمّ استدارت نحوه، وثبّتت نظرها عليه. الهيئة الجديّة تلائمها تماماً، لكنّها تعطيها مظهراً أكبر من عمرها.

- أبي لم يعرف قطّ تفاصيل الـ... فهمت علي؟ أفضّل أن..

- «طبعاً». قال ألبير مسرعاً.

ابتسمت ممتنّة له.

خشي أن تقوم بدسّ أوراقٍ نقديّةٍ في يده من جديد مقابل صمته، وبعد أن شعر بالذلّ من تلك الفكرة، التفت وصعد السلّم من جديد.

فقط عندما وصل إلى أعلى الدرج تذكّر أنّه لم يأخذ الفحم، ولا إبرة المورفين.

عاد للنزول مهموماً. ما كان قادراً على ترتيب أفكاره، ولا أن يعي ما يعنيه أن يكون مدعوّاً لدى عائلة إدوار.

انقبض صدره من الخشية، وبينما كان يبدأ بملء الدلو بالرفش الطويل، سمع في الشارع الصوت المكتوم لسيّارة الليموزين وهي ترحل.

16

أغلق إدوار عينيه، أطلق تنهيدة ارتياحٍ طويلة، وبدأت عضلاته تسترخي ببطء. أمسك الإبرة التي كادت تفلت منه في اللحظة الأخيرة، ووضعها جانباً. ظلّت يداه ترتعشان، لكنّ صدره الذي كان مضغوطاً بدأ يتحرّر ممّا يثقل عليه. بعد أخذ الإبر، يبقى لوقتٍ طويلٍ مستلقياً، فارغاً. ونادراً ما يستطيع النوم. هي حالة عائمة، تجعل هيجانه يتناقص ويتراجع ببطء، مثل مركب يبتعد. لم يكن من قبل فضوليّاً فيما يتعلّق بأمور البحر، ولا المراكب تجعله يحلم، لكنْ يبدو أنّ حُقَن السعادة تحمل ذلك في داخلها، فالصور التي تثيرها لديه لها هي غالباً تلوّنات بحريّة لا يستطيع تفسيرها. ربّما مثل مصابيح الزيت، أو قوارير الإكسير القادرة على شفطك إلى عالمها. وبمقدار ما كانت الإبرة والحقنة بالنسبة إليه مجرّد أدواتٍ جراحيّةٍ وشرّ! لا بدّ منه، فإنّ العبوات كانت من جهتها ممتلئةً بالحياة. كان ينظر إليها بشفافيّتها، وذراعه ممدودة نحو الضياء. جنونٌ ما كان يمكن رؤيته في داخلها، كرات الكريستال ما كانت تفوقها بميزاتها، ولا بالخيال الخصب. كان يستمدّ منها أشياء كثيرة: الراحة، الهدوء، المواساة. جزء كبير من أيّامه كان يمضي في هذه الحالة غير الأكيدة، حالة ضبابيّة لا يعود

فيها للزمن كثافة. لو كان وحده لجعل الإبر تتوالى كالسلسلة ليبقى هكذا عائماً كما لو كان يمارس رياضة التزلّج على بحرٍ من زيت (صور بحريّة دائماً، تأتيه من بعيد، من سائل ما قبل الولادة حتماً). لكنّ ألبير كان رجُلاً شديد التعقّل لا يترك له كل يوم سوى الجرعة الضروريّة تماماً، ويسجّل كلّ شيء، ثمّ في المساء، عند عودته، يتلو عليه تسلسل الأيّام والكميّات، وهو يدير الصفحات مثل أستاذ مدرسة. كان إدوار يتركه يفعل، مثلما هو الحال مع لويز بالنسبة إلى الأقنعة، ففي نهاية الأمر كانا كلاهما يهتمّان به.

قليلاً ما كان إدوار يفكّر بعائلته، وبمادلين أكثر من البقيّة. يحتفظ بكثيرٍ من الذكريات عنها: ضحكاتها الرنّانة المكبوتة، والابتسامات عند الأبواب، وسلاميّات أصابعها المثنيّة، وهي تفرك له جمجمته، ومؤامراتهما معاً. يشعر بالأسى من أجلها، فلا شكّ أنّ معرفتها بموته سبّبت لها الحزن مثل جميع النساء اللواتي فقدن شخصاً ما. بعد ذلك، يأتي مرور الزمن مثل طبيبٍ يداوي... الحزن أمرٌ يجري اعتياده مع مرور الوقت.

في المرآة، ما كان إدوار يستطيع مقارنة رأسه بأيّ شيءٍ آخر.

بالنسبة إليه كان الموت حاضراً باستمرار، يعيد فتح جروحه.

وفيما عدا مادلين، من بقي له؟ بعض الرفاق. وكم عدد الذين بقوا أحياء من بينهم؟ حتّى هو، إدوار المحظوظ، قد مات في تلك الحرب، هيا، ماذا يمكن أن نقول عن الآخرين؟ هناك أبوه أيضاً، لكن لا شيء يقال عن ذلك الرجُل، لا شكّ في أنّه غارقٌ في أعماله. ربّما أنّ خبر موت ابنه الحزين والذي يكسر القلب لم يوقف برنامجه لمدّةٍ طويلة. لا بدّ من أنّه اكتفى بركوب سيّارته قائلاً لأرنست: «إلى البورصة». لأنّ هناك قرارات يجب اتّخاذها، أو «إلى الجوكي». لأنّه يجري تحضير الانتخابات.

كان إدوار لا يخرج أبداً، ويمضي وقته في الشقّة، في هذا البؤس.

لكنْ لا، ليس تماماً، البؤس يمكن أن يكون أصعب. ما يحطّم المعنويّات هو هذه الضِعَة، هذه الفاقة، أن تعيش بدون إمكانات. يقال: إنّ الإنسان يعتاد على كل شيء، لكنْ لا. مشكلة إدوار كلّها أنّه لم يستطع أن يعتاد. عندما يكون لديه ما يكفي من الطاقة، يقف أمام المرآة، ينظر إلى رأسه. لا. لا شيء يخفّ ويتناقص، ولن يتوصّل أبداً إلى أن يجد أيّ شيءٍ إنسانيٍّ في هذه الحنجرة المفتوحة للسماء، والتي تخلو من الفكّ، وتخلو من اللّسان. هذه الأسنان الضخمة. اللحم صار أقسى، والجروح اندملت، لكنّ عنف هذه الفتحة بقي كما هو، وهنا بالذات كان يجب أن تكمن فائدة زرع الأعضاء. ليس لتخفيف البشاعة، إنّما لإيصالك إلى الرضا والقناعة؛ أمّا بالنسبة إلى البؤس، فالأمر هو نفسه. كان قد ولد في أوساط مترفة لا يحسب فيها حساب المال؛ لأنّ المال لا قيمة له. لم يكن قطّ صبيّاً مبذّراً، ومع هذا ضمن المعاهد، وبين رفاقه، رأى مراهقين يكلّفون أهلهم الكثير، ويحرقون المال حرقاً، لكنْ حتّى لو لم يكن مبذّراً فإنّ العالم من حوله كان دائماً واسعاً، سهلاً، مرتاحاً. الغرف واسعة، الأرائك عميقة، الوجبات غنية، الملابس غالية، في حين أنّه الآن، في هذه الغرفة ذات الأرضيّة التي انفصلت عن بعضها، وهذه الشبابيك الرماديّة، والفحم القليل، والنبيذ الرديء.... في هذه الحياة، كلّ شيء بشع، وحياتهما الاقتصاديّة تعتمد كليّةً على ألبير. لا يمكن لومه على شيء، فهو يقتل نفسه من أجل جلب الحقن، ولا أحد يعرف كيف يفعل ذلك. لا شك في أنّه يدفع مالاً في هذه المسألة. كان بالفعل رفيقاً طيّباً. وإخلاصه يوجع القلب أحياناً، وفوقها لا يشكو، ولا ينتقد، ويرسم دائماً على وجهه قسمات الفرح، لكنّه في الداخل قَلِقٌ بلا شك. من المستحيل تصوّر ما سيصبحان كلاهما. مع ذلك، فيما لو استمرّ الوضع هكذا، فإنّ المستقبل قاتمٌ بلا شك.

إدوار كان بمنزلة ثقل ميّت، لكنّه لم يكن يخشى المستقبل. حياته انهارت مرّةً واحدةً بضربة حظّ، والسقوط حمل معه كلّ شيء، حتّى الخوف. الشيء الوحيد الذي ظلّ يرهقه بالفعل هو الحزن.

على الرغم من أنّه منذ بعض الوقت صار هناك شيء أفضل.

كانت لويز الصغيرة تفرحه بقصص أقنعتها. هي أيضاً دؤوبة مثل ألبير؛ أشبه بنملةٍ، تحمل له جرائد المحافظات. التحسّن الذي طرأ على حياته، والذي كان يحرص على إخفائه لأنّه هشٌّ للغاية، يتعلّق على نحوٍ أساسيٍّ بالجرائد وبالأفكار التي توحيها له. فقد شعر، مع مرور الأيّام باستثارةٍ تصعد من أعماقٍ مجنونة. وكلّما يفكّر بها، يجد حالات الفرح الفائق التي عرفها في شبابه عندما كان يحضّر مشكلة ما، كاريكاتوراً، تنكّراً، استفزازاً. في الوقت الحالي، ما عاد هناك ما يمكن أن يكتسب الطابع المتفجّر والبهيج الذي كان في مراهقته، لكنّه يشعر به في أعماق بطنه. هناك «شيء ما» يعود. بالكاد تجرّأ أن يلفظ الكلمة في رأسه: هناك فرح. فرح يأتي خلسة، بحذر، على نحوٍ متقطّع. وعندما يتوصّل إلى تنظيم أفكاره على نحوٍ قريبٍ من الترتيب الجيّد، يحصل معه شيء لا يصدّق، يحصل أن ينسى إدوار اللحظة الراهنة، ويعود ليصبح ذلك الذي كانه قبل الحرب...

نهض أخيراً واستعاد تنفّسه وتوازنه. بعد أن قام بتعقيم الإبرة الكبيرة، رتّب الحقنة بعنايةٍ في العلبة الصغيرة المعدنيّة البيضاء، أغلقها ووضعها على الرفّ. التقط كرسيّاً وغيّر مكانه، وعيونه في الهواء ليحدّد الموقع الذي يضعه فيه. صعد عليه مع قليل من الصعوبة بسبب ساقه اليابسة، ثمّ بذراعه الممدودة جرّ بهدوءٍ غطاء الفتحة التي جُهّزتْ تحت سقف البناء للوصول إلى فسحة يستحيل الوقف فيها. كانت فيها خمسة أجيال من شبكات العنكبوت، وغبار الفحم المتراكم. سحب منها بعنايةٍ حقيبةً

كان قد لفّ فيها كنزه. دفتر رسمٍ من القياس الكبير قايضت عليه لويز، كما قالت، مقابل شيءٍ لم تقل ما هو، وظلّ لغزاً.

ذهب ليجلس في أريكته العثمانيّة، برى قلماً، وهو يجهد لكي تقع القشور الخشبيّة كلّها في الورق الذي حشره هو أيضاً داخل الحقيبة. فالسرّ سرّ. بدأ مثل العادة بتقليب الصفحات الأولى، وشعر ببعض الرضا في قياس كميّة العمل الذي أُنجِز. شعر ببعض التشجيع. اثنتا عشرة صفحة حتّى الآن: جنود، بعض النساء، طفل، جنود على الأخص، جرحى، منتصرون، محتضرون، جرحى راكعون، أو مستلقون. هناك ذراع ممدودة. كان شديد الفخر بهذه الذراع الممدودة، فهي ناجحة جدّاً، ليته يستطيع أن يبتسم...!

بدأ بالعمل.

امرأة هذه المرّة. واقفة وأحد ثدييها عارٍ. هل يجب تعرية الثدي؟ لا. استعاد رسمه. غطّى الثدي، برى القلم من جديد، يلزمه بوزة دقيقة، ورقة أُخرى فيها عددٌ أقلّ من الحُبيبات. كان مضطرّاً إلى أن يرسم على ركبتيه لأنّ ارتفاع الطاولة لم يكن مناسباً، يلزمه سطحٌ مائل. هذه المعوقات كانت دلالةً جيّدةً على وجود الرغبة في العمل لديه. رفع رأسه، أبعد الورقة لكي يكون لديه البعد الكافي ليراها. الانطلاقة جيّدة. المرأة واقفة، ثنيات ثوبها ناجحة. أصعب شيء رسم ثنيات الثوب. كل المعنى يتركّز هنا، في الثنيات، وفي النظرة، هذا هو السرّ. في تلك اللّحظات، كان إدوار القديم قد عاد تقريباً.

إن لم يكن مخطئاً فهو على وشك تحقيق ثروةٍ قبل نهاية السنة. الذي سيُدهش هو ألبير.

ولن يكون الوحيد.

17

- الاحتفال في الإنفاليد كان تعِساً. لو تعرفين!

- مع أنّه بحضور الماريشال فوش...

في هذه المرّة، استدار هنري غاضباً ومهاناً.

- فوش؟ وماذا يعني ذلك؟

كان بلباسه الداخليّ يعقد ربطة عنقه. بدأت مادلين تضحك. كلّ هذا الاستنكار باللباس الداخلي! على الرغم من أنّه يمتلك ساقين جميلتين فيهما عضلات. عاد إلى المرآة لينهي العقدة. تحت اللباس الداخليّ تتبدّى أردافه المستديرة والقويّة. تساءلت مادلين إن كان قد تأخّر، وقرّرت أن لا أهميّة لذلك؛ فهي لديها الوقت، لا بل لديها وقت لاثنين أيضاً؛ كما لديها من الصبر والإصرار الشيء الكثير. ثمّ إنّه يكرّس نفسه لعشيقاته بما يكفي... وصلت وراءه، لم يشعر بها تأتي. فقط يدها التي ما زالت باردة هنا، داخل لباسه الداخلي. يد تعرف كيف تصل إلى الهدف، وكيف تتملّق، يد كسلى، ومصرّة. في حين كان رأسها ملتصق بظهره. قالت مادلين بصوتٍ مفتونٍ فيه حلاوة فاجرة:

- حبيبي، أنت تبالغ! إنّه الجنرال فوش... هيا.

أنهى هنري عقد ربطة عنقه لكي يعطي لنفسه الوقت ليفكّر. في الواقع، كلّ شيءٍ مدروس، والتوقيت سيّئ. لم يكفها البارحة مساء... وها هي الآن، في هذا الصباح. في الواقع... لديه احتياطي كافٍ، وليست تلك هي المسألة، لكن في بعض الأحيان، كما هو الحال الآن، يبدو أنّها أسيرة رغبةٍ جامحةٍ، وعليه أن يضاجعها على الفور، فيكسب بذلك راحة باله. مقابل هذا الواجب، لديه المتع الأخرى، تلك التي يجدها في مكانٍ آخر. حساب الأمور بهذه الطريقة ليس سيّئاً، لكنّه متعِبٌ فقط. لم ينجح ولا مرّة في التوافق مع رائحتها الحميمة. هي أشياء لا يمكن مناقشتها، أشياء كان يمكن أن تفهمها، لكنّها تتصرّف أحياناً مثل إمبراطورة، وهو مثل مستخدمٍ في البيت يحرص على الحفاظ على مكانه. طبعاً لم يكن ذلك منفّراً إنْ صحّ القول، ونظراً إلى الوقت الذي يخصّصه لذلك، لا. لكن... هو يحبّ أن يقرّر بنفسه. ومع مادلين الأمر معكوس؛ هي التي تأخذ دائماً زمام المبادرة. كانت مادلين تردّد: «الماريشال فوش...». تعرف أن هنري لا يشعر برغبةٍ كبيرةٍ، مع ذلك تستمر. صارت يدها حارّة، شعرت به يتمدّد مثل ثعبانٍ كبيرٍ، كسول لكنّه قويّ، لا يرفض أبداً؛ وهو لم يرفض. تمّ ذلك بسرعة البرق. استدار، حملها، ألقاها وجعلها تستلقي على زاوية السرير، لم يخلع ربطة عنقه، ولا حذاءه. تمسّكت به، أجبرته أن يبقى عدّة لحظات أكثر. بقي، ثمّ قام، وكان ذلك كلّ شيء.

– بالمقابل، بالنسبة إلى الرابع عشر من يوليو، سيكون الاحتفال فخماً!

كان قد عاد إلى المرآة. حسنٌ، يجب الآن إعادة عقد ربطة العنق. تابع:

– ذكرى ثورة 14 يوليو للاحتفال بالانتصار في الحرب العظمى! لا... لقد رأينا كل شيء! للاحتفال بذكرى إعلان الهدنة حفل تأبين في الإنفاليد! ما يشبه الجلسة المغلقة!

كان شديد السعادة بتلك الصيغة. بحث عن التعبير الدقيق، قلّب الكلمات مثل جرعة نبيذٍ جُرّب طعمها. حفل تأبين في جلسة مغلقة! حسنٌ. أراد أن يجرّب الجملة، استدار، وقال بلهجةٍ غاضبة.

- بالنسبة إلى الحرب العظمى، حفل تأبين في جلسة مغلقة!

ليس سيّئاً، نهضت مادلين في النهاية. كانت ترتدي لباساً داخليّاً رقيقاً. ستستحم بعد رحيله. لا يوجد ما يستعجلها. بانتظار ذلك رتبت الثياب.

لبست خفّيها. انطلق هنري قائلاً:

- صارت الاحتفالات الآن بيد البلشفيّين. اعترفي بذلك.

- «توقّف يا هنري!». قالت مادلين ساهمةً، وهي تفتح الخزانة: «أنت تتعبني».

- والمشوّهين الذين يستعدّون للّعبة. أقول أنا: إنّه لا يوجد سوى تاريخ واحد من أجل تكريم الأبطال، إنّه الحادي عشر من نوفمبر[1]. وسوف أذهب أبعد من ذلك أيضاً...

قاطعته مادلين متضايقة:

- توقّف يا هنري، هذا كافٍ! سواء كان 14 يوليو أم الأوّل من نوفمبر، عيد الميلاد أم عيد القدّيسة غلان غلان، لا يوجد فرق بالنسبة إليك.

استدار نحوها، حدّق فيها، وهو ما زال بلباسه الداخليّ، لكنّ ذلك لم يضحكها هذه المرّة. نظرت إليه بثبات. قالت من جديد:

---

(1) الرابع عشر من يوليو هو موعد الاحتفال بالثورة الفرنسيّة، والقضاء على الملكيّة، وانتهاء عصر النبلاء؛ أمّا الحادي عشر من نوفمبر، فهو يوم الهدنة الموقّعة بين الحلفاء وألمانيا القيصريّة في مدينة كومبيين الفرنسيّة، وفيها أعلن عن إنهاء الحرب العالميّة الأولى. (المترجمة).

– أفهم أن تكون لديك حاجة لأن تتمرّن على مشاهدك قبل أن تقدّمها لجمهورك، في جمعيّاتك التي تضمّ المحاربين القدماء، وفي نواديك، أو لا أعرف أين، لكنّني لست مسؤولة البروفات، وبذلك فغضبك والرعود التي تنثرها، قدمّها لمن يهتمّ بذلك؛ أمّا أنا، فدعني وشأني.

عادت إلى ما كانت تقوم به، لم تكن يداها ترتعشان، ولا صوتها. غالباً ما تقول الأشياء بهذه الطريقة، بجفاف، ثمّ لا تعود تفكّر بذلك. مثل أبيها، كانا بالفعل متوافقين، هذان الاثنان.

لم يشعر هنري بالإهانة. لبس بنطاله. الحقيقة أنّها محقّة؛ فالأوّل من نوفمبر، أو الحادي عشر من نوفمبر، لا فرق؛ أمّا بالنسبة إلى الرابع عشر من يوليو فالأمر مختلف. كان يعلن على نحوٍ مفتوحٍ كراهيته الخاصّة جدّاً لهذه الذكرى الوطنيّة، عصر الأنوار، الثورة، كلّ هذه الأشياء... ليس لأنّ لديه فكرة مدروسة عن الأمر، إنّما لأنّ ذلك كان حسب تفكيره التصرّف اللائق والطبيعيّ لشخصٍ ينتمي إلى الأرستقراطيّة.

وأيضاً لأنّه كان يعيش في منزل بيريكور، وهُم من الأغنياء الجُدد. بيريكور العجوز تزوّج إحدى بنات دو مارجيس، التي لم تكن سوى سليلة تجّار كُبب الصوف المعروفين، والتي يسبق اسمها تلك الجزيئة دو [1] التي جرى شراؤها في المزاد، والتي لا تنتقل سوى عبر الرجال لحُسن الحظّ، في حين أنّ بيريكور سيبقى إلى الأبد بيريكور، ويلزم أفراد هذه العائلة أكثر من خمسة قرونٍ ليساووا أحد أفراد عائلة دولني براديل...غير ممكن! بعد خمسة قرون، ستكون ثروتهم قد تلاشت من زمنٍ بعيدٍ، في حين أنّ عائلة

(1) الجزيئة دو de التي تدلّ على النبالة في اسم والدة مادلين «دو مارجيس» لم تنتقل إلى زوجها بيريكور؛ ولذا يتفاخر هنري بوجود دو في اسم عائلته دولني براديل على عكس اسم عائلة زوجته بيريكور، على الرغم من غناها الفائق. (المترجمة).

دولني براديل، ومن بينهم هنري الذي سيعيد تأسيس السلالة، سيستمرّون في استقبال الضيوف في الصالة الكبيرة في دارتهم في لا سالوفيير. وبالمناسبة، يجب الإسراع، فالساعة صارت التاسعة، ويجب أن يكون في الموقع قبل نهاية النهار. وفي اليوم التالي، ستكون أمامه فترة الصباح كلّها ليعطي الأوامر لرؤساء الورشات، وللتحقّق من جودة العمل. يجب مراقبة هؤلاء الناس باستمرار، والوقوف على رأسهم، والاعتراض على الأسعار التي يقدّمونها وتخفيضها. الآن أنهوا السقف. مئتا مترٍ مربّع من الأردواز كلّفت ثروةً طائلة. بعدها سيبدأ العمل في الجناح الغربي الفارغ. يجب تركيب كلّ شيء، والركض من أجل البحث عن الحجارة في آخر الدنيا في بلدٍ لم يعد فيه قطارات، ولا بواخر، وسيكون من الضروري نبش قبور الأبطال من أجل دفع كلّ ذلك.

عندما جاء ليقبّلها في لحظة ذهابه (ألصق قبلة على جبينها لأنّه لا يحبّ كثيراً القبلات على الفم معها)، أمسكت مادلين بعقدة ربطة عنقه من أجل الشكليّات، من أجل الحركة بحدّ ذاتها. ابتعدت وتأمّلته بإعجاب. الحقّ معهنّ، كلّ أولئك العاهرات، كان بالفعل جميلاً، زوجها، وسيكون أولاده جميلون.

18

ظلّت الدعوة لزيارة بيت بيريكور تهيمن على تفكير ألبير باستمرارٍ وبدون توقّف. هو أصلاً لم يستطع قطّ أن يجد الهدوء بعد قصّة تغيير الهويّات تلك. كان يراها في أحلامه، كيف ستجده الشرطة، وكيف سيوقفونه، وكيف سيرمونه في السجن. ما سيحزنه عندما يغلقون عليه الزنزانة هو أنّه لن يكون هناك أحد يمكن أن يهتم بإدوار. في الوقت نفسه سيشعر بالراحة. فكما كان إدوار في بعض اللحظات يربّي في نفسه حقداً أعمى تجاهه، كان ألبير يحقد على إدوار أيضاً لأنّه استعبد حياته. لكنْ منذ أن فرض رفيقه أن يترك المستشفى، وبعد أن مرّت الأنباء السيّئة حول استحالة قبض أيّ نوع من التعويض، تشكّل لدى ألبير الشعور بأنّ الأشياء اتّخذت مساراً طبيعيّاً ومستمرّاً، وهو الانطباع الذي سرعان ما كذّبه مجيء الآنسة بيريكور وفكرة هذه الدعوة التي راحت تهيمن على تفكيره ليلاً ونهاراً. ذلك أنّه في النهاية، سوف يجلس للعشاء مقابل والد إدوار، وسيلعب مسرحيّة موت ابنه، وسيتحمّل نظرة الأخت التي يبدو عليها أنّها لطيفة عندما لا تدسّ في يده الأوراق النقديّة كما لو كان يسلّم لها بضاعة.

لم يتوقّف ألبير عن قياس نتائج هذه الدعوة. فلو اعترف لآل بيريكور

أنّ إدوار حيّ (وكيف يتصرّف في هذه الحالة؟) عندها ماذا؟ سيُعادُ بالقوّة إلى عائلته، حيث لم يكن يريد أن يضع قدمه على الإطلاق؟ وهذا يعني خيانته. لكنْ لماذا لا يريد إدوار العودة إلى هناك؟ خراء! عائلة مثل هذه، لو كانت لألبير لاكتفى بها من جهته. لم يكن لديه أخت، وهذه كانت تلائمه تماماً. أقنع نفسه بأنّه قد أخطأ العام الماضي في المستشفى حين أصغى إلى إدوار: عاش وقتها حالة يأس، ما كان يجب أن يرضخ، ألبير...، لكن ذلك ما حصل.

بالمقابل، لو اعترف بالحقيقة، ماذا سيقولون عن ذلك الجنديّ مغفل الهويّة الذي صار الآن يرقد في مكانٍ ما داخل مدفن عائلة بيريكور، لا شكّ أنّه سيكون دخيلاً، ولن يتقبّلوا وجوده لمدّةٍ طويلة، وما الذي سيفعلونه به؟

سيلجؤون إلى العدالة، وسيقع كلّ ذلك على عاتق ألبير، أو ربّما سيجبرونه على أن ينبش من جديد قبر هذا الجنديّ المجهول من أجل أن يخلّصوا عائلة بيريكور منه. وما الذي يمكن أن يفعله هو بهذا الرفات؟ وسيصلون إلى التزييف بالكتابة في السجلّات العسكريّة.

ثمّ أن يذهب إلى عائلة بيريكور، وأن يلتقي بأبيه وبأخته، وربّما بأعضاء العائلة الآخرين أيضاً بدون أن يقول شيئاً لرفيقه، سيكون ذلك خيانة. لو عرف إدوار بذلك كيف سيكون ردّ فعله؟

لكنْ أن يخبره بذلك، ألا يعني ذلك خيانة أيضاً؟ هكذا سيظلّ إدوار هنا متضايقاً وحْده، وهو يعلم أنّ رفيقه بصدد تمضية الأمسية مع أشخاص أنكرهم، ذلك أنّه في النهاية، تلك كانت الحقيقة؛ أن يرفض رؤيتهم من جديد يعني أنّه ينكرهم، لا؟

سيكتب رسالة، يدّعي فيها أنّ هناك ما أعاقه، لكنْ سيقترحون عليه

تاريخاً آخر. سيخترع استحالةً ما. لكنّهم سيرسلون شخصاً يبحث عنه وسيجدون إدوار.

لن يجد حلاً لهذه المسألة. اختلطت الأمور ببعضها. راح ألبير يرى كوابيس بلا توقّف. في منتصف اللّيل، إدوار الذي كان تقريباً لا ينام أبداً رفع جسده مستنداً إلى كوعه، عبّر عن قلقه، وأمسك بكتف رفيقه بقبضة يده لكي يوقظه. مدّ له دفتر المحادثة بهيئةٍ متسائلة. قام ألبير بحركة أنّه لا يوجد شيء، لكنّ الأحلام السيّئة كانت تعود وتعود أيضاً، ولا تنتهي، وهو -على العكس من إدوار- كان بحاجةٍ إلى قسطه الاعتياديّ من النوم.

قرّر في النهاية وبعد كثير من الأفكار التي لا تعدّ ولا تحصى، وتتناقض فيما بينها، أنّه سيذهب إلى بيت بيريكور، وإلّا سيعودون عنده هنا، وسيخفي الحقيقة، وهو الحلّ الأقل خطراً. سيعطيهم ما يطالبون به، وسيروي لهم كيف مات ابنهم إدوار. هذا ما سيفعله، ولن يعود لرؤيتهم مجدداً طيلة حياته.

المشكلة أنّه لم يعد يتذكّر بالفعل ما كان قد كتبه في رسالته. بحث في ذهنه. ما الذي استطاع أن يخترعه؟ موتٌ بطوليّ، رصاصةٌ في القلب، كما في الروايات، في أيّة ظروف؟ علماً أنّ الآنسة بيريكور قد وصلت إليه عبر ذلك الحقير براديل. ما الذي رواه لها هذا الأخير؟ لا بدّ من أنّه أظهر نفسه على نحوٍ إيجابيّ. وإن كانت نسخة ألبير تتناقض مع نسخة براديل، من سيصدّقون؟ ألن يعتبروه محتالاً؟

كلّما طرح على نفسه أسئلة، زاغ تفكيره، وتشوّشت ذاكرته، وعادت الكوابيس تتكدّس في لياليه مثل صحونٍ في خزانةٍ تهزّها أشباح.

ثمّ كانت هناك مسألة حسّاسة تتعلّق بالملابس. لن يستطيع أن يذهب

إلى بيت بيريكور كما هو، وأفضل لباسٍ عنده له رائحة تفوح منها رائحة نتنة من على بعد ثلاثين خطوة.

في حال قرّر في النهاية أن يذهب إلى جادّة كورسيل، سيدبّر طقماً مناسباً. الوحيد الذي وجده هو طقم زميل له، رجُل سندويش مثله في أوّل جادّة الشانزيليزيه، كان أقصر منه بقليل. يجب عليه أن ينزل البنطال تحت الخصر قدر الإمكان، وإلّا ستكون له هيئة المهرّج. كاد يأخذ قميصاً من إدوار الذي لديه قميصان، ولكنّه عدل عن الفكرة. فماذا لو تعرّفت العائلة على القميص؟ سيستعير قميصاً من الزميل نفسه، طبعاً سيكون صغيراً جدّاً عليه، وستكون العُرى مفتوحة قليلاً. بقيت مسألة الحذاء. لم يجد حذاءً بمقاس قدمه. يجب أن يتدبّر الأمر مع حذائه هو. الحذاء العسكريّ المثقوب الذي حاول أن يلمّعه حتّى أنهكه، لكنّه لم يصل معه إلى ما يشبه الجِدّة والملاءمة. قلّب الأمر من جميع جوانبه، وقرّر في النهاية أن يشتري زوجَ حذاء جديد سمحت له به فكرة أنّ ميزانيّة المورفين قد خفّت، وصار بمقدوره أن يتنفّس. كان حذاءً جميلاً باثنين وثلاثين فرنكاً من عند باتا. عندما خرج من المخزن وهو يضمّ العلبة إلى صدره، اعترف لنفسه بأنّه في الواقع مُذ تسرّح من الجيش كانت عنده رغبة أن يهدي نفسه حذاءً جديداً؛ لأنّه كان دائماً يقيس الأناقة بجمال الحذاء. فالطقم، أو المعطف القديم يمكن أن يمرّ، لكنّ الإنسان يُحكم عليه من خلال حذائه، وفي هذا المجال لا يوجد حلّ وسط. كان هذا الحذاء من الجلد البنيّ الفاتح، وارتداؤه هو الفرح الوحيد في هذا الحدث.

إدوار ولويز رفعا رأسيهما عندما خرج ألبير من وراء البارافان. كانا قد أنهيا لتوّهما قناعاً جديداً لونه عاجيّ، مع فمٍ ورديٍّ جميلٍ مغلق على تكشيرة مترفّعة نوعاً ما، عند أعلى الوجنتين أُلصقت ورقتان من أوراق

الخريف فقدتا لونهما وشحبتا، ورسمتا ما يشبه الدموع. على الرغم من ذلك فإنّ المجموع لم يكن فيه شيء حزين. يبدو كأنّه شخصٌ يركّز انتباهه على نفسه، وهو يعيش خارج العالم.

مع ذلك فإنّ المشهد الحقيقيّ لم يكن هذا القناع، إنّما مرأى ألبير، وهو يخرج من وراء البارافان. كان مثل صبيّ اللّحّام حين يذهب إلى العرس.

فهم إدوار أنّ لدى صديقه موعداً غرامياً، وسُرّ لذلك.

كانت مسائل العشق موضوع مزاح بينهما بالضرورة، فهما ما زالا شابّين... لكنّها كانت موضوعاً مؤلماً أيضاً لأنّهما كليهما بلا امرأة. كان ألبير يضاجع مدام مونوستييه من وقتٍ إلى وقتٍ بالسرّ. وقد انتهى الأمر بأن صار ذلك يؤلمه بدل أن يريحه؛ لأنّه أشعره كم يشتاق إلى الحب. توقّف عن النوم معها، ألحّت قليلاً، ثمّ توقّفت عن الإلحاح. كان يرى كثيراً شابّاتٍ جميلاتٍ هنا وهناك، في المخازن، في الحافلات. كثيرات منهنّ بلا خطيب؛ لأنّ عدداً كبيراً من الرجال قد ماتوا. كنّ ينتظرن، يراقبن، يأملن، لكن عندما يكون الرجل مثل ألبير يرتدي أسمالاً، ولا يتوقف عن أن يستدير قلقاً مثل قطّة، وحذاؤه خارج التاريخ، وسترته الطويلة تقطر صباغاً، فإنّه لا يمثّل فرصةً جذّابة، حتّى لو كان قد خرج من الحرب منتصراً.

وحتّى لو وجد صبيّةً لا تقرف كثيراً من هيئته التي تنمّ عن الفاقة، ما المستقبل الذي يمكن أن يقدّمه لها؟ هل يستطيع أن يقول لها: «تعالي اسكني معي، أنا أقطن مع جنديٍّ مشوّهٍ لم يعد لديه فكّ، ولا يخرج من البيت، ويضرب نفسه أبر مورفين، ويرتدي أقنعة كرنفال. لكنْ لا تخشي شيئاً، لدينا مبلغ ثلاثة فرنكات في اليوم لنعيش، وبارافان ممزّق ليحمي حميميّتك»؟

هذا إذا لم نحسب أنّ ألبير كان خجولاً، وإن لم تأت الأشياء إلى عنده وحْدها...

وبذلك عاد ليرى مدام مونوستييه، لكنّ هذه المرأة كان لديها كبرياؤها. زواجها من شخصٍ مخدوع لا يعني أن تتخلّى عن كبريائها. كان عندها نوع من الفخر يتغيّر حسب الظروف. فإن لم تعد تحتاج إلى ألبير فذلك في الواقع لأنّها كانت تنام مع المراسل الجديد، وهو شخصٌ يشبه -على نحوٍ غير معقول، حسب ما يتذكّر ألبير- الشابّ الذي كان يرافق سيسيل في المصعد في الساماريتين، في اليوم الذي تخلّى فيه عن معاش عدّة أيّام. ليته ما فعل!

في إحدى الأمسيات تحدّث عن ذلك إلى إدوار. اعتقد أنّه يمكن أن يفرحه فيما لو قال له: إنّه هو أيضاً في نهاية الأمر مضطرّ إلى التخلّي عن علاقات طبيعيّة مع النساء، لكنّ الموقف لم يكن صحيحاً؛ فألبير يستطيع أن يعود إلى الحياة؛ أمّا إدوار، فلا. ألبير ما يزال يستطيع أن يلتقي بشابّة، أرملة شابّة مثلاً، يوجد منها أكداس، شريطة ألّا تكون متطلّبة كثيراً. عليه أن يبحث ويفتح عينيه. لكن من التي يمكن أن تقبل بشخصٍ مثل إدوار، لو أنّ إدوار كان يحبّ النساء؟ هذه المحادثة آلمتهما على حدٍّ سواء.

وفجأةً، ها هو الآن ألبير في لباسٍ أنيق.

أطلقت لويز صفير إعجاب، اقتربت وانتظرت أن ينحني ألبير لكي تعدّل له عقدة ربطة عنقه. مزحا معه، راح إدوار يضرب على فخذيه، ورفع سبّابته في الهواء في حماسٍ ظاهرٍ مع حشرجاتٍ رفيعةٍ من عمق حنجرته. لويز أيضاً شاركت في ذلك، راحت تضحك واضعة يدها على فمها، وهي تقول: «ألبير، أنت بالفعل جميل هكذا...». هذه الكلمات من شبه امرأة...

مع ذلك، ما عمرها تلك الصغيرة؟ كثرة التهنئة جرحته قليلاً، فحتى لو لم تكن شرّيرة، يمكن للسخرية أن تؤذي، خاصّةً في هذه المناسبة.

فضّل أن يذهب، وهو يقول لنفسه: إنّه يجب أن يفكّر، وفي نهاية ذلك التفكير، وبدون أن يهتمّ بالحجج التي لديه، سيختار في ثوانٍ إن كان سيذهب إلى عائلة بيريكور أم لا.

استقلّ المترو، وأكمل الطريق مشياً على الأقدام. كلّما كان يقترب، راح شعور الغثيان يحفر له بطنه أكثر وأكثر. بعد أن ترك دائرة سكنه الممتلئة بالروس والبولونيّين، اكتشف الأبنية الضخمة الفخمة، وجادّة باتّساع ثلاثة شوارع. مقابل حديقة مونسو، وقع نظره على القصر الواسع لمسيو بيريكور؛ إذْ لا يمكن الخلط بينه وبين أيّ شيءٍ آخر. كانت تقف أمامه سيّارةٌ جميلةٌ، وسائقٌ يرتدي كاسكيت، ولباساً لا غبار عليه كان يلمّعه بعنايةٍ مثل حصان سباق. شعر ألبير أنّ قلبه يغور من جرّاء ذلك لكثرة ما كان مذهولاً. تصرّف كأنّه مستعجل، تجاوز القصر. رسم دائرة كبيرةً، وهو يمشي في الشوارع المجاورة، وعاد عبر الحديقة، وجد مقعداً كانت تبدو من خلاله بالمواربة واجهة البناء، فجلس. كان مهموماً للغاية، ويجد صعوبةً في أن يتخيّل أنّ إدوار قد وُلد هنا، وأنّه قد تربّى في هذا البيت. عالم آخر! وها هو، ألبير، يجيء إليه حاملاً أكبر كذبةٍ يمكن تخيّلها. لقد كان مجرماً.

في البولفار، كانت هناك نساء منهمكات بلا فائدة يخرجن من العربات. يدخل الخدم خلفهنّ محمّلين باللفافات. سيّارات تسليم البضائع تقف أمام أبواب الخدمة، والسائقون يتناقشون مع الحجّاب المتصلّبين الذين يحتمون بوظيفتهم، ويبدو تماماً أنّهم يمثّلون أسيادهم، وهُم يراقبون

سحاحير الخضار، وسلال الخبز بنظرةٍ قاسية. في مكانٍ أبعد قليلاً على الرصيف، عند امتداد سياج الحديقة، هناك امرأتان أنيقتان، طويلتان مثل عيدان الثقاب، تمرّان في الشارع متشابكتي الذراعين وضاحكتين. في زاوية الجادّة هناك رجُلان يسلّمان على بعضهما، وكلّ منهما يحمل جريدةً تحت ذراعه، وقبعّته في يده. يا صديقي العزيز، إلى اللقاء قريباً. تبدو عليهما هيئة قضاة في المحاكم. أحدهما خطا جانباً ليترك المكان لصبيٍّ يرتدي طقماً بحريّاً يركض، وهو يضرب بالعصا حلقة تتدحرج، في حين سارعت الممرضة خلفه، وهي تصرخ بصوتٍ منخفضٍ معتذرةً إلى السيّدين. هناك سيّارة ورودٍ تصل وتنزل باقات الورد التي تكفي لعرسٍ كاملٍ بدون أن يكون هناك عرس. كان ذلك تسليم الزهور الأسبوعيّ، فهناك كثيرٌ من الغرف، ويجب أن نحتاط، فقد يأتي ضيوف. أؤكّد لك أن هذا يكلّف ثروةً، لكنّ هذه الجملة تقال مع ضحكة. من المسلّي شراء كلّ هذه الزهور، نحبّ كثيراً أن نتلقى هدايا من الزهور. راح ألبير ينظر إلى كلّ هذا العالم تماماً كما فعل مرّةً حينما رأى عبر زجاج الحوض سمكات غرائبية شكلها بالكاد يشبه شكل السمك.

كانت أمامه ساعتان عليه أن يمضيهما.

تردّد بين أن يبقى جالساً على مقعده، وبين أن يعود لركوب المترو. لكنْ إلى أين يذهب؟ من قبل، كان يحبّ الجادّات الكبيرة كثيراً. لكنّه منذ أن صار يذرعها حاملاً دعاياته من الجهتين لم يعد الأمر مشابهاً. تمشّى في الحديقة، وعلى الرغم من أنّه وصل قبل الموعد، ها هو قد تأخّر.

عندما اكتشف ذلك، تصاعدت نسبة خشيته. الساعة السابعة والربع. غرق بالعرق. مشى بخطواتٍ كبيرةٍ، وهو يبتعد، ثمّ استدار. انعطف إلى

الشارع الثاني، وعيناه في الأرض. السابعة وعشرون دقيقة. لم يستطع أن يحسم أمره. عند الساعة السابعة وثلاثين دقيقة مرّ أمام القصر من الرصيف المقابل، وقرّر أن يعود إلى بيته، لكنّهم سيأتون للبحث عنه، وسيرسلون السائق الذي سيكون أقل لطفاً من سيّدته، المئة ألف سبب التي كان يديرها في رأسه تشابكت من جديد. لم يعرف قطّ كيف حصل أنّه صعد الدرجات الستّ للمدخل، رنّ الجرس، مسح بسرعةٍ كلّ فردةٍ من حذائه بربلة الساق المقابلة. فُتح الباب، أصيب قلبه بالجنون داخل صدره. ها هو الآن في القاعة ذات السقف المرتفع مثل كاتدرائيّة. مرايا في كلّ مكان. كلّ شيء جميل حتّى الخادمة. سمراء، وشعرها قصير، ومشرقة. يا إلهي! هذه الشفاه، هذه العيون. «كلّ شيء جميل عند الأغنياء». قال ألبير لنفسه: «حتّى الفقراء».

من كلّ طرفٍ من أطراف المدخل الواسع المبلّط ببلاطاتٍ واسعةٍ سوداء وبيضاء مثل رقعة الشطرنج، هناك مصابيح لكلّ منهما خمس كؤوس تحيط بالمدخل المؤدّي إلى درجٍ كبيرٍ من حجر سان ريمي. القبضتان من الرخام الأبيض تصعدان متوازيتين على نحوٍ حلزونيّ نحو الطبقة الأعلى. ثريّا ضخمة من طراز آر ديكو تبثّ ضوءاً أصفر يمكن القول إنّه يهبط من السماء. حدّقت الخادمة الجميلة في ألبير وسألته عن اسمه: ألبير مايار؟ نظر حوله بدون تحسّر. حتّى لو قام بكلّ الجهود الممكنة، سيظلّ مظهره كما هو الآن مظهر فلّاح طالما أنّه لا يرتدي طقماً مفصّلاً على قياسه، وحذاءً مرتفع السعر، وقبّعةً من ماركةٍ معيّنةٍ، وسترة سموكينغ، أو سترةً بذيلٍ كذيل الطائر. بسبب هذا التفاوت الكبير، والجزع الذي عاشه في الأيّام الماضية، والعصبيّة التي تولّدت عن هذا الانتظار الطويل، بدأ ألبير يضحك بكلّ بساطة. كان من الواضح أنّه يضحك لنفسه، من نفسه، ويده أمام فمه، كان

ذلك عفويّاً للغاية، وحقيقيّاً للغاية، إلى درجة أنّ الخادمة الجميلة بدأت تضحك هي أيضاً. أسنانها، يا إلهي! هذه الضحكة. حتّى لسانها الوردي المدبّب كان فاتناً. هل رأى عينيها وهو يدخل أم اكتشف ذلك الآن فقط؟ عينان سوداوان لامعتان. لم يعرفا كلاهما علامَ يضحكان. استدارت، وقد احمرّت وجنتاها، وهي ما تزال تضحك، لكنّها كان يجب أن تقوم بعملها. فتحت الباب من جهة اليسار، صالون الانتظار الكبير مع البيانو بذيل، وآنية الزهور الصينيّة المرتفعة، والمكتبة من خشب الكرز البريّ ممتلئة بالكتب القديمة، والأرائك من الجلد. دلّته على الغرفة، يستطيع أن يذهب ليجلس حيث يريد، وتوصّلت فقط إلى أن تقول: «آسفة». بسبب هذه الضحكة التي لم تستطع أن تكتمها. رفع يده: «لا، لا، اضحكي، على العكس».

ها هو الآن وحده في هذه الغرفة. أغلق الباب من جديد، سوف نعلمهم أنّ مسيو مايار موجود هنا، هدأت ضحكته المجنونة. هذا الصمت، هذه الفخامة، هذا الترف يفرض عليك ذلك. جسّ أوراق النباتات الخضراء. فكّر بالخادمة الصغيرة. لو أنّه تجرّأ... جرّب أن يقرأ عناوين الكتب، مرّ بسبّابته على الخشب المطعّم، وتردّد في أن يضغط على مفتاح من مفاتيح البيانو الكبير. يستطيع أن ينتظرها بعد انتهاء عملها، من يعرف، ربّما لها صديق! جرّب كنبة، غاص فيها، نهض، جرّب الأريكة، جلد جميل له ملمس مخمليّ، نظر وغيّر ساهماً مكان الجرائد الإنجليزيّة الموضوعة على المنضدة المنخفضة، كيف يتصرّف مع الخادمة الجميلة الصغيرة؟ يهمس لها بكلمة في أذنها. وهو يخرج؟ أم من الأفضل أن يدّعي أنّه نسي شيئاً؟ يقرع الجرس من جديد، ويضع في يدها ورقة مع... ماذا؟ عنوانه؟ ثمّ بكل الأحوال، ما الذي يمكن أن ينساه؟ ليست لديه حتّى مظلّة. كان ما يزال واقفاً، تصفّح عدّة صفحاتٍ من أعداد هاربرز بازار، غازيت دي

بوزار، لوفيسييل دو لا مود. جلس على الأريكة. أو ينتظرها عند خروجها من عملها، سيكون ذلك أفضل، أن ينجح في جعلها تضحك كما جرى قبل قليل. عند زاوية المنضدة المنخفضة، كان هناك ألبوم صور ضخم مغطّى بجلدٍ فاتحٍ جميلٍ، وله ملمس مخمليّ وحريريّ مثل كلّ شيءٍ آخر. إن كان من الضروريّ دعوتها للعشاء، كم سيكلّف ذلك؟ ثمّ أين سيذهبان؟ صراع آخر، أمسك الألبوم، فتحه، مطعم لوبويون دوفال؟ هذا المكان جيّد بالنسبة إليه، لكنْ أن يدعو إليه شابّة، مستحيل! خاصّة شابّة مثلها تخدم في البيوت الفخمة، وحتّى في المطابخ، لا شكّ أنّها تتناول الطعام بشوكة وسكّين من الفضّة. فجأةً تقلّص بطنه، تبلّلت يداه، وصارتا زلقتين، بلع ريقه حتّى لا يتقيّأ، ملأ طعم الصفراء فمه. أمامه في الألبوم صورة زواج. مادلين بيريكور والنقيب دولناي براديل، جنباً إلى جنب.

إنّه هو، ما من شكّ، ألبير لا يمكن أن يخطئ.

مع ذلك يجب التأكّد. تصفّح بنهَم. براديل موجودٌ في كلّ الصور، صور كبيرة مثل صفحات المجلّات، هناك كثير من الناس، زهور وزهور. براديل يبتسم بتواضع، مثل شخصٍ ربح في اليانصيب، ولا يريد تضخيم الأمر، لكنّه يتقبّل الإعجاب. الآنسة بيريكور تتعلق بذراعه، مشرقة. ثوبها لم يرتدِ أحدٌ مثله قطّ في الحياة الحقيقيّة. يشترونه ليومٍ واحدٍ فقط، وبِدَل السموكينغ، وبِدَل الذيل الطويل، والزينات المجنونة، والفتحات الواسعة عند الظهر في الأثواب، والقلائد، والعقود، والقفّازات الملتصقة باليد كالزبدة الطازجة، العريسان متعانقان. إنّه هو بذاته، براديل، وبوفيهات يفيض بها الطعام. هنا، إلى جانب العروس، أبوها بلا شكّ، مسيو بيريكور، وحتى وهو مبتسم، مظهر هذا الرجُل ليس اعتياديّاً. وفي كلّ مكانٍ أحذية

لمّاعة، وقمصان لها ثنيات عند الصدر، وهناك في العمق، عند علاّقات الثياب، القبّعات السوداء العالية التي تعكس النور مصفوفة على مثلّثات من النحاس، وأمامها أهرامات من كؤوس الشمبانيا، وخدم بالملابس الرسميّة والقفازات البيضاء، ورقصات فالس، وأوركسترا، والعروسان من جديد، تحت قبّة الشرف... راح ألبير يقلّب الصفحات مهتاجاً.

مقال في جريدة غولوا:

عرس رائع

طال انتظار هذا الحدث الباريسيّ بامتياز، وهناك ما يستحقّ الانتظار؛ إذْ جرى في ذلك اليوم ربط النعومة بالشجاعة. ولكي نوضّح لقرائنا الذين يجهلون ذلك، وهُم قلّة، يتعلّق الأمر بزواج الآنسة مادلين بيريكور، ابنة مارسيل بيريكور الصناعيّ المعروف، وهنري دولناي براديل، الرجُل الوطنيّ والبطل.

جرت المراسم التي أريد لها أن تكون بسيطةً وحميميةً في كنيسة أوتوي، وقد اقتصر الحضور على عدّة عشرات من المدعوّين، وأفراد العائلة، والمقرّبين الذين كان حظهم كبيراً في سماع الخطاب الرائع لمونسينيور كوانديه؛ أمّا الحفلة، فأقيمت عند أطراف غابة بولونيا، بالقرب من جناح الصيد القديم دارمونفيل، الذي يجمع بين أناقة العمارة من طراز بيل ايبوك وبين حداثة التجهيزات. لم تمرّ لحظة من النهار بأكمله لم يجتح فيها المدعوّون من المجتمع المخمليّ والأصيل الشرفات، والحدائق، والصالونات. ولقد استطاع ما يزيد على ستّمئة مدعوّ، على ما يقال، أن يعبّروا عن إعجابهم بالعروس الشابّة الرائعة وبثوبها (من التول وساتان دوشيس) الذي صّممته وقدمته هديةً جان لانفان، وهي صديقة العائلة

الحميمة. ونذكّر هنا أنّ العريس المختار، هنري دولني براديل الأنيق والذي يعود اسم عائلته إلى تاريخ قديم ليس سوى «النقيب براديل» المنتصر (بين أشياء أخرى رائعة لها علاقة بالسلاح) في معركة النقطة 113 التي انتزعت من البوش في اليوم الذي سبق الهدنة، وقد قُلّد أربع مرّات أوسمة على أفعاله الشجاعة التي لا تعدّ ولا تُحصى.

رئيس الجمهوريّة، مسيو ريمون بوانكاريه، الصديق الحميم لمسيو بيريكور أتى في زيارةٍ خاطفةٍ إلى الحفل تاركاً لغيره من المدعوّين المميّزين الذين نذكر من بينهم السادّة ميلوران ودوديه، وكذلك بعض الفنّانين الكبار، مثل: جان دانيان بوفوريه، وجورج روشغروس[1]، وغيرهم، أن يستمتعوا بهذا العيد الاستثنائيّ الذي ستبقى ذكراه محفوظة ضمن سجلّات الأحداث المهمّة.

أغلق ألبير الألبوم.

الكراهية التي كان يغذّيها تجاه براديل هذا صارت كراهية للذات. كره نفسه؛ لأنّه ما زال يخاف منه. فاسم براديل وحْده كان يجعل قلبه يخفق. إلى متى هذا الذعر؟ سنة كاملة لم يذكره فيها، لكنّه كان يفكّر به دائماً. مستحيل نسيانه! يكفي النظر حوله في كلّ مكان ليرى أثر هذا الرجُل على

(1) الكسندر ميلوران: سياسيٌّ فرنسيٌّ، ورئيس مجلس النوّاب، وسيصبح رئيس الجمهوريّة الفرنسية من عام 1920 حتّى عام 1924. جان دانيان بوفوريه: عضو أكاديميّة الفنون الجميلة في معهد فرنسا، ومن الفنّانين الأوائل الذين استخدموا الصورة الفوتوغرافيّة في أعمالهم. جورج أنطوان روشغروس: عُرف بلوحاته التاريخيّة والرمزيّة، ثمّ بلوحات الاستشراق. الإشارة إلى هؤلاء كضيوف حضروا الزفاف يضفي مزيداً من الواقعيّة على أحداث الرواية. (المترجمة).

حياة ألبير. وليس فقط على حياته هو. وجه إدوار، حركاته من الصباح حتّى المساء. كلّ شيء، كلّ شيء تماماً جاء من تلك اللّحظة التي دشّنت الزمن: رجُلٌ يركض في مناظر تشبه نهاية العالم، نظرته مستقيمة وشرسة. رجُلٌ لا يشكّل له موت الآخرين، ولا حياتهم أيّة أهميّة. رجُلٌ دفع بكلّ قوّته ألبير الذي تزعزع كيانه. ثمّ هذا الإنقاذ العجائبيّ الذي نعرف نتائجه، والآن هذا الوجه الذي اهترأ نصفه. كأنّ الحرب ما كانت تكفي لكلّ هذه المآسي.

نظر ألبير أمامه بدون أن يرى شيئاً. تلك إذن نهاية القصّة. هذا الزواج.

فكّر بوجوده على الرغم من أنّه لم يكن فيلسوفاً. وفكّر بإدوار الذي تزوّجت أخته بدون أن تعرف أبداً بالرجُل الذي قتلهما هما الاثنين معاً.

استعاد صور المقبرة في اللّيل، أو صوراً أُخرى. في المساء السابق، عندما ظهرت الفتاة الشابّة التي ترتدي أكمام الفرو، والنقيب براديل اللامع إلى جانبها مثل منقذ، ثمّ الطريق نحو القبر، وألبير الجالس إلى جانب السائق الذي تفوح منه رائحة العرق، والذي يمرّر عقب سيجارته بضربة لسانه من زاوية إلى أُخرى من فمه، في حين كانت الآنسة بيريكور والملازم براديل كلاهما في الليموزين. كان يجب أن يشك بذلك. لكنّ ألبير لا يرى أي شيءٍ أبداً، وتفاجئه الأمور دائماً كمن يقع من الخزانة. لا أعرف إن كان سيكبر في يوم من الأيّام هذا الصبي. حتّى الحرب لم تعلّمه شيئاً. أمره ميئوس منه!

عند اكتشاف هذا الزواج راح قلبه يخفق بسرعة تثير الدوار؛ أمّا الآن، فقد شعر به يذوب داخل صدره، شعر به يكاد يقف.

طعم الصفراء هذا في حلقه... اجتاحته موجة غثيانٍ جديدة كبحها، وهو يقف ويترك الغرفة على نحوٍ قاطع.

الآن فهم الأمر. النقيب براديل هنا.

مع الآنسة بيريكور.

إنّه فخّ قد نصبه له. عشاء مع العائلة.

سيضطرّ ألبير إلى العشاء مقابله، وأن يتحمّل نظرته الحادّة كما حصل عند الجنرال موريو عندما كان الأمر يتعلّق بإرساله إلى المفرزة. هذا الأمر لا يمكن تحمّله. ألن تنتهي هذه الحرب أبداً؟

يجب أن يذهب مباشرةً. يستسلم تماماً، وإلّا سوف يموت، سوف يُقتل من جديد. الهرب.

قفز ألبير على قدميه، اجتاز القاعة، وهو يركض، صار عند الباب. انفتح الباب.

أمامه كانت مادلين بيريكور مبتسمة.

- «أنت هنا!». قالت له.

قالت ذلك كما لو كانت مُعجبة به. لا يعرف لأيّ سبب، ربّما معجبة بأنّه وجد الطريق، وجد الشجاعة.

لم تستطع أن تتوقّف عن النظر إليه من رأسه إلى قدميه، خفض ألبير بصره بدوره. رأى ذلك جيّداً الآن، هذا الحذاء الجديد اللمّاع يبدو مع هذا الطقم القصير جدّاً والرثّ أسوأ من أيّ شيءٍ آخر. كان فخوراً به، ولقد رغب به كثيراً، هذا الحذاء الذي يصرخ هنا بفقره.

تمركزت كلّ سخافة منظره هنا في حذائه. إنّه يكرهه، ويكره نفسه.

- «تعال، هيّا». قالت مادلين.

أمسكت به من ذراعه كأنّها رفيقته.

- سوف ينزل أبي. إنّه متشوّق للقياك، هل تعلم؟

19

- مرحباً أيّها السيّد.

كان مسيو بيريكور أقصر ممّا توقّع ألبير. يتخيّل الإنسان غالباً أنّ الأشخاص المهمّينَ طويلو القامة، ويتفاجأ بأن يجدهم طبيعيّين. لكن لا، ليسوا طبيعيّين، وقد رأى ألبير ذلك بوضوح. لدى مسيو بيريكور طريقته الخاصّة في أن يخترقك بنظره، ويحتفظ بيدك في يده لجزءٍ إضافيٍّ من الثانية، بل وفي أن يبتسم... لا شيء اعتياديّ في كلّ هذا، قد يكون الرجُل من فولاذ، مع تلك الثقة الخارقة للعادة. من بين كائناتٍ كهذه يُتم اختيار وتوظيف مسؤولي العالم، ومنهم تأتي الحروب. خاف ألبير، ولم يعد يعرف كيف يمكن له أن يكذّب على رجُلٍ من هذا النوع. راح ينظر أيضاً إلى باب الصالون، منتظراً في كلّ لحظةٍ أن يرى النقيب براديل يظهر فجأة.

بكثيرٍ من اللّطف، مدّ مسيو بيريكور يده مشيراً إلى أريكة. ها هُم قد جلسوا، لعلّ رفّة هدبٍ كانت كافية ليأتي العاملون مباشرةً، جرّوا البار نحوهم، وقدّموا لهم أشياء للأكل. بين هؤلاء كانت الخادمة الجميلة الصغيرة، حاول ألبير ألّا ينظر إليها. كان مسيو بيريكور يحدّق فيه بفضول.

لم يفهم ألبير لماذا لا يريد إدوار العودة إلى هنا؛ لا بدّ من أنّ لديه

أسبابه القاهرة. عندما اكتشف مسيو بيريكور، فهم على نحوٍ مبهم أنّه يمكن أن تكون هناك حاجة للهرب من حضور رجُلٍ كهذا. كان كائناً قاسياً لا يمكن أن تأمل منه أيّ شيء، كأنّه مصنوعٌ من مزيج خاصّ جدّاً مثل القنابل، والقذائف، والمتفجّرات التي تقتلك بضربةٍ واحدةٍ، حتّى بدون أن تدرك ذلك. ساقا ألبير تكلّمتا بدلاً عنه، أرادتا أن تنهضا.

- ماذا تشرب يا مسيو مايار؟

سألته مادلين، وهي تبتسم له ابتسامة عريضة.

ظل مسمّراً. ماذا يشرب؟ لا يعرف. في المناسبات الكبيرة عندما تكون لديه الوسائل، كان يشرب الكالفادوس، ولكنّه كحولٌ سوقيٌّ لا يمكن طلبه عند الناس الأغنياء. ماذا يستبدل به في هذه المناسبة؟ لم تكن لديه أدنى فكرة.

- «ما رأيك بكأس من الشمبانيا؟». اقترحت مادلين لتساعده.

- «حسناً..». قال ألبير الذي كان يكره كلّ ما فيه فقاعات.

حركة، صمت طويل، ثمّ جاء الساقي، ومعه دلو من الثلج، جرت مراقبة طقوس السدّادة التي كُبحت بفنّ حتّى لا تنطلق. قام مسيو بيريكور بحركة نفاد صبر. هيا، هيا، اسكب، لن نمضي الليل كلّه في هذا.

- «هكذا إذن، كنت تعرف ابني؟». سأله في النهاية، وهو ينحني باتّجاه ألبير.

فهم ألبير في تلك اللّحظة أنّ الأمسية ستكون هكذا، ولا شيء آخر. مسيو بيريكور يستجوبه أمام عيني ابنته حول موت ابنه. براديل لن يكون جزءاً من العرض. إنّها مسألة عائليّة. ارتاح لذلك. نظر إلى الطاولة، إلى كأس الشمبانيا الذي كان يفور. بماذا يبدأ؟ ماذا يقول؟ مع أنّه كان قد فكّر بهذا، لكنّه لم يجد الكلمة الأولى.

تساءل مسيو بيريكور، واعتقد من الضروريّ أن يضيف:

- ابني... إدوار.

تساءل مسيو بيريكور عندها إن كان هذا الصبيّ قد عرف ابنه بالفعل. هل هو من كتب الرسالة؟ لا يعرف كيف تجري الأمور هناك، ربّما يُعيّن بالمصادفة الشخص الذي يكتب الرسائل لعائلات الرفاق، ويكون الدور في كلّ مرّةٍ على واحدٍ منهم ليكرّر الشيء نفسه تقريباً، لكنّ الجواب انطلق صادقاً:

- أوه نعم، يا سيّدي، أستطيع القول إنّني خالطت ابنك كثيراً!

ما كان يريد مسيو بيريكور معرفته عن موت ابنه ما عادت له أهميّة كبرى. ما قاله هذا الجنديّ المسرّح أكثر أهميّة لأنّه يتحدّث عن إدوار الحيّ. إدوار في الطين، إدوار في المطعم، عند توزيع السجائر، في أمسيات اللعب بالورق، إدوار الذي يجلس بعيداً، وهو يرسم في الظلّ، منحنياً على دفتره. كان ألبير يصف إدوار الذي تخيّله أكثر من ذلك الذي كان إلى جانبه في الخندق، ولم يخالطه. بالنسبة إلى مسيو بيريكور، لم يكن ذلك مؤلماً إلى الدرجة التي تخيّلها، لا بل كان جيّداً، مع هذه الصور. اضطرّ إلى أن يبتسم. منذ مدّةٍ طويلةٍ لم تره مادلين يبتسم، بصدق.

- «إن كنت تسمح لي». قال ألبير: «لقد كان بالفعل يحبّ المزاح».

اجتاحته الشجاعة، وراح يروي: وفي اليوم الذي، وفي اليوم حيث، وأذكر أيضاً... لم يكن ذلك صعباً، كلّ ما كان يتذكّره عن هذا، أو ذاك من الرفاق، كان ينسبه إلى إدوار شريطة أن يكون ذلك لصالحه.

راح مسيو بيريكور يكتشف ابنه. مذهلة هي الأشياء التي تُروى له (هل قال هذا بالفعل؟ كما أقول لك، يا سيّدي) لم يدهشه شيءٌ؛ لأنّه قد

اعتاد فكرة أنّه في النهاية لم يكن قد عرف ابنه على الإطلاق. يمكن أن يُروى له كلّ شيء: حكايات غبيّة، أغانٍ، صابون الحلاقة على الذقن، نكات التلاميذ، أشياء مضحكة لدى الجنود، لكنّ ألبير، الذي كان قد وجد أخيراً طريقاً مفتوحاً، غاص في ذلك الاتّجاه بعزيمة، وحتّى بمتعة. أثار لحظات من الضحك مع نكاته حول إدوار، مسيو بيريكور مسح عينيه. ولأنّ الشمبانيا أمدّته بالشجاعة، تكلّم ألبير بدون أن يعي أنّ قصّته كانت تنزلق، تنزلق بدون توقّف، وأنّه كان يمرّ من نكات الحرس إلى الأقدام المتجمّدة، ومن جلسات ورق اللّعب إلى الجرذان السمينة مثل أرانب، وإلى الرائحة المقزّزة للجثث التي ما كان رجال الإسعاف يستطيعون الذهاب للمّها، ويمزحون حولها. كانت تلك هي المرّة الأولى التي يروي فيها ألبير الحرب التي خاضها.

- مثلاً، إدوار ابنكم، في يومٍ من الأيّام، قال هذا...

كاد ألبير يتجاوز الحدّ. كادت حرارته في السرد تتجاوز الحدّ، والحقيقة لديه تتجاوز الحدّ، كاد يقوم بما هو أكثر من الضروري، وأن يخرّب صورة هذا الرفيق المركّب الذي كان يسميه إدوار. لكن لحُسن الحظ كان يرى مسيو بيريكور أمامه تماماً، وهذا الرجُل، حتّى عندما يبتسم، وعندما يضحك، له هيئة وحش مفترس مع عينيه الرماديّتين، فيه شيء يبرّد حماسك.

- وكيف قُتل؟

رنّ السؤال مثل ضجّة نصل المقصلة. ظلّت شفاه ألبير معلّقة، استدارت مادلين نحوه، عاديّة ورشيقة.

- رصاصة يا سيّدي. عند الهجوم على النقطة 113...

توقّف فجأةً، وقد شعر بأنّ هذا التفصيل الدقيق، «النقطة 113»، يكفي وحْده. كان لها عند كلّ واحد صدى متفرّد. مادلين تذكّرت الشروحات التي أعطاها إيّاها الملازم براديل عندما التقيا للمرّة الأولى في مركز التسريح. كانت تحمل في يدها الرسالة التي تعلن عن موت إدوار. مسيو بيريكور لم يستطع أن يمنع نفسه من التفكير مرّة أُخرى أنّ هذه النقطة 113 هي التي سبّبت الموت لابنه، وسببت وسام صليب الحرب لصهره المستقبليّ. بالنسبة إلى ألبير، كانت تلك الكلمة موكباً من الصور، حفرة القذائف، والملازم الذي ينقضّ عليه بكلّ سرعة...

- «رصاصة، يا سيّدي». ردّد مرّةً ثانيةً بكلّ القناعة التي كان قادراً عليها: «كنّا نركض للهجوم على النقطة 113. ابنك كان أحد أشجع الجنود. هل تعلم ذلك؟ و...».

بدون أن يشعر، انحنى مسيو بيريكور نحوه. توقّف ألبير. انحنت مادلين هي الأُخرى، وقد أثار فضولها، كأنّها كانت جاهزة لمساعدته على إيجاد كلمةٍ صعبة. ذلك أنّ ألبير حتّى تلك اللّحظة لم يكن قد نظر. فجأة، استطاع أن يجد، وبدقّةٍ غير معقولة، وبدون أيّ تغيير، نظرة إدوار داخل نظرة أبيه.

قاوم للحظة، ثمّ انهار بالبكاء.

بكى في يديه، وهو يتمتم باعتذارات. كان ألمه كثيفاً. حتّى عند رحيل سيسيل لم يشعر بمثل هذا الأسى. في هذا الألم كانت تجتمع كل نهاية الحرب، وكلّ ما في عزلته من ثقل.

مدّت له مادلين منديلها. تابع الاعتذار والبكاء. حلّ الصمت، كلٌّ في حزنه.

أخيراً تمخّط ألبير بصوتٍ عال.

- أنا آسف..

الأمسية التي كانت قد بدأت لتوّها انتهت بلحظة الحقيقة تلك. ما الذي يمكن انتظاره أكثر من ذلك من مجرّد لقاءٍ بسيطٍ؟ من عشاء؟ مهما فعلوا الآن، الأساسيّ قد قيل. قاله ألبير باسم الجميع. هذا الانقطاع سبّب بعض الألم لمسيو بيريكور، لأنّ السؤال الذي كان يحرق شفتيه لم يطرحه، وكان يعلم أنّه لن يطرحه بعد الآن. هل كان إدوار يتحدّث عن عائلته؟ لا أهميّة. كان يعرف الجواب.

نهض، وهو متعب، لكنّه ممتلئ بالكبرياء.

- «تعال يا بني». قال، وهو يمدّ له يده ليشدّه من الأريكة: «سوف تأكل، سيكون ذلك جيّداً بالنسبة إليك».

نظر مسيو بيريكور إلى ألبير وهو يفترس الطعام. وجهه الشاحب كالقمر، عيناه الساذجتان... كيف رُبحت الحرب مع رجالٍ مثله؟ من كلّ هذه القصص عن إدوار، أيُّها كانت حقيقيّة؟ عليه هو أن يختار. المهمّ أنّ رواية مسيو مايار لا تعكس حياة إدوار نفسه بقدر ما تصف الجوّ الذي عاشه خلال كلّ هذه الحرب. شبابٌ يغامرون بحياتهم كلّ يوم، ويمزحون في المساء، في حين كانت أقدامهم تتجمّد.

كان ألبير يأكل ببطءٍ وبشراهة. استحقّ العلف الذي قُدّم له. من المستحيل بالنسبة إليه أن يسمّي ما كان يُقدّم له. بودّه أن يرى قائمة الطعام تحت عينيه كي يتابع رقصة الأطباق. هذا ما يجب أن نسمّيه مخفوق المحار، وهذا الجيليه، بارد، ساخن، وهذا يجب أن يكون سوفليه. كان ينتبه لكيلا يصبح مشهداً، ولكيلا يوحي بأنّه على درجة الفقر التي كان عليها بالفعل.

لو كان محلّ إدوار، حتى لو كان وجهه مضروباً من المنتصف، لكان عاد إلى هنا لكي يغبّ من هذه الكريما، ومن هذا الأثاث، ومن هذا الترف، بدون أن يتردّد للحظة. هذا إذا لم يحسب حساب الخادمة الصغيرة بعينيها السوداوين. ما كان يضايقه ويمنعه من أن يستمتع فعليّاً بكلّ ما لديه ليأكله هو أنّ الباب الذي يدخل منه الخدم يقع خلفه. وفي كلّ لحظةٍ كان ينفتح فيها، كان ألبير يتشنّج، ويستدير، هذه الحركات جعلته أكثر شبهاً برجُلٍ يتضوّر جوعاً، ويراقب مجيء الأطباق بكلّ رغبة.

لن يعرف مسيو بيريكور أبداً ما هو الجزء الصحيح من كلّ ما سمعه، بما في ذلك القليل الذي يتعلّق بموت ابنه. الآن، لم يعد لذلك أهميّة بالفعل. قال لنفسه: إنّ الحِداد يبدأ بهذا النوع من التخلّي عمّا كان يريد. خلال تناول الوجبة، حاول أن يتذكّر بأيّة طريقةٍ جرى الحداد على زوجته، لكنّ ذلك كان قديماً.

جاءت اللّحظة التي توقّف فيها ألبير عن الطعام بعد أن توقّف عن الكلام. كانت هناك لحظات صمت، وكان يُسمع بوضوح صوت الشوكة والسكّين في القاعة الكبيرة تقرقع مثل أجراس. كانت تلك اللّحظة الصعبة التي يعيب فيها كلّ واحدٍ على نفسه كونه لم يستفد كما يجب من المناسبة. ولأنّ مسيو بيريكور كان ضائعاً في أفكاره، شرعت مادلين في المهمّة الصعبة.

- بالمناسبة، مسيو مايار، إن لم يكن في ذلك تطفّل...في أيّ مجالٍ تعمل الآن؟

ابتلع ألبير لقمة من الدجاج، وأمسك بكأس البوردو، وصدرت عنه همهمة قصيرة مستمتعة، فقط لكي يكسب الوقت.

- «الإعلان». قال في النهاية: «أنا أعمل في مجال الإعلان».

- «هذا ممتع». قالت مادلين: «وما الذي تفعله بالضبط؟».

وضع ألبير كأسه وشحذ صوته:

- لست في مجال الدعاية تماماً. أعمل في شركة تقوم بالدعاية. أنا محاسب.

كان ذلك أقلّ جودة. رأى ذلك على الوجوه. أقلّ حداثة، أقلّ إثارةً للفضول. وكان ذلك يحرمهم من موضوعٍ جميلٍ للحديث.

- «لكنّني أتابع الأعمال عن كثب». أضاف ألبير الذي شعر بخيبة الأمل عند مستمعيه: «إنّه قطّاع... شديد.. شديد الأهميّة».

هذا كل ما وجده مناسباً للقول. تخلّى بحذر عن الحلوى، عن القهوة، عن المشروبات الكحوليّة المتبقّية. كان مسيو بيريكور يحدّق فيه ورأسه منحنٍ قليلاً، في حين راحت مادلين تتابع محادثة لا طعم لها، وليس فيها أيّة لحظة صمت، ما يدلّ على خبرتها الطويلة في هذه المواقف.

عندما صار ألبير في البهو، طلبوا معطفه. ستأتي الخادمة الصبيّة.

- «أشكرك كثيراً مسيو مايار». قالت مادلين: «لأنّك قبلت أن تأتي لزيارتنا».

خلال ذلك لم تكن الخادمة الجميلة هي التي ظهرت، إنّما واحدة بشعة، شابّة أيضاً، لكنّها بشعة، وتفوح منها رائحة الريف؛ أمّا الأخرى، الجميلة، فلا بدّ من أنّها أنهت مدّة خدمتها.

عندها، تذكّر مسيو بيريكور الحذاء الذي رآه قبل قليل. خفض بصره نحو الأرض في حين كان ضيفه يرتدي سترته التي أعيد صباغها؛ أمّا مادلين، فلم تنظر إليهما من جهتها. كانت قد رأته من اللحظة الأولى، حذاء جديد، ولمّاع، ورخيص. كان مسيو بيريكور ساهماً يفكّر.

- قل لي مسيو مايار. أنت محاسب كما قلت...

- نعم.

هذا ما كان يجب عليه أن يراقبه أكثر عند هذا الصبي. عندما كان يقول الحقيقة، كان ذلك يبدو على وجهه. فاتت الفرصة، معلش.

- إيه. هل تعرف؟ من المصادفة أنّنا بحاجةٍ إلى محاسب. القروض تعرف تصاعداً كبيراً. وكما تعلم يجب أن تستثمر البلاد ذلك. في الوقت الحالي، هناك كثير من الفرص.

بالنسبة إلى ألبير، كان من المؤسف أنّ تلك اللّغة لم تكن لغة مدير بنك الاتّحاد الباريسي الذي طرده من الباب قبل عدّة أشهر.

- «لا أعرف ما هو سلّم رواتبك». تابع مسيو بيريكور: «وهذا ليس مهمّاً. اعلم أنّه إذا ما قبلت الوظيفة لدينا، فإن أفضل الظروف سوف تقدّم لك، وأنا أتعهّد بذلك شخصيّاً».

زمّ ألبير شفتيه. المعلومات قصفته، والعروض خنقته. كان مسيو بيريكور يحدّق فيه بحُسن نيّة. إلى جانبه مادلين تبتسم بلطف مثل ربّة عائلةٍ تنظر إلى طفلها يلعب بالرمل.

- «ذلك أنّ...». تلعثم ألبير.

- نحن بحاجةٍ إلى شبابٍ ديناميكيّين، وكفاءتهم عالية.

هذه الصفات انتهت ببثّ الرعب لدى ألبير. مسيو بيريكور يكلّمه كما لو كان قد قام بدراسات عليا تجاريّة في باريس. إضافةً إلى وجود خطأ واضح حول الشخص. شعر ألبير بأنّ خروجه حيّاً من قصر بيريكور سيكون من المعجزات. والاقتراب من جديد من عائلة بيريكور، حتى لو كان ذلك من أجل العمل، مع ظلّ الكابتين براديل، وهو يذرع الممرّات....

- «شكراً جزيلاً». قال ألبير: «لكن عندي وظيفة جيّدة».

رفع مسيو بيريكور يده: «أفهم، لا توجد مشكلة». عندما أغلق الباب، ظلّ للحظةٍ بلا حراك، ساهماً يفكّر.

- «مساؤك سعيد يا حبيبتي». قال في النهاية.

- مساؤك سعيد يا بابا.

وضع قبلة على جبين ابنته. كلّ الرجال يفعلون ذلك معها.

20

مباشرةً رأى إدوار الخيبة على قسمات ألبير الذي عاد مكتئباً من نزهته. يبدو أنّ الأمور لم تسر كما توقّع لها مع صديقته، على الرغم من الحذاء الجديد الجميل، أو ربّما بسببه، هذا ما فكّر به إدوار الذي كان يعرف ما هي الأناقة الحقيقيّة، والذي لم يتوقّع حظاً كبيراً لألبير عندما رأى ما يرتديه في قدميه.

عند وصوله، أشاح ألبير ببصره مثل شخصٍ خجول. لم يكن ذلك مألوفاً لديه. كان في العادة على العكس، يحدّق في إدوار مطوّلاً. هل أنت على ما يرام؟ كانت تلك نظرةً مبالغاً بها نوعاً ما، وتقول: إنّه لا يخشى من النظر إلى صديقه في عينيه عندما لا يرتدي القناع كما هو حاله في ذلك المساء. لكنّ ألبير بدلاً من ذلك رتّب حذاءه في علبته مثل كنز يجب إخفاؤه، لكنْ بلا فرح، لأنّ الكنز خيّب آماله، ولقد لام نفسه لكونه خضع لتلك الرغبة. دفعة كبيرة مع كلّ ما كان عليهما إنفاقه. كلّ ذلك من أجل أن يمثل دور الجميل عند آل بيريكور. حتّى الخادمة الصغيرة ضحكت عليه. لم يتحرّك. لم يرَ إدوار سوى ظهره، بلا حراك، ومثقل بالهموم.

ذلك ما دفعه لأن ينطلق. مع أنّه وعد نفسه ألّا يتحدّث عن أيّ شيء

طالما أنّ المشروع لم يكتمل، وكان ذلك بعيد التحقيق. إضافةً إلى ذلك، لم يكن قد وصل بعد إلى الرضا عمّا أنتجه، وما كانت معنويّات ألبير مرتفعة بما يكفي للتطرّق إلى أشياء جديّة.

كلّ هذه الأسباب دعته إلى أن يظلّ عند قراره الأصليّ بألّا يكشف ما لديه سوى في أبعد وقتٍ ممكن.

ولئن كان مع ذلك قد عقد العزم بأن يفضي بما لديه، فإنّ ذلك كان بسبب حزن رفيقه. في الواقع، هذه الحجّة كانت قناعاً يخفي السبب الحقيقي. فمنذ بعد الظهر، حين أنهى الرسمة الجانبيّة للطفل، راح يتحرّق نافد الصبر.

ولتذهب الأسباب الجيّدة إلى الجحيم.

- «على الأقلّ، تعشّيتُ جيّداً». قال ألبير بدون أن ينهض.

تمخط، لم يرد أن يستدير، أن يعرض نفسه مثل فرجة.

عندها، عاش إدوار لحظة مكثّفة، لحظة انتصار، ليس على ألبير، لا، لكنْ للمرّة الأولى منذ أن انهارت حياته يشعر بالقوّة، ويتخيّل أنّ المستقبل يعتمد عليه، ومن هنا شعوره بالانتصار.

حاول ألبير بلا جدوى أن ينهض، وهو يخفض عينيه. «سوف أذهب لإحضار الفحم». تمنّى إدوار أن يضمّه إليه، وأن يقبّله لو كانت لديه شفاه.

كان ألبير يرتدي دائماً خفّيه الضخمين المصنوعين من القماش الاسكتلنديّ لكي ينزل الدرج. «سوف أعود». قال مضيفاً كما لو أنّ التأكيد كان ضروريّاً. هذه حال الأزواج المسنّين، يقولان لبعضهما أشياء بحكم العادة بدون أن يكتشفا التأثير الذي يكون لها فيما لو استُمِع إليها بالفعل.

ما إن صار ألبير على الدرج حتّى قفز إدوار إلى الكرسي، رفع الفتحة

المخفيّة وأخرج الكيس. غيّر مكان الكرسي، مسح عنه الغبار بسرعة. جلس في الأريكة العثمانيّة. انحنى. أخرج من تحت الأريكة قناعه الجديد. وضعه وانتظر، ودفتر الرسم على ركبتيه.

صار جاهزاً بوقتٍ أبكر من المتوقّع، وبدا له الزمن طويلاً، وهو ينتظر ضجّة أقدام ألبير على الدرج، بكلّ ما فيها من ثقلٍ بسبب الدلو الممتلئ بالفحم، كان الدلو من القياس الكبير، وكان وزنه خرافيّاً. أخيراً، دفع ألبير الباب. عندما رفع عينيه، انجذب، ذُهل، ترك الدلو يسقط محدثاً ضجّة معدنيّة كبيرة. حاول أن يمسك نفسه، مدّ ذراعه، لكنّه لم يجد شيئاً لكي لا يسقط، كان فمه مفتوحاً على اتّساعه، ولم تعد ساقاه تقدران على حمله، فوقع أخيراً على ركبتيه على الأرض مضطرّباً.

القناع الذي يرتديه إدوار، كان بالحجم الحقيقيّ تقريباً، رأس حصان ألبير.

كان قد نحته في الورق المعجون المقوّى. فيه كلّ شيء: اللون البنيّ مع تلك الخطوط الرخاميّة الغامقة، خامة الوبر المسودّ المصنوع من صوف لعبةٍ بنيّةٍ ملمسها ناعم جدّاً، الوجنتان اللتان فقدتا لحمهما وتهدّلتا، جبهة الحصان الطويلة بزاويتها التي تؤدّي إلى المنخرين المفتوحين مثل ثقبين... والشفتان السميكتان اللتان يعلوهما الوبر والمفتوحتان قليلاً. كان الشبه يذهب بالروع.

عندما أغلق إدوار عينيه، كان الحصان هو نفسه الذي أغلق عينيه. إنّه هو. لم يقم ألبير قطّ بالربط بين إدوار والحصان.

كان منفعلاً إلى درجة الدموع، كما لو أنّه التقى بصديق الطفولة، بأخ له.

- يا إلهي!

ضحك وبكى في الوقت نفسه. راح يردّد: يا إلهي! ولم يستطع النهوض. بقي على ركبتيه. نظر إلى الحصان...يا إلهي!... إنّه جنون، وقد أدرك هو نفسه ذلك. كانت لديه رغبة بتقبيله على فمه المخمليّ المفتوح، لكنّه اكتفى بأن يقترب، يمدّ السبّابة، يلمس الشفاه. تعرّف إدوار في ذلك إلى الحركة نفسها التي قامت بها لويز من قبل، فاجتاحه الانفعال. هذا كلّ ما كان يمكن قوله.

ظلّ الرجُلان صامتين، كلّ واحد في العالم الذي يعيش فيه. داعب ألبير رأس الحصان، وتلقّى إدوار المداعبة.

- «لن أعرف أبداً ما كان اسمه». قال ألبير.

حتّى الأفراح الكبيرة تترك لديك وراءها شيئاً من الأسف، هناك خلفيّة من النقص والفقدان في كلّ ما كانا يعيشانه.

ثمّ فجأة، كأنّه ظهر لتوّه على ركبتي إدوار، اكتشف ألبير دفتر الرسم.

- أوه... عدت إليه؟

كانت صرخة من القلب.

- كم يسعدني ذلك! لا تستطيع أن تعرف.

ضحك من ذلك وحْده، كما لو كان يستمتع بأن يرى في النهاية جهوده وقد كوفئتْ. أشار إلى القناع.

- وهذا أيضاً؟ هل تتخيّل! أيّة أمسية!

دلّ على الدفتر بنوع من الشراهة.

- هل أستطيع أن أرى؟

جلس بالقرب من إدوار الذي فتح الدفتر ببطءٍ، مثل احتفالٍ حقيقي. منذ الصفحات الأولى خاب أمل ألبير. ما كان يمكنه إخفاء ذلك.

راح يتمتم. «آه نعم، حسنٌ جدّاً، حسن...». من أجل شغل الوقت، لأنّه في الواقع لم يكن يعرف ما يمكن أن يقول بدون أن يبدو ذلك مزيّفاً. في النهاية، ما هذا؟ على الورقة الكبيرة كان هناك جنديٌّ بشعٌ للغاية. أغلق ألبير الدفتر وأشار إلى غطائه.

- قل لي، أين وجدت ذلك؟

كان الخروج عن الموضوع يعني ما يعنيه. إنّها لويز بالطبع.

إيجاد الدفاتر كان بالنسبة إليها لعبة أطفال.

ثمّ كان يجب النظر من جديد إلى الرسومات، ماذا يقول؟ في هذه المرّة هزّ ألبير رأسه.

توقّف عند الورقة الثانية المرسومة بالقلم الناعم لتمثالٍ حجريٍّ يرتكز على قاعدة. يمكن رؤية التمثال مجابهةً على الطرف الأيسر من الصفحة، ومن الجانب على الطرف الأيمن منها. تمثّل المنحوتة رجُلاً عارياً بوضعيّة الوقوف. معدّاته كاملة: الخوذة، البندقيّة المعلّقة على الكتف. كان يتقدّم كأنّه بصدد الرحيل رافعاً رأسه، وناظراً نحو البعيد. وبأطراف أصابع يده الممدودة كان يشدّ على ذراع امرأةٍ وراءه ترتدي مريولاً، أو قميص المطبخ، تحمل طفلاً في ذراعيها وتبكي. كانا في مقتبل العمر كلاهما. وتحت الرسمة يوجد عنوان: الذهاب إلى المعركة.

- كم هو متقن ذلك الرسم!

هذا كل ما استطاع أن يقوله.

لم يشعر إدوار بالإهانة، تراجع، خلع قناعه ووضعه على الأرض أمامهما. وهكذا بدا كأنّ الحصان يخرج رأسه من خشبات الأرضية، ويمدّ إلى ألبير فمه الكبير الوبري المحاط بدائرة.

جذب إدوار انتباه ألبير من جديد، وهو يقلب بنعومة الصفحة التالية: إلى الهجوم! هذا كان عنوانها. في هذه المرّة هناك ثلاثة جنود، تتماشى حركتهم تماماً مع الدعوة التي يطلقها العنوان. فقد كانوا يتقدّمون مجتمعين، أحدهم يرفع عالياً بندقيّته التي تستطيل بالحربة، والثاني، بالقرب منه، يمدّ يده، وهو يتحضّر لرمي قنبلة، والثالث كان متخلّفاً عنهما بقليل، وقد أصابته للتوّ رصاصة، أو شظيّة. كان مثنيّاً، وقد تراخت ركبتاه من تحته، وهو بطريقه لأن يقع إلى الوراء...

قلب ألبير الصفحات: وقوفاً أيها الأموات! ثم جندي يموت، وهو يدافع عن العلم، وكذلك رفاق المعركة...

- هي تماثيل؟

كان سؤالاً طُرح بلهجةٍ متردّدة؛ لأنّ ألبير كان ينتظر كل شيء إلّا هذا.

وافق إدوار، وعيناه لا تفارقان الصفحات. نعم، تماثيل. كان يبدو عليه الرضا. بدا على ألبير كأنّه يقول: حسنٌ، حسنٌ، حسنٌ. كان ذلك كل شيء، في حين ظلّت بقيّة الكلمات مسجونة في صدره.

تذكّر تماماً دفتر الرسومات السريعة الذي يخصّ إدوار، والذي وجده ضمن أغراضه. كان ممتلئاً برسومٍ التقطها بسرعة بالقلم الأزرق، وقد أرسلها إلى العائلة مع الرسالة التي أعلنت عن موته. فيه المواقف نفسها التي يراها اليوم، جنود في الحرب، لكن كان في تلك الرسوم القديمة شيء حقيقيّ، وأصالة كبيرة...

ما كان ألبير يعرف شيئاً عن الفنّ. هناك فقط ما يلامس شعوره وما لا يلامسه. ما يراه هنا مرسوم على نحوٍ جيّد جدّاً، ومشغول كثيراً، وبكثير من العناية... لكنّه كان... راح يبحث عن الكلمة، كان... جامداً. في

النهاية استطاع تسمية ما شعر به: لا شيء حقيقي في هذا! تلك هي الكلمة تماماً. فهو اختبر كل ذلك حقيقة، وكان أحد هؤلاء الجنود؛ ولذلك فهو يعرف أنّ هذه الصور هي تلك التي شكّلها ذهنياً أشخاص لم يذهبوا إلى الحرب. كان في تلك الرسومات مشاعر طيّبة، وهذا أكيد؛ وهي ترمي لإثارة الانفعال، لكنّها تشرح المواقف على نحوٍ مبالغ به. كان ألبير رجُلاً يخفي مشاعره، في حين أنّ القسمات هنا مبالغ بها، كأنّه ألصق بكلّ رسمةٍ صفة من الصفات. تابع تقليب الصفحات. ها هي صفحة فرنسا التي تبكي أبطالها. فيها رسمة تمثل فتاةً صغيرةً باكيةً تحيط بذراعيها جندياً ميّتاً، ثمّ هناك صفحة يتيم يتأمل معنى التضحية، رسم فيها صبيّاً جالساً، يسند خدّه بكفّ يده، وبالقرب منه حلمه، أو أفكاره. فهناك جنديّ يحتضر، وهو ممدّدٌ على الأرض، ويده ممدودة نحو الطفل... الفكرة بسيطة، حتّى بالنسبة إلى من لا يعرف شيئاً عن ذلك. البشاعة في تلك الصور كانت كاملة، يجب أن ترى ذلك لتصدّق. ثمّ هناك صفحة ديك يدوس على خوذة بوش[1]، يا إلهي! الديك ينتصب على مخالبه، ومنقاره مسدّد نحو السماء، وهناك ريش، ريش في كل مكان.

لم يحبّ ألبير ذلك قطّ، إلى درجة أنّه لم يصدر عنه أيّ صوت. غامر بنظرةٍ نحو إدوار الذي كان من جهته يغمر رسومه بنظرة حامية، كما حين يتعلّق الأمر بالأطفال الذين يفخر بهم. فحتّى لو كانوا بشعين، لا يظهر لهم ذلك أبداً. حزن ألبير كان بسبب أنّه لحظ - حتى لو لم يشعر بذلك في تلك اللحظة بالذات- أنّ إدوار المسكين قد فقد كلّ شيء في هذه الحرب، حتى موهبته. بدأ بالكلام:

---

(1) الديك: هو الرمز غير الرسمي لبلاد الغال التي هي فرنسا الحاليّة، وكونه في الصورة يدوس على خوذة «البوش» كنايةً عن انتصار فرنسا على الألمان. (المترجمة).

- و...

لأنّه كان من الضروري قول شيء في النهاية.

- ولماذا تماثيل؟

راح إدوار ينبش في نهاية الدفتر، واستخرج منه قصاصات صحف، عرض واحدةً منها كان قد أحاط السطور فيها بقلمٍ سميك: «..هنا، كما في كلّ مكان، المدن، القرى، المدارس، حتّى محطّات القطار، كلّهم يريدون إقامة نصب للأموات...».

كانت القصاصة مأخوذة من جريدة ليست ريبوبليكان، وهناك قصاصات أُخرى. كان ألبير قد فتح هذا الملفّ من قبل ولم يفهم ما هو المنطق فيه، قوائم أموات من القرية نفسها، من التعاونيّة نفسها، احتفال هنا، تسليم أسلحة هناك، اكتتاب في مكانٍ آخر، كلّ شيء كان يدور حول الفكرة نفسها، فكرة النصب التذكاريّ.

- «حسناً». أجاب، حتّى لو أنّه لم يفهم حقيقةً ما يدور حوله الأمر.

أشار إدوار بإصبعه إلى حساب كان قد قام به في زاوية الصفحة.

30000 نصب تذكاري مضروباً بعشرة آلاف فرنك للنصب الواحد، يساوي 300 مليون فرنك.

في هذه المرّة، فهم ألبير على نحوٍ أفضل؛ لأنّ ذلك يعني الكثير من الأموال، بل ثروة كاملة.

لم يستطع أن يتصوّر ما يمكن الحصول عليه بمبلغ كهذا. اصطدمت مخيّلته بالرقم، مثل اصطدام نحلةٍ بالزجاج.

أخذ إدوار من يد ألبير الدفتر، وعرض عليه الصفحة الأخيرة.

الذكرى الوطنية

مسلّات، ونصب، وتماثيل
على شرف أبطالنا
وفرنسا المنتصرة

كاتالوغ

- تريد أن تبيع نصباً تذكاريّة للأموات؟

نعم، تماماً. كان إدوار مسروراً ممّا عثر عليه، ضرب على فخذيه مع تلك الضجّة التي يصدرها من حنجرته، هذا الهديل. لا أحد يعرف من أين يأتي، ولا كيف، هديل لا يشبه شيئاً، لكنّه مزعج للأذن فقط.

لم يفهم ألبير كيف يمكن لأحدٍ أن يرغب في صنع نصبٍ تذكاريّة. بالمقابل، فإنّ رقم 300 مليون فرنك بدأ يشقّ طريقاً في مخيّلته: ذلك يعني «بيتاً» مثل بيت مسيو بيريكور على سبيل المثال، و«ليموزين»، بل ويعني «قصراً»... احمرّت وجنتاه، كان قد فكّر للتوّ بـ«النساء»، مرّت الخادمة الصغيرة ذات الابتسامة على نحوٍ سريعٍ أمام عينيه، كان ذلك غريزيّاً. عندما يكون هناك أموال، يمكن أن تكون هناك دائماً نساء.

قرأ السطور القليلة التي تلت، كانت دعايةً مكتوبةً بحروفٍ كبيرةٍ، حجمها صغير، ومخطوطة بعنايةٍ كبيرةٍ حتّى ليبدو أنّها طباعة: «وإنّكم لتشعرون في قرارة أنفسكم بتلك الحاجة المؤلمة إلى تخليد ذكرى أبناء مدينتكم، أو قريتكم؛ أولئك الذين جعلوا من صدورهم سوراً حيّاً يقف في وجه العدوّ المحتل».

- «كلّ ذلك جميل جداً». قال ألبير: «بل إنّني أجد الفكرة رائعة».

فهم أكثر لماذا خيّبت الرسومات أمله إلى تلك الدرجة؛ فهي لم تكن مصنوعة لتمثّل حساسيّةً معيّنةً، إنّما لتعبّر عن شعورٍ جمعيٍّ، لتعجب جمهوراً واسعاً يحتاج إلى انفعالات، ويريد بطولة.

في مكان أبعد: «.... لتشييد صرحٍ يكون جديراً بمنطقتكم، وبالأبطال الذين تريدون أن يكونوا مثالاً للأجيال القادمة. النماذج المقدّمة يمكن أن تُسلّم لكم مصنوعة من الرخام، أو الغرانيت، أو البرونز، أو الحجر، أو سيليكات الغرانيت، أو من الغالفانو البرونزي...، وذلك حسب الإمكانات التي لديكم».

- «لكنّ مسألتك معقدة». قال ألبير معلّقاً: «أوّلاً: لأنّه لا يكفي أن ترسم صروحاً لكي تبيعها، ثمّ عندما تُباع، يجب تصنيعها، وهذا يتطلّب نقوداً، وعاملين، ومعملاً، وموادّ أوليّة...».

ذُهل عندما وعى تماماً ما يمثّله تأسيس مشغلٍ للصبّ.

-... بعد ذلك، يجب أن تُنقل الصروح، وأن تُشيدّ في المكان... هذا يتطلّب كثيراً من المال!

عدنا مجدّداً إلى هنا، إلى المال. حتّى أكثر الناس خبرةً بالصناعة لا يستطيعون الاكتفاء بالطاقة التي لديهم. ابتسم ألبير بلطف، وربّت على ركبة رفيقه.

- حسناً. اسمع، سوف نفكّر بذلك. أنا أجد أنّها فكرةٌ ممتازةٌ أن تريد العودة إلى العمل، لكنْ ربّما لم تكن تلك هي الجهة التي يجب أن تتوجّه إليها. الصروح أمرٌ معقّدٌ، لكنْ لا يهم. المهم هو أن تستعيد رغبتك بالأشياء، لا؟

لا. شدّ إدوار قبضتيه، وقام بحركةٍ في الهواء كما لو كان يمشّط الهواء، كما لو كان يلمّع أحذية. الرسالة كانت سريعة: لا. نبدأ العمل بسرعة!

- «أوه! العمل بسرعة، العمل بسرعة». قال ألبير: «لديك أنت أفكار عجيبة».

على صفحةٍ أُخرى من الدفتر الكبير، كتب إدوار رقماً بسرعة كبيرة: «300 صرح! محا رقم 300، وكتب 400. يا لحماسه! أضاف: 400 صرح مضروبة بـ 7000 فرنك = 3 ملايين!».

لقد صار مجنوناً تماماً. ما من شك في ذلك. لا يكفي أنّه يريد القيام بمشروع مستحيل، بل يريد أن ينفّذه مباشرةً، بسرعةٍ ملحّة. حسن، 3 ملايين بالمبدأ. ألبير ليس عنده شيء ضدّها، لا بل إنّه معها، لكنْ من الواضح أنّ إدوار يحلّق في الفضاء. بمجرّد تنفيذه لثلاث رسمات، انتقل بخياله مباشرةً إلى مرحلة التصنيع. استعاد ألبير تنفّسه، كما لو كان يريد الانطلاق من جديد، وحاول الكلام بهدوء:

- اسمع يا أخانا، أظنّ أنّ ذلك ليس عقلانيّاً. تريد تصنيع 400 نصبٍ تذكاريٍّ، لا أعرف إن كنت تتصوّر فعلاً ما يمثّله ذلك...

- هان! هان! هان! عندما يقوم إدوار بهذه الضجّة، فهذا يعني أنّ الأمر مهم. فعل ذلك مرّةً، أو مرّتين منذ أن عرفا بعضهما. يعني ذلك أنّ ما يريده لا عودة عنه. لا يكون غاضباً وقتها، لكنّه يريد أن يجري الاستماع إلى ما يقول. التقط قلمه.

- «لن نصنّعها». كتب على الورقة: «نحن، سنبيعها».

- «آه نعم!». انفجر ألبير: «لكنْ في النهاية. خراء! لكي نبيعها، يجب قبل ذلك أن نصنّعها. أليس كذلك؟».

قرّب إدوار وجهه كثيراً من وجه ألبير؛ أمسك برأسه بين يديه، كما لو كان يريد أن يقبّله على فمه. قام بحركة لا. عيناه كانتا تضحكان. استعاد قلمه.

- نبيعها فقط.

الأشياء التي تُنتظَر أكثر من غيرها تأتي غالباً على شكل مفاجأة، وهذا ما سيحصل مع ألبير. إدوار الذي جنّ من الفرح، أجاب فجأة عن السؤال المزعج الذي كان رفيقه يطرحه على نفسه منذ اليوم الأوّل. بدأ يضحك. نعم، يضحك. للمرّة الأولى.

كانت ضحكةً طبيعيّةً تقريباً. ضحكة من الحلق، أنثويّة، تطلّ من الأعلى. ضحكة حقيقيّة مع غرغرة، مع اهتزازاتٍ موسيقيّة.

انقطع نفس ألبير من ذلك، وظلّ فمه مفتوحاً.

خفض عينيه على الورقة، نحو الكلمات القليلة التي كتبها إدوار:

- نبيعها فقط. لا نصنّعها. نقبض الأموال، وهذا كلّ شيء.

- «وبعد ذلك؟». سأل ألبير.

كان منزعجاً جدّاً لكون إدوار لم يجب عن سؤاله.

- «وبعد؟». أصرّ من جديد: «ماذا سنفعل بها؟».

- بعد؟

انفجرت ضحكة إدوار للمرّة الثانية. على نحوٍ أقوى بكثير.

- نهرب مع الخزنة!

21

الساعة لم تصل إلى السابعة صباحاً بعد، والبرد غير محتمل. لحُسن الحظّ أنّ الجليد لم يأتِ مع نهاية يناير، وإلّا لكان يجب استعمال المعول، وهو ما تمنعه الأنظمة على نحوٍ صارم. لكنْ كانت ريحٌ جليديّةٌ رطبةٌ تهبّ، ولا تتوقّف. لحُسن الحظّ أنّ الحرب انتهت، وإلّا فمع شتاءاتٍ من هذا النوع...

لم يكن هنري يريد أن ينتظر بكلّ بلاهة. كان يفضّل البقاء في السيّارة. لكنْ ما كان ذلك أفضل بكثير في هذه السيّارة حيث تصل إليك التدفئة إمّا من فوق، وإمّا من تحت، لكنْ ليس من الجهتين معاً أبداً، ثمّ إنّ هنري كان في تلك الفترة ينزعج من أيّ شيء؛ إذْ ما كان هناك أيّ شيء يسير في الاتّجاه الصحيح. مع كل هذه الطاقة التي يبذلها في أعماله، يستحقّ بعض الهدوء. لا؟ على العكس، لا بدّ دائماً من وجود عائقٍ، شيء لا يمكن تقديره، عليه هو أن يكون في الأمكنة كلّها في الوقت نفسه. هذا بسيط، ها هو يقوم بكلّ شيء بنفسه. إن لم يتابع دوبريه على نحوٍ دائم...

طبعاً ما كان ذلك صحيحاً تماماً، وهنري يقرّ بذلك؛ فدوبريه لا يهدأ. كان شغّيلاً ويبذل كثيراً من الجهود الحثيثة. «يجب حساب ما أجنيه من

هذا الشاب، فهذا يهدّئني». فكّر هنري. لكنّه كان في الواقع غاضباً على العالم بأكمله.

كان ذلك أيضاً تأثير التعب. توجّب عليه الذهاب في عتمة اللّيل، وهذه اليهوديّة الصغيرة استنفدت كل طاقته. مع ذلك، يعلم الله أنّه لا يحبّ اليهود؛ ففي عائلة دولني براديل، كان الجميع من معادي دريفوس[1] منذ القرون الوسطى. لكنّ الحق يقال، إنّ الفتيات اليهوديّات جميلات، لا جدال في ذلك، فيهنّ شيء إلهي، الحقيرات، عندما يردن ذلك!

شدّ معطفه حول جسمه بعصبيّةٍ، ونظر إلى دوبريه، وهو يطرق باب المحافظة.

أنهى البوّاب ارتداء ملابسه. شرح دوبريه الأمر ودلّ على السيّارة. انحنى البوّاب، ووضع يده على جبينه ليرى على نحوٍ أفضل كما لو كانت هناك شمس. كان يعلم بالأمر. لا تحتاج المعلومة إلى ساعةٍ كاملةٍ لتصل من المقبرة العسكريّة إلى المحافظة. اشتعلت أضواء المكاتب الواحد تلو الآخر. انفتح الباب من جديد، خرج براديل أخيراً من سيّارته الهيسبانو، اجتاز بسرعة المدخل المسقوف، وتجاوز البوّاب الذي أراد أن يدلّه على الطريق، مدّ ذراعاً مستعجلة: «أعرف، أعرف المكان هنا مثل بيتي».

المحافظ من جهته لم يفهم الأمور بتلك الطريقة. غاستون بليرزيك. منذ أربعين سنة، وهو يؤكّد لجميع الناس أنّه ليس من مقاطعة بروتانيا كما يوحي به اسمه. كان قد أمضى اللّيل بطوله بلا نوم. وفي أفكاره على مدى

---

(1) الجنرال ألفريد دريفوس: ضابطٌ فرنسيٌّ يهوديٌّ، اتُّهم في نهاية القرن التاسع عشر بتسريب وثائق للألمان. انقسم المجتمع بسبب هذه القضيّة إلى مناصرين ومعادين له، على الأخص لأنّه يهودي، ممّا عُدّ بوادر ظهور تيّار معاداة الساميّة في فرنسا. (المترجمة).

الساعات كانت جثث الجنود تختلط بالصينيّين، والتوابيت تتقدّم وحدها، وعلى وجه بعضها ابتسامة تهكميّة. اختار الوضعيّة المميّزة التي بدا له أنّها تعكس أهميّة وظيفته: الوقوف أمام المدفأة. ذراعه تستند إلى إطارها الرخاميّ، والذراع الثانية في جيب سترته الداخليّة، والذقن مرتفع. الذقن المرتفع مهمّ جدّاً عندما يكون الإنسان محافظاً.

لكنّ براديل كانت آخر همومه المحافظ، والذقن، والمدفأة. دخل بدون أن يلحظ الوضعيّة، وحتّى بدون أن يلقي التحيّة. انهار على الأريكة المخصّصة للزوّار، وقال مباشرة:

- طيّب، هذه الحيونة، من أين أتت؟

امتعض بليرزيك من الملحوظة.

كان الرجلان قد التقيا مرّتين، من أجل الاجتماع التقنيّ في بداية البرنامج الحكوميّ، ثمّ خلال تدشين الورشة. كلمة المحافظ، دقيقة صمت... هاج هنري، وراح يضرب بقدميه... كأنّه ليس لديه سوى هذا؟ كان المحافظ يعرف، ومن لا يعرف أنّ مسيو دولناي براديل هو صهر مارسيل بيريكور صديق وزير الداخليّة، وهما رفاق من الدفعة نفسها. وقد أتى رئيس الجمهوريّة نفسه إلى زواج ابنته. لم يجرؤ بليرزيك على أن يتخيّل تشابك الصداقات والعلاقات التي تغلّف كلّ تلك القصّة. وهذا ما منعه من النوم. عدد الناس المهمّين الذين كانوا حتماً موجودين وراء الإزعاجات، وقوّة الدفع التي يمثّلونها. كانت حياته المهنيّة أشبه بعود قشٍّ مهدّدٍ بشرارة. التوابيت القادمة من جميع المناطق منذ عدّة أسابيع تتدفّق نحو المدفن المقبل في دامبيير، لكنّ الطريقة التي يجري الدفن فيها في الموقع جعلت المحافظ بليرزيك يقلق مباشرة. عند ظهور المشكلات

الأولى أراد أن يحمي نفسه، وهو ردّ فعل غريزيّ؛ أمّا الآن، فهناك شيءٌ ما يهمس له أنّه ربّما أصيب بنوبة ذعر.

سارت السيّارة بصمت.

براديل من جهته كان يتساءل إن لم يكن قد بالغ في جشعه. شيء مقرف!

سعل المحافظ. اجتازت السيّارة عشّ دجاج، ضرب رأسه سقف السيّارة، لم ينبس أحدٌ بكلمة تعاطف. في الخلف، كان دوبري الذي ارتطم رأسه هو أيضاً عدّة مرات؛ يعرف الآن كيف يجلس، ساقاه متباعدتان، وإحدى يديه هنا، والأخرى هناك، فالمعلّم يقود السيّارة بسرعةٍ كبيرة.

رئيس البلديّة الذي كان حاجب المحافظة قد اتّصل به هاتفيّاً ليعلمه بالأمر، كان ينتظرهم أمام سياج ما سيصبح مقبرةً عسكريّةً في دامبيير، وهو يتأبّط تحت ذراعه سجلّاً. لن يكون مدفناً كبيراً. 900 قبر فقط. لم يفهم أحدٌ قطّ كيف قرّرت الوزارة المواضع.

من بعيد، نظر براديل إلى رئيس البلديّة. كان أشبه بكاتب عدلٍ أحيل إلى التقاعد، أو معلّم مدرسة، أي: اسوأ ما يمكن. الاثنان يأخذان على محمل الجدّ وظيفتهما وامتيازاتهما، ويصعب إرضاؤهما. كان براديل أميل إلى تشبيه رئيس البلديّة بكاتب العدل، فالمعلّمون يكونون أكثر نحولاً.

أوقف السيّارة، نزل منها، وقف المحافظ بجانبه، صافحا رئيس البلديّة بدون كلمة، كان الموقف جديّاً.

دفعا السياج المؤقّت. أمامهما امتدّ حقلٌ واسعٌ قد سُوّي، كان ممتلئاً بالحصى، وفارغاً، ورُسمت فيه خطوط بوساطة الحبال، خطوط مستقيمة

تماماً، وخطوط عموديّة، عسكريّة. وحْدها الممرّات الأبعد كانت منتهية. فالمقبرة بدأت تتغطّى ببطءٍ بالقبور والصلبان مثل ملاءةٍ تُمَدّ. بالقرب من المدخل، كانت هناك غرف مؤقّتة مخصّصة للإدارة، وعشرات الصلبان البيضاء المكوّمة على ألواح التحميل. أبعد بقليل، تحت هنغار، توجد توابيت مكدّسة فوق بعضها، مغلّفة بغطاءٍ شفّاف، هي زوائد يقارب عددها المئة. عادة تصلُ النعوش حسب مواعيد الدفن، ووجود كل هذه التوابيت على نحوٍ مسبق يدل على وجود تأخير. ألقى براديل نظرةً إلى الوراء نحو دوبريه الذي أكّد أنّهم في الواقع لم يكونوا مبكّرين. سبب إضافي -كما قال هنري لنفسه- لكي يجري تسريع الأمور. جعل خطواته أوسع.

كاد النهار يبزغ. لم تكن هناك شجرة واحدة على مسافة كيلومترات من حولهم. المقبرة تذكّر بأرض معركة. مشت المجموعة وراء رئيس البلديّة الذي كان يتمتم: «E 13، أين هو E 13...؟». كان يعرف على نحوٍ ممتاز مكان هذا القبر الملعون E 13. أمضى ساعة تقريباً عنده في مساء اليوم السابق، لكنّه لم يرد أن يذهب إليه مباشرةً وبدون بحثٍ احتراماً للدقّة التي عُرف بها.

توقّفوا في النهاية أمام قبر نُبش من مدّةٍ وجيزة. ظهر فيه تابوت تحت طبقةٍ ناعمةٍ من التراب، وكان أسفله محرّراً ومرتفعاً نوعاً ما بحيث يسمح بقراءة ما كُتب عليه: أرنست بلاشيت، عميد، رقم 133e RI – مات من أجل فرنسا في الرابع من سبتمبر 1917.

- «حسناً... وماذا بعد؟». سأله براديل.

أشار المحافظ إلى السجلّ الذي كان رئيس البلديّة يمسك به مفتوحاً أمامه مثل كتاب طلاسم، أو توراة، ثمّ قرأ بكثير من الفخامة.

- الموقع E 13: سيمون بيرلات، المرتبة الثانية - الفرقة السادسة المسلّحة. مات من أجل فرنسا في السادس عشر من يونيو 1917.

أغلق السجلّ بسرعة، وجعله ينصفق. عقد براديل حاجبيه. كانت لديه رغبة بأن يكرّر سؤاله: حسناً، وماذا بعد؟ لكنّه ترك المعلومة تسير بطريقها. استلم المحافظ الكلام. في تقسيم السُّلطات بين المدينة وبين البلديّة كانت له الكلمة الفصل.

- فرق العمل الخاصّة بك خلطت التوابيت والمواقع.

استدار براديل نحوه مستفسراً.

- «العمل قام به الصينيّون الذين يعملون لديك». أضاف المحافظ: «المشكلة أنّهم لا يبحثون عن الموقع الصحيح. يضعون التوابيت في أوّل حفرةٍ يجدونها».

في هذه المرّة، استدار هنري نحو دوبريه.

- لماذا يفعلون ذلك، هؤلاء الصينيّون الحمير؟

رئيس البلديّة هو الذي أجاب:

- لأنّهم لا يعرفون القراءة يا مسيو دولني براديل... أنت تستخدم لهذا العمل أشخاصاً لا يعرفون القراءة.

اضطّرب هنري للحظة، ثمّ جاء الجواب:

- ما المشكلة في ذلك؟ خراء على القصّة بأكملها. عندما يأتي الأهل ليعتكفوا، هل يقومون بحفر القبر ليتأكّدوا أنّه بالفعل ميّتهم هُم؟

أصيب الجميع بالذهول. ما عدا دوبريه الذي يعرف رجُله: منذ أن بدأوا قبل أربعة أشهر، رأى كيف يستطيع أن يسدّ جميع الثغرات، حتّى لو كانت واسعةً جدّاً. كان في هذا العمل عددٌ كبيرٌ من الحالات الخاصّة،

وكان من الضروريّ تشغيل عمّالٍ من أجل الاهتمام بجميع التفاصيل. لكنّ المعلّم يرفض أن يشغّل أحداً. «سيمشي الحال هكذا». كان يقول: «هُم بالأصل عددهم كبير، ثمّ أنت هنا يا دوبريه، أليس كذلك؟ أستطيع أن أعتمد عليك، أم لا؟». بذلك، في الوقت الحالي، أن تحلّ جثّة مكان جثّةٍ أُخرى ليس بالأمر الذي يمكن أن يزعجه.

أمّا رئيس البلديّة والمحافظ، فكانا بالمقابل منزعجين جدّاً.

- انتظر، انتظر، انتظر!

كان ذلك رئيس البلديّة.

- لدينا مسؤوليّات يا سيّد. هذه المهمّة مقدّسة!

مباشرةً انهالت الكلمات الكبيرة. من الواضح تماماً من هو الشخص الذي نتعامل معه.

- «طبعاً، أكيد». قال براديل بلهجةٍ أكثر مرونة.

- مهمّة مقدّسة طبعاً، لكنْ أنت تعرف ما...

- أجل يا سيّدي، بالفعل. أنا أعرف ما يعنيه ذلك، تخيّل! إهانة أمواتنا، هذا هو الأمر. ولذلك سوف أوقف العمل.

كان المحافظ سعيداً لأنّه كان قد أبلغ الوزارة ببرقيّة، بذلك يكون قد نفى مسؤوليّته. أوف!

فكّر براديل لبرهةٍ طويلة.

- «حسناً». قال في النهاية.

تنهّد رئيس البلديّة، لم يتصوّر تحقيق نصرٍ على هذه الدرجة من السهولة.

- «سوف آمر بفتح جميع القبور». قال بصوتٍ قويٍّ، صوتٍ قاطع: «من أجل التحقّق».

- «حسناً». قال براديل.

المحافظ بليرزيك ترك المناورة لرئيس البلديّة؛ لأنّه يشعر بالاضطّراب عندما يقوم أولني براديل بتسوية الأمور. خلال أوّل لقاءين بينهما وجده مترفّعاً، نافد الصبر، وليس من النوع المطواع الذي هو عليه اليوم أبداً.

- «حسنٌ». كرّر براديل، وهو يضمّ معطفه على صدره.

كان من الواضح أنّه يقابل الحظّ السيّئ بطيبة قلب، ويتفهّم موقف رئيس البلدية.

- مفهوم. افتحوا القبور.

عاد إلى الخلف، وبدا مستعدّاً للذهاب، ثمّ ظهر كأنّه يريد أن يحلّ تفصيلاً أخيراً:

- لا شكّ أنّكم ستخبروننا بمجرّد أن نستطيع العودة إلى العمل، هه؟ وأنت يا دوبريه، انقل الصينيّين إلى شازيير مالمون. لدينا تأخير هناك. بالنهاية، لعلّ هذه القصّة جاءت في وقتها.

- «هيه، انتظر!». صرخ رئيس البلديّة بصوتٍ عالٍ: «رجالك هُم الذين يجب أن يفتحوا القبور».

- «آه، لا!». أجاب براديل: «رجالي الصينيّون يدفنون، وأنا أدفع لهم من أجل ذلك. أنا لا مانع عندي أن ينبشوا، لكنْ لاحظ أنّني أحاسب الحكومة بالقطعة. وسيتوجّب عليّ عندها أن أحاسب بثلاث فواتير: فاتورة للدفن، وفاتورة للنبش، وعندما تنتهون من انتقاء المواضع الجيّدة من أجل التوابيت الصحيحة، ستكون الفاتورة الثالثة للقيام بالدفن من جديد».

- «آه، لا! هذا غير مقبول». صرخ المحافظ.

كان هو الذي قد وقّع المحاضر، والذي كتب التقارير عن النفقات، والذي يتصرف بالموازنة التي منحتها الدولة، وهو الذي، في حال تجاوزت الميزانيّة الحدّ المطلوب، سيأكل الضربة على أصابعه. أصلاً نُقل إلى هنا بسبب خطأ إداريّ؛ قصّة حصلت مع عشيقة وزير من الوزراء نظر إلى القصّة من موقع سُلطته فتضخّمت المسألة. والنتيجة: نُقل بعد أسبوع إلى دامبيير. بذلك في هذه المرّة، لا. شكراً. ليست لديه أية رغبة في أن ينهي حياته المهنيّة في المستعمرات، فهو مصابٌ بالربو.

- لا يمكن تحرير فواتير ثلاث مرّات، لا يمكن بأيّ شكل من الأشكال!

- «تدبّرا الأمر إذن أنتما الاثنان». قال براديل: «أمّا أنا، فيجب أن أعرف ما الذي يمكن أن أفعله بالصينيّين الذين لديّ. يعملون أم يذهبون؟».

اضطّرب رئيس البلديّة.

- هيّا يا سادة!

قام بحركةٍ واسعةٍ بذراعه ليدلّ على اتّساع المقبرة التي كان النهار يبزغ فيها. كان يخيّم عليها جوٌّ مخيفٌ كئيبٌ مع اتّساع مساحتها؛ حيث لا أعشاب، ولا أشجار، ولا حدود. تحت هذه السماء الحليبيّة، ومع كلّ هذا البرد، وأكوام التراب تلك التي كانت الأمطار تكبسها على بعضها، وهذه الرفوش المرميّة هنا وهناك، وعربات تحميل التراب، كان هذا المشهد محزناً للغاية.

فتح رئيس البلديّة سجلّه من جديد.

- «هيّا يا سادة». قال من جديد: «لقد دفنّا حتى الآن مئةً وخمسة عشر جنديّاً».

رفع رأسه، وقد خنقه ما رآه في المحضر.

وفوق كل ذلك، لا نعرف على الإطلاق من هو من...

تساءل المحافظ إن كان رئيس البلديّة سينخرط بالبكاء في النهاية، كأنه لا ينقصنا سوى ذلك.

- «هؤلاء الشباب قد ماتوا من أجل فرنسا». أضاف رئيس البلدية: «واجبنا تجاههم هو الاحترام».

- «جدياً؟». سأله هنري: «واجبك تجاههم هو الاحترام؟».

- نعم تماماً و...

- إذاً فسّر لي لماذا منذ شهرين تقريباً في مقبرة بلديّتك، تركت أشخاصاً أميّين يقومون بدفنهم كيفما اتّفق؟

- لكنْ لست أنا من دفنهم بتلك الفوضى، إنّهم الصينـ... رجالك!

- لكنّك أنت من لديه تفويض من السُّلطات العسكريّة لوضع هذه السجلّات، لا؟

- هناك موظّفٌ في البلديّة يأتي مرّتين في النهار، لكنّه لا يستطيع أن يمضي أيّاماً كاملة.

استدار نحو المحافظ مع نظرة من يغرق.

صمت.

تخلّى الجميع عن الجميع. رئيس البلديّة، المحافظ، السُّلطة العسكريّة، ضابط النفوس، وزارة التعويضات، ذلك أنّه كان في هذه القصّة عددٌ كبيرٌ من الوسطاء.

فهموا أنّه عندما يجري البحث من أجل تحديد المسؤولين، سينال كلّ واحدٍ منهم ما يستحق، ما عدا الصينيّين؛ لأنّهم لا يعرفون القراءة.

- «اسمعوا!». اقترح عليهم براديل: «من الآن فصاعداً سنكون أكثر حذراً، أليس كذلك يا دوبريه؟».

هزّ دوبريه رأسه. رئيس البلديّة كان منهاراً. يجب عليه أن يغلق عينيه، وأن يترك على القبور أسماء لا تتوافق مع هويّة الجنود المدفونين، وأن يحمل وحْده هذا السرّ. هذه المقبرة ستصبح كابوسه. نظر براديل إلى المحافظ، ثمّ إلى رئيس البلديّة، ثمّ قال بلهجة من يبوح بسرّ:

- أقترح أن نكتم هذه الحوادث الصغيرة...

بلع المحافظ لعابه. لا شكّ في أنّ برقيّته قد وصلت لتوّها إلى الوزارة، كأنّها طلب نقلٍ إلى المستعمرات.

مدّ براديل ذراعه، وأحاط به كتف رئيس البلديّة الذي لم يعد يعرف ما يفعل.

- «المهمّ بالنسبة إلى العائلات». أضاف: «هو أن يكون لكلّ واحدةٍ منها موقعها، أليس كذلك؟ بكل الأحوال ابنها موجود هنا. لا؟ هذا ما يهمّ قبل كلّ شيء، صدّقني».

سُوّيَ الأمر. صعد براديل إلى السيّارة، صفق الباب بغضبٍ شديدٍ، هو لا يغضب هكذا عادةً، حتّى إنّه أقلع بهدوء.

ظلّ هو ودوبريه لبرهةٍ طويلةٍ ينظران إلى المناظر التي تتوالى من النافذة بدون أن يقولا كلمة.

مر الأمر بسلام هذه المرّة أيضاً، لكنّ الشكّ تملّكهما، كلّ واحد حسب مستواه، الحوادث تتوالى، هنا وهناك.

قال براديل أخيراً: «سنكون أكثر حزماً في مراقبة الأعمال، أليس كذلك يا دوبريه؟ إنّني أعتمد عليك، أليس كذلك؟».

22

مكتبة
t.me/soramnqraa

لا! حرّك سبابته مثل مسّاحات زجاج السيّارة، لكن بسرعةٍ أكبر. «لا» حازمة جدّاً. نهائيّة. أغلق إدوار عينيه، توقّع هذا الجواب من ألبير، فهو شخصٌ خجولٌ ممتلئٌ بالخشية، حتّى عندما لا توجد أيّة مخاطر، يحتاج إلى عدّة أيّامٍ من أجل اتّخاذ أبسط قرار، فكيف بربّك إن كان الأمر يتعلّق ببيع صروحٍ تذكاريّةٍ للشهداء، ثمّ الهرب مع الأموال!

بالنسبة إلى إدوار، كل المسألة هي معرفة إن كان ألبير سيقبل في نهاية الأمر، وخلال مدّةٍ قصيرةٍ معقولة، لأنّ الأفكار الجيّدة جدّاً سلعٌ قابلةٌ للفناء، فالجرائد التي يقرأها بشراهةٍ جعلته يتوقّع ما سيحصل: سيمتلئ السوق قريباً جدّاً بعروض تشييد الصروح، وسيتهافت الفنانون، وعمال الصبّ جميعهم على هذا الطلب، وعندها، سيكون قد فات الأوان.

إمّا الآن، وإمّا أبداً.

وبالنسبة إلى ألبير كانت أبداً. إشارة بسبّابة اليد. لا!

مع ذلك، تابع إدوار عمله بإصرار.

الكاتالوغ الذي خصّصه لرسم النصب التذكاريّة راح يمتلئ صفحة بعد صفحة. كان قد صنع لتوّه تمثال «نصر» ناجحاً جدّاً، مُستلهماً من «نصر

ساموتراس»، لكنْ مع خوذة جنديّ[1]. هذا النموذج سيكتسح الساحة، وبما أنّه كان وحده حتّى مجيء لويز في نهاية ما بعد الظهر، فقد وجد وقتاً كافياً ليفكّر وليحاول الإجابة عن كلّ الأسئلة المطروحة، وليلمّع مشروعه الذي كان عليه الاعتراف بأنّه لم يكن سهلاً، بل أقلّ سهولةً ممّا كان يظنّ. حاول أن يذلّل الصعوبات، الواحدة تلو الأخرى، في حين راحت تظهر أمامه بلا توقّفٍ صعوباتٌ جديدة. لكنْ على الرغم من العوائق، كان إيمانه بالمشروع قويّاً لا يتزعزع، ولذلك لا يمكن أن يخفق.

أمّا الخبر الحقيقيّ المهم، فهو أنّه راح يعمل بحماسٍ غير متوقّع، حماس عنيف تقريباً.

كان يحقّق ذاته في هذا التوجّه، ويستمتع بذلك كثيراً. صار المشروع يستحوذ عليه، يسكنه، ووجوده كلّه يرتبط بتحقيقه. عاد إليه شعور المتعة القديمة التي كانت تتولّد من أفعاله التحريضيّة، ومن طبيعته الاستفزازيّة، وقد جعله ذلك يعود إلى ما كان عليه من قبل.

فرح ألبير بذلك. هو لم يعرف إدوار هذا من قبل، عرفه فقط من بعيد، داخل الخندق. أن يراه يعود إلى الحياة هكذا شكّل مكافأة حقيقيّة له؛ أمّا فيما يتعلّق بمشروعه، فقد كان يعدّه غير قابلٍ للتحقيق، حتّى إنّه لم يعد يشعر بالقلق منه تقريباً. في نظره، هو مشروع غير قابلٍ للتحقيق إطلاقاً.

وهكذا بدأت بين الرجُلين معركة إثبات قوى، كان أحدهما فيها يدفع، والثاني يقاوم.

---

(1) نصر ساموثراس: تمثالٌ من العصر الهلنستي، ارتفاعه يقارب ثلاثة أمتار، ينقصه الرأس والذراعان. عُثر عليه في جزيرة ساموثراس في بحر إيجة، وهو موجود في متحف اللوفر. يمثل التمثال ربّة النصر بجسدها الأنثوي المجنّح، تقف في مقدّمة مركبٍ بحري. (المترجمة).

وكما هو الحال غالباً، لا يُعقد النصر للقوّة، إنّما للثبات. كان يكفي ألبير أن يستمرّ لوقتٍ أطول في قول كلمة لا، حتّى يكسب المعركة، لكنّه وجد أنّ القسوة لا تكمن في أن يرفض الدخول في قصّة المجانين هذه، إنّما أن يخيّب أمل إدوار، وأن يقتل في المهد طاقته الجميلة التي استعادها، وأن يعيده إلى فراغ وجوده، إلى مستقبلٍ بلا مشاريع.

كان يجب أن يقترح عليه شيئاً آخر... ماذا؟

وهكذا، في كلّ أمسيةٍ، وبلطفٍ مهذّبٍ، لكن بدون حماسٍ شديدٍ، راح يعبّر عن إعجابه بالرسومات الجديدة التي يعرضها عليه إدوار: نصب جديدة، وتماثيل جديدة.

- «يجب أن تفهم الفكرة جيّداً». كتب إدوار على دفتر المحادثة: «يمكن لأيّ كان أن يشيّد صرحاً. يكفي أن تأخذ عَلَماً وجنديّاً ليصير عندك صرح تذكاريّ. تنزع العلم، وتستبدل به تمثالَ «نصر»، فيصبح لديك واحد آخر. ستصبح مبدعاً بدون أن تتعب، وبدون أيّة موهبة، وسينال عملك الإعجاب بالضرورة».

فكّر ألبير. يمكن أن تعيب أشياء كثيرة على إدوار، لكنّه عبقريٌّ بالفعل في إيجاد الأفكار. خاصّةً فيما يتعلّق بجلب المصائب: تغيير الهويّة، استحالة الحصول على مكافأةٍ من الحكومة، رفض العودة إلى بيته حيث توجد كلّ أساليب الراحة، التمرّد ضدّ فكرة زرع الأعضاء، الاعتياد على المورفين... والآن، آخر ما حُرّر، تزوير النصب التذكاريّة للأموات. كانت أفكار إدوار حفنةً من الإزعاج.

- «هل أنت واعٍ بالفعل لما تعرضه عليّ؟». سأله ألبير.

قال هذا، وهو يقف منتصباً أمام رفيقه.

- أن أقوم بـ.... فعل تدنيسيّ! القيام بسرقة أموال النصب التذكاريّة المخصّصة للأموات يشبه تدنيس مقبرة، إنّه.... إنّه إهانة وطنيّة! لأنّه حتى لو كانت الحكومة لا تدفع سوى القليل من المال المخصّص لهذا النوع من الصروح، فمن أين يأتي معظمه؟ من عائلات الضحايا: من الأرامل، والآباء، واليتامى، ورفاق المعارك. مقارنة معك يعدّ لاندرو[1] قدّيساً. سيبحث عنك البلد كلّه، وسيصير الجميع ضدّك! وعندما يلقون القبض عليك، ستقام لك محاكمة شكليّة؛ لأنّ المقصلة ستكون مركّبة من أجلك من اليوم الأوّل، وأنا أعرف أنّ لديك مشكلة مع رأسك، وأنّك تشاجرت معه؛ أمّا أنا فرأسي يناسبني تماماً، ولا أريد الاستغناء عنه.

عاد إلى عمله، وهو يتذمّر: أيّ مشروع غبيّ! لكنّه استدار، والخرقة التي يمسح بها في يده. وجه النقيب براديل الذي كان يسيطر عليه منذ أن ذهب إلى منزل بيريكور عاد ليظهر له مرّة أُخرى. فهم فجأةً أنّ دماغه يغذّي منذ مدّةٍ طويلةٍ مشاريع كثيفة من الانتقام،

وأنّ الساعة قد حانت.

هذه البداهة تبدّت أمام عينيه تماماً.

- سأقول لك أنا ما الذي سيكون أخلاقيّاً: حفر وثقب جلد الخراء النقيب براديل! هذا ما يجب أن نفعله؛ لأنّ هذه الحياة، وما نحن عليه اليوم، كلّ هذا حصل بسببه.

لم يبدُ على إدوار أنّه مقتنعٌ كثيراً بهذه المقاربة الجديدة. ظلّت يده معلّقة فوق الورقة. كان مشكّكاً.

(1) هنري ديزيره لاندرو: سفّاحٌ فرنسيٌّ، قتل عشر نساء بعد أن نهب أموالهنّ وأقنعهنّ أنّه مغرمٌ بهنّ. أعدم بالمقصلة عام 1922. (المترجمة).

- «نعم». أضاف ألبير: «يبدو كأنّك نسيته، براديل! إنّه ليس مثلنا. لقد عاد من الحرب بطلاً مع أوسمةٍ وميداليات، ويقبض تعويضاً بصفته ضابطاً. أنا واثق أنّ الحرب قد قدّمت له كثيراً من الميّزات».

هل كان يستطيع أن يذهب أبعد من ذلك ويظلّ عقلانيّاً؟ تساءل. مجرّد طرح السؤال يعني الإجابة عنه. الحصول على رأس براديل يبدو له الآن أمراً بديهيّاً بشكل....

انطلق من جديد يقول:

- مع ميداليّاته واستحقاقاته، أتخيّل أنّه نال زواجاً جميلاً... ماذا تظنّ؟ بطل مثله، ستتقاتل عليه العائلات. وفي حين نفطس نحن على نارٍ هادئة، ينطلق هو بلا شكّ في عالم الأعمال. هل تجد أنت ذلك أخلاقيّاً؟

ما يثير الدهشة أنّ ألبير لم ينل من إدوار الموافقة التي كان ينتظرها. رفع رفيقه حاجبه، وانحنى على ورقته.

كتب إدوار: «في كلّ هذا، تقع المسؤوليّة على الحرب قبل كلّ شيء؛ بدون حرب لا يوجد براديل».

كاد ألبير يختنق. كان محبطاً بالتأكيد، لكنّه كان أيضاً حزيناً على نحوٍ كبير. لا بدّ من الاعتراف بحقيقة أنّ إدوار المسكين لم يعد واقعيّاً.

استعاد الرجُلان هذه المحادثة في عدّة مناسبات. وكانت تقودهما دائماً إلى النتيجة نفسها: ألبير يحلم بالانتقام باسم الأخلاق.

«أنت تجعل من ذلك مسألة شخصيّة». كتب إدوار.

- أجل، صحيح، أجد أن ما يحصل معي أمراً شخصيّاً تماماً، ألا تجد أنت ذلك أيضاً؟

لا، ليس هو. الانتقام لا يلبّي مثله الأعلى عن العدالة. إلقاء المسؤوليّة

على رجُلٍ أمرٌ غير كافٍ. على الرغم من أنّ الزمن صار زمن سلم، فإنّ إدوار قد أعلن الحرب، وهو يريد أن يشنّها بوسائله الخاصّة، بمعنى آخر: بأسلوبه الخاصّ. ولم تكن الأخلاق جزءاً من اهتماماته.

كان من الواضح أنّ كلّ واحدٍ منهما يريد أن يتابع روايته، التي لم تكن ربّما هي نفسها. كانا يتساءلان إن لم يكن على كلٍّ منهما كتابة روايته الخاصّة. كلٌّ على طريقته، على نحوٍ منفصل.

عندما لحظ ألبير ذلك، فضّل أن يفكّر بشيءٍ آخر. مثلاً: الخادمة الصغيرة في بيت عائلة بيريكور، التي ما تزال تراود أفكاره. يا إلهي كم كان لسانها صغيراً وجميلاً! أو يروح يفكّر بحذائه الجديد الذي لم يعد يجرؤ على ارتدائه. ويحضّر مرق الخضار واللّحم لإدوار الذي يعود في كلّ مساءٍ إلى مشروعه. كان صبيّاً عنيداً على نحوٍ لا يوصف، وألبير لا يتنازل عن شيء. وبما أنّ الأخلاق لم تستطع ربح المعركة، راح يطالب بتحكيم العقل:

- من أجل القيام بمشروعك، انتبه إلى أنّه يجب إنشاء مؤسسة، وتقديم أوراق. هل فكّرت بذلك؟ وإلّا فإنّ الكاتالوغ الذي ترسمه سيتبخّر في الهواء، ولن تذهب بعيداً بالمشروع، وأستطيع أن اقول لك ذلك الآن: سينتهي الأمر بأن يقبضوا علينا، وما بين السجن والإعدام، بالكاد سيكون لديك الوقت لتتنفّس.

لم يبدُ على إدوار أنّ موقفه قد تزعزع أمام أيٍّ من تلك الحجج.

- «ستكون هناك حاجة إلى مكاتب». صرخ ألبير: «مكاتب! وأنت الذي ستستقبل الزبائن مع أقنعة الزنوج التي تضعها».

كان إدوار المستلقي على أريكته العثمانيّة يتابع تقليب الصفحات التي

تحتوي على النصب، المنحوتات، وتمارين على أساليب متنوّعة. النجاح في شيءٍ بشعٍ موهبة لا يمتلكها جميع الناس.

- وستكون هناك حاجة إلى هاتف، وعاملين للرد عليه، وإلى كتابة الرسائل... وإلى حسابٍ في البنك، إذا أردت أن تقبض الأموال.

لم يستطع إدوار منع نفسه من الابتسام بصمت. يتحدّث رفيقه، والخوف يظهر في صوته كما لو كان الأمر يتعلّق بتفكيك برج إيفل، وإعادة تركيبه على بعد مئة متر. كان مرعوباً!

- «بالنسبة إليك». أضاف ألبير: «كل شيء يبدو بسيطاً طبعاً... عندما لا يخرج الإنسان من بيته».

عضّ على شفاهه. ما عاد بالإمكان التراجع عن الكلمة.

كان ذلك صحيحاً بالطبع، لكنّ إدوار جُرح.

كانت مدام مايار تقول في كثير من الأحيان: «ألبير حبيبي ليس سيئاً في أعماقه، لا بل إنّه لا يوجد من هو ألطف منه، لكنّه ليس دبلوماسيّاً؛ ولذلك لا يحصل على شيءٍ في الحياة».

الشيء الوحيد القادر على زعزعة الرفض العنيد عند ألبير هو المال. الثروة التي يعد بها إدوار. صحيح أنّه يجب إنفاق بعض المال على ذلك، لكنّ البلد بأكملها اجتاحها جنون الاحتفاء بالشهداء وتخليدهم بما يتناسب طرداً مع نفورها من الأحياء. الحجّة الماليّة أتت ثمارها لأنّ ألبير هو الذي كان يدير الخزنة، ويعرف كم من الصعب الحصول على المال، وكم يتلاشى بسرعة. يجب حساب كلّ شيء: السجائر، بطاقات المترو، الطعام. في حين ما كان يعِد به إدوار بإفراط هو الملايين، والسيّارات، والفنادق الفخمة، والنساء...

بدأ ألبير يصبح عصبياً حول موضوع النساء. يمكن له تدبّر الأمر وحده لمدّة، لكنْ هناك الحب أيضاً، الشعور بالتوق إلى لقاء شخص ما.

خوفه من أن ينطلق في مشروعٍ مجنونٍ كهذا كان أقوى من رغبته بامرأةٍ، على الرغم من أنّها كانت عنيفة. أن تنجو من الحرب لكي تنهي حياتك بالسجن؟ أيّة امرأةٍ تستحق أن يقوم من أجلها بمثل هذه المخاطرة؟ حتّى لو أشعرك النظر إلى النساء في المجلّات بأنّ كثيرات منهنّ يستحققن بالفعل هذه المغامرة.

- فكّر قليلاً، قال في إحدى الأمسيات لإدوار: أنا الذي يقفز رعباً إذا ما انصفق الباب، هل تتخيّل أنّني يمكن أن أغامر في شيء كهذا؟

في البداية كان إدوار يسكت، ويتابع رسمه، تاركاً للمشروع أن يسير في طريقه، لكنّه لحظ أنّ الزمن لا يحلّ الأمور. على العكس، كلما كانا يتحدّثان، كان ألبير يجد أسباباً ليقف في وجه ذلك.

- ثمّ إنّه حتّى لو استطعنا بيع صروحك الخياليّة، وقبلت البلديّة دفع سلفة، ما الذي سنربحه؟ مئتي فرنك باليوم؟ ومئتي فرنك في اليوم التالي؟ وتحدّثني عن ثروة! تخوض كلّ هذه المخاطر لتنال ثلاثة فرنكات وستّة قروش؟ شكراً جزيلاً. لكي نهرب مع ثروة، يجب الحصول على المبلغ كلّه مرّة واحدة، وهذا مستحيل! مشروعك هذا لن يمشي.

كان ألبير محقاً؛ سيكتشف المشترون عاجلاً أم آجلاً أنّه وراء كل هذا مؤسسة وهمية، وسيضطرّان إلى الرحيل مع ما حصلا عليه؛ أي: لا شيء يذكر. ولكثرة تفكير إدوار بالأمر وجد طريقة العرض الممتازة برأيه.

في الحادي عشر من نوفمبر القادم، في باريس، ستقوم فرنسا....

في ذلك المساء كان ألبير قد اكتشف وجود فاكهةٍ ضمن سحّارةٍ على الرصيف، وهو عائدٌ من الجادّات الكبيرة. رمى القطع الفاسدة، وحضّر عصيراً مع لبّ الفواكه. فحساء اللّحم كل يوم يصبح مملاً في نهاية الأمر، ولم تكن لديه قدرة على الاختراع؛ أمّا إدوار، فقد كان يلتهم ما يُقدّم له. لم يكن صعباً في هذا المجال.

مسح ألبير يديه بمريوله، وانحنى على الورقة، كان بصره قد ضعف منذ عودته من الحرب. لو كانت لديه الإمكانات، لاشترى نظارات. اضطرّ إلى أن يقترب:

في الحادي عشر من نوفمبر القادم في باريس، ستقوم فرنسا بتشييد قبر «الجندي المجهول». ساهموا أنتم أيضاً في هذا الاحتفال، وحوّلوا هذا العمل النبيل إلى مشاركةٍ وطنيّةٍ واسعةٍ من خلال تشييد نصبٍ مشابهٍ في مدينتكم، وفي اليوم نفسه!

يمكن أن تصل جميع الطلبات قبل نهاية السنة؛ كانت تلك هي النتيجة التي خلص إليها إدوار.

هزّ ألبير رأسه بهيئة الأسف. «أنت مجنون تماماً!». ثمّ عاد إلى عصير الفواكه الذي يصنعه.

خلال مناقشاتهما التي لا تنتهي حول الموضوع، بيّن إدوار لألبير أنّ نتاج المبيعات سيسمح لهما أن يذهبا للعيش في المستعمرات. وأن يستثمرا في أعمالٍ واعدةٍ، وأن يعيشا إلى الأبد بعيداً عن الفاقة. عرض عليه صوراً مقتطعة من المجلّات، أو من البطاقات البريديّة التي تحملها له لويز. مناظر من مقاطعة كوشينشينا في فييتنام تمثّل مزارع لاستثمار ثروات

الغابات، وأمام جذوع الأشجار التي يرفعها السكّان الأصليّون مستوطنون متنصرون يعتمرون القبّعات، ممتلئون مثل الرهبان، وابتسامة الرضى على وجههم. هناك أيضاً سيّارات أوروبيّة تجتاز الوديان المشمسة في غينيا، وبداخلها نساء تتطاير مناديلهنّ البيضاء في الهواء. وأنهار الكاميرون، وحدائق تونكين حيث تفيض النباتات السميكة عن أطباق السيراميك، ووسائل نقل الرسائل عبر الأنهار في سايغون حيث تلتمع لوحات المحالّ التي يملكها المستعمرون الفرنسيّون، وقصر الحاكم الرائع، وصورة ساحة المسرح عند الغروب مع رجال يرتدون السموكينغ، ونساء بفساتين السهرة الطويلة، وفي أيديهنّ مباسم السجائر وكؤوس من الكوكتيلات الطازجة، فيخيّل إليك أنّك تسمع موسيقى الأوركسترا. هناك تبدو الحياة سهلة، وسهلة الأعمال، والثروات التي يمكن تكديسها بسرعة، والشكوى من الطقس المداري. كان ألبير يدّعي أنّه لا يولي لهذه المناظر سوى أهميّة سياحيّة، لكنّه كان يمضي وقتاً أطول من العادة أمام صور سوق كوناكري؛ حيث تتجوّل بكسلٍ وتراخٍ ممتلئ بالغواية المجنونة نساءٌ شابّاتٌ، طويلاتٌ، سوداواتٌ، نهودهنّ العارية منحوتة. مسح يديه من جديد في مريلته، وعاد إلى المطبخ.

توقّف فجأةً!

- ثمّ إنك تحتاج المال لكي تطبع هذه الكاتالوغات، ولكي ترسل مئات منها إلى المدن والقرى، هل يوجد لديك؟ هه، قل لي.

كان إدوار قد وجد الإجابة عن كثير من الأسئلة في ذلك الاستعراض الاحتفاليّ؛ أمّا عن هذا السؤال فلم يجد أيّ شيء.

ولكي يغرز مسماره أكثر في صليب إدوار، أحضر ألبير محفظته، وعرض ما لديه من المال على القماشة المشمعة وعدّها.

- أنا أستطيع أن أقرضك أحد عشر فرنكاً وثلاثة وستّين قرشاً، وأنت، كم معك؟

كان ذلك تصرّفاً جباناً، قاسياً، جارحاً، وبلا فائدة. لم يكن إدوار يمتلك شيئاً. لم يستفد ألبير شيئاً من هذا الانتصار. لمّ نقوده وعاد إلى الفاكهة. لم يتكلّما مع بعضهما طيلة الأمسية.

ثمّ جاء اليوم الذي لم يعد فيه لدى إدوار أيّة حجّة، ولم يتوصّل إلى إقناع رفيقه.

كان الجواب لا. ولن يعود عنه ألبير.

مر الوقت، والكاتالوغ انتهى تقريباً، ولم يعد يتطلّب سوى بعض التعديلات لكي يُطبع ويُرسل. لكنْ ظلّت الأشياء الأُخرى التي تتطلّب عملاً كلها. التنظيم يحتاج إلى كثيرٍ من الجهود، ولا يوجد حتّى قرش لتحقيق ذلك.

ما تبقّى لإدوار من كلّ ذلك كان سلسلةً من الرسومات بلا فائدة. أصابه انهيار. في هذه المرّة ما كانت لديه دموع، بل مزاجٌ سيّئٌ وتكشيرة، شعر أنّه أهين. رسب في الامتحان على يد محاسبٍ وضيعٍ صغيرٍ باسم التفكير الواقعيّ الزفت. الصراع الأبديّ بين الفنّانين والبرجوازيّين يتكرّر هنا. خسارته هذه تشبه خسارته في الحرب مع أبيه، على الرغم من الاختلاف البسيط جدّاً في المعايير. الفنّان إنسانٌ يحلم، وبذلك فهو غير مفيد. تراءى لإدوار أنّه يسمع تلك الجملة خلف كلام ألبير. أمام هذا وذاك شعر بنفسه ينحدر إلى مصاف من يحتاج إلى مساعدة، إلى مصاف كائنٍ بلا فائدةٍ يكرّس نفسه لنشاطاتٍ بلا جدوى. كان قد أظهر كثيراً من الصبر،

والحكمة، والإقناع، لكنّه خسر. ما يفصله عن ألبير لم يكن خلافاً، كان ثقافة. كان يجده ضئيلاً، ووضيعاً، ليس لديه انفتاح، ولا طموح، ليس لديه جنون.

ألبير مايار كان مجرّد تنويعةٍ عن مارسيل بيريكور. كان مثله تماماً لكنْ بدون مال. هذان الرجُلان الممتلئان بالقناعات الراسخة قد كنسا أكثر الأشياء حيويّة لدى إدوار. لقد قتلاه.

صرخ إدوار بأعلى صوته. تشبّث ألبير بموقفه. تشاجرا.

ضرب إدوار بقبضته على الطاولة، وهو يطلق نار نظراته على ألبير، وصدر عنه زئيرٌ أجشُّ ومهدّد.

راح ألبير يخور قائلاً: إنّه خاض تجربة الحرب، ولن يخوض تجربة السجن.

قلب إدوار الأريكة التي لم تقاوم العدوان. سارع ألبير. كان متعلّقاً بهذه القطعة من الأثاث، الشيء الوحيد الأنيق في هذا الديكور! راح إدوار يطلق صرخاتٍ غاضبةً وقويّةً على نحوٍ غير مألوف، مع سيلٍ من اللّعاب الذي راح يتدفّق من حنجرته المفتوحة. كل ذلك كان يصعد من بطنه مثل بركانٍ يطلق حممه.

لمّ ألبير قطع الأريكة العثمانيّة قائلاً بأنّ إدوار يستطيع أن يكسر كلّ البيت بدون أن يغيّر ذلك شيئاً، أنّ أيّاً منهما لم يُخلق لمثل هذا النوع من الأعمال.

استمرّ إدوار في صراخه، وهو يعرج بخطواتٍ كبيرةٍ في الغرفة، فجّر زجاجاً بكوعه، وهدّد بأن يرمي على الأرض القليل من الأواني التي كانت لديهما. قفز ألبير نحوه، أمسك به من خصره، وقعا معاً على الأرض، وراحا يتدحرجان.

لقد بدآ يكرهان بعضهما.

ألبير الذي فقد أعصابه ضرب بقوّةٍ صدغ إدوار الذي سدّد له لكمةً في الصدر، ورماه نحو الحائط حيث كاد يقتله. وقفا على قدميهما وجهاً لوجه في اللّحظة نفسها. صفع إدوار ألبير الذي أجابه بضربةٍ من قبضته في منتصف وجهه.

لكنّ إدوار كان يقف في مقابله تماماً.

القبضة المغلقة لألبير غاصت في فتحة وجهه.

غاصت حتّى الرسغ تقريباً.

وعلقت هناك.

ألبير المرتعب رأى قبضته، وقد غاصت في وجه رفيقه، كما لو أنّها اخترقت رأسه من جهة إلى الجهة الأُخرى. وفوق قبضته رأى نظرة إدوار المذهولة.

ظلّ الرجُلان هكذا عدّة لحظات، مشلولين.

سمعا صرخة. التفت الاثنان نحو الباب. كانت لويز تنظر إليهما باكيةً، ويدها على فمها. خرجت، وهي تركض.

تخلّصا من بعضهما، وهما لا يعرفان ما يقولان.

صدر عنهما شخيرٌ أخرق. كانت هناك مدّةٌ طويلةٌ من الضيق الممزوج بشعور الذنب.

فهما أنّ كلّ شيءٍ بينهما قد انتهى تماماً.

قصّتهما المشتركة لن تستطيع أبداً أن تتجاوز هذه القبضة التي استقرّت في داخل هذا الوجه كما لو أنّها حطّمته. هذه الحركة، هذا الشعور، هذه الحميميّة المتوحّشة، كل ذلك كان مبالغاً به، يثير الدوخة.

لم يكن لدى كلّ منهما الغضب نفسه.

أو أنّه لم يجرِ التعبير عن الغضب بالطريقة نفسها.

لمّ إدوار أغراضه في اليوم التالي صباحاً. وضعها في حقيبته العسكريّة القماشيّة. لم يأخذ سوى ثيابه، بدون أيّ شيءٍ آخر.

ذهب ألبير إلى عمله بدون أن يجد كلمة يقولها. الصورة الأخيرة لإدوار كانت ظهره، وهو يوضّب حقيبته ببطءٍ شديدٍ مثل شخصٍ لم يتّخذ قراره بالرحيل بعد.

طيلة النهار، راح ألبير يجول في البولفار، وهو يحمل دعايته على ظهره، مقلباً في رأسه أفكاراً حزينة.

في المساء، فقط هذه الجملة: «شكراً على كل شيء»

بدت له الشقّة فارغة، مثل حياته عندما رحلت سيسيل. هو يعلم أنّ الإنسان يستطيع أن يسترجع قواه بعد كلّ المشكلات، لكنّه شعر أنّه بعد أن ربح الحرب، بدأ يخسرها في كلّ يومٍ أكثر من اليوم الذي سبقه.

23

بسط لابوردان يديه على المكتب، بهيئة الرضا نفسها التي ترتسم على وجهه أمام طاولة الطعام حين تصل إليه عجّة البيض النرويجيّة. لم يكن في الآنسة ريمون شيء يشبه الكريمة المثلّجة، مع ذلك فإنّ تشبيهها بالمورانغ الذهبيّة لم يكن خالياً من المعنى تماماً. كانت شقرتها مصطنعة تميل إلى لون الصدأ مع بشرةٍ شاحبةٍ جدّاً، ورأسٍ مدبّبٍ قليلاً. عندما دخلت ورأت المعلّم في هذه الوضعيّة، رسمت على وجهها علامات القرف والاستسلام. فبمجرّد وصولها إلى جانبه، دسّ يده اليمنى تحت تنّورتها. حركة سرعتها رهيبة بالنسبة إلى رجُلٍ له هذه البنية، وتدلّ على مهارةٍ لا تُعرف عنه في أيّ مجالٍ آخر. قامت عندها بحركةٍ سريعةٍ بوركها، لكنّ لابوردان في هذا المجال كان لديه حسّ توقّع يصل إلى حدّ النبوءة. فهو يصل دائماً إلى غايته مهما كانت الحركة السريعة، ولقد وصل إليها، غايته؛ أمّا هي، فعقدت العزم، تلوّت بسرعة. وضعت الأوراق للتوقيع، واكتفت، وهي خارجة، بإطلاق تنهيدة تعب. العوائق غير المجدية والمثيرة للشفقة التي كانت تحاول وضعها لمنع هذه الممارسة (فساتين، أو تنانير ضيقة أكثر وأكثر) كانت تضاعف متعة لابوردان. وفي حين ظهر أنّها سكرتيرة

ضعيفة بالاختزال وبالإملاء، فإنّ صبرها عليه كان يعوّض مثالبها على نحوٍ كبير.

فتح لابوردان الملفّ وفرقع بلسانه: سيكون مسيو بيريكور مسروراً.

كان ذلك قراراً جميلاً يعلن عن «مسابقة مفتوحة لفنّانين يحملون الجنسيّة الفرنسية لتقديم مشروع بناء صرحٍ تذكاريٍّ لشهداء حرب 1914-1918».

في هذه الوثيقة الطويلة، لم يكتب لابوردان نفسه سوى جملةٍ واحدةٍ، وهي الثانية من القرار رقم 1. وقد أصرّ أن يفعل ذلك بنفسه، وبدون مساعدة أحد. كلّ واحدةٍ من الكلمات الموزونة كانت من كتابته، وكذلك الحرف الكبير الذي تبدأ به الجمل. كان فخوراً بذلك إلى درجة أنّه فرض أن تُكتب هذه الجملة بخطٍّ سميك: «**هذا الصرح يجب أن يعبّر عن الذكرى المؤلمة والمشرّفة لشهدائنا المنتصرين**». كان إيقاع الجملة رائعاً! فرقعة جديدة بلسانه. أعجب بنفسه أكثر، ثمّ قرأ بسرعة بقيّة النص. عُثِرَ على موقعٍ جميلٍ كان يشغله في الماضي موقف السيّارات التابع للبلديّة. أربعون متراً في الواجهة، وثلاثون للعمق، مع إمكانيّة إقامة حديقةٍ حوله. وقد بيّن القرار أنّ أبعاد الصرح يجب أن تكون «منسجمةً مع الموقع المختار». ذلك أنّ كتابة كلّ هذه الأسماء تحتاج إلى مكان واسع. كانت العمليّة قد استُكملت تقريباً: لجنة تحكيم من أربعة عشر شخصاً من بينهم نوّاب منتخبون، وفنّانون محليّون، وعسكريّون، وممثل المحاربين القدماء، والعائلات... إلخ. ولقد انتُقِيَ هؤلاء بدقّةٍ كبيرةٍ من بين الذين يدينون بشيءٍ إلى لابوردان، أو ينتظرون منه منّة ما (كان يرأس اللجنة بصوت مرجّح). هذه المبادرة ذات الطابع الفنيّ والوطنيّ الرفيع سوف تظهر على رأس قائمة المُنجزات

في البيان الصادر عن فترة حكمه، وبذلك صارت إعادة انتخابه مضمونة تقريباً. حُدّدت المراحل الزمنيّة، وسيعُلن عن المسابقة، في حين بدأت أعمال تسوية الموقع؛ وسيُنشر الإعلان في الجرائد الأساسيّة في باريس والمحافظات. مسألة جميلة بالفعل، ومرسومة على نحوٍ جيّد.

لا ينقصها أيّ شيء.

فقط مسافة بيضاء في المادة 4 «يُخصَّص للإنفاق على هذا الصرح مبلغٌ وقدْره...».

ذلك جعل مسيو بيريكور يغرق في تفكيرٍ عميق. إنّه يريد شيئاً جميلاً، لكنْ ليس ضخماً، وحسب المعلومات التي نُقلتْ إليه، بالنسبة إلى صرح من هذا النوع، تتراوح الأسعار بين ستّين ومئة وعشرين ألف فرنك، بل إنّ بعض الفنّانين المشهورين يمكن أن يطلبوا منك مئة وخمسين، أو مئة وثمانين ألف فرنك. مع مروحة أسعار من هذا النوع كيف يُحدَّدُ السقف؟ لم يكن الأمر يتعلّق بأمور المال، إنّما بصحّة المعيار. راح يفكّر. اتّجهت نظرته نحو ابنه. قبل شهر وضعت مادلين على مدفأته صورة لإدوار أحاطتها بإطار من أجله. لديها صور أُخرى، لكنّها اختارت هذه التي بدت لها «عادية» لا متعقلة جدّاً، ولا مستفزّة جدّاً. مقبولة. ما يجري في حياة أبيها قد زعزعها، وبما أنّها صارت قلقة من الأبعاد التي يأخذها الأمر، فقد راحت تتصرّف بلباقةٍ، وعبر لمساتٍ صغيرة. مرّة تضع له دفتر الرسم، وفي مرّة أُخرى صورة.

انتظر مسيو بيريكور يومين قبل أن يقرّب الصورة، ويضعها على زاوية مكتبه. لم يرد أن يسأل مادلين عن تاريخ تصويرها، ولا في أيّ موقع التُقِطتْ؛ إذْ يُفترض أن يعرف الأب هذه الأشياء. حسب ما رأى، كان

إدوار في عمر الرابعة عشرة، ولا شك في أنّ ذلك يعود إلى عام 1906. كان يقف أمام درابزين من الخشب. لم تكن الخلفيّة واضحة، ويبدو أنّ الصورة التُقطت في شرفة شاليه، إذْ كان يُرسَل للتزلج كلّ شتاء.

لم يتذكّر مسيو بيريكور المكان بدقّة، لكنّها كانت دائماً المحطّة نفسها في جبال الألب الشماليّة ربّما، أو الجنوبيّة. في الألب على كل الأحوال. كان ابنه يقف مرتدياً كنزة، ويزمّ عينيه بسبب الشمس. ابتسامته عريضة كما لو كان هناك شخص يقوم بحركاتٍ مسلّيةٍ وراء المصوّر. بدا ذلك بدوره مسلّياً لمسيو بيريكور نفسه. كان طفلاً جميلاً. لمّاح الذكاء. أن يراه مبتسماً هكذا في ذلك اليوم، بعد سنوات طويلة، ذكّره بأنّه لم يضحك على الإطلاق مع ابنه. كسر ذلك قلبه، فخطرت على باله فكرة أن يدير الإطار إلى الخلف.

في الأسفل كانت مادلين قد كتبت: «1903، ليه بوت شومون».

فتح مسيو بيريكور غطاء قلم الحبر وكتب: مئتا ألف فرنك.

24

بما أنّه لا أحد يعرف ما الذي يمكن أن يشبهه جوزيف ميرلان، فقد فكّر الرجال الأربعة الذين كانوا مكلّفين باستقباله أن يمرّروا إعلاناً يقوله مدير المحطّة عند وصول القطار، ثمّ أن يرفعوا لافتة مكتوب عليها اسمه... لكنْ ولا واحدة من هذه الحلول بدت لهم متوافقة مع الجلال والجديّة الملائمين لاستقبال مبعوث الوزارة.

اختاروا إذن أن يبقوا مجتمعين عند الرصيف بالقرب من المخرج، وأن يترقّبوا؛ لأنّه في الواقع لا ينزل في محطّة شازيير مالمون عددٌ كبيرٌ من الركّاب، ثلاثون شخصاً لا أكثر عموماً، وإن نزل موظّفٌ باريسيٌّ فسيُميّز مباشرةً.

لكن لم يجرِ التعرّف إلى مبعوث الوزارة.

أوّلاً: لم ينزل من القطار ثلاثون شخصاً، إنّما أقلّ من عشرة، ومن بينهم لم يكن يوجد أيّ مبعوث وزاري. عندما اجتاز المسافر الأخير الباب، وفرغت المحطّة، نظروا إلى بعضهم: المساعد تورنيه ضرب كعبيه ببعضهما، مسيو شابور، ضابط القيد المدني في بلدية شازيير مالمون تمخّط بضجّةٍ كبيرة. رولان شنايدر من الاتّحاد الوطنيّ للمحاربين، الذي

يمثّل عائلات الراحلين، أخذ نَفَساً طويلاً كان حريّاً أن يبيّن إلى أيّة درجةٍ يمسك نفسه حتّى لا ينفجر.

خرج الجميع.

أمّا دوبريه، فقد اكتفى من جهته بتسجيل المعلومة: لقد أضاع في تحضير هذه الزيارة التي قد لا تتمّ وقتاً أكثر من الذي أمضاه في تنظيم عمل الورشات الستّ العائدة إلى الشركة، والتي كان يجب أن يركض نحوها دائماً، ما جعله يفقد الحماس. ما إنْ صاروا في الخارج حتّى توجّهوا هم الأربعة نحو السيّارة.

كانت حالتهم الذهنيّة مشتركة؛ فعندما لحظوا غياب مبعوث الوزارة، أصيبوا جميعاً بخيبة الأمل.... وبالارتياح أيضاً. ما كانوا يخشون أيّ شيءٍ طبعاً، فقد حضّروا الزيارة بعناية، لكنّ التفتيش يظلّ تفتيشاً، وهذه الأشياء تدور مع الريح. ولديهم أمثلة على ذلك.

منذ حكاية مقبرة ديمبيير مع الصينيّين، دخل هنري دولني براديل في حالة توتّرٍ شديدٍ، فصار من الضروريّ التعامل معه بحذر. يجده دوبريه أمامه دائماً، مع تعليماتٍ متناقضةٍ دوماً. يجب العمل بسرعة، واستخدام عددٍ أقلّ من العمّال، وتجاوز القواعد دائماً، على ألّا يلحظ ذلك أحد. كما أنّه وعد دوبريه منذ أن اشتغل عنده بعلاوةٍ على معاشه لم تأتِ قطّ، إنّما: «إنّني أعتمد عليك يا دوبريه، أليس كذلك؟».

– «مع ذلك». قال بول شابور محتجّاً: «كان يمكن للوزير أن يرسل برقيّة».

هزّ رأسه. ألا يعرف من هُم؟ رجال مثلهم كرّسوا حياتهم للجمهوريّة، كان يجب على الأقلّ إبلاغهم... إلخ.

خرجوا من المحطّة، وبينما كانوا يستعدّون للصعود إلى السيّارة، سمعوا صوتاً محشرجاً آتياً من مغارةٍ، جعلهم يستديرون:

- أنتم من المقبرة؟

كان المتكلّم رجُلاً مسنّاً، رأسه صغيرٌ جدّاً، وجسمه ضخمٌ، يبدو عليه أنّه فارغٌ من الداخل مثل قفص عظام طيورٍ بعد الوجبة. أطرافه طويلة جداً. وجهه محمرٌّ، وجبهته ضيّقةٌ، يصل فيها شعره القصير إلى أسفلها، حتّى يمكن الخلط بينه وبين الحواجب. نظرته متألّمة إضافةً إلى أنّه يرتدي ما يشبه ورقة أسّ البستوني؛ أي: سترة طويلة بأذيالٍ أصابها الاهتراء، ويعود طرازها إلى ما قبل الحرب؛ تركها مفتوحة على الرغم من البرد، مع صدّارةٍ من المخمل البني مبقّعة بالحبر وينقصها عدّة أزرار، وبنطالٍ رماديٍّ لا شكل له. والأهمّ الأهمّ هو زوج الأحذية الضخمة التي تفيض عن الحجم الطبيعي، حذاء له رقبة يعود إلى عصر التوراة تقريباً.

أمام هذا المنظر أصيب الرجال الأربعة بالخرس.

ردّ الفعل الأوّل صدر عن لوسيان دوبريه. تقدّم خطوةً، مدّ يده وسأل:

- مسيو ميرلان؟

أصدر مبعوث الوزارة ضجّةً خفيفةً بلسانه الذي فرقعه على لِثته، كما تفعل لتسحب قطعة طعامٍ من أسنانك: تسيت. مرّ بعض الوقت قبل أن يفهموا أنّ ما حصل هو حركة من طقم أسنانه، وهي عادة مزعجة للغاية. وقد ظلّ يقوم بها طيلة الطريق بالسيّارة، حتّى رغب الجميع بأن يجدوا له عوداً لتنظيف الأسنان. ثيابه المهترئة، وحذاؤه الضخم الوسخ، وشكله الفيزيائيّ في مجمله جعلهم يتوقّعون فوق ذلك كله ما تأكّد لهم منذ أن تركوا المحطّة: رائحة هذا الرجُل لا تطاق.

في الطريق، وجد رولان شناديرِ أنّه من المناسب أن ينطلق في تعليقٍ واسعٍ، استراتيجيٍّ، جغرافيٍّ، عسكريٍّ حول المنطقة التي يمرّون بها. لم يبدُ على جوزيف ميرلان أنّه يستمع. قاطعه وسط إحدى الجُمل وسأل:

- هل يمكن أن نأكل دجاجة وقت الغداء؟

كان صوته مزعجاً، يصدر من الأنف.

في 1916، في بداية معركة فردان (ستة أشهر من المعارك، ثلاثمئة ألف قتيل)، كانت أراضي شازيير مالمون لا تبعد عن خطوط الجبهة، وكان ما يزال من الممكن الوصول إليها عبر طريق السفر، ولا تبعد عن المستشفى التي كانت أكبر مورّد للجثث، وقد تبيّن بعد مدّةٍ أنّها مكانٌ عمليٌّ لدفن الجنود. تبدّلات المواقع العسكريّة، والمصادفات الاستراتيجيّة غيّرت عدّة مرّات بعض أجزاء هذا المربع الواسع الذي دُفن فيه في الوقت الحالي أكثر من ألفي جثمان. لا أحد يعرف تماماً ما هو العدد، وهناك من يتحدّث عن خمسة آلاف. لم يكن ذلك مستحيلاً، فهذه الحرب قد حطّمت جميع الأرقام القياسيّة. تلك المقابر المؤقتة أدّت إلى وضع سجلّاتٍ، ومخطّطاتٍ، وكشوفات. لكنْ عندما تقع فوق رأسك خمس عشرة، أو عشرين مليون قذيفة خلال ستّة أشهر، وفي بعض الأيام كانت تسقط قذيفة كل ثلاث ثوان؛ وعندما يتوجّب دفن أكثر من العدد المتوقّع بمئتي مرّة في ظروفٍ تشبه جحيم دانتي، فإنّ السجلّات، والمخطّطات، والوثائق، تصبح ذات قيمةٍ نسبيّة.

كانت الدولة قد قرّرت إنشاء مدفنٍ واسعٍ في دارموفيل يُفترض أن تغذّيه المقابر المجاورة، وعلى الأخصّ مقبرة شازيير مالمون. وبما أنّه لا

أحد يعرف عدد الأجساد التي يجب إخراجها من القبور، ونقلها، ودفنها من جديد في المدفن، كان من الصعب تحديد الكلفة الإجماليّة، ولذلك صارت الحكومة تدفع على القطعة.

كانت تلك صفقة اتّفاق بين الطرفين بدون عروض أسعار، وقد ربحها براديل. قام بالحسابات فوجد أنّه إن عُثِر على ألفي جثّة، سيمكّنه ذلك من إعادة بناء نصف دعامات الإسطبلات التي يملكها في سالوفيير.

وإن وصل العدد إلى ثلاثة آلاف وخمسمئة، يستطيع إعادة بناء جميع الدعامات.

وإن تجاوز أربعة آلاف، يعيد إصلاح صومعة الطيور.

كان دوبريه قد أخذ إلى شازيير مالمون ما يزيد على عشرين سنغاليّاً، ولكي يداهن السُّلطات، شغّل النقيب براديل (استمر دوبريه بمناداته هكذا حسب عادته) حفنةً من العمّال الإضافيّين من المنطقة نفسها.

بدأت الورشة باستخراج الجثامين التي طالب بها أهلها، وكان من المؤكد العثور عليها.

عائلات بأكملها وصلت إلى شازيير مالمون، موكب لا ينقطع من الدموع والتأوّهات تصدر عن أطفالٍ نظراتهم مرتعبة، وآباء مسنّين محطّمين يمشون بتوازن على الألواح الممدودة حتّى لا يخوضوا في الطين. كانت الأمطار قد هطلت طيلة الوقت في تلك الفترة من السنة، كأنّها فعلت ذلك خصوصاً. الميّزة هي أنّه تحت الأمطار الكثيفة تصبح عمليّات إخراج الجثامين سريعة، ولا يصرّ أحدٌ على شيء بالفعل. مراعاة للخواطر، عُهد بالقيام بهذا العمل إلى عمّال فرنسيّين من السنغال كان عليهم فتح القبور وإخراج الجنود منها. ولسببٍ ما، ضايق ذلك بعض العائلات: هل يُعدّ

نبش جثّة أبنائهم مهمّة ثانويّة حتّى يُعهد بها هكذا إلى زنوج؟ عندما وصلوا إلى المقبرة، ورأوا من بعيد هؤلاء السود الطوال المبلّلين بالمطر يزيلون التراب بالرفوش، أو ينقلون العلب الخشبيّة، لم يتوقّف الأطفال عن النظر إليهم.

مجيء العائلات هذا أخذ وقتاً طويلاً.

كان النقيب براديل يسأل كل يوم عبر الهاتف:

- حسنٌ يا دوبريه، هل ستنتهي قريباً هذه السخافات؟ متى نبدأ؟

الجزء الأكبر من العمل كان قد بدأ بالفعل مع إخراج جثامين الجنود الآخرين كلّهم الذين يجب أن ينقلوا إلى المدفن العسكريّ في دامبيير.

لم تكن المهمّة بسيطة، فهناك أجسادٌ مصنّفةٌ كما يجب، ولا تطرح أيّة مشكلةٍ؛ لأنّ الصليب الذي يحمل أسماءها لا يزال في مكانه، لكن هناك مجموعة أُخرى من الأجساد يجب تحديد هويّاتها.

عددٌ من الجنود كانوا قد دُفِنوا مع الصفيحة النصفيّة المخصّصة للتعريف بهم، لكنْ ليس كلّهم، وهذا صعبٌ جدّاً؛ أحياناً كان من الضروري القيام بتحقيقٍ حقيقيٍّ انطلاقاً من أغراضٍ عُثِر عليها معهم، أو في جيوبهم؛ عندها يجب وضع الجثامين جانباً، وتسجيلها في قوائم بانتظار نتائج البحث. كان يُعثَرُ على أشياء متنوّعة، وفي بعض الأحيان أشياء قليلة جدّاً إن قُلب الترابُ بقدْرٍ كبير. في تلك الحالة يكتبون: «جنديّ لم يجرِ التعرّف على هويّته».

تقدّم العمل في الورشة بقدْرٍ كبيرٍ، ونُبشت أربعمئة جثّة على الأقلّ. وصلت التوابيت بشاحناتٍ ممتلئة، وهناك وُجد فريقٌ من أربعة رجالٍ كُلّفوا بتجميع قطعها وتثبيتها بالمسامير، في حين يقوم فريقٌ آخر بحملها

إلى مكانٍ قريبٍ من الحفر، ليفرغوها بعد ذلك في العربات التي تحملها إلى مدفن دارموفيل حيث يقوم رجالٌ من شركة براديل وشركائه بعمليّات الدفن. اثنان منهم يهتمّان بالسجلّات، والكتابات، والكشوفات.

جوزيف ميرلان، مبعوث الوزارة، دخل إلى المقبرة مثل قدّيسٍ على رأس موكب. حذاؤه الواسع كان حين يمرّ في بقع الماء ينثر الطين على كلّ شيء. في تلك اللّحظة فقط لوحِظَ أنّه يحمل حقيبةً قديمةً من الجلد، حشاها بالوثائق حتّى فاضت، لكنّها بدتْ، وهي تتأرجح على طرف ذراعه الطويل كأنّها ورقة.

توقّف، تسمّر الموكب خلفه بقلق. راقب المناظر المحيطة مطوّلاً.

كانت تهيمن على المقبرة دائماً رائحة عفونةٍ نافذة تصفع الوجوه في بعض الأحيان مثل غيمةٍ أزاحها الهواء، وتختلط بدخان التوابيت التي أُخرِجَتْ من الأرض معطوبةً، أو غير صالحةٍ للاستعمال، والتي كانت التعليمات تنصّ على حرقها في المكان. كانت السماء ملبّدةً بالغيوم، ولونها رماديّاً وسخاً. هنا وهناك يمكن رؤية رجالٍ ينقلون نعوشاً، أو ينحنون على حفر. هناك أيضاً شاحنتان تُرِك محرّكهما دائراً في أثناء رمي التوابيت بعزمٍ في الحفر. حرّك ميرلان طقم أسنانه، تسيت، تسيت، وزمّ شفاهه السميكة.

هذا ما آل إليه.

بعد أربعين سنة من العمل في القطاع العام، وقبل ذهابه إلى التقاعد، ها هُم يرسلونه للقيام بجولةٍ في المقابر. كان ميرلان قد خدم على التوالي في وزارة المستعمرات، ووزارة التموين العام، وفي أمانة سرّ الدولة للتجارة،

والصناعة، والبريد، والبرق، وفي وزارة الزراعة والتموين. سبع وثلاثون سنة من العمل، سبع وثلاثون سنة نُقِل خلالها من جميع الأمكنة، وخسر فيها كلّ شيء، وتلقى الضربات في جميع المناصب التي شغلها. ما كان ميرلان رجُلاً يثير الإعجاب؛ فهو صموتٌ، مدّع نوعاً ما، عبوسٌ، ومزاجه سيّئ في جميع أوقات السنة. والويل لمن يحاول أن يمازحه! هذا الرجُل البشع والمنفّر لم يتوقّف يوماً عن إثارة الحقد لدى زملائه والرغبة بالانتقام عند رؤسائه؛ بسبب تصرّفه المتكبّر والمتعصّب. أينما حلّ يكلّفونه بمهمّةٍ ليتخلّصوا منه؛ لأنّهم سرعان ما يجدون أنّه مثيرٌ للسخرية، ومنفّرٌ، وينتمي إلى عصر بائد. يبدؤون عندها بالضحك خلف ظهره، ويطلقون عليه ألقاباً، ويؤلّفون عنه نكاتاً؛ أي: لم يبق شيء لم يُصبه. مع ذلك، لم يحصل أن قصّر يوماً في شيء. ويمكن له أن يذكر قائمة أعماله الإداريّة المتميّزة، وهي القائمة التي كان يحدّثها باستمرار، ويدقّقها دائماً لكي يغطّي الخلاصة الكئيبة لحياته المهنيّة التي كان فيها مستقيماً بدون أن يكافئه على ذلك أحد؛ بل كُرّستْ على نحوٍ كاملٍ لإثارة الاحتقار تجاهه. في بعض الأحيان، كان مروره في بعض الأقسام يثير تنمّراً لا نهاية له. وفي مرّات عديدة، كان عليه أن يرفع عصاه عالياً، وأن يديرها بحركاتٍ سريعةٍ، وهو يزمجر بصوته الغليظ، وقد نفد صبره، ويصير مستعداً لإنهاء علاقته مع الأرض بأكملها. عندها، يثير خوفاً حقيقيّاً، خاصّةً لدى النساء، ونفهم الآن لماذا ما عادت لدى النساء جرأة للاقتراب منه، فصرْن يطلبن أن يكون برفقتهنّ أحد ما في أثناء وجوده. لا يمكن الإبقاء على شخص كهذا، خاصّة أنّ هذا الرجُل، إن أردنا الصدق، كيف أقول؟ لم تكن رائحته جميلة جداً، وهذا مزعجٌ للغاية. لم يحتفظ به أحد في أيّ مكان، ولم يعرف في حياته كلها سوى فترة ضياءٍ قصيرةٍ تمتدّ من لقائه مع فرانسين في أحد احتفالات ثورة 14 يوليو، وتنتهي

مع رحيل فرانسين مع نقيب من المدفعيّة في عيد جميع القدّيسين التالي. كل ذلك حصل قبل أربع وثلاثين سنة. وهكذا فإنّ إنهاء حياته المهنيّة بالتفتيش على المقابر ما كان فيه شيء مدهش.

من سنة خَلَتْ حطّ ميرلان في وزارة المعاشات، والمكافآت، والتعويضات بعد الحرب. رُميَ من قسمٍ إلى قسمٍ، ثمّ في أحد الأيّام، وصلت معلومات مزعجة آتية من المقابر العسكريّة. هناك شيءٌ لم يجرِ بالمسار الطبيعي. أحد المحافظين أشار إلى وجود شيءٍ غير طبيعيّ في دامبيير. عدّل موقفه في اليوم التالي، لكنّه أثار انتباه الإدارة. كان على الوزارة أن تتأكّد أنّ الدولة تنفق في المكان الصحيح أموال دافعي الضرائب لكي يجري الدفن على نحوٍ لائق، وبالشروط التي حدّدتها النصوص حول أبناء الوطن الذين... إلخ.

- «خراء!». قال ميرلان، وهو ينظر إلى هذا المشهد المحزن.

لأنّه هو من عُيِّنَ. وجدوا أنّ لديه التكوين المهنيّ المناسب من أجل مهمّةٍ لم يرغب بها أحد؛ إدارة المدافن.

سمعه المساعد تورنييه.

- عفواً؟

استدار ميرلان. نظر إليه. تسيت تسيت. منذ قصّة فرانسين والنقيب، صار ميرلان يكره العسكريّين. عاد إلى منظر المقبرة، وقد بدا عليه أنّه استوعب فجأةً المكان الذي هو فيه، وما يجب عليه أن يفعله داخله؛ أمّا بقيّة أعضاء الوفد، فقد بقوا مرتبكين.

في النهاية غامر دوبريه بالقول:

- أقترح أن نبدأ بـ...

لكنّ ميرلان بقي هناك، متسمّراً تحت شجرةٍ أمام هذا المشهد المؤلم الذي يتناسب على نحوٍ غريبٍ مع ميله الاعتياديّ إلى التعذيب.

قرّر عندها أن يسرّع الأشياء، وأن يتخلّص من تلك المهمّة الشاقّة.

- خراء..

هذه المرّة، سمعه الجميع بوضوح، لكنْ ما من أحدٍ عرف ما يجب استخلاصه من ذلك.

سجلّات القيد المدني المتوافقة مع ما نصّ عليه قانون التاسع والعشرين من ديسمبر 1915. تعبئة الاستمارة التي ذُكرت في التعليمات الإداريّة الصادرة في 16 فبراير 1916. احترام الورثة المستحقين الذين نصّت عليهم المادة 106 من قانون الماليّة الصادر في 31 يوليو 1920. «أي نعم». قال ميرلان، وهو يضع إشارة هنا، ويوقّع هناك. لم يكن الجوّ مسترخياً، لكنّ كلّ شيءٍ كان يجري بالطريقة الاعتياديّة. فقط أنّ هذا الشخص كانت تصدر عنه رائحةٌ نتنةٌ مثل حيوان الظربان عندما يوجد معه شخص ما بمفرده في الثكنة المخصّصة للقيود المدنيّة. شيء لا يُحتمل. وعلى الرغم من الهواء المثلّج الذي يدخل إلى الغرفة على شكل هبّات، قرّ القرار على ترك النافذة مفتوحة.

بدأ ميرلان التفتيش بجولةٍ في المكان القريب من الحفر. سارع بول شابور ليضع فوق رأسه مظلّة مبعداً إيّاها بذراعه إلى أقصى حد، لكنْ بما أنّه تبيّن أنّه لا يمكن توقّع حركات مبعوث الوزارة، ولا طريقته المفاجئة في تغيير اتّجاهاته، فقد تلاشت الإرادة الطيّبة للموظّف الذي فضّل أن يحمي نفسه هو من المطر. لم يلحظ ميرلان ذلك: فقد كان ينظر إلى الحفر، ورأسه يقطر مطراً، وعليه هيئة من لم يفهم ما الذي يجب عليه أن يفتّشه هناك. تسيت، تسيت.

اتجهوا إلى مكان التوابيت. شرحوا له الإجراءات بالتفصيل. وضع النظّارات ذات الزجاج الرماديّ والمقلّم الذي يشبه جلد النقانق. قارن البطاقات مع السجلّ المدنيّ والصفائح الموضوعة على النعوش، ثمّ، حسنٌ، جيّد هكذا، تمتم. لن نمضي النهار في ذلك. أخرج ساعة ضخمة من جيب صدّارته الصغير، وبدون أن ينبّه أيّ أحد اتّجه بخطواتٍ كبيرةٍ واثقةٍ إلى كوخ الإدارة.

عند الظهر، انتهى من تعبئة أوصاف التفتيش التي لديه. رؤيته يعمل تسمح بفهم لماذا كانت سترته ممتلئة ببقع الحبر.

والآن، على الجميع أن يوقّع الوثيقة.

- «كل واحد هنا يقوم بواجبه». أعلن المساعد تورنييه بكلّ رضا، وبلهجةٍ حربيّة.

- «تماماً». أجاب ميرلان.

شكليّات. كانوا جميعاً يقفون في الكوخ، يتناقلون ريشة الكتابة مثل وعاء رشّ الماء المقدّس في يوم الدفن. وضع ميرلان سبّابته الضخمة على السجلّ.

- هنا، ممثّل العائلات.

كان الاتّحاد الوطنيّ للمحاربين يقدّم ما يكفي من الخدمات للحكومة، وبذلك صار لديه الحقّ في أن يوجد في كلّ مكان تقريباً. نظر ميرلان بعينٍ قاتمةٍ إلى رولان شنايدر، وهو يذيّل الصفحة بتوقيعه، وقال:

- «شنايدر»، لفظ الاسم شناي-دا ليؤكّد كلامه: «كأنّ في اسمك شيء ألمانيّ، لا؟».

شعر هذا الأخير مباشرةً بالغضب.

- «غير مهم». قاطعه ميرلان، وهو يدلّ من جديد على السجل: «هنا، ضابط السجلّ المدنيّ...».

تلك الملحوظة وتّرت الجوّ بين الحاضرين. انتهى التوقيع بصمت.

- «يا سيّدي». بدأ شنايدر الكلام بعد أن استعاد رباطة جأشه: «ملحوظتك...».

لكنّ ميرلان كان قد صار واقفاً أطول منه بمقدار رأسين. انحنى باتّجاهه، وهو يثبّت عينيه الرماديّتين عليه، ثم سأل:

- في المطعم، هل يمكن أن نطلب دجاجاً؟

كان الدجاج الفرح الوحيد في حياته. يوسخ كلّ شيءٍ في أثناء أكله، مضيفاً إلى بقع الحبر بقعاً أُخرى من الدهن. كان لا يخلع سترته أبداً.

في أثناء الطعام، وفيما عدا شنايدر الذي كان ما يزال يبحث عن جوابه، حاول كلّ واحدٍ أن يبدأ حديثاً ما؛ أمّا ميرلان الذي كان أنفه في صحنه، فاكتفى ببعض الزئير، وببعض التسيت تسيت من طقم أسنانه، ما أدّى بسرعةٍ إلى تراجع شجاعة أصحاب النيّة الطيّبة. مع ذلك، ولكون التفتيش قد انتهى، وعلى الرغم من أنّ مبعوث الوزارة كان مقيتاً جدّاً، فقد ساد جوٌّ من الارتياح يكاد يصل إلى حدّ الفرح. كان انطلاق ورشة العمل صعباً للغاية، وهناك بعض المشكلات الصغيرة. ففي هذا النوع من العمليّات، لا يتمّ أيّ شيءٍ كما هو متوقّع تماماً. والنصوص -حتّى الدقيقة منها- لا تنظر أبداً إلى الواقع كما هو، وكما يتبدّى بوضوح عندما تبدأ العمل. عبثاً يكون الإنسان صاحب ضمير، هناك دائماً أشياء غير متوقّعة. وعلى الإنسان أن يكون حاسماً، ويتّخذ قرارات لا رجعة عنها. بعدها، وحيث إنّ البداية كانت بهذه الطريقة، أو تلك، فإنّ العودة إلى الوراء...

هذه المقبرة، الكلّ يستعجل الآن لرؤيتها فارغةً، وللانتهاء منها. انتهى التفتيش بتقريرٍ إيجابيٍّ ومريح. لكنْ قبل ذلك كان كلّ واحدٍ منهم يشعر ببعض الخوف. شربوا كثيراً. كان ذلك على حساب الحكومة. وحتّى شنايدر انتهى به الأمر إلى أن ينسى الإهانة؛ وفضّل أن يحتقر هذا الموظّف الجلف، وأن يعود إلى نبيذ كوت دو رون. ميرلان سكب لنفسه عدّة مرّات من صحن الدجاج، ملتهماً الأكل مثل شخصٍ أصيب بمجاعة. أصابعه الضخمة كانت مغطّاةً بالدهن، وعندما انتهى، وبدون أيّة مراعاةٍ للضيوف الآخرين، رمى على الطاولة منديل المائدة الذي لم يفده في شيءٍ، ونهض وترك المطعم. تفاجأ الجميع، وراحوا يتدافعون؛ لأنّه كان يجب بلع آخر نقطة بسرعة، وإفراغ الكأس، وطلب الحساب، والتحقّق من الفاتورة، ودفع المال. قُلبت الكراسي، وجروا نحو الباب، وعندما وصلوا إلى الخارج كان ميرلان يبول على عجلة السيّارة.

قبل أن يذهبوا إلى المحطّة، كان عليهم أن يمرّوا من جديد على المقبرة ليأخذوا حقيبة ميرلان وسجلّاته. كان قطاره سينطلق بعد خمس وأربعين دقيقة، وبذلك من غير الممكن البقاء لمدّةٍ أطول في هذا المكان، خاصّةً أنّ المطر الذي لم يتوقّف إلّا في وقت الغداء عاد للهطول بكثافة. في السيّارة، لم يوجّه ميرلان أيّة كلمةٍ لأيٍّ منهم، ولا حتّى جملة شكرٍ واحدة لاستقبالهم، وللدعوة. كان بالفعل «بلا ذوق».

عندما وصلوا إلى المقبرة، مشى ميرلان بسرعة. حذاؤه الضخم راح يثني على نحوٍ خطرٍ ألواح الخشب التي كانت تعلو سبخات المياه. مرّ أمامه، وهو يخبّ، كلبٌ أصهب اللّون، نحيل البطن. بدون أن يعطي أيّة إشارة، وحتّى بدون أن يخفّف سرعته، استند ميرلان إلى قدمه اليسرى، وسدّد إلى بطن الكلب ضربةً بقدمه اليمنى. صرخ الكلب بصوتٍ عالٍ،

وارتفع متراً في الهواء، ثمّ وقع على ظهره. قبل أن يكون لديه الوقت لينهض، كان ميرلان قد قفز إلى سبخة الماء. وصل الماء حتّى كعب قدمه، ولكي يثبّت الكلب في مكانه، وضع حذاءه الضخم على صدره. الحيوان، وقد خاف من أن يغرق، راح يعوّي بأعلى صوته، ويتلوّى في الماء محاولاً العضّ. أصيب الجميع بالذهول.

انحنى ميرلان، أمسك بالفكّ السفليّ للكلب بيده اليمنى، وبالخطم في يده اليسرى. صرخ الكلب، وتخبّط بكلّ قواه. ميرلان الذي كان يمسك به بقوّةٍ، سدّد له عندها ضربةً جديدةً في البطن، وفسخ فكّيه كما لو كان يتعامل مع تمساحٍ، وتركه فجأة. تدحرج الكلب في الماء، اعتدل وهرب بعيداً، وبطنه ملتصق بالأرض.

كانت السبخة عميقة، اختفى حذاء ميرلان فيها، لكنّ ذلك لم يهمّه، استدار نحو مجموعة المندوبين المترادفين مثل سيخ اللّحم المشوي، والمصعوقين، والمصطفّين بتوازن غير متين على المعبر الخشبي. رفع ميرلان أمامه عندئذ قطعة عظمٍ يبلغ طولها ما يقارب عشرين سنتمتراً.

- هذا الشيء أعرفه، إنّه ليس عظم دجاج!

صحيحٌ أنّ جوزيف ميرلان قد تبدّى موظّفاً قذراً ومقيتاً، أحد المُخفقين في الوظائف العامّة، إلّا أنّه كان أيضاً رجُلاً شغّيلاً، صاحب ضمير، وبالمجمل، كان شريفاً.

لم يترك أيّ شيءٍ يبدو عليه، لكنّ هذه المقابر كسرت قلبه. كانت تلك هي المقبرة الثالثة التي يفتّش فيها منذ أن عيّنوه في هذه الوظيفة التي ما رغب بها أحد. هو الذي لم يعرف الحرب سوى من خلال التقنين بالموادّ الغذائيّة، والتعليمات الداخليّة في وزارة المستعمرات، صُعق عندما قام

بزيارته الأولى للمقبرة. فكراهيته للبشر، التي كانت على الرغم من ذلك مخفيّة، ما لبثت أن تزعزعت. ليس بسبب المذبحة بالمعنى الحقيقيّ للكلمة، فذلك قد تعوّدنا عليه، ولم تتوقّف الكوارث والأوبئة عن اجتياح الأرض. وما الحرب سوى الجمع بين الحالتين. لكنْ ما فطر قلبه كان عمر الأموات. المصائب تقتل كل الناس، الأوبئة تحصد الأطفال والشيوخ، وحدها الحرب تقتل الشباب بأعدادٍ كبيرة. لم يتوقّع ميرلان أن تهزّه هذه الملحوظة. في الواقع، جزءٌ معيّنٌ منه كان قد بقي في فترة فرانسين، هذا الجسد الواسع الفارغ، وسيّئ التناسب، كان ما يزال يحتضن قطعةً من روح الشابّ الذي كان في مثل عمر الذين ماتوا.

لكونه أقلّ غباءً من معظم زملائه، وحيث إنّه موظّف ينتبه إلى دقائق الأمور، فقد اكتشف أشياء غير طبيعيّة منذ زيارته الأولى إلى مقبرةٍ عسكريّة. رأى في السجلّات كثيراً من الأشياء التي يمكن مناقشتها، تناقضات جرت تغطيتها على نحوٍ أخرق، لكنْ ماذا تريد؟ عندما يُنظَرُ إلى اتّساع المهمّة، وعند رؤية هؤلاء السنغاليّين المساكين مبلّلين، يجري التفكير بتلك المجزرة غير المعقولة، وتقييم عدد الرجال الذين يجب الآن إخراجهم من قبورهم ونقلهم... أمام كلّ ذلك هل يمكن أن يظهر الإنسان شديد المراس وصعب الإرضاء؟ لا. تغلق عينيك، وهذا كلّ شيء. الظروف المأساوية تتطلّب بعض البراغماتيّة، وميرلان شعر أنّه من العدل السكوت عن عددٍ كبيرٍ من الأخطاء، دعنا ننتهي بحقّ الإله. دعنا ننتهي من هذه الحرب.

لكن هنا، في شازيير مالمون، يضغط القلق على صدرك عندما تقوم بمقاطعة مؤشّرين، أو ثلاثة مع بعضهم. مثلاً: هذه الألواح الخشبيّة المأخوذة من توابيت قديمة رُميتْ في الحفر، وستُدفن فيها بدلاً من

حرقها، وعدد النعوش التي أُرسلت مقارنةً مع عدد القبور التي حُفرت، والمحاضر التقريبيّة عن بعض الأيّام... كلّ هذا يثير فيك الحيرة. وفكرتك عمّا كان صحيحاً أم لا قد تزعزعت لهذا السبب. وبذلك، إذا ما التقيت بكلبٍ يقفز مثل راقصةٍ، ويحمل في فمه عظم زند أحد الجنود، فإنّ دمك لا يدور سوى دورة واحدة في جسمك، وتكون لديك رغبة في أن تفهم.

تخلّى جوزيف ميرلان عن قطاره، وأمضى النهار، وهو يقوم بالتحقّق من الأشياء، ويتطلّب تفسيرات. راح شنايدر يتعرّق كما لو كان في الصيف. بول شابور لم يتوقّف عن التمخّط، وحده المساعد تورنييه استمرّ يضرب كعبيه في كلّ مرّةٍ يخاطبه فيها مبعوث الوزارة. لقد دخلت الحركة في جيناته، ولم يعد لها معنى.

تطلّع الجميع باستمرارٍ نحو لوسيان دوبريه الذي رأى من جهته إمكانات الزيادة الضئيلة في راتبه تتلاشى.

بالنسبة إلى الكشوفات، وعرض الحال، والجرْد، لم يقبل ميرلان مساعدة أحد. قام بعدّة تنقّلات حتّى وصل إلى التوابيت الفائضة المكدّسة، والمستودعات، والحفر نفسها.

ثمّ عاد نحو التوابيت الفائضة المكدّسة.

رأوه من بعيد يقترب، يذهب، يعود، يحكّ رأسه، يدير بصره في جميع الاتّجاهات كما لو كان يبحث عن مفتاح مسألةٍ حسابيّة. تصيبك بالتوتّر هذه الوضعيّة المهدّدة، وهذا الرجُل الذي لم يقل كلمةً واحدة.

ثمّ في النهاية قالها، هذه الكلمة: «دوبريه!».

شعر كلّ واحدٍ على حِدة أنّ ساعة الحقيقة لن تتأخّر. أغلق دوبريه عينيه. كان النقيب براديل قد وضّح له على نحوٍ خاص هذا الأمر: ينظر إلى

العمل، يفتّش، يقوم بملحوظات، كل ذلك لا يهمّنا أبداً. مفهوم؟ بالمقابل، التوابيت المتبقية، تضعها لي في مكان أمين. أعتمد عليك، هه، دوبريه؟

هذا ما قام به دوبريه. انتقلت القطع المتبقية نحو المستودع البلديّ، استغرق ذلك يومين من العمل، إلّا أنّ مبعوث الوزارة، إن لم يكن منظره يوحي بالثقة، فإنّه كان يعرف أن يحسب، ويعيد الحساب، ويقاطع بين المعلومات، ولم يتأخّر كل هذا.

- «ينقص هنا بعض التوابيت». قال ميرلان: «ينقصني كثيرٌ من التوابيت، وأريد أن أعرف أين وضعتموها».

كلّ ذلك بسبب هذا الكلب الدودة الذي كان يأتي هنا ليأكل من وقتٍ إلى آخر. والمصيبة أنّه صادف أنْ جاء في ذلك اليوم. كان قد رُمي بالحجارة من قبل، ربّما كان يجب قتله. انظروا إلى أين أوصلنا هذا الشعور الإنساني.

في نهاية النهار، الورشة التي كانت أصلاً هادئة ومتوتّرة، فرغت من العاملين فيها. ميرلان الذي عاد من المستودع البلديّ شرح لهم ببساطة أنّه ما زال أمامه عمل يقوم به، وأنّه سينام في ثكنة القيد المدني، وأنّ ذلك لا أهميّة له، ثمّ عاد نحو الممرّات بخطواته الواسعة التي تنمّ عن رجُلٍ مسنّ لديه عزيمة كبيرة.

قبل أن يركض دوبريه للاتّصال هاتفيّاً بالنقيب براديل استدار للمرّة الأخيرة.

هناك، في البعيد، كان ميرلان الذي يحمل سجلّه في يده قد توقّف أمام موضعٍ في شمال المقبرة. أخيراً، خلع سترته، أغلق السجلّ، غلّفه جيّداً بسترته التي وضعها على الأرض، والتقط معولاً انغرس في الأرض حتّى النصل بفعل حذائه الضخم الممتلئ بالطين.

25

إلى أين ذهب؟ هل لديه علاقة بأشخاص لم يذكرهم قط، ويمكن أن يلتجئ إليهم؟ وبدون هذا المورفين، ما الذي سيحلّ به؟ أين سيستطيع أن يجده؟ ربّما قرّر أخيراً أن يعود إلى عائلته، وهو الحلّ الأكثر عقلانيّة... سوى أنّ إدوار ليس لديه شيء عقلاني. كيف كان قبل الحرب أصلاً؟ تساءل ألبير. أيّ نوع من الرجال كان؟ كان عليه أن يطرح أسئلة أكثر على مسيو بيريكور خلال هذا العشاء الشهير؛ إذْ كان لديه الحق هو أيضاً أن يطرح أسئلة، وأن يتحقّق ممّا كان عليه رفيق السلاح قبل أن يعرفه.

لكن قبل كل شيء، إلى أين ذهب؟

هذا ما كان يشغل أفكار ألبير من الصباح حتّى المساء، منذ أن رحل إدوار قبل أربعة أيّام. راح يقلّب في مخيّلته صوراً من حياتهما معاً، ولا يتوقّف عن إعادة وتكرار ذلك مثل رجُلٍ مسنّ.

لم يكن قد اشتاق لإدوار بالمعنى الحقيقيّ للكلمة، بل إنّ اختفاءه أثار لديه ارتياحاً مفاجئاً. موشور الواجبات التي كان حضور رفيقه يجبره عليها تفكّك فجأة. تنفّس الصعداء، فقد تحرّر في النهاية، لكنّ المشكلة أنّه لم يكن مرتاحاً.

فكّر: مع ذلك، هو ليس ابني! حتّى لو أخذنا بعين الاعتبار اعتماده عليّ، وعدم نضجه، وعناده. لكنْ كلّ شيء يدفع إلى تلك المقارنة. أيّة فكرةٍ غبيّةٍ هذه التي استحوذت عليه مع قصّة الصروح التذكاريّة للموتى التي رأى فيها ألبير شيئاً بذيئاً. أضف إلى ذلك أنّ الفكرة ربّما تكون قد أتته من رغبته في الانتقام، مثل جميع الناس. وهذا يمكن فهمه. لكنْ أن يبقى هكذا عديم الحسّ أمام حجج ألبير العقلانيّة، فإنّ ذلك أشبه باللّغز، وألّا يفهم الفرق بين مشروع وبين حلم! الحقيقة أنّ هذا الصبيّ كان يعيش خارج الواقع، وهو شيء نراه غالباً لدى الأغنياء الذين يشعرون أنّ الواقع لا يخصّهم.

كان يهيمن على باريس بردٌ رطبٌ يخترق العظام. طالب ألبير بتغيير ألواح الإعلان التي كانت تنتفخ وتصير ثقيلةً جداً في نهاية النهار، لكنْ لا توجد طريقة تجعله يتوصّل إلى أيّ شيء.

كانت اللّوحات الإعلانيّة الخشبيّة تُؤخذ بالقرب من المترو في الصباح، ويجري تغييرها في ساعة العصرونيّة. معظم المستخدمين كانوا أشخاصاً تسرّحوا من الجيش، ولم يجدوا بعد وظيفة طبيعيّة. عددهم قرابة عشرة، يعملون في دائرة المدينة نفسها، إضافةً إلى مفتّش، وهو رجُلٌ منحرفٌ يختبئ دائماً في مكانٍ ما، وفي اللّحظة نفسها التي تتوقّف فيها كي تدلّك كتفيك، ينبثق فجأةً ويهدّد بأن يطردك إن لم تعد مباشرةً إلى جولاتك.

في يوم من الأيّام، وكان يوم الثلاثاء الذي يتوجّب عليه فيه أن يدور في جادّة هوسمان، في المنطقة الواقعة بين لافاييت وسانت أوغستان (الإعلان على أحد وجهي اللوحات كان «رافيا، صبغة الجوارب التي تعيد إليها الحياة» وعلى الوجه الآخر: «ليب... ليب... ليب... هورا، ساعة النصر»). المطر الذي توقّف في اللّيل عاد إلى الهطول قرابة السادسة

صباحاً. كان ألبير قد وصل لتوّه إلى زاوية شارع باسكييه. ممنوع أن يتوقّف حتّى للحظةٍ واحدةٍ ليبحث عن قبّعته في جيبه. يجب عليه الاستمرار في المشي.

- «هذا هو العمل؛ أن تمشي». قال له المفتش: «أما كنت في سلاح المشاة؟ إذن، الأمر نفسه».

لكنّ المطر كان شديداً وبارداً. ألقى ألبير نظرةً على اليمين، وعلى الشمال، ثمّ تراجع نحو حائط بناء. ثنى ركبتيه، فتوضّعت اللوحتان على الأرض. انحنى وتحضّر لأن يمرّ بجسده من تحت القشاط الجلديّ عندما انهار البناء. وقعت الواجهة كلها على رأسه.

كانت الصدمة عنيفةً إلى درجةٍ جعلت رأسه يعود إلى الوراء، حاملاً معه بقيّة جسمه. الجزء الخلفيّ من جمجمته تهشّم على الحائط الحجري، انهارت اللوحتان، والتوت الحبال التي تربطهما وخنقت ألبير. تخبّط مثل رجُلٍ يغرق، وقد انقطع نَفَسُه. اللوحتان -وهما ثقيلتان بالأصل- وقعتا فوقه على شكل أكورديون، وجعلتا من المستحيل عليه أن يتحرّك. عندما حاول أن يقف، انشدّت الحبال حول عنقه.

عندها انبثقت الفكرة في رأسه مذهلة: إنّه المشهد نفسه الذي عاشه في حفرة القذائف. الحبال تلتفّ حول جسده، تقطع نفسه، وتمنعه من الحركة، وتخنقه. لقد كُتب عليه أن يموت هكذا.

تملّكه الذعر، صارت حركاته عشوائيّة. أراد أن يصرخ بأعلى صوته. لم يستطع ذلك. كلّ شيء كان يتم بسرعة؛ بسرعة كبيرة؛ كبيرة أكثر من الممكن. شعر بأنّ هناك من يمسك بكاحليه ويسحبه من تحت الأنقاض. ازداد التفاف الحبال حول رقبته. حاول أن يدخل أصابعه تحتها ويرفعها

ليتنفّس، لكنّ ضربةً قويّةً جدّاً انهالت على إحدى اللّوحتين الخشبيّتين. رنّت الضربة في جمجمته، ثم فجأةً، ظهر الضوء. ارتخت الأربطة. سحب ألبير الهواء بنهم. هواء أكثر من اللازم، بدأ يسعل، كاد يتقيّأ. حاول أن يحمي نفسه، لكن من ماذا؟ راح يتخبّط كما لو كان قطّة عمياء ومهدّدة. فهم في النهاية عندما فتح عينيه: البناء الذي انهار لتوّه أخذ شكلاً إنسانيّاً. هناك وجهٌ غاضبٌ ينحني عليه، وقد خرجت عيناه من محجريهما.

كان أنطونابولس يصرخ:

- يا حقير!

وجهه البدين، وجنتاه الضخمتان والمتهدّلتان كانتا تشتعلان غضباً. بدا كأنّ نظرته تريد أن تخترق رأس ألبير من طرفٍ إلى طرف. لم يكتف اليونانيّ بمحاولة خنقه، بل ارتمى مجدّداً على نحوٍ عنيفٍ على بقايا اللّوحتين، فسحقت مؤخّرتُه الواسعة اللوح الذي يوجد تحته صدر ألبير. كان يتحكّم تماماً بضحيّته. أمسك به من شعره، ثمّ راح يهوي على رأسه بضرباتٍ من قبضته.

الضربة الأولى هشّمت قوس حاجبه، الثانية شرطت شفته. شعر ألبير مباشرةً بطعم الدم في فمه. من المستحيل عليه أن يتحرّك، فقد اختنق تحت اليونانيّ الذي كان ما زال يصرخ، ويُرفق كلّ كلمةٍ بضربةٍ على الوجه. واحدة، اثنتان، ثلاث، أربع. ألبير الذي انقطع نَفَسَه سمع صرخات. حاول أن يلتفت، لكنّ رأسه انفجر تحت ضربةٍ صادمةٍ في صدغه. أغمي عليه.

ضجيج، أصوات، حالة هيجان تدور حوله.

كان بعض المارّة قد تدخّلوا واستطاعوا أن يبعدوا اليونانيّ الذي راح يلقي الشتائم، وأن يمسكوا بخاصرته ويدحرجوه. عدد الذين قاموا بذلك

ثلاثة، استطاعوا في النهاية أن يحرّروا ألبير، وأن يمّددوه على الرصيف. ذكر أحدهم أنّه يجب إحضار الشرطة. مباشرة، شبّ اليوناني على قدميه. لم يكن يريد شرطة، ما يريده بدون أدنى شك هو أن يقتل هذا الرجُل فاقد الوعي الملقى على الأرض في بقعةٍ من الدم، فراح يشير إليه ويصرخ: «يا حقير!». كانت هناك دعوات للهدوء. تراجعت النساء، وهنّ يحدقْن بالرجُل المدمّى، الملقى على الأرض، والمُغمى عليه. رجُلان، هما أبطال الرصيف، قاما بتثبيت اليونانيّ على ظهره مثل سلحفاةٍ غير قادرةٍ على أن تستدير. أُطلقت صرخات فيها تعليمات بدون أن يعرف أحدٌ ما حصل. انتقلوا بعدها إلى التعليقات. أحدهم قال: إنّ المسألة تتعلّق بالنساء. هل تعتقد؟ أمسكه جيّداً! أنت جيّد. أمسك به. تعال ساعدني! ذلك أنّه كان قويّاً، هذا اليوناني. عندما حاول أن يستدير، كان حوتاً حقيقيّاً، لكنّ حجمه كان أكبر من أن يسمح له بأن يصبح خطراً بالفعل. مع ذلك، قال أحدهم: يجب أن يأتي رجال الشرطة!

- «بوليس، نو بوليس!». صرخ اليوناني، وهو يحرّك ذراعيه.

كلمة الشرطة ضاعفت من غضبه، ومن نقمته. بأحد ذراعيه رمى أحد المتطوّعين على ظهره. النساء، أطلقن كلهنّ معاً صرخة ابتهاج. مع ذلك رجعن خطوةً إلى الوراء. كانت هناك أصوات أبعد لا تهتمّ بنتيجة المشاجرة، إنّما تتساءل: تركي؟ لا، روماني! لا، أجاب رجُل عنده الكثير من المعلومات: اللّغة الرومانيّة مثل الفرنسيّة؛ أمّا هذه، فهي التركيّة.

- «آه!». قال الأوّل مبتهجاً: «التركيّة، هذا ما كنت أقوله».

عندها، وصل رجال الشرطة أخيراً. كانا اثنين. ما الذي يحصل هنا؟ سؤالٌ غبيٌّ طالما أنّه من الواضح جدّاً أنّ هناك رجُلاً يحاولون منعه من الإجهاز على رجُلٍ آخر أغمي عليه على بُعد أربعة أمتارٍ من هنا. «حسنٌ،

حسنٌ، حسنٌ». قال الشرطي: «سنرى ذلك». في الواقع، لم يريا شيئاً على الإطلاق؛ لأنّ الأحداث تسارعت. المارّة الذين كانوا حتّى تلك اللّحظة قد أمسكوا باليونانيّ أفلتوه عندما رأوا وصول أصحاب اللباس الرسمي. ما كان يلزمه أكثر من ذلك لكي يرتمي على بطنه، ويركع، وينهض. عندها، لم يستطع أحدٌ أن يوقفه. كان مثل قطارٍ تتزايد سرعته، يمكن أن يطحنك. لم يغامر أحدٌ بإيقافه، وعلى الأخصّ رجال الشرطة. انقضّ اليوناني على ألبير الذي كان في لا وعيه قد أحسّ بعودة الخطر. ففي اللّحظة التي وصل فيها أنطونابولس فوقه، نهض ألبير. في الواقع، جسده هو الذي نهض وحده؛ إذْ إنّ عينيه كانتا ما تزالان مغمضتين. هزّ رأسه كمن يمشي في نومه. إذنْ، تدحرج ألبير بدوره على بطنه، ووقف هو أيضاً، وبدأ يركض، وابتعد راسماً خطّاً متعرّجاً على الرصيف، واليونانيّ يركض وراءه.

أصيب الجميع بخيبة أمل.

كان الحدث قد عاد للانطلاق، لكنْ ها هما البطلان الرئيسان يختفيان. كانا خائفين من التوقيف؟ من الاستجواب؟ في النهاية، طالما شارك الجميع، فقد صار للجميع الحقّ في معرفة خاتمة الحكاية، لا؟ رجُلا الشرطة كانا الوحيدين اللّذين لم يصابا بخيبة الأمل. رفعا ذراعيهما كأنّه ليس بيدهما حيلة، واستسلما للقدر. ليحصل ما يحصل، كانا يأملان أن يتابع الرجُلان الركض الواحد وراء الآخر ولمسافةٍ طويلةٍ؛ لأنّ شارع باسكييه لم يكن ضمن قطاعهما.

أجهضت محاولات الملاحقة والسباق بسرعة. مرّ ألبير بكمّه على وجهه لكي يرى على نحوٍ أفضل، ركض مثل شخصٍ يلاحقه الموت، وكان أسرع بما لا يقاس من اليوناني الذي كان بالفعل ثقيلاً جدّاً. صار بينهما شارعان، ثمّ ثلاثة، ثمّ أربعة. انعطف ألبير إلى اليمين، ثمّ إلى اليسار،

وما عاد هناك ما يخيفه، إلّا أن يقع على أنطونابولس من جديد، هذا إذا ما لم نحسب سنّيه المكسورين، ولا قوس حاجبه المفتوح، ولا كتل القيح التي تشكّلت في وجهه، ولا الذعر، ولا الأوجاع في الأضلاع... إلخ.

هذا الرجُل المدمّى، والذي يعرج، لم يتأخّر في جلب انتباه الشرطة من جديد. كان المارّة يبتعدون عن طريقه، وعليهم أمارات القلق. ألبير الذي فهم أنّه قد نجح في رسم مسافةٍ بينه وبين المعتدي، وبعد أن أدرك التأثير السيّئ الذي يثيره منظره، توقّف عند نافورة شارع سكريب، وغسل وجهه بالماء. في تلك اللّحظة عادت الضربات توجعه من جديد. على الأخصّ القوس المفتوح في حاجبه. ما كانت هناك طريقة لإيقاف الدم الذي يسيل، ولا حتّى عندما شدّ كمّ سترته على جبهته، كان الدم يسيل في جميع الأمكنة.

امرأة شابة ترتدي قبّعةً بكامل أناقتها، كانت جالسةً وحْدها تشدّ حقيبتها على صدرها. أشاحت بنظرها بمجرّد أن دخل ألبير إلى غرفة الانتظار، ولم يكن من السهل ألّا يُرى؛ لأنّه لم يكن هناك غيرهما، وكان الكرسيّان يقعان وجهاً لوجه. تلوّت، نظرت عبر النافذة التي ما كان يمكن رؤية شيء عبرها، وسعلت كحجّةٍ لتضع يدها أمام وجهها، وقلقها أن يكون قد لحظها أكبر من قلقها من رؤية بشاعة ذلك الرجُل الذي كان نزيفه لا يتوقّف. كان مغطّى بالدم من رأسه إلى أخمص قدميه، ورأسه يدلّ كفاية على أنّه قد أمضى ربع ساعةٍ قذرة. مرّت لحظة قبل أن يسمع في طرف الشقّة بعض الخطوات، ثمّ صوتاً، ليظهر بعدها الدكتور مارتينو.

نهضت الصبيّة، لكنّها توقّفت مباشرة. فعندما رأى الدكتور حالة ألبير

أشار لها. تقدّم ألبير، عادت المرأة إلى كرسيّها بدون كلمة، وجلست كأنّها معاقبة.

لم يطرح الطبيب أيّ سؤال. جسّ هنا، وعصر هناك، ثمّ قال تشخيصه باقتضاب: «لقد كُسر فكك بالفعل... «. نشّف الدم بالقطن داخل فتحات اللثة، ونصح باستشارة طبيب أسنان، وخاط الجرح عند القوس.

- عشرة فرنكات.

قلب ألبير جيبيه، نزل على قوائمه الأربع لكي يسترجع القطع القليلة التي وقعت تحت الكرسي. قام الطبيب بشفط كلّ شيء، لم يكن هناك عشرة فرنكات، بل أقلّ بكثير. رفع الطبيب كتفيه مستسلماً، وقاد ألبير نحو باب الخروج بدون أن يقول كلمة.

أصيب ألبير بالذعر مباشرة. تمسّك بقبضة الباب الذي تمرّ منه السيّارات، وراح العالم يدور من حوله. كان قلبه يدقّ، ولديه رغبة بالتقيّؤ، شعر بأنّه يذوب في مكانه، أو يغوص في الأرض كما في رمال متحرّكة. دوخة مرعبة. رفع عينيه المفتوحتين على اتّساعهما، أمسك بصدره، بدا مثل رجُلٍ صعقته نوبة قلبيّة. وصل إلى البوّاب مباشرة.

- لن تتقيّأ على رصيفي على الأقل.

كان غير قادرٍ على الإجابة. نظر البوّاب إلى قوس حاجبه المَخيط، وهزّ رأسه، ثمّ رفع عينيه نحو السماء. لا يوجد من هو ألطف من البشر.

لم تدم الأزمة طويلاً، كانت عنيفة، لكنّها قصيرة. عرف النوبات نفسها في شهر نوفمبر، أو ديسمبر 18، في الأسابيع التي تلت دفنه. حتّى في الليل، كان يستيقظ تحت الأرض، ميّتاً، مختنقاً.

تراقص الشارع حوله عندما بدأ يمشي. بدا الواقع له جديداً، مبهماً أكثر

ممّا هو في الحقيقة، غائماً أكثر، متراقصاً، مترنّحاً. تقدّم، وهو يعرج نحو المترو. أقلّ ضجّة، أقلّ قرقعة تجعله يقفز في مكانه. استدار عشرين مرّةً متوقّعاً في كلّ لحظةٍ أن يجد اليوناني ينبثق أمامه. أيّ حظ عاثر! في مدينةٍ كهذه، يمكن أن تبقى عشرين سنة بدون أن تلتقي بصديقٍ قديم؛ أمّا هو، فقد التقى باليوناني.

بدأ ألبير يشعر بألمٍ مرعبٍ في أسنانه.

توقّف في مقهى ليشرب كأساً من الكالفادوس. لكنْ في اللحظة التي طلب فيها الكأس تذكّر بأنّه أعطى كلّ ما معه للدكتور مارتينو. خرج من جديد. حاول أن يستقلّ المترو. الجوّ المغلق أشعره بالاختناق. اجتاحته موجة من الجزع. عاد إلى سطح الأرض. أكمل طريقه مشياً على الأقدام. رجع إلى بيته منهكاً، وأمضى بقيّة النهار، وهو يرتجف كلّما أعاد واستعاد تفاصيل ما جرى له.

في بعض الأحيان كان يتملّكه غضبٌ أسْود. كان يجب أن يقتله منذ لقائهما الأوّل، هذا الحقير اليوناني! لكنْ في معظم الأحيان كان يفكّر بحياته كمصيبةٍ لا اسم لها. وضاعتها توجع قلبه. وشعر أنّه سيكون من الصعب أن يتخلّص منها. شيء ما في رغبته بالقتال قد انكسر.

نظر إلى نفسه في المرآة. وجهه أخذ أبعاداً مرعبة، فالكدمات مالت إلى الأزرق، ورأسه صار يشبه رأس محكومٍ بالإعدام. رفيقه أيضاً نظر إلى نفسه مرّة في المرآة فاكتشف خرابه. ألقى ألبير المرآة على الأرض بدون غضب، لمّ القطع ورماها.

في اليوم التالي لم يأكل. ظلّ طيلة ما بعد الظهر يدور في الصالون مثل الحصان في لعبة الأطفال التي تدور. في كلّ مرّةٍ يفكّر فيها بتلك المرحلة

يستحكم به الخوف من جديد، وتراوده أفكار غبيّة: اليوناني عثر عليه؛ أي: إنّه يستطيع أن يستعلم، يذهب لرؤية صاحب عمله، سيأتي ليبحث عنه هنا، ويطالب بما له عليه، ويقتله. ركض ألبير إلى النافذة، لكن ما كان يرى منها الشارع الذي يمكن لبولوس أن ينبثق منه، فقط شقّة صاحبة البيت، مدام بيلمون التي تقف كالعادة وراء شبّاكها، ونظرتها فارغة، ووجها ساهم في الذكريات..

اتّشح المستقبل بالسواد. لم يعد هناك عمل، مع وجود هذا اليوناني الذي يلاحقه، عليه أن ينتقل، أن يجد عملاً آخر، كما لو أنّ ذلك كان سهلاً.

ثمّ طمأن نفسه. مجيء اليوناني للبحث عنه أمرٌ سخيفٌ، نوعٌ من الهلوسة. فما الذي يمكن أن يفعله؟ هل سيذهب ليستنفر عائلته ومؤسّسته كلها كي يجد كرتونة من حقن مورفين لا بدّ من أنّ ما فيها قد استُهلك؟ الأمر مضحكٌ بالفعل!

لكنّ جسد ألبير لم يكن يتشارك مع ما يفكّر به عقله. استمرّ يرتعد. خوفه غير عقلانيّ، كتيم لا ينفذ منه أيّ منطق. مرّت الساعات، جاء اللّيل، ومع اللّيل الأشباح والذعر. العتمة التي تضخّم الأشياء كانت تهدم القليل من العقلانيّة التي كان قادراً عليها. عاد الجنون ليسيطر على كل شيء.

في وحدته، راح ألبير يبكي. يجب كتابة قصّةٍ عن الدموع في حياة ألبير. في هذه المرّة كانت دموعه يائسة، وتنتقل من الحزن إلى الذعر حسب ما كان ينظر إلى حياته، أو إلى مستقبله. تناوبت عليه موجات العرق البارد، ونوبات الضيق، وخفقان القلب، والأفكار السوداء، ومشاعر الاختناق، والدوخة. «كفى!». قال لنفسه، لن يستطيع أبداً الخروج من هذه الشقّة، لكنّه لن يستطيع أبداً أن يبقى فيها أيضاً. تضاعفت دموعه. يجب أن يهرب.

التمعت الكلمة فجأةً في ذهنه. أن يهرب. وبسبب اللّيل، أخذت الفكرة شيئاً فشيئاً حجماً متناهي الكبر بحيث سحقت كلّ الإمكانات الأُخرى. لم يعد يستطيع تصوّر المستقبل هنا، ليس فقط في هذه الغرفة، إنّما في هذه المدينة، في هذا البلد.

ركض إلى الدرج، أخرج صور المستعمرات، البطاقات البريديّة. يجب أن يبدأ من جديد، ومن الصفر. اللمعة التالية في ذهنه جعلت صورة إدوار تظهر. سارع ألبير إلى الخزانة، أخرج منها قناع رأس الحصان. لبسه بحذرٍ كما يحصل عند استعمال قطعةٍ من الآثار ذات قيمة. شعر بنفسه مباشرةً مختبئاً، محمياً. أراد أن يرى نفسه، استخرج من القمامة شظيّة مرآةٍ كبيرة، كان ذلك مستحيلاً. بحث عندها عن انعكاس صورته على زجاج النافذة، ووجد نفسه فيها على هيئة حصانٍ، فتوقّفت مخاوفه، واجتاحته برودةٌ مريحة. استرخت عضلاته. بينما كان يستريح، وقعت نظرته على الجانب الآخر من الباحة، على نافذة مدام بيلمون. لم تعد هناك. فقط كانت تصل إلى الزجاج انعكاسات ضوءٍ آتية من غرفةٍ بعيدةٍ في البيت.

فجأةً صار كلّ شيءٍ واضحاً، بديهيّاً.

تنفّس ألبير بعمقٍ قبل أن يخلع رأس الحصان. شعر مجدّداً بالبرد، وعلى نحوٍ مزعج. مثل تلك المدافئ التي تختزن الحرارة وتبقى فاترةً في حين تكون النار قد انطفأت من زمنٍ بعيد. كان ألبير قد عبّأ شيئاً من قواه، ما يكفي ليفتح الباب، وقناعه تحت ذراعه، لينزل الدرج ببطء، ليرفع غطاء النايلون، ويكتشف أنّ كرتونة عبوات المورفين قد اختفت.

اجتاز الباحة، مشى عدّة أمتار على الرصيف. اللّيل قد صار حالكاً. شدّ على قناع الحصان تحت ذراعه، ورنّ الجرس.

استغرقت مدام بيلمون وقتاً طويلاً قبل أن تصل. لم تقل أيّة كلمة عندما تعرّفت إلى ألبير. فتحت الباب. دخل ألبير. تبعها. ممرّ. غرفة مصاريع نافذتها مفتوحة. في سرير طفل صغير، وعلى مقاسها تماماً، كانت لويز تنام بعمق. كانت ساقاها مثنيّتين. انحنى ألبير عليها. جمال تلك الطفلة في أثناء النوم غير معقول. على الأرض، وتحت أغطية بيضاء حوّلتها الظلال إلى لونٍ عاجيٍّ، كان إدوار مستلقياً، وعيناه مفتوحتان يحدّق في ألبير. إلى جانبه، كرتونة عبوات المورفين. لحظ ألبير الخبير بالأمر أنّ الكميّة لم تنقص كثيراً.

ابتسم. لكي يتحرّر، لبس قناع الحصان ومدّ يده إليه.

عند منتصف اللّيل تقريباً، كان إدوار يجلس تحت النافذة، وألبير إلى جانبه يمسك فوق ركبتيه، وباجتهادٍ كبيرٍ، صور الصروح التي رسمها. كان قد رأى رأس صديقه، وصدرت عنه حشرجة كبيرة.

قال ألبير:

– حسنٌ، اشرح لي على نحوٍ أفضل: قصّة الصروح هذه... كيف تراها؟

في حين راح إدوار يكتب على دفتر محادثةٍ جديدٍ، أخذ ألبير يقلّب صفحات الرسومات. فكّرا بالمسألة. من الممكن إيجاد حلّ لكل شيء في هذه القصّة. لن يؤسّسا مؤسسة وهمية. فقط حساباً في البنك. لا مكاتب، فقط صندوق بريد. الفكرة هي اقتراح عروضٍ جذّابةٍ تشدّ الناس لوقتٍ محدّدٍ جدّاً، والاستفادة من السلف التي تُدفع على التكاليف، ثمّ الرحيل مباشرةً مع الخزنة.

لم يبق أمامهما سوى مشكلة واحدةٍ، لكنّها مهمّة. من أجل القيام بالعمليّة، لا بدّ من المال.

لم يفهم إدوار: مسألة التمويل الضروري، التي كان يجادل بها ألبير لدرجةٍ جعله يجنّ من الغضب، ما الذي جعلها تصبح الآن مجرد عائق ثانوي؟ أكيد أنّ ذلك يتعلّق بحالته، بالكدمات وكتل القيح في رأسه، وقوس حاجبه الذي لم يندمل بعد، والنتوءات المتورّمة فوق عينيه...

فكّر إدوار مجدّداً بخروج ألبير قبل أيّامٍ مضت، وبإحباطه عند العودة. تخيّل أنّ القصّة تتعلّق بامرأةٍ، مسألة غرامٍ مقهور. وتساءل إن لم يكن ألبير قد أخذ ذلك القرار بناء على غضبٍ آنيّ. هل سيتراجع ويتخلّى عن المسألة غداً، أو في اليوم التالي؟ لكن لم يكن لدى إدوار خيار آخر على الإطلاق. إن كان يريد أن ينطلق في هذه المغامرة (الله وحده يعلم كم كان متعلقاً بها)، فسيكون عليه أن يتصرّف كما لو أنّ قرار رفيقه جاء ثمرة تفكير، وأن يرجو له الحظّ السعيد والنجاح.

خلال هذه المحادثة، بدا ألبير طبيعيّاً، وعقلانيّاً، وقال أشياء معقولة تماماً. الأمر الوحيد أنّه كان في منتصف جملةٍ ما تعتريه فجأةً ارتعاشات تجتاحه من رأسه إلى أخمص قدميه. ومع أنّ حرارة الطقس ما كانت تسمح بذلك، فقد كان يتعرّق بقدْرٍ كبيرٍ، وعلى الأخصّ من يديه. كان في تلك اللحظة رَجلَين في وقتٍ واحدٍ: أحدهما يرتعد مثل أرنبٍ؛ هو الجنديّ الذي دُفن حيّاً، والثاني يفكّر ويحسب؛ هو المحاسب القديم.

– طيب. والمال الضروري لإنهاء المسألة...

نظر ألبير مطوّلاً إلى رأس الحصان الذي يحدّق فيه بهدوء. هذه النظرة الهادئة والمسالمة الموجّهة نحوه تبثّ الشجاعة فيه.

نهض.

– «أظنّ أنّني أستطيع أن أجده». قال.

تقدّم نحو الطاولة، ونظّف ما عليها بهدوء.

جلس، وأمامه ورقة، وحبرٌ، وريشة. فكّر لبرهةٍ طويلةٍ، ثمّ بعد أن كتب في أعلى الصفحة، وعلى اليسار، اسمه وعنوانه، كتب:

سيّدي:

لقد لمست خلال دعوتك لي تلطّفك بعرض وظيفة محاسبٍ في إحدى شركاتك.

إن كان هذا العرض ما يزال قائماً، فإنّني أرغب بأن...

مارس 1920

26

كان هنري دولني براديل بسيط التفكير، وغير قادرٍ على التقاط الفروقات الناعمة بين الأشياء. من السهل جدّاً عليه أن يكون على صواب؛ لأنّ طبعه الريفيّ يستطيع في معظم الأوقات أن يحبط ذكاء محدّثيه. على سبيل المثال: لم يكن يستطيع التوقّف عن عدّ ليون جاردان-بوليو أقلّ ذكاءً منه؛ لأنّه أقلّ طولاً. هذا خطأ بالطبع، ومع ذلك، وبما أنّ ليون كانت لديه عقدة فيما يتعلّق بهذا الأمر تحرمه من التحكّم بقدراته، فإنّ براديل كان يربح دائماً. في تفوّق براديل، هناك من جهة مسألة الطول، ومن الجهة الأخرى سببان آخران يُدعيان يولاند ودونيز، وهُما على التوالي شقيقة ليون وزوجته. كانت الاثنتان عشيقات هنري. الأولى منذ أكثر من سنة، والثانية قبل زواجها بليلتين. كان هنري يرى من المثير أن يتم ذلك قبل الاحتفال بيوم واحد، أو على نحوٍ أفضل في صباح يوم العرس نفسه، لولا أنّ الأحداث لم تسمح بذلك. بكلّ الأحوال، اليوم الذي يسبق ما قبل العرس بليلة يُعدّ نتيجة جميلة جدّاً. من يومها صار يقول طواعية للمقرّبين منه: «في عائلة جاردان- بوليو، لم ينقصني سوى الأم». لاقت هذه المزحة نجاحاً لأنّ مدام جاردان بوليو الأم كانت امرأةً من الصعب أن توقظ رغبة،

وشديدة التمسّك بالفضيلة. وما كان هنري بفظاظته المعتادة يتوانى عن أن يضيف: «هذا يفسّر ذاك».

والحقيقة أنّ هنري اختار شريكين يحتقرهما، سواء تعلّق الأمر بفردينان موريو الذي كان قمّة في الغباء أم بليون جاردان-بوليو الذي كانت الأشياء التي يكبتها تصيبه بالشلل. حتّى ذلك الحين، كانت لديه حريّة تنظيم الأشياء على طريقته الحيويّة والسريعة كما نعلم، في حين يكتفي «شركاؤه» بتحصيل أرباحهم. ما كان هنري يعلمهم بأيّ شيء. كانت تلك «شركته» هو. ولقد جرى تجاوز عدد كبيرٍ من العوائق في السابق بدون أن يقدّم لهما أيّة مبرّرات، وهو لن يبدأ الآن بفعل ذلك.

- «لكنّ الأمر صار في هذه المرّة أكثر إرباكاً». قال ليون جاردان-بوليو.

تفحّصه هنري من الأعلى إلى الأسفل. عندما كان يتناقش معه، كان يتقصّد أن يكون واقفاً، وذلك ليجبر ليون أن يرفع رأسه كما لو كان ينظر إلى السقف.

رفرف ليون بأهدابه بسرعة. كانت لديه أشياء مهمّة يقولها، لكنّ هذا الرجُل يخيفه، وهو يكرهه. كان قد تألّم عندما علم أنّ أخته تضاجعه، لكنّه ابتسم كما لو كان شريك هنري في المؤامرة، بل والمحرّض عليها. لكنْ عندما تصاعدت بدايات الضجّة المتعلّقة بدونيز زوجته، اختلف الأمر. فالمذلّة أعطته رغبة في أن يموت. هو تزوّج امرأةً جميلةً لأنّه يمتلك ثروةً، ولم يشكّك قطّ بإخلاصها في الوقت الحاضر، أو في المستقبل، لكنْ أن يكون أولني براديل بالذات موضوع الخبر السيّئ، فقد آلمه ذلك بقدْرٍ أكبر؛ أمّا دونيز، فكانت من جهتها تتعامل دائماً مع ليون باحتقار. تضايقت منه

لكونه وصل إلى غاياته بفضل ما يملك. منذ بداية زواجهما، تعاملت معه بفوقيّة، في حين أنّه من جانبه لم يجد ما يستطيع أن يعاكس قرارها في أن تكون لها غرفتها المستقلّة، وأن تقفلها كلّ مساء في وجهه. «إنّه لم يتزوّجني». فكّرت في قرارة نفسها: «لقد اشتراني». لم تكن قاسية بطبعها، لكنْ يجب أن نفهمها. كانت تلك فترة احتُقرت فيها المرأة بقدْرٍ كبير.

أمّا ليون، فكانت فكرة أن يجد نفسه مُضطرّاً لمخالطة هنري عن قرب بسبب الأعمال التي بينهما تضربه في صميم كبريائه. كأنّ علاقته الزوجيّة الكارثيّة ما كانت كافية. حمل تجاه براديل حقداً كبيراً إلى درجة أنّه لو تبدّدت عقودهما المدهشة مع الدولة وأخفقت بشكل كبير لما فعل شيئاً؛ لا بل لكان ترك شريكه يغرق بكلّ سرور. ما يمكن أن يخسره فيما لو حصل ذلك لن يفلسه. لكنْ تلك ليست مسألة مال فقط؛ الأمر يتعلّق بسمعته أيضاً، والضجّة التي راح يسمعها هنا وهناك صارت مُقلقة للغاية. ربّما يعني التخلّي عن دولني براديل أن يسقط معه، وهذا ما لم يكن يريده على الإطلاق! كان يجري الحديث عن كل ذلك بكلماتٍ مبطّنة، وما من أحدٍ يعرف حقّاً عمّ يدور الأمر، لكنْ طالما كان الحديث يدور عن القانون، فذلك يعني أنّ في الأمر جنحة. جنحة! كان لدى ليون رفيق من دفعته أجبرته الظروف على العمل، وكان موظّفاً في مركز الشرطة.

- «يا عزيزي». قال له رفيقه بلهجةٍ قلقة: «بدأت تفوح رائحة ليست طيبة..من كل ذلك...».

عمّ كان يدور الأمر على وجه التحديد؟ لم يستطع ليون أن يعرف، وحتّى ذلك الرفيق من مركز الشرطة كان لا يعرف، أو الأسوأ من ذلك، يعرف لكنْ لا يريد أن يقول. تخيّل ليون نفسه واقفاً أمام المحاكم. شخص

من عائلة جاردان-بوليو أمام القاضي! يفقده ذلك توازنه. خاصّة أنّه من جهته لم يكن قد فعل شيئاً! لكنْ كيف تثبت ذلك؟

- «مربك؟». ردّد بهدوء هنري: «ما الذي يبدو لك مربكاً إلى هذا الحدّ؟».

- أنا لا أعرف.. أنت من يجب أن تقول لي ذلك.

زمّ هنري شفاهه: «لا أفهم عن ماذا تتكلّم».

- «يجري الحديث عن تقرير». قال ليون.

- «آه!». صاح هنري: «عن هذا تتحدّث؟ لا، هذا ليس شيئاً يستحقّ الذكر، وقد رُتِّبَ الأمر. كان مجرّد سوء فهْم».

لم يكن ليون مستعداً للاكتفاء بهذا الجواب، فأضاف ملحّاً:

- حسب ما أعرف..

- «ماذا؟». صرخ براديل عندها: «ما الذي تعرفه؟ هه؟ ما الذي تعرفه؟».

بدون أيّ تحضيرٍ انتقل من السذاجة الظاهريّة إلى الخبث. كان ليون قد راقبه في هذه الأسابيع الأخيرة، وقد ركّب قصّةً كاملةً في خياله؛ لأنّه وجد براديل متعباً للغاية، ولم يستطع أن يمتنع عن التفكير بأنّ دونيز كانت من بين الأسباب. لكنّ هنري لديه متاعبه. فالعشيق المتعب يظلّ عشيقاً سعيداً في حين أنّه كان مشدوداً دائماً، وسريع الغضب أكثر من ذي قبل، وقاطعاً. هكذا، هذه النوبات المفاجئة من الغضب...

- «إن كانت المسألة قد حُلّت بالفعل». قال ليون متردّداً: «لماذا تغضب؟».

- لأنّني قد ضقت ذرعاً يا عزيزي ليون. ضقت ذرعاً من اضطراري

إلى تقديم مبرّرات، في حين أنّني أستطيع أن أفعل كلّ شيءٍ بنفسي! لأنّك أنت وفردينان تقبضان أرباح حصصكما، لكن من الذي يمضي وقته في التنظيم، وفي إعطاء التعليمات، وفي المراقبة، وفي العدّ؟ أنت؟ ها ها ها!

كانت تلك الضحكة مزعجة للغاية. لكنّ ليون الذي فكّر بالنتائج تصرّف كما لو أنّه لم يسمعها وتابع:

- أرغب فعلاً بمساعدتك، لكنك أنت من يرفض ذلك! تجيب دائماً بأنّك لا تحتاج إلى أحد.

أخذ هنري نفساً عميقاً. بماذا يجيب؟ فردينان موريو كان أحمق، وليون رجُلٌ عاجزٌ لا يمكن أن ننتظر منه أيّ شيء. في النهاية، لو لم يكن هناك اسمه هو، وعلاقاته، وماله، ما قيمة الأشياء التي لا ترتبط به شخصيّاً؟ وليون هذا، من هو؟ مجرّد رجُلٍ مخدوع، وهذا كل شيء. كان هنري قد ترك زوجة ليون منذ أقلّ من ساعتين... كان ذلك بالفعل مُتعباً؛ إذْ يتوجّب عليه دائماً أن يفكّ ذراعيها بيديه الاثنتين في اللّحظة التي يتركان فيها بعضهما. تلك تمثيليّة لا تنتهي. بدأ يفقد صبره من هذه العائلة بالفعل.

- هذا كلّه أمرٌ شديد التعقيد بالنسبة إليك يا صديقي ليون. معقّد، لكنْ لا يوجد فيه شيء خطر، اطمئن.

أراد أن يبثّ شعوراً بالأمان، لكنّ تصرّفه كان يوحي بالعكس على نحوٍ صارخ.

- «مع ذلك». أضاف ليون ملحّاً: «في مركز الشرطة قالوا لي أن...».

- ماذا أيضاً؟ ما الذي قالوه في مركز الشرطة؟

- إنّ هناك أشياء مثيرة للقلق!

كان ليون قد قرّر أن يقاتل من أجل أن يعرف، وأن يفهم؛ لأنّ الأمر في

تلك المرّة لم يكن يتعلّق بطيش زوجته، أو بالهبوط الممكن لأسهمه في شركة براديل. كان يخشى أن تطيح به رغماً عنه دوّامة أصعب؛ لأنّ الأمور السياسيّة بدأت تختلط بالأعمال.

أضاف:

– هذه المقابر قطاعٌ حسّاسٌ للغاية.

– نعم؟ حقاً! «حسّاس للغاية!».

– «تماماً». قال ليون من جديد: «بل ومثيرٌ للأعصاب أيضاً! أقلّ تصرّفٍ أخرق اليوم يستجرّ فضيحة، مع غرفة التجارة هذه...».

آه، الغرفة الجديدة! في انتخابات نوفمبر الماضي، وهي الأولى منذ الهدنة، ربحت الكتلة الوطنيّة بالأغلبيّة الساحقة، وهي تتألّف في نصفها تقريباً من المحاربين القدماء الذين كانوا وطنيّين جدّاً، وقوميّين جدّاً، إلى درجة أطلق عليها معها اسم «غرفة الأفق الأزرق»، حسب لون اللّباس العسكريّ الفرنسيّ.

عبثاً كان ليون يحشر نفسه فيما لا يعرفه حسب قول هنري، لكنّ ضربته كانت صحيحة.

هذه الأغلبيّة هي التي سمحت لهنري أن يكسب نصيب الأسد في الصفقة الحكوميّة، وأن يغتني بسرعةٍ قريبةٍ من سرعة الضوء. فقد استطاع خلال أربعة أشهر أن يعيد بناء أكثر من ثلثي مزرعته في لا سالوفيير؛ في بعض الأيّام كان لديه ما يصل إلى أربعين عاملاً في الموقع... لكنّ هؤلاء النوّاب كانوا يشكّلون أيضاً تهديداً حقيقيّاً، فمن الصعب إرضاء مثل هذا التجمّع من أبطال الأمّة في جميع المسائل المتعلّقة بـ«الشهداء الأبرار». كلّ تلك الكلمات الفخمة التي تُلفظ. أجل، كانوا لا يستطيعون أن يدفعوا

على نحوٍ مناسبٍ مخصّصات الجنود الذين سُرّحوا، وأن يجدوا لهم عملاً، لكنْ في الوقت الحاضر، سيكتفون بالجانب المعنويّ.

هذا ما أوحوا به إلى هنري في وزارة المعاشات حين طُلِب. لم يُستدعَ، بل «طُلب».

- يا عزيزي، هل يسير كلّ شيء كما تريد؟

كان صهر مسيو بيريكور، ولذلك يتعاملون معه بلطف. وشركاؤه: ابن جنرال، وابن نائب، ما يزيد من دواعي الحذر.

- هذا التقرير الذي أرسله المحافظ. هيّا...

مثّل دور من يريد أن يبحث في ذاكرته، ثمّ فجأة، في ضحكةٍ مجلجلة:

- آه نعم، المحافظ بليرزيك! لا، لا شيء، أمر سخيف! ماذا تريد؟ هناك دائماً مستخدمون صغار في الدولة يدقّقون على نحو مبالغ به. إنّها من المصائب التي لا بدّ منها. لا. التقرير أُسقِط أصلاً. تخيّل! المحافظ نفسه اعتذر تقريباً... بلى، بلى، يا عزيزي. إنّها قصّة قديمة بالفعل.

وعندها اعتمدت لهجة البوح، لا بل لهجة التواطؤ حول سرّ مشترك:

- مع ذلك، يجب الانتباه قليلاً؛ لأنّ هناك موظّفاً صغيراً في الوزارة يفتّش. من النوع الذي يدقّق، مهووس.

يستحيل معرفة أكثر من ذلك. «يجب الانتباه قليلاً».

كان دوبريه قد وصفه له، هذا المدعوّ ميرلان. من النوع الذي يدقّق حتى في الخراء. شخص من المدرسة القديمة. قذر، وعلى ما يبدو يرتاب في كل شيء. لم يكن براديل قادراً على أن يتصوّر ما يشبهه هذا الشخص. في كلّ الأحوال، كان لا يشبه شيئاً يعرفه. بيروقراطي من أسفل الكومة،

بلا حياة مهنيّة متميّزة، بلا مستقبل. كان من أسوأ الأنواع. رغبة دائمة في الانتقام. أمثاله لا يكون لهم عادة أي صوت في المداولات، لا أحد يستمع إليهم، مُحتقرون، حتّى داخل إداراتهم.

– صحيح، تابعوا القول في الوزارة، لكنْ مع ذلك، هذا لا يمنع... لديهم أحياناً قدرة على الإساءة...

استطال الصمت بعد ذلك، مثل مطّاطة على وشك أن تفرقع.

– الآن يا عزيزي، أفضل شيءٍ هو التصرّف بسرعة، وعلى نحوٍ جيّد. «بسرعة» لأنّ البلاد بحاجةٍ إلى أن تنتقل إلى شيءٍ آخر؛ و«على نحوٍ جيّد» لأنّ هذه الغرفة تدقّق كثيراً في كلّ ما يتعلّق بأبطالنا، ويمكن فهم ذلك.

تنبيه مجّاني.

اكتفى هنري بالابتسام، واتّخذ هيئة من فهم، لكنّه استدعى مباشرةً كلّ معاونيه إلى باريس. دوبريه على رأسهم بحكم كونه الرئيس. هدّد كلّ واحدٍ منهم، وأعطى تعليماتٍ صارمةً للغاية، وأطلق تحذيراتٍ، ووعد بعلاواتٍ، مجرّد احتمال لا أكثر. لكنْ كيف تتحقّق من مثل هذا العمل؟ هناك أكثر من خمس عشرة مقبرةً في الريف تقوم شركته بأعمال ما قبل الدفن فيها! وبعد الدفن، سبعة مدافن كبيرة، وستصبح قريباً ثمانية.

تمعّن براديل في ليون. رؤيته من فوق جعلته يفكّر مجدّداً بالجندي مايار الذي نظر إليه هكذا عندما كان في حفرة القذائف، ثمّ رآه من جديد في الوضعيّة نفسها بعد شهور في حفرة جنديٍّ مجهولٍ نُبش قبره من أجل إرضاء مادلين.

تلك الأزمنة التي صارت بعيدةً الآن تبدو له دائماً موسومةً بنعمة هبطت عليه من السماء: الجنرال موريو أرسل له مادلين بيريكور! معجزة حقيقيّة.

فرصة مذهلة. هذا اللّقاء بداية كلّ نجاحه. عرف كيف ينتهز الفرصة. وهنا يكمن كل شيء.

سحق هنري ليون بنظرته. كان يشبه تماماً الجندي مايار، وهو يغوص. كان تماماً من النوع الذي يمكن دفنه حيّاً قبل أن يكون لديه الوقت ليقول: أوف!

أمّا في تلك اللحظة، فما زال يستطيع أن يفيد. وضع هنري يده على كتفه.

- ليون! لا توجد مشكلة، حتّى لو كانت هناك مشكلة، لن يكون من الضروري سوى أن يتدخّل أبوك لدى الوزير.

- «لكن»... صرخ ليون: «هذا مستحيل! تعرف تماماً أنّ والدي نائب عن حزب العمل الليبراليّ، وأنّ الوزير مقرّب من الحزب الفيدرالي الجمهوري!».

- «بالتأكيد». فكّر هنري: «فيما عدا أنّه يعيرني زوجته، لا يفيدني هذا الغبيّ في أي شيء».

27

مضت أربعة أيّام، وهو ينتظر، وانتابه مزيجٌ من القلق ونفاد الصبر، وأخيراً، ها هو زبونه مسيو دو هوسراي قد أتى!

عندما لا تكون قد سرقت أبداً أكثر من عدّة فرنكات هنا، أو هناك، فإنّ انتقالك إلى سرقة مئات، ثمّ آلاف الفرنكات خلال أسبوعين حريٌّ بأن يجعلك تشعر بالدوار. وها هي المرّة الثالثة في غضون شهر التي سيسرق فيها ألبير صاحب عمله وزبونه، وقد مضى عليه شهر بدون أن ينام، إضافةً إلى أنّه خسر خمسة كيلوغرام من وزنه. مسيو بيريكور الذي التقى به قبل يومين في بهو المصرف سأله إن كان مريضاً، واقترح عليه عطلةً، في حين أنّه كان قد بدأ وظيفته لتوّه. بالنسبة إلى رؤسائه المباشرين وزملائه، لم يكن يوجد أفضل من ذلك كي ينظروا إلى ألبير على نحوٍ سيّئ. وهو وُظّف أصلاً بتوصيةٍ من مسيو بيريكور. بكلّ الأحوال، لم يكن مطروحاً على الإطلاق أن يأخذ إجازة؛ فألبير موجود هنا لكي يعمل؛ أي: ليسرق من الخزنة، وليس لديه وقت يضيّعه.

في مصرف الاعتماد والقرض الصناعي، كان لدى ألبير خيار كبير لمعرفة من هو الشخص الذي عليه أن ينهبه، وقد اختار أقدم وأكثر الطرق المصرفيّة نجاعة: حسب شكل الزبون.

مسيو دو هوسراي كان شكله ممتازاً؛ بالطقم الذي يرتديه، وبطاقات زيارته النافرة، وعصاه المزدانة بحلقاتٍ ذهبيّةٍ، كان يُشتمّ منه رائحة المستفيدين من الحرب. ألبير المصاب بالجزع كما نتخيّل فكّر بكلّ سذاجةٍ بأنّ الأشياء يمكن أن تصبح أسهل فيما لو اختار شخصاً يستطيع أن يمقته. من هذا النوع من التفكير يمكن استكشاف الهواة. ولكي نعذره نقول: إنّه كانت لديه أسباب ممتازة للقلق. فهو يسرق البنك ليموّل خدعة اكتتابٍ وهميٍّ، وفي ذلك ما يمكن أن يجعل أيّ مبتدئٍ يدوخ من القلق.

أوّل سرقة كانت بعد خمسة أيّامٍ من توظيفه، سبعة آلاف فرنك.

تلاعب بالكتابة.

يقبض أربعين ألف فرنك من الزبون، توضع في حسابه كدائن. في الجدول الذي تُسجّل عليه مقبوضات البنك، لا يُفصَحُ سوى عن 33 ألفاً، وفي المساء، يهرب مع حقيبةٍ جلديّةٍ محشوّةٍ بالأوراق النقديّة. ميّزة العمل داخل مصرفٍ مهمٍّ هي أنّه ما من أحدٍ يستطيع أن ينتبه إلى أيّ شيء قبل الجرد الأسبوعيّ المخصّص للنظر في حصيلة المحفظة الاستثماريّة، وحساب الفوائد، والتصفيات، والقروض، والمبالغ المستردّة، والتعويضات، والودائع المحتملة... إلخ، وهو ما يتطلّب ثلاثة أيّام على الأقلّ. كلّ شيء يعتمد على هذه المهلة. يكفي انتظار نهاية اليوم الأوّل من التدقيق، ثمّ يُسجّل دينٌ جديدٌ في سطرٍ داخل حسابٍ جرى التحقّق منه لجعله يصبح حساب مَدين. وهو ما لا يجري التحقّق منه إلّا في اليوم التالي. بالنسبة إلى المراقبين، يبدو الحسابان بدون شائبة، وتعاد العمليّة في الأسبوع التالي من خلال اللّجوء إلى سطورٍ جديدةٍ، تتعلّق مرّةً بالتشغيل، ومرّةً بالقروض، ومرّةً بالاستثمار، وبالحسومات، وبالأسهم... إلخ. كانت تلك

خدعة كلاسيكيّة للغاية، يطلق عليها اسم «جسر التنهّدات»: وهي تستهلك الأعصاب بقدْرٍ كبيرٍ، لكنّها سهلة التحقيق، وتتطلّب مهارةً، وقليلاً فقط من الخبث، ما جعلها مثاليّة بالنسبة إلى شخص مثل ألبير. بالمقابل، تحتوي هذه العمليّة على مثالب هائلة؛ لأنّها تضعك في حالة تصاعدٍ لانهاية له، وتجبرك من أسبوعٍ إلى أسبوع على أن تقوم بسباق ملاحقةٍ جهنميٍّ مع المدقّقين. لم يحصل أن استمرّت عمليّة كهذه أكثر من عدّة أشهر؛ إذْ غالباً ما يضطرّ القائم بالعمليّة إلى أن يهرب إلى الخارج، أو يجد نفسه في السجن، وهو ما يحصل غالباً.

مثل كثيرٍ من اللصوص الطارئين، قرّر ألبير أنّ المبلغ سيكون بمنزلة قرض. ومع أوّل دفعةٍ يحصل عليها من النصب التذكاريّة للأموات سيُعيدُ المبلغ إلى البنك، ثمّ يهرب. هذه السذاجة سمحت له أن ينتقل إلى التنفيذ، لكنّ الفكرة سرعان ما تبخّرت بعد أن حلّت محلّها أشياء أكثر إلحاحاً.

فمنذ أوّل اختلاس، وجد شعوره بالذنب الفرصة سانحة ليتجلّى في نوبات الجزع، والانفعالات المبالغ بها، والمزمنة لديه. كما أنّ جنون الارتياب عنده تحوّل إلى حالةٍ واضحةٍ من الرهاب الذي يطال كلّ شيء. عاش ألبير تلك المرحلة كأنّه مُصابٌ بحمّى تشنجيّة؛ إذْ كان يرتعد عند أدنى سؤال، ويسير ملتصقاً بالجدران، وتتعرّق يداه إلى درجةٍ يضطرّ معها أن يمسحهما دائماً، ما جعل عمله في المكتب صعباً للغاية. كذلك كانت عيناه تتربّصان بكلّ شيء، ونظراته نحو الباب لا تتوقّف عن الذهاب والإياب باستمرار. حتّى وضعيّة ساقيه تحت المكتب كانت تشي بحالة رجُلٍ مستعدٍّ دائماً للهرب.

كان رفاقه يجدونه غريب الأطوار، لكنّهم جميعاً يعتقدون أنّه غير مؤذ.

لم يكن يبدو عليه أنّه رجُلٌ خطرٌ، إنّما يبدو مريضاً. الجنود العائدون إلى الحياة المدنيّة لديهم كلّهم علامات مرضيّة متنوّعة. ولقد اعتاد الناس ذلك. ولأنّ ألبير كان مدعوماً، كان من الأفضل أن يبتسم الجميع في وجهه.

منذ البداية قال ألبير لإدوار: إنّ السبعة آلاف فرنك التي رُصدت للعمليّة لن تكفي أبداً؛ إذْ هناك الكاتالوغات التي يتوجّب طباعتها، والظروف التي يجب شراؤها، وكذلك الطوابع، والدفع للمكلّفين بكتابة العناوين. من الضروري أيضاً امتلاك آلةٍ كاتبةٍ للإجابة عن الرسائل التي تطلب معلومات إضافيّة، واستئجار صندوق بريد. سبعة آلاف فرنك مبلغٌ مضحكٌ كما أكّد ألبير. ومن يقول لك ذلك هو شخص اختصاصه المحاسبة. بدرت عن إدوار لفتة مراوغة. لا شكّ، نعم. عاد ألبير إلى حساباته. عشرون ألف فرنك على الأقل. وكان حاسماً. أجابه إدوار بلهجة الفيلسوف: «طيب. اتفقنا. عشرون ألف فرنك». «طبعاً طالما أنّه ليس هو من سيقوم بسرقتها». قال ألبير في نفسه.

وحيث إنّه لم يكن قد اعترف على الإطلاق بأنّه قد ذهب في يومٍ من الأيّام ليتعشّى عند والد إدوار، ويجلس مقابل أخته؛ وأنّ مادلين المسكينة هذه قد تزوّجت بذلك الحقير براديل الذي هو سبب جميع مصائبهما، مستحيل أن يعترف له بأنّه قَبِلَ من مسيو بيريكور وظيفة محاسب في البنك الذي كان مؤسّسه، والمساهم الأساسيّ فيه. ومع أنّه لم يعد رجُل السندويش، فإنّ ألبير كان ما يزال يشعر بنفسه محشوراً بين فكّي كمّاشة بين بيريكور الأب، وهو المحسن الذي سيقوم بسرقته، وبين بيريكور الابن الذي يتقاسم معه ثمرة هذا الاختلاس. أمام إدوار اكتفى بأن يتحجّج بوجود ضربة حظٍّ غير معقولة، زميل قديم التقى به بمحض المصادفة،

ووظيفة شاغرة في أحد البنوك، مقابلة جرت على نحوٍ جيّد... قبِل إدوار من جهته هذه المعجزة التي جاءت في وقتها تماماً بدون أن يطرح أسئلة؛ فقد ولد غنياً.

والواقع أنّ ألبير كان ليتمنّى أن يحتفظ بتلك الوظيفة في البنك. عند وصوله، وعندما دلّوه على طاولته، والمحابر الممتلئة، وأقلام الرصاص المبريّة، وصفحات الحسابات البيضاء الفارغة، والمشجب الخشبيّ فاتح اللّون الذي وضع عليه معطفه وقبّعته، ويمكن أن يعدّ الآن أنّه صار ملكه، والأكمام من القماش اللمّاع الجديد، كلّ ذلك أثار لديه الرغبة بالدعة والهدوء. في نهاية الأمر، يمكن أن تكون تلك حياة لذيذة تشبه تماماً الفكرة التي لديه عن الحياة المدنيّة خارج مناطق القتال. لو أنّه يحتفظ بهذه الوظيفة وذلك المعاش الممتاز، يمكن له بعدها أن يجرّب حظّه مع الخادمة الجميلة التي تعمل عند عائلة بيريكور... أجل، حياة جميلة بسيطة. لكن بدلاً عنها، في ذلك المساء، ألبير الذي كان مهتاجاً إلى درجة الغثيان، استقلّ المترو مع خمسة آلاف فرنك بالقطع الكبير في حقيبته. ولعلّه كان المسافر الوحيد الذي يتعرّق في ذلك الطقس البارد.

كان لدى ألبير سببٌ آخر ليتحرّق للعودة: لا شك في أنّ الزميل الذي يجرّ عربته بذراعٍ واحدةٍ قد مرّ بالمطبعة، وجلب الكاتالوغات.

بمجرّد أن صار في الباحة، رأى الرزم المربوطة بالحبال... إنّها هنا! كان ذلك مثيراً. هكذا إذنْ تحقّق الأمر. حتى تلك اللحظة كانوا ما زالوا يكرّرون: الآن سننطلق.

أغلق ألبير عينيه وقد اجتاحته الدوخة. فتحهما من جديد. وضع الحقيبة على الأرض. مرّ بيده على إحدى الرزم، فكّ الحبل.

كاتالوغ الذكرى الوطنية.

يمكنه أن يحلف أنّه حقيقي.

كان الكاتالوغ حقيقياً ومطبوعاً لدى الأخوين روندو في شارع ديزابيس، كلّ الجدّية التي يمكن تصوّرها. عشرة آلاف نسخة قد سُلّمت. ثمانية آلاف ومئتا فرنك للطباعة. كان على وشك أن يسحب النسخة الموجودة في أعلى الرزمة كي يتصفّحها عندما أوقفت حركته صهلة حصانية. ضحكة إدوار التي يمكن سماعها من تحت الدرج؛ ضحكة حادّة، متفجّرة، تتخلّلها اهتزازات. واحدة من تلك الضحكات التي تبقى في الهواء بعد أن تنطفئ. بدا هذا المرح الفريد من نوعه مثل جذل امرأةٍ أصيبت بالجنون. التقط ألبير حقيبته وصعد. في أثناء فتح الباب استقبلته شهقات طنّانة، نوع من الـ«رر راهههررر» (من الصعب جداً كتابتها) التي تعبّر عن الارتياح ونفاد الصبر من انتظار وصوله.

هذه الصرخة كانت أقلّ إدهاشاً من الموقف نفسه. إدوار في ذلك المساء كان يرتدي قناعاً على شكل رأس عصفور له منقار طويل جداً، ومعقوف نحو الأسفل، لكنّ الغريب فيه هو أنّ المنقار كان مفتوحاً قليلاً، يظهر في داخله صفّان من الأسنان البيضاء جدّاً التي توحي بطيرٍ لاحمٍ ومبتهج. كان القناع مرسوماً بتدرّجات الأحمر التي تبرز مظهره الوحشيّ العدوانيّ، وهو يغطّي وجه إدوار حتّى الجبهة، فيما عدا الفتحتين المتروكتين للعينين الضاحكتين المتحرّكتين.

ألبير الذي وجد متعة ولو ملتبسة في عرض الأوراق النقديّة الجديدة التي حصل عليها، وجد أنّ إدوار ولويز سرقا الأضواء منه. كانت أرض الغرفة مغطّاة تماماً بأوراق الكاتالوغ، وإدوار يستلقي بتكاسلٍ على أريكته

العثمانيّة، وقدماه العاريتان تستندان إلى إحدى الرزم المربوطة بالحبال، في حين كانت لويز الراكعة في المكان المقابل تضع بدقّةٍ كبيرةٍ على أظافر قدميها طبقة طلاء لونها أحمر قرمزيّ صارخ للغاية. كانت مستغرقة في عملها إلى درجة أنّها بالكاد رفعت عينيها لتحيّي ألبير؛ أمّا إدوار، فقد عاد من جهته إلى إطلاق ضحكته المجلجلة والفرحة (رررااااههههر) وهو يشير إلى الأرضيّة برضا مثل ساحرٍ في نهاية فقرةٍ كانت ناجحةً على نحوٍ خاص.

لم يستطع ألبير أن يمنع نفسه عن الابتسام. وضع حقيبته، وخلع معطفه وقبعته. لا يشعر بالأمان سوى هنا، في شقّتهما؛ حيث يجد بعض الهدوء... فيما عدا اللّيل. ظلّت لياليه هائجة، وستبقى كذلك لمدّةٍ طويلةٍ بعدها. كان عليه أن ينام، ورأس الحصان إلى جانبه في حال أصيب من جديد بنوبة ذعر.

راح إدوار ينظر إليه، ويده مفرودة على رزمةٍ صغيرةٍ من الكاتالوغ كانت إلى جانبه؛ أمّا القبضة الثانية، فكانت مغلقةً ومشدودةً كعلامةٍ على النصر. لويز الخرساء دائماً، صارت الآن بصدد تلميع طبقة الطلاء على أصابع قدمها العريضة بقطعة جلد شاموا، وكانت منكبّة على عملها كما لو أنّ حياتها متعلّقة به.

ذهب ألبير ليجلس بالقرب من إدوار، وأخذ نسخة.

كان الكاتالوغ نحيلاً يتألّف من ستّ عشرة صفحة، ومطبوعاً على ورقٍ جميلٍ لونه عاجيّ، وطوله أكثر بمرّتين من عرضه، مطبوعاً بنمط ديدون الجميل، بأحجامٍ مختلفةٍ، وحروفٍ أنيقةٍ للغاية.

الغطاء يعلن باقتضاب:

كاتالوغ
شركة المعادن

الذكرى الوطنيّة

مسلّات، ونصب تذكاريّة، وتماثيل
لمجد أبطالنا
وفرنسا المنتصرة

في بداية الكاتالوغ صفحة مكتوبة بتخطيطٍ جميلٍ، وفي زاويتها في الأعلى جهة اليسار:

✠ ❄ جول **ديبرومون**
نحّات
عضو في الأكاديميّة

52، شارع اللّوفر
صندوق بريد 52
باريس (السين)

– «من هو جول ديبرومون هذا؟». سأل ألبير في أثناء تصميم الكاتالوغ.
رفع إدوار عينيه نحو السماء، ليست لديه أيّة فكرة. في كلّ الأحوال، كان الاسم يوحي بالجديّة: صليب الحرب، السعفة الأكاديميّة، ومقيم في شارع اللّوفر.
– «مع ذلك». قال ألبير مجادلاً: «حتّى لو كانت هذه الشخصيّة مهمّة

للغاية. سيكتشفون بسرعة أنّه غير موجود. كونه «عضو في الأكاديميّة» يجعل التحقّق من ذلك سهلاً».

- «بل لهذا السبب بالذات لن يقوم أحد بالتحقّق». صرخ إدوار: «عضو في الأكاديميّة، لا أحد يناقش ذلك».

توجّب على ألبير ذي الطبع الشكّاك أن يقرّ بأنّه بالفعل، عند رؤية الاسم مطبوعاً لن يكون هناك رغبة بالشك.

لكن كانت توجد ملحوظة صغيرة في النهاية تعرض على نحوٍ مقتضبٍ حياته المهنيّة: كان النموذج الكامل للنحّات الأكاديميّ الذي تطمئنُ إنجازاته أولئك الذين يمكن أن يشكّوا بالأمر بسبب قربهم من الفنّانين.

أمّا العنوان: رقم 52 شارع اللوفر، فلم يكن سوى عنوان المكتب الذي فُتح صندوق البريد فيه. ولقد اختيرَ هذا الرقم بالمصادفة، مما جعل العمليّة برمّتها تبدو مدروسةً، ومحبوكةً، وبعيدةً عن الخطأ.

كان هناك سطر صغير في أسفل صفحة الغلاف يقول بإيجاز:

يشمل السعر التسليم في المحطّة ضمن أراضي فرنسا المتروبوليتانيّة كافّة.

لا يمكن إضافة أيّة كتابات على الرسومات.

أمّا الصفحة الأولى، فكانت احتيالاً بكلّ ما في الكلمة من معنى.

السيّد رئيس بلديّة...

ها قد مرّت سنة على نهاية الحرب الكبرى، وهناك عددٌ كبيرٌ من المناطق في فرنسا والمستعمرات تفكّر اليوم بتمجيد ذكرى أولادها الذين قضوا في ساحة الوغى بما يتناسبَ مع أهميّتهم.

وإن لم تكن معظم المناطق قد فعلت ذلك بعد، فإنّ ذلك لا يعود إلى انعدام الشعور الوطنيّ، إنّما لقلّة الوسائل. ولقد رأيت أنّ من واجبي بصفتي فنّاناً، وأحد المحاربين القدماء، أن أتطوّع لخدمة هذه القضيّة الرائعة، ولذلك قرّرت أن أضع تجربتي ومهارتي في خدمة المناطق التي ترغب بتشييد صرحٍ تذكاريٍّ، وذلك من خلال تأسيس شركة الذكرى الوطنيّة التي ترمي إلى تحقيق هذا الهدف.

تجدون رفقاً كاتالوغاً يحتوي على المواضيع والمنحوتات الرمزيّة التي تهدف إلى تجسيد وتخليد ذكرى شهدائنا الأعزّاء.

هذا وسيجري الاحتفال في يوم الحادي عشر من نوفمبر القادم في باريس بنصب «الجنديّ المجهول» الذي يمثّل وحْده تضحيات الجميع. ونظراً إلى ضرورة أن يكون لكلّ حدثٍ استثنائيٍّ إجراءات استثنائيّة تناسبه، ولكي أتيح لكم الفرصة بأن تضمّوا مبادراتكم الخاصّة إلى هذا الاحتفال الوطنيّ العظيم، فإنّني أعرض عليكم تخفيضاً قيمته 32% على مجمل أعمالي، وعلى الأخصّ تلك التي صُمّمت لهذه المناسبة، إضافةً إلى إعفائكم من جميع النفقات المتعلّقة بنقل الأعمال نحو أقرب محطةٍ في منطقتكم.

ونظراً إلى ضرورة الأخذ بعين الاعتبار المدّة الضروريّة للتصنيع وللنقل، وبسبب اهتمامي بأن تكون نوعيّة التنفيذ بلا شائبة، فإنّني لن أستطيع قبول الطلبات التي تردّ بعد الرابع عشر من يوليو القادم، وذلك لكي يجري التسليم في مهلةٍ أقصاها يوم 27 أكتوبر 1920، ما يترك لكم وقتاً كافياً لتثبيت المنحوتة المُختارة على القاعدة التي تكون قد شُيّدتْ مسبقاً؛ أمّا إذا ما حلّ الرابع عشر من يوليو، وتجاوزت الطلبات إمكاناتنا

في التصنيع، فإنّه يؤسفني ألّا أستطيع أن أقبل سوى الطلبات الأولى التي تكون قد وردت إلينا، وحسب ترتيب وصولها.

إنّني واثقٌ أنّ شعوركم الوطنيّ سيجد في هذا العرض الذي لا يمكن أن يتكرّر الفرصة المناسبة للتعبير عن امتناننا لأعزّائنا الراحلين، ولنؤكّد لهم أنّ بطولاتهم ستُخلَّد لكي يرى فيها أبناؤنا نموذجاً يجسّد التضحية بأسمى معانيها.

أرجو أن تتفضّلوا، سيّدي رئيس البلديّة، بقبول أسمى آيات التعبير عن الاحترام والتقدير.

✠❄ جول ديبرومون
نحات
عضو في الأكاديمية
تلميذ سابق في المدرسة الوطنية للفنون الجميلة

– «لكنْ، هذا الخصم!... لماذا 32%». سأله ألبير.

المحاسب داخل ألبير هو الذي طرح ذلك السؤال.

– «من أجل إعطاء الانطباع بأنّ السعر قد دُرس جيّداً». كتب إدوار: «سيحمّسهم! وبهذه الطريقة، يصل المال كلّه قبل الرابع عشر من يوليو. في اليوم التالي نضع المفتاح تحت الباب ونذهب».

في الصفحة التالية، كانت هناك ملحوظة قصيرة تشرح التفاصيل ضمن مربّع يعطي أجمل تأثير:

جميع أعمالنا قابلة للتنفيذ إمّا بالبرونز الفنيّ المنحوت
والمزخرف، وإمّا بالحديد المصبوب المطعّم بالبرونز
والمنقوش.

هذه الموادّ النبيلة تعطي للصروح طابعاً خاصّاً يلائم الذائقة،
وترمز على نحوٍ ممتاز إلى الجنديّ الفرنسيّ الذي لا شبيه له،
أو أيّ رمز آخر يُبرز شجاعة شهدائنا الأعزّاء.

تنفيذ هذه الموادّ مضمونٌ بدون أيّة عيوب، كما أنّها ستبقى
كما هي لا تتغيّر إلى أجلٍ غير مسمّى، على أن تخضع للعناية
كلّ خمس سنوات، أو ستّ.

كلفة قاعدة النصب التي يمكن أن ينفّذها أيّ معماريٍّ ماهرٍ
تبقى وحْدها على عاتق المشتري.

جاء بعد ذلك عرضٌ للأعمال كما تبدو من الأمام، ومن الجانب، أو بالمنظور، مع شرح لأبعادها التفصيليّة بدقّة؛ أي: الارتفاع، والعرض، وجميع المواضيع والتشكيلات التي يمكن تنفيذها: الذهاب إلى المعركة، هجوم! وقوفاً أيّها الأموات! جندي يموت، وهو يحمي العلم، رفاق المعركة، فرنسا تبكي أبطالها، ديك يعفّر بالتراب خوذة البوش، انتصار!... إلخ.

وفيما عدا ثلاثة نماذج قليلة الكلفة من أجل الموازنات القليلة جدّاً، وهي (صليب الحرب 930 فرنكاً، المشعل الجنائزي 840 فرنكاً، تمثال نصفي لجنديّ 1500 فرنك)، فإنّ الأسعار الأُخرى كانت تتراوح بين 6000 و 33 ألف فرنك.

في نهاية الكاتالوغ جاءت هذه الملحوظة:

إنّ مشغل «الذكرى الوطنيّة» لن يكون قادراً على الردّ بالهاتف على جميع الطلبات، لكنّه سيجيب في أقصر وقتٍ ممكنٍ عن جميع الأسئلة التي تُرسَل بالبريد. ونظراً إلى أهميّة الحسومات المقدّمة، فإنّ أيّة طلبيّة يجب أن تُرفق بما قيمته 50% من سعرها، تُسدّد لمشغل «الذكرى الوطنيّة».

يُفترض أنّ كلّ طلبيّة يجب أن تؤمّن نظريّاً ربحاً قدره ثلاثة آلاف إلى أحد عشر ألف فرنك. نظريّاً! على العكس من ألبير، ما كان إدوار يشكّ بشيء. فقط يضرب على فخذيه. ابتهاج الواحد كان يتناسب مع جزع الآخر.

بسبب قدمه العرجاء لم يستطع إدوار أن يحمل رزم الكاتالوغ إلى الطابق، لا بل إنّ الفكرة لم تخطر له على بال. هي مسألة تربية. كان لديه دائماً شخص ما ليخدمه، وعلى هذا الصعيد كانت الحرب مجرّد شيء استثنائي في حياته. قام بإشارةٍ صغيرةٍ تدلّ على الأسف، وعيناه تضحكان كما لو كان لا يستطيع فعل ذلك بسبب أظافره... قام بتحريك يديه كأنّه يقول: الطلاء... لم ينشف بعد.

- «حسناً». قال ألبير: «سوف أهتم بالأمر».

لم يكن يستاء كثيراً من ذلك، فالمهمّات اليدويّة، أو المنزليّة، تسمح له بأن يفكّر. بدأ سلسلةً طويلةً من الذهاب والإياب، وهو يكدّس باجتهادٍ كبيرٍ الرزم المطبوعة في صدر الغرفة.

قبل ذلك بأسبوعين، كان قد وضع إعلاناً يطلب فيه عاملين؛ إذْ لديه عشرة آلاف عنوان يجب كتابتها، وكلّها وفقاً لنموذج واحد:

بناء المحافظة

مدينة...

اسم المقاطعة

جرت تعبئة الخانات انطلاقاً من «قاموس التجمّعات السكنيّة»، واستثنوا من ذلك باريس ومحيطها؛ لأنّها كانت قريبةً جدّاً من مقرّ الشركة المزعوم. من الأفضل التوجّه إلى المحافظات النائية، والمدن المتوسّطة. كلّ عنوان يكلّف 15 سنتيماً. مع كلّ هذه البطالة التي تسود في البلاد، ما كان من الصعب إيجاد خمسة أشخاص خطّهم جميل. كان ألبير يفضّل أن يكونوا خمس نساء، فقد تخيّل أنّ المرأة تطرح أسئلة أقلّ. ربّما كان يبحث بكلّ بساطةٍ عن أن يلتقي بنساء. ظنّت طالبات الوظيفة أنهنّ ستعملن مع حرفيّ طباعة. كان يجب إنهاء كلّ شيء خلال عشرة أيّام. في الأسبوع الذي سبق، ذهب ألبير ليحضر لهنّ مغلّفات بيضاء، وحبراً، وريش كتابة. وقد بدأ بشراء هذه المستلزمات في اليوم التالي مباشرةً عند خروجه من البنك. كان قد أخرج من أجل المهمّة حقيبته القماشيّة العسكريّة. كم رأت من أشياء هذه الحقيبة!

كُرّستْ أمسياتٌ كاملةٌ من أجل وضع الرسائل في المغلّفات. لويز يمكن أن تساعد. طبعاً لم تكن البنت الصغيرة تفهم شيئاً ممّا يجري، لكنّها بدت متحمّسة للغاية. هذه القضيّة أعجبتها كثيراً لأنّ صديقها إدوار كان قد صار مرحاً جدّاً، وقد بدا ذلك من الأقنعة التي صارت ملوّنةً أكثر فأكثر، ومجنونةً أكثر فأكثر. ولا شكّ أنّهم بعد شهرٍ، أو شهرين، سيسبحون في بحرٍ من الهذيان. وقد أُغرمت بتلك الفكرة.

لحظ ألبير أنّ شبهها بأمّها صار يتناقص بالتدريج. ليس الشبه الفيزيائيّ، فهو لم يكن ضليعاً بتفسير الملامح الفيزيائيّة، ولم يكن يرى قطّ التشابه بين الناس. لا، لكنْ ذلك الحزن الدائم على وجه مدام بيلمون وراء نافذتها لم يعد يبدو على وجه لويز. كانت أشبه بحشرةٍ صغيرةٍ خرجت من شرنقتها، وبدأت تصير أجمل فأجمل. كان ألبير في بعض الأحيان ينظر إليها خفية،

ويجد أنّ لديها نعومة مؤثّرة تعطيه رغبة في البكاء. كانت مدام مايار تقول: «لو تركنا ألبير على هواه، لأمضى وقته بالبكاء؛ لو كان عندي بنت لما اختلف الأمر».

ذهب ألبير ليرسل كلّ شيء من مكتب اللّوفر لكي يتوافق الختم مع العنوان. كان عليه أن يقوم بعدّة رحلات في عدّة أيّام.

بعد ذلك بدأ الانتظار.

كان ألبير يتمنّى أن تصل الدفعات الأولى المسدّدة. لو أنّه استمع إلى نفسه، لكان سرق مئات الفرنكات الأولى، وهرب بها، لكنّ إدوار لم يكن يرى الأمور بهذه الطريقة. بالنسبة إليه، لا رحيل قبل الوصول إلى المليون.

- «مليون؟». صرخ ألبير مزمجراً: «أنت مجنون تماماً».

بدآ يتشاجران على الرقم المقبول كما لو أنّهما لا يشكّان أبداً بنجاح مشروعهما، وهو ما كان مع ذلك غير أكيد أبداً. بالنسبة إلى إدوار، كان النجاح مضموناً. حتمياً، كتب ذلك على لوحه بالأحرف الكبيرة؛ أمّا ألبير، فبعد أن استقبل معاقاً على نحوٍ مخالفٍ للقانون، وبعد أن سرق اثني عشر ألفاً من الفرنكات من صاحب عمله، ورتّب احتيالاً يمكن أن يسبّب له عقوبة الإعدام، أو السجن مدى الحياة، لم يكن لديه حلول أُخرى سوى أن يتصرّف كما لو كان يؤمن بالنجاح. كان يحضّر رحيله، ويمضي الأمسيات، وهو يطالع ساعات رحيل القطارات إلى الهافر، بوردو، نانت، أو مرسيليا، حسب إن كان يريد أن يستقلّ القطار إلى تونس، أو الجزائر، أو سايغون، أو الدار البيضاء.

من جهته، كان إدوار يعمل.

بعد أن صنّع كاتالوغ الذكرى الوطنيّة، تساءل كيف يمكن أن يكون عليه

ردّ فعل جول ديبرومون حقيقيّ فيما لو اضطرّ إلى انتظار نتيجة مخطّطاته التجاريّة.

قفز الجواب إلى ذهنه: كان سيجيب عن إعلانات العروض.

بعض المدن المهمّة التي لديها الإمكانات، لكيلا تكتفي بأعمالٍ مصنّعةٍ في المعامل، بدأت تنظّم مسابقات للفنّانين من أجل إقامة صروح مبتكرة. ولقد نشرت الصحف عدة إعلانات عن أعمال تُقدّر كلفتها بثمانين، مئة، وحتى مئة وخمسين ألفاً. وكان الإعلان الأكثر جاذبية بالنسبة لإدوار هو ذلك الذي جاء من الدائرة التي ولد فيها، والتي تقدم للفنان الذي يُقبل مشروعه موازنة تصل إلى مئتي ألف فرنك تقريباً. وهكذا فقد قرر أن يقتل الوقت بتحضير المشروع الذي يستطيع جول ديبرومون عرضه على لجنة التحكيم، وهو جداريّة واسعة ثلاثيّة الأقسام عنوانها: امتنان. وتحتوي من جهةٍ على «فرنسا تقود قوّاتها إلى المعركة»، ومن الجهة الأُخرى، «جنود شجعان يسدّدون على العدوّ». ويتّجه المشهدان نحو المركز الذي تمتدّ فيه صورة «انتصار تتوّج أولادها الذين ماتوا من أجل الوطن» التي هي عبارة عن تجسيدٍ مجازيٍّ للانتصار على شكل امرأةٍ ترتدي ثوباً له ثنيات على الطريقة الرومانيّة، تتوّج بيدها اليمنى جنديّاً منتصراً، وتلقي على جنديٍّ فرنسيٍّ ميّتٍ نظرة الأمّ المتألمة التي لا يمكن تعزيتها على طريقة الأم الحزينة[1].

في أثناء إضفائه اللمسات الأخيرة الدقيقة على المنظر الرئيس الذي

---

(1) mater dolorosa الأم الحزينة: لقبٌ يُستخدم للإشارة إلى مريم العذراء. يُركّز هذا اللقب على نحوٍ خاص على أحزانها ومعاناتها، كما تتوضّح في الفن المريمي في الكنيسة الكاثوليكيّة. (المترجمة).

سيكون المشهد الافتتاحيّ في ملفّ مشاركته في المسابقة، والذي أولى فيه عناية خاصّة للمنظور، راح إدوار يقرقر مثل الدجاج.

- «ديك حبش». قال له ألبير، وهو يمزح عندما رآه يعمل: «أقسم لك إنّك تقرقر مثل ديك حبش».

ضحك إدوار من قلبه وانحنى بشهيّةٍ على رسمته.

28

يبدو الجنرال موريو أكبر بمئتي سنة من عمره على الأقلّ. رجُل عسكريّ، إن نزعت منه الحرب التي تعطيه سبباً للحياة، وحيويّة الشباب، لا يبقى لديك سوى إنسان محدود الفكر، يعيش خارج الزمن. فيزيائيّاً لم يتبقّ منه سوى بطن يعلوه شاربان، كتلة رخوة ومخدّرة تنام معظم الوقت، لكنّ المزعج فيه أنّه يشخر. كان يتهاوى على أوّل أريكة يجدها مع تنهيدةٍ تشبه الحشرجة. بعد ذلك بدقائق، يبدأ كرشه بالارتفاع مثل منطاد، ويبدأ شارباه بالارتعاد مع كلّ شهيق، في حين تهتزّ وجنتاه المتهدّلتان عند الزفير، ويمكن أن يمتدّ ذلك لمدّة ساعات. هذه الكتلة من الحمم المنصهرة التي ظلّت بنوع من المعجزة راكدةً، كانت فيها ملامح العصر الجليدي، وكانت مهولة. أصلاً، ما كان أحد يجرؤ على إيقاظه، وبعض الناس يتردّدون حتّى في الاقتراب منه.

بعد أن حُلّ الجيش، سُمّي في عددٍ لا يحُصى من اللّجان، واللّجان الفرعيّة، والهيئات. كان دائماً أوّل الواصلين، وهو ينضح عرقاً، وقد انقطع نَفَسَهُ إن كان الاجتماع في طابق. عندها يرتمي على أريكة ويتلقّى التحيّات بهمهرةٍ، أو بهزّةٍ من رأسه تفتقد إلى الرشاقة، ثمّ ينام ويبدأ بالشخير. يجري

هزّه خفيةً حين يحين التصويت. ما رأيك بهذا يا جنرال؟ «نعم، نعم، طبعاً، هذا بديهيّ، أنا موافق». وتكون نظرته مُغلّفة بدموع صفراء، طبعاً، طبعاً؛ ويصير الوجه قرمزيّاً، ويرتعد الفم، وتصبح العين مستديرةً وزائغة؛ أمّا التوقيع على المحاضر، فكان حكاية في حدّ ذاته. حاولوا أن يتخلّصوا منه، لكنّ الوزير كان يتمسّك بهذا الجنرال موريو. في بعض الأحيان، يصدف أن تجد هذه الكتلة المزعجة وغير المنتجة بعضاً من صفاء الذهن. تلك كانت الحالة عندما سمع - كان ذلك في بداية شهر أبريل، والجنرال مصابٌ بزكام الربيع الذي يثير لديه عطسات عملاقة. كان يستطيع أن يعطس حتّى وهو غافٍ مثل بركانٍ شبه نائم- تلك كانت الحالة إذنْ عندما سمع بين إغفاءتين أنّ حفيده فردينان موريو بصدد التعرّض لمشكلات مقلقة. ما كان الجنرال موريو يحترم أحداً من الذين تحته. وهذا الحفيد الذي لم يختر مهنة السلاح المشرّفة، كان كائناً ثانويّاً ومتخلّفاً. ليكن، لكنّه يحمل اسم موريو، وذلك شيء يهمّ الجنرال كثيراً. كان يهتمّ كثيراً بمن سيخلفونه. حلمه الأقصى؟ أن تظهر صورته في قاموس لاروس الصغير المصوّر. وهذا الأمل لا يتحمّل أيّة لطخةٍ تلوّث اسم العائلة.

- «ماذا، ماذا، ماذا؟». تساءل، وقد استيقظ متوثّباً.

يجب إعادة الكلمة كي يسمعها، كما يجب الكلام بصوتٍ عال. كان الأمر يتعلّق بشركة براديل وشركائه، التي كان فردينان مساهماً فيها. حاولوا أن يشرحوا له، نعم، هل تذكر، الشركة التي كلّفتها الدولة بجمع الجنود الميّتين في المقابر العسكريّة؟

- كيف، جثامين... جثامين جنود ميّتين...؟

تشبّث باهتمامٍ بالمعلومة بسبب فردينان. وقد نجح دماغه بصعوبةٍ في

أن يضع خارطةً ذهنيّةً للمشكلة التي راح يوزّع فيها كلمات «فردينان»، «جنود ميّتين»، «جثامين»، «قبور»، «مشبوهة»، «أعمال». ذلك كثير... في رأيه. في زمن السلام، كان يجد صعوبة في أن يفهم. مساعده في المعسكر، وهو ملازمٌ شديد الحركة مثل حصانٍ أصيلٍ، نظر إليه وتنهّد مثل ممرّضٍ نافد الصبر ومنزعج. بعدها، لجم نفسه، وأعطاه تفاصيل. حفيدك فردينان مساهمٌ في شركة براديل وشركائه. لا شكّ في أنّه لا يفعل أكثر من قبض الأرباح، لكنْ فيما لو حصلت فضيحة رنّانة كانت هذه الشركة متورّطة فيها، فإنّ اسمك سوف يُذكر، وستجري مضايقة حفيدك، والنيل من سمعتك. فتح الجنرال عين طائر متفاجئ، أوف، خراء! الأمل في الوصول إلى قاموس لاروس الصغير يمكن أن ينال لبطة في جناحه، وهذا، غير مقبولٍ على الإطلاق!

لم يدُر دم الجنرال في جسمه سوى مرّة، حتّى إنّه أراد أن يقف.

تمسّك بمساند أريكته واعتدل في جلسته، وقد صار عدوانيّاً ومستاءً. بعد الحرب التي كان قد ربحها، يا ربّ العزّة، يجب أن يتركوه وشأنه، لا؟

ينهض مسيو بيريكور من نومه متعباً، وينام متعباً. «صرت أتكاسل». فكّر في قرارة نفسه. مع ذلك، لم يتوقّف عن العمل، وعن حضور جميع مقابلاته، وإعطاء الأوامر، لكنّه كان يفعل كلّ ذلك بطريقةٍ آليّة. قبل أن يذهب للقاء ابنته، أخرج من جيبه دفتر رسومات إدوار، ووضعه في درجه. كثيراً ما يحمله معه، حتّى لو كان لا يفتحه أبداً أمام الآخرين. حفظ محتواه عن ظهر قلب لكثرة ما كان ينقله بلا توقّف. بهذه الطريقة سينتهي الأمر بأن يتمزّق هذا الدفتر. يجب حفظه، وربّما تجليده. هو الذي لم يهتمّ في حياته

بالمهامّ الماديّة وجد نفسه بلا أيّ سند. هناك مادلين طبعاً، لكنْ لديها أشياء أُخرى في رأسها... شعر مسيو بيريكور بنفسه وحيداً. أغلق الدرج، وترك الغرفة لكي يلحق بابنته. كيف أودت به حياته إلى هنا؟ كان رجُلاً لم يثر لدى الآخرين سوى الخشية، وبسبب ذلك ما كان عنده أيّ صديق، فقط علاقات، ومادلين. لكنْ ذلك أمر مختلف. لا تقول الأشياء نفسها لبنتك، ثمّ الآن، وهي... في هذه الحالة. عدّة مرات حاول أن يتذكّر الزمن الذي كان فيه هو أيضاً على وشك أن يصير أباً، لكنّه لم يتذكّر. دُهش من كونه لا يمتلك سوى ذكريات قليلة. في عمله، يمتدحون دائماً ذاكرته القادرة على أن تسرد لك جميع أعضاء مجلس الإدارة في جمعيّة انتهت من خمس عشرة سنة مضت؛ أمّا عن العائلة، فلا شيء أبداً، أو تقريباً. مع ذلك، الله يعلم كم تعني له العائلة! وليس فقط الآن بعد أن توفي ابنه. العائلة هي السبب الوحيد الذي يجعله يعمل إلى تلك الدرجة أصلاً، ويتعب بهذا القدر. كلّ ذلك لأهل بيته، لكي يحميهم، لكي يسمح لهم أن... في النهاية، كلّ هذه الأشياء. مع ذلك، يا للغرابة! المشاهد العائليّة تعلق في ذهنه بصعوبةٍ إلى درجة أنّها تشابهت كلها: وجبات الطعام، عيد الميلاد، أعياد الفصح، أعياد الميلاد، كانت تبدو كلّها مثل مناسبةٍ واحدةٍ ومتشابهةٍ تُضاعَف عدّة مرّات، مع بعض الفواصل فقط. احتفالات عيد الميلاد مع زوجته، وتلك التي مرّت بعد وفاتها، أو أيّام الآحاد في فترة ما قبل الحرب وتلك التي تمرّ الآن. الفرق بينها في النهاية كان ضئيلاً. وهكذا لم تكن لديه أيّة ذكرى عن فترات حمل زوجته. أربع مرّات على ما يظن. هنا أيضاً ذابت كلّها ضمن واحدةٍ فقط، ولا يعرف أيّ منها، هل كانت تلك التي نجحت أم تلك التي أخفقت؟ لا يقدر أن يقول. لا تأتيه بمحض المصادفة سوى بعض الصور، هي ثمرة تشابهٍ في الظروف. تلك كانت الحالة عندما فاجأ

مادلين جالسةً، ويداها منعقدتان حول بطنها الذي صار مستديراً. تذكّر زوجته في هذه الوضعيّة. شعر بالرضا من ذلك، بل وبالفخر تقريباً. لم يخطر على باله أنّ كلّ النساء الحوامل تتشابهن تقريباً، وقرّر أن يعدّ هذا التشابه مثل نصر. البرهان على أنّ لديه قلباً ونزعةً عائليّة. ولأنّ لديه قلباً، فقد كان يخشى أن يسبّب لابنته هموماً إضافيّة، في حالتها. كان يفضّل أن يتصرّف كعادته؛ أي: يأخذ كلّ شيء على عاتقه. ما عاد ذلك ممكناً. ربّما أنّه قد انتظر طويلاً.

- «هل أزعجك؟». سألها.

نظرا إلى بعضهما. لم يكن الموقف مريحاً له، ولا لها. بالنسبة إليها لأنّ مسيو بيريكور منذ أن شعر بالألم لموت إدوار بدا أنّه قد شاخ كثيراً، دفعةً واحدةً تقريباً. وبالنسبة إليه لأنّ حمل ابنته لم يكن فيه أيّ سحر. لم يكن لدى مادلين ما يلحظه لدى نساء أخريات، هذا الاكتمال الذي يشبه ما في الفاكهة الطازجة، هذا البريق. فقط هيئة انتصار هادئة وواثقة، وهو ما تتقاسمه بعض النساء مع الدجاجات. كانت مادلين سمينة فقط. كل شيء انتفخ فيها بسرعةٍ كبيرة؛ الجسم كلّه، وحتّى الوجه. شعر مسيو بيريكور بالألم لكونه رآها تشبه أمّها التي لم تكن من جهتها جميلة قطّ، ولا حتّى في أثناء الحمل. شكّ في أن تكون ابنته سعيدة. لم يشعر بها راضية.

«لا»، ابتسمت مادلين له مظهرة إنّه لا يزعجها: «كنت أرى أحلام يقظة». قالت له، لكنْ لا شيء من ذلك كان صحيحاً: كان يزعجها، ولم تكن تحلم. إن كان قد اتّخذ كلّ هذه الاحتياطات، فذلك لأنّ لديه ما يقوله لها، وبما أنّها تعرف ماذا وتخشاه، فقد أجبرت نفسها على الابتسام. ابتسمت ودعته إلى أن يقترب، وهي تدلّ بكفّها على مكانٍ بقربها. جلس أبوها. وهذه المرّة أيضاً، بحُكم علاقتهما، كان يمكن أن يتوقّفا هنا. لو أنّ

الأمر كان يتعلّق بهما وحْدهما، لكانا فعلا ذلك، ولكانا قالا بعض الأشياء العاديّة التي يفهم كلّ منهما ما يكمن وراءها، ثمّ كان يمكن لمسيو بيريكور أن ينهض، ويضع قبلةً على جبين ابنته، وينسحب مع قناعةٍ لها ما يبرّرها، وهو أنّه قد سُمع وفُهم. لكنْ في ذلك اليوم، كان من الضروريّ وجود كلماتٍ؛ لأنّ الأمر لم يكن يتعلّق بهما وحْدهما، وكانا منزعجين كلاهما من كونهما مرتبطين في حميميّتهما بظروفٍ لا تعود إليهما وحْدهما.

في بعض الأحيان، كانت مادلين تضع يدها فوق يد أبيها، لكنّها في هذه المرّة لم تفعل، وبدلاً من ذلك تنهّدت بصوتٍ خفيض. ربّما سيكون عليهما أن يتجابها، وأن يختصما ربّما، لكنْ ما كانت لديها رغبة بذلك على الإطلاق.

- «اتّصل بي الجنرال موريو بالهاتف». هكذا بدأ مسيو بيريكور حديثه.

- «آه، حقاً؟». أجابت مادلين، وهي تبتسم.

تردّد مسيو بيريكور حول السلوك الذي يجب أن يسلكه، واتّخذ قراره بما كان حسب تفكيره يتناسب معه أكثر من أيّ شيءٍ آخر. الصرامة الأبويّة، السُّلطة.

- زوجك.

- صهرك، تريد أن تقول.

- إن أردتَ.

- أفضّل ذلك في الواقع...

عندما كان مسيو بيريكور يرغب بأن يُرزق بابن، كان يحلم أن يشبهه هذا الصبي؛ أمّا الشبه الذي يجده في ابنته، فكان يجرحه، لأنّ المرأة تتصرّف دائماً على نحوٍ مختلفٍ عن الرجُل، ودائماً على نحوٍ موارب، على سبيل

المثال: هذه الطريقة الماكرة في قول الأشياء، تبطّن كلامها بحيث لا يجري الحديث عن حماقات زوجها هي، إنّما صهره هو. زمّ شفتيه. كان عليه أيضاً أن يفكر بـ«وضعه هو»، وأن ينتبه.

- «مهما كان، فإنّ ذلك لا يصلح الأمور». عاد إلى القول.

- ماذا إذن؟

- الطريقة التي يدير بها أعماله.

ما إنْ لفظ هذه الكلمة حتّى توقّف مسيو بيريكور عن أن يكون الأب. بدا له أنّ المشكلة قابلة للحلّ؛ لأنّه بحكم معرفته بجميع المواقف في مجال الأعمال استطاع دائماً أن يجد حلّاً، إلّا في حالاتٍ قليلة. وكان دائماً يجد أنّ ربّ الأسرة هو تنويعة عن ربّ العمل في شركة، لكنّه أمام هذه المرأة، التي لا تشبه كثيراً ابنته، والتي كانت راشدةً جدّاً، شبه غريبة، أصابه نوع من الشكّ.

هزّ رأسه متضايقاً، وبتأثيرٍ من هذا الغضب الصامت، استعاد في ذهنه كلّ ما كان يريد أن يقوله لها في الماضي، ولم تتركه يعبّر عنه، وكلّ رأيه بهذا الزواج، وبهذا الرجُل.

عندما شعرت مادلين بأنّه سيصبح قاسياً معها، ضمّت يديها على نحوٍ ظاهرٍ على بطنها، وشبكت أصابعها. رأى مسيو بيريكور ذلك فسكت.

- «لقد تحدّثتُ إلى هنري يا بابا». قالت في النهاية: «لديه مشكلات محدّدة. تلك هي الكلمة التي استعملها، «محددة». لا شيء خطر. أكّد لي».

- ما أكّده لك يا مادلين ليست له أيّة أهميّة، أيّة قيمة. إنّه يقول لك ما يريحه؛ لأنّه يريد أن يحميك.

– هذا طبيعي؛ هو زوجي.

– تماماً، هو زوجك، وبدلاً من أن يعطيك شعوراً بالأمان، يعرّضك للخطر!

– «للخطر؟». صرخت مادلين، وهي تضحك بصوتٍ عالٍ، يا للآلهة! ها أنا قد صرت في خطر الآن!

كانت تضحك بقوّة. لم يكن أباً كفايةً بحيث لا ينزعج من ذلك.

– «لن أدعمه يا مادلين». قال الجملة وسكت.

– لكنْ يا بابا، من طلب منك أن تدعمه؟ ولماذا؟ و... ضدّ من؟

كم يتشابهان في سوء النيّة!

وعلى الرغم من أنّها ادّعت العكس، فإنّ مادلين كانت تعرف أشياء. هذه الأمور المتعلّقة بالمقابر العسكريّة لم تكن بالبساطة التي بدت عليها في البداية. بدا على هنري أنّ ضيقه يتزايد. صار غائباً، سريع الغضب، متوتّراً. لحُسن الحظّ أنّها لم تكن بحاجةٍ إلى خدماته الزوجيّة، خاصّةً أنّه في هذه الفترة، حتّى عشيقاته صرن يشتكين منه على ما يبدو. إيفون مثلاً: قالت لها في أحد الأيام: «التقيت بزوجك يا عزيزتي، لقد صار صعب المراس الآن! ربّما لا يلائمه أن يكون غنياً...».

في عمله مع الحكومة، كان يصطدم بمصاعب وبموانع. ظلّ ذلك مخفّفاً، لكنّها كانت تلتقط كلماتٍ من هنا، ومن هناك. يتّصلون به هاتفيّاً من الوزارة. يتحدّث هنري عندها بصوتٍ مفخّم. «لا يا عزيزي، ها! ها! رُتّب الأمر من زمنٍ بعيد. لا تخشَ شيئاً». ثمّ كان يغلق السمّاعة، وقد تجعّد جبينه بثنيةٍ واسعة. عاصفة لا أكثر. مادلين تعوّدت على ذلك، طيلة حياتها رأت والدها يجتاز كلّ أنواع العواصف، إضافةً إلى حربٍ عالميّة. لن تفقد

رشدها الآن بسبب اتّصالين من مركز الشرطة، أو من الوزارة. أبوها لا يحبّ هنري وهذا كلّ شيء. لا شيء ممّا يقوم به يلقى استحساناً في نظره. منافسة رجال، منافسة ديوك. زادت من قبضة يديها على بطنها. الرسالة وصلت. نهض مسيو بيريكور مرغماً. ابتعد، ثمّ استدار، كان ذلك أقوى منه.

- زوجك، لا أحبّه!

قال ذلك وانتهى. لم يكن الأمر بتلك الصعوبة.

- «أعرف يا بابا». أجابت، وهي تبتسم: «ليس لهذا قيمة. إنّه زوجي».

وربّتت بلطفٍ على بطنها.

- وهنا حفيدك. أنا واثقة من ذلك.

فتح مسيو بيريكور فمه، لكنّه فضّل أن يترك الغرفة.

حفيد...

كان يهرب من هذه الفكرة منذ البداية؛ لأنّها لم تأتِ في وقتها. لم يستطع إلّا أن يربط موت ابنه مع ولادة هذا الحفيد، حتّى إنّه تمنى أن تكون بنتاً كي لا تُطرح المسألة هكذا. ومن هنا حتّى يأتي طفلٌ آخر، يكون الوقت قد مرّ، ويكون الصرح قد أُنجز. تعلّق بفكرة أنّ تشييد هذا البناء سيكون نهاية مخاوفه وشعوره بتأنيب الضمير. مضت أسابيع، وهو لا يستطيع النوم على نحوٍ عادي. مع مرور الوقت، اكتسب رحيل إدوار أهميّة ضخمة إلى درجة أنّه أثّر على نشاطاته المهنيّة، مثلاً: مؤخّراً، خلال مجلس إدارة إحدى جمعيّاته، الفرنسية للمستعمرات، لفت نظرهُ شعاعُ شمسٍ مائلٌ كان يجتاز الغرفة، ويضيء صينيّة على طاولة المحاضرات. لم يكن ذلك شيئاً مهمّاً، مجرّد شعاع شمس، لكنّه استحوذ على تفكيره بطريقةٍ شبه مغناطيسيّة. يحصل لكلّ الناس أن يضيّعوا للحظة علاقتهم مع الواقع،

لكنْ ما ظهر على وجه بيريكور، لم يكن هيئة غياب، بل هيئة انبهار. الكل لحظوا ذلك. تابعوا الأعمال، لكن بدون نظرة الرئيس القويّة، بدون انتباهه الحادّ الذي يشرّح. تراخى النقاش شيئاً فشيئاً مثل سيّارةٍ حُرمت فجأةً من البنزين، فراحت تطبطب، وتتّع، ثمّ تحتضر ببطء لتنتهي بفراغ.

والواقع أنّ نظرة مسيو بيريكور لم تكن مثبّتة على شعاع الشمس هذا، إنّما على الغبار المعلّق في الهواء، هذه السحابة من الجزئيّات المتراقصة جعلته يعود إلى الوراء. إلى كم من السنوات؟ عشر، خمس عشرة سنة؟ من المزعج ألّا يتذكّر الإنسان! كان إدوار قد رسم لوحة، وكان وقتها في السادسة عشرة، أو أقلّ، في الخامسة عشرة. رسم لوحة لم تكن سوى نقاط من الألوان متناهية في الصغر تتجاور كأنّها نمل. ولا خط. نقاط فقط. هذه التقنيّة لها اسم. الكلمة على طرف لسان مسيو بيريكور لكنّها لم تظهر. كانت اللوحة تمثّل فتياتٍ في حقلٍ، حسب ما يظنّ أنّه يتذكّر. وجد هذ الطريقة في الرسم سخيفة إلى درجة أنّه لم ينظر إلى الموضوع. كم كان غبياً عندها! ابنه الصغير إدوار كان واقفاً في وضعيّةٍ غير مؤكّدة، وكان هو، أبوه، يحمل في يديه تلك اللّوحة التي رآها فجأة. شيء سخيف، يخلو من المعنى تماماً.

ما الذي قاله في تلك اللّحظة؟ هزّ مسيو بيريكور رأسه، وقد اشمئزّ من نفسه، في قاعة مجلس الإدارة حين كان الجميع قد سكتوا. نهض وخرج بلا كلمة. بدون أن يرى أيّ شخص، وعاد إلى بيته.

هزّ رأسه أيضاً، وهو يترك مادلين. النيّة لم تكن مشابهة، بل معاكسة أيضاً. شعر بالغضب: مساعدة ابنته تعني في نهاية الأمر مساعدة زوجها. تلك أشياء تنتهي بجعلك تمرض. صحيح أنّ موريو قد صار مسنّاً غبيّاً (إن

لم يكن كذلك من قبل)، لكنّ الأصداء التي نقلها حول أمور صهره كانت مقلقة.

سيُذكر اسم بيريكور. يتحدّثون عن تقرير. مخيف حسب ما تهامسوا به. أين هي تلك الوثيقة؟ من قرأها؟ وكاتبها، من هو؟

- «لقد زودتُها». قال في نفسه: «ذلك أنّ تلك الأمور لا تخصّني، وهو، هذا الصهر، لا يحمل حتّى اسمي؛ أمّا ابنتي، فلحُسن الحظ أنّها محميّة بعقد زواج. بكلّ الأحوال، يمكن أن يحصل له أيّ شيء، أولني براديل هذا». (حتى وهو يلفظ اسمه في ذهنه، كان يشدّ على هذه المقاطع الصوتيّة الأربعة بأهميّةٍ تؤكّد على النيّة السيّئة). هناك عالمٌ بينه وبيننا، حتّى لو كان لمادلين أولاد (في هذه المرّة، أو في مرّة أُخرى، فمع النساء لا أحد يعرف كيف تجري مثل هذه الأمور)، فإنّه قادرٌ على أن يؤمّن لهم مستقبلهم كلّهم، لا؟ مكتبة سُر مَن قرأ

هذه الفكرة الأخيرة الموضوعيّة والعقلانيّة أطاحت بقراره. يمكن لصهره أن يغرق؛ أمّا هو، مارسيل بيريكور، فسيبقى على الحافة، بعينه المتوقّدة، مع كلّ ما يلزم من دواليب الإنقاذ لكي ينقذ ابنته وأحفاده.

أمّا هو، فسينظر إليه، وهو يتخبّط، بدون أن يحرّك ساكناً.

وإن لزم الأمر أن يهرس له رأسه... لا شيء مستحيل.

كان مسيو بيريكور قد قتل عدداً كبيراً من الناس خلال حياته المهنيّة الطويلة، لكنْ ولا مرّة شعر بهذه الإمكانيّة مريحة مثلما هي الآن.

ابتسم وتعرّف إلى الاهتزازات الخاصّة التي يشعر بها عندما تكون أمامه عدّة حلول، فيقرّر اللّجوء إلى أكثرها فعاليّة.

29

مكتبة
t.me/soramnqraa

طيلة حياته، لم ينم جوزيف ميرلان على نحوٍ صحيح. على العكس من بعض الذين لا ينامون، ولا يعرفون أبداً السبب في سوء حظّهم، كان هو يعرف تماماً من ماذا يتأتّى ذلك: وجوده كلّه كان عبارة عن هطولٍ لا يتوقّف لخيبات الأمل التي لم يعتدها قطّ. في كلّ ليلةٍ يعيد تركيب المحادثات التي لم يربح فيها، ولكي يغيّر النهاية لصالحه يستعيد الإهانات المهنيّة التي وقع فريسة لها، كما يجترّ النكسات والمعاكسات التي تجعله يبقى مستيقظاً لمدّةٍ طويلة. كان لديه نوعٌ من التركيز شديد العمق على الذات، فمركز الثقل في حياة جوزيف ميرلان هو جوزيف ميرلان. ما عنده شيء، ولا عنده أحد، ولا حتّى قطّة، ولذلك كان كل شيء يتلخّص به نفسه؛ ووجوده قد التفّ حول ذاته مثل ورقةٍ جافّةٍ حول نواةٍ فارغة، على سبيل المثال: خلال ليالي الأرق الطويلة غير المتناهية، لم يفكّر في حياته بالحرب. لم ينظر إليها خلال السنوات الأربع إلّا كنوعٍ من النكسة المقيتة، كمجموعةٍ من الإزعاجات المرتبطة بالتقنين الغذائيّ الذي زاد من حدّة طبعه الذي كان بالأصل نزقاً. وقد صُدم زملاؤه في الوزارة، وعلى الأخصّ أولئك الذي لديهم أقرباء في الجبهة، برؤية هذا الرجُل الممتعض؛ إذْ لا يهتمّ سوى بسعر المواصلات، وندرة الدجاج.

- «لكنْ في النهاية يا عزيزي». كانوا يقولون له منزعجين: «لا تنس أنّها حرب، قبل أيّ شيء آخر... يعني أنك تبالغ!».

- «حرب؟ أيّ حرب؟». يجيبهم ميرلان الذي نفد صبره: «توجد دائماً حروب، لماذا تريدون أن نهتم بهذه، وليس بالتي سبقتها، أو بالقادمة؟».

كان يُعدّ انهزامياً، يقع على بُعد خطوتين من الخيانة. لو كان جنديّاً لاستُدعي ليمثّل أمام المفرزة، ولما تأخّر ذلك، لكنْ كونه في الصفوف الخلفيّة جعل رأيه بلا أهميّة. عدم اكتراثه بالأحداث جلب له زيادة في الازدراء. كانوا يسمّونه البوش، وقد ظلّت الكلمة لصيقة به.

في نهاية الصراع، وعندما عُيّن في التفتيش على المقابر، تحوّل البوش ليصير العُقاب، وآكل الجيف، أو الكاسر، وذلك حسب الظروف، وعادت إليه الليالي الصعبة بلا نوم.

كان موقع شازيير مالمون أوّل زيارة له لمقبرةٍ عسكريّةٍ عُهِد بها إلى شركة براديل وشركائه. عند قراءة تقريره، وجدت السُّلطات أنّ الوضع يثير القلق للغاية. لم يرد أحدٌ أن يأخذ على عاتقه المسؤوليّة، وهكذا تسلّقت الوثيقة بسرعةٍ نحو الأعلى لتحطّ في مكتب مدير الإدارات المركزيّة، وهو خبيرٌ في لفلفة الملفّات، مثل أمثاله في الوزارات الأُخرى كلّهم.

خلال ذلك الوقت، وفي كلّ ليلة، كان ميرلان في سريره يلمّع الجمل التي يمكن أن يلفظها أمام رؤسائه في اليوم الذي يُستدعى فيه، وهي الجمل التي تتلخّص كلّها ببلاغٍ بسيطٍ، وفجٍّ، وثقيل العواقب: دُفن آلاف الفرنسيّين في توابيت صغيرة للغاية، أيّاً كانت أطوالهم التي تتراوح بين متر وستّين إلى أكثر من مترٍ وتسعين. (بفضل البطاقات العسكريّة المتوفّرة سجّل ميرلان عيّنة موثّقة جيّداً عن أطول الجنود المعنيّين)، ولقد وضعوا كلّهم في توابيت

طولها مترٌ وثلاثون سم. ولكي يجري إدخالهم في التوابيت، كان يجب كسر أعناقهم، أو نشر أقدامهم، أو كسر أكعُب أقدامهم. بالملخّص، جرى التعامل مع أجساد الجنود كما لو كانت بضاعة قابلة للقصّ من الجذع. ثمّ يدخل التقرير في اعتبارات تقنيّة لها علاقة بالموت خاصّةً، مفسّراً أنّه «بسبب عدم امتلاك العاملين المعرفة التشريحيّة، ولا المادة الملائمة، فقد اضطرّوا إلى تكسير العظام بحرف المعول القاطع، أو بضربةٍ من الكعب على حجرٍ مسطّحٍ، وأحياناً بالرفش؛ وأنّه حتّى بهذه الطريقة، لم يكن من النادر وضع بقايا الرجال الطوال جدّاً في هذه التوابيت الصغيرة جدّاً؛ وأنّه عندها قد كُوّم ما أمكن منها فيها، كما رُمي الفائضُ منها في تابوتٍ استُخدم كحاوية قمامة؛ وأنّه عندما يمتلئ هذا التابوت يُغلَقُ مع جملة «جنديّ لم يجرِ التعرّف عليه»؛ وأنّه، لهذا السبب، من المستحيل تقديم جثثٍ كاملةٍ من بقايا المتوفّين للعائلات التي ستأتي لتكريم موتاها؛ وأنّه من جانبٍ آخر، فإنّ إيقاع العمل الذي فرضته الشركات الفائزة بالمناقصة على عمّالها أجبرهم ألّا يضعوا في النعش سوى جزء الجثمان الذي يمكن الوصول إليه مباشرةً قدر الإمكان؛ وأنّه قد جرى التخلّي عن تنبيش القبر بحثاً عن رفاتٍ، أو أوراقٍ، أو أغراضٍ تسمح بالتحقّق من هويّة المتوفّى، أو التعرّف إليه كما تنصّ عليه الأنظمة؛ وأنّه يُعثَر في كثيرٍ من الأحيان هنا وهناك على عظام لا يستطيع أحدٌ أن يعرف لمن تنتمي؛ وأنّه إضافةً إلى الاستهتار الخطر والممنهج بالتعليمات المعطاة فيما يتعلّق بإخراج الجثث من القبور، وتسليم التوابيت، والتي لا تتماشى على الإطلاق مع الصفقة التي جرى تلزيمها، فإنّ الشركة... إلخ». وكما رأينا، يمكن لجُمل ميرلان أن تتألّف من أكثر من مئتي كلمة؛ ولذلك يُعدّ ميرلان في وزارته على هذا الصعيد فنّاناً.

كان تأثير البلاغ أشبه بقنبلة.

فهو يهدّد براديل وشركاءه، وأيضاً عائلة بيريكور المعروفة جدّاً، وكذلك الخدمات العامّة التي تكتفي بالتحقّق من العمل بعد أن يتمّ؛ أي: بعد أن يكون قد فات الأوان. وفي حال شاع الخبر، فإنّ الأمور تسير نحو فضيحة. من الآن فصاعداً يجب على المعلومات المتعلّقة بهذه القضيّة أن تصعد إذن إلى قسم مدير الإدارات المركزيّة مباشرةً، وبدون أن تتوقّف في الطبقات الوسيطة. ولكي تجري تهدئة الموظّف ميرلان، جرت طمأنته عبر القنوات التسلسليّة بأنّ وثيقته قد قُرئت بعنايةٍ، وقُدّرت حقّ قدرها، وأنّه ستُتّخذ الإجراءات المناسبة في أقرب وقتٍ ممكن. ميرلان الذي كانت لديه خبرة ما يزيد عن أربعين سنة، فهم مباشرةً أنّ تقريره قد دُفن لتوّه، ولم يتفاجأ من ذلك. فمن هذه الصفقة الحكوميّة ترشح بلا شكّ خبايا كثيرة، والموضوع حسّاسٌ للغاية. ولقد جرت تنحية كلّ ما يزعج الإدارة جانباً. كان ميرلان يعرف أنّه لا توجد لديه أيّة مصلحة في أن يصبح عائقاً، وإلّا سيُنقل مرّةً ثانية ويوضع على الرفّ مثل موظّفٍ لا فائدة منه. شكراً جزيلاً. كان رجُلاً يعرف واجبه وقام به، وقد شعر بنفسه بعيداً عن أيّ لوم.

وبكلّ الأحوال، في نهاية حياته المهنيّة، ما كان لديه ما ينتظره سوى تقاعد يتطلّع إليه من فترةٍ طويلة. طُلب منه القيام بتفتيش شكلانيّ تماماً، وأن يوقّع سجلّات، وأن يذيّلها بأختام. وسيوقّع، ويختم، وينتظر بكلّ صبر أن يتوقّف نقص الطعام، وأن يُعثَر أخيراً على دجاج في الأسواق، وفي لائحة الطعام في المطاعم.

عندما توصّل إلى ذلك، عاد إلى بيته ونام. عرف للمرّة الأولى في حياته ليلة كاملة من النوم المستمرّ، كما لو أنّ ذهنه كان بحاجةٍ إلى زمن تسويةٍ استثنائيّ.

حلم أحلاماً حزينة؛ جنودٌ في حالةٍ متقدّمةٍ من التحلّل يجلسون في قبورهم ويبكون، يطلبون النجدة، لكنْ لا يخرج من حناجرهم أيّ صوت. سُبل الراحة الوحيدة تأتيهم من سنغاليّين طوال وعُراة مثل الدود يرتعدون من البرد؛ إذْ يرمون فوقهم حفنات من التراب كما يُرمى معطفٌ لتغطية غريقٍ أُخرج لتوّه من الماء.

استيقظ ميرلان نهب انفعالٍ قويٍّ، وكان ذلك جديداً جدّاً عليه، ولا يتعلّق به هو حصراً. فالحرب التي انتهت من فترةٍ طويلةٍ، جاءت أخيراً لتُقحم نفسها في حياته.

التتمّة كانت نتيجة توافق كيميائيّ مثير تدخّل فيه الجوّ المشؤوم لتلك المقابر التي أرجعت ميرلان إلى كارثة وجوده، والطابع المزعج للحصار الإداريّ الذي فُرض عليه، وتصلّبه المعتاد: موظّف من نوعه لا يستطيع أن يكتفي بإغلاق عينيه. هؤلاء الموتى الشباب الذين ما كانت له أيّة نقطة مشتركة معهم كانوا ضحيّة ظلم، وما كان لديهم أحد آخر سواه لكي يزيله. خلال عدّة أيّام تحوّل ذلك إلى فكرةٍ مسيطرةٍ عليه. صار هؤلاء الجنود الشباب المقتولون يسيطرون على تفكيره مثل شعور العشق، مثل غيرةٍ، أو مثل سرطان. انتقل من الحزن إلى السخط. شعَر بالغضب.

وبما أنّه لم يتلقَّ أيّ أمرٍ من رؤسائه يفرض عليه أن يعلّق مهمّته، فقد أبلغ السُّلطات أنّه سيذهب بمهمّة تفتيشٍ إلى دارغون لو غران، وبناءً عليه، استقلّ القطار في الاتّجاه المعاكس ليذهب إلى بونتافيل سور موز.

منذ أن وصل إلى المحطّة، ذرع مشياً على الأقدام، وتحت المطر الغزير، الكيلومترات الستّة التي تفصله عن موقع المقبرة العسكريّة. مشى

وسط طريق السفر، وحذاؤه الضخم يسحق بغضبٍ مسعورٍ سبخات المياه. لم يتنازل ويبتعد خطوةً واحدةً ليُفسح الطريق أمام السيّارات التي كانت تزمّر له، كما لو أنّه لا يسمعها؛ ولذلك كان على السيّارات لكي تتجاوزه أن تسير على دولابين جانبيّين فقط.

كان مثيراً للفضول هذا الشخص الذي توقّف أمام السياج بهيئةٍ مهدّدة. جثّته كبيرةٌ، وقبضاته مشدودةٌ داخل جيوب معطفه الذي على الرغم من أنّ المطر قد توقّف كان ما يزال ينضح بالماء. لكنْ ما كان هناك أحد ليراه، فقد صارت الساعة الثانية عشرة ظهراً والورشة مقفلة. على السياج هناك لوحة تحمل إعلاناً من قسم دفن الموتى يعدّد -في قائمةٍ موجّهةٍ إلى العائلات والأقرباء- مجموعة الأغراض التي عُثر عليها بالقرب من أجسادٍ لم يجرِ التعرّف عليها، ويمكن الذهاب إلى البلدة لرؤيتها: صورة امرأة شابّة، غليون، أرومة تكليف، حروف أولى عُثر عليها على لباسٍ داخليّ، علبة تنباك من الجلد، ولّاعة، نظّارات مستديرة، رسالة تبدأ بجملة «حبيبتي»، لكنّها بلا توقيع. يا لهذا الجرد العبثيّ والمؤلم! صُعق ميرلان من تواضع كلّ هذه الرُفات. كم كان هؤلاء الجنود فقراء! شيء لا يصدّق.

خفض عينيه نحو السياج المغلق، رفع ساقه، وكسر القفل الصغير بضربةٍ من كعبه يمكن لها أن تقتل ثوراً، ثمّ دخل إلى الورشة وراح يخلع بضربةٍ أُخرى من قدمه الباب الخشبيّ لثكنة الإدارة. كان هناك فقط ما يقارب دزينة من العرب يأكلون في الموقع تحت ستارةٍ من النايلون نفخها الهواء. رأوا من بعيد ميرلان يهشّم سياج المدخل، ثمّ باب المكتب، لكنّهم تجنّبوا النهوض والتدخّل. فالمظهر الفيزيائيّ لهذا الرجُل، والثقة التي كان يتصرّف بها، لم تعطهم أيّة معلوماتٍ مهمّة. وهكذا استمرّوا في مضغ الخبز.

ما كان يطلق عليه هنا اسم «مربّع بونتافي» كان حقلاً لا شيء مربّع فيه، يقع على حرف الغابة، ويُقدّر أنّ قرابة ستّمئة جنديّ قد دُفنوا فيه.

نبش ميرلان في الخزائن بحثاً عن سجلّاتٍ يمكن أن يكون قد سُجّل فيها كلّ عمليّةٍ على حِدة. في أثناء تفحّصه للتقارير اليوميّة، راح يلقي نظراتٍ سريعةً عبر النافذة. كانت عمليّات النبش قد بدأت منذ شهرين. ما رآه كان حقلاً مزروعاً بالحفر، وبأكوام التراب، ومُلاء بلاستيكيّة للتغطية، وألواح الخشب، وعربات نقل الأغراض، وأجنحة مؤقّتة كُدّست الموادّ فيها.

إداريّاً، كلّ شيء يبدو مطابقاً للمطلوب. لم يجد هنا، كما في شازيير مالمون، هذا الإهمال الذي يوجع القلب، ولا التوابيت التي تضم البقايا وتشبه قمامة المسالخ، والتي استطاع وقتها اكتشافها مخفيّة تحت كومةٍ من التوابيت الجديدة الجاهزة للاستعمال.

عموماً، وبعد أن تحقّق من وجود سجلّات، بدأ ميرلان تفتيشه بجولةٍ في المكان. ترك العنان لغريزته، فكان يرفع غطاء بلاستيك هنا، ويراقب صفيحة تعريف هناك. وبعد ذلك انطلق فعليّاً في عمله. أجبرته مهمّته بعدها على الذهاب والإياب بدون توقّف بين السجلّات وبين ممرّات المقبرة، لكنّه كان قد اكتسب بسرعة، وبفضل اهتمامه الكبير الشخصيّ بهذا العمل، حاسّةً سادسةً تسمح له أن يكتشف أضعف الدلائل التي تُخفي الاحتيال، والمخالفات، والتفاصيل التي تؤدّي إلى حالةٍ غير مألوفة.

كانت تلك بلا شكّ المهمّة الوزاريّة الوحيدة التي تُجبر موظّفاً أن ينبش تابوتاً، وأن يُخرج من القبر جثّة. لكنْ ما كانت هناك وسيلة أُخرى للتحقّق. الهيئة الفيزيائيّة الضخمة لميرلان تسمح بذلك جيّداً، فحذاؤه الضخم كان يُدخل الرفش إلى ثلاثين سنتمتراً داخل الأرض بضربةٍ واحدةٍ، وقفّازاه الكبيران يستخدمان الفأس كأنّها شوكة.

بعد تماسه الأوّل مع الأرض، بدأ ميرلان تحقّقه التفصيليّ. كانت الساعة الثانية عشرة ظهراً ونصف.

في الساعة الثانية بعد الظهر، كان قد وصل إلى الطرف الشماليّ للمقبرة، وكان يقف أمام كومةٍ من التوابيت المغلقة المكوّمة فوق بعضها عندما اقترب منه رئيس الورشة. كان اسمه سوفور بينيشو، في الخمسين من عمره، لونه بنفسجيّ من كثرة شرب الكحول، وجسده نحيل يابس مثل غصن داليةٍ جافّة. كان برفقته عاملان لا شكّ في أنّهما يعملان تحت إمرته. كان جميع أفراد تلك المجموعة غاضبين، ذقونهم تهتزّ، وأصواتهم قويّة آمرة. فالورشة ممنوعة على الجمهور، ولا يمكن السماح بدخول الناس هكذا، ويجب مغادرة المكان مباشرة. وبما أنّ ميرلان لم ينظر حتّى إليهم، فقد انتقلوا إلى لهجةٍ فوقيّةٍ: إن أصرّ على البقاء، سيجري إبلاغ الشرطة؛ لأنّ الموقع هنا، إن لم تكن تعلم؛ يقع تحت حماية الحكومة...

- «هي أنا». قاطعهم ميرلان، وهو يستدير نحو الرجال الثلاثة.

وفي الصمت الذي تلا الموقف أضاف:

- الحكومة هنا هي أنا.

غاص بيده في جيب بنطاله، وأخرج منه ورقةً مدعوكةً لا يبدو عليها تماماً مظهر تكليفٍ رسميّ، لكنْ بما أنّه هو نفسه لم تكن عليه هيئة مبعوث الوزارة، فإنّهم لم يعرفوا ماذا يقولون. فجثّته الكبيرة، وملابسه القديمة المدعوكة، والممتلئة بالبقع، وحذاؤه الهائل، كل شيء فيه كان يلفت النظر. ساد الشعور بأنّ الموقف مشبوه، لكنْ ما من أحدٍ تجرّأ على أن يعترض.

اكتفى ميرلان بتفحّص الرجال الثلاثة: لو سوفور الذي كانت تفوح

منه رائحة كحول الخوخ، ومعه معاوِنَاه. الأوّل كان وجهه يشبه شفرة السكّين، ويختفي تحت شاربٍ ضخمٍ للغاية بالنسبة إليه، ولونه قد اصفرّ من التنباك. كان يربّت على جيوب صدره لكي يتماسك. الثاني كان عربيّاً، ما زال يرتدي حذاءً، وبنطالاً، وقبّعة عريف من سلك المدفعيّة. كان يقف متخشّباً كما لو أمام استعراضٍ للحرس، ووضعيّته تشبه وضعيّة رجُلٍ يريد أن يُقنع الجوّ المحيط به بأهميّة وظيفته.

- «تسيت، تسيت». صدرت عن ميرلان أصوات طقم أسنانه، وهو يعيد وضع الورقة في جيبه.

ثم دلّ على كومة التوابيت.

- «وليكن في علمكم». تابع قائلاً: «أنّ الحكومة تتساءل».

المعاون العربيّ تشنّج أكثر فأكثر، ورفيقه ذو الشارب أخرج سيجارة. (لم يخرج علبة كاملة، فقط سيجارة، مثل رجُل لا رغبة له بأن يتشارك في شيءٍ، وقد ضاق صدره من المستدينين). كلّ شيء فيه كان يدلّ على وضاعةٍ وبُخل.

- «مثلاً». قال ميرلان، وهو يعرض عليهما فجأةً ثلاثة سجلّات هويّة: «الحكومة تتساءل أين هو التابوت المخصّص لهؤلاء الشباب».

كانت البطاقات في راحة ميرلان الضخمة لا تبدو أكبر من طابعٍ بريديّ. وقد جعل السؤال الفريق بأكمله يغوص في حرجٍ كبير.

بعد أن نُبِش وأُخرِج ممرٌّ كاملٌ من التوابيت، صار لدينا من جهة صفّ كامل من التوابيت، ومن الجهة الأُخرى سلسلة من سجلّات الهويّة.

نظريّاً، يجب أن يكون لهم الترتيب نفسه.

لكن كان يكفي أن تكون واحدةٌ من هذه البطاقات قد صُنّفت في غير

موضعها، أو غابتْ، لكي يخرب الصفّ بأكمله، ولينال كل تابوتٍ سجلّ هويّةٍ لا علاقة له بما في داخله.

وإن كان ميرلان يحمل في يده ثلاث بطاقات لا تتوافق مع أيّ تابوت... فذلك لأنّ كلّ شيءٍ قد انزاح عن موضعه.

هزّ رأسه، ونظر إلى جزء المقبرة الذي حُرث من قبل. مئتان وسبع وثلاثون جنديّاً نُبشوا ونُقلوا إلى ما هو أبعد من ثمانين كيلومتراً.

بول كان في نعش جول، فيليسيان في نعش إيزيدور، وهكذا دواليك.

حتّى نصل إلى الرقم مئتين وسبع وثلاثين.

وقد صار من المستحيل الآن معرفة من هو من...

- «مع ماذا تتوافق هذه البطاقات؟». تمتم سوفور بينيشو متلعثماً، وهو ينظر حوله كما لو كان فجأةً قد فقد اتّجاهه. لنذهب ونرى.

مرّت برأسه فكرة.

- تمام. لقد كنّا بصدد الاهتمام بذلك!

واستدار نحو فريقه الذي بدا عليه فجأة أنّه تقزّم.

- أليس كذلك يا شباب؟

لم يفهم أحدٌ ما كان يريد قوله، وما من أحدٍ خطر على باله أن يفكّر بذلك.

- «ها ها!». صرخ ميرلان: «تظنّ أنّها غبيّة؟».

- «من هي؟». سأله بينيشو.

- الحكومة.

كانت تبدو عليه هيئة المجنون، لكنّ بينيشو تردّد في أن يطلب منه ثانيةً أمر تكليفه.

- أين هم العسكر الثلاثة إذنْ؟ هه؟ والرجال الثلاثة الذين سيبقون عندك بعد أن تنتهي من العمل، أي اسم ستطلق عليهم؟

انطلق بينيشو في تفسيراتٍ تقنيّةٍ جدّيةٍ، بمعنى أنّه تم التوصّل إلى أنّه من الأفضل والأدق أن تُكتب البطاقات كلّها معاً بعد تشكيل صفٍّ كاملٍ من التوابيت من أجل وضع أرقامها على السجلّ؛ لأنّه إذا ما سُجّلت البطاقات...

- «حماقة!». قاطعه ميرلان.

بينيشو الذي ما كان يصدّق هو نفسه ما قال اكتفى بخفض رأسه. ومعاونه ربّت على جيب صدره.

في الصمت الذي تلا، تعرّض ميرلان لرؤيةٍ غريبةٍ عن امتدادٍ واسعٍ من القبور العسكريّة. عائلات هنا، وهناك تعتكف، أذرعها متدلية، وأكفّها مضمومة. ميرلان كان وحده من يرى، كأنّه أمام منظرٍ شفّافٍ، الجثامين تخفق تحت التراب، كما يسمع الجنود يصرخون بأسمائهم بصوتٍ يمزّق القلب...

أمّا الخراب الذي جرى حتّى الآن، فما عاد بالإمكان إصلاحه، وهؤلاء الجنود قد ضاعوا نهائيّاً، وتحت الصلبان المحدّدة بأسماءٍ ينام أمواتٌ مجهولون.

الشيء الوحيد الذي يمكن القيام به الآن هو إعادة الكرّة على نحوٍ أفضل.

أعاد ميرلان تنظيم العمل، وكتب تعليماتٍ بالحروف الكبيرة، وفعل كلّ ذلك بصوتٍ سُلطويٍّ وقاسٍ: تعالوا هنا، اسمعوني جيّداً. كان يهدّد بالملاحقة في حال جرى العمل على نحوٍ سيّئٍ، ويهدّد بغرامات، وبالفصل من العمل. بثّ الذعر لدى الجميع. وعندما كان يبتعد كان يمكن سماع كلمته واضحة تماماً: «هؤلاء الحمير».

لكنْ بمجرّد أن يدير ظهره كان كلّ شيءٍ يعود إلى سابق عهده، ولن ينتهي الأمر أبداً. وهذه الحقيقة، بدلاً من أن تثني عزيمته، كانت تضاعف غضبه.

- تعالوا هنا، أنت وهو، تحرّك!

كان يوجّه كلامه إلى الشارب المصفرّ من التنباك، وهو رجُلٌ في حيطان الخمسين من عمره، وجهه ضيّقٌ إلى درجة أنّ عينيه بدتا كأنّهما قد وضعتا فوق وجنتيه من كلّ جانب، كما عند الأسماك. كان يقف بلا حراكٍ على بعد أمتارٍ من ميرلان، وقد لجم حركة التربيت على جيب صدره، وفضّل أن يخرج سيجارةً جديدة.

ميرلان الذي كان يستعدّ للكلام توقّف لمدّةٍ طويلة. كان يشبه شخصاً يبحث عن كلمة، وهي موجودةٌ على طرف لسانه، شيء مزعج للغاية!

المعاون صاحب الشارب فتح فمه، لكنْ ما كان لديه زمن كافٍ ليصدر صوتاً واحداً حين جاء ميرلان وسدّد إليه صفعةً مجلجلة. على هذه الوجنة المسطّحة، رنّت الصفحة مثل ضربة جرس. تراجع الرجُل خطوةً. كانت كلّ النظرات موجّهة نحوهما. بينيشو الذي خرج من الكوخ حيث كان يخفي شرابه، وهو زجاجة من ماركة بورغونيا، صرخ بكلّ ما لديه من قوّة. جميع عمّال الورشة تحرّكوا، والرجُل ذو الشارب كان يمسك بخدّه، مصعوقاً. سرعان ما أحاط بميرلان قطيعٌ حقيقيٌّ، ولولا عمره، وشكله المدهش، والهيئة المترفعة التي اتّخذها من بداية التفتيش، ويداه الضخمتان، وحذاؤه المرعب، لكان عليه أن يقلق على مصيره. لكنّه بدل ذلك أزاح الجميع بثقة، ومشى خطوة. اقترب من ضحيّته، وفتّش جيب الصدر، وهو يصرخ: «ها ها!». وأخرج منها قبضته مغلقة. وباليد الأخرى التقط الرجُل من عنقه، وأراد أن يخنقه. كان ذلك واضحاً.

- «هيه أنت!». صرخ بينيشو بأعلى صوته، وقد أتى لتوّه، وهو يتعثّر.

بدون أن يترك عنق الرجُل الذي بدأ لونه يتغيّر، مدّ ميرلان قبضته المغلقة نحو رئيس الورشة، ثمّ فتحها.

كان فيها سوار على شكل سلسلةٍ من الذهب، صفيحتها مقلوبة على الجانب الخطأ. أفلت ميرلان فريسته الذي بدأ يسعل إلى درجة كاد يتقيّأ معها رئتيه، واستدار نحو بينيشو.

- «ما اسمه هذا الصبي؟». سأل ميرلان: «ما اسمه الأوّل؟».

- أوه...

سوفور بينيشو الذي كان مهزوماً ومستسلماً وجّه نحو معاونه نظرة أسف.

- «اسمه آلسيد». تمتم باعتذار.

كان ذلك بالكاد مسموعاً، لكن لم تكن لذلك أيّة أهميّة.

أدار ميرلان السوار كما لو كان قطعة عملةٍ لُعب بها «طرّة أو نقش».

على الصفيحة كان هناك اسم محفور: روجيه.

30

يا إلهي، ما هذا الصباح! ليت بقيّة الأيّام تكون كذلك! يبدو من البداية أنّ كلّ شيء سيكون على ما يرام.

أوّلاً: هناك الأعمال؛ خمسة مشاريع قُبلت من قِبل اللّجنة. كلّ واحد منها أجمل من الثاني. روعة! الوطنيّة مكثّفة. شيء يجعل الدموع تنفر من عينيك. وهكذا استعدّ لابوردان للانتصار عند تقديم المشاريع للرئيس بيريكور. لتحقيق ذلك كلّف أقسام التقنيّات في البلديّة بتنفيذ رواقٍ من الحديد المشغول تتناسب أبعاده مع مقاييس مكتبه الكبير لكي يعلّق عليه الرسومات، ويبرزها بما يشبه تماماً ما رآه في معرضٍ في الغران باليه حيث ذهب مرّة. هكذا يستطيع بيريكور أن يتنقّل بحريّةٍ بين العلب الكرتونيّة ماشياً ببطءٍ، عاقداً ذراعيه وراء ظهره، ليعبّر عن انبهاره أمام هذه الرسمة (فرنسا دامعة، لكنّها منتصرة)، وهي المفضلة عند لابوردان؛ ومتفحّصاً تلك (الأموات المنتصرون) ثمّ يتوقّف متردّداً. كان لابوردان يكاد يرى الرئيس يستدير نحوه مُعجباً ومُحرجاً لا يعرف أيّها يختار... عندها يمكن له أن يتلفّظ بجملته التي وزَنها، وعيّرها، وقاسها. جملة إيقاعها ممتاز، تؤكّد في الوقت نفسه ذوقه في مجال الجماليّات، وحسّ المسؤوليّة لديه.

- سيّدي الرئيس، إن كنت تسمح لي...

وهنا، يمكن له أن يقترب من فرنسا الدامعة، كما لو كان يريد أن يضع يده على كتفها مواسياً.

-... يبدو لي أنّ هذا العمل البارع يترجم على نحوٍ كاملٍ كلّ الألم والكبرياء اللّذَين يرغب مواطنونا بالتعبير عنهما.

الحروف الكبيرة التي تبدأ بها الأسماء العظيمة تشكّل جزءاً لا يتجزّأ من جملته. شيء لا غبار عليه. في البداية هناك «هذا العمل البارع»، أين وجد هذه الكلمة؟ ثمّ «مواطنونا»، الكلمة ترنّ في الأذن أفضل من كلمة «ناخبونا»، ثمّ «الألم». ظلّ لابوردان مذهولاً أمام عبقريّته الخاصّة في اختيار الكلمات.

قرابة العاشرة، وبعد أن رُكّب الرواق في مكتبه، جرى البدء بتعليق الأعمال عليه. كان لا بدّ من الزحف من أجل تثبيت الأعمال على العارضة المائلة، وجعلها تتوازن. استُدعيت الأنسة ريمون لتنفيذ ذلك.

بمجرّد دخولها إلى الغرفة، فهمت ما يُنتظر منها. على نحوٍ غريزيٍّ ضمّت ركبتيها. كان لابوردان عند أسفل السلّم القصير، وابتسامته على شفاهه، يفرك يديه مثل تاجر ممنوعات.

صعدت الأنسة ريمون الدرجات الأربع، وهي تتنهّد، وبدأت تتلوّى. أجل، أيّ صباح رائع! بمجرّد قيامها بتعليق العمل، نزلت السكرتيرة بسرعة، وهي تمسك بتنّورتها. تراجع لابوردان لكي يتأمّل النتيجة بإعجاب. تهيّأ له أنّ الزاوية اليمنى منخفضة قليلاً بالنسبة إلى الزاوية اليسرى. هل ترين ذلك؟ أغلقت الأنسة ريمون عينيها وصعدت. سارع لابوردان نحو الدرج. لم يحصل أن أمضى زمناً أطول تحت تنّورتها. عندما صار كلّ شيء في

موضعه، كان رئيس البلديّة في حالة انتصابٍ دائمٍ قرّبته من الجلطة الدماغيّة.

لكن دججج! على الرغم من جميع الاستعدادات، انهار كلّ شيء؛ فقد أعلن الرئيس بيريكور إلغاء زيارته، وأرسل مراسلاً مكلفاً بنقل الاقتراحات المرسلة إلى عنده. «هذا التعب كلّه راح سُدى». قال لابوردان لنفسه. راح بعربته وراء الصور، لكنْ على العكس ممّا كان ينتظر، لم يُقبل في المباحثات. مارسيل بيريكور يريد أن يبقى وحْده. كانت الساعة تقارب الثانية عشرة ظهراً.

- أحضروا شيئاً يؤكل للسيّد رئيس البلديّة.

ركض لابوردان نحو الخادمة الشابّة، التي كانت سمراءَ، قصيرةً، رائعةً، ترتبك بسرعةٍ، ولها عينان رائعتان، وصدرٌ جميلٌ قاس. سألها إن كان يستطيع أن يحصل على نقطة بورتو، قال ذلك، وهو يداعب ثديها الأيسر. اكتفت الصبيّة بأن احمرّ وجهها؛ لأنّ وظيفتها كانت مدفوعة على نحوٍ جيّد، وهي جديدة في المكان. هجم لابوردان على الثديّ الأيمن عند وصول البورتو.

يا إلهي، ما هذا الصباح!

اكتشفت مادلين رئيس البلديّة، وهو يشخر مثل كور الحداد. كان جسده الضخم مستلقياً باسترخاءٍ، وبالقرب منه على الطاولة المنخفضة، تضاريس دجاجةٍ مطبوخةٍ بالمرق المجمّد كان قد التهمها كلّها، وزجاجة فارغة من نبيذ شاتو مارغو، ما أعطى للمشهد هيئة إهمالٍ بذيءٍ ومزعج.

دقّت بصوتٍ خافتٍ على باب أبيها.

- «ادخلي». أجاب بدون تردّد؛ لأنّه كان دائماً يحزر أنّها هي من طريقتها في التصرّف.

كان مسيو بيريكور قد أسند الرسومات إلى رفوف المكتبة، ثمّ أبعد قطع الأثاث داخل الغرفة لكي يستطع أن يرى من أريكته جميع الرسومات معاً. لم يكن قد تحرّك منذ ما يقارب الساعة، ونظره ينتقل من رسمةٍ إلى أُخرى، وهو سارحٌ في أفكاره. من وقتٍ إلى آخر، كان ينهض. يقترب. يراقب تفصيلاً، ويعود إلى مكانه.

في البداية شعر بخيبة الأمل. هذا فقط؟ كان ذلك يشبه كلّ ما يعرفه من قبل، لكنْ بحجمٍ أكبر. لم يستطع أن يمتنع عن تفحّص الأسعار، وعقله الذي يحسب قارن الحجوم مع الأسعار. هيّا، يجب أن نركّز، وأن ننتقي. لكنْ نعم، مخيّب للأمل. كانت لديه فكرة أُخرى تماماً عن هذا المشروع. الآن، وهو يرى الاقتراحات... ما الذي كان ينتظره منها إذنْ؟ هو في النهاية صرحٌ مثل غيره، لا شيء ممّا يمكن أن يهدّئ الانفعالات الجديدة التي كانت تجتاحه بدون توقّف.

لم تتفاجأ مادلين، وشعرت بالانطباع نفسه. كلّ الحروب تتشابه، كلّ الصروح أيضاً.

- «ما رأيك؟». سألها.

- أجد أنّه... طنّان، لا؟

- نعم، فيه غنائيّة مفرطة.

ثمّ سكتا.

ظلّ مسيو بيريكور في أريكته، مثل ملكٍ يهيمن بعرشه على أفراد حاشيته الميّتين. تفحّصت مادلين المشاريع. اتّفقا على أنّ الأفضل بينها

هو مشروع أدريان مالاندريه، انتصار الشهداء الذي كان يتميّز بأنّه يجمع ما بين الأرامل (الأرملة ترتدي وشاح الحداد) والأيتام (صبيّ صغير بيدين مضمومتين ينظر إلى الجنديّ، وهو يصلّي)، والجنود أنفسهم. وقد صوّر الفنّان جميع هؤلاء كضحايا. تحت مقصّه، كانت الأمّة بأسرها قد أصبحت وطناً شهيداً.

- «كلفة هذا مئة وثلاثون ألف فرنك». قال مسيو بيريكور.

كان ذلك أقوى منه.

لكنّ ابنته لم تسمعه. ها هي الآن منكبّة على تفصيلٍ موجودٍ في عملٍ آخر. أمسكت الورقة بيدها، ورفعتها نحو الضوء. اقترب والدها، لم يحبّ هذا المشروع «عرفان»، ولا هي أحبّته. وجدته يتّسم بالمغالاة: لا، ما يوجد فيه... إنّه غبيّ، كلام فارغ! لكنْ... ماذا إذن؟ هناك، في جزء الثلاثيّة المعنون بـ«جنود شجعان يسدّدون على العدوّ»، في المستوى الثاني، الجنديّ الشابّ الذي يكاد يموت له وجه نقي، بشفاهه المزمومة، وأنفه الناتئ...

- «انتظري». قال مسيو بيريكور: «دعيني أرى»، انكبّ بدوره وراقب عن كثب: «هذا صحيح. معك حق».

هذا الجنديّ كان يشبه قليلاً الشباب الذين يجدهم أحياناً في أعمال إدوار. لم يكن تماماً مثلهم، فعند إدوار الشخصيّات لها نظرة حولاء بعض الشيء، وليس تلك النظرة المستقيمة والصريحة، وغمّازة على الذقن، لكنْ يوجد نوع من التشابه.

وقف مسيو بيريكور وثنى نظّارته.

- في الفنّ، غالباً ما نرى المواضيع نفسها.

كان يتكلّم كأنّه يفهم بالفنّ. مادلين التي كانت لديها ثقافة أوسع لم ترد أن تعارضه. في نهاية الأمر لم يكن ذلك سوى تفصيل، ولا شيء أساسي. ما يحتاج إليه أبوها هو أن يشيّد الصرح الذي يرغب به ليهتمّ بعدها بأشياء أُخرى؛ بحمل ابنته على سبيل المثال.

- «صديقك الغبيّ لابوردان ينام في غرفة الانتظار». قالت، وهي تبتسم.

كان قد نسيه.

- «دعيه ينَمْ». أجاب: «هذا أفضل ما يمكن له القيام به».

قبّلها من جبهتها. اتّجهت نحو الباب. من بعيد بدت المشاريع المصفوفة مهيبة. يتخيّل الإنسان الحجم الذي ستأخذه. اكتشفت المقاييس: اثنا عشر متراً، ستّة عشر متراً، والارتفاعات...!

وهذا الوجه، يا إلهي!

حين صار مسيو بيريكور وحْده، عاد إلى الرسمة. حاول أن يجد الوجه في دفتر رسومات إدوار، لكنّ الرجال الذين كان ابنه قد رسمهم بسرعةٍ لم يكونوا مجرّد شخصيّاتٍ ومواضيع للرسم؛ كانوا رجالاً حقيقيّين التقى بهم في الخنادق؛ أمّا ذلك العسكريّ الشابّ بشفاهه الممتلئة، فقد كان شخصيّةً تحوّلت في الرسم إلى مثالٍ نموذجيّ. امتنع مسيو بيريكور دائماً عن أن تكون له رؤية دقيقة فيما يتعلّق بما يُطلق عليه «الذائقة العاطفيّة» لدى ابنه. حتى في قرارة نفسه، لم يفكّر قطّ بوضوح بـ«ميوله الجنسيّة»، أو أيّ شيء آخر من هذا القبيل، شيء محدّد جدّاً، وصادم. لكنْ كما يحصل مع تلك الأفكار التي تبدو لك مذهلة، لكنّك تفهم أنّها قد تفاعلت في داخلك لمدّةٍ طويلةٍ قبل أن تنبثق، تساءل مسيو بيريكور إن لم يكن هذا الشابّ الذي

في عينه حَوَل وغمّازة في الذقن صديقاً لإدوار، بل إنّ ذهنه كان أكثر دقّةً وتحديداً: ليس صديقاً، بل حبيباً لإدوار. لم تبدُ له الأمور فضائحيّة كما كان يشعر بها من قبل. مربكة فقط. لم يرد أن يتخيّل... ما كان يجب أن يكون ذلك واقعيّاً... ابنه لم يكن «مثل الآخرين» وهذا كلّ شيء. الرجال مثل الآخرين، كان يراهم حوله. موظّفون، مساعدون، زبائن، أبناء وأشقّاء الآخرين. ما عاد يحسدهم كما كان يفعل من قبل، حتّى إنّه لم يعد يتذكّر المزايا التي كان يجدها لديهم في تلك الفترة، ولا ما كان في نظره يجعلهم متفوّقين على إدوار. في أثناء تذكّره لذلك كره نفسه بسبب حماقته.

جلس مسيو بيريكور من جديد أمام معرض الرسومات. راحت الفكرة في ذهنه تتغيّر شيئاً فشيئاً. ليس لأنّه قد وجد لهذه المشاريع مزايا جديدة، فهو ما يزال يجدها توضيحيّة زيادة عن اللزوم. ما تغيّر هو نظرته، كما يحصل حين يتطوّر شكل إدراكنا لوجه ما كلّما تأمّلناه أكثر، أو لتلك المرأة التي وجدناها جميلة قبل قليلٍ، وتحوّلت إلى عاديّة؛ أو لهذ الرجُل البشع الذي نكتشف لديه سحراً نتساءل كيف لم نره من قبل. الآن، وقد تعوّد على هذه الصروح، صارت تبثّ فيه الهدوء. مادّتها هي السبب؛ فبعضها من الحجارة، وبعضها من البرونز، وهي موادّ ثقيلة نتخيّل أنّها لا تفنى. هذا بالذات ما كان ينقص في قبر العائلة حيث لا يوجد اسم إدوار: الإيهام بالخلود. كان من الضروريّ بالنسبة إلى مسيو بيريكور أن يرى أنّ هذا الصرح الذي كلّف بتشييده يتجاوزه ويتجاوز وجوده زمنيّاً، بالوزن، بالكتلة، بالحجم، وأنّه أقوى منه، وأنّه يعيد حزنه إلى أبعادٍ عاديّة.

كانت العروض مرفقةً بملفّات تقديمٍ تحتوي على السيرة الذاتيّة للفنّانين، والأسعار، والجدول الزمنيّ للتنفيذ. قرأ مسيو بيريكور رسالة تقديم مشروع جول ديبرومون، ولم يفده ذلك في شيء، لكنّه تصفّح جميع

الرسوم الأُخرى التي يمكن فيها رؤية العمل من الجانب، ومن الوراء، وبالمنظور، وفي محيطه العمرانيّ... الجنديّ الشاب في الصعيد الثاني كان دائماً هناك، بوجهه الجديّ... كان ذلك كافياً. فتح الباب، ونادى، بلا جدوى.

- «لابوردان، يا إلهي!». صرخ منزعجاً، وهو يهزّ رئيس البلديّة من كتفه.

- هه، ماذا. من؟

كانت عيناه مغلّفتين بالعمش، وبدا عليه أنّه لا يتذكّر المكان الذي هو فيه، ولا ما يفعله هناك.

- «تعال». قال مسيو بيريكور.

- أنا؟ إلى أين؟

مشى لابوردان متأرجحاً حتّى المكتب، وهو يفرك وجهه لكي يستعيد رشده، وراح يتمتم متلعثماً باعتذاراتٍ لم ينصت إليها مسيو بيريكور.

- هذا.

بدأ لابوردان يتمالك نفسه. فهم عندها أنّ المشروع الذي قبله مسيو بيريكور لم يكن ذلك الذي كان يمكن أن ينصح به، لكنّه قال لنفسه: إنّه في نهاية الأمر يمكن أن تصلح جملته لجميع الأوقات. تجشّأ:

- «أيّها الرئيس». قال: «إن كنت أسمح لنفسي...».

- «ماذا؟». قال بيريكور بدون أن ينظر إليه.

كان قد أعاد وضع نظّاراته، وراح يكتب، وهو واقف في زاويةٍ من مكتبه، راضياً عن قراره، وشاعراً بأنّه قد أنجز شيئاً يمكن له أن يفخر به، شيئاً جيّداً بالنسبة له.

تنفّس لابوردان نفساً عميقاً ونفخ صدره.

- هذا العمل، أيّها الرئيس، يبدو لي أنّ هذا العمل الضخم...

- «خُذ». قاطعه بيريكور: «هاك شيكاً لكي تبدأ المشروع والأعمال التمهيديّة. خُذ كلّ الضمانات الممكنة تجاه الفنّان بالطبع، وأيضاً تجاه الشركة التي سوف تقوم بالتصنيع، وابعث الملف إلى المحافظ. وإن كانت هناك أدنى مشكلة، اتصل بي وسأتدخّل. أي شيء آخر؟».

التقط لابوردان الشيك. لا، لم يكن هناك شيء آخر.

- «آه». قال مسيو بيريكور: «أريد أن ألتقي بالفنّان هذا الـ... (بحث عن الاسم) جول ديبرومون. أحضره لي».

31

لم يكن جوّ البيت ملائماً للفرح الفائض، إلّا بالنسبة إلى إدوار، لكنّ إدوار كان أصلاً لا يتصرّف مثل البقيّة على الإطلاق. فمنذ أشهرٍ، وهو يتسلّى كلّ الوقت، ومن المستحيل جعله يتعقّل كما لو أنّه لا يفهم خطورة ما يحصل. لم يرغب ألبير بأن يفكّر كثيراً بالمورفين الذي صار يستهلكه بكميّاتٍ لم يسبق لها مثيل، لا يمكن أن تكون عينك متنبّهة لكلّ شيء، ولديه هو نفسه حتّى الآن ما يكفي من المشكلات التي لا يمكن حلّها. كان قد فتح منذ وصوله إلى البنك الذي يعمل فيه حساباً باسم شركة «الذكرى الوطنيّة» لقبض الأموال التي تصل.

ثمانية وستّون ألفاً ومئتان وعشرون فرنكاً؛ تلك نتيجة جميلة بحق.

أربعة وثلاثون ألفاً لكلّ واحد.

لم يمتلك ألبير قطّ حتّى الآن كلّ هذا القدر من الأموال. لكنْ يجب مقارنة الفوائد بالمخاطر، فمن الممكن أن يُحكم عليه بثلاثين سنة سجنٍ لكونه سرق ما يعادل أقلّ من خمس سنوات من معاش عامل. كان ذلك مضحكاً. كنّا في الخامس عشر من يونيو. وعرض التخفيضات الكبير على نصب الأموات التذكاريّة ينتهي خلال شهر، بدون أي شيء، أو هكذا تقريباً.

- «كيف بدون أي شيء؟». كتب إدوار.

في ذلك اليوم، وعلى الرغم من الحرّ، كان يرتدي قناع زنجيٍّ مرتفعاً جدّاً يغطّي رأسه بالكامل. وفي أعلى الجمجمة يجثم قرنان ملفوفان على بعضهما مثل قرون التيس. عند نقطة الدمع يوجد خطّان منقّطان لونهما أزرق شبه فوسفوري، ينزلان مثل دموع فَرِحَة حتّى الذقن الملوّن بألوانٍ صارخةٍ، والذي ينفتح على شكل مروحة. كلّ شيء مدهون بألوانٍ عاجيّةٍ، وصفراء، وحمراء لمّاعة. هناك أيضاً عند حدود الجبهة وغطاء الرأس ثعبانٌ صغيرٌ مخمليٌّ يتلوّى على نحوٍ دائريّ، ولونه أخضر غامق، يبدو حقيقيّاً إلى درجةٍ يمكن معها الظنّ بأنّه ينزلق ببطءٍ في حركةٍ مستمرّةٍ حول رأس إدوار كما لو كان يعضّ ذيله. القناع الملوّن الصارخ والفَرِح يتناقض تماماً مع نفسيّة ألبير الذي كانت تلوّناته بالأسْود والأبيض، وفي أغلب الأوقات بالأسْود.

«آه لا، لا شيء!». صرخ بأعلى صوته، وهو يمدّ الحسابات إلى صديقه.

- «انتظر!». أجاب إدوار كالعادة.

أمّا لويز، فقد اكتفت بخفض رأسها قليلاً. كانت يداها في عجينة الورق تدعكها بلطفٍ تحضيراً للمادّة التي ستُستخدم للأقنعة القادمة. نظرت إلى الوعاء المبطّن بالمينا بنظرةٍ ساهمةٍ غير مهتمّةٍ بالصرخات العالية. قد سمعت الكثير منها مع هذين الرجُلين...

كانت حسابات ألبير دقيقة: سبعة عشر صليباً، أربعة وعشرون مشعلاً، أربعة عشر تمثالاً نصفيّاً، وكلّها أشياء لا تفيد في شيء؛ أمّا بالنسبة إلى الصروح، فتسعة فقط! وإن كان ذلك صحيحاً.. فبالنسبة إلى اثنين من الصروح، لم تدفع البلديّات سوى ربع الوديعة بدلاً من النصف، وطلبت

مهلةً من أجل ما تبقّى من الفاتورة. طُبِعَ ثلاثة آلاف وصل من أجل تأكيد استلام الطلبيّات، ولم يكتب منها سوى ستّين فقط...

رفض إدوار أن يترك البلاد قبل أن يلمس المليون بيده. ولم يكن لديهما عُشْر هذا المبلغ.

وفي كلّ يوم، تقترب اللّحظة التي سيُكتشَف فيها النصب والاحتيال، بل ربّما أنّ الشرطة قد بدأت بالفعل تحقيقاتها حول الموضوع. الذهاب للبحث عن الرسائل في مركز بريد اللوفر كان يثير لدى ألبير ارتعاداً وبروداً كالثلج على طول سلسلة فقرات ظهره. لعشرين مرّة، أمام العلبة المفتوحة، كاد يبول في بنطاله عندما يرى شخصاً يمشي باتّجاهه.

- «بكلّ الأحوال». قال لإدوار: «أنت لا تصدّق أيّ شيءٍ لا يناسبك!».

ألقى دفاتر الحسابات على الأرض ولبس معطفه. استمرّت لويز في دعك عجينتها. مال إدوار برأسه. في كثير من الأحيان ينفجر ألبير بغضبٍ مسعورٍ، ولأنّه غير قادرٍ على التعبير عن المشاعر التي تخنقه، كان يترك الشقّة ولا يعود إلّا في وقتٍ متأخّرٍ من الليل.

هذه الشهور الأخيرة أرهقته بالفعل. في البنك، يظنّون أنّه مريض. لم يكن ذلك يُدهشهم؛ فلكلّ واحدٍ من المحاربين القدماء نُدبه، لكنْ يبدو أنّ الصدمة التي تلقّاها ألبير أقوى من غيرها. فهذه العصبيّة الدائمة، وردود الأفعال المذعورة تلك... وبما أنّه كان مع ذلك زميلاً لطيفاً، فقد راح كلّ واحدٍ يعطيه نصيحة: مساج لقدميك يفيدك كثيراً. تناول اللّحم الأحمر. هل جربت مغليّ زهور البابونج؟ أمّا هو، فكان يكتفي بأن ينظر إلى نفسه في المرأة في الصباح، وهو يحلق ذقنه، وأن يكتشف بأنّ لديه رأس شخصٍ خرج لتوّه من الردم.

في تلك الأثناء، كان إدوار يطقطق بالآلة الكاتبة، وهو يقرقر من المتعة.

لم يكن الرجُلان يعيشان الشيء نفسه. فاللحظة المنشودة التي سيتحقّق فيها نجاح مشروعهما المجنون، التي طال انتظارها، والتي كان يجب أن تكون لحظة تماهٍ، وثمالةٍ مشتركةٍ، ونجاحٍ، ها هي على العكس تفرّق بينهما.

إدوار الذي كان يعيش دائماً فوق الغيوم، غير مبالٍ بالنتائج، ولا يشكّ أبداً بإمكانيّة النجاح، كان يبتهج، وهو يجيب على الرسائل التي تصل. يسعده أن يقلّد على نحوٍ ساخرٍ الأسلوب الإداريّ- الفنيّ الذي تصوّر أنّه يمكن أن يكون أسلوب جول ديبرومون، في حين أنّ ألبير الذي تآكل من الجزع، ومن الأسف، وأيضاً من الضغينة، كان يزداد نحولاً على نحوٍ ملحوظٍ حتّى صار كأنّه ظلّ نفسه.

كان يلتصق بالجدران أكثر من ذي قبل، وينام على نحوٍ سيّئ، ويده تحت رأس الحصان الذي ينقله معه من مكانٍ إلى آخر داخل البيت. ولو كان ذلك بمقدوره لكان ذهب إلى العمل، وهو يرتديه؛ لأنّ فكرة أن يذهب في الصباح إلى البنك كانت تقلب معدته، وحصانه يمثل الحماية الأخيرة. كان ملاكه الحارس. كان قد اختلس ما يقارب خمسة وعشرين ألف فرنك، لكنْ بفضل الأقساط الأولى الآتية من البلديّات، وكما وعد نفسه على الرغم من اتّهامات إدوار، فقد سدّد على نحوٍ كاملٍ صاحب عمله. كان عليه مع ذلك أن يركض بلا هوادةٍ من أمام المفتّشين والمحقّقين؛ لأنّ تزوير الخطّ ما يزال موجوداً، ويثبت أنّه كان هناك اختلاس. كان يضطرّ دائماً أن يقوم باختلاساتٍ جديدةٍ لكي يغطّي القديمة. وإذا ما أُربِكَ، سيجري التحقيق، وسيُكتشف كلّ شيء... يجب عليه أن يرحل مع ما

يتبقّى بعد تسديد مبلغ البنك: عشرون ألفاً لكلٍّ منهما. ألبير الذي تزعزع اكتشف الآن كم صار يخضع بسهولةٍ إلى تأثير الذعر بعد هذا اللّقاء غير المنتظر، والمؤلم مع اليوناني. «هكذا هو ألبير، تماماً!»، كان يمكن أن تقول مدام مايار لو عرفت بالقصة: «لأنّه شديد الخوف بطبيعته، نراه يختار دائماً الحلول الأقلّ جرأة».

ستقولون لي: «لا شكّ في أنّ هذا ما جعله يعود من الحرب كاملاً سالماً، لكنْ في وقت السلم، هو أمرٌ مؤلم. إن وجد امرأةً في يومٍ من الأيّام، يجب على هذه المسكينة أن تكون أعصابها متينة...».

طرد ألبير صورة أمّه التي ما زال يجهل اسمها الأوّل. «إن وجد امرأة في يوم من الأيّام...». راح يفكّر ببولين، وفجأة شعر بالرغبة في أن يهرب وحده، وبأن لا يرى أحداً بعدها أبداً. عندما يتخيّل مستقبله فيما لو قُبض عليهما، ينتابه حنينٌ عجيبٌ وفاسدٌ إلى بعض اللحظات في الجبهة، التي مع مرور الزمن، ومقارنة مع جميع المشكلات التي حملها السلام معه، تبدو له الآن فترةً شبه سعيدةٍ، تماماً كما تصبح حفرة القذائف ملجأً شبه مرغوبٍ عندما ينظر إلى رأس الحصان.

يا للفوضى! كلّ هذه القصّة...

مع ذلك، كلّ شيء بدأ على نحوٍ جيّد. وبمجرّد أن وصل الكاتالوغ إلى البلديّات، بدأت تنهال الأسئلة طلباً للمعلومات. اثنتا عشرة رسالة، عشرون، خمس وعشرون رسالة في بعض الأيّام. كان إدوار يكرّس لها كلّ وقته، ويظهر عليه أنّه لا يتعب.

عندما يصل البريد، يطلق صرخاتٍ من الفرح، ويضع في الآلة الكاتبة ورقة فيها ترويسة تحمل اسم «الذكرى الوطنيّة»، ثمّ يضع قطعة الترومبيت

التي في أوبرا عايدة على الغرامافون، ويرفع الصوت، ويرفع إصبعه في الفراغ كما لو كان يبحث عن مصدر الهواء، وينكبّ على لوحة المفاتيح برضا، مثل عازف بيانو. لم يكن قد تخيّل تلك المسألة من أجل المال، إنّما لكي يعيش هذا الفرح، هذه المتعة الحسيّة التي يثيرها الاستفزاز الذي لا يصدّق. هذا الرجُل الذي فقد وجهه كان يوجّه للعالم حركة استهزاءٍ وسخريةٍ هائلة. يولّد لديه ذلك سعادةً مجنونةً، ويساعده أن يعيد الربط مع كلّ ما كانه من قبل، وكلّ ما كاد أن يفقده.

جميع طلبات الزبائن تقريباً كانت تتعلّق بالأشياء العمليّة: طريقة التثبيت، الضمانات، كيفيّة التغليف، المعايير التقنيّة التي يجب أن تخضع لها القاعدة... تحت ريشة إدوار، كان جول ديبرومون يجد جواباً لكلّ شيء. كان يصوغ رسائل فيها معلومات دقيقة تعطي انطباعاً مطمئناً للغاية وشخصيّاً. رسائل توحي بالثقة. أعضاء المجالس المحليّة، أو معاونو رؤساء البلديّات، كانوا يفسّرون دائماً مشاريعهم، ما يجعلهم يسلّطون الضوء بدون أن يعرفوا على البعد غير الأخلاقي لهذا الاحتيال؛ لأنّ الدولة لا تسهم في شراء هذه الصروح إلّا على نحوٍ رمزيّ، و«بما يتناسب مع الجهود والتضحيات التي تعترف بها المدن من أجل تمجيد... إلخ». جمعت البلديّات ما تستطيع جمعه، ولم يكن غالباً شيئاً يُذكر، وبذلك فإنّ الجزء الأهم يتأتّى من... من الاكتتاب الشعبيّ. هناك أفرادٌ، ومدارسُ، وكنائسُ، وعائلاتٌ بأكملها تقوم بتبرّعاتٍ ماليّةٍ من أجل أن يُحفر اسم الأخ، أو الابن، أو الأب، أو ابن العمّ على جدار صرح تذكاريّ ينتصب وسط قريةٍ، أو إلى جانب كنيسةٍ، ويبقى هناك إلى الأبد حسب ما كانوا يعتقدون. وأمام صعوبة جمع المبالغ بسرعةٍ كافيةٍ من أجل الاستفادة من التخفيض الاستثنائيّ الذي تقترحه شركة «الذكرى الوطنيّة»، وصلت

رسائل تطلب اتّفاقات، أو تعديلات فيما يتعلّق بالشروط. هل من الممكن «اختيار نموذج من البرونز إذا كانت الدفعة المسبقة ستمئة وستّين فرنكاً فقط؟». «يشكّل ذلك أربعاً وأربعين بالمئة من الدفعة بدلاً من الخمسين بالمئة المطلوبة». «ولعلمكم فإنّ الأموال المطلوبة تصل إلينا ببطء. ليس هناك من شكّ في أنّنا سنسدّد كلّ شيء في المدّة المحدّدة للتسليم، ونحن نتعهّد بذلك». أو تأتي شروحات من نوع: «لقد حُشد تلاميذ المدارس من أجل جمع التبرّعات من السكّان»، أو «إنّ السيّدة دو مارسانت ترغب بأن تهب المدينة جزءاً من ثروتها بعد رحيلها، لا سمح الله. هل يمكن عدّ ذلك ضمانة مقبولة من أجل شراء صرحٍ جميلٍ لمدينة شافي - سور- سون التي فقدت ما يقارب خمسين شابّاً، وعليها أن تكفل حياة عشرين يتيماً؟».

الموعد النهائي المحدّد في 14 يوليو الذي اقترب أخاف كثيرين. هناك بالكاد ما يكفي من الزمن لمشاورة مجلس البلديّة، لكنّ العرض شديد الجاذبيّة!

إدوار جول ديبرومون، كسيّدٍ نبيلٍ، كان يمنح السائلين كلّ ما يطلبونه: حسومات استثنائيّة، مُهَلاً إضافيّةً، لا توجد أيّة مشكلة.

كان يبدأ عادةً بمديح محدّثه على نحوٍ حارٍّ مهنّئاً إيّاه على اختياره الممتاز، سواء كان يريد اقتناء «إلى الهجوم!» أم مجرّد مشعل جنائزيّ، أو «الديك يهرس بقدميه خوذة البوش». ثمّ يعترف له على نحوٍ خفيٍّ أنّه هو أيضاً يفضّل هذا النموذج. كم يحبّ هذه اللحظة من الاعتراف المغرور الذي يضع فيه كلّ السخافة التي كان يراها لدى أساتذة الفنون الجميلة الممتلئين بالرضا والتصنّع!

أمّا فيما يتعلّق بالمشاريع المركّبة (على سبيل المثال: عندما يُقترح

المزاوجة بين «انتصار» وبين «جنديّ يموت، وهو يدافع عن العلم»، كان جول ديبرومون يقول: إنّه دائماً متحمّس، ولا يتردّد في تهنئة مراسله على رهافة مقاربته الفنيّة، ويعترف أنّه هو نفسه قد تفاجأ بما في هذا الجمع من ابتكارٍ وحُسن ذائقة). كان يبدو حسب الحاجة متفهّماً على المستوى الماليّ، وكريماً على مستوى فهم مشاعر الناس، وتقنيّاً ممتازاً يعرف على نحوٍ كاملٍ خبايا مهنته ويتحكّم بها. لا، كما كان يؤكّد. لا توجد مشكلة في الطلاء بطبقة من الإسمنت. أجل، يمكن أن تُصمّم القاعدة بقطع الآجُرّ على الطريقة الفرنسيّة، أجل، لا شكّ، بالجرانيت أيضاً، تماماً، وأكيد أنّ جميع نماذج «الذكرى الوطنيّة» قد جرت الموافقة عليها، لا بل إنّ الترخيص الذي يحمل ختم وزارة الداخليّة سيكون مرفقاً بالعمل عند التسليم. أيّ مثالٍ عن الصعوبات الممكنة كان يجد تحت ريشته حلاً بسيطاً، وعمليّاً، ومريحاً. كان يذكّر من يكتبون له، وبكلّ دماثةٍ، بقائمة القطع الضروريّة من أجل الحصول على تمويل الدولة القليل (مباحثات مجلس البلديّة، رسم تخطيطي للصرح، رأي اللجنة المسؤولة عن الطابع الفنيّ، حساب تقريبي للنفقات، تحديد الطرق والوسائل)، كما كان يعطي بعض النصائح في تلك المسألة ويحرّر إيصالاً رائعاً بالطلبيّة لا يصبح نافذاً إلّا عند دفع الوديعة.

هذه اللّمسة الأخيرة تستحقّ وحْدها أن توضع في سجلّ تاريخ عمليّات الاحتيال المثاليّة، ففي نهاية الرسائل يكتب إدوار: «إنّني لمعجبٌ بتميّز ذائقتكم، وببراعة التركيبة التي اخترتموها». ثمّ يلجأ إلى صيغ الإطناب التي تعبّر عن تردّده، وعن خشيته، مع تعديل المقطع بحيث يتناسب مع جميع التركيبات المطلوبة، فيكتب: «ونظراً إلى أنّ مشروعكم يجمع ما بين الذوق الفنيّ الرفيع، وبين المعاني الوطنيّة السامية، فقد ارتأينا أن نوافق على

منحكم إضافةً إلى الحسم الذي قدّمناه هذه السنة، تخفيضاً إضافيّاً يصل إلى 15%. وبما أنّ هذا الحسم الذي نمنحكم إيّاه أمرٌ استثنائيٌّ (أناشدكم ألّا تذيعوه!) فإنّي أرجو منكم أن تسدّدوا الوديعة الأصليّة بكاملها».

في بعض الأحيان، يتأمّل إدوار بإعجابٍ الورقة التي يكتبها، والتي يحملها في طرف ذراعه؛ ويعبّر عن ذلك بإطلاقه قرقرةً تعبّر عن الرضا. هذه المراسلات الكثيرة التي تشغل جلّ وقته كانت تؤذن حسب تعبيره بنجاح العمليّة. استمرّت الرسائل تتوافد ولم تكن علبة البريد تفرغ منها.

أمّا ألبير، فكان من جهته يتذمّر، وكان يسأل إدوار:

- ألست تبالغ قليلاً؟

كان يتخيّل بسهولةٍ إلى أيّة درجةٍ كلّ هذه الرسائل الممتلئة بالرحمة تزيد من التّهم التي ستوجّه إليهما فيما لو أوقِفا.

أمّا إدوار، فكان يقوم بحركةٍ ملكيّةٍ تظهر أنّه نبيلٌ رفيع الشأن.

- «لكن متعاطفين يا عزيزي». خربش على الورق مجيباً عن سؤال ألبير: «لا يكلّفنا ذلك شيئاً، وهؤلاء الناس يحتاجون إلى التشجيع. إنّهم يسهمون في عملٍ رائع! الحقيقة أنّهم أبطال، لا؟».

ألبير كان مصدوماً قليلاً. إطلاق صفة الأبطال بنوع من الهزء على أشخاص يكتتبون على صرحٍ تذكاريّ...

سحب إدوار قناعه فجأةً، وعرض وجهه. هذا الثقب الواسع والوحشيّ الذي تعلوه نظرة تحدّق فيك، وتبدو كأنّها الأثر الوحيد الحيّ والإنسانيّ في ذلك الوجه.

ما عاد ألبير يراها كثيراً، بقايا الوجه المرعبة هذه لأنّ إدوار كان ينتقل بدون توقّف من قناعٍ إلى آخر، بل ويحصل له أحياناً أن ينام بقسمات

محاربٍ هنديٍّ، أو طائرٍ أسطوريٍّ، أو حيوانٍ متوحّشٍ ومرح. ألبير الذي اعتاد أن يستيقظ كلّ ساعة كان يقترب منه بحذر مثل أبٍ شابٍّ، فيخلع عنه قناعه. في عتمة الغرفة، كان ينظر عندها إلى رفيقه ينام، ويثير انتباهه ذلك الشبه المرعب بين بقايا هذا الوجه، وبين الرخويّات رأسيّات الأرجُل.

خلال مدّة الانتظار، وعلى الرغم من كلّ الطاقة التي يبذلها إدوار في الإجابة عن الطلبات العديدة، لم تأتهم أيّة تكليفات واضحة.

لماذا؟ سأل ألبير بصوتٍ أبيض. ما الذي يحصل؟ كأنّهم غير مقتنعين بالإجابات...

جعل إدوار فروة رأسه تتراقص كأنّه ممثّلٌ إيمائيّ. كتمت لويز ضحكة عالية؛ أمّا ألبير الذي كان على حافّة الغثيان، فقد عاد إلى حساباته، وراح يراجعها.

بسبب شدّة القلق الذي يحيط بكلّ شيءٍ لم يعد ألبير يتذكّر كيف كانت حالته الذهنيّة عندما وصلت الدفعات الأولى في نهاية شهر مايو، والتي أثارت بهجةً كبيرة. تطلّب ألبير أن تخصّص هذه الأموال قبل كلّ شيءٍ لتسديد البنك، وهو ما اعترض عليه إدوار بالطبع.

- «ما الفائدة من تسديد البنك؟». كتب على دفتره الكبير. سوف نهرب مع الأموال المسروقة بكلّ الأحوال. سرقة أموال بنك هي أقلّ السرقات سفالة.

لم يتزحزح ألبير عن موقفه. كاد يفضح نفسه مرّةً، وهو يتكلّم عن بنك التسليف الصناعيّ، لكنْ كان من الواضح أنّ إدوار لا يعرف شيئاً عن أعمال أبيه، فالاسم كان غريباً عليه. ولكي يبرر نفسه أمام رفيقه، ما كان ألبير يستطيع أن يضيف على نحوٍ لائق أنّ مسيو بيريكور كان طيّباً

جدّاً تجاهه بحيث عرض عليه هذا العمل، وأنّه يأنف من خداعه أكثر من ذلك. لا شكّ أنّ تلك أخلاقيّات مطّاطة، طالما أنّه في الوقت نفسه يحاول الاحتيال على مجهولين من بينهم عددٌ لا بأس به من ذوي الأوضاع البسيطة، والذين يكتتبون من أجل بناء صرح يخلّد ذكرى أمواتهم، لكنّه يعرف مسيو بيريكور شخصيّاً، والأمر مختلف. ومنذ أن قامت بولين،... باختصار، لا يستطيع أن يمتنع عن التفكير بأنّه قد أحسن إليه نوعاً ما.

لم يقتنع إدوار كثيراً بحجج ألبير الغريبة، لكنّه رضخ، واستُخدمت أولى الدفعات الماليّة لتسديد البنك.

بعد ذلك، أنفق كلّ منهما وبطريقته جزءاً رمزيّاً من المال لتحقيق متعةٍ صغيرةٍ، هي وعدٌ بالمستقبل المزهر الذي ينتظرهما ربّما.

فقد اشترى إدوار غرامافون من نوعيّةٍ ممتازةٍ، وعدداً لا بأس به من الأسطوانات، من بينها مارشات عسكريّة. وعلى الرغم من ساقه المتيبّسة، كان مُغرماً بالسير داخل الشقّة بخطواتٍ إيقاعيّةٍ عسكريّةٍ برفقة لويز، وهو يرتدي قناع جنديّ كاريكاتوريّ وسخيفٍ بشكل واضح. كانت هناك أيضاً أسطوانات أوبرا لا يفهم ألبير منها شيئاً، وكونشرتو الكلارينيت لموزارت الذي يضعه ويعيده في بعض الأيام بدون توقّفٍ كما لو أنّ الأسطوانة قد شحطت. كان إدوار يرتدي دائماً الثياب نفسها: بنطالين، وسترتين من الصوف، وكنزتين بلا أكمام يرتديها بالتناوب، ويأخذها ألبير للغسيل مرّةً كلّ أسبوعين.

أمّا ألبير، فقد اشترى لنفسه حذاءً، وطقماً، وقميصين. نوعيّة جيّدة حقاً هذه المرّة. ما أوحى له بذلك على نحوٍ قاسٍ هو أنّه في مثل تلك الفترة كان قد التقى ببولين، ومن وقتها صارت الأشياء أكثر تعقيداً. مع هذه المرأة كما

مع البنك، كان يكفيه أن يطلق كذبةً في البداية ليجد نفسه محكوماً بالقيام بسباقٍ مرعبٍ إلى الأمام. تماماً كما حصل مع الصروح. لكنْ ما الذي فعله لربّه حتّى يجد نفسه مضطراً بلا هوادة إلى أن يركض أمام حيوانٍ وحشيٍّ يهدّد بالتهامه؟ لهذا السبب قال لإدوار: إنّ قناع الأسد الذي يضعه (في الواقع ما كان أسداً، إنّما حيواناً أسطوريّاً، لكنّ إدوار لم يصحّح له هذه التفاصيل) كان جميلاً جدّاً بالتأكيد، بل ورائع، لكنّه يوحي له بكوابيس، ويسعده أن يراه يخفّف من ارتدائه، نقطة على السطر. وقد نفّذ إدوار ذلك.

ثمّ هناك بولين.

هي قصّة مرتبطة بقرارٍ من مجلس إدارة البنك.

جرى التهامس من مدّةٍ بأنّ مسيو بيريكور لم يعد يهتمّ بأعماله. صاروا يرونه بدرجة أقلّ، وأولئك الذين يمرّون أمامه يلحظون أنّه قد شاخ كثيراً. ربّما هي نتائج زواج ابنته؟ أو الهموم والمسؤوليّات؟ لم يخطر على بال أحد أن يفكّر بموت ابنه. فهو منذ صباح اليوم الذي تلا تلقّيه نبأ موته شارك في اجتماع مهمٍّ للجمعيّة العموميّة للمساهمين محافظاً على هدوئه المعتاد، وقد وجده الجميع شجاعاً للغاية؛ إذْ استطاع متابعة مهمّته على الرغم من مصائبه.

لكنّ الوقت قد مرّ، ومسيو بيريكور لم يعد ما كان عليه من قبل. فهو بالفعل قد اعتذر فجأةً في الأسبوع الماضي. تابعوا بدوني. لم تعد هناك قرارات مهمّة يجب اتّخاذها، لكن مع ذلك، لم يعوّد الرئيس الناس على التهرّب من مهامه، على العكس، كان يميل إلى أن يقرّر كلّ شيءٍ وحده، وألّا يقبل النقاشات سوى حول مواضيع ثانويّة يكون مع ذلك قد حسم الأمر فيها مسبقاً. وبذلك، في حوالي الساعة الثالثة بعد الظهر غادر. ولقد

عُرِف فيما بعد أنّه لم يرجع إلى بيته. ذكر بعضهم زيارةً قام بها لطبيبه. أشار آخرون إلى وجود امرأةٍ في الموضوع. وحده حارس المقبرة، الذي لم يكن قد دعاه أحد إلى هذه المحادثات، كان يمكن أن يقول أين كان مسيو بيريكور حقيقة.

قرابة الساعة الرابعة بعد الظهر، وبما أنّ مسيو بيريكور كان مضطرّاً على نحوٍ قطعيّ إلى توقيع محضر الاجتماع حتّى يُصادَق على أوامره بأسرع وقتٍ ممكنٍ، ثمّ تُنفّذ (لم يكن يحبّ تأجيل الأمور)، قرّروا في المصرف أن يرسلوا الوثيقة إليه في البيت. تذكّروا عندها ألبير مايار. لا أحد في البنك يعرف طبيعة العلاقة بين المعلّم وبين هذا الموظّف. كانوا فقط متأكّدين بأنّ هذا الأخير يدين بموقعه للأوّل. وحول ذلك أيضاً سرت الشائعات الأكثر جنوناً، لكنّ ألبير مع احمرار وجهه الدائم، وحذره من كلّ شيء، وعصبيّته وطريقته في أن يقفز في مكانه مرتجفاً عند سماعه أوّل ضجّة، كلّ ذلك خفّف من جميع الاحتمالات. كان يمكن للمدير العامّ أن يذهب بنفسه بطيبة خاطر إلى بيت الرئيس بيريكور، لكنْ عندما فكّر بأنّ ذلك يعني أن يقوم بمهمّةٍ ثانويّةٍ يستطيع مراسلٌ القيام بها، وهو ما لا يتناسب مع منصبه، أرسل ألبير.

منذ أن تلقّى الأمر، بدأ ألبير يرتعد. من الصعب فهم هذا الصبيّ. كان من الضروري الضغط عليه، واستعجاله، وتقديم معطفه له، ودفعه نحو المخرج. بدا عليه أنّه مضطربٌ إلى درجةٍ جرى التساؤل معها إن لم يكن سيضيّع الوثيقة في مكانٍ ما على الطريق. استُدعيت سيارة أجرة مع دفع أجرة الذهاب والإياب، وتوصية السائق خفية بألّا يحيد بصره عنه.

- «أنزلني!». صرخ ألبير عندما وصلوا إلى حديقة مونسو.

- «لكنّنا لم نصل بعد». قال السائق وجِلاً.

أوكلوا إليه مهمّة صعبة، وها هي المتاعب تبدأ.

- «مع ذلك». صرخ ألبير: «أنزلني!».

عندما يغضب الزبون جدّاً، من الأفضل جعله ينزل. نزل ألبير. انتظر السائق أن يبتعد عدّة خطوات، ثمّ رآه يمشي بخطوات مترنّحة في الاتّجاه المعاكس للعنوان الذي يجدر به أن يذهب إليه. لكنْ عندما تُدفع الأجرة سلفاً، فإنّك تنطلق بأسرع ما يمكن، كنوع من الدفاع الشرعيّ عن النفس.

لم ينتبه ألبير لذلك لكثرة ما كان مسكوناً منذ خروجه من البنك بفكرة أن يجد نفسه وجهاً لوجه مع براديل. راح يتصوّر المشهد: النقيب يمسك به بقبضة يده ويسأله:

- هكذا إذن، أيّها الجندي مايار، تأتي في زيارةٍ قصيرةٍ إلى النقيب دولني براديل الطيّب؟ هذا لطف منك... اقترب قليلاً.

ثم يجرّه، وهو يقول ذلك إلى ممرٍّ يتحوّل إلى كهف. لا بدّ من أن نتفاهم. يصفعه براديل، ثمّ يربطه ويعذّبه، وعندما يضطرّ ألبير إلى أن يعترف له بأنّه يعيش مع إدوار بيريكور، وأنّه قد سرق أموالاً من البنك، وأنّهما معاً قد انطلقا في عمليّة احتيالٍ لا اسم لها، يطلق براديل ضحكة عريضة، ويرفع عينيه إلى السماء، ويستنزل منها غضب الآلهة التي سرعان ما تلقي على ألبير كميّة من التراب مماثلة لتلك التي حرّكتها القذيفة خمسة وتسعون... وها أنت في قعر حفرةٍ، وتشدّ إليك قناع رأس حصان الذي تستعدّ لأن تقدّم نفسك به إلى جنّة العاجزين.

كما في المرّة الأولى، راح ألبير يدور، يتردّد، يعود أدراجه، وقد صعقه الرعب والخشية من أن يلتقي بالنقيب براديل، ومن أن يتحدّث إلى مسيو بيريكور الذي يدين له بالمال، وأن يجد نفسه وجهاً لوجه مع أخت إدوار

التي يمكن أن يكشف لها أنّ أخاها ما زال حيّاً. بحث عن طريقةٍ يمكن معها تسليم مسيو بيريكور الوثيقة التي كان يشدّها على صدره بقوّة محكومٍ بالإعدام بدون أن يضطرّ إلى الدخول إلى البيت.

أن يجد شخصاً آخر يكون بديلاً عنه، ذاك ما يجب القيام به.

تأسّف لأنّ السائق قد ذهب، كان يمكن له أن يصفّ السيّارة على بُعد شارعين، يقوم بالمهمّة ويعود. كان يجب على ألبير أن يحتفظ بسيارة الأجرة.

في تلك اللّحظة بالذات ظهرت بولين.

كان ألبير يقف على الرصيف المقابل، وكتفه يمسح الحائط حين رآها. وقبل أن يفهم أنّ الصبيّة هي الحلّ لمشكلته، صارت تجسيداً لهمّ آخر. كان قد فكّر بها كثيراً، تلك الخادمة الجميلة الصغيرة التي ضحكت كثيراً عندما رأته مع حذائه الغبيّ.

رمى نفسه مباشرةً في فم الذئب.

كانت مستعجلة، قد تكون تأخّرت على بداية خدمتها. في أثناء سيرها فتحت معطفها، فظهر منه ثوبٌ أزرقُ فاتحٌ يصل إلى نصف ربلة رجلها، وحزام واسع على الأرداف. كانت ترتدي وشاحاً يتناسب مع ثوبها. صعدت بسرعة درجات الرواق القليلة واختفت.

بعد دقائق، رنّ ألبير جرس الباب. فتحت. عرفته. نفخ صدره لأنّه بعد لقائهما الأوّل، كان قد اشترى حذاءً جديداً. وهي كامرأةٍ حاذقةٍ لحظت أنّه يمتلك أيضاً معطفاً جديداً، وقميصاً جميلاً، وربطة عنق من نوعيّةٍ رفيعةٍ، وله دائماً هذا الوجه المضحك إلى درجةٍ يمكن القول معها: إنّه قد بال على نفسه لتوّه.

الله وحده يعلم ما كان يدور في رأسها. عادت إلى الضحك. تكرّر

المشهد القديم بالطريقة نفسها تماماً مع فارق ستّة أشهر، لكنْ لا يمكن أن تكون الأشياء هي نفسها، بقيا الواحد في مواجهة الآخر كما لو كانت هي التي أتى لرؤيتها، وهو ما كان صحيحاً بشكل، أو بآخر.

حلّ الصمت. الله كم هي جميلة بولين الصغيرة تلك! الحبّ يتجسّد فيها. اثنتان وعشرون، ثلاث وعشرون سنة. ابتسامة تجعل شعر جسمك يتوفّز. شفاه مخمليّة تكشف عن أسنانٍ رائعةٍ مصفوفةٍ على نحوٍ رائع. وهاتان العينان، وهذه التسريحة القصيرة جدّاً الدارجة الآن، والتي تكشف عن جمال رقبتها وصدرها. بمناسبة الصدر، كانت ترتدي مريولاً وقميصاً أبيضَ لا يصعب تخيّل النهدين تحته. سمراء. منذ سيسيل لم يفكّر بامرأةٍ سمراء. الواقع أنّه لم يفكّر بأيّ شيء.

نظرت بولين إلى الملف الذي كان يعجنه بين يديه. تذكّر ألبير السبب وراء زيارته، وأيضاً الخشية التي كانت لديه من اللقاءات السيّئة. كان قد دخل. الملحّ الآن هو أن يخرج من جديد، وبسرعة.

- «أنا قادم من البنك». قال ببلاهة.

فتحت فمها على نحوٍ مستدير. بدون قصد، أثّر ذلك عليها نوعاً ما: البنك، تخيّلي!

- «هذا للرئيس بيريكور». أضاف.

وبما أنّه رأى الأهميّة التي اكتسبها، لم يستطع أن يمنع نفسه عن التأكيد:

- يجب أن أسلّمه بيدي.

لم يكن الرئيس بيريكور في البيت. اقترحت عليه الصبيّة أن ينتظره. فتحت له باب الصالون. عاد ألبير إلى الواقع: البقاء هنا ضرب من الجنون. الدخول بحدّ ذاته...

- لا، لا، شكراً.

مدّ الوثيقة. اكتشف الاثنان أنّها تبلّلت بالعرق. أراد ألبير أن يجفّفها بكمّه، فوقع الملفّ على الأرض، واختلطت صفحاته ببعضها. وها هما الآن مباشرةً على أربع في الأرض. تستطيعون تخيّل المشهد...

هكذا دخل في حياة بولين. خمس وعشرون سنة؟ ما كان يبدو عليها ذلك. ليست عذراء، لكنّها شريفة. فقدت خطيباً لها في عام 17، ومن بعده لا أحد، كما تؤكّد. كانت بولين تكذب بروعة. مع ألبير بدأت الملامسات مباشرةً، لكنّها لم ترد الذهاب أبعد من ذلك؛ لأنّ الأمر كان جدّياً بالنسبة إليها. أعجبها ألبير بوجهه الساذج والمؤثّر. أثار لديها رغبات أمومية، ووضعه جيّد؛ محاسب في بنك، وبما أنّه يعرف الرؤساء، فقد كان ينتظره مستقبلٌ جيّد.

لم تعرف كم يقبض، لكنْ لا بدّ من أنّ ذلك كان مريحاً؛ لأنّه دعاها مباشرةً إلى مطاعم جيّدة، ليست مترفة، لكنّ الطعام فيها متميّزٌ، والزبائن برجوازيّون. كما أنّه يستقلّ سيّارات أجرة، على الأقلّ عندما يعيدها إلى بيتها. أخذها أيضاً إلى المسرح، بدون أن يقول لها إنّها المرّة الأولى التي يضع فيها قدمه فيه، واقترح الأوبرا بعد أن طلب نصيحة إدوار، لكنّ بولين كانت تفضّل الميوزيك هول.

بدأ مال ألبير يتسرّب. معاشه لا يكفي أبداً، وقد أخذ الكثير من حصّته من الغنيمة الضئيلة.

وهكذا، عندما تبيّن أنّ الأموال لم تعد تصل، تساءل: كيف يخرج من الفخّ الذي رمى نفسه فيه وحْده مباشرة، وبدون معونة أحد؟

لكي يستمرّ في مغازلة بولين، تساءل إن ما كان عليه أن «يستدين» المال من جديد من بنك مسيو بيريكور.

32

وُلد هنري في عائلةٍ مفلسةٍ، وعاش فترة شبابه، وهو يرى كيف يزداد تدهورها خطورةً، كما لم يعرف فيها سوى الكوارث. الآن وهو يستعدّ للانتصار النهائيّ على القدر، ليس من الوارد أبداً أن يوقفه موظّفٌ فاشلٌ نكِرة. وذاك هو الأمر لا أكثر. عليه أن يعيده إلى جحره، هذا المفتّش القميء، أصلاً من يظنّ نفسه؟

وراء هذه الثقة المعلنة تختفي كميّة كبيرة من الاقتراحات الذاتيّة. يحتاج هنري إلى الإيمان بنجاحه؛ إذْ من غير المعقول ألّا يربح الكثير في هذه الأوقات المتأزّمة التي تكون عادةً مواتية للثروات الكبيرة.. الحرب كلّها أثبتت أنّه لا يخشى الأعداء.

خاصّةً أنّ الوضع في هذه المرّة يختلف نوعاً ما...

لم تكن طبيعة العوائق هي التي تقلقه، إنّما تتاليها.

بسبب شهرة اسمَي بيريكور، ودولني براديل، لم تُظهر الإدارة حتّى الآن أيّة شكوك. لكنْ ها هو الآن هذا القميء القادم من الوزارة يبيّض تقريراً جديداً بعد زيارته غير المنتظرة إلى بونتافيل-سور-موز؛ حيث ظهرت مسائل تتعلّق بسرقة أغراضٍ وتهريبها.

لكن هل له الحق في التفتيش بدون أن يُعلِم أحداً؟

أيّاً كان الأمر، فقد بدت الإدارة في هذه المرّة أقلّ استعداداً للتفاهم. طلب هنري مباشرةً مقابلة، لكنّ ذلك لم يكن ممكناً.

- لا يمكن إخفاء... كلّ هذه الأشياء. هل فهمت؟ هذا ما فسّروه له بالهاتف. حتّى الآن كان الأمر يتعلّق ببعض الصعوبات التقنيّة، وعلى الرغم من ذلك، ومع هذا...

في الجانب الآخر من الخطّ صار الصوت مُحْرجاً أكثر، ومكتوماً أكثر، كما لو أنّ الحديث يدور حول أمورٍ سريّةٍ لا يجب أن يسمعها أحد.

-..... هذه التوابيت التي لا تتوافق مع المعايير المذكورة في الصفقة...

- «لكنّني شرحت لك ذلك!». زأر هنري.

- نعم، أعرف. خطأ في التصنيع، طبعاً... لكنْ في هذه المرّة، في بونتافيل- سور- موز صار الأمر مختلفاً، هل تفهمني؟ عشرات الجنود مدفونون تحت أسماء ليست أسماءهم. الأمر محرجٌ للغاية. وفوقها، أن تختفي أغراضهم الشخصيّة...

- «أوه لا، لا!». قال هنري، وهو يضحك بصوتٍ عالٍ جدّاً حتّى كاد يختنق: «هل تتّهمني بتشليح الجثث الآن؟».

الصمت الذي حلّ أخافه.

صارت المسألة خطرةً؛ لأنّ الأمر لم يعد يتعلّق بغرضٍ واحدٍ، ولا بغرضين.

- يقال: إنّ هناك منظومة كاملة، هناك منظّمة تعمل على مستوى المقبرة. التقرير قاسٍ جدّاً. كلّ ذلك تمّ بدون علمك بلا شك، وأنت لست موضع اتّهامٍ على الصعيد الشخصي!

- ها ها ها! يا للسعادة إذن!

لكنّ قلبه كان لا يتناسب مع تلك الضحكة. سواء كان الصعيد شخصيّاً أم غير شخصيّ، فإنّ الانتقادات ثقيلة. وهو قد عهد بكلّ شيء إلى دوبريه، وسوف يخرب بيته، في نهاية الأمر، لا بأس من الانتظار.

تذكّر هنري عندها أنّ تغيير الاستراتيجيّة سمح بنجاح حرب نابوليون. سأله:

- هل تظنّ حقّاً أنّ المبالغ التي منحتها الحكومة تسمح بانتقاء عاملين مؤهّلين على نحوٍ كامل، ولا غبار عليهم؟ وأنّ تلك الأسعار تسمح بالقيام بانتقاءٍ صارمٍ للعمّال، وأنّه لا يجري تشغيل سوى العمّال الذين يُنتقون بدقّةٍ كبيرة؟

في قرارة نفسه، يعرف هنري أنّه استعجل قليلاً في انتقاء العاملين، وبحث دائماً عن الأرخص. لكنْ في النهاية، ألم يُطمئنه دوبريه أنّ المشرفين على الأعمال كانوا جدّيين؟ اللعنة! وأنّ العمليّات سيجري التحكّم بها كما يجب؟

فجأةً، بدا على موظّف الوزارة أنّه مستعجلٌ، وانتهت المحادثة بمعلومةٍ سوداء مثل سماءٍ تنذر بالعاصفة:

- الإدارة المركزيّة لم تعد تستطيع أن تدير هذا الملفّ وحدها يا مسيو دولناي براديل. عليها أن تنقله الآن إلى مكتب السيّد الوزير.

جرى التخلّي عنه حسب الأصول المرعيّة!

أغلق هنري التلفون بعنفٍ، واجتاحه غضبٌ أسْود. أمسك بقطعة بورسلين صينيّة، وحطّمها على منضدةٍ صغيرةٍ من الخشب المطعّم. ماذا؟ ألم يعطِ بخشيشاً كافياً لكلّ هؤلاء الناس ليحلّوا له أموره؟ بحركةٍ من ظهر

يده، أوقع إناء كريستال فتحطّم على الجدار. وإن فسّر للوزير كيف استفاد موظّفوه الكبار من كرمه، هه؟

استعاد هنري تنفّسه الطبيعي. غضبه يتماشى مع خطورة الموقف، خاصّةً أنّه هو نفسه لم يكن يصدّق هذه الحجج. كانت هناك بعض الهدايا، نعم: غرف في الفنادق الكبيرة، تقديم بعض الفتيات كهديّة، وجبات طعام مترفة، علب سيجار، فواتير مدفوعة هنا وهناك. لكنّ اتّهامه للآخرين بإساءة استعمال المنصب سيكون بمنزلة اعترافٍ بأنّه قدّم رشوة، وبذلك يؤذي نفسه كي يسوّغ فعله، تماماً كمن يطلق النار على قدمه كي يهرب من العسكريّة.

مادلين التي أخافتها الضجّة دخلت بدون أن تقرع الباب.

– أوف، ما الذي يحصل هنا؟

استدار هنري، واكتشف أنّها واقفة في إطار الباب. كان حجمها كبيراً للغاية، حامل في الشهر السادس، لكنّها تبدو كأنّها وصلت إلى شهرها الأخير. وجدها بشعة. ليس الأمر جديداً، فمنذ مدّةٍ طويلةٍ لم تعد توقظ أيّة رغبةٍ لديه، وكان الشعور متبادلاً. فاندفاعات مادلين الناريّة تعود إلى زمنٍ منسيٍّ عندما كانت تتصرّف كعشيقةٍ، وليس كزوجة، وعندما كانت لا تتوقّف عن التطلّب بسبب رغباتها التي لا تشبع! كلّ ذلك صار بعيداً الآن. ومع ذلك، فإنّ هنري صار أكثر ارتباطاً بها من السابق. ليس بها تماماً إن صحّ القول، إنّما بالأم المقبلة للابن الذي ينتظره. دولني براديل جونيور الذي سيفخر باسمه، وثروته، وأملاك عائلته، والذي لن يكون عليه مثله أن يقاتل من أجل أن يعيش، إنّما سيعرف كيف يجعل الإرث الذي حلم به أبوه يؤتي ثماره.

مالت مادلين برأسها، وعقدت حاجبيها.

مكتبة
t.me/soramnqraa

ميّزة هنري أنّه يستطيع في المواقف الصعبة اتّخاذ القرار خلال ثوان. استعرض مثل البرق الحلول الموجودة أمامه، وفهم أنّ زوجته تمثّل خشبة النجاة الوحيدة بالنسبة إليه. رسم على وجهه القسمات التي يكرهها أكثر من أيّ شيءٍ آخر، والتي لا تشبهه أبداً: قسمات رجُلٍ ما عاد يعرف كيف يتصرّف. صدرت عنه آهة تخاذل طويلة، وانهار على الأريكة، وقد تدلّت ذراعاه في الهواء.

منذ البداية، شعرت مادلين بنفسها موزّعة المشاعر، فهي تعرف زوجها أكثر من أيّ شخصٍ آخر، ومسرحيّة الضياع لا تؤثّر عليها. لكنّه والد ابنها، وهما مرتبطان، وليست لديها رغبة قبل ولادتها ببضعة أسابيع فقط في مواجهة صعوباتٍ جديدة. كلّ ما تتمنّاه هو السلام. ليست بحاجةٍ إلى هنري. لكنّ وجود زوج في هذه الفترة كان مفيداً لها.

سألته ما الأمر.

- «الأعمال». أجابها بطريقة من يتهرّب من الجواب.

ذلك تعبيرٌ مألوفٌ عند مسيو بيريكور. فعندما لا يريد أن يشرح كان يقول: «إنّها الأعمال». ويعني ذلك كلّ شيء. هي كلمة خاصّة بالرجال. لا يوجد ما هو عمليّ أكثر منها.

رفع هنري رأسه، وزمّ شفتيه. وجدته مادلين جميلاً جدّاً، وكما كان يأمل، ألحّت عليه.

- «ماذا؟». قالت له، وهي تقترب: «شيء جديد؟».

قرّر القيام باعترافٍ مُكلفٍ، لكنّ الغاية، كما هو الأمر دائماً، تبرّر الوسيلة.

- سأحتاج إلى أبيك...

- «من أجل ماذا؟». استفهمت منه.

مسح هنري الهواء بيديه. سيكون الأمر معقّداً للغاية...

- «أرى ذلك». قالت، وهي تبتسم: «الأمر أكثر تعقيداً من أن تفسّره لي، لكنّه بسيطٌ بما يكفي لتطلب منّي التدخّل».

لعب هنري دور رجُلٍ حطّمته الصعوبات، وأجاب بنظرةٍ عرف أنّها مؤثّرةٌ، وكان يستخدمها دائماً للغواية. هذه الابتسامة حملت له فرصاً طيّبة...

لو أنّ مادلين ألحّت، لكان هنري كذب عليها من جديد؛ لأنّه يكذب دائماً، حتّى عندما لا تكون هناك فائدة من ذلك. هذا جزءٌ من طبعه. وضعت يدها على خدّه. حتّى عندما يغشّ، يظلّ جميلاً، ادّعاء الضياع يجعله أكثر شباباً، ويُظهر دقّة قسماته.

ظلّت مادلين ساهمةً للحظة. لم تكن تستمع إلى زوجها كثيراً، حتّى في البدايات، هي لم تختره من أجل محادثته، لكنْ منذ حملها، ما كان يقوله كان يعوم في الهواء مثل بخارٍ بلا أهميّةٍ. وهكذا، بينما كان يلعب تمثيليّة الارتباك والاضطراب هذه -أكيد أنّه أكثر مهارةً مع عشيقاته- راحت تتأمّله بحنانٍ مبهم، حنان يمكن أن يكون لأطفال الآخرين. كان جميلاً. هي تحبّ أن يكون لديها ابن مثله، أقلّ كذباً، لكنْ بالقدر نفسه من الجمال.

ثمّ تركت الغرفة بدون أن تقول شيئاً، وهي تبتسم قليلاً كما في كلّ مرّةٍ يضربها فيها الجنين في بطنها. صعدت مباشرةً بعد ذلك إلى شقّة أبيها.

كان مسيو بيريكور نشيطاً كالعادة، لكنّه منذ أن صار يفكّر مجدّداً بابنه الميّت، صار يغيب عن البيت أقلّ، ويعود إلى البيت مبكّراً، ويذهب متأخّراً.

كانت الساعة العاشرة صباحاً.

بمجرّد أن تعرّف إلى ابنته من طريقتها في قرع الباب، وقف مسيو بيريكور وأتى لملاقاتها، ووضع قبلةً على جبينها، وابتسم، وهو يشير إلى بطنها. «تسير الأمور جيّداً؟». رسمت مادلين علامات التعب على وجهها. «لا بأس...».

- أريدك أن تستقبل هنري يا بابا، لديه مشكلات.

بمجرّد أن سمع اسم صهره، انتصب مسيو بيريكور بدون أن يشعر.

- ألا يستطيع أن يحلّ مشكلاته وحده؟ أيّة مشكلات؟

مادلين كانت تعرف أكثر ممّا يظنّ هنري أنّها تعرف، لكنْ أقلّ من أن تستطيع إيضاح الأمر لأبيها.

- هذا العقد مع الحكومة.

- من جديد؟

جواب مسيو بيريكور أتى بصوتٍ معدنيٍّ، ذلك الصوت الذي يتّخذه عندما يظلّ متصلّباً في قراراته المبدئيّة. عندها، يصبح التعامل معه في تلك الحالات صعباً، متصّلباً.

- أعرف أنّك لا تحبّه يا بابا، لقد قلتَ لي ذلك.

كانت تتكلّم بلا غضب، لا بل إنّها ابتسمت ابتسامةً عذبة، وبما أنّها لم تكن تطلب أيّ شيء على الإطلاق، فقد رمت بأفضل ورقةٍ لديها:

- أطلب منك أن تستقبله يا بابا.

لم تضطرّ، كما تفعل في مناسباتٍ أُخرى، أن تضع يديها متصالبتين حول بطنها. أشار لها أبوها أنّه موافق. «حسناً. قولي له أن يصعد».

لم يتظاهر مسيو بيريكور بأنّه يعمل عندما قرع صهره الباب. رأى هنري

في طرف الغرفة الآخر والد زوجته يجلس وراء مكتبه مثل «أبانا الذي في السماوات». المساحة التي تفصله عن أريكة الزوّار كبيرة لا تنتهي. عندما يمرّ هنري بصعوباتٍ ما، يستجمع قواه وينطلق. وكلّما ازداد العائق أهميّة ظهر توحّشه؛ إذْ يستطيع عندها أن يقتل أيّاً كان. لكنْ في ذلك اليوم، كان يحتاج إلى الشخص الذي يتمنّى أن يقتله، وكان يكره موقف الخضوع هذا.

منذ أن تعارف الرجُلان، وهما يخوضان حرباً من الاحتقار. مسيو بيريكور يكتفي بتحيّة صهره بحركةٍ من رأسه، وهنري يجيب بالحركة نفسها. منذ الدقيقة الأولى للقائهما الأوّل راح كلّ واحدٍ منهما ينتظر اليوم الذي يتفوّق فيه. وتنتقل الكرة من معسكرٍ إلى معسكر. ففي المرّة الأولى قام هنري بإغراء ابنة مسيو بيريكور، وفي المرّة التالية فرض عليه مسيو بيريكور عقد اتفاقية الزواج... وعندما أعلنت مادلين لأبيها أنّها حامل، فعلت ذلك في جلسةٍ حميميّةٍ بينها وبين أبيها، وحُرم هنري من المشهد، لكنّه سجّل هنا نقطةً حاسمة: إذْ بدا كأنّ الموقف ينقلب: فمشكلات هنري سوف تمرّ، في حين أنّ ابن مادلين سيدوم. وهذه الولادة سوف تجبر مسيو بيريكور أن يسدي إليه خدمة.

ابتسم مسيو بيريكور على نحوٍ مبهم، كما لو كان يفهم أفكار صهره.

- «نعم...؟». قال له بإيجاز.

- «هل تستطيع أن تتدخّل لدى وزير المعاشات؟». سأله هنري بصوتٍ واضح.

- نعم أستطيع، إنّه صديقٌ مقرّبٌ جدّاً.

ظلّ مسيو بيريكور ساهماً للحظةٍ قصيرة.

- إنّه مدينٌ لي بأشياء كثيرة. دينٌ شخصيٌّ نوعاً ما. قصّة قديمة، لكنّها،

لنقل: من النوع الذي يحسّن سمعة، أو يحطّمها... الخلاصة: هذا الوزير -إن كنت أستطيع القول- هو ملكي نوعاً ما.

لم يكن هنري ينتظر نجاحاً على تلك الدرجة من السهولة. تشخيصه تحقّق أكثر ممّا كان يأمل. وقد أكّد مسيو بيريكور ذلك بدون أن يدري عندما خفض عينيه نحو الملفّ الذي يرتّب فيه أوراقه.

- ما القصّة؟

- شيء لا يستحقّ الذكر... إنّها...

- إن كانت شيئاً لا يستحقّ الذكر، قاطعه مسيو بيريكور، وهو يرفع رأسه، لماذا نزعج وزيراً، أو تزعجني أنا؟

كان هنري يعبد هذه اللّحظة التي يوشك الخصم فيها أن يتخبّط، ويحاول جعل موقفه صعباً، لكنّه يضطرّ في النهاية إلى الرضوخ. لو كان لديه الوقت لجعل تلك الحادثة اللذيذة تدوم، لكنْ هناك ضرورة ملحّة.

- إنّه تقريرٌ يجب دفنه. يتعلّق بأعمالي. تقريرٌ كاذب و...

- إن كان كاذباً ما الذي تخشاه؟

كان ذلك أقوى منه، وقد استسلم هنري إلى غواية أن يبتسم. هل سيقوم العجوز بالنضال طويلاً؟ هل هو بحاجةٍ إلى ضربةٍ قويّةٍ على الرأس لكي يسكت وينتقل إلى الفعل؟

- «قصّة معقّدة». قال.

- وعلى ذلك؟

- على ذلك أطلب منك أن تتدخّل لدى الوزير من أجل أن يدفن هذه القضيّة. ومن جهتي ألتزم بألّا تتكرّر الوقائع المذكورة مرّة ثانية. إنّها نتيجة بعض الإهمال، ولا شيء آخر.

انتظر مسيو بيريكور لمدّةٍ طويلةٍ، وهو ينظر إلى صهره في عينيه، كأنّه يقول له، هذا كلّ شيء؟

- «لا شيء غير هذا». أكّد له هنري: «ثق بكلامي».

- كلامك؟

شعر هنري بابتسامته تنطفئ. بدأ يزعجه العجوز بملحوظاته تلك! لكنْ هل لديه خيار آخر مع ابنته التي يصل بطنها إلى حلقها؟ هل يغامر بإفساد حياة حفيده؟ ما هذه المزحة! رضخ براديل لتنازل أخير.

- أطلب إليك ذلك باسمي وباسم ابنتك.

- لا تدخل ابنتي في هذا أرجوك!

في هذه المرّة كان هنري قد اكتفى.

- ومع ذلك فإنّ هذا تماماً هو الأمر. سمعتي، أعمالي، وبذلك اسم ابنتك، ومستقبل ح...

كان يمكن لمسيو بيريكور أن يرفع صوته هو أيضاً، لكنّه اكتفى بأن ينقر على نحوٍ خافتٍ بظفر سبّابته على جلد الملفّ الذي يحفظ فيه أوراقه. صدرت عن تلك الحركة ضجّة جافّة مثل تذكيرٍ بالنظام يقوم به مدرّسٌ أمام تلميذٍ مهمل. أبدى مسيو بيريكور هدوءاً كبيراً ودلّ صوته على راحته النفسيّة، ولم يبتسم.

- «لا يتعلّق الأمر سوى بك أنت يا سيّد، ولا شيء آخر». قال.

شعر هنري بموجةٍ من القلق تجتاحه، لكنْ عبثاً راح يفكّر؛ إذْ لم يستطع أن يفهم كيف يمكن لعمّه أن يتجنّب التدخّل. هل هو قادر على التخلّي عن ابنته؟

- لقد علمت من قبل بصعوباتك. ربّما قبل أن تعرف أنت.

هذه البداية بالنسبة إلى هنري، كانت بمنزلة علامةٍ طيّبة. إن كان بيريكور يتأمّل أن يذلّه، فذلك لأنّه مستعدٌّ للتنازل.

– لم يدهشني شيء، عرفت دائماً أنّك كنت وغداً. مع بعض علامات النبالة، لكنّ ذلك لا يغيّر شيئاً. أنت رجُلٌ بلا ضمير، لا تشبع، وإنّني أتنبّأ لك بأسوأ مصيرٍ ممكن.

قام هنري بحركةٍ لكي ينهض ويخرج.

– لا لا يا سيّد. اسمعني. كنت أنتظر هذا التصرّف منك. وقد فكّرت تماماً، وسأقول لك كيف أرى الأشياء. خلال أيّام سيستلم الوزير ملفّك، وسيأخذ علماً بجميع التقارير المتعلّقة بنشاطاتك، وسيقوم بإلغاء كلّ الصفقات التي عقدتها مع الدولة.

هنري، وقد صار أقلّ انتصاراً ممّا كان عليه في بداية المحادثة، نظر أمامه برعبٍ، كما يُنظَرُ إلى بيتٍ اجتاحه الفيضان، وهو ينهار. هذا البيت كان بيته، كانت تلك حياته.

– لقد غششتَ في صفقاتٍ تهمّ المجتمع، وسيكون هناك تحقيق على وجه السرعة لتقدير قيمة الأضرار التي سبّبتَها للدولة، وسيكون عليك أن تسدّدها من ممتلكاتك الشخصيّة. وإن لم تكن لديك الأموال اللازمة، كما حسبت، ستكون مجبراً أن تطلب من زوجتك أن تساعدك، لكنّني سأقف في وجه ذلك بموجب الحقّ الذي يمنحني إيّاه القانون، وسيكون عليك عندها أن تتخلّى عن ملكيّتك العائليّة، لا بل إنّك لن تعود بحاجةٍ إليها؛ لأنّ الحكومة ستحيلك إلى العدالة، ولكي تغطّي نفسها سيكون على الحكومة أن تمثّل الحقّ العام في الدعوى التي لن تتأخّر جمعيّات المحاربين القدماء والعائلات عن رفعها عليك، وسينتهي بك الأمر في السجن.

إن كان هنري قد قرّر هذه الخطوة نحو العجوز، فذلك لأنّه كان يعرف نفسه في موقعٍ صعب. لكنْ ما سمعه يبدو أسوأ بكثيرٍ من كل شيء، فالمشكلات قد تراكمت بسرعة، وليس لديه وقت ليكون عنده ردّ فعل عليها. اجتاحه الشكّ.

- أنت الذي...؟

لو أنّه كان يملك سلاحاً في يده لما انتظر الجواب.

- لا، لماذا تريد ذلك؟ أنت لست بحاجةٍ إلى أيٍّ كان ليورّطك. طلبت منّي مادلين أن أستقبلك، وها أنا أستقبلك، وذلك لكي أقول لك هذا: لا هي، ولا أنا، معنيّان أبداً بمشكلاتك. هي أرادت أن تتزوّجك، ليكُن، لكنّك لن تجرّها معك. وسوف أستمرّ في الحرص على ذلك؛ أمّا بالنسبة إليّ أنا، فأنت تستطيع أن تغرق جسداً وممتلكاتٍ، لن أرفع إصبعي الصغير لكي أنقذك.

- «أنت تريد الحرب إذن؟». صرخ هنري بأعلى صوته.

- لا تصرخ أبداً في حضرتي يا سيّد!

لم ينتظر هنري نهاية الجملة لكي يترك الغرفة، وهو يصفق الباب بعنفٍ وراءه. هذه الضجّة كانت ستجعل البيت يهتزّ من الأعلى إلى الأسفل لولا أنّ التأثير وقع في الماء مع الأسف؛ لأنّ هذا الباب المجهّز بآليّةٍ مغناطيسيّةٍ كان ينغلق ببطءٍ مصدراً أصوات أوف... أوف.... أوف متقطّعة.

وصل هنري إلى الطابق الأرضيّ عندما انغلق الباب أخيراً بضجّةٍ مكتومة.

مسيو بيريكور في مكتبه لم يغيّر وضعيّته.

33

- «المكان لطيفٌ هنا». قالت بولين، وهي تنظر حولها.

كان بودّ ألبير أن يجيب، غير أنّ الكلمات بقيت عالقة في حلقه. اكتفى بأن يباعد يديه، ويتراقص بين قدمٍ وأُخرى.

منذ تعارفهما وهما يلتقيان في الخارج دائماً. فهي تسكن في قصر عائلة بيريكور عند مستخدميها، في غرفةٍ تحت السقف. كان صاحب وكالة التشغيل واضحاً للغاية: «الزيارات بأنواعها كافّةً ممنوعة تماماً يا آنسة!». ذلك هو التعبير الدارج من أجل إفهام الخدم بوضوح أنّه إن كانت لديهم رغبة في ممارسة الجنس فيجب أن يفعلوا ذلك في مكانٍ آخر، وليس في بيتنا؛ فهو بيتٌ محترم... إلخ.

من جهته، ما كان ألبير يستطيع أن يأتي ببولين إلى بيته؛ لأنّ إدوار ما كان يخرج قطّ. وحتّى لو فعل، أين يمكن أن يذهب؟ ثمّ في أقصى الأحوال، حتّى لو قبل أن يترك له الشقّة في أمسيةٍ ما، كيف يتصرّف ألبير، وقد كذب على بولين منذ البداية؟ قال لها مدّعياً: «إنّني أسكن في نزلٍ عائليٍّ تديره مديرةٌ صعبة المراس وشكّاكة. الزيارات ممنوعة كما هو الحال عندك، لكنّني سأغيّر. سأبحث عن شيء آخر».

لم تكن بولين منزعجةً، ولا نافدة الصبر. على العكس، كانت مطمئنة. قالت: إنّها بكلّ الأحوال ليست «فتاة من هؤلاء»؛ ما يعني: لا أنام مع أحد. كانت تريد علاقة جديّة؛ يعني: الزواج. ألبير لم يكن يعرف كيف يفصل الصحّ عن الخطأ في كلّ هذا. إذنْ، هي لا تريد. حسناً. لكن الآن، في كلّ مرّةٍ يرافقها، وفي لحظة الافتراق، يتعانقان بجنونٍ مع قبلاتٍ بالفم، ويستندان إلى البوّابات العريضة التي تمرّ منها السيّارات، ويحتكّان ببعضهما مثل المجانين، وهما واقفان، وقد تداخلت سيقانهما. كانت بولين تمسك بيد ألبير لمدّةٍ تزداد طولاً حتّى إنّها في إحدى الأمسيات، انحنت وصرخت صرخةً طويلةً، وعضّت له كتفه. صعد إلى سيارة الأجرة مثل رجُلٍ محمّلٍ بالمتفجّرات.

كانا قد وصلا إلى هذه الدرجة عندما حلّ يوم 22 يونيو، الموعد الذي انطلقت فيه أخيراً مسألة «الذكرى الوطنيّة».

فجأةً بدأ المال يهطل عليهما،

مثل الموج.

ازدادت الأرباح التي هبطت عليهما أربعة أضعاف عن ذي قبل في أسبوعٍ واحدٍ، ووصلت إلى ما يزيد على ثلاثمئة ألف فرنك. بعد ذلك بخمسة أيّام، صار لديهما في الصندوق خمسمئة وسبعون ألف فرنك، وفي الثلاثين من يونيو ستمئة وسبع وعشرون ألف فرنك... شيء لا يتوقف. سجّلا طلبيّاتٍ على أكثر من مئة صليبٍ، ومئةٍ وعشرين مشعلاً، ومئةٍ واثنتين وثمانين تمثالاً نصفياً لجنود، ومئة وأحد عشر صرحاً مركّباً. كذلك فاز جول ديبرومون في الإعلان عن قبول طلباتٍ لتصميم صروحٍ مخصّصةٍ للدائرة الباريسيّة التي ولد فيها، ودفعت له البلديّة مئة ألف فرنك سلفاً على حسابه.

في كلّ يوم كانت تصل طلبيّاتٌ أُخرى مترافقة مع تسديداتٍ جديدة. أمضى إدوار صباحاتٍ كاملةً، وهو يكتب وصولات الاستلام.

منّ السماء غير المُنتظر، والذي هطل عليهما، كان تأثيره عجيباً كما لو أنّهما اكتشفا الآن فقط أبعاد ما فعلاه. لقد أصبحا غنيّين جدّاً وفرضيّة المليون فرنك التي حدّدها إدوار لم تعد قطّ أضغاث أحلامٍ؛ لأنّهما ما يزالان بعيدين عن التاريخ النهائيّ المُثبت في الرابع عشر من يوليو، وحساب شركة «الذكرى الوطنيّة» لا يتوقّف عن التضخّم.. كلّ يومٍ عشرة، خمسون، ثمانون ألف فرنك. شيء لا يُصدّق! وفي أحد الصباحات وصلت إليهما مئة وسبعة عشر ألفاً دفعةً واحدة.

في البداية صرخ إدوار عالياً من فرط سعادته، وعندما عاد ألبير في المساء الأوّل مع حقيبةٍ ممتلئةٍ بالأوراق النقديّة، رمياها في الهواء بكلتي يديهما مثل مطرٍ مبارك. سأل إدوار مباشرةً إن كان يستطيع أن يأخذ مسبقاً شيئاً من حصّته على الفور، وألبير الذي كان يضحك من الفرح قال له: طبعاً، لا توجد أيّة مشكلة. في اليوم التالي، صنع إدوار لنفسه قناعاً رائعاً مصنوعاً كلّه من أوراق نقديّة من فئة مئتي فرنك لصقها على نحوٍ حلزوني. كان التأثير رائعاً، يشبه لفائف العجين، كما لو أنّ القصاصات تتلاشى وتحيط وجهه بهالةٍ من الدخان. سُحِر ألبير بالمنظر، لكنّه سرعان ما صُدم. لا يمكن فعل ذلك بالمال. كان يحتال على مئات الأشخاص، لكنّه لم يتخلَّ عن الأخلاق على نحوٍ كامل.

إدوار من جهته كان يعفّر الأرض بأقدامه من كثرة الفرح. لم يعدّ المال قطّ، لكنّه كان يحتفظ بعنايةٍ برسائل الطلبيّات مثل كؤوس انتصار، ويعيد قراءتها كلّ مساءٍ، وهو يرشف ببطءٍ كأساً من الكحول الأبيض بمصّاصته المطاطيّة. هذا الملفّ كان كتاب صلواته.

ألبير، وبعد أن مرّت مدّة افتتانه بالحصول بهذه السرعة على تلك الثروة بدأ يعي اتّساع الخطر. كلّما كان المال ينهال، كان يشعر بالحبل يضيق حول عنقه. وبمجرّد أن صار لديه ثلاثمئة ألف فرنك في الخزنة، لم يعد لديه سوى فكرةٍ واحدةٍ في رأسه: أن يهرب. عارض إدوار ذلك؛ فقاعدته عن المليون غير قابلةٍ للتفاوض.

ثمّ إنّ هناك بولين. ماذا يفعل؟

ألبير عاشق، ويشتهيها بقوّةٍ تضاعفت بالحرمان الذي كانت الصبيّة تجبره عليه. لم يكن مستعدّاً للتخلّي عن الأمر إلّا أنّه كان قد بدأ مع هذه الصبيّة على أساسٍ سيّئ. كذبة جرّت كذبة. هل يستطيع أن يقول لها الآن بدون أن يخاطر بفقدانها: «بولين، أنا محاسبٌ في بنكٍ بهدفٍ واحدٍ هو أن أسرق من الخزنة؛ لأنّني مع رفيق لي (وجهه محطّم، ولا يمكن النظر إليه، وشبه مجنون)، بصدد خداع نصف سكّان فرنسا على نحوٍ غير أخلاقيّ على الإطلاق. وإن سارت الأمور على ما يرام، بعد خمسة عشر يوماً، في يوم الرابع عشر من يوليو، سنهرب إلى الجزء الآخر من الكوكب. هل تريدين المجيء معي؟».

هل كان يحبّها؟ كان مجنوناً بها. لكنْ من المستحيل معرفة ما الذي في داخله يتفوّق على الأشياء الأُخرى. الرغبة العارمة التي كان يشعر بها تجاهها، أم الخوف المذعور بأن يوقَف، ويُحاكَم، ويُحكم عليه؟ كان قد توقف عن الحلم بمفرزة الإعدام منذ أيّام 1918 التي تلت محادثته مع الجنرال موريو، تحت سمع وبصر النقيب براديل الذي يصعب التعامل معه. الآن عادت أحلامه هذه في كلّ ليلة تقريباً. وعندما لم يكن في الحلم يستمتع مع بولين، كان يُعدَم بفصيلٍ مكوّنٍ من اثنتي عشرة نسخة متشابهة من النقيب براديل. وسواء وصل إلى النشوة أم مات، فإنّ التأثير هو نفسه:

يستيقظ منتفضاً سابحاً في عرقه، ومتعباً، وصارخاً. يبدأ يتلمّس ما حوله باحثاً عن رأس الحصان، وهو الشيء الوحيد القادر على تهدئة مخاوفه.

ما كان في الماضي فرحاً هائلاً سبّبه نجاح مشروعهما، سرعان ما تحوّل لدى الرجُلين، ولأسبابٍ مختلفةٍ إلى هدوءٍ غريب، الهدوء الذي تشعر به عندما تنتهي من مهمّةٍ صعبةٍ تطلّبت منك كثيراً من الوقت، والتي مع البعد الزمنيّ، لا تبدو في الواقع مهمّةً للدرجة التي توقّعاها.

مع بولين، أو بدونها، لم يكن ألبير يتحدّث سوى عن الرحيل. الآن وقد صار المال يتدفّق بموجاتٍ متلاحقة، ما عادت لدى إدوار أيّة حجّةٍ ليعترض. رغماً عنه، رضخ للأمر.

اتُّفِقَ على أن تنتهي الدعاية التجاريّة للذكرى الوطنيّة في يوم الرابع عشر من يوليو، فيشدّان الرحيل في الخامس عشر منه.

- «ولماذا ننتظر إلى اليوم التالي؟». سأل ألبير، وقد جُنّ من الأمر.

- «حسناً». كتب إدوار: «الرابع عشر».

سارع ألبير لتفحّص منشورات الشركات البحريّة، وأشار بإصبعه إلى السكة التي تنطلق من باريس. قطار اللّيل يصل إلى مرسيليا في الساعات الأولى من الصباح، ثمّ هناك رحلة في الناقلة الأولى التي تبحر باتّجاه طرابلس في ليبيا. هنّأ نفسه لأنّه احتفظ بدفتر العسكريّة للمسكين لوي إيفرار، والذي سرقه من الإدارة بعد أيّامٍ من الهدنة. ومنذ الصباح التالي اشترى البطاقات.

- ثلاث بطاقات.

الأولى لمسيو أوجين لاريفيير، والثانية للسيّد والسيّدة لوي إيفرار.

لم تكن لديه أدنى فكرة عن الطريقة التي سيتصرّف بها مع بولين. هل

يمكن خلال خمسة عشر يوماً أن تدفع فتاة إلى أن تتخلّى عن كلّ شيءٍ، وتهرب معك مسافة ثلاثة آلاف كيلومتر. بدأ الشكّ بذلك يساوره أكثر فأكثر.

شهر يونيو هذا كان يلائم العشّاق تماماً. نعومة تشبه نعومة الجنّة. وعندما لم يكن لدى بولين عمل، كانت هناك أمسيات لا تنتهي وساعات كاملة للمداعبات، وللكلام، جالسَين على مقاعد الحديقة العامّة. كانت بولين تنساق وراء أحلام الصبيّة التي لديها، وتقوم بوصف الشقّة التي ترغب بها، والأطفال الذين تريدهم، والزوج الذي تتمنّاه، والذي كانت صورته تزداد كل يوم شبهاً بألبير كما تعرفه، لكنّها تبتعد أكثر فأكثر عن ألبير الحقيقيّ الذي لم يكن في الواقع سوى محتالٍ صغيرٍ في طريقه إلى أن يهرب إلى الخارج.

بانتظار ذلك كان يوجد مال. ألبير بدأ يبحث عن نزلٍ عائليٍّ يستطيع فيه أن يستقبل بولين فيما لو قبلت أن تذهب إليه. استبعد فكرة الفندق التي كان يجد أنّها في هذه الظروف تنمّ عن ذوقٍ سيّئ.

بعد يومين، وجد نزلاً نظيفاً في حيّ سان لازار تديره شقيقتان، أرملتان، مدبّرتان، لديهما شقّتان أجّرتاهما لموظّفين جدّيين، لكنّهما احتفظتا بالغرفة الصغيرة في الطابق الأوّل للأزواج غير الشرعيّين الذين تقومان باستقبالهم مع ابتسامةٍ متآمرةٍ في النهار وفي اللّيل؛ لأنّهما كانتا قد ثقبتا ثقبين في الحائط على مستوى السرير، ولكلّ واحدةٍ منهما ثقبها.

تردّدت بولين. دائماً مع اللازمة نفسها: «لست فتاة من هذا النوع». بعد ذلك قالت: «طيّب». صعدا إلى سيارة الأجرة. فتح ألبير الباب على النزل المفروش من النوع الذي تحلم به بولين تماماً، مع ستائر ثقيلة توحي

بالغنى، وورق جدران على الحائط. فيه طاولة صغيرة برجْلٍ واحدةٍ، وأريكة ضخمة منجّدة بالمخمل تسمح بألّا تأخذ الغرفة كثيراً شكل غرفة نوم.

- «الغرفة لطيفة». قالت.

- «أجل، ليست سيّئة». غامر ألبير بالقول.

هل صار أحمق تماماً؟ بكل الأحوال لم يتخيّل ما سيحصل. احْسب ثلاث دقائق للدخول إلى الغرفة، النظر في أرجائها، خلع المعطف. أضف دقيقة للجزمة بسبب الأربطة، وسترى بولين عاريةً تماماً تقف وسط الغرفة مبتسمة تمنح نفسها بثقةٍ، وثدياها أبيضان بلونٍ يجعلك تبكي، ووركاها ينحنيان بنعومةٍ، مع برزخ جرى التحكّم به على نحوٍ ممتاز... كلّ هذا لنقول: إنّ الصغيرة لم تكن بصدد تجربتها الأولى، وإنّها بعد أن شرحت خلال أسابيع كلّ ما لم تكن عليه، ولأنّها قد ضحّت بنفسها للتقاليد، فقد كانت مستعجلة لترى الأشياء عن قرب. تجاوز الأمر ألبير تماماً. أضف أربع دقائق، وسترى ألبير يصرخ من المتعة. رفعت بولين رأسها متسائلة وقلقة، ثمّ سرعان ما أغلقت عينيها، وقد هدأت؛ لأنّ ألبير كان لديه نوع من الخجل. لم يكن قد عاش مثل هذا المشهد منذ عشية ذهابه إلى الجيش مع سيسيل قبل عدّة قرون، وقد تأخّر إلى درجة أنّ بولين قالت له في النهاية: «صارت الساعة الثانية صباحاً يا قلبي. يمكن لنا أن ننام قليلاً، لا؟». التفّ جسداهما على بعضهما على شكل ملعقة. غطّت بولين في النوم، بينما راح ألبير يبكي بدون صوتٍ كي لا يوقظها.

عاد متأخّراً في المساء بعد أن ترك بولين. بدءاً من اليوم الذي نامت فيه فوقه في الغرفة المفروشة، صار إدوار يراه أقلّ. قبل أن يذهب للقائها

في الأمسيات التي لم تكن تعمل فيها، كان ألبير يمرّ على الشقّة، مع حقيبة الأوراق الماليّة. عشرات، مئات، آلاف الفرنكات تتكدّس في حقيبةٍ يزلقها تحت السرير الذي ما عاد ينام فيه. تحقّق من أنّ لدى إدوار ما يأكله، وقبل أن يخرج، قبّل لويز التي كانت ما تزال منحنية على القناع الذي ستصنعه من أجل يوم غد، والتي أجابته، وهي شاردة، مع بعض الحقد في نظرتها مثل عتبٍ عليه لأنّه هجرهما.

في مساء يوم ما، كان ذلك في الثاني من يونيو، وهو يوم جمعة، عاد ألبير مع حقيبته التي تحتوي على سبعين ألف فرنك، فوجد الشقة فارغة.

مع الأقنعة من جميع الأشكال، وجميع الألوان المعلّقة على الجدران. كانت الغرفة الكبيرة الفارغة تشبه مستودع متحف. يوجد وعل مغطّى بحراشف صغيرة جدّاً من الخشب، وله قرون طويلة جدّاً ينظر إليه محدّقاً. هناك أيضاً هنديٌّ مزيّنٌ بألوانٍ فاقعةٍ، وبشفاه الثعبان، ومغطّى باللآلئ والقطع الملوّنة اللمّاعة، وكذلك كائنٌ غريبٌ يعذّبه الخجل، أنفه شديد الطول مثل كاذبٍ أُمسِك به متلبّساً ممّا يعطيك رغبة بأن تحلّه من جميع الخطايا التي اقترفها. أينما استدار ألبير، كانت هذه الشخصيّات تنظر إليه بإشفاق، وهو واقفٌ عند الباب مع حقيبته.

يمكن تخيّل ذعره؛ إذْ لم يخرج إدوار على الإطلاق منذ أن انتقلا إلى هنا. لويز لم تكن هناك هي الأُخرى. ما من كلمةٍ على الطاولة، لا شيء يدلّ على رحيلٍ مفاجئ. انحنى ألبير تحت السرير. الحقيبة ما زالت في موضعها؛ وإن كان ينقص منها بعض النقود، فإنّ ذلك لم يكن ملحوظاً، فقد كان فيها عددٌ كبيرٌ جدّاً من الأوراق النقديّة؛ بحيث إنّك لو أخذت خمسين ألف فرنك لن يظهر ذلك. كانت الساعة السابعة مساء. أعاد ألبير الحقيبة إلى مكانها وركض إلى عند مدام بيلمون.

لقد طلب أن يصطحب الصغيرة معه خلال نهاية الأسبوع، وأنا قلت: نعم.

عبّرت عن ذلك مثل العادة، بدون تلوّنات في اللّهجة، وبالطريقة الإخباريّة والبعيدة التي يُصاغ بها خبرٌ قصيرٌ في الجريدة.

كانت هذه المرأة تعيش في الفراغ خارج نطاق جسدها تماماً.

قلق ألبير لأنّ إدوار كان قادراً على كلّ شيء. وعندما تتخيّله حرّاً في المدينة، لا تستطيع أن تمتنع عن أن تصاب بالجنون. ألف مرّةٍ شرح له ألبير كم كان وضعهما خطراً، وأنّهما يجب أن يرحلا في أقرب وقتٍ ممكن، وأنّه إن كان يجب الانتظار (كان إدوار يتمسك بالمليون الذي هو حصّته، ولم تكن هناك أيّة إمكانيّةٍ للرحيل قبل ذلك!) سيكون عليهما أن يراقبا كلّ شيء، وعلى الأخصّ، ألّا يلفتا الانتباه.

- «أتعرف؟ عندما يفهمون ما قمنا به». كان يشرح: «لن يكون التحقيق طويلاً. هناك الآثار التي تركتُها أنا في البنك. وقد رأوني يوميّاً في مكتب بريد اللّوفر. وساعي البريد يحمل إلى هنا أطناناً من الرسائل. ذهبنا إلى عند شخصٍ لديه مطبعة، وسوف يخبر عنا بمجرّد أن يفهم ما الذي ورّطناه به رغماً عنه. وبالنسبة إلى الشرطة، سيكون العثور علينا مسألة أيّام، بضع ساعات، بل حتّى...».

كان إدوار يوافق. عدّة أيّام. اتّفقنا. سننتبه. وها هو قبل أسبوعين من هروبهما يترك البيت ليتنزّه مع طفلةٍ صغيرةٍ في باريس، أو في مكانٍ آخر، كما لو أنّ وجهه المحطّم بالمقارنة مع جميع الوجوه التي نراها هنا وهناك لم يكن أبشع وجهٍ يمكن التعرّف إليه بسهولة.

أين يمكن أن يكون قد ذهب؟

34

- كتبوا لي أنّ الفنّان موجودٌ في الأمريكيّتين.

كان لابوردان يستخدم دائماً صيغة المثنى كي يدلّ على أمريكا، مقتنعاً بأنّ التعبير الذي يشمل مجمل القارّة يجعل منه رجُلاً أكثر اعتباراً. انزعج مسيو بيريكور.

- «سوف يعود في منتصف شهر يونيو». قال له رئيس بلديّة الدائرة الباريسيّة مطمئناً.

- سيكون الوقت قد تأخّر...

لابوردان الذي توقّع ردّ الفعل ابتسم.

-لا، على الإطلاق يا عزيزي الرئيس! تصوّر أنّه كان متحمّساً للغاية بسبب هذه الطلبيّة، إلى درجة أنّه بدأ العمل على الفور، وهو يتقدّم بخطواتٍ عملاقة! فكّر، سيُصمّم صرحُنا في نيويورك (يلفظ لابوردان الاسم: نيويورغك) ويُنفّذ في باريس... يا لروعة هذا الرمز...!

بسحنةٍ شرهةٍ يخصّصها عادةً للصحون الممتلئة بالصلصة، ولأفخاذ سكرتيرته، سحب من جيبه الداخليّ مغلّفاً كبيراً.

- إليك بعض الرسومات التخطيطيّة الإضافيّة التي أرسلها إلينا الفنّان.

عندما مدّ مسيو بيريكور يده، لم يستطع لابوردان أن يمتنع عن سحب المغلّف لبرهةٍ قصيرة.

- إنّه أكثر من رائع يا سيّدي الرئيس؛ مثالي!

ما معنى هذه المزاودة الكلاميّة؟ من المستحيل معرفة ذلك. كان لابوردان يصمّم جُملاً تتألّف من مقاطع صوتيّة، ونادراً من أفكار. أصلاً لم يتوقّف مسيو بيريكور عند ذلك؛ إذْ إنّ لابوردان مستدير الغباء. أينما تديره يبدو عليه الغباء نفسه. لا تفهم منه أيّ شيء، ولا تنتظر منه أيّ شيء.

طلب منه مسيو بيريكور الرحيل قبل أن يفتح المغلّف. كان يريد أن يبقى وحده.

نفّذ جول ديبرومون ثمانية رسوم. مخطّطان إجماليّان بمنظورٍ غير اعتيادي، كما لو أنّك اقتربت منه كثيراً، ورحت تنظر إلى الصرح من الأعلى. أمرٌ غير متوقّع أبداً. الرسمة الأولى تُظهر الطرف الأيمن من الجداريّة الثلاثيّة، وعنوانها: «فرنسا تدفع قوّاتها إلى المعركة»؛ والثانية على اليسار: «جنود شجعان يسدّدون على العدوّ».

ظلّ مسيو بيريكور في حالة انجذابٍ إلى ذلك الرسم. الصرح الذي كان جامداً حتّى تلك اللّحظة، صار فجأةً شيئاً آخر. هل هو ذلك المنظور غير الاعتياديّ في الرسومات أم كونه يهيمن عليك، يجعلك تنكمش، يبدو كأنّه يسحقك...؟

حاول أن يصف انطباعه. جاءته الكلمة بسيطة، شبه غبيّة، لكنّها تقول كلّ شيء: «حيّ». تماماً، هي صفةٌ سخيفةٌ، وكان يمكن أن تأتي من لابوردان، لكنّ المشهدين كانا يدّلان على واقعيةٍ كاملةٍ، حقيقيّة أكثر من بعض الصور الفوتوغرافيّة للحرب كما تراها في الجرائد، والتي تظهر الجنود في ساحة المعركة.

الرسوم الستّة الأُخرى كانت مخطّطات مكبّرة لبعض التفاصيل. وجه المرأة التي ترتدي الثوب ذا الثنيات، وجه أحد الجنود مرئياً من الجانب، الوجه الذي جعل مسيو بيريكو يختار هذا المشروع ما كان موجوداً فيه... شيء يثير الغضب.

تصفحّ الرسومات، قاربها مع الصور التي لديه، أمضى وقتاً طويلاً، وهو يحاول أن يتخيّل نفسه يدور حول الصرح الحقيقيّ، بل وأن يرى نفسه داخله. لا يمكن قول ذلك على نحوٍ مختلف. لقد بدأ مسيو بيريكور يعيش داخل صرحه، كما لو كانت لديه حياة مزدوجة، وأنّه أسكن عشيقة في شقّته يمضي فيها ساعات كاملة بالخفاء عن كلّ الناس. بعد عدّة أيّام، صار يعرف مشروعه كاملاً إلى درجةٍ استطاع معها أن يتخيّله من جميع الزوايا التي لم تُرسم.

لم يختبئ من مادلين. كان ذلك بلا فائدة. فلو كانت هناك امرأة في حياته، لاكتشفت ذلك من الوهلة الأولى. تدخل إلى مكتبه، فتجد أباها واقفاً في منتصف الغرفة، وعلى الأرض جميع الرسوم مفروشة على نحوٍ دائريٍّ حوله، أو تجده جالساً في أريكته، والمكبّر في يده، وهو يتفحّص تفاصيل رسمة تخطيطيّة، لا بل إنّه قلّب تلك الرسومات كثيراً إلى درجةٍ خشي معها أن تخرب.

جاء مصمّم الإطارات ليأخذ القياسات (رفض مسيو بيريكور أن يأخذوا الرسوم إليه). حمل في اليوم التالي لوحات زجاجيّة وبراويز، وفي المساء كان كلّ شيءٍ قد انتهى. خلال ذلك الوقت جاء عاملان لكي يفكّوا عدّة أقسامٍ من المكتبة من أجل ترتيب أمكنةٍ للتعليق. تحوّل المكتب من ورشة إطاراتٍ إلى صالة عرضٍ مخصّصةٍ لعملٍ واحد؛ صرحه هو.

استمرّ مسيو بيريكور في العمل، وفي الذهاب إلى الاجتماعات، وفي

ترؤّس مجالس الإدارة، وفي استقبال وكلائه من الصرّافين في مكاتبه في المدينة، ومديري فروع شركته، لكنّه كان يحبّ أكثر من ذي قبل أن يعود ويغلق على نفسه الباب. غالباً ما كان يتعشّى وحده وتُحمل له الوجبات إلى غرفته.

حصل نضجٌ بطيءٌ في داخله. توصّل أخيراً إلى فهم بعض الأشياء، واستعاد انفعالاتٍ قديمة، وأحزاناً شبيهةً بتلك التي عاشها عند موت زوجته. عاد إليه الشعور بالفراغ وبسطوة القدر الذي تألّم منه في تلك الفترة. كذلك صار يوجّه إلى نفسه ملامةً أقلّ فيما يتعلّق بإدوار.

بتصالحه مع ابنه، تصالح مع نفسه، ومع ما كان عليه من قبل.

هذا الهدوء في مشاعره ترافق باكتشاف: فما بين دفتر رسومات إدوار عندما كان في الجبهة، وبين مخطّطات صرحه هذا، توصّل مسيو بيريكور إلى أن يشعر فيزيائيّاً بما لن يتسنّى له معرفته أبداً؛ الحرب. هو الذي ما كان يمتلك أيّة مخيّلة، شعر بانفعالاتٍ تجد أصولها في وجه جنديٍّ، أو في حركةٍ ما داخل الجداريّة. صار عنده وقتها شيءٌ يشبه تحويل مشاعره وصبّها على أشياء أُخرى. الآن إذْ ما عاد يلوم نفسه لأنّه كان أباً أعمى وغير حسّاس، الآن وقد صار يتقبّل ابنه، وحياة ابنه، صار ألمه من موته أكبر. قبل أيّام فقط من الهدنة، كأنّه لا يكفيه ظلماً أن يموت إدوار في حين عاد آخرون أحياء! هل مات مباشرةً كما أقسم على ذلك مسيو مايار؟ في بعض الأحيان كان على مسيو بيريكور أن يمسك نفسه كي لا يستدعي من جديد هذا الجنديّ السابق الذي كان يعمل في مكانٍ ما في المصرف الذي يملكه لكي ينتزع منه الحقيقة. لكنْ في النهاية، هذا الرفيق نفسه، ما الذي يعرفه حقّاً عمّا شعر به إدوار في لحظة الموت؟

لكثرة ما تفحّص تفاصيل العمل الذي سيُنجز، تفاصيل صرحه، تعلّق

مسيو بيريكور أكثر فأكثر ليس بالوجه شديد الألفة الذي دلّته عليه مادلين، والذي تذكّره جيّداً، إنّما بالجنديّ الميّت المستلقي على يمين الجداريّة، والنظرة الملتاعة التي تلقيها عليه منحوتة **انتصار**. لقد التقط الفنّان شيئاً بسيطاً وعميقاً. ومسيو بيريكور شعر بالدموع تجتاحه عندما فهم أنّ انفعاله يأتي من كون الأدوار قد انعكست: فهو الميّت اليوم، و**انتصار** هو ابنه الذي يلقي على أبيه هذه النظرة المتألّمة والمقهورة، والتي تجعل القلب ينهار.

انقضت الساعة السابعة والنصف، ومع ذلك لم تخفّ حرارة ما بعد الظهر. الطقس حارٌّ جدّاً في هذه السيّارة المستأجرة، وزجاجها المفتوح على الشارع لا يُدخل أيّة برودة. لا شيء سوى نسمةٍ فاترةٍ مُتعِبة. راح هنري يربّت على ركبته بعصبيّة. تلميحات مسيو بيريكور عن بيع سالوفيير تشغل فكره بالكامل. إن كان يجب أن يحصل ذلك فسيخنقه بيديه هاتين، هذا العجوز الحقير! تساءل في قرارة نفسه إن كان له دور في الصعوبات التي عاشها هو، إن كان قد شجّع عليها. لماذا ظهر هذا الموظّف الوضيع فجأةً، وبهذا الإصرار، بهذا التشبّث؟ ألم تكن لوالد زوجته أيّة يد في ذلك؟ ضاع هنري في التخمينات.

أفكاره القاتمة، وغضبه الشديد المكبوت ما كانا عائقاً أمام مراقبة دوبريه الذي كان هناك يسير على الرصيف بدون أن يلفت النظر مثل رجُلٍ يخفي تردّده.

كان هنري قد رفع زجاج السيّارة من جهته كي لا يراه أحد، ولا يتعرّف إليه أحد. يستحقّ الأمر اللّجوء إلى سيّارة أجرة كي لا يلفت الانتباه عند أوّل زاويةٍ من الشارع. شعر بالاختناق يصل إلى رقبته. في الحرب، على الأقلّ تعرف من هو عدوّك! رغماً عنه، وبينما كان يجرّب أن يركّز انتباهه على

المشكلات التي ستحصل، كانت أفكاره تقوده بلا توقّف نحو لا سالوفيير. يتخلّى عن ذلك؟ أبداً! كان قد ذهب إلى هناك في الأسبوع الماضي: أعمال الترميم ممتازة، ومجمل البناء صار له مظهر مذهل. يمكن التخيّل مباشرة: أمام الواجهة الواسعة، انطلاق رحلات الصيد مع الكلاب، أو العودة من موكب زواج ابنه... التخلّي عن آماله كان مستحيلاً. ما من أحدٍ يمكن أن ينتزع منه ذلك أبداً.

بعد المقابلة مع بيريكور، لم يكن قد بقي لديه سوى رصاصة واحدة، واحدة فقط.

- «أنا صيّاد ماهر». كان يكرّر لنفسه ليطمئن.

ليس لديه سوى ثلاث ساعات لكي ينظّم هجومه المضادّ مع فريقٍ هزيلٍ يقتصر على دوبريه. لا بأس، سوف يقاتل حتّى النهاية. ولئن ربح في هذه المرّة -سيكون ذلك صعباً، لكنّه قادر على ذلك- سيصبح هدفه الوحيد هذا العجوز الحقير بيريكور. «سيستغرق ذلك ما يلزم من الوقت». قال لنفسه: «لكنّني سأنال منه». جعله هذا القسم يستعيد جأشه.

رفع دوبري رأسه فجأةً، واجتاز الشارع، ومشى بسرعةٍ في الاتّجاه المعاكس، اجتاز مدخل الوزارة، أمسك بذراع رجُلٍ استدار نحوه بدهشة. كان هنري من بعيد يراقب المشاهد ويقيّم الشخص. لو أنّ هذا الرجُل كان رجُلاً يهتمّ بنفسه لكان كلّ شيء ممكناً، لكن كلّ ما فيه يشبه المشرّدين، وسيكون ذلك معقّداً.

وقف في منتصف الرصيف، والذهول بادٍ على وجهه، كان طوله مهيمناً على دوبريه بالرأس وبالذراعين. بتردّدٍ أدار عينيه نحو السيّارة التي دلّه عليها بحركةٍ خفيفةٍ، والتي كان هنري ينتظر داخلها. لحظ هذا الأخير

الحذاء الضخم، والوسخ، والمهترئ. تلك هي المرّة الأولى التي يرى فيها شخصاً يشبه حذاءه. في النهاية عاد الرجُلان أدراجهما، وهما يمشيان ببطء. بالنسبة إلى هنري، رُبِح الشوط الأوّل، لكنّ ذلك ما يزال بعيداً عن أن يشكّل مرحلة أولى من حساب النصر.

حصل على تأكيد ذلك بمجرّد أن صعد ميرلان إلى السيّارة. كانت رائحته سيّئة للغاية، وتبدو عليه هيئة عابسة. اضطرّ إلى الانحناء لكي يدخل في السيّارة، وبعدها احتفظ برأسه مدفوناً بين كتفيه، كما لو كان ينتظر أن ينهمر عليه مطر من القذائف. وضع على الأرض بين قدميه حقيبة ضخمة من الجلد عرفت أيّاماً أفضل. كان مسنّاً، قريباً من التقاعد. كلّ شيءٍ قديمٌ وبشعٌ لدى هذا الرجُل ذي النظرة الشرسة، والمقاتلة، والمهملة، والتي تتساءل لماذا يتم الاحتفاظ به.

مدّ هنري يده، لكنّ ميرلان لم يستجب. واكتفى بتفحّص وجهه. من الأفضل الدخول إلى لبّ الموضوع.

توجّه هنري إليه بطريقةٍ افتعل أنّها أليفة، كما لو كان يعرفه من زمنٍ طويلٍ، ويستعدّ للتحدّث إليه عن أشياء بلا أهميّة:

- لقد كتبتَ تقريرين... عن مقابر شازيير مالمون وبونتافيل، أليس كذلك؟

اكتفى ميرلان بزمجرة. لم يحبّ هذا الرجُل الذي تفوح منه رائحة الغنى، ولديه ما يميّز المحتالين، لا بل إنّ قدومه إلى هنا ليبحث عنه هكذا، ويلتقي به داخل سيّارة، خلسة...

- «ثلاثة». قال له.

- ماذا؟

- ليس تقريرين، بل ثلاثة. سوف أسلّم قريباً تقريراً جديداً، عن مقبرة دارغون لو غران.

بالطريقة التي قال بها هذه الجملة، فهم براديل أنّ براغي مسألته قد انشدّت من جديد وازدادت تعقيداً.

- لكن... متى ذهبت إلى هناك؟

- الأسبوع الماضي. ليس جميلاً ما رأيته هناك.

- كيف؟

براديل الذي كان مستعداً للدفاع عن مسألتين، صار عليه الآن أن يركض وراء الثالثة.

- «حسناً، نعم... هكذا». قال ميرلان.

رائحة فمه تشبه الضبع، وصوته الأخنّ مزعجٌ للغاية. في الأحوال العاديّة كان على هنري أن يبقى مبتسماً ولطيفاً، وأن يبدو ممّن يوحون بالثقة. لكنّ دارغون الآن... ذلك يتجاوز قدرته. هي مقبرة متواضعة فيها مئتان، أو ثلاثمئة قبر، لا أكثر أبداً. مع جثامين يجب نقلها إلى مكان قريب من فردان. أية حماقة تلك التي اقترفوها هناك أيضاً، لم يسمع أحداً يتحدث عن أي شيء! بشكل آلي نظر إلى الخارج. كان دوبريه قد عاد إلى مكانه السابق على الرصيف الآخر، واضعاً يديه في جيبيه، يدخّن، وهو ينظر إلى واجهات المتاجر. كان عصبيّاً هو الآخر.

وحده ميرلان بقي هادئاً. أفلتت منه في النهاية هذه الجملة:

- كان عليك أن تراقب رجالك...

- بالطبع، هذه هي المشكلة برمّتها يا سيّدي العزيز. لكنْ مع كلّ هذه الورشات كيف تريد أن أفعل؟

لم يكن لدى ميرلان أيّة نيّة في التعاطف. سكت.

شعر هنري بأنّ من الضروري جعله يتحدّث. لا يمكن أن تنال أيّ شيء من شخصٍ يسكت. اتّخذ وضعيّة رجُلٍ استحوذت عليه مسألة لا تتعلّق به شخصيّاً، مجرّد قصّةٍ عاديّةٍ، لكنّها ممتعة.

- قل لي... ما الذي يحصل في دارغون على وجه الدقة؟

ظلّ ميرلان مدّةً طويلةً بدون جواب. تساءل هنري إن كان قد سمع السؤال. عندما فتح ميرلان فمه ليتكلّم، لم تتحرّك أيّة واحدةٍ من قسمات وجهه، فقط الشفاه. من الصعب أن يتنبأ الإنسان بنيّاته.

- يدفعون لك بالمفرق؟ هه؟

باعد هنري يديه كثيراً، وقد فتح راحتيه في الهواء.

- هذا بديهيّ، طبيعيٌّ جدّاً، يُدفع لنا حسب العمل.

- ورجالك، تدفع لهم على القطعة؟

قطّب هنري. «نعم، بالطبع، وماذا في ذلك؟». إلى أين يريد أن يصل؟

- «لهذا هناك تراب في التوابيت». قال ميرلان.

زمّ هنري عينيه. ما هذه الحكاية بحقّ الشيطان؟

- «هناك توابيت لا يوجد في داخلها أحد». قال ميرلان من جديد: «لكي يكسبوا مزيداً من المال، ينقل عمّالك التوابيت ويدفنونها بدون أن يكون في داخلها أحد. تراب فقط، لكي يكون لها وزن».

ردّ فعل براديل كان مفاجئاً. فكّر: «عصابة أرذال! ضاق صدري منهم بالفعل». ويشمل ذلك بالمعيّة دوبريه وكلّ هؤلاء الحمقى هناك، والذين يأملون دائماً أن يتسنّى لهم كسب شيءٍ أكثر، وهُم يقومون بأيّ عمل...

خلال عدّة ثوان، ما عادت المسألة تتعلّق به، ليدبّروا أنفسهم. دعهم يتدبّرون أمورهم؛ أمّا هو، فقد أُرهق!

أعاده صوت ميرلان إلى الواقع، وإلى كونه بصفته رئيساً للشركة قد تورّط حتّى ذقنه؛ أمّا هُم، فسيأتي دورهم لاحقاً، كلّ الحق عليهم.

- «ثمّ... هناك البوش». أفلتت الكلمة من ميرلان.

ظلّ يتكلّم بدون أن يحرّك سوى شفاهه.

- البوش؟

اعتدل هنري في جلسته على مقعد السيّارة. أوّل بارقة أمل؛ لأنّه إن تعلّق الأمر بهذا، فهذا ملعبه. حول مسألة البوش، لا أحد يباريه. حرّك ميرلان رأسه. لا، إنّما بحركةٍ بالكاد مرئيّة إلى درجة أنّ هنري لم يلمحها في البداية، ثمّ انبثق الشكّ. البوش، صح، أيّ بوش؟ مادخلهم بهذه القصّة؟ يبدو أنّ وجهه عكس أفكاره؛ لأنّ ميرلان أجاب كما لو أنّه فهم عدم تأكّده.

- «إن ذهبت إلى دارغون...». بدأ بالكلام.

توقّف بعدها. قام هنري بحركةٍ بذقنه. «هيّا، أخرجها هذه الدرّة؟ ما هي هذه القصّة؟».

- «هناك قبور فرنسيّة». قال ميرلان مجدّداً: «في داخلها جنودٌ ألمان».

فتح هنري فمه مثل سمكة، وقد تركته هذه القصّة مشدوهاً. مصيبة! الجثّة هي جثّة، طيّب. بالنسبة إلى براديل، بعد أن يموت الإنسان، أن يكون فرنسيّاً، أو ألمانيّاً، أو سنغاليّاً لا يهمّه ذلك مطلقاً. في هذه المقابر، ليس من النادر اكتشاف جسد جنديٍّ أجنبيٍّ، أحد أولئك الذي ضاعوا، وحتّى في بعض الأحيان عدّة جثامين، جنود من وحدات الهجوم، من الطلائع؛ فالقوّات تتحرّك جيئةً وذهاباً طيلة الوقت... هناك تعليمات مشدّدة للغاية

أعطيت في هذا المجال. جثامين الجنود الألمان يجب أن تُفصل على نحوٍ كامل عن جثامين الأبطال المنتصرين. هناك مربّعاتٌ مخصّصةٌ لهم في المدافن التي أسّستها الدولة. كانت الحكومة الألمانيّة، وكذلك قسم معالجة الأكفان العسكريّة الألمانيّة، قد تناقشوا مع السُّلطات الفرنسيّة عن المصير النهائيّ لعشرات الآلاف من «الأجساد الأجنبيّة». بانتظار ذلك، فإنّ أيّ خلطٍ بين جنديٍّ فرنسيٍّ وجنديٍّ ألمانيٍّ يعدّ نوعاً من الكفر.

دفن رجُل بوش في قبرٍ فرنسيّ، وتخيّل عائلاتٍ بأكملها تعتكف أمام مواقع دُفن تحتها جنود أعداء، أجساد أولئك الذين قتلوا أولادنا، أمرٌ غير مقبول على الإطلاق، ويكاد يُعدّ انتهاكاً لحرمة المقابر!

الفضيحة أكيدة.

- «سأهتمّ بذلك». تمتم براديل الذي ما كانت لديه أدنى فكرة عن اتّساع الكارثة هذه، ولا عن وسائل حلّها.

- كم عددهم؟ منذ متى وُضع الألمان في توابيت فرنسيّة؟ كيف نجدهم؟

أكثر من أيّ وقتٍ مضى، يجب على هذا التقرير أن يختفي.

وعلى نحوٍ حتمي.

نظر هنري إلى ميرلان بإمعانٍ أكبر، ووعى أنّه كان أكبر سنّاً أيضاً ممّا بدا له في البداية بسبب قسماته الغائرة، وتلك النظرة الزجاجيّة التي تؤذن بمرض الماء الأبيض، ثمّ إنّ رأسه كان بالفعل صغيراً جدّاً مثل بعض الحشرات.

- هل أنت موظّف من مدّةٍ طويلة؟

طرح السؤال بصوتٍ حادٍّ، سلطويٍّ، وبلهجةٍ عسكريّة. بالنسبة إلى ميرلان، بدت هذه اللّهجة شبيهة باتّهام. لم يُحبّ هذا الأولني براديل

الذي يتوافق على نحوٍ ممتازٍ مع ما تخيّله: فمٌ لا يشبع، محتالٌ، غنيٌّ، ساخرٌ بقسوة. وخطرت على باله كلمة «تاجر» التي صارت دارجةً جدّاً. قبل ميرلان أن يصعد إلى هذه السيّارة لأنّ هناك فائدة من ذلك، لكنّه شعر بنفسه منزعجاً داخلها، كما لو كان داخل تابوت.

- «موظّف؟». أجاب: «طيلة حياتي».

عبّر عن ذلك بلا فخر، وبلا مرارة. مجرّد إقرارٍ بسيطٍ من رجُلٍ ما تخيّل قطّ لنفسه وضعاً آخر غير ذلك.

- ما هي رتبتك اليوم، مسيو ميرلان؟

تلك نظرةٌ صائبةٌ، لكنّها جارحةٌ، ولا يترتّب عليها أيّ شيءٍ؛ لأنّه بالنسبة إلى ميرلان، بقاؤه في مكانه، في أعمق أعماق الهرم الإداريّ، وهو على بُعد أشهرٍ من التقاعد، كان دائماً بمنزلة جرحٍ مفتوح. إهانة. بالكاد تلا ترفيعه قرار تحسين الوضع المرتبط بالقِدَم فقط، وقد وجد نفسه في وضعٍ مشابهٍ لجنديٍّ من مرتبةٍ عاليةٍ ينهي حياته العسكريّة، وهو يرتدي ملابس جنديٍّ من الدرجة الثانية.

- «لقد قمتَ بعملٍ رائعٍ، في هذا التفتيش». قال براديل من جديد.

كان معجباً. لو أنّ ميرلان كان امرأةً لأمسك يدها.

- بفضل جهودك وانتباهك، سيتسنّى لنا أن نعيد النظام إلى كلّ ذلك. هؤلاء العمّال الذين يفتقدون إلى الحساسيّة، سوف نطردهم. تقاريرك ستكون ذات فائدةٍ كبيرةٍ لنا، ستسمح لنا أن نمسك الأمور بيدٍ من حديد.

تساءل ميرلان عمّن تكون هذه الـ«لنا»، في فم براديل. وصل الجواب مباشرة؛ هذه الـ«نحن» هي السُّلطة التي لدى براديل: هو، وأصدقاؤه، وعائلته، وعلاقاته...

- «الوزير نفسه سيهتمّ بالموضوع». تابع هنري: «بل إنّني أستطيع أن أقول لك: إنه سيكون ممتنّاً، أجل، ممتنّاً لكفاءتك وعدم تبجّحك لأنّنا بلا شكّ لن نستطيع الاستغناء عن تقاريرك. لكنْ لن يكون من الجيّد لأحدٍ أن ينتشر الخبر، أليس كذلك؟».

هذه الـ «نحن»، تجمع عالماً كاملاً من السُّلطة، والتأثير، والصداقات على أرفع المستويات، وأصحاب القرار، أفضل ما في السلّة؛ أي: تقريباً كلّ ما يكرهه ميرلان.

- سوف أتكلّم شخصيّاً مع الوزير عن ذلك يا مسيو ميرلان...

ومع ذلك، مع ذلك، وهذا هو الأمر المحزن أكثر من أيّ شيءٍ آخر، شعر ميرلان أنّ هناك شيئاً ما يتصاعد في داخله على الرغم من مقاومة جسده. شيء مثل انتصابٍ لا يمكن التحكّم به. فبعد كلّ هذه السنوات من الذلّ، أن يحصل في النهاية على ترقيةٍ جميلةٍ، وأن يُسكت كلّ ألسنة السوء، بل وأن يأمر أولئك الذي أذلّوه... عاش لحظات فيها كثافة مجنونة.

رأى براديل بوضوح على وجه هذا الفاشل أنّ أيّ منصبٍ سيكون كافياً، أيّة زينةٍ ولو من الزجاج، كتلك التي تُعطى للسود في المستعمرات.

عاد براديل للقول:

-... وسوف أقوم بما في وسعي لكيلا تُنسى كفاءتك وجدارتك، إنّما على العكس، أن تُكافأ كما يجب.

هزّ ميرلان رأسه بعلامة الموافقة.

- «أوه، بما أنّك هنا...». قال بصوتٍ مكتوم.

انحنى على حقيبته الجلديّة الكبيرة، وبحث مطوّلاً. بدأ هنري يتنفّس، لقد وجد المفتاح. يجب الآن أن نتوصّل إلى جعله يسحب تقاريره، ويلغي

كلّ شيء، بل وأن يعيد كتابة محاضر جديدة فيها مديح، مقابل تعيين، ترقية، مكافأة. مع الوضيع، أيّ شيء يكفي.

فتّش ميرلان طويلاً، ثمّ رفع رأسه، وفي يده ورقة مجعلكة.

- «بما أنّك هنا». كرّر: «يجب أن تعيد الأمور إلى نصابها هنا».

أمسك هنري بالورقة وقرأها. كانت دعاية. ابيضّ وجهه. كانت شركة فريباز تقدّم عرضاً بسعرٍ جيّدٍ لشراء كلّ أطقم الأسنان المستعملة، حتّى لو كانت مكسورةً، وغير قابلةٍ للاستعمال.

تقرير التفتيش تحوّل إلى ديناميت.

- «فكرة ممتازة، هذه القصّة». قال ميرلان مجدّداً: «إنّها تشكّل ربحاً متواضعاً بالنسبة إلى العمّال المحليّين. عدّة سنتيمات لكلّ طقم أسنان. في النهاية، السواقي الصغيرة تصنع الأنهار الكبيرة.

دلّ بيده على الورقة التي يمسكها براديل.

تستطيع أن تحتفظ بها، عندي نموذجٌ أخر منها في تقريري.

استعاد حقيبته، وتحدّث إلى براديل بلهجة شخصٍ ما عادت المحادثة تهمّه. وكان ذلك صحيحاً؛ لأنّ ما تبدّى له لتوّه جاء متأخّراً. وهذه البارقة من الرغبة؛ توقّع الترقية، أو مرتبة جديدة، قد تبدّدت. سيترك الآن الوظيفة العامّة، وقد تخلّى عن أيّ أملٍ بالنجاح. لا شيء يستطيع أن يمحو أبداً أربعين سنة مثل تلك التي عاشها، لا بل ما الذي يمكن أن يفعله، وهو جالسٌ في كرسيّ رئيس قسم، يعطي الأوامر لناس كان دائماً يحتقرهم؟ ضرب على حقيبته. حسناً. هذا لا يزعجني.

أمسك براديل فجأة بساعده.

تحت المعطف شعر بالنحول. تصل يدك مباشرةً إلى العظم، ما يعطي

انطباعاً مقيتاً للغاية. هذا الرجُل كان هيكلاً عظميّاً كبير الحجم كُسِي عند بائع الخرق.

- كم تدفع أجرة لبيتك؟ كم تكسب في الشهر؟

انتشرت الأسئلة مثل تهديدات. انتهت المقاربات من بعيد. ستصبح المعركة واضحة الآن. ميرلان الذي لم يكن يخيفه شيء قام مع ذلك بحركة تراجع. كلّ شخص براديل كان ينضح بالعنف. شدّ على ساعده بقوّةٍ هائلة.

- «كم تقبض؟». كرّر.

حاول ميرلان أن يستعيد رباطة جأشه. طبعاً يعرفه عن ظهر قلب، هذا الرقم: ألف وأربع وأربعون فرنكاً في الشهر. اثنا عشر ألف فرنك بالسنة، بالكاد ظلّ بفضلها على قيد الحياة طيلة العمر. ليس لديه شيء. يمكن أن يموت مجهولاً وفقيراً، وألّا يترك شيئاً لأحد، وبكل الأحوال، ما كان عنده أحد. مسألة الراتب مُذلّة أكثر من مسألة الرتبة التي تظلّ محصورةً داخل جدران الوزارة؛ أمّا العوز، فهو أمرٌ آخر، تحمله في كلّ مكان معك. وهو ينسج حياتك، ويتحكّم بها على نحوٍ كامل، وفي كلّ لحظةٍ يتحدّث إليك في أذنك، وينضح عرقاً في كلّ ما تقوم به. أن تكون معدماً أسوأ من أن تكون في البؤس؛ لأنّه توجد طريقة للبقاء كبيراً داخل الأنقاض، أمّا الفاقة فتقودك إلى الوضاعة، وإلى الذلّ، تصبح منحطّاً، شحيحاً. توصلك إلى الدرك الأسفل؛ لأنّك في مواجهتها لا تستطيع أن تبقى بلا مساس، وأن تحتفظ بكبريائك وبقيمتك.

كان ميرلان قد وصل إلى هنا، وقد غامت رؤيته. عندما استعاد تفكيره، حصل له ما يشبه الانبهار.

كان براديل يحمل ظرفاً ضخماً ممتلئاً إلى درجة تنفزر منه أوراق نقديّة عريضة مثل أوراق شجرة الجمّيز. لم تعد الأمور تتم بأناقة. فالنقيب القديم لم يكن بحاجةٍ إلى أن يقرأ كانط لكي يقتنع بأنّ لكلّ إنسانٍ سعره.

- «لن نراوغ حول الموضوع». قال بصرامةٍ لميرلان: «في هذا المغلّف يوجد خمسون ألف فرنك».

في هذه المرّة، فقد ميرلان توازنه. راتب خمس سنوات لفاشلٍ في نهاية الشوط. أمام مبالغ كهذه، لا يمكن ألّا يهتمّ الإنسان. ذلك أقوى ممّا تستطيع، ترى مباشرةً صوراً، ودماغك يبدأ بالحساب، ويبحث عن أشياء تعادل هذا المبلغ، كم تساوي شقّة، وسيّارة...؟

- «وفي هذا المغلف». أخرج براديل مغلفاً آخر من جيبه الداخلي: «المبلغ نفسه».

مئة ألف فرنك! رواتب عشر سنوات. ترك العرض تأثيراً مباشراً كما لو أنّ ميرلان صار أصغر بعشرين سنة.

لم يتردّد للحظة، انتزع بالمعنى الدقيق للكلمة المغلّفين من يدَي براديل، جرى ذلك على نحوٍ صاعق.

انحنى على الأرض. بدا كأنّه انهار من البكاء. كان يشخر، وهو منحنٍ على حقيبته التي حشر فيها المغلّفين، كما لو أنّها انثقبت، وكان عليه أن يفرش قعرها لكي يخفّف من الخسائر.

براديل نفسه دُهش من السرعة، لكنّ مئة ألف فرنك كانت مبلغاً هائلاً. كان يريد مقابلاً لماله. التقط من جديد ساعد ميرلان حتّى كاد يكسر له عظامه.

- «ستضع تقاريرك تلك كلّها في المرحاض». قال، وهو يشدّ على

أسنانه: «ستكتب لرؤسائك أنّ الأمر اختلط عليك. قل أي شيء، لا يهمّني، لكن تضع كل الأخطاء على عاتقك أنت. فهمت؟».

كان ذلك واضحاً، ومفهوماً على نحوٍ جيّد. تمتم ميرلان: «نعم، نعم، نعم»، شهق باكياً، انقذف إلى خارج السيّارة. رأى دوبريه على الرصيف كيف انقذفت جثته الكبيرة مثل سدّادة شمبانيا.

ابتسم براديل برضا.

فكّر من جديد مباشرةً بوالد زوجته. الآن وقد تبدّدت الغيوم من الأفق، سوف يدرس المسألة الأساسيّة: كيف ينتقم من هذه الحثالة العتيقة.

انحنى دوبريه، وبحث بعينيه عن رئيسه عبر زجاج السيّارة بهيئةٍ متسائلة.

- «أمّا هذا». فكّر براديل: «فسيرى ما سأفعل له».

35

انتاب عاملة الغرف الشعور المزعج بأنّها مبتدئة في فنون السيرك. الليمونة الكبيرة ذات اللّون الأصفر الزاهي لا تتوقّف عن التدحرج على الصينيّة الفضيّة، وتهدّد بأن تقع على الأرض، ثمّ تتقافز على السلّم. ستدور وتلفّ عند كلّ ضربةٍ حتّى تصل إلى مكتب المدير. قالت في نفسها: إنّه لن يجد فرصة أفضل لتأنيبها. وبما أنّه ليس هناك من يراها، وضعت الليمونة في جيبها، والصينيّة تحت ذراعها، واستمرّت تصعد الدرج (في فندق لوتيسيا، لا يحقّ للعاملين استخدام المصعد. تخيّلوا!)

عادة، مع الزبائن الذين يطلبون ليموناً في الطابق السادس الذي يجب أن تصعده على قدميها، لا تتوانى عن إظهار ضيقها. لكن ليس مع مسيو أوجين. مسيو أوجين شيء آخر. شخص لا يتكلّم أبداً. عندما يحتاج إلى أيّ شيء، يضع على الممسحة أمام جناحه ورقة مكتوبة بخطّ كبيرٍ يوجّهها إلى الشخص الذي يعمل في هذا الطابق. وفوق ذلك كان مهذّباً جدّاً، ومُنصفاً للغاية.

لكنّه مجنونٌ حقيقيّ.

في البيت (يعني في فندق لوتيسيا) لم يحتج مسيو أوجين إلى أكثر من

يومين، أو ثلاثة ليصبح معروفاً بين بقيّة الزبائن. كان يدفع أجرة جناحه نقداً، وقبل عدّة أيّامٍ من الموعد، ويدفع فواتيره بمجرّد أن تقدّمها له. كان طريفاً من نوعه. لا أحد رأى وجهه على الإطلاق؛ أمّا صوته، فقط نوع من الزئير، أو الضحكات المكتومة التي تجعلك تنفجر بالضحك، أو تجعل دمك يتجمّد في عروقك. لا أحد عرف ما هي مشاغله الحقيقيّة، فقد كان يرتدي أقنعة متطرّفة، ولا يلبس أيّاً منها مرّتين، كما ينساق وراء جميع أنواع التصرّفات الغرائبيّة. رقصة فروة الرأس في الممرّات تجعل نساء التنظيف يقهقهن من الضحك، وطلبيّات لاستلام الورود بكميّات غير معقولة. كان يرسل السعاة ليشتروا له جميع أنواع الأشياء المتنافرة من مخزن أو بون مارشيه الذي يقع مقابل الفندق. كراكيب بلا قيمة تجدها فيما بعد على أقنعته، ريش، أوراق مذهّبة، قطع لبّاد، ألوان... وليس هذا فقط! في الأسبوع الماضي، طلب أوركسترا حجرة من ثمانية موسيقيّين. عندما أُخطِر بمجيئهم، نزل، وبقي واقفاً على الدرجة الأولى مقابل مكتب الاستقبال ليعطيهم الإيقاع، حيث إنّ الأوركسترا عزفت «مارش من أجل احتفال الأتراك» التي ألّفها لوللي، ثمّ ذهبت. قام مسيو أوجين بتوزيع أوراقٍ من فئة خمسين فرنكاً على كلّ العاملين كاعتذارٍ من إزعاجهم. المدير نفسه جاء ليزوره وشرح له أنّه قد قُدِّر كرمه، لكنّ تصرّفاته الغريبة... أنت في فندقٍ كبيرٍ يا مسيو أوجين. يجب أن تفكّر بالزبائن الآخرين وبسمعتنا. وافق مسيو أوجين. ما كان من النوع الذي يزعج.

لكنّ قصّة الأقنعة على الأخصّ كانت مثيرةً للفضول. عند وصوله، كان يرتدي قناعاً شبه عاديّ، يمثّل وجهاً مرسوماً على نحوٍ ممتازٍ إلى درجةٍ تستطيع أن تحلف معها أنّه وجه رجُلٍ أصيب بالشلل. القسمات لا تتحرّك

لكنّها حيّة للغاية. كان أكثر دقّة من الأقنعة الجامدة في متحف غريفان[1]. هذا هو القناع الذي يستخدمه عندما يخرج، ونادراً ما يفعل. ما رآه أحد يخرج إلّا مرّةً، أو مرّتين، ودائماً في وقتٍ متأخّرٍ من اللّيل. من الواضح أنّه لا يريد أن يلتقي بأحد. بعض الناس كانوا يقولون: إنّه يفضّل الذهاب إلى أمكنةٍ سيّئة السمعة. يعني في تلك الساعة من اللّيل ما الذي يمكن أن تكونه هذه الأمكنة؟ حتماً ما كان يخرج لحضور القدّاس.

سرت الشائعات في كلّ مكان. بمجرّد أن يعود عاملٌ من جناحه، يركض الجميع لاستجوابه. ما الذي رآه في هذه المرّة. عندما يعلم أحد أنّه طلب ليمونة، يتسابق الجميع للصعود من أجل تقديمها له. وعندما نزلت العاملة، حوصرت بالأسئلة لأنّ الأخريات كنّ جميعاً قد وجدن أنفسهنّ أمام مشاهد مذهلة، أحياناً أمام قناع طائرٍ إفريقيٍّ يصرخ بأصواتٍ عاليةٍ وحادّةٍ، وهو يرقص أمام النافذة المفتوحة، وأحيانا وسط مشهدٍ من تراجيديا تُعرض أمام عشرين كرسيّاً كُسيت بالثياب بحيث تمثّل متفرّجين، لكنّها مسرحيّة بممثّلٍ واحدٍ، يبدو كأنّه يمشي على تلك العصيّ المرتفعة، ويلقي كلاماً لا يفهمه أحد. ومن هنا جاء السؤال: لا شكّ في أنّ مسيو أوجين كائنٌ غير طبيعيّ، لكنْ من هو في الواقع؟

بعضهم كانوا يدّعون أنّه أخرس؛ لأنّه لا يعبّر عن نفسه إلّا بقرقرة، ويكتب أوامره على أوراقٍ تطير. آخرون يؤكّدون أنّ هناك من كسر له وجهه، لكنْ هيهات أن تعرف لماذا، وكلّ الذين خضعوا لذلك كانوا أشخاصاً وضيعين، وليسوا أبداً أغنياء مثله. «أجل، هذا مضحك». يقولون.

---

(1) اسم متحف الشمع في باريس، ويضم تماثيل من الشمع مطابقة جداً للواقع تمثل الشخصيّات المعروفة. (المترجمة).

«أنت على حق، لم ألحظ ذلك قطّ من قبل... لا على الإطلاق!». كانت المسؤولة عن أغطية السرير تردّ من واقع تجربتها في العمل لمدّة ثلاثين سنة في الفنادق الفخمة: «برأيي أنا، أنّ في الأمر خدعة ما، وهذا واضح». ثمّ تعلن أنّه برأيها شقيّ هاربٌ، أو مُبعدٌ إلى المستعمرات اغتنى هناك وعاد. عاملات الغرف كنّ يضحكن بالخفاء؛ لأنّهنّ مقتنعات بأنّ مسيو أوجين كان ممثلاً كبيراً وشهيراً جدّاً في أمريكا، ويقيم في باريس بدون أن يعلم بذلك أحد.

كان قد أبرز دفتر العسكريّة في مكتب الاستقبال؛ إذْ إنّ التصريح عن الهويّة إلزاميّ، حتّى لو أنّ الشرطة كانت نادراً ما تأتي لتتحقّق من الزبائن في هذه الفنادق الكبيرة: أوجين لاريفيير. هذا الاسم لا يعني شيئاً لأحد، لا بل إنّه يبدو حسب رأيهم كأنّه اسمٌ مستعارٌ، لم يقبل ذلك أحد، لكنّ مسؤولة الغسيل أضافت: «دفتر الجنديّة؟ لا يوجد أسهل من تزييف دفتر الجنديّة».

فيما عدا تلك النزهات الليليّة النادرة التي أثارت الفضول، كان مسيو أوجين يمضي وقته في جناحه الكبير في الطابق السادس. الزيارة الوحيدة التي يتلقّاها هي من فتاةٍ صغيرةٍ غامضةٍ وصامتةٍ، مظهرها الجدّي يشبه مظهر مربّيةٍ، وكان قد جاء معها. يمكن أنّه يستخدمها ليعبّر عمّا يريد، لكنْ لا. هي أيضاً كانت خرساء. عمرها اثنتا عشرة سنة على الأغلب. كانت تأتي في نهاية فترة ما بعد الظهر؛ تمرّ دائماً بسرعةٍ أمام مكتب الاستقبال بدون أن تحيّي أحداً، لكنّ ذلك الوقت كان كافياً لملاحظة كم هي جميلة. وجه مثلث مع وجنتين عاليتين، عينان سوداوان حادّتان للغاية، ملابسها متواضعة، لكنّها نظيفةٌ جدّاً، ويشعر الإنسان أنّها نالت قسطاً من التعليم. «هي ابنته». قال بعضهم. «مُتبنّاة». اقترح آخرون. لم يعرف أحدٌ أيّ شيءٍ

عن هذا الموضوع أيضاً. في المساء كان يطلب جميع أنواع الأطعمة الغريبة، لكنْ معها دائماً حساء اللّحم، وعصير فواكه، وكومبوت، وبوظة، وأطباق سائلة. ثمّ في قرابة الساعة العاشرة، كانوا يرونها تنزل. هادئة وجديّة. تستقلّ سيارة أجرة في زاوية بولفار راسباي، وتسأل السائق دائماً عن الأجرة قبل أن تصعد. عندما يبدو لها السعر مبالغاً به كانت تفاوض، لكنْ عندما تصل إلى وجهتها، يلحظ السائق أنّ المال الذي معها يسمح لها أن تدفع للرحلة أكثر بثلاثين مرّة من سعرها الأصلي.

أمام باب الجناح الذي يشغله مسيو أوجين، أخرجت الوصيفة الليمونة من جيب مريولها، ووضعتها متوازنة على الصينيّة الفضيّة، بعد ذلك رنّت الجرس، وربّتت على ملابسها كي تكون متأكّدةً أنّ الانطباع الذي تعطيه جيّد. انتظرت. لا شيء. رنّت مرّة ثانية على نحوٍ أقلّ وضوحاً، فهي تريد أن تخدم، لا أن تزعج. لا شيء دائماً. ثمّ، أجل. مرّت ورقة من تحت الباب: «رجاءً، اتركي الليمونة هنا، شكراً». شعرت بخيبة أمل، لكنْ ليس لوقتٍ طويلٍ؛ لأنّها في اللّحظة التي انحنت فيها لتضع الصينيّة مع الليمونة، رأت ورقة من فئة خمسين فرنكاً تنزلق نحوها. أخذتها، وذهبت مباشرةً، مثل قطّةٍ مرعوبةٍ تخشى أن يأخذوا منها حسكة سمكة.

فتح إدوار الباب، أخرج يده، سحب الصينيّة، وأغلق الباب. ذهب نحو المائدة، وضع الليمونة، أمسك السكينة وقطع الثمرة إلى قسمين.

هذا الجناح هو الأكبر في الفندق. نوافذه واسعة تطلّ على مخزن أو بون مارشيه، وتهيمن على باريس بأكملها. يجب دفع كثير من المال للحصول على حقّ الوجود هنا. كان الضوء يسقط بأشعّةٍ متراصّةٍ على عصير الليمونة التي عصرها إدوار بنعومةٍ في ملعقة حساء، وفي داخلها وضع الكميّة الكافية من الهيروين. جميل هذا اللّون، هذا الأصفر القزحيّ

المائل إلى الزرقة. لزمه أن يخرج مرّتين في اللّيل ليجد ذلك، وبأيّ سعر... لا شكّ في أنّ السعر يجب أن يكون مرتفعاً للغاية لكي يصل إدوار إلى إدراك أنّه غالٍ. لكن لا أهميّة لذلك في الواقع. تحت سريره، توجد الحقيبة العسكريّة القماشيّة التي تُعطى للمسرّحين من الجنديّة، وتحتوي على أوراق نقديّة انتُزعت من حقيبة ألبير الذي مثل النملة كان يكدّس المؤونة من أجل رحيلهما. ولو أنّ العاملين في التنظيف استفادوا من الفرصة ليأخذوا من تلك الأموال، لما لحظ إدوار ذلك. ثمّ، لندع الناس يعيشون... الرحيل بعد أربعة أيّام.

حرّك إدوار بعناية البودرة السمراء وعصير الليمون، وتأكّد أنّ جميع الجزيئات الكريستاليّة قد ذابت.

أربعة أيّام.

في قرارة نفسه يستطيع إدوار أن يعترف بأنّه لم يؤمن بذلك الرحيل على الإطلاق. بالفعل أبداً. قصّة الصروح الرائعة تلك، والأعمال المتميّزة بسخافتها، وذلك التقديس الممتلئ بالفرح والمنعش على نحوٍ يفوق التصوّر، كلها قد سمحت له أن يمضي الوقت، وأن يتحضّر للموت، لا أكثر. حتّى إنّه ما كان يلوم نفسه لأنّه جرّ ألبير معه إلى هذه القصّة المجنونة، مقتنعاً بأنّه عاجلاً أم آجلاً كل واحد سيجد فيها منفعته الشخصيّة.

بعد أن حرّك المسحوق بعناية، حاول على الرغم من ارتعاش يديه أن يضع الملعقة بتوازنٍ على الطاولة بدون أن يسكب ما في داخلها. أخذ الولّاعة، سحب الألياف المنسولة داخل الحبل الدقيق، وبدأ يدحرج البكرة القادحة تحت إبهامه مثيراً شراراتٍ تستطيع في النهاية أن تشعل الفتيلة. بانتظار ذلك، وبما أنّه يجب أن يكون صبوراً، وبينما كان يدير البكرة القادحة بدون توقّف، راح ينظر إلى الجناح الواسع. كان يشعر

بنفسه فيه تماماً كما لو كان في بيته. فقد عاش عمره كلّه في حجراتٍ كبيرة. هنا، العالم كان على مقاسه. من المؤسف ألّا يستطيع أبوه أن يراه في هذا الديكور المترف لأنّه في نهاية الأمر، استطاع أن يجمع ثروةً أسرع بكثير من أبيه، وبوسائل ليست بالضرورة أكثر قذارة. ما كان يعرف على نحوٍ دقيقٍ ما هي الطريقة التي اغتنى بها أبوه، لكنّه كان مقتنعاً أن وراء كلّ ثروةٍ تختبئ بعض الجرائم، لا مناص من ذلك. هو على الأقلّ لم يقتل أحداً. كلّ ما هنالك أنّه ساعد في تبديد بعض الأوهام، وسرّع تأثير الزمن الذي لا يمكن تجنّبه، ولا شيء آخر.

أخيراً بدأت الفتيلة تشتعل. بثّت الدفء من حولها. وضع إدوار الملعقة، وبدأ المزيج يرتعش، وهو يهسهس بنعومة. يجب أن يكون شديد الانتباه؛ فكلّ شيء يكمن هنا. عندما صار الخليط جاهزاً، كان على إدوار أن ينتظره ليبرد. نهض، تقدّم نحو النافذة. هناك ضوء جميل يهيمن على باريس. لم يكن يرتدي قناعاً عندما يكون وحده، وقد تفاجأ بصورته في الزجاج، بصورة شبيهة بما اكتشفه في 1918 عندما وضعوه في المستشفى، وظنّ ألبير أنّه يريد فقط بعض الهواء. أيّة صدمة!

تفحّص إدوار قسمات وجهه. لم يعد ذلك يثير الاضطراب لديه. يعتاد المرء على كلّ شيء؛ أمّا حزنه فبقي كما هو. الفجوة التي انفتحت داخله لم تتوقّف على مرّ الزمن عن أن تكبر وتكبر أيضاً ودائماً. كان يحبّ الحياة كثيراً، وهنا تكمن المشكلة. بالنسبة إلى أولئك الذين لا يتمسكون بها بالقدر نفسه، يجب أن تبدو الأمور أكثر بساطةً؛ أمّا بالنسبة إليه...

وصل الخليط إلى الحرارة المناسبة. لماذا ظلت صورة أبيه تهيمن على عقله؟

لأنّ قصّتهما لم تنته.

هذه الفكرة أوقفت إدوار في منتصف حركته، كأنّه أمام اكتشاف.

كل قصّةٍ يجب أن تجد نهايتها. ذلك جزءٌ من نظام الحياة، حتّى لو كانت مأساويةً، حتّى لو كانت غير محتملةٍ، بل عبثيّة أيضاً. لا بدّ من أن تكون هناك نهاية لكلّ شيء. ومع أبيه لم تكن هناك نهاية، وقد افترقا هما الاثنان كأعداء معلنين، ولم يريا بعضهما من جديد قطّ.

أحدهما مات، والآخر لا، لكنْ ما من أحدٍ لفظ كلمة النهاية.

شدّ إدوار العُصبة على ذراعه، وفي حين راح يدفع بالسائل إلى عروقه، لم يستطع أن يتوقّف عن الإعجاب بتلك المدينة، وأن يُعجب أكثر بذلك الضوء. الالتماعة التي اجتاحته قطعت أنفاسه. انفجر الضياء في حدقة عينيه، لم يكن قد توقّع شيئاً أكثر روعة.

36

وصل لوسيان دوبريه قبل العشاء تماماً. كانت مادلين قد نزلت وجلست لتوّها. ستتعشّى وحْدها؛ لأنّ هنري كان غائباً، وأبوها أوصى أن يحملوا له وجبته في غرفته.

- مسيو دوبريه...

كانت مادلين مهذّبة على نحوٍ رهيب. من يراها يستطيع أن يقسم أنّها بالفعل سعيدة لرؤيته. وقفا وجهاً لوجه في المدخل الواسع. دوبريه كان متشنّجاً للغاية يرتدي معطفه، ويمسك قبّعته في يده، فوق الأرضيّة التي تتناوب فيها المربعات البيضاء والسوداء، كان يشبه حجراً في رقعة شطرنج، وهو ما كان عليه بالفعل.

لم يعرف قطّ ما رأيه بهذه المرأة الهادئة وصاحبة العزيمة. لا شيء سوى أنّها تخيفه.

- «أعتذر من إزعاجك». قال: «أنا أبحث عن مسيو».

ابتسمت مادلين، ليس من الطلب، إنّما من صيغته. هذا الرجُل هو المعاون الرئيس لزوجها، لكنّه يعبّر عمّا يريد كأنّه خادم. اكتفت بابتسامة من لا حول له ولا قوّة، وأرادت أن تجيب، لكنّ الجنين قام في تلك

اللّحظة باستدارةٍ قطعت لها نفسها فتراخت ركبتاها. سارع دوبريه وأمسك بها، وهو مُحرج. لم يعرف أين يضع يديه. في ذراعي هذا الرجُل قصير القدمين والقويّ للغاية، شعرت بنفسها في أمان.

- «هل تريدين أن أنادي؟». سأل، وهو يقودها نحو أحد الكراسي المصفوفة في المدخل.

ضحكت بوضوح.

- يا مسيو دوبريه المسكين! لن نتوقّف عن طلب المساعدة، فهذا الجنين شيطانٌ حقيقيٌّ، وهو مولعٌ بالرياضة، وعلى الأخصّ في اللّيل.

جلست واستعادت أنفاسها، وقد شدّت يديها على بطنها. كان دوبريه ما يزال منحنياً نحوها.

- شكراً يا مسيو دوبريه...

كانت تعرفه قليلاً جدّاً. بونجور، بونسوار، كيف الحال، لكنّها لا تصغي أبداً إلى جوابه. لكنّها سرعان ما وعت فجأةً أنّ هذا الرجُل، وعلى الرغم من تكتّمه الشديد بسبب خضوعه الكبير، كان يعرف بلا شكّ أشياء كثيرة عن حياة هنري، وبذلك عن حياتها الزوجيّة. لم تعجبها الفكرة. شعرت بالمذلّة ليس من الرجُل نفسه، ولكنْ من الظرف الذي كانت فيه. زمّت شفتيها. بدأت بالكلام.

- أنت تبحث عن زوجي...

اعتدل دوبريه، غريزته أمرته ألا يلحّ، وأن يذهب بأسرع ما يمكن، لكنّه تأخّر، كمن أشعل فتيلة، ووجد مخرج النجاة مغلقاً على نحوٍ مزدوج.

- «في الواقع». تابعت مادلين: «أنا أيضاً لا أعرف أين هو. هل قمت بجولة عند عشيقاته؟».

طرحت ذلك السؤال بلهجة التعاطف التي يمكن أن تصدر عن شخصٍ يريد بالفعل تقديم خدمة. زرّر دوبري الزرّ الأخير من معطفه.

- أستطيع أن أقدّم لك قائمة إن أردت، لكنّ ذلك يتطلّب بعض الوقت. إن لم تجده لدى أيٍّ منهنّ، أنصحك أن تقوم بجولةٍ على بيوت المتعة التي يرتادها. ابدأ بذلك الذي يقع في شارع نوتردام دو لوريت، هنري يعشق ذلك المكان. إن لم يكن هناك، اذهب إلى ذلك الذي في شارع سان بلاسيد، ثمّ ذلك الذي يقع في حيّ الأورسولين، لا أتذكّر اسم الشارع.

سكتت للحظة، ثمّ عادت إلى الكلام:

- لا أعرف لماذا تقع بيوت الدعارة غالباً في الشوارع التي تكون أسماؤها هكذا، دينية. لا شكّ في أنّ ذلك احتفاء من الرذيلة بالفضيلة.

كلمة «بيت الدعارة» في فم هذه المرأة الحامل، النبيلة، والوحيدة في هذا البيت الكبير لم تكن صادمة، إنّما حزينة على نحوٍ مرعب. يا لكميّة الألم التي يفترضها ذلك! لكنّ دوبريه أخطأ في تفسير ذلك؛ فمادلين لم يكن لديها أيّ ألم، لم يكن حبّها الذي انكسر (فهو قد انطفأ منذ مدّةٍ طويلة) إنّما كرامتها فقط.

أمّا دوبريه الذي كان في أعماقه جندياً لا يعرف الهزيمة، فقد ظلّ جامداً كالرخام. مادلين التي كرهت نفسها لأنّها لعبت هذا الدور الذي كان سخيفاً قامت بحركةٍ أوقفها دوبريه، أرجوك، لا تعتذري! كان ذلك أسوأ من كلّ شيء آخر. وقد فهمها. تركت المدخل، وهي تتمتم بكلمة أورفوار بالكاد مسموعة.

نزل هنري بأربع خمسات كأنّه يقول: «ماذا تريدون، هكذا هو الأمر. هناك أيّام تنجح فيها بكلّ شيء». حول الطاولة، أطلق الجميع ضحكة

مجلجلة، وعلى الأخصّ ليون جاردان-بوليو الذي كان أكثرهم خسارة. يُفترض أن تعبّر ضحكته عن احترامه لقواعد اللّعبة، وعدم اكتراثه، وماذا هناك! خمسون ألف فرنك في سهرة، يا للأمر الجميل! لا بل كان حقيقة يتألّم من النجاح الوقح لهنري أكثر من ألمه لضياع المبلغ. هذا الرجُل يأخذ منه كلّ شيء. فكّرا كلاهما بالشيء نفسه، خمسون ألف فرنك، حسب هنري، وهو يلمّ أوراقه، ساعة أُخرى من هذا النوع، وأستعيد كلّ ما أعطيته لهذا الفاشل الذي يعمل في الوزارة. العجوز أبو حذاء ضخم. يستطيع الآن أن يشتري لنفسه حذاءً جديداً...

- هنري...!

رفع رأسه، هناك من يشير إليه، صار دوره. «باس»[1]. كان يلوم نفسه قليلاً في هذه القصّة. لماذا أعطاه مئة ألف فرنك! كان باستطاعته الحصول على النتيجة نفسها بنصف المبلغ، بل أقلّ، لكنّه كان متوتّراً وقد تسرّع. كيف فقد برودة أعصابه! لو أنهى الأمر بثلاثين ألف فرنك... لحُسن الحظّ أنّ ليون المخدوع قد وصل. ابتسم له هنري، وهو ينظر إليه من فوق أوراقه. ليون سوف يعيد له المبلغ، ليس كلّه، على الأقلّ الجزء الأكبر منه، لكنْ إن أضفنا زوجته والسيجار الكوبيّ المهم الذي يقدمه، ستصبح المسألة متساوية. أيّة فكرةٍ ذكيّةٍ أنّه اختاره كشريك له! لم يكن غنيمة دسمة يستأهل أن ينتف ريشه، لكنْ هناك متعة كبيرة في فعل ذلك.

بعد عدّة أدوار، أربعين ألف فرنك. تناقصت أرباحه قليلاً. حدسه قال له إنّه من الأفضل أن يتوقّف هنا. تمطّى على نحوٍ قصد فيه أن يكون

---

(1) Passe: تعبيرٌ يقال بالفرنسيّة في لعب الورق، ومعناه: «تجاوزني. لن ألعب في هذا الدور». (المترجمة).

واضحاً... فهم الجميع، تحجّج واحد بالتعب، طلبوا معاطفهم. كانت الساعة الثانية صباحاً عندما خرج هنري وليون واتّجها نحو سيّارتيهما.

- «في الحقيقة». قال هنري: «أنهكني التعب!».

- تأخّر الوقت...

- لا، بل لأنّ عندي يا عزيزي في هذه الفترة عشيقة رائعة، (امرأة متزوجة، لا تقل لأحد) شابّة ومتوحّشة إلى درجة، لا تستطيع أن تتصوّر. إنّها لا تتعب.

أبطأ ليون خطواته، كان يختنق.

- «لو كنت أجرؤ». عاد هنري إلى الكلام: «لكنت اقترحت ميداليّة للمخدوعين أصحاب القرون، إنّهم يستحقون ذلك، ألا توافقني؟».

- «لكنْ... وزوجتك؟». تمتم بصوت خال من التعبير.

- أوه، مادلين، إنّها شيءٌ آخر. لقد صارت الآن أمّاً. ستدرك معنى ذلك عندما يحين دورك. لا علاقة لذلك مع كونها امرأة.

أشعل سيجارة أخيرة.

- وأنت يا عزيزي، هل أنت سعيد في حياتك الزوجيّة؟

في تلك اللحظة، فكّر هنري. ما يلزمه الآن لكي تكون سعادته بالفعل كاملة، هو أن تكون دونيز قد تحجّجت بزيارة صديقةٍ لها، وأن تكون الآن في فندق حيث يمكن له أن يذهب إليها مباشرة. وفي حال تحقّق ذلك، لن يتطلب الذهاب إلى منطقة نوتردام دو لوريت زمناً طويلاً.

مع ذلك استغرق الأمر ساعة ونصف... دائماً الشيء نفسه. يقول: إنّه سيمرّ بسرعة البرق، لكنْ هناك صبيّتان متفرّغتان، ويستطيع أن ينتقي. أو يأخذ الاثنتين معاً، ومن قصّةٍ إلى قصّة...

كان ما يزال يبتسم من الفكرة عندما وصل إلى بولفار دو كورسيل، لكنّ ابتسامته تجمّدت عندما رأى دوبريه. في هذه الساعة من الليل لم يكن ظهوره علامة حسنة. منذ متى ينتظره؟

- «أغلِقوا دارغون». أعلن له دوبريه حتّى بدون أن يحيّيه، كأنّ هاتين الكلمتين تكفيان لتفسير الموقف برمّته.

- ماذا يعني أغلقوها؟

- ودامبيير أيضاً، وبونتافيل ـ سور ـ موز. لقد اتّصلتُ بجميع الأمكنة، لم أستطع أن أجد الجميع، لكنْ أظنّ أنّ كلّ مواقعنا قد أغلقت.

- لكن.... من أغلقها؟

- دائرة الشرطة. لكنْ يقال: إنّ الأمر أتى من أعلى. هناك شرطيٌّ أمام كلّ واحدةٍ من مقابرنا.

مكتبة
t.me/soramnqraa

قُضي على هنري.

- شرطي؟ ما هذا الجنون!

- نعم، ويبدو أنّ هناك مفتّشين سيزوروننا. وبانتظار ذلك أوقِفَ كلّ شيء.

ما الذي يجري. ذلك الحمار من الوزارة، ألم يسحب تقريره؟

- كلّ مواقعنا، حسب ما تقول؟

في الواقع لا فائدة في أن يكرّر. رئيسه قد فهم على نحوٍ كامل. لكنْ ما لم يستطع أن يدركه تماماً كان أبعاد المشكلة؛ لذلك غيّر دوبريه لهجة صوته.

- كنت أريد أن أقول لك أيضاً يا نقيب:.. إنّني يجب أن أغيب عدّة أيّام.

- في هذا الوقت، أكيد لا يا عزيزي، أنا بحاجةٍ إليك.

الجواب الذي أعطاه هنري يتوافق مع الظروف العاديّة، لكنّ صمت دوبريه لم يكن يشبه سكوته الاعتياديّ والمطيع. عاد إلى الكلام بصوتٍ واثقٍ هو الصوت الذي يتخذّه عندما يلقي الأوامر على معاونيه، لكنّه أوضح بكثير، وأقلّ تعبيراً عن الاحترام ممّا هو عليه في العادة.

- يجب أن أذهب لزيارة عائلتي. لا أعرف كم من الوقت سأبقى هناك، أنت تعرف ماذا يعني...

ألقى عليه هنري نظرته القاسية التي تشبه نظرة رجُل أعمالٍ ناجح. ردّ فعل دوبريه أخافه. فهم أنّ الوضع في هذه المرّة أسوأ ممّا يعتقد؛ لأنّ دوبريه بدون أن ينتظر جواباً اكتفى بحركةٍ من رأسه، واستدار، وذهب. حمل له المعلومة، وانتهت مهمّته هنا. لا شك في أنّ أيّ شخصٍ آخر في مثل هذا الموقف كان شتمه، لكنّ براديل صرّ أسنانه. ردّد لنفسه ما قاله مئات المرّات من قبل: أخطأ حين لم يدفع له ما يستحق. كان يمكن بذلك أن يحرّض إخلاصه. تأخّر.

نظر هنري إلى ساعته، الساعة الثانية والنصف.

في أثناء صعوده الدرجات لحظ وجود ضوءٍ في الطابق الأرضي. كان على وشك أن يدفع باب الدخول عندما انفتح بنفسه على الخادمة الصغيرة السمراء. ماذا كان اسمها؟ بولين، أليس كذلك؟ جميلة جدّاً، لماذا لم ينل منها حتّى الآن؟ لكنْ لا وقت لديه ليفكّر بهذه المسألة.

- «اتّصل بك مسيو جاردان بوليو عدّة مرّات». بادرته بالكلام.

كان هنري يخيفها. راح صدرها يرتفع بسرعة.

-... لكنّ جرس الهاتف أيقظ المدام، ولذلك سَحَبْت الشريط، وقالت

لي: أن أنتظرك هنا لأخبرك. يجب أن تعيد الاتّصال بمسيو جاردان بوليو على الفور، بمجرّد وصولك.

بعد دوبريه، ها هو ليون الذي تركه منذ أقلّ من ساعتين. حدّق هنري على نحوٍ آليٍّ بنهديّ الخادمة الصغيرة، لكنّه بدأ يتهاوى. هناك علاقة بين اتّصال ليون وبين إعلان إغلاق جميع المواقع؟

- «حسنٌ». قال: «حسنٌ».

سماع صوته هو أشعره بالأمان. لقد أصابه الذعر بلا مبرّر. لكنْ عليه أن يتأكّد. ربّما قاموا بإغلاق واحدةٍ، أو اثنتين من المقابر موقتاً، لكنْ جميعها؟ الاحتمال ضئيل. ذلك يعني أن تعطي لمسألةٍ ثانويّةٍ صعبةٍ أبعاد الفضيحة.

لا شك أنّ بولين قد غفت قليلاً على كرسيٍّ في مدخل البيت، فقسماتها كانت منتفخة. استمرّ هنري يحدّق فيها، وهو يفكّر بشيءٍ آخر، لكنّ هذه النظرة تشبه تلك التي يلقيها على جميع الفتيات، وتجعلهنّ يشعرن بالضيق. تراجعت خطوة.

- مسيو، هل ما زلت تحتاج إلي؟

أشار لا برأسه. هربت بولين مباشرة.

خلع سترته، الاتّصال بليون؟ في هذه الساعة؟ كأنّه ليس لديه ما يكفي من العمل. وفوق ذلك عليه أن يتحمّل عبء هذا القزم!

دخل إلى مكتبه، أعاد وصل التلفون، طلب الرقم من عاملة الهاتف، وما كادت المحادثة تبدأ حتّى راح يصرخ بصوتٍ عال.

- ماذا؟ قصّة التقرير هذا مجدّداً؟

- «لا». قال ليون: «هناك تقرير آخر...».

لم يكن صوت ليون يوحي بالذعر، بل كان يبدو متحكّماً بنفسه. وهو ما كان مدهشاً في تلك الظروف.

- يتعلّق بـ... غاردون.

- «لا!». بادره هنري منزعجاً: «ليس غاردون. دارغون! بل...».

لكنّ هنري فهم لتوّه، فسكت وقد صعقه هذا الخبر.

ذلك هو التقرير الذي دفع ثمنه مئة ألف فرنك.

- «سماكة التقرير ثمانية سنتمترات». علّق ليون.

قطّب هنري حاجبيه. ما الذي استطاع أن يكتبه، هذا القذر الموظّف الذي شمّع الخيط مع مئتي ألف فرنك ليصل التقرير إلى هذا الحجم؟

- «في الوزارة». تابع ليون قائلاً: «لم يروا قطّ من قبل شيئاً مشابهاً. هناك مئة ألف فرنك في هذا التقرير من القطع الكبير. الأوراق النقديّة جميعها ملصوقة بعناية على صفحات، بل إنّ هناك ملحقاً سجّل فيه أرقام الأوراق».

هذا المجنون أعاد المال. شيء مدهش!

هنري الذي ضاع صوابه من هذا الخبر لم يستطع أن يتوصّل إلى ربط قطع الأحجية ببعضها: التقرير، الوزارة، المال، المواقع التي أغلقت...

تكفّل ليون بالإشارة إلى العلاقة.

- يصف المفتش أشياء خطرة جدّاً في مقبرة دارغون، ويندّد بمحاولة رشوةٍ لموظّفٍ محلّفٍ، وهذه المئة ألف فرنك هي الدليل على ذلك، وهي نوعٌ من الاعتراف؛ ذلك يعني أنّ الاتّهامات الواردة في التقرير لها أساس، لأنّه لا يجري شراء موظّف بلا مبرّر، خاصّةً مع مبلغٍ كهذا.

الكارثة!

ظلّ ليون للحظةٍ صامتاً، كأنّه يسمح لبراديل أن يسجّل تأثير هذه

المعلومات. كان صوته هادئاً إلى درجة أنّ هنري تشكّل لديه لبرهة الانطباع بأنّه يتكلّم مع شخصٍ لا يعرفه.

- لقد أُبلِغَ أبي في المساء. الوزير لم يتردّد للحظة. هل تتصوّر! يجب أن يغطّي نفسه. وقد أعطى مباشرةً الأمر بإغلاق الورشات. منطقيّاً سيحتاج إلى بعض الوقت كي يجمع كلّ العناصر التي تسمح له بأن يؤسّس شكواه عليها، وأن يقوم بالتحقّق في بعض المقابر، وبعد ذلك، لن تستغرق القصّة أكثر من عشرة أيّام، وعندها سيطلب استدعاء شركتك إلى المحكمة.

- تريد أن تقول: «شركتنا»!

لم يجب ليون مباشرة. يا للهول! في هذا المساء، الأشياء المهمّة تجري في صمت. بعد صمت دوبريه، هذا أيضاً... عاد ليون إلى الكلام بصوتٍ ناعمٍ جدّاً لا اضطّراب فيه على الإطلاق، كما لو كان يريد أن يسرّ له باعتراف:

- لا يا هنري، نسيت أن أكلّمك عن ذلك. هذا خطأي. لقد بعتُ جميع أسهمي في الشهر الماضي لصغار المساهمين الذين يعتمدون كثيراً على نجاحك، أتمنّى ألا تخيّب أملهم. هذه المسألة لا تتعلّق بي شخصيّاً. إن كنت أتّصل بك لأنبّهك، فذلك لأنّك صديق...

صمت من جديد، صمتٌ معبّرٌ للغاية.

سيقتله هنري. سيقتل هذا القزم. سينزع أحشاءه بيديه هاتين.

- «فردينان موريو قد باع هو أيضاً حصّته من الأسهم». أضاف ليون.

لم يصدر عن هنري أيّ ردّ فعل. وضع سمّاعة الهاتف ببطءٍ شديدٍ، كأنّ الخبر قد تركه فارغاً بالمعنى الحقيقيّ للكلمة. كان يجب قتل جاردان بوليو. لكنْ ما كانت لديه القوّة للإمساك بسكّين.

الوزير، إغلاق الورشات، شكوى بتهمة الفساد، كلّ شيء يتسارع.

لم يعد يستطيع فهم الوضع على الإطلاق.

لم يأخذ وقتاً للتفكير والنظر إلى الساعة. كانت الساعة الثالثة صباحاً تقريباً عندما دخل فجأةً إلى غرفة مادلين. كانت جالسة على سريرها. لم تكن نائمة، هناك حركات كثيرة في البيت في تلك اللّيلة بحيث كان من المستحيل النوم. وليون الذي كان يتّصل كلّ خمس دقائق. «يجب أن تقول له...». نزعتُ سلك الهاتف. «هل أعدتَ الاتّصال به؟». توقّفت مادلين عن الكلام، وقد تفاجأت برؤية هنري مصاباً بالجنون. كانت تعرفه مهموماً، أجل، غاضباً، مثيراً للخجل، مشغولاً، وحتّى معذّباً كما على سبيل المثال في الشهر الماضي عندما تفضّل وألقى عليها قصيدته عن شعوره باليأس، ثمّ في اليوم التالي لم يظهر لأنّه قد حلّ مشكلته. لكنْ في تلك الليلة، كان شديد الشحوب، متشنّجاً. لم يرتجف صوته هكذا قطّ من قبل، والأكثر إقلاقاً كان عدم وجود أكاذيب، أو بعضها. لا شيء في وجهه يشي بحذاقته المعتادة وبألاعيبه، عادة، تشعر بالادّعاء على بعد عشرين خطوة، أما الآن، فقد كان مظهره صادقاً جداً...

ببساطة، لم تره مادلين قطّ في هذه الحالة من قبل.

لم يعتذر زوجها لأنّه اجتاح غرفتها فجأةً في منتصف اللّيل. جلس على حافّة السرير وتكلّم.

اقتصر كلامه على ما يمكن له أن يرويه بدون خشيةٍ من أن يخرب صورته تماماً، لكنْ حتّى لو اقتصر كلامه على الضروريّ فقط، ما قاله كان بالفعل يسيء إليه للغاية. التوابيت القصيرة للغاية، فريقه من العمّال الذين يفتقدون إلى الكفاءة، والجشعين. كل هؤلاء الغرباء الذي ما كانوا يتكلّمون

الفرنسيّة، وصعوبة المهمّة أيضاً. كان من الصعب عليه أن يتخيّل. لكنْ يجب الاعتراف: البوش في الأكفان الفرنسيّة، التوابيت المعبّأة بالتراب، التهريب هناك... كانت هناك تقارير، ظنّ أنّه تصرّف على نحوٍ جيّدٍ حين دفع بعض المال للموظّف، كان خطأ بالفعل، لكنْ.. ماذا تريدين...؟

هزّت مادلين رأسها. كانت شديدة التركيز. برأيها لا يمكن أن تكون كلّ هذه الأشياء خطأه هو.

- لكنْ يا هنري، في النهاية، لماذا تكون المسؤول الوحيد في هذه المسألة؟ الأمر سهلٌ جدّاً...

كان هنري متفاجئاً جدّاً. من نفسه أوّلاً؛ لأنّه استطاع أن يقول كلّ هذه الأشياء، وأن يعترف أنّه أساء التصرّف، وكان متفاجئاً من مادلين أيضاً لأنّها أصغت إليه بانتباهٍ شديدٍ، ولأنّها وإن لم تدافع عنه، فقد كانت على الأقلّ تفهمه. كان متفاجئاً من وضعهما كزوجين، لأنّ تلك هي المرّة الأولى منذ أن تعارفا التي يتصرّفان فيها معاً مثل راشدين. كانا يتكلّمان بدون غضب، وبدون عاطفةٍ جامحةٍ، كما لو كانا يتجاذبان أطراف الحديث حول أعمالٍ يجب القيام بها في البيت، أو يتناقشان حول رحلةٍ، أو مشكلةٍ منزليّة. هي المرّة الأولى التي يتفاهمان فيها، في نهاية الأمر.

نظر إليها هنري على نحوٍ مختلف. ما لفت نظره، كان بلا شكّ صدرها الذي صار حجمه مذهلاً. كانت ترتدي قميص نومٍ رقيقاً، تبدو من ورائه الهالتان اللتان تحيطان بحلماتها الغامقة، الواسعة، المتفتّحة، وكتفاها المستديران... توقّف هنري للحظةٍ كي يتأمّلها. ابتسمت، كانت تلك ثانية كثيفة جدّاً، ثانية من التماهي. شعر برغبةٍ جامحةٍ بها، هذه النفحة من الرغبة أفادته على نحوٍ عميق. قسوة هذه الرغبة الجنسيّة تتأتّى أيضاً من الموقف

الأموميّ والحامي الذي اتّخذته مادلين، والذي يعطيه الرغبة بأن يلجأ إلى داخلها، وأن تستقبله، وأن يذوب فيها. كان الموضوع خطراً وجدّياً، لكنّ طريقتها في الاستماع فيها شيءٌ خفيفٌ، وبسيطٌ، ومطمئِن. بدون أن يشعر، استرخى. صار صوته مسالماً أكثر، ونبرته أقلّ استعجالاً. فيما كان ينظر إليها فكّر في قرارة نفسه: هذه المرأة لي، وملأه ذلك بفخر جديد، وغير متوقّع. مدّ يده، وضعها على ثديها، ابتسمت بلطف، انزلقت اليد على طول بطنها. بدأت مادلين تتنفّس بقوّة، بدت كأنّها تتنفّس بألم. كانت هناك بعض الحسابات في حركة هنري لأنّه يعرف دائماً كيف يتصرّف مع مادلين، لكن ما كان ذلك هو السبب وحده. كان الأمر بمنزلة لقاءٍ مع شخصٍ ما لم يلتقِ به قطّ. باعدت مادلين ساقيها، لكنّها أوقفته، وهي تمسك بقبضة يده.

- «الوقت ليس مناسباً تماماً». همست في أذنه في حين كان صوتها يصرخ بالشيء المعاكس.

وافق هنري ببطء. شعر بنفسه قويّاً، واستعاد بعض ثقته.

رتّبت مادلين المخدّات وراء ظهرها، وهي تستعيد أنفاسها. بحثت عن وضعيّة، وعندما وجدتها، أطلقت زفرة أسف، وداعبت -وهي تصغي إليه ساهمةً- العروق البارزة والزرقاء في ذراعه. كانت يداه جميلتين جدّاً.

ركّز هنري. كان يجب العودة إلى الموضوع.

- ليون تخلّى عنّي، وما عاد بإمكاني أن آمل بأيّة مساعدة من أبيه.

انزعجت مادلين، وصدمها ألّا يقوم ليون بمساعدته، فهو أيضاً متورط في هذه القضية، أليس كذلك؟

- لا، هنا المشكلة، إنّه لم يعد فيها، ولا فردينان.

استدارت شفتا مادلين، كأنّها تطلق آهاً صامتة.

- «شرح ذلك يتطلّب وقتاً طويلاً». قال بصوت حاسم.

ابتسمت، ها هو زوجها يعود، لم يؤثر فيه شيء. داعبت وجنته.

- يا حبيبي المسكين!

كانت تتكلّم معه بصوتٍ ناعمٍ، حميميّ.

- هذه المرّة الأمر جديّ، أليس كذلك؟

أغلق عينيه بعلامة الموافقة، ثمّ فتحهما من جديد، وانطلق يقول:

- ما زال أبوك يرفض مساعدتي، لكنْ...

- أجلْ، وإن طلبت ذلك منه مجدّداً، سيرفض من جديد.

احتفظ هنري بيد مادلين في يديه، لكنّ ذراعيهما سقطا الآن على ركبتيهما. كان عليه أن يقنعها. من المستحيل أن ترفض! من المستحيل التفكير بالأمر! بيريكور العجوز أراد إذلاله. الآن وقد توصّل إلى ذلك، فإنّ...(بحث هنري عن الكلمة) من واجبه. نعم، من واجبه أن يظهر واقعيّاً، لأنّه في النهاية، ما الذي يكسبه من أن يرى اسمه معفراً في الأرض فيما لو اندلعت الفضيحة؟ لا، ليست فضيحة تماماً. ليس هناك ما يستوجب الفضيحة. لنقل: إنّها مشكلة. يمكن أن نفهم أنْ لا يرغب في المسارعة لمساعدة صهره، لكن لن يكلّفه كثيراً أن يرضي ابنته. لا؟ كان لا يتوقّف عن التدخّل لدى هذا، أو ذاك، وفي مسائل لا تمسّه من قريب. وافقته مادلين.

- هذا صحيح.

لكنّ هنري رأى في داخلها شيئاً من المقاومة. انحنى.

- لا تريدين أن تتحدّثي إليه، لأنّك تخشين أن يرفض، أليس كذلك؟

- «أوه لا!». أجابت مادلين بسرعة: «ليس الأمر كذلك أبداً يا حبيبي!».

أفلتت يدها، ووضعتها على بطنها، وقد باعدت قليلاً بين أصابعها، ثمّ ابتسمت له.

- لن أتدخّل لأنّني لا أريد أن أتدخّل. في الواقع يا هنري. إنّني أصغي إليك، لكنْ كلّ ذلك لا يهمّني على الإطلاق.

- «أفهم ذلك». قال هنري موافقاً: «أصلاً أنا لا أطلب منك أن يهمّك ذلك. أنا أط..».

- لا يا هنري. أنت لا تفهم. ليست أشغالك التي لا تهمّني، بل أنت.

قالت ذلك بدون أن تغيّر شيئاً في وضعيّتها، بالبساطة نفسها. مبتسمة، حميميّة، قريبة على نحوٍ مرعب. كان دلو الماء على رأسه بارداً إلى درجة شكّ معها هنري أنّه قد سمعها جيّداً.

- لا أفهم...!

- بلى يا حبيبي. أنا واثقة أنّك فهمت كلّ شيءٍ على نحوٍ كامل. ليس ما تفعله هو الذي لا يهمّني، إنّما ما أنت عليه.

كان يجب عليه أن ينهض لتوّه ويذهب، لكنّ نظرة مادلين جعلته يُحجم. لم تكن لديه رغبة بأن يسمع أكثر، لكنّه كان أسير الموقف، مثل متّهمٍ يجبره القاضي على أن يستمع إلى إدانته.

- «لم يكن لديّ أيّة أوهام قطّ حول ما كنتَ عليه». شرحت له مادلين: «ولا حول ما سنكون عليه. كنت عاشقة لفترة، وأعترف بذلك، لكنّني سرعان ما فهمت كيف يمكن أن ينتهي كلّ ذلك. كلّ ما فعلتُه هو أنّني أطلت الأمد لأنّني كنت أحتاج إليك. تزوّجتك لأنّ سنّي كان يؤهّلني لذلك، ولأنّك عرضت عليّ الزواج، ولأنّ اسم أولني براديل له وقع جميل. لو لم يكن من السخف بمكان أن أكون زوجتك التي لا تتوقّف

عن الشعور بالذلّ من مغامراتك، لكان يسعدني أن أحمل ذلك الاسم، مع الأسف!».

نهض هنري. هذه المرّة، لم يغطِّ نفسه بتصرّفٍ مشرّفٍ يناسب الموقف، ولم يحاول أن يحاجج، وأن يزاود في الكذب. كانت مادلين تتحدّث بلهجةٍ مقتضبةٍ للغاية، وما تقوله كان نهائيّاً لا رجعة فيه.

- ما أنقذك حتّى الآن هو أنّك جميلٌ جدّاً يا حبيبي.

من عمق سريرها، ويداها على بطنها، كانت تتأمّل بإعجابٍ زوجها الذي يوشك على الخروج من الغرفة، وتتكلّم معه، كأنّهما سيفترقان في أثناء اللّيل، بعد محادثةٍ حميميّةٍ وحنونة.

- أنا واثقة أنّك تركت لي طفلاً جميلاً جدّاً. لم آمل بأكثر من ذلك من قبل قطّ. الآن وقد صار هنا (ربّتت بلطفٍ على بطنها الذي ردّ بصوتٍ مكتوم)، تستطيع أن تُصبح ما تريد، بل وأن تصبح لا شيء على الإطلاق. هذا سيّان تماماً بالنسبة إلي. إنّها خيبة أمل، لكنّني استطعت أن أستعيد قواي لأنّ لديّ ما يواسيني. بالنسبة إليك، إن كان لي أن أحكم عبر الشيء القليل الذي أعرفه، فإنّني أعتقد أنّه قد دقّت ساعة الكارثة التي لن تخرج منها، لكنّها لم تعد تعنيني.

كان هنري قد كسر عشرين مرّةً شيئاً ما في ظروفٍ مشابهة: إناء، قطعة أثاث، زجاج نافذة، صمديّة، لكنْ بدلاً من ذلك، في ذلك المساء، وقف. خرج. أغلق ببطءٍ باب غرفة زوجته.

مشى في الممرّ، ظهرت أمامه صور لا سالوفيير كما رآها قبل أيّام، بواجهتها الواسعة التي رُمّمتْ على نحوٍ رائع، مزارعو الورد الذين بدأوا بإعادة تخطيط الحديقة الواسعة على الطراز الفرنسيّ، الدهّانون الذين

يستعدّون لبدء العمل في سقف القاعات والغرف، وكذلك عمليّات ترميم تماثيل الملائكة الصغار والخشبيّات، والتي كانت على وشك أن تبدأ.

اختنق هنري بسبب تلك السلسلة من الخذلان التي حصلت له خلال ساعات. قام بجهودٍ يائسةٍ لكي يعطي هيئة لهذا الزلزال، لكنّه لم يتوصّل إلى ذلك. كلّ هذا كان مجرّد كلماتٍ وصور، ولا شيء حقيقي.

أن يفقد كلّ شيء هكذا وبالسرعة نفسها التي ربحه بها... ما كان قادراً على استيعاب هذا.

لكنّه في النهاية استوعب ذلك بفضل كلمةٍ لفظها بصوتٍ عالٍ عندما صار وحده في الممرّ:

-أنا ميت.

37

مع الإيداعات الأخيرة دلّ الحساب المصرفيّ لشركة الذكرى الوطنيّة على وجود رصيدٍ موجب بلغ مئةً وستّةً وسبعين ألف فرنك. قام ألبير بحسابٍ سريع. يجب التصرّف بحذرٍ، وعدم القيام بسحوباتٍ كبيرةٍ للغاية. لكنْ هناك حجمٌ هائلٌ من العمل في ذلك البنك إلى درجةٍ لم يكن من النادر معها إجراء عمليّاتٍ بسبعة، أو ثمانية ملايين في اليوم، وأن تشهد الخُزن التي يغذّيها عددٌ هائلٌ من الأعمال التجاريّة، والمخازن الكبيرة الباريسيّة يوميّاً تدفّق أربعمئة، أو خمسمئة ألف فرنك، وفي بعض الأحيان أكثر.

منذ نهاية شهر يونيو توقّف ألبير عن الحياة على نحوٍ طبيعي؛ ففي الصباح، بين موجتي غثيان، وعندما يكون منهكاً تماماً كما كان يحصل له بعد الهجوم على مواقع ألمانيّة، كان يذهب إلى العمل بحالةٍ قريبةٍ من الانفجار الداخليّ. ولو وضعت العدالة خلال اللّيل مقصلةً من أجل إعدامه بدون محاكمةٍ أمام العاملين في البنك المجتمعين بأكملهم، وعلى رأسهم مسيو بيريكور لما دُهش.

كان يتحرّك طيلة النهار ضمن حالة خدرٍ ضبابيّة. تصل الأصوات إليه متأخّرةً جدّاً، وعندما يُوجّه الكلام إليه، يتحتّم عليه أن يجتاز جدار خشيته.

ينظر إليك ألبير كما لو أنّك أصبته برشقةٍ من قاذفة نيران. «هه؟، ماذا؟». تلك هي دائماً كلماته الأولى حتّى ما عاد أحدٌ يعيرها انتباهاً، فقد صار الجميع يعرفونه.

خلال الصباح، كان يودع في حساب الذكرى الوطنيّة الأموال المسدّدة التي وصلت في اليوم السابق، ومن داخل البخار الذي يغلي ويغرق دماغه، كان يحاول أن يحسب المبلغ الذي يجب عليه أن يقتطعه نقداً. بعدها، عندما يبدأ تبديل الموظّفين عند كلّ خزنةٍ من أجل استراحة الغداء، كان يستفيد من مروره أمام كلّ كوّةٍ ليقوم بإيداع الأموال، وهو يوقّع بيدٍ محمومةٍ «جول ديبرومون»، كما لو أنّ الزبون تقدّم هو نفسه إلى البنك في ساعة الغداء. ومع كلّ سحبٍ يقوم به، كان يحشو الأوراق النقديّة في حقيبته التي تنتفخ حتّى تصل في بداية ما بعد الظهر إلى أربعة أضعاف الحجم الذي كانت عليه في الصباح.

حصل معه مرّتين أنّه في أثناء توجّهه نحو الباب الذي يدور في المساء، سمع أحد الزملاء يصيح به، أو تهيّأ له أنّه لمح بارقة شكّ في نظرة زبون، فبدأ يبول في بنطاله، واضطرّ إلى أن يوقف سيارة أجرة لكي يعود إلى البيت.

في مرّاتٍ أُخرى كان يُطلّ برأسه إلى الرصيف قبل أن يخرج، كأنّه يريد التحقّق إن كانت المقصلة التي ما كانت هناك في الصباح قد شُيّدت خلال النهار أمام محطّة المترو التي يذهب إليها. لا أحد يعلم ما الذي يمكن أن يجري.

في الحقيبة التي يستخدمها معظم العاملين في البنك لنقل وجبة الغداء، حمل ألبير في ذلك المساء تسعاً وتسعين ألف فرنكٍ من القطع

الكبير. لماذا ليس مئة ألف؟ قد يخطر على بالكم أنّها مسألة تطيّر؟ أبداً. بل من أجل الأناقة. جماليّات خاصّة بالمحاسبين، وهي أمور تظلّ نسبيّة، لكنّها مع ذلك مسألة جماليّات. فبمبلغٌ كهذا، تستطيع الذكرى الوطنية أن تفخر بأنّها سرقت مليوناً ومئة وأحد عشر ألف فرنك. وقد وجد ألبير أنّ كلّ تلك الواحدات التي تتتالى جميلة. تمّ تجاوز الحدّ الأدنى الذي حدّده إدوار بكثير، وبالنسبة إلى ألبير على الصعيد الشخصيّ كان ذلك يوم انتصار. فالعاشر من يوليو هو يوم سبت. وكان ألبير قد طلب من إدارته إجازة استثنائيّة لأربعة أيّام بمناسبة العيد الوطني. وبما أنّه عندما يفتح البنك في الخامس عشر من يوليو يُفترض أن يكون على الباخرة التي تبحر نحو طرابلس، فإنّ ذلك كان يومه الأخير في البنك. وكما حصل في هدنة 1918، فإنّ خروجه حيّاً من هذه المغامرة أصابه بالذهول. شخص آخر غيره يمكن أن يعتقد نفسه من الكائنات التي لا تفنى؛ أمّا هو، فما كان يستطيع أن يتخيّل نفسه ناجياً من الموت للمرّة الثانية؛ وعبثاً كانت ساعة الإبحار نحو المستعمرات تقترب، فقد ظلّ لا يصدّق ذلك تماماً.

– إلى اللقاء الأسبوع القادم، مسيو مايار!

– هه؟ ماذا؟... أوه. نعم، مساء سعيد.

بما أنّه ما يزال على قيد الحياة، وأنّه قد تمّ الوصول إلى المليون الشهير، بل وتجاوزه، تساءل ألبير إن لم يكن من المجدي تبديل بطاقات القطار والباخرة وتقريب موعد الرحيل، لكنّه فيما يتعلّق بهذه المسألة أيضاً كان أكثر تمزّقاً ممّا هو عليه أمام بقيّة المسائل.

الرحيل، نعم، وبسرعة، بل مباشرةً إن كان ذلك ممكناً.... لكنْ بولين؟ مئة مرّة حاول أن يتحدّث إليها، ومئة مرّةٍ عدل عن الفكرة. كانت

بولين رائعةً؛ ساتان من الخارج، ومخملٌ من الداخل، وفهيمة إلى درجة! لكنّها كانت من بنات الشعب اللواتي يحلمن بالتصرّف مثل البرجوازيّات. الزواج بالثوب الأبيض، الشقّة، الأطفال، ثلاثة وربّما أربعة. ذلك هو الأفق ولا شيء آخر. لو كان الأمر يتعلّق به وحده، لكان وافق تماماً. حياة بسيطة هادئة مع بولين والأولاد، أربعة، لم لا؟ لا بل لربّما رغب بالحفاظ على وظيفته في البنك. لكنْ الآن وقد صار مختصّاً لديه رخصة بالاحتيال، وقريباً إن شاء الله، سيصبح محتالاً على المستوى العالميّ، فإنّ تلك الآفاق بدأت تتلاشى، ومعها بولين، والزواج، والأولاد، والشقّة، والحياة المهنيّة في البنك. لم يبق لديه سوى حلّ واحد: أن يعترف لها بكلّ شيء، ويقنعها بأن ترحل معه بعد ثلاثة أيّام، ومعهما مليون فرنك من القطع الكبير في حقيبة، وصديق وجهه مفتوح نصفين مثل بطّيخة، ونصف رجال شرطة فرنسا وراءهم.

بكلمةٍ أُخرى كان ذلك مستحيلاً.

أو أن يرحل وحْده.

أمّا طلب النصيحة من إدوار، فهو أشبه بالحديث إلى حائط. في النهاية، حتّى لو كان ألبير يحبّه على نحوٍ لا متناهٍ، ولجميع الأسباب المختلفة تماماً، والمتناقضة كثيراً، فإنّه يجده أنانيّاً بما فيه الكفاية.

كان يمرّ لرؤيته كلّ يومين بين وضع الأموال في مأمنٍ وبين لقاءاته مع بولين. الشقّة في حارة بيرس المسدودة صارت فارغة الآن، وقد وجد ألبير أنّه لم يعد آمناً أن يترك فيها الثروة التي كان مستقبلهما يستند إليها. بحث عن حلّ، كان يستطيع أن يستأجر صندوقاً في بنك، لكنّه لا يثق بذلك. وقد فضّل في النهاية خزائن محطّة سان لازار المُقفلة.

في كلّ مساء كان يسحب حقيبته، يدخل إلى المرحاض القريب من البوفيه ليضع فيها مدخول النهار، ثمّ يعيدها إلى الموظّف. كان يبدو ممثل شركة تجاريّة. شركة مشدّات وحمّالات نسائيّة، حسب ما صرّح به؛ إذْ لم يجد شيئاً آخر يقوله. وجّه الموظّفون له غمزات متآمرة ردّ عليها بحركةٍ صغيرةٍ متواضعةٍ كرّست سمعته بالطبع. كذلك وفي حال كان عليه أن يرحل بسرعةٍ كبيرةٍ، وضع في تلك الخزائن كرتونة قبّعات كبيرة تحتوي على إطار لوحة رأس الحصان التي رسمها إدوار ولم يصلح زجاجها قطّ. وفوق الإطار وضع قناع الحصان الذي غلّفه بورقٍ حريري. لو أجبر على الرحيل بسرعة، كان يعرف أنّه يفضّل ترك حقيبة الأموال وليس هذه الكرتونة.

بعد خزانة المحطّة، وقبل أن يذهب للقاء بولين، يذهب ألبير إلى فندق لوتيسيا الذي كان يثير لديه حالة من الرعب؛ إذْ كيف يمرّ بدون أن يلحظه أحد، في هذا القصر الباريسي....؟

- «لا تقلق». كان إدوار قد كتب له: «عندما تكون الأشياء واضحة ومرئيّة لا يلحظها أحد.. انظر إلى جول ديبرومون! ما من أحدٍ رآه قط، ومع ذلك، كلّ الناس يولونه ثقتهم».

ثمّ أطلق واحدةً من ضحكاتة الحصانيّة التي تجعل شعرك يقف في رأسك.

في البداية عدّ ألبير الأسابيع، ثمّ الأيّام، لكن الآن، منذ أن أقام إدوار باسمه الحقيقيّ المزيّف أوجين لاريفيير في فندقٍ كبيرٍ ليمارس فيه أفعاله الغريبة، صار يحسب الساعات، وحتّى الدقائق التي تفصله عن الرحيل الذي حُدّد موعده في 14 يوليو بالقطار الذي يغادر باريس إلى مرسيليا في

الساعة الواحدة بعد الظهر، ما يسمح باللحاق في اليوم التالي بباخرة اس اس دارتانيان من شركة المراسلات البحريّة المتّجهة إلى طرابلس.

ثلاث بطاقات.

في ذلك المساء، الدقائق الأخيرة التي أمضاها في بطن البنك كانت أصعب من ولادة. كلّ خطوةٍ هناك تحتاج إلى جهدٍ رهيب. ثمّ في النهاية صار في الخارج. هل يجب عليه أن يصدّق ذلك حقيقة؟ كان الطقس جميلاً وحقيبته ثقيلة. على اليمين لا توجد مقصلة، على اليسار لا توجد فرقة درك.

لا شيء سوى جسدٍ نحيلٍ وصغيرٍ على الرصيف المقابل: لويز.

هذه الرؤية سبّبت له صدمة، تقريباً كما يحصل فيما لو التقيت في الشارع بتاجر ما كنت تراه إلّا وراء رفوف مخزنه. تتعرّف إليه، لكنّك تشعر أنّ ذلك ليس في نظام الأشياء الطبيعي. لويز لم تأتِ قطّ من قبل لتبحث عنه. تساءل -وهو يجتاز الشارع بسرعة- بأيّة طريقة وجدت عنوان البنك. لكنّ هذه الصغيرة كانت تمضي وقتها بأكمله، وهي تنصت. لا شكّ أنّها تعرف أشياء كثيرة عن أعمالهما.

- «إنّه إدوار...». قالت: «يجب أن تأتي مباشرة».

- ماذا إدوار؟ ماذا هناك؟

لكن لويز لم تجب. رفعت يدها، وأوقفت سيارة أجرة.

- فندق لوتيسيا.

في السيّارة، وضع ألبير حقيبته بين قدميه. كانت لويز تنظر أمامها على نحوٍ مستقيمٍ كما لو أنّها هي التي تقود سيارة الأجرة. من حسن حظّ ألبير أنّ بولين كانت لديها مناوبة هذا المساء، وستنتهي متأخّرة. وبما أنّها تعود

إلى العمل في اليوم التالي من وقتٍ مبكّرٍ، فإنّها ستنام «في بيتها». بالنسبة إلى خادمة، يعني ذلك في بيت الآخرين.

- «لكن...!». سأل ألبير بعد لحظة: «ماذا به، إد...؟».

لحظ نظرة السائق في المرآة العاكسة، واستدرك بسرعة.

- ماذا به، أوجين؟

وجه لويز كان كأنّه محاط بغلالة، مثل وجوه الأمّهات، أو الزوجات اللواتي تشعرن بالجزع.

التفتت نحوه، باعدت بين يديها، كانت عيناها مبتلّتين.

- يبدو كأنّه مات.

اجتاز ألبير ولويز ردهة لوتيسيا بخطواتٍ يأملان أن تكون طبيعيّة، لكنّها كانت ملحوظة بأكبر قدرٍ ممكن. تصرّف رجُل المصعد كما لو أنّه لم يلحظ توتّرهما. كان شابّاً، لكنّه محترفٌ على نحوٍ كبير.

وجدا إدوار على الأرض، وظهره مستندٌ إلى سريره، وساقاه ممتدّتان. كان بحالةٍ سيّئةٍ جدّاً، لكنّه لم يكن ميّتاً. تصرّفت لويز ببرود أعصابها المعتاد. كانت رائحة الإقياء في الغرفة مقزّزة. فتحت لويز النوافذ الواحدة تلو الأُخرى، وصنعت مماسح من كلّ ما وجدته من مناشف في الحمام. جلس ألبير على ركبتيه، وانحنى على صديقه.

- هيه يا رفيق، كيف حالك؟

هزّ إدوار رأسه برفق، فتح وأغلق عينيه على نحوٍ متشنّج. لم يكن يرتدي قناعه، وصدرت عن فتحة وجهه رائحة تعفّن قويّة إلى درجة أنّها أجبرت ألبير على أن يتراجع. أخذ نفساً طويلاً، ثمّ أمسك برفيقه من تحت

إبطيه، واستطاع أن يجعله يستلقي على السرير. شخص لا فم له، ولا فكّ، لا شيء سوى فتحة فيها أسنان علويّة، لا تعرف ما الذي يمكن أن تفعله لكي تربّت على وجنتيه. أجبر ألبير إدوار أن يفتح عينيه.

- «هل تسمعني؟». ردّد ألبير: «قل، هل تسمعني؟».

وبما أنّه لم يلق أيّ ردّ فعلٍ فقد انتقل مباشرةً إلى الطريقة القويّة. وقف، ذهب إلى غرفة الحمّام، وملأ كأساً كبيرةً من الماء.

عندما التفت ليعود إلى الغرفة، تفاجأ لدرجة جعلته يفلت الكأس، ويصاب بغثيانٍ، فيضطرّ إلى الجلوس على الأرض.

كان هناك قناعٌ معلّقٌ على ظهر الباب مثل روب دو شامبر على علّاقة.

وجه رجُل. وجه إدوار بيريكور. إدوار الحقيقي. ذلك الذي كان من قبل، وقد رُسم على نحوٍ ممتاز. ما كان ينقصه سوى العينين.

فقد ألبير وعيه بالمكان الذي هو فيه. كان في الخندق، على بعد خطواتٍ من الدرجات الخشبيّة، وقد ارتدى كلّ ما يلزم للهجوم. بقية الشباب كانوا كلهم هناك. أمامه وخلفه، مشدودين مثل أقواس، مستعدّين للانطلاق نحو النقطة 113. هناك أيضاً كان الملازم براديل يراقب خطوط العدوّ بالمنظار، أمامه، وكان بيري، وأمام بيري ذلك الشخص الذي لم يكن قد تعامل معه كثيراً من قبل. استدار. إنّه بيريكور يبتسم له ابتسامة مضيئة. وجد ألبير أنّ هيئته تشبه طفلاً سيرتكب حماقة. لم يكن لديه الوقت ليجيبه؛ إذْ استدار بيريكور.

كان ذلك تماماً هو الوجه الذي أمامه في هذا المساء، تنقصه الابتسامة. ظلّ ألبير مذعوراً من ذلك، لأنّه لم يرَ الوجه مرّةً ثانية بعدها سوى في الحلم. وها هو الآن هنا، ينبثق من الباب، كما لو أنّ إدوار سيظهر أمامه

كاملاً مثل شبح. سلسلة جميع الصور ظهرت لتوّها أمامه: الجنديّان اللّذان قُتلا برصاصةٍ في الظهر، الهجوم على النقطة 113، الملازم براديل الذي يربّت بقسوةٍ على كتفه، حفرة القذائف، موجة التراب التي غطتّه لتوّها.

صرخ ألبير بأعلى صوته.

ظهرت لويز عند الباب مرتعبة.

نفث من منخريه. سكب الماء، فرك وجهه به، ملأ الكأس من جديد، وبدون أن ينظر بعد ذلك إلى قناع إدوار، مرّ إلى الغرفة وراح ليسكب الكأس كلّها، وبحركةٍ واحدةٍ في حلق رفيقه الذي اعتدل مباشرةً على كوعيه، وراح يسعل مثل شخصٍ حُكم عليه بالموت، تماماً كما سعل هو نفسه عندما عاد إلى الحياة.

ثنى ألبير جذع إدوار إلى الأمام تحسّباً فيما لو تقيّأ من جديد.. لكنْ لا. نوبة السعال استغرقت وقتاً طويلاً قبل أن تهدأ. استعاد إدوار قواه، كان منهكاً حسب ما بدا من عينيه الغائرتين، ومن التلاشي الكامل لجسده الذي غاص من جديدٍ في حالةٍ ثانية. استمع ألبير إلى تنفّسه ووجده طبيعيّاً. بدون أن يهتمّ بوجود لويز، خلع عن صديقه ثيابه، وجعله يستلقي فوق المُلاءة. كان السرير واسعاً لدرجة استطاع معها أن يجلس إلى جانبه على مخدّة، ولويز من الجهة الثانية.

ظلّا هناك كلاهما في تلك الوضعيّة مثل سنّادتين تحيطان بالكتب من الجهتين. كلّ واحدٍ منهما كان يمسك بيد من يدَي إدوار الذي نام مصدراً ضجّةً مُقلقةً من حلقه.

من موقعهما، كان ألبير ولويز يستطيعان أن يريا على الطاولة الكبيرة المستديرة وسط الغرفة الإبرة الطويلة الرفيعة، والليمونة المقسومة إلى

اثنين، وعلى ورقة، بقايا المسحوق البنيّ مثل التراب، وولّاعة حجر الصوّان التي كانت فتيلتها المثنيّة والمعقّدة تبدو مثل فاصلةٍ تحت كلمة.

عند قدم الطاولة، كانت هناك العصبة المطاطيّة.

ظلّا بلا كلام، وقد ضاعا في أفكارهما. ما كان ألبير يعرف الكثير في هذا المجال، لكنّ المُنتج كان يشبه كثيراً ما اقتُرح عليه في الماضي عندما كان يبحث عن المورفين. كانت تلك هي المرحلة التالية من المورفين: الهيروين. للحصول عليه، لم يحتج إدوار حتّى إلى وسيط.

عندها، وللغرابة تساءل ألبير: ما فائدتي إذن؟ كأنّه كان يأسف لأنّه لم يكن عليه أن يدير تلك المسألة.

منذ متى كان إدوار يتعاطى الهيروين؟ وجد ألبير نفسه في موقع الأهل الذين تجاوزهم الزمن، ولم يروا شيئاً ممّا يحصل، لكنّهم يجدون أنفسهم فجأةً أمام الأمر الواقع بعد أن يفوت الأوان.

قبل ثلاثة أيّامٍ من الرحيل.

لكنْ ما الفرق؟ ثلاثة أيّام قبل، أو بعد؟

- هل سترحلون؟

عقل لويز الصغيرة مشى في المسار نفسه. وقد طرحت السؤال بصوتٍ ساهمٍ وبعيد.

أجاب ألبير بالصمت، كان ذلك يعني: «نعم».

- «متى؟». سألت بدون أن تنظر إليه.

ألبير لم يجب. كان ذلك يعني: «قريباً».

استدارت لويز عندها نحو إدوار، وبسبّابتها الممدودة، فعلت ما فعلته في اليوم الأوّل. تابعت، وهي حالمة، الجرح المفتوح، اللّحم المتسمّك

والمحْمرّ مثل غشاءٍ مخاطيٍّ مفتوحٍ في الهواء... ثمّ قامت. ذهبت لترتدي معطفها، عادت نحو السرير من جهة ألبير هذه المرّة، استدارت وقبّلته على خدّه، قبلة طويلة.

- هل ستأتي لتودّعني؟

ألبير أجاب برأسه: «نعم، بالطبع».

كان ذلك يعني: «لا».

قامت لويز بحركة معناها أنّها فهمت.

قبّلته من جديد، وغادرت الغرفة.

غيابها أثار فتحةً كبيرةً من الهواء، مثل تلك التي تحصل في الطائرات على ما يبدو.

38

كان الأمر استثنائيّاً إلى درجة أنّ الأنسة ريمون صُعقت من الدهشة. والحقّ يقال: إنّها منذ بداية عملها عند رئيس بلديّة الدائرة الباريسيّة، لم يحصل لها ذلك من قبل قطّ. فقد اجتازت الغرفة ثلاث مرّات بدون أن يلتهمها بعينيه. طيّب، حسناً، لكنْ أن تدور ثلاث مرّات حول مكتبه بدون أن يُدخل يده تحت تنّورتها، وسبّابته مشدودة...!

منذ عدّة أيّام، لم يعد لابوردان مثلما كان. صارت نظرته زجاجيّةً، وفمه متدلّياً. ولو أنّ الأنسة ريمون أغرتْهُ برقصة الغلالات السبع[1] لما لحظ ذلك. صار لون بشرته أبيض، وراح ينتقل بتثاقلٍ مثل رجُلٍ ينتظر أن تصيبه أزمة قلبيّة بين لحظةٍ وأُخرى. «أحسن». فكّرت في قرارة نفسها: «ليتك تفْطس يا جيفة!». هذا التدهور المفاجئ لمديرها جعلها تشعر بالاطمئنان للمرّة الأولى منذ أن اشتغلت عنده. نعمة.

نهض لابوردان. لبس سترته ببطء. أخذ قبّعته، وخرج من المكتب بدون أن ينبس بكلمة. طرف من أطراف قميصه كان يخرج من تحت

(1) رقصة قامت فيها سالومي بخلع ملابسها قطعة قطعة لإغراء هيرودس كما ذُكر في التوراة. (المترجمة).

البنطال، هذا النوع من التفاصيل يحوّل أيّ رجُلٍ إلى إنسانٍ مقرفٍ، وفي مشيته المتثاقلة بدا أشبه بثورٍ يذهب إلى المسلخ.

في قصر بيريكور، قيل له: إنّ مسيو ليس موجوداً.

- «سأنتظر...». قال.

ثمّ دفع باب الصالون وانهار على أوّل أريكةٍ، ونظرته فارغة. بهذه الوضعيّة وجده مسيو بيريكور بعد ثلاث ساعات.

- «ما الذي تفعله هنا، أنت؟». سأله.

دخول مسيو بيريكور أثار لديه حالة من الاضطراب.

- «آه يا سيّدي الرئيس، يا سيّدي الرئيس...». قال لابوردان وهو يحاول أن يقف.

كان ذلك كلّ ما وجده، وهو مقتنع بأنّه بكلمة «الرئيس» قد قال كلّ شيء، وشرح كلّ شيء.

على الرغم من ضيقه، كانت لمسيو بيريكور تجاه لابوردان مشاعر تشبه طيبة المزارع. «اشرح لي ما الأمر». كان يقول له في بعض الأحيان بصبرٍ لا يولى سوى للبقر والحمقى.

لكنّه في ذلك اليوم، كان بارداً كالثلج، ما أجبر لابوردان على مضاعفة طاقته لكي ينتزع نفسه عن الأريكة ويشرح: «هل تفهمني يا سيّدي الرئيس؟ ما كان في الأمر ما يجعلنا نظنّ، ولا حتّى أنت. أنا واثق من كلامي، وكلّ الناس، كيف نتخيّل شيئاً كهذا؟»... إلخ.

وهكذا راح لابوردان ينطلق في سلسلةٍ من الكلمات غير المفيدة. والحقيقة أنّ مسيو بيريكور توقّف عن الإنصات إليه؛ إذْ لا فائدة من ذلك. تابع لابوردان تأوّهاته:

- وجول ديبرومون هذا يا سيّدي الرئيس، هل يخطر على بالك أنّه لا وجود له!

قال ذلك، وفي لهجته شيءٌ من الإعجاب.

- يعني، ماذا تريد؟ عضو في الأكاديميّة يعمل في الأمريكيّتين. كيف يمكن ألّا يكون موجوداً؟ وهذه الرسومات التخطيطيّة. هذه الرسومات الرائعة، هذا المشروع الرائع، لا بدّ من أنّ هناك شخصاً ما قام به!

عند وصوله إلى تلك المرحلة، صار لابوردان بحاجةٍ ماسّةٍ إلى شيءٍ يجعله ينطلق مجدّداً؛ إذْ إنّ دماغه قد بدأ يدور في حلقة، ويمكن أن يستمرّ ذلك لساعات.

- «هذا يعني أنّه غير موجود». قام مسيو بيريكور بتلخيص الأمر.

- «تماماً!». صرخ لابوردان، وهو مسرورٌ بالفعل لأنّه قد فُهم: «العنوان رقم 52 شارع اللّوفر، هل تتخيّل أنّه ليس موجوداً هو الآخر!... وهل تعلم ما هو؟».

صمت. أيّاً كانت الظروف، فإنّ لابوردان كان مغرماً بالأحاجي. البلداء يحبّون تأثيرها.

- البريد! مكتب البريد! لا يوجد عنوان. إنّها علبة بريد!

كان مبهوراً بحذاقة تلك الخطّة.

- والآن فقط تكتشف ذلك...

فسّر لابوردان اللّوم على أنّه تشجيع.

- تماماً، يا رئيس! لاحظ معي (رفع سبّابته لكي يدلّ على ذكاء مقاربته) كان لديّ بعض الشك. طبعاً تلقّينا وصولات، ورسالة مطبوعة

بالآلة الكاتبة تفسّر بأنّ الفنّان كان في الأمريكيّتين، وكلّ هذه الرسومات التي تعرفها، لكنْ في النهاية، أنا...

رسم على وجهه عندها تعبير شكّ ترافق مع حركةٍ من رأسه الهدف منها التعبير عمّا تعجز الكلمات عن ترجمته؛ أي: فطنته العميقة.

- «وقد دفعت له؟». قاطعه مسيو بيريكور ببرود.

- لكنْ، لكنْ، لكنْ، لكن.... ماذا تريد؟ بالطبع سيّدي الرئيس، دفعنا. كان قاطعاً جازماً.

- بدون تسديد، لا توجد طلبيّة، وبدون طلبيّة، لا يوجد صرح. لم يكن بمقدورنا أن نفعل شيئاً آخر! لقد سدّدنا الدفعات لشركة الذكرى الوطنيّة، كنّا مجبرين!

ولكي يدعم كلامه بالحركة، أخرج من جيبه شيئاً يشبه الجريدة، انتزعها مسيو بيريكور منه، وتصفّحها بعصبيّة. لم يتركه لابوردان يطرح السؤال الذي كان على طرف فمه.

- «هذه الشركة لا وجود لها!». صرخ بصوتٍ غاضب: «إنّها شركة...».

توقّف على نحوٍ مفاجئ. هذه الكلمة التي كان قد لفّها وأدارها في فمه منذ يومين أفلتت منه.

- «إنّها شركة...». عاد إلى القول لأنّه لحظ أنّ دماغه يسير نوعاً ما مثل محرّك سيّارة. تديره بالقبضة اليدويّة عدّة مرّات، فيعود للانطلاق أحياناً: «... مُتخيّلة! تماماً، شركة مُتخيّلة!».

ابتسم كاشفاً عن أسنانه، وهو فخورٌ بأنّه تجاوز هذه المحنة اللغويّة.

أمّا مسيو بيريكور فاستمرّ في تصفّح الكاتالوغ الرفيع.

- «لكنْ». قال: «ما يوجد هنا هي نماذج صناعيّة».

- «أو... أجل». خاطر لابوردان بالقول؛ لأنّه لم يعرف إلى أين يريد الرئيس أن يصل.

- يا لابوردان، نحن، نحن أوصينا على عمل أصيل، لا؟

- «آآآآآآه». صرخ لابوردان الذي نسي هذه المسألة، لكنّه يتذكّر بأنّه قد حضّر الجواب: «تماماً سيّدي الرئيس، بل أصيل جدّاً ذلك أنّه كما ترى، مسيو جول ديبرومون، عضو الأكاديميّة هو في الوقت نفسه صاحب النماذج الصناعيّة، وكذلك الأعمال التي... كيف تُسمّى؟ الأعمال التي «حسب الطلب» إنّه يعرف كيف يصنع كلّ شيء، هذا الرجُل».

ثمّ تذكّر عندها أنّه يتحدّث عن شخصٍ مُتخيّلٍ تماماً.

- «أقصد... إنّه كان يعرف كيف يصنع كلّ شيء». قال ذلك خافضاً صوته كما لو كان يتحدّث عن فنّانٍ ميّتٍ، وبذلك من المستحيل عليه أن يلبّي طلبية.

من خلال تصفّح صفحات الكاتالوغ، والنظر إلى النماذج المعروضة، قدّر مسيو بيريكور أبعاد الاحتيال: على المستوى الوطني كلّه.

الفضيحة ستكون مرعبة.

بلا مراعاة للابوردان الذي كان يشدّ بنطاله إلى الأعلى بيديه، استدار على عقبيه، وعاد إلى مكتبه، ووجد نفسه يواجه إخفاقه الكبير.

كل شيء من حوله، الرسومات التي قام بوضعها في إطار، الرسومات التخطيطيّة، طريقة عرض صرحه، كلّ شيءٍ كان يصرخ بأعلى صوتٍ معبّراً عن ذلّه.

ليس المال الذي أنفقه، ولا حتّى فكرة أن يُستغلّ شخصٌ مثله، لا. ما زعزع كيانه هو أنّه جرت السخرية من مأساته. أمواله وشهرته لا تشكّل

مشكلة، وسيبقى لديه منها الكثير، وعالم الأعمال قد علّمه أنّ الحقد مستشارٌ سيّئ، لكنْ أن يُسخّف ألمه، يعني احتقار موت ابنه، كما فعل هو نفسه في الماضي. وهذا الصرح المخصّص لمن ماتوا، بدلاً من أن يبدّد كلّ الأسى الذي أذاقه لابنه، جاء ليضاعفه. والتكفير الذي أمل في تحقيقه تحوّل إلى تهريجٍ سمج.

يقترح كاتالوغ الذكرى الوطنية مجموعة من الموادّ المصنّعة مع تخفيضاتٍ مثيرة. كم باع من هذه الصروح الوهميّة؟ كم عائلة دفعت مالاً من أجل هذه الأوهام؟ كم مجموعة من السكّان سُرقت كما لو كانت في طرف غابةٍ، وراحت ضحيّة سذاجتها؟ أن تكون لديهم كلّ هذه الشجاعة، أن تكون لديهم فكرة تشليح كلّ هؤلاء الناس التعساء، في ذلك ما يجعل الإنسان ينقلب على قفاه.

لم يكن مسيو بيريكور رجُلاً كريماً بما فيه الكفاية لكي يشعر بنفسه قريباً من الضحايا الذين توقّع عددهم، ولا بحيث تكون لديه رغبة في مساعدتهم. لم يفكّر سوى بنفسه، بمأساته هو، بابنه هو، بتاريخه هو. ما كان يتألّم منه هو أنّ الأب الذي ما كانه من قبل، لن يستطيع أبداً أن يصيره بعد الآن. لكنْ، على نحوٍ أكثر أنانيّة، كان يشعر بالإهانة كما لو كان الأمر موجّهاً إليه شخصيّاً: أولئك الذين دفعوا مقابل هذه النماذج الصناعيّة كانوا ضحيّة شعورٍ عامٍّ بقدسيّة المسألة، في حين أنّه هو، مع ذلك التكليف بتنفيذ صرحٍ حسب الطلب، شعر بنفسه موضع ابتزازٍ على الصعيد الفرديّ.

هذه الهزيمة جرحت كبرياءه على نحوٍ كثيف.

مُنهكاً، مريضاً، جلس أمام مكتبه، وفتح الكاتالوغ الذي كان بدون شعور قد دعكه بيديه. قرأ بانتباهٍ الرسالة الطويلة التي وجّهها المحتال

إلى رؤساء بلديّات المدن والقرى. تعابير ذكيّة ومطمئنة، وتبدو رسميّة للغاية! توقّف مسيو بيريكور لبرهةٍ أمام الحجّة التي كانت وراء نجاح هذه الخدعة، هذه الحسومات الاستثنائيّة، وهي بالضرورة جذّابة جدّاً بالنسبة إلى الميزانيّات المتواضعة، وهذه الامتيازات الموعودة... وحتّى تاريخ الرابع عشر من يوليو الذي يحمل رمزيّة كبيرة...

رفع رأسه، مدّ ذراعه ونظر إلى التقويم.

ترك المحتالون لزبائنهم وقتاً قصيراً ليتحقّقوا، أو يراجعوا الأشخاص الذين يتعاملون معهم. فبمجرّد تلقّيهم وصلاً صحيحاً وقانونيّاً مقابل الطلبيّة، لا يعود لديهم سبب للقلق قبل الرابع عشر من يوليو، وهو المهلة المحدّدة للحصول على التخفيضات المزعومة.

كان اليوم هو الثاني عشر من يوليو. لم يتبقَّ سوى أيّام. وبما أنّه ما من أحدٍ أثار المسألة، فلا بدّ من أنّ المحتالين ينتظرون الاستحواذ على الدفعات الأخيرة قبل أن يهربوا؛ أمّا الزبائن، وحتّى أكثرهم انتباهاً، وأكثرهم شكوكاً، فسيحاولون عمّا قريب التحقّق من أنّ ثقتهم كانت في مكانها.

ما الذي سيحصل إذن؟

ستثور فضيحة. بعد يومٍ، أو يومين، أو ثلاثة. ربّما بعد ساعات.

وبعدها؟

ستتنافس الجرائد في التعبير عن المشاعر الجيّاشة، وستتأهّب الشرطة، وسيشعر النوّاب بالمهانة باسم الأمّة، وسيلتحفون بفضائلهم الوطنيّة.

– «هراء!». همس مسيو بيريكور لنفسه.

وعندما سيُعثر على هؤلاء الأشقياء، ويجري توقيفهم، ما الذي

سينالونه؟ ثلاث، أو أربع سنوات رهن التحقيق، ثمّ محاكمة. حتى ذلك الوقت يكون الجميع قد هدأوا.

- «حتّى أنا». فكّر في قرارة نفسه.

هذه الفكرة لم تهدئ خاطره: لن يفكّر بالغد. اليوم هو النهار الذي يتألّم فيه.

أغلق الكاتالوغ، مسّده براحة يده.

جول ديبرومون وشركاؤه في المؤامرة، عندما سيجري توقيفهم (فيما لو حصل ذلك في يوم من الأيّام) لن يعودوا أفراداً. سيتحوّلون إلى ظاهرةٍ في الأخبار، سيصيرون أموراً تثير الفضول مثلما كان راول فيلّان، مثلما صار لاندرو[1].

بعد أن يطالهم الغضب الجماعيّ، لن يعود هؤلاء المذنبون ملكاً لضحاياهم، وهو، بيريكور، من سيكره عندما يصبح هؤلاء الأشقياء ملكاً للجميع؟

الأنكى من ذلك أنّ اسمه سيكون في مركز هذه الدعوى! وإن تبيّن لسوء الحظّ أنّه الوحيد الذي قام بتكليف عملٍ محدّد، فسيكون الوحيد ربّما الذي سيقال عنه: انظروا إلى هذا، لقد وضع مئة ألف فرنك في هذه العمليّة! وها هو يصبح مثالاً عن الرجُل الأحمق. اختنق من هذه الفكرة؛ لأنّه سيصبح في عيون الجميع المهبول الساذج. ذلك أنّه هو، الصناعي المتوّج بالنجاح، المصرفيّ الذي يخشاه الجميع، قد جعل نفسه أضحوكة في يد محتالين وضيعين.

---

(1) راول فيللان: أحد دعاة القوميّة في فرنسا، اغتال الاشتراكي جان جوريس. لاندرو قاتلٌ ارتكب سلسلةً من الجرائم. جرائم الاثنين أثارت الرأي العام في فرنسا على نحوٍ كبير. (المترجمة).

ما عادت لديه كلمات.

جرح كبريائه أعماه.

حصلت في داخله أشياء غامضة ونهائيّة. الأشخاص الذين قاموا بهذه الجريمة، يريد أن ينال منهم. رغبته في تحقيق ذلك كانت محمومةً على نحوٍ لم يعرفه من قبل إلّا نادراً. لا يعرف ما يمكن أن يفعله بهم، لكنّه كان يريدهم، وهذا كلّ شيء.

وضيعون. عصابة منظّمة. هل تركوا البلاد الآن؟ ربّما ليس بعد.

هل يستطيع أن يجدهم قبل الشرطة؟

كان الوقت ظهراً.

شدّ حبل الجرس، وأعطى أمره بأن يُحضر صهره. فلْيأتِ.

وليتوقّف أيّ شيءٍ آخر.

39

دخل هنري دولناي براديل إلى مكتب البريد الواسع في شارع اللّوفر في منتصف ما بعد الظهر، واختار مقعداً يسمح له بأن يراقب صفوف العلب البريديّة التي تغطّي الجدران، ليس بعيداً عن الدرج الضخم الذي يؤدّي إلى الطابق الأعلى.

العلبة رقم 52 تقع على بعد ما يقارب خمسة عشر متراً منه. اتّخذ هيئة مستغرق في قراءة صحيفته، لكنّه فهم بسرعةٍ أنّه لا يستطيع أن يبقى في هذا المكان لمدّةٍ طويلة. فقبل أن يمرّ أولاد الحرام لفتح العلبة، سيراقبون حتماً ومطوّلاً ليروا إن كان هناك شيء غير عادي، ولا شكّ في أنّهم لن يمرّوا وسط النهار، إنّما في الصباح. وبالنهاية، وبما أنّه الآن في المكان المطلوب، فقد وجد نفسه يغوص في أسوأ أنواع المخاوف: فمجيء المحتالين يوم الأحد ليأخذوا الدفعة الأخيرة سيعرّضهم للخطر أكثر من أن يستقلّوا القطار إلى أبعد جزءٍ من أوروبا، أو مركباً نحو إفريقيا.

لن يأتوا.

لكنّ الزمن كان محسوباً عليه.

هذه الفكرة خرّبت كلّ معنويّاته.

ليس لديه أيّ أفق في مواجهة هذه المصيبة التي تلوح أمامه الآن، وقد تركه عمّاله، وتخلّى عنه شركاؤه، وأنكره والد زوجته، وهجرته زوجته... وقد عاش أسوأ ثلاثة أيّام من عمره حتّى جاءه هذا النداء في اللحظة الأخيرة، هذا الساعي الذي جاء يبحث عنه على نحوٍ سريع، هذه الكلمة التي كُتبت على عجلٍ على بطاقة مارسيل بيريكور: «تعال لرؤيتي على الفور».

ركب سيارة أجرة مباشرةً، ووصل إلى جادّة كورسيل. التقى بمادلين في المدخل. إنّها تبتسم للملائكة دائماً هذه المرأة التي تشبه وزّة تكاد تبيض. ما بدا عليها حتّى أنّها تتذكّر كيف حكمت عليه ببرودٍ قبل يومين.

- آه، لقد وجدوك يا حبيبي!

بدا عليها كأنّها ارتاحت ممّا كان يثقل عليها، هذه الحقيرة! أرسلت الساعي ليبحث عنه حتّى في سرير ماتيلد دو بوسيرجان، يا تُرى كيف عرفت بذلك؟

- «أتمنّى ألّا يكونوا قد قاطعوك قبل وصولك إلى الذروة!». سألته مادلين.

وبما أنّ هنري مرّ أمامها بدون أن يجيب أضافت: «آه نعم، تصعد الدرج لترى بابا... مسائل رجال من جديد. كم أنتم مُتعِبون!».

ثمّ قاطعت يديها فوق بطنها، ورجعت إلى نشاطها المفضّل الذي يتألّف من أن تحزر إن كانت الحدبة على بطنها هي الأقدام أم الكعب، أو الكوع. كان يتحرّك مثل سمكة، هذا الحيوان الصغير، وهي مغرمة بالحديث إليه.

مع مرور الوقت، سارع الزبائن الذين لا يحصى عددهم نحو الكوّات، وفُتحت جميع العلب البريديّة ما عدا تلك التي يراقبها. غيّر هنري وضعيّته،

غيّر المقعد، غيّر الطابق، صعد إلى المكان الذي يمكن التدخين فيه مع مراقبة الطابق الأرضي. هذه العطالة في الحركة تقتله على نارٍ هادئة. لكنْ ما الذي يستطيع أن يفعله غير ذلك؟ عاد من جديد يستنزل اللّعنات على بيريكور العجوز، فبسبب خطأه ها هو مضطرّ الآن إلى أن يتسمّر هنا بلا حيلة. وجده مهموماً جدّاً. هذا الرجُل سيموت واقفاً، لكنّ الإنهاك يتبدّى عليه كلّه. أكتافه المتهدّلة، الهالات البنفسجيّة تحت عينيه... بدأ منذ مدّةٍ يعطي علاماتٍ عن ضعفه، ثمّ راحت حالته تتدهور على نحوٍ ملحوظ. في نادي الجوكي يتهامسون بأنّه منذ إغمائه في نوفمبر الماضي، لم يعد تماماً كما كان. والدكتور بلانش، مع أنّه أبو الهول بذاته، كان يخفض عينيه حين يجري الحديث عن مارسيل بيريكور، وذلك يكفي ليعني أشياء كثيرة. علامة لا تخطئ. في البورصة، مالت بعض الأسهم من مجموعته نحو الانخفاض، ثمّ عادت إلى الصعود من جديد.

لا يحتمل هنري فكرة أن ينهار وضعه الآن، وقد بدأ السلطعون العجوز بالتدهور. لو أنّه فقط يسلّم الأمانة الآن، وليس بعد ستّة أشهر، أو سنة! لا شكّ في أنّه وضع وصيّته في مكانٍ مغلقٍ تماماً مثل عقد اتفاق الزواج، لكنّ هنري لديه ثقة لا تتزعزع في قدرته على الحصول على ما يريد من النساء، وهي ميّزة لم تخطئ إلّا مع زوجته (وهنا المصيبة). لكنْ إن كان ذلك ضروريّاً سيغرف من الاحتياطيّ الذي لديه، وستكون مادلين مجرّد لقمةٍ سائغة. سينال حصّته من ثروة العجوز، بحقّ شرفه العسكري. يا لها من خسارة! ربّما رغب زيادة عمّا هو ممكن، أو أسرع ممّا كان متوقّعاً، لكنْ لا فائدة من العودة إلى الماضي. ما حصل حصل، وهنري رجُل عمليّ، وليس من النوع الذي يمضي وقته في التأوّه والشكوى.

- «أنت مقبلٌ على مشكلات ضخمة». قال بيريكور العجوز لهنري

عندما جلس أمامه، وما زالت في يده بطاقة الزيارة التي أعطته الأمر بأن يأتي.

لم يجب هنري لأنّ ذلك كان صحيحاً. ما كان يمكن تلافيه، -أي المشكلات الصغيرة في المقابر- صارت مع تهمة رشوة موظّف صعوبة لا يمكن التغلب عليها تقريباً.

تقريباً، يعني أنّه يمكن التغلّب عليها.

لكنّ الحقيقة، طالما أنّ بيريكور طلبه، طالما تنازل، وطلب مجيئه، ووصل للبحث عنه حتّى في سرير عشيقاته، فذلك يعني أنّه بحاجةٍ ماسّةٍ إليه.

ما الأمر الذي جعله يضطرّ إلى أن يطلبه هو؟ هنري دولناي براديل الذي لم يكن يلفظ اسمه إلّا باحتقار؟ لم يكن لدى هنري أيّة فكرة سوى أنّه صار هناك، في مكتب العجوز، جالساً وليس واقفاً، وأنّه لم يطلب الحصول على أيّ شيء. هناك ضوء يتبدّى في الأفق. أمل ما. لم يطرح أيّ سؤال.

- بدوني، ستكون مشكلاتك غير قابلةٍ للحل.

ارتكب هنري خطأً تأتى من كبريائه. سمح لنفسه بتكشيرة مشكّكة. ردّ فعل مسيو بيريكور كان عنيفاً إلى درجةٍ لم يعهدها صهره فيه من قبل.

- «أنت ميت!». صرخ بأعلى صوته: «هل تسمعني؟ ميّت! مع كلّ ما يقع على عاتقك من مشكلات. ستأخذ الدولة منك كل شيء. أملاكك، سمعتك، كل شيء، لن تستطيع القيام بعدها... وسوف تنتهي في السجن».

كان هنري ينتمي إلى ذلك الصنف من الرجال الذين يستطيعون بعد خطأً تكتيكيّ كبير أن يُظهروا حدساً ممتازاً. نهض وخرج.

- «ابق هنا!». صرخ عليه مسيو بيريكور.

بدون أيّ تردّد، قام هنري بنصف دورةٍ، واجتاز الغرفة بخطواتٍ واثقة. وضع راحتيه مفتوحتين على مكتب عمّه، انحنى وقال:

- إذنْ، لا تتعامل معي باستخراء. أنت بحاجةٍ إلي. لا أعلم من أجل ماذا. لكنْ لتكن الأمور واضحة، أيّاً كان ما تطلبه منّي، ستكون شروطي هي نفسها. الوزير في جيبتك؟ حسن، تتدخّل شخصيّاً لديه، وترمون إلى القمامة كلّ ما يجرّمني. لا أريد أن تبقى أيّة تهمةٍ ضدّي.

وبعد ذلك عاد إلى مكانه على الأريكة، وضع رجلاً على رجْل. كأنّه في نادي جوكي ينتظر أن يأتي إليه الساقي بكأسٍ من الكحول. أيّ شخصٍ آخر في مثل هذا الموقف كان يمكن أن يرتعد ويتساءل ما الذي سيتطلبونه منه بالمقابل، لكنْ ليس هنري. فمنذ ثلاثة أيّامٍ، وهو يقلّب في فكرة مسألة الإفلاس الذي يتهدّده، ولذلك شعر أنّه مستعدٌّ لأيّ شي. «قل لي: من تريدني أن أقتل؟».

اضطرّ مسيو بيريكور أن يشرح كل شيء: كيف أوصى على صرحٍ للأموات، كيف جرى الاحتيال على مستوى البلاد برمّتها، وكان هو فيه الضحيّة المنطقيّة أكثر من غيره، لأنّه الأكثر شهرة. كاد هنري يبتسم لولا الكياسة التي منعته من ذلك. بدأ يفهم ما يطلبه منه عمّه.

- «الفضيحة أكيدة». شرح مارسيل بيريكور: «إن أوقفتهم الشرطة قبل أن يهربوا، سيستولي الجميع على القصّة: الحكومة، العدالة، الصحف، الجمعيّات، الضحايا، المحاربون القدماء. لا أريد ذلك. يجب أن تجدهم».

- ماذا تريد أن تفعل بهم؟

- هذا لا يعنيك.

تأكّد هنري أنّ بيريكور نفسه لا يعرف أيّ شيء، لكنّ ذلك لا يعنيه.

- «ولماذا أنا؟». سأل.

ندم وعضّ على لسانه مباشرة، لكنّ الكلمة كانت قد ظهرت.

- لا يعثر على وغدٍ إلّا وغدٌ من الطينة نفسها.

بلع هنري الصفعة؛ ومسيو بيريكور تأسّف على الإهانة التي لفظها، ليس لأنّه بالغ، إنّما لأنّها يمكن أن تأتي بتأثيرٍ معاكس.

- «وفوقها، الوقت يمرّ بسرعة». أضاف بصوتٍ مصالحٍ أكثر: «إنّها مسألة ساعات. ولا يوجد غيرك بمتناول يدي».

في قرابة الساعة السادسة مساءً، بعد أن غيّر موقعه عشرات المرّات، اضطرّ إلى أن يسلّم بما هو بديهيّ: استراتيجيّة انتظارهم في مكتب بريد اللوفر ليست فعّالة. على الأقل، ليس اليوم. ولا أحد يعرف إن كان هناك غد بالنسبة إليه.

أيّ حلّ يوجد أمام هنري فيما عدا أن ينتظر في مكتب بريد اللّوفر المجيء المحتمل لزبائن العلبة البريديّة رقم 52؟

هناك المطبعة التي صنعت الكاتالوغ.

- «لا تذهب إلى هناك». قال له بيريكور: «سيكون عليك أن تطرح أسئلة، وإن انتشر الخبر عن قلقنا من هذه المطبعة، سيجري الرجوع إلى من هُم زبائنها، وإلى تلك الشركة، وإلى الاحتيال، وستندلع الفضيحة».

وإن لم تكن المطبعة، يبقى أمامنا البنك.

كانت الذكرى الوطنيّة قد تلقّت دفوعاتٍ سدّدها زبائنها، لكنْ لكي

نعرف إلى أيّ بنكٍ دُفعت هذه الأموال التي جُمعت، هناك حاجة إلى وقت، وأذونات، وكلّها أشياء لا يملكها هنري.

كان كلّ شيء يعيده إلى هنا. مكتب البريد، أو لا شيء.

أطاع مزاجه واختار أن يخرق الأوامر. على الرغم من أنّ مسيو بيريكور قد منعه من ذلك، فقد طلب من السائق أن يأخذه إلى مطبعة روندو، في شارع آبيس.

في سيارة الأجرة تصفّح من جديد كاتالوغ الذكرى الوطنية الذي أعطاه إيّاه عمّه... ردّ فعل مسيو بيريكور يتجاوز ردّ فعل رجُل أعمال غاضب وقع ضحيّة نصب، لقد جعل من هذه القصّة قصّة شخصيّة. ما الأمر إذن؟

ظلّت سيارة الأجرة عالقةً في زحمة السير في شارع كلينيانكور. أغلق هنري الكاتالوغ، وقد تشكّل لديه بعض الإعجاب. ها هو ذاهب للبحث عن محتالين أشاوس، عصابة منظّمة ولديها خبرة، ولديه حظّ قليل ضدّها؛ لأنّ ما بحوزته من معلوماتٍ قليل، والوقت قليل أيضاً. ما استطاع أن يمتنع عن الشعور ببعض الإعجاب تجاه نوعيّة هذا الاحتيال. فهذا الكاتالوغ يكاد يكون من روائع الأعمال. ولو لم يكن متوتّراً للوصول إلى نتيجةٍ تتعلّق حياته بها لكان ابتسم. لكنْ بدلاً من ذلك أقسم لنفسه أنّه إن كان عليه أن يبادل حياته بحياتهم، فسيذهب ليمطر هذه العصابة الصغيرة التي رمت قنبلة لا تؤذي بغاز الخردل، بالرشّاش إن لزم الأمر. فقط لو يتركون له جحر فأرة يستطيع أن يمرّ منه، سيقوم بمذبحة. شعر بعضلات بطنه، وعضلات صدره تتصلّب، وبشفاهه تتشنّج...

نعم، هذا هو الأمر. اتركوا لي إمكانيّة واحدة من أصل عشرة آلاف، وسأقتلكم.

40

- «إنّه مريضٌ قليلاً». قال ألبير لكلّ الذين كانوا قلقين في فندق لوتيسيا لعدم وجود أيّة أخبارٍ عن مسيو أوجين. فمنذ يومين لم يره أحد، ولم يعد يطلب أيّ شيء. كانوا قد تعوّدوا على الإكرامية الاستثنائيّة، عدم تلقّيهم لأيّ شيءٍ ولّد فجأةً شعوراً بالخيبة.

رفض ألبير أن يُستدعى طبيب الفندق. مع ذلك جاء. فتح ألبير الباب قليلاً. إنّه بحالةٍ أفضل. شكراً. إنّه نائم. وأغلق الباب.

لكنّ إدوار لم يكن بحالةٍ أفضل، ولم يكن نائماً. كان يتقيّأ كلّ ما يبتلعه، وحنجرته تصدر ضجّة تشبه منفاخ كور الحدّاد، وحرارته لا تهبط، وتتطلّب وقتاً طويلاً كي تهبط. «هل سيكون قادراً على السفر؟». راح ألبير يتساءل. من أين بحقّ الشيطان استطاع الحصول على الهيروين؟ لم يعرف إن كانت الكميّة كبيرةً، فهو لا يفقه شيئاً في هذا المجال. وإن لم تكن هذه الكميّة كافية، وإن كان بحاجة إلى جرعاتٍ جديدةٍ خلال الرحلة التي تستغرق عدّة أيّام، ماذا سيحلّ به؟ هو لم يركب باخرةً في حياته، ويخشى من دوار البحر. وإن كان لا يستطيع على الإطلاق أن يهتم برفيقه، من سيتكفّل بذلك؟

عندما كان إدوار لا ينام، أو لا يتقيّأ بحنجرةٍ مفتوحةٍ الشيء القليل الذي

ينجح ألبير في جعله يبتلعه، كان يبقى محدّقاً في السقف بدون حراك، ولا ينهض سوى للذهاب إلى المرحاض. وعندها يبقى ألبير مترقّباً: «لا تغلق الباب بالمفتاح». يقول له: «لكي أتدخّل وآتي لنجدتك إن حصل لك شيء». حتّى داخل المرحاض...

ما عاد يعرف ما يفعل.

خصّص يوم الأحد بأكمله للعناية برفيقه. كان إدوار يبقى معظم الأوقات مستلقياً يسبح في عرقه، وتنتابه تشنّجاتٌ عنيفةٌ تليها حشرجات. وكان ألبير ينتقل جيئةً وذهاباً بين الغرفة والحمّام ليأتي بمُلاءةٍ رطبةٍ، أو يطلب له كأس حليبٍ مع البيض، شوربة لحم، عصير فواكه. في آخر النهار طلب إدوار جرعة من الهيروين.

- «فلْتساعدني!». كتب بسرعة.

قَبِلَ ألبير بسبب ضعفه أمام حالة رفيقه التي أصابته بالجنون، وأمام الذعر الذي ينتابه مع اقتراب الرحيل، لكنّه سرعان ما تأسّف على ذلك. ما كانت لديه أيّة فكرة عن طريقة تناول الهيروين. ها هو من جديد يضع إصبعه في المسنّنات...

على الرغم من حركاته التي صارت لا تعبّر كثيراً بسبب الهياج والتعب الشديد، بدا واضحاً أنّ إدوار أدمن على الهيروين. وبذلك اكتشف ألبير شكلاً آخر من عدم الإخلاص، فجرحه ذلك. مع ذلك لعب دور المساعد، أمسك بالإبرة، فرك حجر الولّاعة على الفتيلة.

هذا الوضع يشبه كثيراً ما حصل لهما في البداية. الجناح الفخم في فندق لوتيسيا لا يشبه في شيءٍ المستشفى العسكريّ الذي أوشك إدوار على الموت فيه قبل سنتين بسبب تعفّن الدم، وهو ينتظر نقله إلى مستشفى

باريسيّ، لكنّ القرب بين الرجُلين، والعناية الأبويّة التي كان الأوّل يقدّمها للثاني، وتعلّق إدوار به، وأساه العميق، والتخبّط الذي كان يشعر به، والذي حاول ألبير بكرمٍ وارتباكٍ، وبسبب تأنيب الضمير، أن يقدّمه له، كلّ ذلك أعاد إليهما معاً ذكريات من الصعب معرفة إن كانت مريحة، أو مقلقة. يُشبه ذلك حلقة تُغلق، مع العودة إلى نقطة البداية.

مباشرةً بعد الجرعة، أصابت إدوار هزّة قويّة كما لو كان هناك من ضربه فجأةً على ظهره على نحوٍ قويٍّ مفاجئٍ، وسحب رأسه إلى الخلف من شعره. لم يدم ذلك سوى بضع لحظات. استلقى على جنبه، وبدت على قسمات وجهه الراحة التي استعادها، وغاص في حالة من الخَدر المريح. ظلّ ألبير ينظر إليه، وهو ينام بدون أن يستطيع فعل أيّ شيء. شعر بأنّ تشاؤمه قد بدأ ينتصر. فإضافةً إلى كونه لم يصدّق قطّ أنّهما سينجحان في تنفيذ الاحتيال المزدوج في البنك، وفي الاكتتاب، ولم يصدّق قطّ أنّه في حال النجاح قد يتوصّلان إلى مغادرة فرنسا، فإنّه لا يعرف كيف سيتوصّل مع رفيق رحلةٍ وضعه سيّئ إلى تلك الدرجة، إلى أن يستقلّ القطار إلى مرسيليا، ثمّ يركب الباخرة، في رحلةٍ تستغرق عدّة أيّامٍ بدون أن يلحظه أحد. هذا إذا لم يحسب حساب بولين التي تسبّب له مشكلات مخيفة: هل يعترف لها؟ يهرب منها؟ يفقدها؟ لا شكّ في أنّ الحرب تجربة رهيبة من الشعور بالوحدة، لكنّها لا شيء بالمقارنة مع هذه المرحلة من التخلّي التي تأخذ مظهر الهبوط إلى الجحيم. في بعض اللّحظات كان يشعر بنفسه مستعدّاً لأن يدخل السجن، وينتهي من كل ذلك دفعة واحدة.

لكنْ كان لا بدّ من القيام بفعل. استفاد ألبير من نوم إدوار في فترة ما بعد الظهر لينزل إلى مكتب الاستقبال؛ حيث أخبرهم أنّ مسيو لاريفيير سيترك الفندق في الساعة الثانية عشرة ظهراً من يوم الرابع عشر.

- «كيف، هل «تؤكّد» ذلك...؟». سأله المسؤول.

كان رجُلاً ضخماً، ووجهه قاسياً، خاض الحرب ورأى شظايا المتفجّرات تمرّ عن قربٍ إلى درجةٍ فقد معها أذنه. لو زاحت الشظيّة بضعة سنتمترات لكان حصل على ما يشبه رأس إدوار، لكنّ حظّه كان أكبر؛ فهو يستطيع أن يجعل المسكة اليسرى لنظّاراته تتعلق بشريطٍ لاصقٍ لونه يتناسب على نحوٍ جميلٍ مع الأكتاف المحشوّة، كما أنّها تغطّي الندبة التي تُغلق الفتحة التي دخلت منها الشظيّة إلى جمجمته. فكّر ألبير بالإشاعات التي تقول إنّ هناك جنوداً يستمرّون بالعيش مع شظيّة متفجّرات في أدمغتهم، شظيّة كان يمكن سحبها. لكنْ ما من أحدٍ التقى شخصيّاً بهؤلاء الجرحى. ربّما كان مسؤول مكتب الاستقبال أحد هؤلاء الموتى الذين ينتصبون واقفين. إن كان الأمر صحيحاً، فإنّ ذلك لم يؤثّر عليه؛ إذْ احتفظ بكلّ قدرته على التمييز بين المهمّين وغير المهمّين. بدت على وجهه تكشيرة بالكاد يمكن رؤيتها. فألبير، مهما قال، وعلى الرغم من طقمه النظيف، وحذائه اللمّاع، لديه تصرّفات شعبيّة، ويمكن إدراك ذلك من حركاته، وربّما من لكنةٍ ما، أو ربّما من تلك الدونيّة التي لم يكن يستطيع الامتناع عن إظهارها أمام جميع الذين يرتدون لباساً موحّداً، حتّى لو كان رجُل استقبالٍ في الفندق.

- مسيو أوجين سيتركنا إذنْ؟

أكّد له ألبير ذلك. معناها أنّ إدوار لم يُخطرهم برحيله. هل كانت لديه نيّة للرحيل أصلاً؟

- «طبعاً». كتب إدوار عندما طرح عليه السؤال عند استيقاظه.

كان يكتب حروفاً ترتعش، لكنّها مقروءة.

- طبعاً. نرحل يوم 14.

- «لكنّك لست مستعدّاً على الإطلاق». ألحّ عليه ألبير: «أعني ليست لديك حقيبة، ليس لديك ثياب».

ضرب إدوار على جبينه. أيّ غبيّ أنا!

مع ألبير كان إدوار لا يرتدي قناعه أبداً، أو قليلاً. رائحة حنجرته، ورائحة المعدة المقلوبة، كانت في بعض الأحيان مزعجة جدّاً.

على مدى الساعات، بدأ إدوار يتحسّن شيئاً فشيئاً. عاد إلى تناول الطعام. ومع أنّه لا يستطيع الوقوف لمدّةٍ طويلةٍ على قدميه، إلّا أنّ تحسُّن حالته يوم الاثنين بدا حقيقيّاً، ومطمئناً عموماً. في أثناء خروجه، تردّد ألبير في أن يقفل الدرْج على الموادّ، الهيروين وبقايا حُقن المورفين، لكنّه عدّ أنّ العمليّة صعبة؛ أوّلاً: لأنّ إدوار لن يتركه يفعل، وثانياً: لأنّه ما كانت لديه الشجاعة، فهو يريد أن يضع ما تبقى لديه من قوّةٍ في انتظار الرحيل، وفي عدّ الساعات.

وبما أنّ إدوار لم يحضّر أيّ شيء، فقد ذهب ألبير ليشتري له ثياباً من مخزن أو بون مارشيه. ولكي يكون متأكّداً من عدم ارتكاب خطأ في الذوق، طرح السؤال على البائع الذي كان رجُلاً في الثلاثينيّات من عمره، راح ينظر إليه من رأسه إلى أخمص قدميه. كان ألبير يريد شيئاً «شيك»[1].

- عن أيّ نوع من «الشيك» نحن نبحث؟

البائع الذي بدا عليه أنّه مهتمٌّ جدّاً بالإجابة انحنى على ألبير وحدّق في عينيه.

---

(1) شيك chic: كلمة من عالم الموضة، تستخدم في اللّغة العربيّة المحكيّة، وتعني الأناقة البسيطة والغالية. (المترجمة).

- «آه». تلعثم ألبير: «شيك... يعني...».

- نعم...؟

بحث ألبير عن كلمة. لم يخطر على باله قطّ أنّ كلمة «شيك» يمكن أن تُفهم على نحوٍ آخر غير «شيك». دلّ على مانكان موجود على يمينه يرتدي كلّ شيء من رأسه حتّى قدميه، ومن القبّعة حتّى الحذاء، بما في ذلك المعطف.

- هذا، أرى أنّه شيك..

- «الآن فهمت أكثر». قال البائع.

أنزل المجموعة كلّها بعناية، مدّها على طاولة البيع، وتأمّلها، وهو يبتعد قرابة متر، كما لو كان يعجب بلوحة أحد الفنّانين الكبار.

- السيّد لديه ذوقٌ رفيعٌ جدّاً.

أوصى البائع بشراء ربطات عنق وقمصان أُخرى. لعب ألبير دور من يتردّد، ثمّ قَبِلَ كلّ شيء، ونظر بارتياحٍ إلى البائع، وهو يلفّ الطقم كاملاً. قال عندها:

- يلزمني أيضاً.. طقم آخر، من أجل المكان هناك.

- «المكان هناك، حسناً». ردّد البائع، وهو ينهي لفّ الرزمة: «لكن أين هو، ذلك المكان؟».

لم يرد ألبير أن يفصح عن وجهته. لا مجال، على العكس، كان يجب أن يحتال. قال مصرّحاً: «المستعمرات».

- حسنٌ.

فجأةً بدا على البائع أنّه شديد الاهتمام، ربّما كانت لديه هو أيضاً في الماضي رغبة بذلك، مشاريع.

- لباس من أيّ نوع؟

الفِكرة التي كانت لدى ألبير عن المستعمرات كانت مأخوذةً كيفما اتّفق من البطاقات البريديّة، وممّا سمع الناس يتحدّثون عنه، ومن صور رآها في المجلّات.

- شيء يناسب الحياة هناك.

زمّ البائع شفتيه بهيئة من فَهِم: «أظنّ أنّ لدينا ما يلزمك، لكنْ هذه المرّة لا يوجد مانكان يرتدي الطقم كاملاً لتعرف ما سيبدو عليه. انظر هنا، هذا الجاكيت. المس لي هذا القماش. وهناك، هذا البنطال. لا يوجد ما هو أكثر أناقة منه، وفي الوقت ذاته عمليّ للغاية. وطبعاً القبّعة».

- «هل أنت واثق؟». قال ألبير.

كان البائع قاطعاً في رأيه: القبّعة هي التي تصنع الإنسان. ألبير الذي كان يظنّ أنّ ما يصنع الإنسان هو الحذاء اشترى ما عُرض عليه. ابتسم البائع ابتسامة واسعة، هل كان السبب هو ذكر المستعمرات، أم بيع طقمين كاملين؟ المثير للفضول هو أنّ هذا البائع كان فيه شيء يوحي بأنه لا يأكل سوى اللحم. ألبير رأى ذلك عند بعض المسؤولين في البنك، ولم يُحبّه على الإطلاق، وكاد أن يقوله، لكنْ لا ضرورة للفضائح هنا، على بعد خطوتين من الفندق. وسيرحلان بعد أقلّ من يومين، لا فائدة من ارتكاب خطأ يهدم جميع الجهود.

اشترى ألبير أيضاً صندوقاً من الجلد البريّ، وحقيبتين جديدتين متناسبتين معه، واحدة منهما ستُستخدم لنقل النقود، وعلبة كرتونيّة جديدة من أجل رأس الحصان، وطلب أن يُسلّم كل شيء إلى فندق لوتيسيا.

اختار في النهاية علبة جميلة، أنثويّة للغاية، وضع فيها أربعين ألف

فرنك. قبل أن يعود ليسهر على رفيقه، مرّ على مكتب البريد في شارع سيفر من أجل أن يرسل كلّ شيء إلى مدام بيلمون مع كلمةٍ صغيرةٍ تقول: إنّ هذا المبلغ مخصّصٌ للويز، «من أجلها عندما تكبر»، وإنّه وإدوار يعتمدان عليها «في تشغيل المال بأفضل شكلٍ ممكنٍ بانتظار أن تصبح الصغيرة في عمرٍ يسمح لها أن تستلمه».

عندما جرى تسليم الثياب نظر إليها إدوار وهزّ رأسه برضا، بل إنّه قام بحركةٍ من إبهامه في الهواء: برافو، ممتاز! هذا هو الأمر، فكّر ألبير. إنّه لا يهتمّ أبداً. وراح ليلتقي ببولين.

في سيارة الأجرة راجع خطابه القصير، ووصل إلى هناك مُفعماً بقراره الصائب، قراره بأن يشرح لها حقيقة الأمر، لأنّه في تلك المرّة، ما من مهرب. تاريخ اليوم هو الثاني عشر من يوليو، وسيرحل في الرابع عشر إن كان ما يزال حيّاً. يقوم بذلك الآن، أو أبداً. كان قراره مثل تعويذةٍ؛ لأنّه في قرارة نفسه يعرف أنّه ليس قادراً على مثل هذا الاعتراف.

فكّر في الأسباب التي منعته حتّى اللّحظة من أن يحسم الأمر. كلّها تنبع من بُعدٍ أخلاقيٍّ شعر بأنّه لا يستطيع تجاوزه.

كانت بولين متواضعة المنبت، معجونة بدروس الديانة، ابنة عاملٍ مياومٍ وعاملة، لا يوجد من هو أكثر اهتماماً بالفضيلة والشرف من هذه الطبقة من الفقراء.

بدت له أروع من أيّة مرّةٍ أُخرى. كان ألبير قد اشترى لها قبّعة تُظهر كلّ رشاقة وجهها المثلث تماماً، وابتسامتها اللمّاعة التي تجعله يفقد أيّة مقاومة.

شعرت بولين أنّ ألبير مُحرج، وأكثر صمتاً في ذلك المساء من العادة،

كان يتأهّب دائماً لقول شيءٍ ما، ثمّ يُحجم. عندها عاشت واحدةً من تلك اللحظات الأكثر لذّةً في كلّ علاقتها معه. لم تشكّ قطّ في أنّه يريد أن يطلبها للزواج، ولا يعرف كيف يبدأ. فكّرت في قرارة نفسها أنّ ألبير لم يكن خجولاً فقط، كما ظنّت، بل خوّافاً أيضاً. رائع ولطيف بالفعل، لكنْ إن لم تشدّ الكلام منه شدّاً، يمكن أن تنتظر إلى ما شاء الله.

أمّا في تلك اللّحظة، فكانت تستمتع بتردّده، وتشعر بنفسها مرغوبة، ولا تتأسّف لكونها قد خضعت لإغراءاته، ولا إلى رغباتها هي. تظاهرت أنّها شاردة لا تنتبه لما يفعل، لكنّها كانت مقتنعة بأنّ الأمر جديّ. فمنذ عدّة أيّام، كان منظر ألبير، وهو يتلوّى، يعطيها متعة ادّعت أنّها تجهلها.

هكذا في ذلك المساء، (كانا يتناولان العشاء في مطعمٍ صغيرٍ في شارع لو كوميرس)، قال لها بتلك الطريقة الملتوية نفسها:

- في الواقع، يا بولين، لست مسروراً جدّاً في البنك. لا أعرف إن كان من الأفضل أن أجرّب شيئاً آخر.

هذا صحيح، فكّرت في داخلها، لا يفكّر بذلك من لديه ثلاثة، أو أربعة أطفال، إنّما من لا يزال شابّاً.

- «آه، حقّاً؟». قالت بدون اهتمام، وعينها على النادل الذي يجلب المقبّلات: «لماذا؟».

- يعني... لا أعرف.. أنا...

بدا كأنّه قد فكّر كثيراً بالسؤال، ولم يفكّر بالجواب قطّ.

- «نوع من التجارة ربّما». قال في النهاية.

صارت بولين قرمزيّة اللّون. تجارة... قمّة النجاح. تخيّلوا! «بولين مايار، نوفوتيه وهدايا باريسيّة».

- «أوه!». قالت: «تجارة ماذا؟».

أو حتّى فيما لو لم تذهب بعيداً: «مايار للتجارة، بقاليّة، خردوات، نبيذ وليكور».

- يعني...

هكذا هو الأمر دائماً، فكّرت بولين. كان ألبير يتابع فكرته، لكنّ فكرتها هي ما كانت تتبعه...

- ربّما ليست تجارة تماماً... بل شركة.

بالنسبة إلى بولين التي ما كانت تفهم سوى ما تراه، بدا المشروع أقلّ وضوحاً بكثير.

- شركة ماذا؟

- فكّرت بأنواع من الخشب النادر.

علّقت بولين حركتها في الهواء، الشوكة التي فيها كراث بالخلّ والزيت تأرجحت على بعد عدّة سنتمترات بعيداً عن شفاهها.

- بماذا يفيد؟

تراجع ألبير على الفور.

- أو ربّما الفانيليا، البنّ، الكاكاو، هذا النوع من الأشياء.

وافقته بولين بجديّة، وهو ما تفعله بكلّ رحابة صدرٍ عندما لا تفهم، لكنّ «بولين مايار لتجارة الفانيليا والكاكاو»... لا أبداً! لم تعرف ما يمكن أن ينجم عن ذلك، ولا من يمكن أن تهمّه هذه البضاعة.

فهم ألبير أنّه لم يسلك الطريق الصحيح.

- إنّها مجرّد فكرة.

وهكذا من قصّةٍ إلى قصّة، متخبّطاً في أفكاره، ابتعد عن الموضوع برمّته، وعدل عن الفكرة. بدأت بولين تُفلت منه. لام نفسه كثيراً، وصارت لديه رغبة بأن ينهض، ويذهب ليدفن نفسه.

يا إلهي، يدفن نفسه...!

ها نحن نعود إلى القصّة ذاتها دائماً.

مكتبة
t.me/soramnqraa

41

ما حصل منذ 13 يوليو وما بعد يمكن أن يُدرج في برامج التعليم ضمن مدارس مشغلي الألعاب الناريّة ومزيلي الألغام كمثالٍ ممتازٍ عن الموقف المتفجّر الذي يشتعل تدريجيّاً.

عندما صدرت جريدة لو بوتي جورنال في قرابة الساعة السادسة والنصف صباحاً، لم يكن فيها سوى فقرة كُتبت بحذرٍ على الرغم من أنّها كانت في الصفحة الأولى. لم يذكر عنوانها سوى فرضيّة، لكنّها واعدة للغاية:

صروح شهداء مزيّفة...

هل نتّجه نحو فضيحةٍ وطنيّة؟

ثلاثون سطراً فقط، لكنّها جاءت بين خبر «تمديد منتدى سبا بدون أن يفضي إلى شيء» وبين عرضٍ لنتائج الحرب: «فقدت أوروبا 35 مليون إنسان»، وكذلك الخبر الهزيل عن «برنامج احتفالات 14 يوليو»، والذي صرعوا آذان القرّاء بأنّه لن يشبه أبداً احتفال 14 يوليو الماضي الذي لا شبيه له. وبذلك شدّت المعلومة عيون القرّاء.

ما الذي أعلن عنه المقال؟ لا شيء. وتلك هي قوّته، فالمُخيّلة الجمعيّة راحت تغوص فيه على مهل. لا أحد يعرف شيئاً، لكن القراء استسلموا لخبر يقول أنه «ربما»، «بعض البلديات» كلفت شركة ما بتنفيذ نصب للشهداء، وهناك خوف من أن تكون «شركة وهميّة». كان المقال شديد الحذر.

هنري دولني براديل كان من أوائل الذين قرأوا الخبر. نزل من سيارة الأجرة وانتظر أن تفتح المطبعة (كانت الساعة قبل السابعة صباحاً). اشترى لو بوتي جورنال ووقع بصره على الزاوية الصغيرة. لشدّة غضبه كاد يرمي الجريدة في مجرى الماء، ثمّ استعاد رباطة جأشه. قرأ. أعاد القراءة. قاس وزن كلّ كلمة. ما زال أمامه بعض الوقت، وقد طمأنه ذلك. لكنْ ليس كثيراً، ممّا ضاعف غضبه.

قام العامل الذي يرتدي صدريّة بفكّ قفل باب المطبعة. لحقه هنري مباشرةً. «صباح الخير». مدّ يده بكاتالوغ الذكرى الوطنيّة. هل طبعتم هذا؟ من هم زبائنكم؟ لكنّ الرجل لم يكن صاحب المطبعة.

- هه. لقد وصل. ها هو.

كان رجُلاً في الثلاثينيّات من عمره، ويحمل قصعة طعامه. شكله مثل رئيس ورشةٍ قديم تزوّج بصاحبة المطبعة. كان يمسك جريدة لو بوتي جورنال ملفوفة في يده، لكنّه لم يفتحها بعد، لحُسن الحظّ. لهنري قدرة على التأثير على هؤلاء الرجال؛ لأنّ كلّ شيء فيه يوحي بالـ«مسيو»، مثال الزبون الغنيّ، والمتطلّب، والذي لا ينظر إلى السعر. وهكذا عندما سأله هنري إن كان يستطيع التحدث إليه. «بالطبع». أجابه العامل القديم. وفي

حين كان عمّال صفّ الحروف، والطباعة، والسحب، يبدأون يومهم، دلّ هو على الباب الزجاجيّ للمكتب الذي يستقبل فيه الزبائن.

راح العمّال ينظرون بطرف أعينهم بدون أن يظهر عليهم أيّ شيء. استدار هنري لكي لا يروه، وأخرج مباشرةً ورقة مئتي فرنك ووضعها على الطاولة.

لم ير العمّال سوى ظهر الزبون الذي كانت حركاته هادئة، وقد ذهب بعد حديثٍ قصير. تلك علامة سيّئة تدلّ أنّه ليست لديه طلبيّة. مع ذلك جاء المعلّم لينضمّ إليهم، وعلى وجهه علامات الرضا. كان ذلك مفاجئاً لأنّه عادةً لا يحبّ أن تضيع عليه أيّة صفقة. تلقّى أربعمئة فرنك. يكاد لا يصدق! فقط لكي يشرح للمسيو أنّه لا يعلم ما هو اسم زبونه الذي كان رجُلاً متوسّط الطول، وعصبيّاً، وقلقاً، حتّى يمكن أن يقال: إنّه هائج. وقد سدّد الثمن بأوراق نقديّة كانت تقع من يديه. دفع نصف المبلغ، وسيدفع ما تبقّى يوم التسليم. لكن لا أحد يعرف أين ذهبت البضاعة، لأنّ هناك مندوباً جاء للبحث عن الرزم. كان يجرّ عربة بيدٍ واحدةٍ، رجُل عجيب الشكل.

- إنّه من هذه المنطقة.

ذلك كلّ ما حصل عليه هنري. لم يكونوا يعرفون هذا المندوب صاحب العربة شخصيّاً، لكنّهم رأوه من قبل. لا يوجد شيءٌ استثنائيٌّ اليوم في رجُلٍ بذراعٍ واحدةٍ، لكنْ أن يجرّ عربة، فإنّ ذلك أمرٌ نادر.

- «قد لا يكون من هذه المنطقة تماماً في الواقع». قال له رجُل المطبعة: «أقصد أنّه ليس من الحيّ، لكنّه يجب أن يكون من مكان قريب».

كانت الساعة السابعة والربع.

في البهو، انتصب لابوردان أمام مسيو بيريكور، وهو مقطوع النفس، شديد الشحوب، يكاد يُصاب بنوبة صرع.

- سيّدي الرئيس، سيّدي الرئيس (حتى بدون أن يقول صباح الخير)، أرجوك أن تعلم ألّا علاقة لي بذلك على الإطلاق!

ومدّ له جريدة لو بوتي جورنال كما لو كانت تشتعل.

- يا للكارثة، يا سيّدي الرئيس، لكنْ بشرفي....

كما لو أنّ شرفه كان يفيد في شيء.

كان على حافّة البكاء.

أخذ الرئيس منه الجريدة، ودخل إلى مكتبه، وأقفل الباب على نفسه. بقي لابوردان في البهو، غير واثقٍ من التصرف الذي عليه القيام به. هل يجب عليه أن يذهب، هل هناك شيء يجب أن يقوم به؟ لكنّه تذكّر أنّ الرئيس كان يقول له دائماً: «لا تأخذ مبادرةً شخصيّةً أبداً، لابوردان، انتظر دائماً أن نقول لك..».

قرّر أن ينتظر الأوامر، جلس في الصالون، ظهرت الخادمة، تلك التي لمس حلمتها قبل فترة. السمراء الصغيرة المثيرة. وقفت على مسافةٍ منه لتسأله إن كان يرغب بشيء.

- «قهوة». قال منهكاً.

لم يعد لدى لابوردان رغبة بشيء.

أعاد مسيو بيريكور قراءة المقال، ستندلع الفضيحة هذا المساء، أو غداً. ترك الجريدة على مكتبه، بدون غضب، فات الأوان. يمكن أن نقسم أنّه يفقد سنتمتراً جديداً عند كلّ خبرٍ سيّئ. تهدّلت أكتافه، انثنى ظهره، كان يتناقص.

عندما جلس أمام مكتبه، رأى الجريدة بالمقلوب. فكّر. الشرارة التي أثارها هذا المقال ستكون كافيةً لإشعال الفتيل.

الحقيقة أنّه كان مصيباً: فما إنْ علم محرّرو جرائد لو غولواه، لانترانزيجان، لوطان، ليكو دو باري بزاوية زميلهم في لو بوتي جورنال، حتى هرعوا. طلبوا سيّارات أجرة، واتّصلوا بمعارفهم؛ أمّا الإدارات، فظلّت صامتةً عندما طُرح السؤال عليها، ممّا يدلّ على أنّ وراء الأكمّة ما وراءها. ظلّ الجميع على أهبة الاستعداد للحرب، متأكّدين أنّه عندما يشتعل الحريق، سيكون السبق للذين يتواجدون في المواقع الأماميّة.

في مساء اليوم السابق، عندما فتح إدوار علبة مخزن أو بون مارشيه المُترفة، وأزاح ورقة الحرير، واكتشف المجموعة الرائعة التي اشتراها ألبير له، أطلق صرخة من الفرح. طار عقله بها من النظرة الأولى. بنطالٌ قصيرٌ كاكي يصل إلى الركبتين، وقميصٌ بيج، وحزامٌ له أهداب مثل الذي نراه على سترات الكاوبوي في الروايات المصوّرة، وكلسات عالية لونها عاجيّ، وسترةٌ بنيّةٌ فاتحةٌ، وحذاء من قماشٍ متينٍ يرتفع حتّى الكاحل، وقبّعة لها حوافّ واسعة جدّاً يُفترض أن تحميه من الشمس التي كان يخشاها كثيراً. وهناك جيوب كثيرة في كلّ مكان. كان ذلك يذهب بالعقل. لباس سافاري يصلح لحفلةٍ تنكريّة. ولا ينقصه سوى خزان الرصاصات، وبندقيّة طولها متر وأربعون لكي يتحوّل إلى تارتاران[1] حقيقيّ. لبسها مباشرةً، وزأر من السعادة، وهو ينظر إلى نفسه في المرآة.

---

(1) تارتاران: شخصيّة متخيّلة، معروفة في الذاكرة الشعبيّة الفرنسيّة، وقد صاغ حولها الكاتب ألفونس دوديه رواية عنوانها: كتاب المغامرات العجيبة لتارتاران دو تاراسكون. صدرت الرواية في عام 1872 ونالت شعبيّةً كبيرةً لدى الجيل الذي عاش الحرب العالميّة الأولى، وأعيدت طباعتها مراراً. (المترجمة).

في هذا اللّباس غير المعقول رآه العاملون في لوتيسيا عندما سلّموه ما طلب: ليمونة، شمبانيا، وشوربة خضار.

كان ما يزال يرتديه عندما أخذ حقنة مورفين. لم يكن يعرف تأثير تتالي مورفين - هيروين - مورفين. ربّما كانت كارثيّة، من يعرف؟... لكن في لحظتها، جعلته يشعر بسعادةٍ، واسترخاءٍ، وهدوء.

استدار نحو حقيبة السفر، من ماركة غلوب تروتيه، ثمّ راح ليفتح النافذة على مصراعيها. كان لديه شغف خاصّ بسماء منطقة ايل دو فرانس التي لا مثيل لها برأيه. لطالما أحبّ باريس، ولم يتركها إلّا ليذهب إلى الحرب، ولم يتخيّل قطّ أن يعيش في مكانٍ آخر. وحتّى في ذلك اليوم، كان الأمر عجيباً. تأثير المخدّرات بلا شك: لا شيء حقيقيّ تماماً، ولا شيء أكيد تماماً، وما تراه ليس الواقع تماماً. أفكارك تتطاير، ومشاريعك تشبه السراب. أنت تسكن في حلم، في قصّةٍ ليست تماماً قصّتك.

وغداً لا وجود له.

ألبير الذي كان فكره في تلك الأيّام مشغولاً بشيءٍ آخر تماماً لم يستطع إلّا أن يُسحر. تخيّلوا: بولين جالسة في سريرها، بطنها المسطّح ينتهي بسرّةٍ محفورةٍ على نحوٍ رائع، ونهداها مستديران بمنتهى الكمال، وأبيضان كالثلج، مع حلمتين ورديّتين رقيقتين تجعلانك تبكي، وذلك الصليب الذهبيّ الذي يبحث عن مكانه، ولا يجده... منظر يسحب القلب، خاصّةً أنّها لم تكن تلقي له بالاً، فقد كانت ساهمة، وشعرها ما يزال منبوشاً؛ لأنّها قبل قليل قفزت فوق ألبير في السرير. «إنّها الحرب!». صرخت، وهي تضحك. هاجمته من الأمام بشجاعةٍ لا مثيل لها، وتفوّقت عليه بسهولةٍ، ولم يلزمه وقتٌ طويلٌ ليلقي أسلحته، مهزوماً وسعيداً بهزيمته.

لم يتح له من قبل أيّام كثيرة استطاع فيها أن يظلّ في السرير. لم يُتح له ذلك سوى مرّتين، أو ثلاث. فبولين كانت تعمل غالباً لدى عائلة بيريكور في ساعاتٍ غير معقولة، لكن ليس في هذه المرّة. وألبير من جهته كان رسميّاً في «إجازة»، «من أجل 14 يوليو». شرح لها: «البنك أعطانا يوم توقّفٍ عن العمل». بولين التي اشتغلت طيلة حياتها خادمة مكلّفة بجميع الأعمال دُهشت من كون البنك فعل ذلك، وقد وجدت تلك المبادرة تصرّفاً شهماً من قِبَلِ صاحب العمل.

نزل ألبير ليحضر خبزاً بالحليب وجريدة اليوم، كان أصحاب الفندق يسمحون فقط بسخّانةٍ لصنع المشروبات الساخنة. كان لديهما الحقّ بصنع قهوة.

بولين التي كانت عاريةً تماماً، وتلتمع من الجهود الحربيّة التي قامت بها، راحت تشرب قهوتها، وتقرأ تفاصيل احتفالات الغد. دعكت الجريدة كي تقرأ البرنامج.

- «تزيين وإضاءة الصروح الأساسيّة والأبنية الحكوميّة» سيكون ذلك جميلاً..

انتهى ألبير من حلاقة ذقنه. بولين تحبّ الرجال الذي لديهم شوارب - في تلك الفترة كان ذلك دارجاً- لكنّها تمقت الوجنات الخشنة التي تجرح الجلد مثل مِبْشَرة، حسب قولها.

- «يجب أن نذهب من الصباح الباكر». قالت، وهي تنحني على الجريدة. الاستعراض يبدأ في الساعة الثامنة، وفانسين ليست قريبة.

في المرآة، كان ألبير يتأمّل بولين جميلة مثل الحبّ، وشبابها فاحش. «سوف نذهب إلى الاستعراض». فكّر. «وستذهب إلى عملها، وبعدها سوف أتركها نهائيّاً».

- «ستكون هناك طلقات مدافع في الأنفاليد وفي هضبة فاليريان». أضافت، وهي ترشف جرعةً من قهوتها.

سوف تبحث عن ألبير. وستأتي إلى هنا، وستسأل. لا، لا أحد رأى مسيو مايار. ولن تفهم أبداً، وسيكون ألمها فظيعاً، وستخترع جميع الأسباب لهذا الاختفاء المفاجئ، وسترفض أن تتخيّل أنّ ألبير استطاع أن يكذب عليها. لا مستحيل! كان يجب أن تكون النهاية أكثر رومنسيّة. ربّما راح ضحيّة خطف، أو أنّه قُتل في مكانٍ ما، وجسده الذي لن يُعثر عليه أبداً يمكن أن يكون قد رُمي في نهر السين. ولن يواسي بولين أيّ شيء.

- «أوه!». قالت: «هذا تماماً ما أحبّ: عروض مجانيّة في الساعة الواحدة في المسارح التالية: الأوبرا، الكوميدي فرانسيز، الأوبرا كوميك، الأوديون، تياتر دو لا بورت سان مارتان... الساعة الواحدة، هي تماماً الساعة التي أعود فيها إلى العمل».

أحبّ ألبير الحكاية المتخيّلة التي سيتلاشى فيها بطريقةٍ غامضة. فهي ستعطيه دوراً صامتاً ورومانسيّاً بدلاً من الواقع السافل.

- وهناك حفلة رقص في بلاس دو لا ناسيون، تنتهي خدمتي في الساعة العاشرة والنصف. تصوّر! بينما نصل إلى هناك سيكون كل شيء قد انتهى تقريباً.

كانت تقول ذلك بلا أسف. نظر إليها، وهي جالسة في السرير تلتهم أرغفة الخبز الصغيرة، وتساءل: هل هي من النوع الذي لا ينسى بسهولة ولايواسيه شيء؟ لا، تكفي رؤية نهديها الرائعين، وفمها الشهوانيّ، وما تجسّده من وعود... طمأنته فكرة أنّه سيسبّب لها ألماً، لكن ليس لمدّةٍ طويلة. وغاص في التفكير بذلك لبرهة. هو رجل من النوع الذي يسهل نسيانه.

- «يا إلهي!». قالت بولين فجأة: «كم أنّ هذا شرير، كم هو سيّئ!».

أدار ألبير رأسه، وجرح ذقنه.

- «ماذا؟». سألها.

بحث عن المنشفة. الجرح في هذه المنطقة ينزف كثيراً. هل لديه حجر الشبّة على الأقل؟

- «هل ترى؟». استمرّت بولين بالقراءة: «هناك أشخاص قاموا ببيع نُصُب الشهداء»، رفعت رأسها، لم تكن تصدق ذلك: «نُصب «مزيّفة»».

- «ماذا، ماذا؟». سأل ألبير، وهو يستدير نحو السرير.

- «أجل، نُصُب غير موجودة». قالت بولين، وهي منكبّة على الجريدة: «لكن انتبه يا ملاكي، أنت تنزف. ودمك في كل مكان».

- «أريني، أريني». صرخ ألبير.

- لكنْ يا قلبي...

تركت له الجريدة، وهي مذهولة من ردّ فعله. فهمت. لقد خاض الحرب، وفقد رفاقاً هناك، وبذلك فإنّ اكتشاف وجود أشخاص يقومون باحتيالٍ من هذا النوع يجعله يثور. لكنْ لماذا إلى هذه الدرجة؟ مسحت له ذقنه الذي كان ينزف في حين راح يقرأ ويعيد قراءة المقال القصير.

- هدئ من روعك يا قلبي. لا يجوز أن تصل إلى حالةٍ كهذه.

أمضى هنري النهار، وهو يذرع المنطقة. دلّوه على مندوبٍ يقيم في شارع لامارك، رقم 16 أو 13. لا يعرفون على وجه الدقة، لكنّه لم يجده لا في رقم 13 ولا في رقم 16. كان هنري يستقلّ سيّارات أجرة. واحد غيره قد

يفكّر أنّ شخصاً يجرّ عربة ربّما يقوم بنقل الأشياء في أوّل شارع كولانكور، لكنْ لا. كانت تلك مؤسّسة قديمة، وكلّ شيء فيها مغلق.

دخل هنري إلى مقهى في زاوية الشارع. كانت الساعة العاشرة صباحاً. رجُل يجرّ شاحنة، وله ذراع واحدة؟ طلبيّات، تقول؟ لا لم يعنِ ذلك شيئاً لأحد. تابع، وهو ينزل الشارع من جهة الأرقام الزوجيّة، وسيصعد من جانب الأرقام الفرديّة إن تطلّب الأمر، وبعدها سيجوب جميع شوارع المنطقة، لكنّه سيجده.

- مع ذراع واحدة، لن يكون ذلك سهلاً. هل أنت واثق؟

في قرابة الساعة الحادية عشرة، بدأ هنري السير في شارع دامريمون؛ حيث أكّدوا له أنّ بائع الفحم في زاوية شارع أوردونيه لديه عربة؛ أمّا إن كانت لديه ذراع واحدة فقط، فهذا ما لم يستطع أحد أن يجزم به. لزمه أكثر من ساعةٍ ليصعد الشارع بأكمله قبل أن يجد في زاوية مقبرة الشمال عاملاً قال له بكلّ ثقة:

- طبعاً نعرفه. إنّه شخصٌ عجيبٌ يسكن شارع دوهيم، في رقم 44.. أعرفه، إنّه جار ابن عمّي.

لكن لم يكن هناك رقم 44 في شارع دوهيم. هناك ورشة بناء، ولا يوجد أحد في المكان ليقول له أين يقيم هذا الرجُل الذي تبيّن أنه ما يزال يمتلك يديه الاثنتين.

انبثق ألبير في جناح إدوار مثل إعصار.

- «انظر، انظر، اقرأ!». راح يصرخ بصوتٍ عالٍ، وهو يضع الجريدة المدعوكة تحت عيني إدوار الذي راح يجهد لكي يستيقظ.

الساعة الحادية عشرة صباحاً. فكّر. فهم ألبير أنّ الساعة لا علاقة لها بالنعاس عندما اكتشف على منضدة اللّيل الحقنة الفارغة والإبرة. فخلال ما يقارب سنتين من الحياة مع رفيقه، صارت لديه تجربة تسمح له من النظرة الأولى أن يميّز بين الجرعة الخفيفة وتلك التي ستثير مشكلات. اكتشف من طريقة إدوار في الزفير الصاخب أنّ الجرعة هذه المرّة كانت جرعة التهدئة، تلك التي تسمح بتحييد نتائج الحاجة إلى المخدّر، وجعلها أقلّ زعزعة للكيان. لا يمنع؛ إذْ كم عدد تلك الجرعات التي حقنها لنفسه بعد الكميّة الهائلة التي أخذها وأخافته كثيراً هو ولويز؟

- «أنت بخير؟». سأله وهو قلق.

لماذا كان يرتدي اللّباس الذي اشتراه في أو بون مارشيه، ذلك اللباس المخصّص للمستعمرات؟ فهو غير ملائمٍ على الإطلاق لباريس، بل إنّه مضحك.

حرّك إدوار رأسه كما لو كان يخرج من الماء. تأثير المخدّرات؟ الفتحة في وجهه كانت أكثر احمراراً من العادة، وحنجرته قرمزيّة مبطّنة في العمق بشيءٍ يغلي بدون توقّف مثل كراميل يفور على النار. وعندما يطلق إدوار صرخة، كان البصاق يخرج من فمه بكميّاتٍ كبيرةٍ إلى درجة لا بدّ لك معها من أن تتراجع كي تحمي نفسك.

لم يطرح ألبير أسئلة. الحدث الحاليّ والملحّ هو الجريدة.

- اقرأ!

اعتدل إدوار، وقرأ واستيقظ تماماً، ثمّ رمى الجريدة في الهواء، وهو يصرخ: «رررررراه» التي تدلّ عنده على منتهى السعادة.

- «لكن». تمتم ألبير: «ألا تعي الوضع؟! إنّهم يعرفون كلّ شيء. سوف يجدوننا الآن».

إدوار الذي نطّ من السرير أمسك من على المائدة الكبيرة بزجاجة الشمبانيا التي كانت تستريح في دلو من الثلج، وسكب في حلقه كميّة هائلة. يا إلهي! هذه الضجّة التي صدرت عنه. بدأ يسعل بعنفٍ، وهو يمسك ببطنه، لكنّه استمرّ في الرقص والزئير. رررراه!

كما يحصل عند بعض الأزواج، تنقلب الأدوار أحياناً. عندما اكتشف إدوار اضطراب رفيقه، أمسك بدفتر المحادثة وكتب.

- لا تقلق! سوف نرحل.

فكّر ألبير، وهو يفرد الجريدة، أنّ إدوار لا يملك أيّ إحساسٍ بالمسؤوليّة.

- طيّب اقرأ بحقّ الآلهة!

عند سماعه تلك الكلمات رسم إدوار إشارة الصليب بحماسٍ عدّة مرّات. كان يعبد هذه النكتة، ثمّ استعاد قلمه:

- إنّهم لا يعرفون شيئاً!

تردّد ألبير، لكنّه كان مضطراً لأن يعترف: المقال مُبهمٌ للغاية.

- «هذا ممكن». وافقه الرأي: «لكنّ الزمن ليس لصالحنا».

قبل الحرب، كان قد رأى ذلك في لا سيبال: ركّاب درّاجات يلاحقون بعضهم إلى درجة لا يمكن معها معرفة من يركض وراء من. كان ذلك يلهب الجمهور. اليوم، عليه وعلى إدوار أن يركضا بأسرع ما يمكن قبل أن يطبق فكّ الذئب على ظهريهما.

- يجب أن نرحل. ما الذي ننتظره؟

منذ أسابيع وهو يقول ذلك. لماذا ننتظر؟ إدوار وصل إلى المليون الذي يريد. وماذا بعد؟

- «ننتظر الباخرة». كتب له إدوار.

كان ذلك بديهيّاً، ومع ذلك لم يفكّر ألبير بذلك. فحتّى لو رحلا إلى مرسيليا مباشرةً، فإنّ ذلك لن يجعل الباخرة تبحر قبل يومين من موعدها.

- «لنغيّر البطاقات». أعلن ألبير: «لنذهب إلى مكان آخر».

- «لكي يلحظونا؟». كتب إدوار.

كان ذلك مقتضباً، لكنّه بديهي. في وقتٍ تبحث فيه الشرطة عنهما، وتفيض الجرائد بهذه القصّة، هل يمكن لألبير بدون مخاطرة أن يقول لموظّف الشركة البحريّة «كان يجب أن أرحل إلى طرابلس، لكنْ إن كان لديك رحلة إلى كوناكري في وقتٍ أبكر، فإنّها تناسبني. وسأدفع الفرق نقداً».

هذا إن لم يحسب حساب بولين...

شحب فجأةً.

وماذا لو اعترف لها بالحقيقة، هل ستشي به بسبب خجلها منه؟ «كم هذا سيّئ!». قالت عن ذلك من قبل: «كم هو شرير!».

فجأة صار الجناح في لوتيسيا صامتاً. شعر ألبير أنّه محاصرٌ من جميع الجهات.

أمسك إدوار بكتفه بمحبّة، وضمّه إليه. بدا عليه أنّه يقول:

يا لألبير المسكين!

مدير المطبعة في شارع ليزابيس فتح الجريدة في استراحة الغداء. وبينما كان يدخّن سيجارته الأولى، وبانتظار أن تسخن قصعة طعامه، قرأ الزاوية. جنّ جنونه!

هذا السيّد الذي جاء منذ الفجر، والآن الجريدة. يا إله الغابات! ستخسر مؤسّسته سمعتها، وكلّ شيء في هذه القصّة؛ لأنّه هو الذي طبع الكاتالوغ.

سوف يربطون بينه وبين رجال العصابة هؤلاء، وسيعلنون أنّه شريكٌ في المؤامرة. سحق سيجارته، وأطفأ السخّانة، لبس سترته، ونادى المعاون الأوّل لديه. عليه أن يتغيّب، وبما أنّ الغد يوم عطلة، إلى اللّقاء يوم الخميس.

هنري، من جهته، كان يقفز من سيارة أجرة إلى أُخرى، لا يتعب، ممتلئ بالغضب. مرتاب وقَلِق، يطرح أسئلته بفجاجةٍ متزايدةٍ، في حين تتناقص الإجابات التي يحصل عليها. عندها، يجهد كثيراً لأن يصبح ناعماً. تفقّد شارع بوتو في قرابة الساعة الثانية ظهراً، ثمّ عاد من شارع لامارك قبل أن يجول في شوارع أورسيل، ولوتور. وزّع الإكراميات، عشرة فرنكات، عشرون فرنكاً، شارع مون–سينيس، ثلاثون فرنكاً لامرأةٍ بصّارةٍ قالت له: إنّ من يبحث عنه اسمه مسيو باجول، ويسكن في شارع كويسيفوكس. لم ينجح هنري في مهمّته، وصارت الساعة الثالثة والنصف مساء.

خلال ذلك الوقت بدأ المقال الذي ظهر في لو بوتي جورنال رحلته الطويلة المدمّرة. اتّصل الناس ببعضهم هنا وهناك. هل لديك الجريدة؟ في بداية ما بعد الظهر، بدأ بعض القرّاء من المحافظات يتّصلون بقسم التحرير، ويشرحون أنّهم اكتتبوا في أحد الصروح، ويتساءلون إن لم يكن الكلام يدور عنهم؛ لأنّه قد ذكر وجود ضحايا.

في أو بوتي جورنال، ألصقوا خريطة فرنسا على الحائط، وغرسوا مسامير ملوّنة في مواقع المدن والقرى التي تأتي منها الاتّصالات.

الألزاس، بورغوني، بروتاني، فرانش كومتيه، سان فيزير دو بييرلا، فيلوفرانش، بونتييه سور غارون، وحتّى من مدرسة في أورليان.

في الساعة الخامسة مساءً، جرى الحصول من إحدى البلديّات (حتّى الآن ما من واحدةٍ وافقت على الإجابة، فعلى شاكلة لابوردان، كانت أسنان أعضاء مجالس البلديّات تصطك رعباً)، على اسم وعنوان الذكرى الوطنية، وكذلك عنوان المطبعة.

وقفوا مذهولين أمام رقم 52 شارع اللّوفر. لا توجد شركة. ركضوا إلى شارع ليزابيس في الساعة السابعة والنصف، المحرّر الذي وصل أوّلاً وجد الباب مغلقاً.

عند صدور الجرائد اليوميّة في آخر النهار، ما كانت هناك معلومات أكثر، لكنْ ما جرى التوصّل إليه كان على ما يبدو كافياً لتأكيد الأمر أكثر من الصباح.

أُعلِنَ عن أشياء مؤكّدة:

هناك تجّار بلا شرف قد باعوا
نصب شهداء مزيّفة
ونجهل حتّى الآن إلى أيّ مدى وصل الاحتيال

ساعات أُخرى من العمل، والاتّصالات، والإجابة، والاستجواب، استطاعت بعدها جرائد المساء أن تظهر قاطعة جازمة:

نصب الشهداء: الهزء من ذكرى أبطالنا
الاحتيال على آلاف المكتتبين مجهولي الهويّة
من قبل مستفيدين بلا ضمير.

فضيحة بيع

نصب مزيّفة للشهداء

ما عدد الضحايا؟

الويل للصوص الذاكرة

محتالون متمرّسون قاموا ببيع مئات النصب المخصّصة

للشهداء، ثمّ تبيّن أنّها وهميّة تماماً

فضيحة نصب الشهداء

ننتظر تفسيرات من الحكومة!

حاجب الطابق الذي أحضر الجرائد التي أوصى عليها مسيو أوجين وجده في لباس المستعمرات الكامل، مع ريش.

- «مع ريش؟ كيف؟». سألوه عند خروجه من المصعد.

- «نعم، صحيح». أبطأ الشابّ في شرحه ليطيل الترقب: «مع ريش».

كان يمسك في يده ورقة الخمسين فرنكاً التي أتاحتها له مهمّته. عيون الجميع كانت تنصبّ على تلك الورقة وحدها، لكنّ قصّة الريش هذه... أرادوا معرفة المزيد.

- مثل جناحات ملاك في الظهر. ريشتان كبيرتان خضراوان. كبيرتان للغاية.

عبثاً حاولوا أن يتخيّلوا، كان ذلك صعباً. أضاف الصبي:

- أظنّ أنّها مأخوذةٌ من منفضة ريشٍ فُكّتْ، ثمّ أُلصِق الريش مع بعضه.

إن كانوا يحسدون الصبيّ، فليس بسبب قصّة الريش فقط، إنّما أيضاً

لأنّه حصد خمسين فرنكاً في الوقت الذي كانت فيه إشاعات رحيل مسيو أوجين في اليوم التالي عند الظهيرة تنتشر مثل خطٍّ من البارود. راح كلّ واحدٍ يتخيّل ما سيفقده بسبب ذلك. زبون مثل هذا لا تلتقي بواحدٍ من أمثاله في حياتك... والله أعلم! راحوا كلّهم، رجالاً ونساءً، يحسبون في أذهانهم ما ربح هذا الزميل، أو تلك الزميلة. «كان حريّاً بنا وضع خزنةٍ مشتركة». راحوا يتحدّثون بهذيان. تبدّت في العيون علامات الأسف، وعلامات الحقد.. كم من الطلبيّات سيطلب مسيو أوجين قبل أن يختفي حتّى فترةٍ لا نعرفها؟ ومن سوف يخدمه؟

التهم إدوار الجرائد بشغف. «نحن أبطال من جديد!». راح يردّد.

لا بدّ من أنّ ألبير فعل الشيء نفسه، لكنْ بتفكيرٍ معاكس.

صار صحفيّو الجرائد يعرفون الآن الذكرى الوطنية. ومهما جُنّ جنونهم، فإنّهم لم يستطيعوا أن يمتنعوا عن الإشادة بدهاء وجرأة «هؤلاء المحتالين الذين لا شبيه لهم»، حتّى لو عبّروا عن ذلك بتعابير فيها استنكار شديد. بقي أن تُجرَد نتائج الاحتيال. ولتحقيق ذلك، يجب العودة إلى البنك، لكنْ في يوم 14 يوليو، من يمكن أن يوجد هناك ليفتح ملفّات الإدارة ويراجع السجلّات؟ لا أحد. ستكون الشرطة على أهبة الاستعداد كي تصل هناك في يوم 15 عند الفجر. لكنْ وقتها، سيكون هو وألبير بعيدين.

- «بعيدين». ردّد إدوار لنفسه: «وقبل أن تصل الشرطة والجرائد إلى أوجين لاريفيير ولوي إيفرار، الجنديّين اللّذين اختفيا في 1918...، سيكون لدينا الوقت لزيارة الشرق الأوسط بأكمله».

كانت أوراق الجرائد تغطّي الأرضيّة، مثل صفحات كاتالوغ الذكرى الوطنية في الماضي حين خرجت لتوّها من المطبعة.

فجأة شعر إدوار بنفسه متعباً. شعر بالحرّ. في كثير من الأحيان تجتاحه نفحات مفاجئة من الحرّ بعد تناول إبرة، وفي اللّحظة التي يعود فيها إلى الأرض.

خلع سترته الكولونياليّة. انخلع جناحا الملاك، ووقعا على الأرض.

كانوا يطلقون على المندوب اسم كوكو. ولكي يعوّض عن غياب ذراعه التي فقدها في معركة فردان، صنع لنفسه سرجاً خاصّاً يمرّ من أمام صدره، ويحيط بذراعيه، ليرتبط بقطعةٍ خشبيّةٍ أُضيفتْ إلى مقدّمة العربة. كثيرون من ذوي الإعاقة، وعلى الأخصّ أولئك الذي لم يحصلوا على المساعدات التي منحتها الدولة، صاروا معجزةً في الابتكار؛ إذْ يمكن رؤية سيّارات صغيرة لمقطوعي الأرجُل تسير بذكاءٍ كبيرٍ، وتجهيزات مصنوعة في المنزل من الخشب، أو الحديد، أو الجلد، لتكون بديلاً عن اليدين، أو عن القدمين، أو الساقين. صارت البلاد تحتوي على مسرّحين من الجيش يمتازون بإبداعهم الكبير، ومن المؤسف أن يكون معظمهم بلا عمل.

كوكو هذا إذنْ، والذي كان سرجه يجبره على أن يسحب العربة برأسه الذي يخفضه للغاية، وجسده الذي يميل قليلاً إلى الجنب ممّا يزيد من شبهه بحصان جرّ، أو ثور حراثة، وجده هنري في زاوية شارعَي: كاربو، وماركاديه. براديل كان مُنهكاً بعد نهارٍ طويلٍ ركض فيه داخل الشوارع، وذرع المنطقة في كلّ الاتّجاهات، وأنفق ثروةً على معلوماتٍ تبيّن أنّها غير صحيحة، لكنّه ما إنْ اكتشف كوكو، حتّى فهم أنّه اقترب من الجائزة الكبرى. نادراً ما شعر بنفسه بطلاً لا يُقهر كما حصل معه وقتها.

هناك قطيعٌ شرس (كان هنري قد قرأ جرائد المساء) سوف ينتظم حول

مسألة النُصُب التذكاريّة التي تهمّ بيريكور العجوز كثيراً. لكنّه؛ أي: براديل، كان يسبقهم كلّهم، ويتفوّق على الجميع، وسيحمل إلى السلطعون العجوز المعلومات الكافية التي تجعله يقبل إجراء الاتّصال الهاتفيّ الموعود مع الوزير الذي سيمحو خلال دقائق الملفّ بأكمله.

سيعود هنري أبيض كالثلج، وسيتمتّع بعذريّةٍ جديدةٍ، ويستفيد من انطلاقةٍ أُخرى تضاف إلى ما كان قد كسبه من قبل: مزرعة لاسالوفيير التي تُبنى من جديد بالكامل، وحساب في البنك يستمرّ مثل المضخّة في سحب أموال الدولة. لقد بذل كلّ طاقته في هذه القصّة بدون مراعاةٍ لشيء، وبذلك، الآن وقد أمسك بالطرف الجيّد، سيرى الجميع من هو بالفعل هنري دولني براديل.

وضع هنري يده في جيبه؛ حيث كان يمسك بالأوراق الماليّة من فئة الخمسين فرنكاً. لكنْ عندما رأى كوكو يرفع رأسه، انتقل إلى الجيب الثاني، ذلك الذي يحتوي على أوراق من فئة العشرين مع بعض القطع المعدنيّة؛ لأنّه يستطيع ببضع قطع فقط أن يصل إلى النتيجة نفسها. أدخل يده اليمنى في بنطاله، وخشخش بقطع النقود. طرح سؤاله: هذه الرزمة من كاتالوغات المطبعة التي حملتها في شارع ليزابيس... «آه نعم». قال كوكو. «أين سلمتها؟». أربعة فرنكات. أسقط هنري أربعة فرنكات في يد الحمّال الذي ما عاد يعرف كيف يشكره.

«لا شكر على واجب». فكّر هنري الذي كان قد صار في سيارة الأجرة باتّجاه حارة بيرس المسدودة.

رأى البيت الكبير بجانب الحاجز الخشبيّ كما وصفه كوكو. توجّب عليه أن يقرّب العربة حتّى أسفل الدرجات. «لا تسألني عمّا أتذكّر. كنت قد أتيت مرّةً أحمل لهم مقعداً، كيف يسمّون ذلك؟ أريكة، منذ مدّةٍ طويلةٍ،

شهور وشهور، لكنْ في ذلك اليوم، كان هناك من ساعدني، في حين أنّه مع الكاتالوغات... لست أدري ما هي». كوكو لا يعرف القراءة؛ ولذلك يجرّ عربة.

قال هنري لسائق سيار الأجرة: «انتظرني هنا». وأعطاه ورقة عشرة فرنكات. فرح السائق: «كلّ الوقت الذي تريده يا أميري».

فتح الحاجز، اجتاز الباحة، ها هو في أسفل الدرجات. نظر إلى أعلى الدرج، لا يوجد أحد في المكان. غامر، صعد بحذر، مستعدّاً لكل شيء، آهٍ كم كان يتمنّى لو أنّ معه قنبلة في هذه اللحظة! لكنْ لا ضرورة. دفش الباب، الشقّة غير مسكونة، بل إنّها متروكة. يبدو ذلك من الغبار، من قطع الصحون، لا توجد فوضى، لكنّ فيها ذلك الفراغ الخاصّ بالشقق المفروشة التي لا يسكنها أحد.

فجأةً شعر بضجّة وراءه. استدار، ركض إلى الباب، قرقعات جافّة، بلاك، بلاك، بلاك، فتاة صغيرة تركض على السلّم. هربت، لم يرَ سوى ظهرها. ما عمرها؟ لا يستطع هنري أن يقدّر. هو، مع الأطفال...

قلب الشقّة رأساً على عقب، رمى كلّ شيء على الأرض. لا شيء، ولا ورقة، إنّما نسخة من كاتالوغ الذكرى الوطنية استُعمل لتثبيت الخزانة!

ابتسم هنري، كان العفو عنه يقترب بخطوات كبيرة.

نزل الدرجات أربعة أربعة، جال حول السياج، ثمّ عاد إلى الشارع. رنّ جرس الباب، مرّة، مرّتين. دعك الصفحات بين يديه، صار عصبيّاً، عصبيّاً للغاية، لكنّ الباب انفتح في النهاية على امرأةٍ بلا عمر، كئيبةٍ، بلا صوت. أراها هنري الكاتالوغ، أشار إلى المبنى في صدر الباحة، «السكّان». قال: «إنّني أبحث عنهم». أخرج المال، لسنا أمام كوكو هذه المرّة، أخذ ورقة

خمسين، بدافع الحدس حدّقت فيه المرأة، ولم تمدّ حتّى يدها. يتساءل المرء إن كانت تفهم، لكنّ هنري كان متأكّداً، فهمت، كرّر السؤال.

ومن جديد، بالكاد مسموعة، صدرت الضجّة الصغيرة: بلاك، بلاك، بلاك. هناك، على اليمين، البنت الصغيرة مرّت في طرف الشارع، وهي تركض. ابتسم هنري للمرأة التي لا عمر لها، ولا صوت لها، ولا نظرة، قشرة خارجيّة لخليّة بشريّة. «شكراً، حسناً». استعاد الورقة الماليّة. أنفق ما يكفي بالنسبة إلى اليوم، صعد إلى سيارة الأجرة من جديد. «والآن يا أميري، إلى أين نذهب؟».

على بعد مئة مترٍ من هنا، في شارع راماي، هناك عربات، وسيارات أجرة. بدا أنّ الفتاة معتادة. قالت كلمة للسائق، أرته المال، طفلة مثل هذه تستقلّ سيّارة أجرة! لا بدّ من أن تطرح على نفسك أسئلة. لكنْ ليس لمدّةٍ طويلة. لديها المال، والرحلة رحلة. «اصعدي يا صغيرتي». تسلّقت. انطلقت سيارة الأجرة.

شارع كولانكور، ساحة كليشي، سان لازار، نلفّ حول كنيسة المادلين. كل شيء مزيّن من أجل الرابع عشر من يوليو. لكونه بطلاً وطنيّاً، أُعجب هنري بالزينة. عند جسر الكونكورد فكّر بالأنفاليد التي كانت قريبة جدّاً. منها في الغد ستُطلق المدافع، مع ذلك ما كان يجب أن يزيح عينه عن سيارة الأجرة التي استقلّتها البنت، والتي ذهبت في شارع سان جيرمان، ثمّ صعدت إلى شارع سان بير. صفق هنري لنفسه في ذهنه. دخلت الفتاة مسرعة، أتحدّاكم أن تعرفوا إلى أين... إلى لوتيسيا.

- «شكراً يا أمير». ترك هنري لسائق سيارة الأجرة ضعف ما أعطاه لكوكو. عندما يكون الإنسان سعيداً لا يحسب.

للفتاة هنا عاداتها. لم يبدُ منها أيّ تردّد. بمجرّد أن دفعت أجرة الرحلة، قفزت على الرصيف، حيّاها الحارس برأسه. ظلّ هنري للحظة يفكر.

هناك حلّان.

الحل الأول أن ينتظر الصغيرة، ويستقبلها عند خروجها، يطويها إلى أربعة في جيبه، ويفردها تحت أوّل بابٍ كبيرٍ، يعلم منها ما يريد معرفته، ويرمي ببقاياها في نهر السين. السمك يحبّ اللّحم الطازج كثيراً. الحلّ الثاني: أن يدخل إلى المكان ويستعلم.

دخل

– «مسيو؟». سأله موظّف الاستقبال.

– «دولناي براديل». مد له بطاقته: «لم أحجز».

أمسك الموظّف بالبطاقة، أبعد هنري يديه، وعليه هيئة من لا حول له ولا قوّة، لكنّه متواطئ. مثل شخصٍ سوف تخرجه من ضائقة. ذلك النوع من الرجال الذي يعرف كيف يبدو ممتنّاً، ويجعلك تعرف ذلك مسبقاً. بالنسبة إلى موظّف الاستقبال، الزبائن الجيّدون فقط من لديهم هذه الوضعيّة الناعمة، و...الخلاصة: الزبائن الأغنياء. فأنت في لوتيسيا.

– «لا أظنّ أنّ هناك مشكلة يا مسيو». نظر إلى البطاقة: «دولناي براديل. تفضّل... غرفة أم جناح؟».

بين الأرستقراطيّين والخدم هناك دائماً أرضيّة للتفاهم.

– «جناح». قال هنري.

كان ذلك بديهيّاً. غرّد موظّف الاستقبال بدون صوت؛ فهو يعرف مهنته. وضع الخمسين فرنكاً في جيبه.

42

في صباح اليوم التالي، منذ الساعة السابعة، كانت هناك حشودٌ هائلةٌ تتكدّس في المترو، وفي الترامواي، وفي الباصات التي تودي إلى جهة فانسين. على طول جادّة دومينيل كانت هناك خطوط كاملة من العربات المسرعة: سيّارات أجرة، عربات تجرّها الخيل، عربات لها كراسي، راكبو درّاجات يسيرون بخطوطٍ متعرّجةٍ بين الجميع، والمشاة يسارعون الخطى. كان منظر ألبير وبولين مثيراً للفضول بدون أن ينتبها إلى ذلك؛ فهو يسير، ونظره مطرقٌ في الأرض حتّى ليقال: إنّه شخصٌ عنيدٌ، شخصٌ غير مسرور، أو مهموم، في حين كانت هي تسير إلى الأمام، وعيونها على السماء لا تتوقّف عن تفحّص المنطاد الذي كان يتمايل ببطء فوق حقل العمليّات.

- «استعجل يا قلبي». جزرته بنعومة: «سوف تفوتنا البداية!».

لكنّها قالت ذلك، وهي ساهمة لا تفكّر بما تقول. فقط من أجل الكلام. المنصّات كانت قد امتلأت كلّها بالفعل بعد أن هجم عليها الجميع.

- «في أيّة ساعةٍ وصل كلّ هؤلاء إذنْ؟». تساءلت بولين بإعجاب.

كان يمكن رؤية القوّات الخاصّة، وكتائب المدارس الحربيّة،

والكتائب الكولونياليّة، تليها قطعات المدفعيّة والفرسان. الجميع يقفون بنظامٍ، وبدون حراك، كأنّهم يهتزّون من نفاد الصبر. وبما أنّه لم يبقَ أيّ مكانٍ قريب، قدّم بعض الباعة الجوّالين المهَرة علباً خشبيّة ليقف عليها المتأخّرون لتتاح لهم الرؤية من علٍ. تتراوح الأسعار بين فرنك وفرنكين. ساومت بولين على علبتين مقابل فرنك ونصف.

كانت الشمس تلتمع على فانسين. ألوان ملابس النساء، والملابس العسكريّة، بدت متمايزةً بوضوحٍ عن البِدل الرسميّة ذات الذيل، والقبّعات العالية التي يرتديها الرسميّون. بدا على النخبة أنّها مهمومة. قد يكون ذلك مجرّد انطباع ناجم عن المخيّلة الشعبيّة، أو أنّها كانت مهمومة بالفعل، بكلّ الأحوال، بعض هؤلاء كانوا كذلك؛ لأنّهم قرأوا جريدتَي: لو غولوا، ولو بوتي جورنال منذ ساعات الصباح الباكر. هذه المسألة المتعلّقة بصروح الشهداء هزّت الجميع. وأن تندلع في يوم العيد الوطني بالذات لم يكن على ما يبدو محض مصادفة، بل إشارة، شيئاً يشبه التحدّي. وقد جاء في بعض العناوين: «فرنسا تتعرّض للشتيمة!». وزاود بعضهم الآخر بجملةٍ ممتلئةٍ بالأحرف الكبيرة: «شهداؤنا العظماء يتعرّضون للإهانة!». ذلك أنّ الأمر صار أكيداً: هناك شركة أطلقت على نفسها بلا خجل اسم الذكرى الوطنيّة باعت مئات النصب التذكاريّة، ثمّ تبخّرت مع الأموال. هناك من ذكر رقم مليون فرنك، وربما مليونين، لكنْ لا أحد يستطيع تقييم الأضرار. سرت الإشاعات حول الفضيحة، وفي انتظار الاستعراض العسكريّ جرى تبادل معلومات لا أحد يعرف من أين جاءت. مثلاً: «ضربة جديدة أتت من البوش حتماً!». لا. زعم آخرون ليست لديهم معلومات أكثر، «لكنّ المحتالين قد هربوا مع عشرة ملايين وذلك أكيد».

- «عشرة ملايين، هل تتخيّل؟!». سألت بولين ألبير.

- «برأيي أنّ هناك مبالغة كبيرة». أجاب بصوتٍ خفيضٍ لم تسمعه تقريباً.

بدأت المطالبة بإسقاط رؤوس، وهو أمرٌ معتادٌ في فرنسا، ولكنْ أيضاً لأنّ الحكومة متورّطة، وقد «طالها البلل» هي الأخرى. جريدة لومانيتيه شرحت ذلك على نحوٍ جيّد: «تشييد نصب للشهداء يتطلّب دائماً مساهمة من الدولة على شكل دعمٍ ماليٍّ، هو بالأصل قليل للغاية. لكنْ من يصدّق أنّه ولا واحد من الذين فوق كان يعلم بذلك؟».

- بكلّ الأحوال، كما أكّد رجُلٌ يقف وراء بولين، ضربة كهذه تحتاج إلى محترفين من نوعيّةٍ رفيعة..

كان نهب الأموال يبدو للجميع أمراً غير مقبول. لكنّ ذلك لم يمنع بعضهم من الشعور بالإعجاب نوعاً ما. يا للجرأة!

- «هذا صحيح». قالت بولين: «لا شكّ في أنّهم أقوياء، ويجب أن نعترف بذلك».

كان ألبير معكّر المزاج.

- «ماذا يحصل معك يا روحي؟». سألته بولين، وهي تضع يدها على خدّه: «هل مللت؟ رؤية القطعات والعسكريّين يحرّك لديك ذكريات، أليس كذلك؟».

وبينما كانت تصدح النغمات الأولى من «سامبر اي موز»[1] التي عزفها الحرس الجمهوريّ، وبعد أن قام الجنرال بيردولا الذي كان يترأس الاستعراض بأداء التحيّة بسيفه للماريشال بيتان المُحاط بأركان حربه من

(1) Sambre-et-Meuse: نشيدٌ فرنسيٌّ، كُتب بمناسبة انتصار الجيش الفرنسي في 1794 على القوّات النمساويّة. يُعزف هذا النشيد على نحو دائم في العرض العسكري في أثناء احتفالات العيد الوطني الفرنسي. (المترجمة).

الضبّاط الكبار، قال ألبير لنفسه: «عشرة ملايين أرباح، عمّ تتكلّم! سينتهي الأمر بأن يقطعوا لي رأسي من أجل عُشر هذا المبلغ».

كانت الساعة الثامنة. وموعده مع إدوار في محطّة ليون في الساعة الثانية عشرة والنصف. «لا تتأخّر». كان قد ألحّ عليه: «وإلّا... تعرف أنّني سأقلق...». القطار إلى مرسيليا يرحل في الساعة الواحدة، وستكون بولين وحْدها، وألبير بدون بولين. هل كان ذلك هو الربح الذي جناه؟

مرّ عندها في الاستعراض وسط موجةٍ من التصفيق طلّاب البوليتكنيك، وطلّاب سان سير بقبّعاتهم ثلاثيّة الألوان المزيّنة بالريش، والحرس الجمهوريّ، ورجال الإطفاء، وبعدهم جاء الجنود يرتدون الأزرق بلون الأفق، حيّتهم الجموع المحتشدة، وصرخ الجميع: «تحيا فرنسا!».

كان إدوار يقف أمام مرآةٍ عندما تعالت ضربات المدافع التي أُطلقت من الأنفاليد. انتابه القلق. لحظ منذ بعض الوقت أنّ الأغشية في حلقه صار لونها أحمر قرمزيّاً. شعر بنفسه متعباً، وقراءة جرائد الصباح لم تثر لديه فرحاً كالذي شعر به في الليلة الماضية. كم تشيخ الانفعالات بسرعة! مثل حلقه، تشيخ على نحوٍ سيّئ!

عندما سيشيخ، كيف سيرونه؟ الفتحة تحتلّ تقريباً كلّ المكان المخصّص للتجاعيد، ولم يبقَ سوى الجبهة. تسلّى إدوار بفكرة أنّ التجاعيد التي لن تجد لها مكاناً على الوجنات الغائبة، وحول الشفاه الغائبة، ستهاجر كلّها نحو الجبهة مثل تلك الأنهار التي يُحوّل مجراها فتبحث عن مخرجٍ لها، وتأخذ أوّل طريقٍ تجده أمامها. عندما يشيخ، سيكون جبهة محروثة مثل أرض معركةٍ تقع فوق فوهة قرمزيّة.

نظر إلى الساعة. صارت التاسعة. وهذا التعب! على السرير كانت عاملة الغرف قد فردت له طقمه الكولونيالي بأكمله، الطقم ينام هناك بطوله، مثل ميّت قد أُفرغ من مادته.

- «هكذا تريده؟». سألته، وهي غير متأكّدة.

ما عادوا يتفاجأون من شيء معه، لكنْ مع ذلك، هذا الطقم الكولونياليّ مع الريش الأخضر المُثبت بالخياطة على ظهره...

- «للخروج به... إلى الخارج؟». قالت مدهوشة.

أجابها بأنْ وضع في يدها ورقة نقودٍ مدعوكة.

- «إذنْ». أضافت: «أستطيع أن أطلب من النادل في الطابق أن يأتي ليأخذ حقيبتك؟».

حقائبه ستذهب قبله في قرابة الساعة الحادية عشرة لكي تُشحن في القطار. وسيحتفظ فقط بحقيبة ظهره، هذه القطعة البالية التي حشر فيها القليل الذي لديه. ألبير هو الذي يحمل الأشياء المهمة. «أخشى كثيراً أن تضيّعها». كان يقول له.

تفكيره بصديقه حسّن مزاجه، بل إنّه شعر بنوع غير مفهوم من الفخر، كما لو كان للمرّة الأولى منذ تعارفهما قد صار هو الأب وألبير هو الطفل. والحقيقة أنّ ألبير، مع رعبه، وكوابيسه، وذعره، لم يكن سوى طفل. مثل لويز التي -يا للسعادة- عادت فجأةً البارحة لكي تراه.

كان نَفَسها مقطوعاً.

هناك رجُل أتى إلى الحارة. انحنى إدوار عليها. اروِ لي هذا.

إنّه يبحث عنكما. فتّش كلّ شيء، طرح أسئلة، لم نقل شيئاً بالطبع. كان رجُلًا وحْده. أجل، في سيارة أجرة. داعب إدوار وجنة لويز وتبع بسبّابته

أطراف شفاهها. هيّا. هذا لطيفٌ منك. حسناً فعلتِ. اذهبي الآن. تأخّر الوقت. كان بودّه أن يقبّلها من جبينها. هي أيضا رفعت أكتافها، تردّدت، ثمّ قرّرت أن تذهب.

رجُلٌ وحْده في سيارة أجرة، ليس من الشركة. ربّما كان محرّراً أكثر نباهة من الآخرين. قد وجد الحارة، حسناً، وبعد؟ بدون الأسماء، ما الذي يمكن أن يفعله؟ وحتّى مع الأسماء، كيف سيتدبّر أمره ليجد ألبير في النزل العائليّ الذي يقيم فيه، وهو هنا؟ وفوقها، هناك القطار بعد عدّة ساعات؟

– «القليل فقط». قال لنفسه. لا هيروين هذا الصباح. فقط نقطة من المورفين. يجب أن يحافظ على وعيه، يشكر العاملين، يحيي موظّف الاستقبال، يصعد في سيارة الأجرة، يذهب إلى المحطّة، يجد القطار، يلتقي بألبير، وهناك... تأتي المفاجأة التي فرح قلبه بها. ألبير لم يره سوى بطاقته، لكنّ إدوار قد فتّش، واكتشف البطاقة الأخرى التي حُرِّرت باسم مسيو ومدام لوي إيفرار.

هذا يعني أنّ هناك امرأة. كان إدوار يشكّ بذلك منذ مدّةٍ طويلة. لماذا بحقّ الشيطان يحيط ألبير كلّ شيءٍ بسريّةٍ مثل طفل؟

قام إدوار بحقن نفسه. الراحة كانت مباشرة، هادئة، خفيفة. انتبه كثيراً إلى الكميّة. راح ليستلقي على السرير، ومرّ بسبّابته ببطء حول فتحة وجهه. «طقمي الكولونياليّ وأنا، مثل رجُلين ميّتين يستلقيان جنباً إلى جنب». قال لنفسه: «أحدهما فارغ، والثاني مجوّف».

فيما عدا أخبار البورصة التي كان يتفحّصها بدقّة في الصباح، وفي المساء، وبعض الأخبار الاقتصاديّة هنا وهناك، ما كان مسيو بيريكور يقرأ

الجرائد. هناك من يقرأها له، ومن يكتب له ملخّصات عنها، مع الإشارة إلى المعلومات المهمّة. ما أراد خرق تلك القاعدة.

في البهو تفاجأ بعنوان لجريدة لوغولوا كانت موضوعة على طاولة صغيرة. هراء! توقّع أن تكون الفضيحة وشيكة. لا حاجة لقراءة الصحيفة اليوميّة من أجل معرفة ما يكتبونه.

ذهاب صهره للبحث عن الطريدة كان بلا جدوى، وجاء بعد فوات الأوان.

ومع ذلك لا، بما أنّهما صارا الآن وجهاً لوجه. في العاشرة صباحاً، صار لزاماً عليه أن يبلع القصّة، ويتحمّل عنجهيّته. فكّر في قرارة نفسه: من الواضح أنّ لديه رغبة في التشفّي. إنّه كائنٌ وضيعٌ، لكنْ لنعترف أنّه فعّال. ليته كان غير ما هو عليه...!

لم يطرح مسيو بيريكور أيّ سؤال، فقط شبك يديه أمامه. سينتظر طوال الوقت اللازم، لكنّه لن يسأل شيئاً. بالمقابل، يستطيع أن يعطيه معلومة محفّزة:

- لقد تحدّثت إلى وزير المعاشات على الهاتف، فيما يتعلّق بقضيّتك.

لم يتصوّر هنري أن تجري المقابلة بتلك الطريقة، لكنْ لم لا؟ المهم كان محو الماضي. تابع مسيو بيريكور:

- لقد أكّد لي أنّ المسألة جدّيّة، وقد حصلتُ على بعض التفاصيل...، بل جدّيّة جدّاً.

تساءل هنري: هل يحاول العجوز أن يزاود، وأن يفاوض على ما كان يجب عليه هو أن يأتي به؟

- «لقد وجدتُ رجُلك». قال كأنّ الكلمة تفلت منه.

- من هو؟

الجواب قد خرج من فمه، وهذه علامة حسنة.

- وماذا قال صديقك الوزير عن مسألتي «الجدّية»؟

ترك الرجُلان بعض الصمت يمرّ.

- قال: إنّه من الصعب حلّها. ماذا تريد؟ هناك تقارير جرى تناقلها، ما عاد الأمر سرّاً.

بالنسبة إلى هنري، ما عاد من الممكن أن يتخلّى، ليس الآن. سيبيع جلده بالسعر اللازم.

- صعبة الحلّ لا يعني أنّها «غير قابلةٍ للحل».

- «أين هو هذا الرجُل». سأله مسيو بيريكور

- في باريس في الوقت الحالي.

ثمّ سكت ونظر إلى أظافره.

- وأنت متأكّد أنّه هو؟

- نعم، على نحوٍ كامل.

كان هنري قد أمضى المساء في بار لوتيسيا، تردّد في أن يخبر مادلين، لكنْ لا فائدة، فهي لا تهتمّ بمكان وجوده.

المعلومات الأولى أتت من البارمان، لا يتحدّثون إلّا عنه، مسيو أوجين الذي وصل قبل أسبوعين. وجوده محا كلّ شيء: الأخبار الحاليّة، احتفالات 14 يوليو، هذا الرجُل يستحوذ على كلّ الانتباه. ولقد أثار حقد البارمان. «تخيّل! هذا الزبون لا يعطي إكراميات سوى للناس الذين يراهم، وهكذا، عندما يطلب شمبانيا، يعطي النقود لمن يوصلها إليه؛ أمّا ذلك الذي يحضّرها، فلا شيء له أبداً. إنّه إنسانٌ بليدٌ إن أردت رأيي. أنت لست

من أصدقائه على الأقل؟ آخ، الفتاة الصغيرة أيضاً. الكلّ يتحدّث عنها في المؤسّسة، لكنّها لا تمرّ من هنا، فالبار ليس مكاناً للأطفال».

منذ الصباح، وقد أفاق في السابعة صباحاً، استجوب هنري العاملين. الصبيّ الذي يحمل الفطور في الطابق، المرأة التي تنظّف الغرفة. طلب الجرائد أيضاً، فهي طريقة ليرى شخصاً آخر، وكل الأقوال تتقاطع. بالتأكيد. هذا الزبون لم يكن كتوماً. كان متأكّداً أنّه لا يوجد من يعاقبه.

الفتاة الصغيرة التي مرّت في اليوم السابق في المساء تتوافق بجميع قسماتها مع تلك التي تبعها، لكنّها تأتي إلى هنا لترى زبوناً واحداً، هو نفسه دائماً.

- «سيترك باريس». قال هنري.

- «وجهته؟». سأل مسيو بيريكور.

حسب رأيي، إنّه يغادر البلاد. سيرحل الساعة الثانية عشرة.

ترك المعلومة تسير في طريقها ثم:

- يقول لي عقلي إنّه بعد هذه المهلة، سيكون من الصعب العثور عليه.

«يقول لي عقلي». الرجال من نوعه فقط يستخدمون مثل هذه الصيغ. وعلى الرغم من أنّ مسيو بيريكور لم يكن متطلّباً للغاية فيما يتعلّق بالمفردات، فقد انزعج من هذا التعبير السوقيّ في فم رجُلٍ أعطاه ابنته.

مرّت موسيقى عسكريّة تحت النوافذ، وأجبرت الرجُلين على الانتظار. لا بدّ من أنّ هناك حشداً صغيراً يتبع الاستعراض. فقد كان يتناهى إلى سمعهم صوت زعيق الأطفال والمفرقعات.

بعد عودة الهدوء، قرّر مسيو بيريكور أن يقطع الأمر:

- سوف أتدخّل عند الوزير و...

- متى؟

- بمجرّد أن تقول لي ما أريد الحصول عليه.

- اسمه، أو أنّه يطلق على نفسه اسم أوجين لاريفيير، وقد أقام في فندق لوتيسيا.

كان من المناسب أن يعطي جسداً للمعلومة، وأن يعطيها للعجوز مقابل نقوده. قام هنري بتقديم تفاصيل: المقالب التي يقوم بها هذا الرجُل الذي يحبّ الحياة، أوركسترا الحُجرة، الأقنعة العجائبيّة لكي لا يراه أحد بوجهه الحقيقيّ، الإكراميات الهائلة، يقال: إنّه يتعاطى. عاملة الغرف رأت لباساً كولونيالياً في المساء السابق، لكنْ هناك ريش على الأخصّ...

- «كيف؟». قاطعه مسيو بيريكور: «ريش؟».

- نعم، أخضر، مثل أجنحة.

كان مسيو بيريكور قد شكّل فكرته الخاصّة عن المحتال، وهي تتكوّن من كلّ ما يعرفه عن هذا النوع من الأشقياء. لكنْ ما كان فيها شيء يتوافق مع الصورة التي رسمها له صهره. فهم هنري أنّ مسيو بيريكور لا يصدّقه.

- يعيش حياةً مترفةً، ينفق كثيراً، لديه كرمٌ نادر.

عمل جميل. الكلام عن المال يعيد العجوز إلى الطريق. لنترك قصّة الأوركسترا، وأجنحة الملاك، ولنتكلّم عن المال. رجُلٌ يسرق وينفق، ها هو شيء يمكن لرجُلٍ مثل عمّه أن يفهمه.

- هل رأيته؟

هذا ما تأسّف عليه. بماذا يجيب؟ هنري كان في الموقع، ويعرف رقم الجناح 40. في البداية كانت لديه رغبة بأن يرى رأس هذا الرجُل، بل وربّما أن يقبض عليه طالما أنّه كان وحده. ما كان ذلك صعباً. يدقّ الباب، يفتح

الشخص، يجد نفسه على الأرض. بعد ذلك حزام لربط اليدين.... لكنْ بعدها؟

ما الذي يريده مسيو بيريكور بالضبط؟ أن يسلّمه إلى الشرطة؟ العجوز لم يكشف عن شيءٍ من نيّاته؛ لذلك عاد هنري إلى جادّة دو كورسيل.

- «سيترك فندق لوتيسيا عند الظهر». قال له: «لديك الوقت لترسل من يعتقله».

لم يكن مسيو بيريكور قد فكّر بذلك قطّ. إنّه يريد أن يجد هذا الرجُل من أجل نفسه، لا بل إنّه يفضّل أن يحمي هروبه بدلاً من أن يتقاسمه مع الآخرين. تتالت في ذهنه صور عن حالات توقيف مشهديّة، استجوابات لا تنتهي، دعاوى...

- حسنٌ.

في نظره، انتهت المقابلة، لكنّ هنري لم يتحرّك، على العكس، فكّ ساقيه، وأعاد لفّهما من أجل أن يظهر أنّه يجلس هنا دائماً، وأنّه ينوي الآن أن يحصل على ما يستحقّه، وأنّه لن يذهب قبل ذلك.

رفع مسيو بيريكور سمّاعة هاتفه. طلب من العاملة وزير المعاشات. في بيته، في الوزارة، أينما كان. الأمر مستعجل. يريد الحديث إليه مباشرة.

كان يجب الانتظار بصمتٍ ثقيل.

رنّ الهاتف أخيراً.

- «حسنٌ». قال مسيو بيريكور ببطء: «ليتّصل بي مباشرة بعد ذلك. نعم مستعجلٌ جدّاً».

ثمّ قال لهنري:

- الوزير في العرض العسكريّ في فانسين. سيعود إلى بيته بعد ساعة.

لم يحتمل هنري فكرة البقاء هناك، والانتظار لمدّة ساعةٍ، أو أكثر. نهض. الرجُلان اللّذان ما كانا يتصافحان قطّ، نظرا إلى بعضهما، تفرّسا ببعضهما للمرّة الأخيرة، وافترقا.

أنصت مسيو بيريكور إلى خطوات صهره تبتعد، ثمّ عاد إلى الجلوس، استدار ونظر عبر النافذة: كانت السماء ذات زرقة كاملة.

هنري من جهته تساءل إن كان عليه أن يمرّ عند مادلين.

هيّا، مرّة واحدة لا تعني دائماً.

كانت هناك أصوات أبواق، قطعان الفرسان أثارت أطناناً من الغبار، بعدها مرّت قطعان المدفعيّة الثقيلة، قطع هائلة الحجم تجرّها جرارات، ثمّ أتت المدافع الآليّة المحمولة على عربات، والرشّاشات الآليّة، وأخيراً دبّابات الهجوم. في الساعة العاشرة انتهى الاستعراض الذي ترك انطباعاً غريباً من الامتلاء، ومن الفراغ في الوقت نفسه. وهو الانطباع نفسه الذي يشعر به الإنسان عند نهاية بعض أنواع الألعاب الناريّة. استدارت الحشود ببطءٍ، بصمتٍ تقريباً، فيما عدا الأطفال الذين أسعدهم أن يستطيعوا الركض أخيراً.

شدّت بولين على ذراع ألبير، وهي تمشي.

- «أين سنجد سيارة أجرة؟». تساءلت بصوتٍ خالٍ من التعبير.

كان يجب أن يمرّا بالنزل حيث تغيّر بولين ثيابها قبل أن تذهب لتبدأ مناوبتها.

- «هممم». قالت: «لقد أنفقنا ما فيه الكفاية. لنأخذ المترو. لدينا وقت، لا؟».

جلس مسيو بيريكور ينتظر هاتف الوزير. كانت الساعة قرابة الحادية عشرة عندما رنّ الهاتف.

- يا صديقي العزيز، آسف...

لكنّ صوت الوزير لم يكن صوت رجُل آسف. كان يخشى هذه المحادثة منذ عدّة أيّام، ويستغرب أنّها لم تحصل من قبل. آجلاً أم عاجلاً سيتدخّل مسيو بيريكور لصالح صهره. بالضرورة.

وسيكون الأمر محرجاً للغاية. الوزير يدين له بالشيء الكثير، لكنّه في هذه المرّة، لن يستطيع فعل أيّ شيء، فمسألة المقابر قد أفلتت من يده، ورئيس المجلس نفسه قد تأثّر بها، ماذا تريد أن تفعل الآن...؟

- «الأمر يتعلّق بصهري». بدأ مسيو بيريكور.

- آه يا صديقي، أمر مؤسف...!

- خطر؟

- شديد الخطورة... لقد.... صدر الاتّهام بحقّه.

- آه نعم؟ لهذه الدرجة؟

- أي نعم، تزوير في صفقات الدولة، التستّر على عيوب التنفيذ، سرقات، تهريب، محاولة رشوة. لا يوجد ما هو أخطر!

- جيّد.

- كيف، جيد؟

لم يستطع الوزير أن يفهم.

- أردت معرفة مدى الكارثة.

- هائلة، يا عزيزي بيريكور، فضيحة أكيدة! بدون أن نقول إنّه في

هذه الفترة، تتساقط الأمور من جميع الأماكن. مع قصّة صروح الشهداء، يجب أن نعترف أنّنا نجتاز مرحلة سيّئة، وهكذا إن كنت تفهمني، فكّرت أن أتدخّل من أجل صهرك، لكن...

- لا تفعل أيّ شي!

لم يصدّق الوزير أذنيه... لا شيء؟ عاد مسيو بيريكور إلى الكلام:

- أردت فقط أن أستعلم، وهذا كلّ شيء. هناك إجراءات يجب اتّخاذها من أجل ابنتي، لكنْ فيما يتعلّق بمسيو دولناي براديل، لتأخذ العدالة مجراها. هذا أفضل ما يمكن.

وأضاف هذه الكلمات المثقلة بالمعاني:

- أفضل للجميع.

بالنسبة إلى الوزير، خروجه من القضيّة بأقلّ قدر من المشكلات بدا له معجزة.

أغلق مسيو بيريكور السماعة. الحكم الذي أصدره لتوّه على صهره بدون أدنى تردّد لم يثر لديه سوى فكرة واحدة: هل يجب أن أخبر مادلين الآن؟

نظر إلى ساعته. سيقوم بذلك فيما بعد.

طلب السيّارة.

- بدون سائق. سأقودها بنفسي.

في الساعة الحادية عشرة والنصف، كانت بولين ما تزال تنعم بفورة الفرح الناجم عن الاستعراض، وعن الموسيقى، والمفرقعات، وضجيج المحركات. كانا قد عادا لتوّهما إلى النزل.

- «مع ذلك». قالت، وهي تخلع قبعتها: «أن يطلب فرنكاً من أجل هذه العلبة الخشبيّة التعسة!».

ظلّ ألبير جامداً وسط الغرفة.

- ماذا يا قلبي؟ هل أنت مريض؟ أنت أبيض تماماً.

- «إنّه أنا». قال.

ثمّ جلس على السرير، متيبّساً تماماً، وهو يحدّق ببولين. حصل الأمر. اعترف. لم يعرف ما يمكن أن يثيره هذا القرار المفاجئ، ولا ما يمكن أن يضيفه عليه. خرجت الكلمات من فمه بدون أن يتدخّل، مثل كلماتٍ لشخصٍ آخر.

نظرت بولين إليه، وقبّعتها ما تزال في يدها.

- ما معنى هذا، إنّه أنا؟

بدا على ألبير أنّه يتألم. راحت لتعلّق معطفها. عادت إليه، أبيض كالثلج. مريض من كل النواحي. وضعت يدها على جبهته. أي نعم. لديه حرارة.

- «هل تشعر بالبرد؟». سألته.

- سأرحل يا بولين. أنا راحل.

كان يستخدم لهجة مرتعبة. الالتباس حول حالته الصحيّة لم يستمرّ أكثر من لحظةٍ واحدة.

- «سترحل». ردّدت، وهي على حافّة البكاء: «كيف ترحل؟ تتركني؟».

أمسك ألبير بالجريدة عند قدم السرير، والتي كانت ما تزال مثنيّة على المقال المتعلّق بفضيحة الصروح، ومدّها لها.

- «إنّه أنا». قال مردّداً.

احتاجت إلى عدّة لحظات قبل أن تفهم. راحت تعضّ على قبضتها.

- يا إلهي!

نهض ألبير. فتح درج الكومودينو، أمسك بتذاكر الشركة البحريّة، ومدّ لها بطاقتها.

- هل تريدين المجيء معي؟

كان فم بولين مفتوحاً، وعيونها ثابتة لا تتحرّك، مثل الدحلات الزجاجيّة في الوجوه الشمعيّة للدمى التي تعرض الأزياء. راحت تنظر إلى التذاكر، ثمّ إلى الجريدة، لكنْ بدون أن تخرج من مفاجأتها.

- «يا إلهي!». راحت تردد.

قام ألبير عندها بالشيء الوحيد الممكن. نهض، انحنى، شدّ حقيبته من تحت السرير، وضعها على اللّحاف، وفتحها على كميّةٍ مجنونةٍ من العملات بالقطع الكبير مرتّبة في رزمٍ متلاصقة.

ندت عن بولين صرخة.

- «القطار يرحل إلى مرسيليا بعد ساعة». قال ألبير.

كان أمامها ثلاث ثوان لكي تختار بين أن تصبح غنية، وبين أن تبقى خادمة تقوم بجميع ما يُطلب منها.

لم تستخدم من ذلك الوقت سوى ثانية واحدة.

كانت هناك بلا شكّ الحقيبة الممتلئة بالمال، لكنّ الغريب أنّ ما جعلها تختار قرارها هي التذاكر التي كُتب عليها بالأزرق «عربة الدرجة الأولى» مع كلّ ما يمثّله ذلك...

بحركة واحدة أغلقت غطاء الحقيبة، وركضت لترتدي معطفها.

بالنسبة إلى مسيو بيريكور، كانت مغامرة الصرح الذي أراده قد انتهت. لم يعرف لماذا ذهب إلى لوتيسيا. لم يكن لديه النيّة بأن يدخل هناك، ولا أن يلتقي بهذا الرجُل، ولا أن يتكلّم معه، بل أكثر من ذلك، لم تكن لديه النيّة أن يشي به، أو يقف في وجه هروبه. لا، للمرّة الأولى في حياته تقبّل هزيمته.

كان مهزوماً، ولا مجال للشكّ في ذلك.

الغريب أنّه شعر بنوع من الراحة. أن تخسر يعني أن تكون إنساناً.

ثمّ كانت تلك نهاية، وهو يلزمه نهاية.

ذهب إلى لوتيسيا كما لو كان قد وقّع إمضاءه في أسفل سند إقرار بالدَين؛ لأنّ تلك شجاعة ضروريّة، ولأنّه ما كان بالإمكان فعل أيّ شيءٍ آخر.

ما كانت تلك لجنة تشريفات -لا يجري التصرّف بهذه الطريقة في البيوتات الكبيرة- إنّما شيء يشبهها، فكلّ أولئك الذين خدموا مسيو أوجين كانوا مصطفّين ينتظرونه في الطابق الأرضي. خرج من المصعد، وهو يصرخ عالياً مثل مجنون، وقد التفّ ببدلته الكولونياليّة، وعلى ظهره أجنحة ملاك مصنوعة من الريش، الآن بدا ذلك بوضوح.

لم يكن يرتدي واحدةً من هذه الأشياء الغريبة التي كان قد سلّى بها العاملين حتّى الآن، إنّما قناعه كرجُلٍ طبيعيٍّ، قناع جامد، لكنّه واقعيّ للغاية، هو القناع نفسه الذي أتى به إلى الفندق.

لا شكّ في أنّ المنظر كان من النوع الذي لا يمكن رؤيته مرّة ثانية أبداً، وقد تأسّف موظّف الاستقبال لأنّه لم يطلب مصوّراً فوتوغرافيّاً. فمسيو أوجين الذي تصرّف كسيّدٍ نبيلٍ أكثر من ذي قبل راح يوزّع الأوراق النقديّة.

وهُم كانوا يقولون له: «شكراً مسيو أوجين». «إلى اللقاء..». أوراق نقديّة كبيرة للجميع، مثل قدّيس، لا شكّ في أنّ الأجنحة هي السبب. لكنْ لماذا خضراء؟ كانوا يتساءلون.

الأجنحة بحدّ ذاتها فكرة حمقاء. استعاد مسيو بيريكور هذا التفصيل، وهو يعيد التفكير بحواره مع صهره. قاد السيّارة في بولفار سان جيرمان الذي لم يكن مزدحماً، فقط بعض السيّارات، وعربات الأحصنة. كان الطقس رائعاً! صهره تحدّث عن جنون. وقد ذكر أجنحة، طبعاً، لكنْ أوركسترا أيضا؟ أليس كذلك؟ فهم مسيو بيريكور في النهاية أنّ ارتياحه يتأتّى من كونه قد خسر معركة ما كان يستطيع ربحها أصلاً؛ لأنّ هذا العالم، وهذا الخصم، ليسوا من عالمه هو. لا يمكن أن تربح ضدّ شيءٍ لا يمكن أن تفهمه.

ما لا نفهمه، يجب بكلّ بساطةٍ أن نتقبّله، هذا ما يمكن لموظّفي لوتيسيا أن يتفلسفوا به، وهُم يتلقّون مباركة مسيو أوجين الذي كان ما يزال يصرخ، ويسير بخطواتٍ كبيرةٍ ترتفع فيها ركبتاه عالياً، وعلى ظهره حقيبة جنود المشاة نحو الأبواب الواسعة المفتوحة على البولفار.

حتّى هذا الانتقال كان يمكن لمسيو بيريكور أن يتجنّبه. لماذا اخترع لنفسه هذه المهمّة السخيفة؟ هيّا. اتّخذ قراره. من الأفضل العودة عن هذه المهمّة. وبما أنّه كان يمرّ في بولفار راسباي فإنّه سيتجاوز فندق لوتيسيا، ويلفّ نحو اليمين ويعود. لننتهي من هذه القصّة. هذا القرار أراحه.

موظّف استقبال فندق لوتيسيا كان هو أيضاً يستعجل انتهاء هذه الكوميديا. فبقيّة الزبائن وجدوا هذا الكرنفال في البهو «سمجاً للغاية». وهذا المطر من المال الذي حوّل العاملين في الفندق إلى متسوّلين، كلّ ذلك غير لائق. فليرحل نهائيّاً!

لا بدّ من أنّ مسيو أوجين قد شعر بذلك؛ لأنّه توقّف تماماً. مثل طريدةٍ نُبهتْ فجأةً إلى وجود صيّاد. وضعيّة جسده مفكّكة المفاصل كانت تتناقض تماماً مع قسمات قناعه الثابتة، والخالية من التعبير، حتّى لتبدو كأنّها مشلولة.

فجأة مدّ ذراعه مستقيماً أمامه، ضاعف الحركة بصراخٍ واضحٍ وصاف: ررررهههههررر! ثمّ أشار إلى زاوية البهو حيث كانت إحدى الخادمات قد انتهت من مسح الغبار عن الطاولات المنخفضة. ركض نحوها، خافت، وهي ترى هذا الرجُل ذا الوجه الرخامي واللباس الكولونياليّ، وله أجنحة كبيرة خضراء، يهجم عليها. «يا إلهي كم خفت! لكنْ كم ضحكنا فيما بعد! ما كان يريده.... هو مكنستي». «المكنسة؟». «تماماً كما أقول لك. الواقع أنّ مسيو أوجين أمسك بها، شدّ العصا على كتفه مثل بندقيّةٍ طويلةٍ، ومشى مشية الجنود الإيقاعيّة، بهيئةٍ حربيّةٍ، وهو يعرج ويصرخ دائماً على إيقاع موسيقى صامتة خُيّل إلى الجميع أنّهم يسمعونها.

وهكذا، بخطواتٍ عسكريّةٍ، وبأجنحته التي تضرب الهواء، اجتاز إدوار أبواب فندق لوتيسيا، وانبثق على الرصيف الذي كانت تغمره الشمس.

أدار رأسه إلى اليسار، رأى سيّارةً تسير بسرعةٍ نحو زاوية الجادّة. عندها، رمى مكنسته في الهواء، وهرع نحوها.

كان مسيو بيريكور قد زاد سرعته عندما لحظ الجمع الصغير أمام الفندق. كان قد وصل إلى جانب المدخل عندما ارتمى إدوار. الشيء الوحيد الذي رآه، لم يكن كما يمكن أن نتخيّل، ملاكاً يطير أمامه، لأنّ إدوار بسبب ساقه التي يجرّها لم يستطع فعليّاً أن يُقلع من الأرض. وقف في منتصف الطريق، فتح ذراعيه على اتّساعهما عند مجيء السيّارة، وعيناه نحو السماء، وحاول أن يرتفع في الهواء، كان ذلك كل شيء.

أو تقريباً.

لم يستطع مسيو بيريكور أن يتوقّف. لكنْ كان يمكن له أن يكبح السيّارة. أصابه الشلل من تلك الرؤية المروّعة التي انبثقت من لا مكان. لم ير ملاكاً بلباس كولونياليّ، إنّما وجه إدوار، ابنه، سالماً، جامداً، متحوّلاً إلى تمثالٍ مثل قناعٍ ميّتٍ، تعبّر عيناه المثنيّتان عن دهشةٍ كبيرة. لم يصدر عنه أي ردّ فعل.

السيّارة هي التي صدمت الشابّ بقوّةٍ هائلة.

الضجّة التي صدرت كانت مكتومةً، جنائزيّة.

عندها، طار الملاك فعليّاً.

انقذف إدوار في الهواء، ومع أنّ طيرانه كان يفتقد إلى الرشاقة مثل طيّارةٍ تنطلق مرتخية، فقد رأى الجميع بوضوحٍ، ولبرهةٍ قصيرةٍ جدّاً، جسدَ الشابّ متقوّساً، ونظره متّجهاً نحو السماء، وذراعاه مفتوحتين على اتّساعهما كما لو كان يصعد نحو السماء، ثمّ وقع وتحطّم على الأرض، ضربت جمجمته طرف الرصيف، وهذا كلّ شيء.

صعد ألبير وبولين إلى القطار قبل الساعة الثانية عشرة بثوان. كانا أوّل مسافرين يدخلان، أمطرته بالأسئلة التي كان يجيب عنها ببساطة.

عندما تسمع ألبير يبدو الواقع ملطّفاً لا غبار عليه.

كانت بولين بين لحظةٍ وأخرى ترمي نظرةً على الحقيبة التي وضعتها مقابلها، على رفّ الحقائب.

أمّا ألبير، فكان يشدّ بقوّةٍ على ركبتيه كرتونة القبّعات الكبيرة التي تحتوي على رأس الحصان.

- «لكن من هو صديقك هذا إذن؟». همست بفضول.

- «رفيق...». أجاب متهرّباً من الإجابة.

لم تكن لديه الطاقة الضروريّة لكي يصفه. سوف ترى ذلك. ما كان يريدها أن تخاف، وأن تهرب، وأن تتخلّى عنه الآن، لأنّ كل قواه قد خارت. كان منهكاً إلى حدّ التلاشي. فبعد الاعتراف لها، سيارة الأجرة، المحطّة، البطاقات، الحمّالين، المراقب، بولين هي التي اهتمّت بكلّ شيء؛ أمّا ألبير، فلو كان بمقدوره، لكان نام مباشرةً، هناك.

مرّ الوقت.

صعد مسافرون آخرون. امتلأ القطار. بدأت رقصة الحقائب والصناديق التي تُرفع من النوافذ. صرخات الأطفال، حمّى الرحيل، الأصدقاء، الأزواج، الأهل على الرصيف، التوصيات، هناك من يبحث عن مكانه، هه، إنّه هنا، هل تسمح؟

كان ألبير قد جلس عند النافذة المفتوحة تماماً، ورأسه منحنٍ جهة الرصيف، ويستدير نحو مؤخّرة القطار. كان يشبه كلباً يترقب مجيء سيّده.

هناك من دفعه ليمرّ إلى الممرّ جانبيّاً؛ لأنّه كان يضايق. امتلأت العربة، لم يبق سوى كرسيّ واحد غير مشغول، هو كرسيّ الرفيق الذي لم يصل.

قبل ساعة الرحيل بكثير، فهم ألبير أن إدوار لن يأتي. كان مُثقلاً بألمٍ واسع.

بولين التي تفهّمت، التصقت به وشدّت بيديها على يديه.

عندما بدأ المفتّشون يسيرون على طول الرصيف، وهم يصرخون بأنّ الرحلة ستنطلق، وأنّه يجب الابتعاد عن القطار، بدأ ألبير يبكي، ورأسه منخفض. من المستحيل أن يتوقّف!

قلبه قد انفطر.

ستروي مدام مايار فيما بعد: «لقد أراد ألبير الذهاب إلى المستعمرات، أجل، وهذا جيّد. لكنْ إن فعل هناك ما كان يفعله هنا، وبدأ يتباكى أمام السكّان الأصليّين، فإنّه لن يصل إلى أيّ شيء. اسمعوا كلامي أنا! لكنْ في النهاية، هذا هو ألبير. ماذا تريدون؟ إنّه هكذا».

خاتمة

بعد ذلك بيومين، في السادس عشر من يوليو، في الساعة الثامنة صباحاً، فهم هنري دولناي براديل أنّ عمّه قد لعب الضربة الأخيرة من اللعبة. كش مات. كان يمكن أن يقتله لو استطاع.

استجوب في مقرّ إقامته. ثقل التّهم الموجّهة إليه جعلت العدالة تحكم بوضعه مباشرةً قيد الاعتقال المؤقّت، ولم يخرج سوى من أجل حضور محاكمته التي بدأت في مارس 1923. حُكم عليه بخمس سنوات سجن من بينها ثلاث سنوات غير قابلةٍ للطعن، وترك المحكمة حرّاً، لكنّه مفلس.

خلال هذا الوقت كانت مادلين قد نالت الطلاق الذي سمحت علاقات أبيها بالتعجيل به.

أملاك هنري في لا سالوفيير حُجز عليها، وجميع الأملاك الخاصّة به وُضعت تحت حراسة قضائيّة. بعد صدور الحكم، وبعد أن اقتُطع المبلغ المتوجّب عليه سداده، والمخالفات، ونفقات المحكمة، لم يتبقّ له الشيء الكثير، فقط بعض الأملاك القليلة. وقد صمّت الدولة آذانها عن طلبات الاسترحام جميعها التي قدّمها لاستعادة أملاكه. بعد أن أنهك، وفقد الأمل في ربح المعركة، رفع هنري في عام 1926 قضيّةً جديدةً بدّد فيها القليل الذي كان ما يزال يملكه من مال بدون أن يصل إلى ربح الدعوى.

اضطرّ إلى أن يعيش حياةً متواضعةً جدّاً، ومات وحيداً في عام 1961، وهو في الواحدة والسبعين من عمره.

عهد بقصر لاسالوفيير إلى جمعيّةٍ تقع تحت وصاية الهيئة الحكوميّة لدعم المحتاجين، وحُوّل إلى مركز أيتام، وظلّ كذلك حتّى عام 1973، وهو التاريخ الذي أثيرت فيه فضيحة قذرة عنه من المؤلم ذكرها. أُغلِقت المؤسّسة. بعدها، كان من الضروريّ القيام بكثير من الإصلاحات من أجل متابعة استثمار المكان. بيع القصرُ إلى جمعيّةٍ متخصّصةٍ بالمؤتمرات والندوات. وهناك في أكتوبر 1987 عُقدت ندوةٌ تاريخيّةٌ رائعةٌ عنوانها: «14–18 – تجارة الحرب».

وضعت مادلين وليداً ذكراً في أوّل أكتوبر 1920. وعلى العكس من العادة المتّبعة في ذلك الوقت، والتي يرغب فيها الناس بإطلاق أسماء أقاربهم الذين ماتوا في الحرب على أولادهم، رفضت مادلين أن تعطي اسم إدوار لابنها، وكان تعليقها: «يكفي أنّ لديه أباً إشكاليّاً، دعونا لا نضيف إشكالاً آخر».

مسيو بيريكور لم يقل شيئاً، فقد فهم أشياء كثيرة بعدها.

لم تكن لابن مادلين علاقات وثيقة مع أبيه قطّ، ولم يُسدّد نفقات دعاويه. وافق فقط على أن يقدّم له معاشات متواضعة، وعلى أن يذهب لزيارته مرّة في السنة. وفي واحدةٍ من هذه اللّقاءات السنويّة في عام 1961، اكتشفه جثّة هامدة؛ كان أبوه قد مات منذ أسبوعين.

صدر القرار بسرعة بعدم مسؤوليّة مسيو بيريكور عن موت إدوار. كلّ

الشهود أكّدوا أنّ الشابّ قد رمى نفسه تحت عجلات السيّارة، ما ألقى ظلالاً أكثر قتامةً على حجم هذه المصادفة المذهلة التي يصعب تصديقها.

راح مسيو بيريكور يعيد ويستعيد بلا هوادة الظروف التي تمّت فيها هذه النهاية الدراماتيكيّة. فكرة أنّ ابنه كان حيّاً خلال كل تلك الشهور التي تمنّى فيها أن يضمّه إليه للمرّة الأولى من حياته، أغرقته في حالةٍ كاملةٍ من اليأس.

كما أنّه لم يستطع أن يفهم كميّة المصادفات التي تضافرت لكي يأتي إدوار ليموت تحت عجلات سيّارةٍ كان بالكاد يقودها ما لا يزيد على أربع مرّات في السنة. واضطرّ أن يقبل على نحوٍ بديهيّ أنّه لا يمكن تفسير ذلك. لا توجد أيّة مصادفة في هذه الحادثة، بل تراجيديا، وخاتمتها، هي تلك التي حصلت، أو واحدة أخرى كان من المحتّم أن تحصل؛ لأنّها مكتوبة بيد القدر من زمنٍ بعيد.

استعاد مسيو بيريكور جسد ابنه، ودفنه في المدفن العائليّ، وحفر على الحجر: «إدوار بيريكور، 1895 – 1920».

سدّد كلّ ما دفعه المكتتبون الذين سُلبوا. وما يثير الدهشة أنّه في حين كان مقدار التزوير مليوناً ومئتي ألف فرنك، فإنّ المبلغ الذي قُدّمتْ إثباتات عنه بلغ مليوناً وأربعمئة وثلاثين ألف فرنك. هناك محتالون في كلّ مكان. غضّ مسيو بيريكور بصره عن الأمر ودفع.

تخلّى بالتدريج عن أعبائه المهنيّة، وتخلّص من الأعمال، وباع أشياء كثيرة، ووضع أملاكاً باسم ابنته وحفيده.

في كلّ ما تبقّى من حياته، ظلّ يرى أمامه نظرة إدوار في اللّحظة التي دفعته فيها السيّارة نحو السماء. حاول كثيراً أن يصف تلك اللحظة، يمكن قراءة الفرح فيها، أجل، الفرح والارتياح كذلك... وشيء آخر أيضاً.

وفي يومٍ من الأيّام جاءت إلى ذهنه الكلمة التي يبحث عنها: العرفان.

كان ذلك محض خيالٍ حتماً، لكنْ عندما تكون لديك فكرة كهذه في رأسك، كيف تستطيع التخلّص منها...؟

وجد هذه الكلمة في أحد أيّام فبراير 1927 خلال وجبة الطعام. عندما قام عن الطاولة، قبّل مادلين على جبينها كالعادة، صعد إلى غرفته، استلقى ومات.

ألبير وبولين وصلا إلى طرابلس، ثمّ أقاما في بيروت التي تقع في قلب لبنان الكبير الذي كان واعداً. أطلقتْ مذكّرة ضدّ ألبير مايار.

أمّا لوي إيفرار، فقد وجد بسهولةٍ أوراقاً ثبوتيّة اشتراها بثلاثين ألف فرنك، وهو ما وجدت بولين أنّه مبلغٌ مرتفعٌ للغاية.

ظلّت تساوم حتّى وصلت إلى أربع وعشرين ألفاً.

عندما شعرت مدام بيلمون باقتراب أجلها، تركت لابنتها البيت العائليّ في حارة بيرس المسدودة، والذي كان قد فقد كثيراً من قيمته بسبب عدم القيام بأعمال الصيانة. من جانبٍ آخر، تلقّت لويز من كاتب العدل مبلغاً كبيراً ودفتراً كانت أمّها قد سجّلت عليه بكلّ دقّة العمليّات والدفعات التي تمّت باسمها بدون أن تغفل أيّ سنتيم فيها. واكتشفت لويز عندها أنّ رأس المال هذا يتألّف من مبالغ كان كل من ألبير وإدوار قد تركاها لها (أربعون ألف فرنك من أحدهما، وستّون ألفاً من الآخر).

لم يكن مسار لويز متميّزاً جدّاً، على الأقلّ حتّى عُثر عليها في بداية سنوات الأربعينيّات.

بقي عندنا جوزيف ميرلان الذي لم يفكّر به أحد.

بما فيه أنتم، حتماً.

لا تقلقوا! في حياة جوزيف ميرلان هناك شيء ثابت: الناس ينفرون منه، وبمجرّد أن يختفي ينسونه. عندما يأتي ذكره في أيّ شيء، يثير ذلك ذكريات مقيتة فقط.

كان قد أمضى ليلة كاملة يلصق القطع النقديّة التي قدّمها له هنري دولناي براديل على أوراقٍ كبيرةٍ بمساعدة الورق اللاصق. كل ورقة منها كانت قطعة من تاريخه، من إخفاقه، وأنتم تعرفون كلّ ذلك بلا شك.

فبعد أن قدّم هذا التقرير المتفجّر الذي لعب دوراً كبيراً في إدانة هنري، دخل ميرلان في حالة سباتٍ شتويّ. سيرته المهنيّة قد انتهت، وحياته أيضا كما ظنّ، لكنّه كان مخطئاً.

أُحيل إلى التقاعد في 29 يناير 1921 بعد أن نُقل من قسمٍ إلى قسم. فالضربة التي وجّهها إلى الدولة عبر تقريره وتفتيشه في المقابر تبيّن أنّها صحيحة، لكنّ ذلك كان بلا فائدة. أشياء كهذه لا يمكن تقديم أعذار لها. يا للفضيحة! في الأزمنة القديمة، كان حامل الأنباء السيّئة يعاقب بالرجم. بدلاً من ذلك، كان ميرلان في كلّ صباح يذهب إلى الوزارة بدون أيّ تأخير. زملاؤه كلّهم كانوا يتساءلون عمّا كان يمكن أن يفعلوه هُم بالمبلغ الذي يعادل عشر سنواتٍ من المعاش. كرهوا ميرلان كثيراً، خاصّةً أنّه لم يحتفظ لنفسه حتّى بعشرين فرنكاً منها لكي يلمّع حذاءه، وينظّف بدلته الممتلئة بالحبر، أو يشتري لنفسه طقم أسنان جديداً.

وهكذا، في يوم 29 يناير 1921 خرج من الوظيفة. تقاعد، والمعاش الذي حصل عليه بموجب رتبته الوظيفيّة كان قريباً ممّا تناله بولين من إكراميّات في عائلة بيريكور.

لفترةٍ طويلةٍ ظلّ ميرلان يقلّب ذكرى تلك اللّيلة التي تخلّى فيها عن الثروة لصالح شيءٍ أقلّ قيمةً، لكنّه أخلاقيٌّ، على الرغم من أنّه لم يكن يحبّ الكلمات الكبيرة. بعد أن تقاعد، ظلّت مسألة الجنود الذين أخرجوا من قبورهم تحرّك مشاعره. كان يجب أن يتقاعد لكي يهتمّ بالعالم، ويبدأ بقراءة الجرائد. ومن الجرائد علم بإيقاف هنري دولني براديل والدعوى الشهيرة لأولئك الذين أُطلق عليهم اسم «تجّار الموت». قرأ بكثيرٍ من الرضى التقرير عن إفادته أمام المحكمة. لم يكن فيه مديح لما قام به لأنّ الصحفيّين لم يحبّوا هذا الشاهد الكئيب بمظهره شديد البشاعة، والذي كان يدفعهم على درجات قصر العدل عندما يحاولون طرح الأسئلة عليه.

بعدها، وبعد أن اختفت القصّة من الأحداث الراهنة، لم يعد هناك أحد يهتمّ بتلك المسألة على الإطلاق.

ما تبقّى هو التكريم، الشهداء، المجد، الوطن. ميرلان الذي كان مدفوعاً بواجبٍ لا أحد يعرف كنهه، استمرّ في قراءة الجرائد اليوميّة. ما كانت لديه الإمكانات لشراء عدّة جرائد في كلّ صباح، ولذلك كان يذهب إلى أمكنةٍ متنوّعة: مكتبات، مقاهٍ، بهو الفنادق حيث يستطيع أن يطّلع عليها مجّاناً. في هذه الجرائد وجد في سبتمبر 1925 إعلاناً صغيراً أجاب عنه. كان طلب توظيف حارس في المقبرة العسكريّة في سان سوفور. قابلوه، أظهر لهم سجلّ خدماته، فاستُخدِم.

خلال سنواتٍ طويلةٍ، إن مررت بسان سوفور، سواء كان الطقس جميلًا أم بشعاً، لا بدّ لك من أن تراه يغرز بضرباتٍ كبيرةٍ من حذائه الرفش في التراب الذي أثقلته الأمطار، وذلك لكي يعتني بالأرضيّة وبالممرّات.

كوربوفوا، أكتوبر 2012

وفي النهاية...

كلّ أولئك الذين أرغب بشكرهم هنا لا يتحمّلون أيّة مسؤوليّةٍ عن عدم تطابق روايتي مع «القصّة الحقيقيّة» التي أتحمّل مسؤوليّتها أنا وحْدي.

خدعة صروح الشهداء حسب علمي قصّة مُختلقة. خطرت فكرتها على بالي، وأنا أقرأ المقال الشهير لأنطوان بروست حول صروح الشهداء[1]. بالمقابل، فإنّ مسألة الاختلاسات التي نُسبت إلى هنري دولني براديل استقيت معظمها من «فضيحة نبش المقابر العسكريّة» التي اندلعت في عام 1922، وقُدِّمَتْ وحُلّلتْ في مؤلَّفَين ممتازين لبياتريكس بو- هويير[2]&[3]. وهكذا فإنّ أحد الوقائع حقيقيّ، والثاني لا، وكان يمكن أن يكون العكس صحيحاً.

لقد قرأتُ جيّداً مؤلّفات آنيت بيكير، وستيفان أودوان روزو، وجان

---

(1) «صروح الشهداء، طقوس جمهوريّة؟ طقوس مدنيّة؟ أم طقوس وطنيّة؟» في كتاب بيير نورا، «أماكن الذاكرة»، الجزء 1، باريس، غاليمار، 1984.

(2) التنديد بفضيحة نبش المقابر العسكريّة في الصحافة الفرنسيّة في سنوات العشرينيّات، وسائل الإعلام والحرب، بإشراف هيرفيه كوتو-بيغاري، باريس، ايكونوميكا 2005.

(3) «صفقة التوابيت» (1918-1924)، في ميلانج مجلة تاريخ الجيوش، 2001.

جاك بيكير، وفريديريك روسو، وكانت الإضاءات والتحليلات التي فيها مهمّة جدّاً بالنسبة إلي.

وإنّني ممتنٌّ على نحوٍ خاصٍّ طبعاً إلى برونو كابان، ومؤلّفه الرائع: **النصر المغلّف بالحداد**[1].

إنّ رواية **إلى اللّقاء في الأعالي** تدين بالشيء الكثير إلى الأدب الروائيّ الذي صدر في فترة ما بعد الحرب، من هنري باربوس إلى موريس جونوفوا، ومن جول رومان إلى غابرييل شوفالييه. وهناك روايتان كانتا مفيدتين على نحوٍ خاصٍّ بالنسبة إليّ، هما: **استيقاظ الأموات**[2] لرولان دورجوليه، و**عودة أوليس**[3] لـ ج. فالمي-بايس.

لا أعلم ما كان يمكن أن أصير لولا خدمات غاليكا[4] التي لا تقدّر بثمن؛ وكذلك مقتنيات **آركاد وميريمه**[5] في وزارة الثقافة، وعلى الأخصّ، أمناء المكتبة في المكتبة الوطنيّة الذين أشكرهم بالفعل شكراً حارّاً.

وأنا أدين أيضاً إلى آلان شوبار[6] الذي استفدت كثيراً من حصره المدهش لصروح الشهداء، وأشكره أيضاً لمساعدته ولاستقباله.

يجب أيضاً أن أفسح بالطبع مكاناً لأولئك الذين قدّموا لي مساعدتهم طيلة فترة عملي: جان كلود هانول؛ لانطباعاته الأولى وتشجيعه، وفيرونيك جيرار التي كانت تشير دائماً إلى النقاط الجوهريّة بكثيرٍ من اللّطف،

(1) النصر المغلف بالحداد، منشورات سوي، «العالم التاريخي»، 2004.

(2) استيقاظ الأموات، ألبان ميشيل، باريس، 1923.

(3) عودة أوليس، منشورات ألبان ميشيل، باريس، 1921.

(4) http://www.gallica.bnf.fr/

(5) http://www.culture.gouv.fr/culture/inventai/patrimoine/

(6) http://www.monumentsauxmorts.fr

وجيرالد أوبير من أجل قراءاته الصائبة، ونصائحه، وصداقته، وتييري بيار الذي أعاد القراءة بكلّ انتباهٍ وكرم. أصدقائي: ناتالي، وبرنار جانسان لم يبخلا عليّ بوقتهما، وكانت تحليلاتهما وملحوظاتهما خصبة للغاية، وهما يستحقّان بلا شكّ أن أشيد بهما هنا على نحوٍ خاصّ، تماماً مثل باسكالين.

في هذا الموقع، أو ذاك على امتداد النصّ، استقيت أشياءً من بعض المؤلّفين: إميل آجار، لوي آراغون، جيرال أوبير، ميشيل أوديار، هوميروس، هونوري دو بلزاك، إنغمار بيرغمان، جورج بيرنانوس، جورج براسنس، ستيفن كران، جان لوي كورتيس، دوني ديدرو، جان لوي ايزين، غابريل غارسيا ماركيز، فيكتور هوغو، كازو إيشيغورو، كارسن ماكالرز، جول ميشليه، أنطونيو مونيوث مولينا، أنطوان فرانسوا بريفو، مارسيل بروست، باتريك رامبو، لا روشفوكو، وغيرهم.

فليعدّوا ما استدنته منهم نوعاً من الإشادة بهم.

شخصيّة جوزيف ميرلان[1] مستوحاة بتصرّف من شخصيّة كريبور، وشخصيّة أنطونابولوس[2] مستوحاة من الشخصيّة التي تحمل الاسم نفسه، وهما الاثنان يدلّان على مودّتي وإعجابي بلوي غييو، وكارسن ماكالرز.

يجب أن أعبّر أيضاً عن شكري واعترافي بجميل كلّ فريق دار نشر

---

(1) في رواية الدم الأسود للويس غييو، فرانسوا ميرلان أستاذ فلسفة، لقّبه طلاّبه باسم كريبور. وهو شخصيّة يهزأ بها الجميع، لكنّها تحمل في داخلها استقامة ونزاهة. (المترجمة).

(2) في رواية «القلب صياد وحيد» للمؤلفة الأميركية كارسن ماكالرز، هناك شخصيّة سبيروس أنطونابولوس الذي ينحدر من أصولٍ يونانيّةٍ، وتربطه علاقة وثيقة مع جون سينغر. يعيش الاثنان معاً حتّى يصاب أنطونابولوس بالجنون، وتزداد تصرّفاته سوءاً، ويودع في مصحٍّ عقليّ على الرغم من كل المحاولات التي يقوم بها جون سينغر لمنع ذلك. (المترجمة).

آلبان ميشيل. يجب أن أذكر الجميع، وعلى رأسهم الصديق بيير سكيبيون، الذي أدين له بالكثير.

يمكن في النهاية أن أذكر أنّ مشاعري الجيّاشة بالعاطفة تتّجه نحو المسكين جان بلانشار الذي قدّم لي بدون أن يعلم عنوان هذه الرواية، فقد أُعدِم بالرصاص بسبب الخيانة في الرابع من ديسمبر 1914 وأُعيد الاعتبار إليه في التاسع والعشرين من يناير 1921.

وسأظلّ أتذكّر على نحوٍ عام جميع الشهداء من جميع الجنسيّات الذين ماتوا في حرب 14-18.

مكتبة
t.me/soramnqraa

بيير لوميتر

كاتبٌ وسيناريست فرنسيّ، ولد في 19 نيسان/ أبريل 1951 في باريس.

تنوّعت أعماله بين الرواية، والقصص القصيرة، والكوميكس، والأعمال غير الروائيّة، وكتب للسينما والتلفزيون. عُيّن عام 2015 سفيراً لمنظّمة الإغاثة الشعبيّة الفرنسيّة.

تفرّغ للكتابة في الخمسينيّات من عمره بعد سنواتٍ قضاها مدرّباً ومقدّم دوراتٍ ثقافيّةٍ عامّةٍ وندوات. وافتتح مسيرته الروائيّة -بسبب شغفه بروايات الجريمة- بسلسلةٍ من الروايات البوليسيّة بدأها عام 2006، اشتهرت ببطلها، الشخصيّة الخياليّة كميل فيرهوفن، وهي معروفة باسم «سلسلة كميل فيرهوفن»، وتحوّل أكثرها إلى أفلام.

نالت أعمال لوميتر في عالم الجريمة ثماني جوائز، أبرزها: جائزة الخنجر الذهبيّ من رابطة كتّاب الجريمة CWA مرّتين على التوالي، في عامَي: 2015 و2016.

حاز جائزة غونكور للرواية عام 2013 عن روايته الأولى غير البوليسيّة «إلى اللقاء في الأعالي»، ونال على الرواية نفسها جائزة سيزار لأفضل إعدادٍ للسينما من أكاديميّة الفنون والتقنيّات السينمائيّة الفرنسيّة بالشراكة مع ألبير دوبونتيل، وجائزة أفضل رواية فرنسيّة من مجلّة لير Lire.

تُرجمت أعمال لوميتر إلى أكثر من أربعين لغة.

حنان قصّاب حسن

أستاذة جامعيّة، وفاعلة ثقافيّة، ومُترجِمة، إلى جانب تدريسها المسرح في جامعة دمشق، وجامعة القدّيس يوسُف ببيروت، حيث أشرفت على عددٍ من رسائل الماجستير وأُطروحات الدّكتوراه.

أدارت حنان قصّاب حسن احتفاليّة دمشق عاصمة الثّقافة العربيّة لعام 2008، وشغلتْ منصب عميد المعهد العالي للفنون المسرحيّة بدمشق، والمدير العامّ لدار الأوبرا بدمشق، إضافةً إلى ذلك، كانت عضواً في مؤسّساتٍ ثقافيّةٍ عالميّةٍ، مثل: المجلس الثّقافي للاتّحاد من أجل المتوسّط بباريس، ومؤسّسة روبرتو شيميتا لدَعم تجوال الفنّانين في منطقة المتوسّط، والمركز العربيّ للتّدريب المسرحيّ، والصّندوق العربيّ لشباب المسرح العربيّ، وغيرها.

عملتْ مع اليونسكو بصفتها خبيرةً خارجيّةً، وعضواً في لِجان تقييم مشاريعَ ثقافيّةٍ.

أخرجتْ مسرحيّتين، وأدارت ورشات عملٍ حول سيميولوجيا المسرح والفنون في كثيرٍ من المؤسّسات الثّقافيّة والمهرجانات.

لها مؤلّفاتٌ في المسرح، أهمّها: المُعجم المسرحيّ، مُصطلحات ومفاهيم المسرح، وفنون العرض (بالمشاركة)، كما أنّ لها عدداً كبيراً من التّرجمات لأبحاثٍ ودراساتٍ ثقافيّةٍ، ومسرحيّات لجان جينيه، وكولتيس، وبيكيت، وسعد الله ونّوس.

حصلت على ثلاثة أوسمةٍ ثقافيّةٍ من فرنسا، وخُصّص لها مُدخلٌ في مُعجم النّساء المبدعات الصّادر في فرنسا.

صدر بترجمتها لدى دار ممدوح عدوان للنشر والتوزيع: «البرازيل الحمراء»، جان كريستوف روفان، 2020.

توابيتُ أقصر من الجثث، صروحٌ مذهلةٌ تباع بأسعارٍ مغريةٍ من قِبل شركةٍ وهميّةٍ، وزاراتٌ، ومؤسّساتٌ، وبلديّاتٌ تتسابق لتخليد القتلى، بينما الناجون يتسوّلون في الشوارع؛ هكذا تبدو فرنسا بعد الحرب العظمى في هذه الرواية.

بأسلوبه الساخر واللّاذع، يأخذنا لوميتر في رحلةٍ عبر هذا التناقض الصارخ. نتعرّف على جنودٍ في الخنادق يتساءلون عن جدوى الموت في الأيّام الأخيرة من الحرب، وضابطٍ يسعى إلى معركةٍ أخيرةٍ لجمع المزيد من الأوسمة، وتجّار الحرب الذين يفصّلون الجثث على مقاسات القبور، وناجيَيْن يحملان ندوباً عميقة في جسديهما وروحيهما، يخطّطان لعمليّة احتيالٍ جريئةٍ للانتقام من المجتمع الذي تخلّى عنهما.

"إلى اللّقاء في الأعالي" هي أكثر من مجرّد رواية، هي صرخةٌ مدوّيةٌ في وجه الظلم، ومحاكمةٌ أدبيّةٌ رفيعة المستوى لمجتمعٍ يعشق تقديس الموتى، ويتجاهل معاناة الأحياء.

حازت الرواية جائزة غونكور المرموقة، وترشّحت للعديد من الجوائز الأدبيّة، وحوّلها مؤلّفها إلى فيلمٍ سينمائيٍّ حصد جائزة سيزار لأفضل سيناريو.

مكتبة
t.me/soramnqraa

ISBN 978-9933-701-01-7
9 789933 701017
CNL CENTRE NATIONAL DU LIVRE
دار ممدوح عدوان للنشر والتوزيع